محمود مقديش

نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار

تحقيق

علي الزواري
محمد محفوظ

المجلد الثاني


دار الغرب الإسلامي

نُزهَةُ الأَنظَارِ

فِي عَجَائِبِ التَّوَارِيخِ وَالأَخْبَارِ

الطبعة الأولى
1988



دار الغرب الإسلامي
ص. ب: 113/5787
بيروت - لبنان

المقالة الحادية عشرة

في ذكر دولة آل عثمان
وفيها ثلاثة أبواب

الباب الأول
في ذكر سلاطينهم لوقت التاريخ

بداية الدولة العثمانية :

وأصلهم من التراكمة[1] الرحالة النزالة[2] (وهم طائفة من التتار)[3] وأوّل من تولّى منهم السَّلطنة[4] في بلاد الرُّوم ونُسبوا إليه السُّلطان عُثمان - رحمه الله تعالى - ابن أرطغرل[5]، إبن سليمان شاه، ويتصل نسبه إلى يافث إبن نوح - عليه السَّلام - وهو تمام [الجد][6] الأربعين لحضرة سلطاننا[7] السُّلطان سليم خان (الذي فتح مصر من يد

1) النقل من الإعلام بأعلام بيت الله الحرام للنهروالي بتصرف، ص 250.

2) كذا في ط والنهروالي، وفي ش وب وت: «النازلة».

3) ما بين قوسين ساقط من ط. وتتار تكتب أيضًا تتر وتاتار، دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة العربية 210/9.

4) في ش: «السلطنية».

5) كذا في ط وبروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية 13/3، ومحمد فريد بيك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية ص 115، وفي ش وب: «الطغرل»، وفي ت: «أرطغل».

6) إضافة من الإعلام.

7) إن يقصد سلطان عصره فهو سليم خان الثالث، ولا يتماشى ذلك مع ما سيأتي إذ أن الذي دخل مصر وتملكها هو سليم خان الأول بن بايزيد، ولي السلطنة: 918 - 1512/927 - 1520.

الغُوري)[8] ، وكان[9] توليه السلطنة[10] في بلاد الروم سنة تسع وتسعين وستمائة[11] ، وإنما لم نذكر أسماء أجداده لأنها أسماء غير عربية يعسر ضبطها ، فلذا قال الأزرقي[12] : «لما كانت أسماؤهم بلغة الترك القديمة لم نذكرها لعسر ضبطها ، وهي مذكورة في التواريخ التركية ، وكان سليمان شاه سلطانًا في المشرق ببلاد ماهان[13] قرب بلخ ، فلما ظهر جنكز[14] خان – المقدم الذكر – في آخر دولة بني العباس أخرب[15] بلاد بلخ ، وأخرج منها السُّلطان علاء الدين[16] خوارزم شاه ، وتفرقت[17] أهل تلك الممالك ، وخرج / [1/ب] سليمان شاه من بلاد ماهان[13] بمن معه من التركمان إلى أرض الروم ومرّ بحلب ، وعبر من[18] بحر الفرات ، فغرق بفرسه في الفرات[19] وسار إلى عفو الله تعالى – رحمه الله –

---

8) هو الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين قانصوه الغوري الظاهري الأشرفي أصله من مماليك الأشرف الظاهر خشقدم ، ثم انتقل إلى الأشرف قائد باي ، تولى السلطنة بمصر 906 – 1501/922 – 1516 م ، التقت جيوشه مع جيوش سليم الأول في واد يقال له مرج دابق قرب حلب من بلاد الشام وهزم الغوري وقتل ، وتولى بعده على مصر طومان باي الذي هزمه سليم قرب القاهرة في محرم 923 / جانفي 1517 م وشنق طومان باي فكان آخر سلاطين المماليك بمصر. وما بين القوسين إضافة من المؤلف عما في الإعلام.

9) يقصد السلطان عثمان.

10) في ش : «السلطنية».

11) 1299 – 1300 م.

12) كذا في الأصول ، والصحيح النهروالي لأن أبا الوليد الأزرقي محمّد بن عبد الله بن أحمد صاحب أخبار مكّة توفي قبل قيام الدّولة العثمانية بقرون ، إذ أنّه توفي نحو سنة 250 / 865 ، وقطب الدين النهروالي محمد بن أحمد بن محمد (917 – 990 / 1511 – 1582) أو توفي 988 / 1580 م. من أهل مكّة ، المحدث المؤرخ الأديب ، فمن المقبول والمعقول أن يتحدث عن سلاطين الدولة العثمانية ، وذلك في كتابه المطبوع «الإعلام بأعلام بيت الله الحرام» ، ويظهر أن الذي أوقع المؤلف في الخطأ أنه ربما كان يملك مجلدًا في أوله أخبار مكّة للأزرقي ثم بعده كتاب النهروالي فظنهما كتابًا واحدًا ، وهذا يدلّ على قصور في معرفة التراجم إذ لو كان يعرف تاريخ وفاة الأزرقي لتحامى من الوقوع في مثل هذا الخطأ الفاحش.

13) في ش وط وب : «ماهرة» وفي ت : «قاهرة» والمثبت من الإعلام ص 250 ومعجم البلدان 48/5. قال عنها ياقوت : «مدينة بكرمان». والعرب تسميها بالجمع فتقول «الماهات» قال القعقاع بن عمرو:

[الطويل]

جدعت في الماهات أنف فارس بكل فتى من صلب فارس خادر

14) أثبتناها كما في الجزء الأول من هذا الكتاب ، وفي الأصول : «جنكر» وفي الإعلام «جنكيز».

15) في الأصول : «قرب» والمثبت من الإعلام ص 251.

16) في ش وب : «علاي الدين».

17) في الأصول : «تفرقت».

18) في ت : «على بحر الفرات» وفي الإعلام : «عبر بحر الفرات».

19) كذا في ب وت والإعلام ص 251 ، وفي ش وط : «بحر الفرات».

وتفرق من معه من التركمان في تلك البلاد ، وذراريهم باقون رحالون نزالون إلى الآن ، وكان لسليمان شاه أربعة أولاد اثنان منهم توجها لبلاد العجم [وهما] سُنْقَر[20] ودينذار[21] ، وتوجه[22] الباقيان وهما أرطغرل[23] وكون دوغدي[24] إلى بلاد الرُّوم ، فقدما على السُّلطان علاء الدّين السَّلجوقي ، وكان إذ ذاك سلطان قرمان ، وتحت ملكه قونية ، فأكرم نزلهما[25] وأذن لهما بالإقامة في أرضه فاستأذناه في جهاد الكفار ، واجتمع عليهما من التراكمة طائفة من الغزاة[26] ، فصار دأبهم الجهاد في سبيل الله ، وكان مقرّهم ما بين قره[27] حصار وبليجك[28] في محل يقال له سكوتجك[29] صيَّروه ملتقى لهم (وجبل أيلاتيج[30] جعلوه مُلْتقى لهم أيضًا)[31] فسكنوهما مع مواصلة الجهاد والغزو حول[32] تلك البلاد إلى أن توفي أرطغرل في سنة تسع وثمانين وستمائة[33]. وخلَّف أولادًا أنجادًا أشدُّهم وأقواهم جأشًا وبأسًا السُّلطان عثمان. وكان مولده سنة ست وخمسين[34] وستمائة ، دَأَب مع والده في الجهاد في سبيل الله ، فاستمرَّ بعده على قتال الكفار ، فرآى السُّلطان علاء[35] الدّين /[36] [جدَّه وجُهْده في الجهاد وعَلِمَ قابليته وَنَجَابَتَه في فتح [2/ب]

20) في الأصول : «سنقرد» والمثبت من الإعلام.
21) في الأصول : «روبندار» والمثبت من الإعلام.
22) كذا في ط وب والإعلام ، وفي ش وت : «توجها».
23) كذا في ط وفي بقية الأصول محرفة.
24) في الأصول : «كوز دوغدي» والمثبت من الإعلام.
25) في ش : «نزالهما».
26) في ش وت : «الغزات».
27) في ش : «قرة حصار» ، وفي ب وت : «كرة حصار» ، وفي ط : «كره حصار» والمثبت من الإعلام ص 251 وتاريخ الدّولة العلية ص 118 وتوجد أماكن في تركيا باسم قره حصار أي القلعة السوداء ، والمكان المقصود هنا هو بلدة أفيون قره حصار القريبة من قونية.
28) في الأصول : «بلجة» والتصويب من الإعلام ص 251.
29) بالكاف الفارسية كالجيم المصرية.
30) في ش : «أيتاليج» والتصويب من الإعلام.
31) ما بين القوسين ساقط من ط وت وب ، وفي الإعلام : «وجبل أيلاتيج صيروه ملتقى لهم أيضًا» ص 251.
32) في الأصول : «وحول».
33) 1290 م.
34) في الأصول : «سنة 659» والتصويب من الإعلام ، ويقابله بالميلادي 1258 م.
35) في ش : «علاي الدين».
36) بعدها في ش بياض 2/3 صفحة [2 – أ] وفي بقية الأصول ، الكلام بعدها مسترسل.

أطراف تلك البلاد ، فأكرمه وأعزّه وأمدّه بأنواع الإعانة والإمداد ، وأرسل إليه الرّاية السُّلطانيّة ، والطّبل والزمر ووسمه بإسم السّلطنة تقوية ليده وشدّا لعضُده. فلمّا وصل الطّبل والزّمر إليه عَمِلوا نوبة بين يديه ، فعند أول سماعه صوت الطّبل والزّمر قام على قدميه تعظيمًا لذلك ، فصار ذلك قانونًا لآل عثمان باقيًا مستمرًّا إلى الآن ، فإنهم يقومون على أقدامهم عند ضرب النوبة على أبوابهم][37].

السُّلطان أورخان :

[ثم ولي بعده إبنه السُّلطان أورخان الغازي في سنة 726[38] ، وكان السُّلطان أورخان فاق والده في الجهاد ، وكان له ولد نجيب إستأذن من والده أن يعدى إلى روميلي ويقاتل الكفّار مع خدّامه ، فعدوا إلى روميلي][39] فصادفوا الكفّار في غفلة ، وهم يريدون العبور إلى جهة أَنَاضول[40] ، فوقع حرب عظيم قُتل فيه من الكفّار ما لا يُعَدُّ ولا يحصى ، وانهزم الباقون إلى القلاع والحصون ، وتبعهم المسلمون يأسرون ويقتلون ، فنصر الله الإسلام ، وهزم الكفّار ، وفتح المسلمون عدة قلاع وحصون ، ورجع سليمان بك إلى والده مؤيّدا منصورًا ، وتوفي السّلطان أورخان سنة إحدى وستين وسبعمائة[41] وعمره ثلاث وثمانون سنة.

السُّلطان مراد خان الغازي :

ثم ولي بعده السُّلطان مراد الغازي ، مولده سنة سبع وعشرين وسبعمائة ، وجلوسه على التخت في بروسا[42] سنة إحدى وستين وسبعمائة[41] ، وافتتح كثيرًا من البلاد منها

---

37) إضافة من الإعلام لسد البياض المشار إليه ، وأسقط المؤلف أيضًا الكلام عن بقية سلطنة عثمان.

38) 1326 م.

39) إضافة ملخّصة من الإعلام ص 252 – 253 ليتمّ الرّبط.

40) في الأصول : «أنضولي» وصوبناها كما تكتب عادة وكتبها النهروالي «أناطولي» ، وتكتب أيضًا «أناطول».

41) 1359 – 1360 م.

42) في ت : «برزق» ، وفي ط : «بروق» ، وفي ب : «برون» ، وفي ش : «بروز» والمثبت من الإعلام ص 253.

أدرنة[43] في السنة المذكورة ، وهو أول من اتَّخذ المماليك وسمَّاهم يكيجري[44] أي العسكر الجديد وكساهم اللُّباد البيض[45] المَثْني إلى خلف ، ويُسمى بُرْكًا[46] ، بضم الباء الموحدة وسكون الراء آخره كاف. وكانت له – رحمه الله – صولة عظيمة على الكفَّار ، واجتمعت النَّصارى على سلطانهم أُسْبُوت[47] ، فقاتلهم السُّلطان مراد قتالاً شديدًا ، قُتِل سلطانهم وانهزموا ، فأظهر واحد من ملوكهم الطَّاعة إسمه يلواش[48] فتقدّم لتقبيل يد السُّلطان ، فلما قرب منه أخرج خنجرًا كان أعدَّه في كُمِّهِ فضرب السُّلطان مراد فاستشهد – رحمه الله تعالى – سنة اثنين وتسعين وسبعمائة[49] ، فصار القانون العثماني من ذلك اليوم أن لا يدخل على السُّلطان أيلجي ولا غيره بسلاح ، وأن تُفَتّش ثيابه وأن لا يدخل / على السُّلطان إلّا بين رَجُلين يكتنفانه[50] ، فكانت مدة سلطنته إحدى وثلاثين [3/أ] سنة[51].

السُّلطان بايزيد خان الأول :

وولي السَّلطنة بعده السعيد يلدرم[52] بايزيد[53] ، مولده سنة ثمان وخمسين وسبعمائة[54] وولي السَّلطنة وعمره اثنتان[55] وأربعون سنة ، واستولى – رحمه الله – على

---

43) تنسب للإمبراطور الرّومي أدريان الّذي أجرى فيها عدة تحسينات أوجبت إطلاق إسمه عليها وذلك خلال القرن الثاني للميلاد.

44) في ط : «يكنجري» وفي ش وت وب : «يكنجدي» وفي تاريخ الشعوب الإسلامية : «يني جري» «يكي جري» 21/3 ، والتصويب من الإعلام ص 253. والكاف تلفظ نونًا ومعنى اللفظة الجند الجديد.

45) في الإعلام : «أبيض».

46) في الأصول : «برك».

47) في ت : «السهوة» ، وفي ب وش وط : «استهوت» والتصويب من الإعلام.

48) في ش وت : «بلواش» ، وفي ب : «بلواس» ، وفي تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان «ميلوش كوبيلتش» 26/3 والتصويب من الإعلام.

49) 1390 م.

50) في ش وب : «يكشفانه» ، وفي ط وت : «يُكَتِّفانه» والمثبت من الإعلام.

51) عن السُّلطان مراد ، أنظر الإعلام للنهروالي ص 253.

52) كذا في ط والإعلام ص 254 ، وفي ت : «بلدوم» ، وفي ب : «بلدرم» وكلاهما تحريف ويلدرم معناها «الصاعقة» وللسُّلطان يلدرم بايزيد ترجمة في الضَّوء اللاّمع للسخاوي 148/11 – 149 ، وشذرات الذهب 47/7 في ترجمة تيمورلنك.

53) في الأصول : «أبو يزيد».

54) 1356 – 1357 م.

55) في الأصول : «اثنان».

كثير من قلاع النّصارى وبلادهم وأراضيهم ، فصارت النّصارى تلتمس إلى بعض ملوك الطّوائف في بلاد الرّوم الإستعانة[56] على السّلطان يلدرم[52] فلزمه – رحمه الله تعالى – أن يستولي على ملوك الطّوائف ، وضيّق على جماعة منهم مثل إبن كرميان[57] أخذه وحبسه مع أحد وزرائه ، فهرب مع وزيره من الحبس إلى تيمورلنك ، وهرب أيضًا إبن منتشا[58] منه وحلق لحيته وحواجبه وصار في صورة قَلَنْدَري[59] وهرب إلى تيمورلنك وكذلك إبن أيدين[60] هرب[61] في صورة سقطي بياع[62] الخرزات[63] ، وكذا إبن أسفنديار[64] وغيرهم من أمراء تلك الدّيار وملوكها ، فملك جميع بلادهم ، فوصلوا[65] إلى تيمورلنك وشكوا من[66] السّلطان بايزيد[67] خان ، وحَسَّنوا له أن يصل إلى بلاد الرّوم ، فوصل إلى البلاد الشّامية والحلبية[68] ، وقتل فيها وسفك الدّماء ، وعاث في الأرض ، وأخذ تلك البلاد ، وأسّر أهلها ونهب المسلمين ، وشَرْحُ ذلك يطول حسبما أشرنا إليه في ترجمة تيمورلنك ، واستمرّ تيمور على الفساد[69] إلى أن وصل إلى أذربيجان[70] ، فخرج بايزيد – رحمه الله – إلى قتاله ، فلما التقى الجمعان قرب أنقره[71] هرب من عساكر السّلطان بايزيد[67] طائفة التّتار/ [3/ب] وعسكر منتشا وعسكر

56) في ط : «الاستعانة».

57) في ط : «أمير كرميان» ، وفي ت : «ابن كرتمان» ، وفي ش وب : «ابن كرمتان» ، والتصويب من الإعلام ص 254.

58) في ط : «أمير منتشا».

59) في ش وط وب : «قلزري» ، وفي ب : «قلوزي» والتّصويب من الإعلام.

60) في ش وت وب : «ابن يزيد» ، وفي ط : «أمير يزيد» والتّصويب من الإعلام.

61) كذا في ش والإعلام. ساقطة من بقية الأصول.

62) في الأصول : «بسباع» والتّصويب من الإعلام.

63) في الأصول : «خرازات» ج خرزة والخرزات هي فصوص من حجارة وقيل فصوص من جيد الجوهر ورديئة من الحجارة. تاج العروس 33/4.

64) في ش وب وت : «ابن سفنديار» ، وفي ط : «أمير سقنديار» والتّصويب من الإعلام.

65) كذا في ش وب وت ، وفي ط والإعلام : «وصلوا».

66) في ط : «إلى».

67) في الأصول : «أبي يزيد».

68) كذا في ط والاعلام ، وفي ب : «فوصل إلى بلاد الشامية» ، وفي ت : «فوصل إلى البلاد الشامية» ، وفي ش : «فوصل تلك البلاد الشامية».

69) في ط وت : «فساده» وفي الإعلام : «يفسد في الأرض».

70) في الأصول : «أدرياقك» والتصويب من الإعلام.

71) في الإعلام : «أنكورية» وتكتب بالطريقتين.

كرميان ، وتركوا السُّلطان بايزيد(67) خان وذهبوا إلى تيمورلنك ، واشتدّ الحرب وقُتِل من أولاد السُّلطان بايزيد(67) مصطفى ، فشرع عسكره في الرجوع إلى خلف ، وثبت السُّلطان بايزيد(67) وقليل ممّن معه واستمرّ يقاتل إلى أن وصل إلى تيمور بسيفه فقاتل بنفسه وقد عجزوا عنه فرموا عليه(72) بساطًا وأمسكوه(73) فحبسوه(74) حسبَما أسلفنا(75). فقبضوا عليه وحملوه عند إنصرافهم من بلاد الرّوم ، فلم يزل معهم إلى أن وصلوا إلى حدود تَبْرِيز ، وكان قصد تيمور أن يطلقه إذا وصلها لكن أخذه – رحمه الله تعالى – مرض الخناق وضِيق النَّفس فلم ينفع(76) فيه الدَّواء ، ولمّا تحقّق – رحمه الله تعالى – فراغ العُمر المعلوم ، وحلول الأجل المحتوم ، أوصى تيمورلنك(77) وقال له : لي إليك(78) ثلاث نصائح : أولاَهن أن لا تقتل رجال الأروام فإنهم رِداء الإسلام ، وأنت أولى بنصرة الدِّين لأنك تزعم أنك من المسلمين ، ثانيهن أن لا تترك التَّتار بهذه الدِّيار فإنك إن تَذَرهم يملؤوها من قبائلهم نارًا وهم على المسلمين أضرّ من النَّصارى ، ثالثهن أن لا تُدير(79) التخريب في قلاع المسلمين وحصونهم ، ولا تُجْلِهم عن مواطنهم وحركتهم وسكونهم ، فإنها معاقل الدِّين وملجأ الغزاة(80) والمجاهدين ، وهذه أمانة حَمَّلتُكَها ، وولاية قلَّدتُكَها ، فقبلها بأحسن قبول وحمل الأمانة ذلك / [4/أ] الجهول ولمَّا قضى نحبه – رحمه الله تعالى – تأسَّف وحزن وبكى ودُفِن بتبريز ، ثم نقله ولده موسى جلبي(81) بمعرفة(82) تيمور إلى تربته بمدينة بروسا(83) فتوفي – رحمه الله تعالى – سنة خمس وثمانمائة(84).

---

72) في ط : «عنه».

73) في الأصول : «مسكوه».

74) هنا ينتهي نقله من الإعلام فيا يتعلق بالسُّلطان يلدرم بايزيد ، وبعدها في الإعلام : «فحصل له حمى عضبية فتوفي إلى رحمة الله تعالى في سنة 805» ص 254.

75) أنظر ج. 1 ص 296.

76) في ت : «يجتمع» ، في ب : «ينجع» وفي ط : «ينجح».

77) في ط وت وب : «تيمور».

78) في ط وت وب : «عليك».

79) في ش : «تريد».

80) في الأصول : «الغزات».

81) مع بقاء موسى في حالة الأسر وفي حراسة أمير كرميان. تاريخ الدولة العلية ص 147.

82) في ط : «بمعونة».

83) وتكتب : «بروسة» و«بورصة» أيضًا.

84) في الأصول : «خمس عشرة وثمانمائة» ، وفي الإعلام : «توفي إلى رحمة الله سنة 805 هـ» ص 254 ، وفي تاريخ الدولة العلية : «مات في 15 شعبان 805» ص 146 وهو التاريخ الذي اعتمده بروكلمان 31/3 ، ودائرة المعارف الإسلامية 1151/1 – 1153 ويقابله بالميلادي : 1402 – 1403 م.

السُّلطان محمَّد خان :

وخلف بعده أولاده[85] وهم : موسى وعيسى وسليمان وقاسم ومحمد ، فاستقل[86] بالسَّلطنة السُّلطان محمد خان إبن السُّلطان يلدرم بايزيد خان سنة ستٍّ عشرة وثمانمائة[87] ، ومولده سنة سبع وسبعين وسبعمائة[88] ، وإستقلّ بالملك وعمره تسع وثلاثون سنة ، فمكث في السَّلطنة تسع سنين ، وعاش ثمان وأربعين سنة ، وكان شُجاعًا مقدامًا مجاهدًا ، إفتتح عدة قلاع وبلاد ، فمن ذلك قلعة قسطمونية وقلعة أُسْكب[89] وقلعة صامسون[90] وأقشهر[91] وغيرها ، ثمّ انتقل إلى رحمة الله تعالى سنة خمس وعشرين وثمانمائة[92].

السُّلطان مراد خان الثاني :

ثمّ ولي بعده السُّلطان مراد خان الثَّاني ابن محمد خان بن يلدرم خان بايزيد ، مولده سنة ست وثمانمائة[93]. جلس على تخت السَّلطنة وعمره ثمانية عشر عامًا ، ومدة سلطنته إحدى وثلاثون سنة ، وكان ملكًا مطاعًا مقدامًا ، فتح الفتوحات كبلاد سمندرة وقلعة مورة[94] وغير ذلك ، وقاتل قرال أنكروس[95] وهزمه وأسّر منه خلقًا كثيرًا ، واستمرَّ يجاهد الكفار إلى أن انتشا[96] له ولده السُّلطان محمّد فرآى أهليته لسرير السَّلطنة فنزع عن الملك لولده[97] وتوفّي وسنه تسع وأربعون سنة .

---

85) رجع إلى النقل من الإعلام ، للنهروالي ص 255.

86) بعد فتنة طويلة بين الأخوة.

87) 1413 – 1414 م.

88) كذا بالأصول والإعلام ويقابله بالميلادي 1375 – 1376 ، وفي تاريخ الدولة العلية ولد سنة 781/1379 م.

89) في الأصول : «اسلف» والتصويب من الإعلام ص 255.

90) في الأصول : «صامور» والتصويب من الإعلام.

91) في الأصول : «أقشير» والتصويب من الإعلام.

92) 1422 م ، وعن السلطان محمد خان أنظر الإعلام للنهروالي ص 255 – 256 نقل المؤلف ما فيه مع إختصار بالحذف.

93) 1403 م.

94) في ط : «مرورة» وفي ب : «موورة» والتصويب من الإعلام ص 256.

95) في الأصول : «من آل الكروس» والتصويب من الإعلام.

96) في الأصول : «انتشى» والتصويب من الإعلام.

97) عن السُّلطان مراد الثاني أنظر الإعلام للنهروالي ص 256 ، والضّوء اللاّمع 152/10 ، ونظم العقيان للسيوطي ص 175.

السُّلطان محمَّد الثاني :

فتولّى ولده السُّلطان محمَّد بن مراد خان سنة ست وخمسين وثمانمائة[98] ، فجلس على التَّخت / وقد استكمل عشرين سنة ، وكانت مدة سلطنته إحدى وثلاثين سنة كأبيه [4/ب] (وكان من أعظم سلاطين آل عثمان ، وهو الملك الأصيل ، الفاضل النَّبيل ، الطاهر الجليل)[99] أعظم السَّلاطين جهادًا ، وأقواهم إقدامًا واجتهادًا ، وأشدُّهم بأسًا ، وأقواهم على الحرب إيرادا ، وأكثرهم على الله توكُّلا واعتمادا ، وهو الذّي دعّم ملك بني عثمان ، وشدّ أركانه وأعلى مناره ، وشدَّ[100] بنيانه ، قنَّن لهم قوانين صارت كالأطواق في جيدِ الزَّمان ، وله مناقب جميلة ، ومزايا فاضلة جليلة ، وآثار[101] باقية على صفحات اللّيالي والأيام ، ومآثر لا يمحوها تعاقُب السّنين والأعوام ، وغزوات كسَّر بها أصلاب[102] الصُّلبان والأصنام ، ورغم أنوف الكفرة اللئام ، فمن أعظم غزواته ، ولو لم يكن له سواها لكفَت في علوّ شأنه وعزّة سلطانُه ، الغزوة العظمى التي فتح بها القسطنطينية التّي كان بها افتخار الكفرة على الإسلام ، ففتحها وبَدّلها الله من رجس الكفر بطهارة الإسلام ، فلما أراد غزوها – رحمه الله – ساق إليها السُّفن بحرًا تجري رخاء وسيرًا ، وجهّز إليها العساكر برًّا ، وهجم عليها بجنوده ، فالتقى الجمعان على أَمْرٍ قد قُدِّر وأقدم عليها بخيله ورجله[103] فكان على الكافرين يوم نحس مستمرّ وعلى المسلمين يوم ظفر ونصر ، فحاصرها ستّين[104] يومًا أشدّ حصار ، حتّى أتاه الله بالفتح المبين ، ونزلت بنصره جنود النَّصر والتّمكين / ففتحها في اليوم الواحد[105] والسّتين من أيّام مُحَاصرتها وهو يوم الأربعاء [5/أ] تمام العشرين من جمادى الآخرة من شهور سنة سبع وخمسين[106] أو ست وخمسين

---

98) 1452 م.

99) ما بين القوسين ساقط من ط وب وت ، وفي الإعلام نجد : «وكان من أعاظم سلاطين آل عثمان وهو الملك الضليل ، الفاضل النبيل ، العظيم الجليل» ص 256 – 257.

100) كذا في ت وط وب ، وفي ش : «شيد».

101) في الأصول : «آثارًا».

102) في الأصول : «أصالب» والتّصويب من الإعلام ص 257.

103) في الإعلام : «رجاله».

104) في الإعلام : «خمسين يومًا» ، وفي تاريخ الدولة العلية ص 161 – 164 : «بدأ الحصار في أوائل أفريل 1453 م ، وانتهى في 29 ماي من السنة». فيتفق معه مقديش في نفس مدة الحصار ، وكذلك يتفق مع ما جاء بقصيدة الإمام البقاعي الآتي ذكرها.

105) في الإعلام : «الحادي والخمسين».

106) 28 جوان 1453 م وفي تاريخ الدولة العلية ص 164 «20 جمادى الأول سنة 857/29 ماي 1453 م».

وثمانمائة ، وصَلّى في أكبر كنائسها صلاة الجمعة بعد جعلها مسجدًا وهي المسماة أيا صوفيا[107] ، فأبدَلها الله من من الظُّلمات بالنّور ، ولا زالت محلاًّ للعبادة وسببًا للحسنى وزيادة ، ومقرَّ عِزٍ وسعادة ، وما أحسن ما أنشده[108] الإمام البقاعي – رحمه الله – في صورة هذا الفتح العظيم[109] ، طالعها : سؤال جرى على لسان مراقب أمسى يخاطب بعض من سهرت عيناه يحرس في سبيل الله ، وهي قصيدة من ثالث ضروب البحر الطويل وهو الضرب المحذوف والقافية متواترة[110] مطلقة[111] مردف فقال[112] :

[الطويل]

أمن ذكر من تهوى اعتراك سهود[113] ... أم القلب فيه للجحيم وقود

أراك لا تزال موكّلا ... برعي الفيافي والأنام رُقُود

كأنك مهجور[114] وعُدْت[115] بزوْرة ... فما يَطْرُق العينين منك[116] هجُود

تجيء وتمضي في السِّلاح مُسَرْبَلا ... كأنك ليثٌ للظباء[117] يصيد

أما تختشي أن الحبيب يَرُوعُه ... لقاك فما يَنْفَكُّ[118] منه صدود

فضع عنك[119] هذا الزي والقَهُ سالمًا ... يذيقك طيِّبا للقاء وعُود

لقد ضل عن قصدي[120] الرقيبُ ولم يقع ... على حادث أمضي له وأعود

---

107) في الأصول : «أيا صوفية».
108) كذا في ط ، وفي ش وب وت : «نشده».
109) ولذلك يلقب : «محمد الفاتح». وانظر الإعلام للنهروالي ص 156 – 158 ، شذرات الذهب 341/7 – 345 نقلاً عن الإعلام للنهروالي باختصار ، الضّوء اللاّمع 147/10 ، نظم العقيان ص 547 ، أخبار الدول للإسحاقي ص 140.
110) في الأصول : «متواتر».
111) في الأصول : «مطلق».
112) هذه القصيدة لم يذكرها النّهروالي.
113) في ب : «شهود».
114) في ب : «مجهور».
115) في ش : «عدة».
116) في ط : «منا».
117) في الأصول : «الضباء».
118) كذا في ش وب ، وفي ط وت : «ينفعك».
119) في ط : «عند».
120) في ط : «قصد».

وسفَّه في رأي رماني[121] برجمه | فما لي شغل عنه ثَمَّ سديد[122]
ألم يدر هذا العمرُ أنّي إنّما | أنافس في العلياء وهي جَدُود / [5/ب]
وإنّي لعمري لا أحبّ سوى[123] اللّقا | بجيش العدا لاَ ضُمَّ منه عديد
أَرُدُّهُمُ بالسّيف ضربًا وإنهم | ليقتل منهم بالزّحام جنود
كَأنهم هِيمٌ وسيفي بأثرهم | بَرُوق وزجري في القلوب رُعود
(وَلِمْ لا وقد سنَّ النبيء محمد | جهادَ الأعادي فالجهاد حَميدُ
وسار ابن عثمانَ المليكُ محمدٌ | بذا العَصْرِ هذا السيرَ فهو فَرِيد)[124]
لِيَهْنِكَ يا نجلَ الأكابر ما يُرى | من الشَّرف الأعلى لأنت سعيد
قصدتَ لأسطنبول وهي شهيرة | فحُقّق أن الرأي منك سديدُ
بنيت عليها وهي بكر فأصبحت | ووطؤك فيها للبرية عيد[125]
أقمتَ عليها نحو ستّين ليلة | وطير المنايا ما لهن ركود
نصبت لرفع الدين أعلام جُرْهُمٍ | فكم خرَّ جزمًا في الهياج عمود
وكم أغرقت روحًا عيون دمائهم | وحُرّق من شُهْبِ السّهام مَريد
وكم مرّ من عيش حَلِي بربعها | لهم وتغنت في المحافل غيد
وكم أرشفتهم قهوة في كنيسة[126] | مزخرفة[127] حَسْنًا[128] الشمائل رُود
وكم ضحكت فيها كواعب[129] كُنَّسٌ | وطاب لتلك الغانيات نشيد
فبدل[130] ذاك الضحك همّا وحسرة | وضرِّج فيها بالبكاء خدود

121) في ت: «في رأي زمامي» وفي ب: «في أي زماني».

122) في ت وب: «سويد».

123) في الأصول: «سوا».

124) ما بين القوسين مختصر في ت، وب، وط.

في ط: «ولم لا وقد سن النبيء محمدًا | بذا العصر ذا لسيد فهو فريد»
في ب: «ولم لا وقد سن النبيء محمدًا | بذا العصر هذا السير فهو فريد»
في ت: «ولولا وقد سن النبيء محمدًا | فذا العصر هذا السير فهو فريد».

125) في ت: «محيد».

126) في ط وت: «كنية»، وفي ب: «كينة».

127) في ب: «خوفة».

128) في ط: «حسن».

129) في ت: «كواكب».

130) في ب: «فبذل».

وعادت على تلك الوجوه كباوة ... وحلّ بها بعد الرّفاهة دُود

وكم قهروا من لَوْذَعي سُميدع ... وساعدهم دهر هناك مديد

لَقيتهمُ يوم الثلاثاء بُكرة ... وقد قارنتكم للإله سعود

وخضت إليهم غمرة البحر في الضّحى ... بحرب له شُمّ[131] الجبال تميد

وجلت وجه البر بالخيل فوقها ... ليُوث تُرى[132] منها الليوث تحيد

[6/أ] وكنت أشد الناس حزمًا[133] وجرأة ... وكم لك في حوض الحروب ورود /

أتوا وكأنّ الليل أكنافُ جيشهم[134] ... دروعهمُ مثلُ البصائر سود

فكنت إليهم أوّل الناس راقيًا[135] ... وجرّدت[136] سيفًا والصّقالُ جديد

فكان كنجم والمحاربُ قادرٌ[137] ... عنيدٌ إليه بالنّكال يريد

وثبّت[138] ذاك الجيشُ رِجلاً تجلّدا ... فطارت بريش النّبل منه[139] جُلود

بعثت إليهم عسكر الموت أسهما ... فأمسى به للعاويات[140] يجود

وعادوا كلمح الطرف جلدًا ممزّقا ... وما منهمُ إلّا لديك[141] حصيد

ولم تغن شيئا كثرة الجمع عنهمُ ... وزاد نوح منهمُ وعديد

ولما تولّوا مدبرين وللضنا ... انبساط إلى تلك الظُّهور مديد

أقمت عليهم قائمَ السيفِ حاكمًا ... فكلّ قضاء جارَ فيه سديد

فصيرتهم قسمين وهو بوَسْطهم ... يقول : همُ قتلى لكم وعبيد

فدونكمُ أبناءهم ونساءهم ... وأموالهم ما دون ذاك عنيد

ولمّا اصْطَففتم والخيولُ صواهل ... ترجّع في نغْماتها فتُجيد

وعنفت سيفًا قط لم يألُ فاعتْدى ... وحمرة خديه لديك تَزيد

فحكّمته فيهم وكان مطاوعًا ... فقدّت رؤوس منهمُ وقُدود

رأى البيضَ من فوق الرّؤوس فظنّها ... لآلِي تَهْويها[142] وحقك غيد

---

131) كذا في ط وت وب، وفي ش : «بشم».

132) في ط وت وب : «شرا».

133) في ط وت وب : «عزما».

134) في ط : «جبيهم» ؛ وفي ب وت : «جيهم».

135) في ت : «رابقا».

136) في ب : «وجروت».

137) في ط : «مارد».

138) في ت : «وكبت»، وفي ب : «وكتب».

139) في ط : «منهم».

140) في ط : «للعاريات».

141) في ط : «لديه».

142) في ت وب : «تهوها»، وفي ط : «تهواها».

فصيرهـا منشورة[143] في جيوشكم تنظم منها في الجبال[144] عقود
وكانوا على خيل يروع ضَجيجها[145] فأضحوا وهم فوق التراب هُمود
وكانوا وُقوفًا للضروب[146] فأصبحوا وهم في الرُّبى لا للصَّلاة سجود
وقتِيل أبطالٌ جلاَد وفرِّقَت جُموع وكم جُزّت هنالك جيد
وقُدَّت قلوب[147] بالمظالم أظلمت وطارت بماضي الشفرتين زنُود
وحلّق من فوق الرؤوس سلاسل ودارت على سُوق الرِّجال قيود / [6/ب]
وكنتم ضُحًى تحت العَجاج كأنكم لُيوث عرين في الغَمام تَرود
يُحامون للشيطان[148] وهو عدوُّهم وتَحمي حمى الرَّحمان وهو ودود
وغُودِر منكم فتيةٌ[149] أحمدية تداعوا إلى دار السلام فنودوا
فشتّان ما بين الفريقين حيُّهم جُحْدٌ[150] وأمّا مَيْتكم[151] فشهيد
وأحياؤكم خيرُ العباد وميّتُهم له في لظى بعد الممات خُلود
وعدتَ وسيف الدّين قد طال متنه وجُلِد[152] حدّ الكفر وهو حديد
كذاك سميٌّ[153] المصطفى كان بطشه فلله بطش منه لهو شديد
علا في مراقي العز حقًّا بحزمه وعزم له فوق النّجوم صُعود
حليمٌ بصيرٌ بالأمور مجرّبٌ صَبور على ريب الزمان جليد
لقد سار في الآفاق سؤددُ مجده وطارت له في الخافقين بُنود
له عزمات تُرعب البحر عندما يصول ألم تنظر إليه يميد
تُقَصِّر عاد عن عُلاها وتنثني لها خُضَّعًا من بعد ذاك ثمود
وحزمٌ تُوَقِّيه كيدَها وتدفع عن أنصاره وتذود
يُحيّر من أحكامه كل معجب[154] وتَبْهَرُ يونان[155] له وهُنود
هو المتّقِي[156] بأس الإلاه وبأسه لكم ذاب منه جُلْمُدٌ وحديد

---

143) في ت وب وط : «منثورة».
144) في ت وب وط : «في الحبال».
145) في ت وب وط : «ضجيجهم».
146) في ت وب وط : «للضراب».
147) في ط : «قلوبًا».
148) في ب : «للسلطان».
149) في ط وت وب : «فتنة».
150) في ط وت : «جحود وأما».
151) في ت : «جيبتكم»، وفي ب : «بيتكم».
152) في ب وت وط : «وجلل».
153) في ط : «سما».
154) في ط : «معجز».
155) في ت وب : «يوقان».
156) في ط وب : «ملتقى».

يجود ليحمي[157] بيضة الدين إن رآى — وبالسيف للباغي تُقام حُدود
فلا زال هذا المُلك معتليا به — يجدد أركان الهدى ويشيد
ويصقل سيف الغزو في كل حجة — فيُبْدِئُ نهج المصطفى ويعيد
ويُورِثُه ذرّيةً دام سعدُها — تُبيد العِدا بالقهر وهي تزيد
وتُعزى إلى عثمان جدًّا وجدُّها — له دائما في العالمين جُدود
[7/أ] وتبقى على كرّ الدهور يزينها — عَفافٌ وعدل في البلاد وجود/
وتحفظ للمهدي الهُدى فإذا أتى — تؤدي إليه أمره فتسود.

ولمَّا تمكّن – رحمه الله تعالى – من القسطنطينية[158]، وتمّ أمر فتحها أسَّس بها قواعد العدل والإحسان والخيرات، فمن جملة ذلك تأسيس العلم فيها بقدم راسخ لا يخشى عليه فيها الأفول، وبنى بها سنة خمس وستين وثمانمائة[159] وفرغ سنة خمس وسبعين وثمانمائة[160] جامعًا معروفًا الآن باسمه ومدرسة[161] كالجنان لها ثمانية أبواب، وقنَّن بها قوانين تطابق المعقول والمنقول، وترغب في طلب العلم الشّريف، وتكسو[162] للطالبين حلل[163] القبول، فجزاه الله خيرًا عن المسلمين، وذلك أنه جعل لطلبة العلم أيام الطلب ما يسدّ فاقتهم قوتًا ولباسًا، وجعل لهم بعد ذلك مراقي[164] يرقون إليها إلى أن يصلوا إلى سعادة الدّنيا ويتوصلون بها إلى سعادة العقبى إن وفّق الله بفضله، وإنه – رحمه الله تعالى – إستجلب العلماء الأكابر من أقاصي البلاد، وأنعم عليهم، كالعلاّمة مولانا علي قوشجي[165] والفاضل الطوسي[166] والعلاّمة الكوراني وغيرهم من

157) في ط وب وت: «ليحيى».
158) في ط: «من فتح القسطنطينية».
159) 1460 – 1461 م.
160) 1470 – 1471 م.
161) وبنى بها مدارس كالجنان لها ثمانية أبواب، الإعلام للنهروالي ص 258، والمدارس الثماني المنسوبة إليه معروفة في استانبول إذ نجد في تراجم كثير من العلماء: وتولّى التّدريس بإحدى المدارس الثمان.
162) في الأصول: «تكسوه».
163) كذا في ط والإعلام، وفي ش وب: «حلال»، وفي ت: «جلال».
164) في ط وب: «مراقين»، وفي ت: «راقين».
165) هو علاء الدين علي بن محمد، والقوشجي هو حافظ البازي عند أتراك أقصى الشرق، وكان أبو حافظ البازي لدى الأمير ألوغ بك حفيد تيمورلنك ملك ما وراء النهر، وكان عالما كبيرا رياضيا (ت. 870 / 1465). أنظر الإعلام 9/5.
166) هو ابراهيم بن عبد الكريم الطوسي المعروف بحلمي له مؤلفات في النحو، أنظر الإعلام، معجم المؤلفين 50/1.

علماء الإسلام ، فصارت بهم أم الدّنيا ، واجتمع بها أهل الكمال من كل فن ، فصار علماؤها من أعظم علماء الإسلام ، وأهل حرفها من أدقّ الفطناء في الأنام ، وأرباب دولها[167] من أهل السّعادة العظام[168] ، وعساكرها وجيوشها من أعظم جيوش الإسلام ، ومراكبها (بحرًا وبرًا)[169] وآلات حروبها من أعز ما يفتخر وينتصر به الأنام ، خلّد الله عزّها ، وأيّد الدّين بنصرها ، وجعلها مقرًّا لِعَقِبِه وعُتْرته ما دام الدّين. وكانت[170] وقائعه – سقى الله ضريحه شئابيب الرّحمة والرضوان – / كثيرة ، وغزواته [7/ب] شهيرة ، فلا بدّ من الإلماع[171] بطرف من ذلك ، وذكر طرف من أخبار القسطنطينية (إتماما للفائدة بقدر الطاقة.

نبذة تاريخية عن القسطنطينية قبل الفتح العثماني :

فنقول : إن القسطنطينية)[172] أوّل من بناها من ملوك الرّوم قسطنطين بن قسنطنة[173] ، وقسنطنة هو الذّي بنى قسنطينة ببلاد المغرب لمّا تملّك على بلاد الرُّوم وما وراءها من الممالك إلى أفرنجة والمغرب وإفريقية ، وسمّاها قسنطينة بإسمه ، وإبنه قسطنطين هو أول من تنَصَّر من ملوك الرُّوم ، ثم تبعه من تبع[174] وكان أوّلاً على دين الصابئة[175] يعبدون أصنامًا على أسماء الكواكب السَّبعة ، ثم إنه أشير لقسطنطين في المنام[176] أن يعمر حصنًا في غاية الحصانة والإحكام ، فاستشار أكابر خواصّه فوقع

167) في ط والإعلام : «دولتها».
168) انتهى نقله من الإعلام ص 258.
169) ما بين القوسين ساقط من ط.
170) في ش : «وكان».
171) في ط : «الإلمام».
172) ما بين القوسين ساقط من ت وط وب ، والقسطنطينية هي بيزنطة القديمة. (Byzance).
173) هو قسطنطين الأول المعروف أيضًا بالعظيم (Constantin 1e le grand) إبن Constance chlore وقسطنطين الأول هو إمبراطور روماني (306 – 337) وهو الذي أسّس مدينة القسطنطينية في سنة 330م. وكانت تعتبر في مقام رومة بالشرق وسمّيت هذه المدينة بإسمه.
174) في ت وب وط : «تبعه».
175) في ط : «الصليبيين».
176) كذا في ش وت ، وفي ب : «المقام».

اختيارهم على موضع يقابل القسطنطينية ويسمى بقاضي كولي ، ويُرْوَى أنهم لما شرعوا في البناء في هذا المكان المذكور جاءت حيوانات على صور شتّى كالطيور والوحوش وما شاكلها وجعلت تخطف آلات البنائين ومكاتل[177] الفعلة ومعاول الحفّارين ودخلوا بها في البحر فاجتازوا إلى الجهة الغربية من البحر ليكشفوا أمر تلك الحيوانات فرأوا مكان القسطنطينية ، وهي في غاية اللطافة ، وكانت[178] إذ ذاك جزيرة خاليه مثلّثة الشّكل معروفة عند الأمم القديمة «سبت جبل» لسبع جبال كانت بها ، وأوّل ما شرعوا في بناء الغلطة ويقال إن البحر من الجهة الغربية كان متّصلاً من قبر أبي أيوب الأنصاري – رضي الله تعالى عنه – إلى المرسى[179] الجنوبية ، وكان موضع / البلد جزيرة مستقلّة [8/أ] تدور المراكب حولها ، فاستصوب بعض الملوك ردم الجانب الغربي ليسهل إليها السّلوك فردم ، ويقال إن هذه المدينة عُمِّرت ثلاث مرات وتهلك ، أما المرّة الأولى فخلت بالزّلزلة ، وأما الثانية فبالطّاعون ، وأما الثّالثة فبالتّنين والحيّات[180] والثّعابين ، فاصطنع لها طلسم لدفع ذلك ، ولعلّه الموجود الآن من النحاس على شكل ثلاث حيات[180] بالمكان المعروف بآت ميدان ، فزال ضررها ، وَعمُرَت في هذه المُدّة الرّابعة الباقية إلى الآن ، وهي من الإقليم الخامس ، بينها وبين مكّة المشرّفة ألف وثلاثمائة ميل (وسبع وثمانون ميلاً ونصف ميل)[181] ، وبنى بها كنيسة عظيمة وهي التي تعرف الآن أيا صوفيا[182] ، وقيل بنيت في العمارة الثّالثة ، ولمّا شرع في بنائها أرسل إلى ملوك الأطراف يجمع[183] ما يحتاج إليه البناء ، وطلب العواميد ، (وكان بحرّان العواميد)[184] وهي قرية من أعمال دمشق كانت بها كنيسة عظيمة الشأن يتعبد بها إبراهيم الخليل – عليه السّلام – فهدموها ، وأرسلوا منها عشرة أعمدة ، قيل إن مقطعها بجبل سرنديب فانقطع من الأرض بعد الطوفان لأن الحجارة قبله كانت كالطين ، فقطع ما قطع منه ثم يبس ، وبقيّة الأعمدة

---

177) كذا في ش وت ، وفي ط وب : «مكايل». مفرد مكتل وهو الزّنبيل يحمل فيه التّمر أو العنب وقيل هو شبه الزّنبيل يسع خمسة عشر صاعًا. وفي حديث خيبر: «فخرجوا بمساحيهم ومكاتلهم» تاج العروس 94/8.

178) في الأصول : وكان».

179) في ط وش: «مرساة» ، وفي ت : «مرسات» ، وفي ب : «المراشدة».

180) في الأصول : «الحياة».

181) ما بين القوسين ساقط من ط .

182) Sainte Sophie ، وفي الأصول : «آيا صوفية».

183) في ط وب وت : «فجمع».

184) ما بين القوسين ساقط من ت .

جيء بها من رومية وبلاد الحبشة ، فلما كَمُلت سقط نحو ثلثها ليلة ولادة المصطفى ﷺ وذلك من جهة المحراب ، وكان الفراغ من بنائها على ما ذكره أصحاب تاريخ الروم لمضي / خمسة آلاف وثمانمائة وثلاثين[185] سنة من هبوط آدم – عليه السَّلام – إلى [8/ب] الأرض ، وتداولتها ملوك الرّوم إلى مبعث رسول الله ﷺ ومَلِكُها إذ ذاك قيصر[186] فبعث إليه رسول الله ﷺ كتابه الشريف يدعوه إلى الله ودينه القويم مع سيّدنا دحية الكلبي – رضي الله تعالى عنه – فلقيه بحمص وقيصر ماشٍ للقسطنطينية ، فلمّا لقيه أعطاه الكتاب ففتحه فإذا فيه : «بسم الله الرحمان الرّحيم من محمّد رسول الله إلى قيصر صاحب الرُّوم ، السَّلام على من إتبع الهدى ، أما بعد : ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَّاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ﴾[187] الآية ، وفيه آيات من كتاب الله يدعوه إلى الله ، ويزهده في ملكه ويرغّبه في الآخرة ، ويُحَذِّره بطش الله وبأسه» ، فقرأ قيصر الكتاب ، وقال : «يا معشر الروم إني لأظن أن هذا هو الّذي بشَّر به عيسى بن مريم – عليه السَّلام – ولو علمت أنه هو لمضيت إليه وخدمته بنفسي لا يسقط مَاءُ وضُوئه إلّا على يدي» ، قالوا : «ما كان الله ليجعل ذلك في الأعراب الأُمّيّين ويدعنا ونحن أهل الكتاب» ، فطلب من العرب من يسأله عن أحوال النبيء ﷺ فأتاه أبو سُفيان وأصحابه ، فقال : أخبرني يا أبا سفيان عن حال هذا الرجل الذي بُعِث فيكم ، فقال : أيها الملك لا يكبر عليك شأنه ، إنا نقول إنه ساحر ونقول هو شاعر ونقول هو كاهن ، قال قيصر / : كذلك والّذي نفسي بيده كان يقال للأنبياء قبله كذلك ، فما زال قيصر [9/أ] يسأل وهم يجيبونه حتى قال : ما تزيدونني فيه إلّا بصيرة ، والّذي نفسي بيده ليوشك أن يغلب على ما تحت قدمي ، يا معشر الرّوم هلمّ نجيب هذا الرجل إلى ما دعا إليه ، ونسأله الشام أن لا يوطأ ، فقالوا له : كيف تسأله ملكك الّذي تحت رجليك وهو هنالك لا يملك من ذلك شيئًا ، فمن أضعف منك؟ فقال : يا معشر الرّوم أليس تعلمون أن بين عيسى وبين السَّاعة نبيء بشّركم به عيسى – عليه السَّلام – كنتم ترجون أن يجعله الله منكم لا في غيركم وهي رحمة الله يضعها حيث يشاء ، فلما رآى ممانعتهم إياه ، وخاف

---

185) في ط : «خمسة آلاف وثلاثة وثلاثين سنة»

186) قيصر في بيزنطية Auguste ليس إسم ملك وإنما هو لقب ، وقيصر المعاصر لرسول الله ﷺ إسمه هرقل كما جاء في بعض الأحاديث Heraclius I, 641–610

187) سورة آل عمران : 64

ذهاب ملكه منهم سكت عنهم ، ثم قال : يا معشر الرّوم دعاكم ملككم ليرى كيف صلابتكم في دينكم ، فدعوا له وخرّوا له سُجّدًا ، فلمّا هلك قيصر ملك بعده ابنه قيصر[188] وذلك في أيّام أبي بكر الصّديق – رضي الله تعالى عنه – ثم ملك بعده هرقل إبن قيصر[189] في خلافة عمر – رضي الله تعالى عنه – وهو الّذي حاربه أمراء الإسلام حتّى فتحوا بلاد الشّام مثل أبي عبيدة وخالد بن الوليد وغيرهم حتّى أخرجوهم ، وكان الملك على الرُّوم مورق بن هرقل[190] (في خلافة عثمان بن عفّان – رضي الله تعالى عنه – وفي خلافة علي بن أبي طالب – كرّم الله وجهه – وأيام معاوية ثم ملك بعده قليط ابن مورق[191])[192] / بقيّة أيام معاوية ، واستمى أيّام يزيد بن معاوية وأيام مروان ، [9/ب] ومددا من أيام عبد الملك بن مروان ، ثم ملك أليون[193] في بقيّة أيّام عبد الملك (وأيّام الوليد وأيّام سليمان بن عبد الملك)[194] وخلافة عمر بن عبد العزيز ، فكان إضطراب أليون المذكور من أمر مسلمة بن عبد الملك وغزو المسلمين برًّا وبحرًا.

وقصّته على ما ذكر الشّيخ الأكبر[195] – قدّس الله سرّه – في مسامرة الأخيار[196] إن عبد الملك بن مروان لمّا جهّز إبنه مسلمة إلى القسطنطينية لغزو أليون إنتخب من المسلمين ثمانين ألف رجل من أهل البأس والنجدة وأمّره عليهم ، فتوجّهوا نحو بلاد الرُّوم ، وهم يغزون الكفّار في طريقهم[197] ، ويغنمون الغنائم حتى وصلوا إلى شاطئ بحر

---

188) خلافًا لما ذكره المؤلف إستمر هرقل في حكمه طيلة خلافة أبي بكر – رضي الله عنه – ولم يتركه إلّا بالممات في سنة 641 م أي بعد وفاة أبي بكر.

189) لعلّه يقصد Héracléonas . لما توفّي هرقل (Heraclius) خلفه إبنه قسطنطين الثالث (Constantin III) ثم هرقل (Héracléonas) وكلاهما في سنة 641 م ، أنظر:
Bréthier L.: *Vie et mort de Byzance*, Paris 1947, p. 57

190) قسطنين الثاني Constant II . (641 – 668 م).

191) يقصد قسطنطين الرابع Constantin IV Pogonat . (668 – 685 م).

192) ما بين القوسين ساقط من ب.

193) يقصد Léontios (Léonce) (695 – 698 م) وينتمي مع الذين سبق ذكرهم إلى الأسرة الهرقلية (Les Héraclides) (610 – 705 م).
وعن كلّ هذه الأحداث أنظر المرجع السالف ص 57 – 73 وص 3 من ملحق الكتاب.

194) ما بين القوسين ساقط من ط وت وب.

195) الشيخ الأكبر هو محي الدّين بن العربي.

196) في ش : «الأخبار».

197) ساقطة من ط.

القسطنطينية فأقاموا هناك ثمانية أشهر حتّى هيؤوا لهم سفنًا فركبوا فيها فقاتلهم أهل المدينة في البحر ثلاثة أيام حتّى وصلوا إلى الجزيرة التّي فيها القسطنطينية ، فأقام مسلمة بتلك الجزيرة وبعث إلى أهل عمله من بلاد الرُّوم الّتي افتتحها في طريقه وأمرهم أن يبنوا له مدينة فرسخين في فرسخين ، فأقاموا فيها ، وصارت بلاد الروم كلّها في يد مسلمة ما بين الشام إلى جزيرة القسطنطينية ، وجيء إليه بالخراج ، وأقاموا يحاصرونها سبع سنين ، وسَمَّى المدينة الّتي بناها مدينة القهر لأنه قهرهم عليها ، وهي مدينة الغلطة ، ولقد / غرسوا [10/أ] فيها من[198] أنواع الفواكه فأثمرت ، وأقاموا إقامة قوم لا يرجعون إلى بلادهم ، وكانوا مع هذا يغزونهم كلّ يوم ، وكان أبو محمد البطال معه يقتل من الكفّار ما بين الخمسين إلى المائة حتى قتل منهم في تلك الأيام خلقًا كثيرًا ، فلما اشتدّ الحصار بهم كتب ملك الروم إلى مسلمة يطلب منه الصُّلح وأن يعطيه في كلّ سنة عشرة آلاف أوقية فضة (وخمسة آلاف أوقية ذهبًا)[199] وخمسة آلاف رمكة ، فلم يرض مسلمة بذلك واستمروا واقفين بباب المدينة سبعة أيام لا يفتر أحد منهم ولا يرجعون إلى مدينتهم ، وهم يومئذ ستّون ألف مقاتل ، فلمّا نظر أليون إلى ذلك قال لمسلمة : ما الّذي تريده؟ قال له مسلمة : عزمت أن لا أرجع حتى أدخل مدينتك ، فقال له أليون : أدخل وحدك ولك الأمان ، فقال له مسلمة : نعم على أن آمر البطال وأصحابه يقفون على باب القسطنطينية ولا يغلقون الباب ، فقال له : لك ذلك ، فَفُتِح الباب ، ولم يفتح قبل ذلك سبع سنين إلّا للقتال ، فوقف البطّال داخل عتبة الباب ثابتًا لا يزول ولا يتحرك ، وقال[200] مسلمة : إني داخل ، فانتظروني على الباب فإن صلَّيتم العصر ولم أخرج فاهجموا بخيلكم على المدينة ، واقتلوا من أصبتم والأمير بعدي محمد بن مروان ، فركب على فرسه الأشهب ، وعليه ثياب بيض وعمامة متقلّد بسيفين وبيده الرّمح ، فصفّ له ملك الرّوم عسكره بالخيل يمينًا وشمالاً من باب أدِرْنة إلى باب أيا صوفيا وهي كنيستهم العظمى كلّما / مرّ بقوم ساروا خلفه وقد [10/ب] رمقوه بأبصارهم ، وهم متعجبون من شجاعته وجرأته وشدته ، فلم يزل يتقدم حتى وصل إلى باب الكنيسة[201] وهو راكب على فرسه ، فخرج إليه ملك الرّوم أليون ، وقبَّل يده ،

---

198) ساقطة من ط وت وب.

199) ما بين القوسين ساقط من ط .

200) في ط : «فقال».

201) في الأصول : «الكنيسية».

فدخل الكنيسة راكبًا على فرسه فجزعت الرّوم من ذلك جزعًا شديدًا ، فلمّا دخل الكنيسة نظر إلى صليبهم الأعظم ، وهو موضوع على كرسي من ذهب وعيناه ياقوتتان وأنفه زبرجدة خضراء ، فلمّا نظر مسلمة إلى الصَّليب أخذه فوضعه على قربوس[202] سرجه ، فقالت الرهبان لأليون : لا تدعه يأخذه ، فقال له أليون : إن الرّوم لا ترضى بهذا ، فحلف أن لا يخرج حتى يأخذه معه ، فقال أليون للرُّوم : دعوه يخرج به ولكم علي مثله ، وإنْ لاَ دخل عليكم البطَّال إن استبطأه فأخذه وخرج وهو راكب وأليون ماش في خدمته ، فخرج والصَّليب على رأس رمحه (بعد العصر)[203] وكان القوم قد همّوا بالدّخول ، فلمّا نظروا إليه كبَّروا تكبيرة واحدة فكادت الأرض تمور بهم وسرّوا بخروج مسلمة سرورًا عظيمًا ، فأرسل أليون المال الّذي عهد إليه به ، وبه تاج مرصَّع فباعوا[204] التَّاج من بطارقة الرّوم بمائة ألف دينار ، ثم عرض النَّاس فكانوا يومئذ أربعة وأربعين ألفًا قد أصابهم الجهد ، فقسّم المال عليهم ، ثم قام فيهم خطيبًا ، فحمد الله وأثنى عليه ثم صلَّى على النبيء ﷺ / ثم قال : أيّها الناس إني في غمرات الموت منذ سبع سنين لم [11/أ] أحب أن أخبركم وكرهت أن أفشلكم عن قتال عَدُوِّكم ، وقد توفّي خليفتكم عبد الملك ، وولي إبنه الوليد فمات ، وولي أخوه سليمان بن عبد الملك فبايعوا له ، فأقاموا بعد ذلك ثلاثة أشهر بالمدينة حتى أصلحوا سُفُنهم ، ثم أمر أبا محمّد البطَّال أن يحمل المسلمين في السفن ، فلم يزل ذلك دأبه حتى عدّى الناس كلّهم ، وبقي مسلمة ، فقبل أليون رجله وودعه ، وعبر السفينة هو ومائة فارس ، ولم يتخلف بالجزيرة منهم أحد ، وتوجّهوا نحو بلادهم ، ففي أثناء الطريق أتاه كتاب عمر بن عبد العزيز بموت سليمان بن عبد الملك وبخلافته ، وأن يقدم بمن معه جميعًا ، فقدموا دمشق في ثلاثين ألف.

وذكر المولى جنابي في تاريخه أنّ الذي اشتهر عند البطَّال الغازي[205] هو أبو محمد جعفر ابن السُّلطان حسين بن ربيع بن علي بن عبّاس سكن بقرية الشّيحة[206] المرسومة[207] بمدينة السيد غازي وبها قبره يزار ، زَوَّج أخته لعمر بن زياد بن عمرو بن

---

202) ج قرابيس ، حنو السرج أي قسمه المقوس المرتفع من قدام المقعد ومن مؤخره.

203) ما بين القوسين ساقط من ط .

204) في ط : «فباع».

205) في بقية الأصول : «القاري».

206) في ش : «السيحة».

207) في ط : «الموسومة».

معد فولد له بنت اسمها «نظير الجمال» زوَّجها لعلي بن مضراب أمير التُّركمان بالدِّيار الرُّومية ، فولد منها ولدًا سماه أحمد ولقبه دان شمند الغازي ، وهو أوّل من ملك من[208] الطَّائفة الشَّمندية ، وكان عالما فاضلا كاملا ، وعاش السُّلطان طورسان بن علي ابن بنت جعفر البَطَّال بمدينة مَلَطْيَة[209] ، وسار سيرة جدّه البطَّال[210] من الجهاد في / سبيل [11/ب] الله ، وطلبا من الخليفة الإذن في الجهاد ، فأذن لهما وولاّهما على البلاد الّتي تُفتَح لهما ، فجمعا من العساكر نحو أربعين ألفا وتوجّها بنية الجهاد في شهر رجب سنة ستين وستمائة[211] من مدينة مَلَطْيَة ، فغزا السُّلطان طورسان بنصف العسكر على ساحل البحر الأسود وهو بحر الكُفَّار إلى أن وصل إلى[212] قرب قسطنطينية ، فبنى بالجبل المرسوم بعلم طاغي قلعة عالية ، ولم يزل يحارب الكفَّار ولم ينجده أحد من المسلمين إلى أن قتل هو ومن معه ، فلم يبق منهم أحد ، يقال إن الدّعاء هناك مستجاب.

وأما الملك دان شمند فإنه سار بمن معه من العسكر حتّى وصل إلى مدينة سِيَواس فبناها وجعلها مقرّ سلطنته ، وكان جعفر البطَّال إستخلص سيواس[213] من يد الكفّار ، وجعلها دارًا للإسلام[214] ، وكان الأمير عثمان جد العثمانية[215] أوّل من[216] وصل من بلاد المشرق بتلك الأماكن مع والده أرطغرل[217] علاء الدين[218] السلجوقي ، فأرسله السُّلطان دان شمند ومعه خمسة آلاف رجل ففتح قسطموني[219] ، واستولى على معدن الفضَّة وضرب الدّراهم بإسم دان شمند ، وعزم دان شمند لفتح نكسار فاستشهد ، فتولّى مكانه ولده الغازي محمّد ، وكان مجاهدًا.

---

208) ساقطة من ط.

209) قال ياقوت : بفتح أوّله وثانيه ، وسكون الطاء وتخفيف الياء ، والعامة تقوله بتشديد الياء وكسر الطاء ، بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة تتاخم الشّام ، وهي للمسلمين. معجم البلدان... 192/5.

210) ساقطة من ط.

211) ماي – جوان 1262 م.

212) ساقطة من ط.

213) بعدها في ش وقع تكرار: «فبناها وجعلها مقرّ سلطنته ، وكان جعفر البطّال إستخلص سيواس».

214) في ط وت : «دار الإسلام».

215) في ط : «العثمانية».

216) في الأصول : «ما».

217) في ش وب : «طغرل».

218) في ش وب وت : «علاي الدّين». 219) في ط : «قسطوني».

ففي سنة ثمان وعشرين وستمائة(220) هجم الإفرنج على الشّام وأخربوا غالبه ، فوصل إليهم الغازي محمّد فأبادهم / بالقتل والسّبي. [12/أ]

وفي سنة سبع وثلاثين وستمائة(221) توفي فولي بعده ولده نظام الدّين أبو المظفّر باغي يوصان ، فتوفي سنة إثنتين وستين وستمائة(222) ، وتولّى بعده المجاهد جمال الدّين فتوفّي سريعًا ، فتولّى عمّه ابراهيم ، فتولّى بعد ابراهيم ولده اسماعيل ، فتولّى بعده ذو النّون بن محمّد وهو آخر الدّانشمندية ، فاستولى بعدهم السّلجوقية ، ثم بعدهم العثمانية.

فتح محمَّد خان للقسطنطينية وغيرها :

ولمّا أفضى الملك لآل عثمان ، واستولوا على أكثر ممالك الرّوم ، ولم يبق لهم إسم من فتح القسطنطينية تأهّبوا لفتحها ، فلمّا أفضت السّلطنة إلى السّلطان محمد خان – رحمه الله تعالى – شرع في مهمات فتحها ومقدماته ، وهي من أعظم البلدان وأكثرها أهلاً وأمنعها حصنًا لإحاطة البحر بها من كلّ جانب إلّا الطّرف الغربي ، وهو طرف يسير ، حصّنوه بثلاثة أسوار وعدة خنادق يجري فيها ماء البحر مع ما فيها من المكاحل والمدافع فأظهر السّلطان مسالمة صاحب قسطنطينية ، وذلك في سنة ست وخمسين وثمانمائة(223) ، ثمّ طلب من طرف بلاده أرضًا مقدار جلد ثور عيّنها له فاستقلّ ذلك صاحب قسطنطينية ، وقال : سبحان الله وما يفعل به. فهو له ! فأرسل السّلطان محمّد – رحمه الله تعالى – البنّائين والصّنّاع فاجتازوا الخليج فقدوا جلد الثّور(224) قدًّا رقيقًا على صورة الخيط وبسطوه على الأرض على أضيق محل من فم الخليج فبنوا على المقدار(225) الّذي أحاط به ذلك الجلد / سورًا منيعًا شامخًا ، وحصنًا رفيعًا باذخًا(226) ، فركّب فيه المدافع ثم بنى في مقابلة ذلك الحصن في بر أناطولي حصنًا آخر وهو طرف [12/ب]

---

220) 1230 – 1231 م.
221) 1239 – 1240 م.
222) 1263 – 1264 م.
223) 1452 م.
224) هذه الأسطورة شبيهة بأسطورة عليسا (ديدون) Elissa (Dıdon) وبنائها مدينة قرطاج إذ طلبت في أول الأمر شراء مساحة جلد ثور من البربر ثم قدته طولاً.
225) في ط و ب : «القدر».
226) الباذخ والشامخ أي الجبل الطويل ، تاج العروس 252/2. في ب : «فاذجًا».

بلاده ، وشحنهما بالآلات النّارية حتى ضبط فم الخليج ، فلم يقدر يسلكه شيء بعد من مراكب بحر نيطس[227] إلى القسطنطينية وإلى بحر الرُّوم ، ثمّ ثني عزمه إلى مدينة أدرنة ، فأمر بإنشاء دار السّعادة الجديدة ، فشرعوا في بنائها ، ثم أمر بسبك المدافع الكبار وعمل[228] المكاحل لأجل فتح القسطنطينية ، فأكثروا منها ، ثمّ لمّا تكاملت الآلات والأسباب المتعلّقة بالقتال نهض للفتح ، وكان قد أنشأ أربعمائة غراب هو وأبوه من قبله فأرساها عند الحصن الّذي ابتناه على قدر الجلد الموسومة ببقركس ، فأمر بتلك الأغربة فسحبت إلى البر بعد أن جعلت تحتها دواليب تجري عليها كالعجَلة ، وشحنها بالرّجال[229] والأبطال ، ثم أمر بنشر أقلعتها فنشرت في ريح شديدة موافقة ، فساروا في البرّ على هذه الهيئة حتى انصبُّوا إلى الخليج الواقع شمال البلد من طرف مدينة غلطة ، فامتلأ الخليج من تلك الأغربة ، ثم قربوا بعضها من بعض ، ثم ربطوها بالسّلاسل فصارت جسرًا ممدودًا ومعبرًا لطيفًا للمسلمين ، وكان أهل البلد آمنين من هذه الجهة فلم يُحَصِّنوها وإنّما كان خوفهم من جهة البرّ والبحر فكانوا حَصَّنوها[230] وغفلوا عن هذه / [13/أ] الجهة لأمر دَبَّره الله تعالى ، فشرع المسلمون في القتال والحصار من جهة البرّ والبحر ، وكان أهل البلد لمّا سمعوا بقصد المسلمين عليهم إستمدوا من الإفرنج فأمدّوهم بجيش عظيم وعدد فتقووا بذلك فأعيى المسلمسن أمرها ، وكان السُّلطان محمَّد أرسل وزيره أحمد باشا ابن ولي الدّين قبل هذا التاريخ إلى خدمة العارف بالله الشّيخ شمس الدّين آق[231] وإلى خدمة الشيخ آق بيق يدعوهما إلى الجهاد وإلى الحضور معه في فتح القسطنطينية (فحضرا وبشّر الشيخ شمس الدّين الوزير المذكور بالنّصر وقال : ستفتح القسطنطينية)[232] إن شاء الله تعالى على يد المسلمين في هذا العام ، وسيدخلونها من الموضع الفلاني في اليوم الفلاني في هذا العام وقت الضّحوة الكبرى ، وأنت تكون واقفًا

---

227) في ط محرفة : «ينطش» قال الحميري : بحر نيطس متصل من جهة جنوبه ببلاد اللازقة إلى أن يتصل بالقسطنطينية ... وبحر نيطس هو بحر أمم من الترك والبرغز والروس وغيرهم ... ويتصل هذا البحر من بعض جهاته ببحر الخزر ، الروض المعطار ص 585.

228) في ط : «وعمر».

229) في ش وب : «الرجل».

230) في ط : «يحصنوها».

231) آق شمس الدّين صوفي طبيب ، وله تصانيف فيه ، ترجم له ترجمة مطولة طاش كبرى زادة (ت. 968 / 1560 – 1561) في الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ، (دار الكتاب العربي ، بيروت 1395 / 1975) ص 138 – 142.

232) ما بين القوسين ساقط من ط وت وب.

حينئذ عند السُّلطان محمد ، فبشَّر الوزير السُّلطان بما بشَّر به الشَّيخ من خبر الفتح ، فلما صار ذلك الوقت الموعود ولم تُفْتَح القلعة حصل للوزير خوف شديد من جهة السُّلطان فذهب إلى الشَّيخ فمنعوه من الدّخول عليه لأنه أوصى جماعته أن لا يُدْخِلوا عليه أحدًا ، فرفع الوزير أطناب الخيمة فنظر فإذا الشَّيخ ساجدٌ على التّراب ورأسه مكشوف وهو يتضرع ويبكي ، فما رفع الوزير رأسه إلّا وقد رفع[233] الشَّيخ رأسه وقام على رجليه وكبَّر وقال : الحمد لله الّذي منحنا فتح هذه المدينة ، قال الوزير : / فنظرت إلى جانب المدينة [13/ب] فإذا العسكر قد دخل بأجمعه ففتح الله ببركة دعائه في ذلك الوقت ، وكانت دعوته تخرق السَّبع الطَّباق ، فلمّا دخل السُّلطان محمد خان المدينة نظر إلى جانبه فإذا وزيرُه إبن ولي الدّين واقف عنده فقال : هذا ما أخبر به الشيخ الأجل ، وقال : ما فرحت بهذا الفتح ، وإنما فرحي بوجود مثل هذا الرجل في زماني[234] ، وقد كان طبيب الأشباح والأرواح ، فكانت الأعشاب إذا مرّ بها تناديه وتقول : أنا أنفع للمرض[235] الفلاني ، وكان في أيام المحاصرة لمّا حصل الإعياء[236] والفتور من الجند أمر أن ينادى في الناس أن الغنائم كلّها والأموال والدّواب لهم ، ويكفيني فتح المدينة ، فنشط الناس وذهب كللهم وإعياؤهم ، وهذا الفتح من أعظم فتوح الإسلام الجليلة ، وكم رامه من الخُلَفاء والملوك وصرفوا هممهم وبذلوا أموالهم ، وأفنوا أعمارهم وعساكرهم فما نالوه ، وحبى الله به هذا السُّلطان ، وضمَّن بعضهم تاريخ الفتح في قوله :

[الرمل]

رام أمر الفتح قوم أوّلون حازه بالنَّصر قوم آخرون[237]

فوقع لفظ آخرون تاريخ فتح المدينة بعدد حساب الحروف ، وقيل في تاريخها أيضًا «بلدة طيبة» ، ولمّا دخل السُّلطان المدينة سارع بالتّوجّه إلى كنيستها وجعلها مسجدًا جامعًا للمسلمين ، ثم إلتمس من الشيخ شمس الدّين / أن يُريه[238] موضع قبر أبي أيوب [14/أ] الأنصاري[239] — رضي الله تعالى عنه — فقال الشيخ إني شاهدت في موضع نورًا لعلّ

233) في ط : «روح».
234) في ط : «في زماننا».
235) في ت وط وب : «من المرض».
236) في ط : «من الأعياء».
237) بعدد حساب الحروف سنة 858 هـ / 1454 م.
238) في ط وب : «أن يمر به» ، وفي ت : «أن يمر به إلى».
239) أستشهد حين حصار القسطنطينية في سنة 52 هـ / 672 م في خلافة معاوية بن أبي سُفيان : تاريخ الدّولة العلية ص 162.

قبره[240] هناك ، فجاء إليه وتوجَّه زمانًا ثم قال : إجتمعت مع روحه فهنّاني بهذا الفتح ، وقال : شكر الله سعيكم خلّصتموني من ظلمة الكفر ، فأخبر السُّلطان بذلك فحضر بنفسه إلى هنالك ، فقال : ألتمس منك يا مولانا الشيخ أن تُرِيَني علامة أراها بعيني ويطمئن بذلك قلبي ، فتوجه الشيخ[241] ساعة ثم قال[242] : أحفروا هنا[243] في هذا الموضع ، وهو من جانب الرّأس من القبر مقدار ذراعين يظهر لكم رخام عليه خطٌ عبراني ، فلمّا حفروا ظهر رخام عليه خطّ فقرأه من يعرفه وفسَّره ، فإذا هو: هذا قبر أبي أيوب الأنصاري ، فتحير السُّلطان محمد ، وغلب عليه الحال حتى كاد أن يسقط لولا أن أمسكوه[244] ، ثم أمر ببناء القبّة عليه[245] وأمر ببناء الجامع والحجرات[246] ، والتمس من الشيخ شمس الدّين آق أن يجلس في ذلك المكان مع توابعه فامتنع واستأذن في الرجوع إلى وطنه «قصبة كونيك» فأذن له السُّلطان تطييبًا لقلبه ، ولمّا دخل المسلمون القسطنطينية أرسل صاحب الغلطة مفاتيح قلعتها ففُتحت ودخل المسلمون وسارعوا إلى مسجدها القديم الّذي كان بناه مسلمة بن عبد الملك يوم حصارها وكان الكفّار صيَّروه / [14/ب] كنيسة لهم ، وفي هذه السنة بعث أهل سلوري وهي من أمنع الحصون وأحسنها موقعًا بمفتاح[247] قلعتها ، وكذلك بمفتاح[247] قلعة برغوس بقرب أدرنة ، وسلك هذا المسلك كثير من أهل القلاع بعدما بلغهم فتح القسطنطينية .

وفي سنة ستين وثمانمائة[248] غزا السُّلطان محمد خان بلاد أنكروس ، وإنتصر عليهم وجرح كبيرهم ثم مات ، ثم نازل[249] مدينة بلغراد مُدَّة ثم ارتحل عنها لمصادفة الشِّتاء .

---

240) في ط وب : «نورا أهل قبره» وفي ت : «نورا هل هو قبره».

241) في ط : «إليه».

242) ساقطة من ط .

243) ساقطة من ط .

244) في الأصول : «مسكوه».

245) ساقطة من ش.

246) جاء في تاريخ الدولة العلية : «وبعد الفتح بُني له مسجد جامع وجرت العادة بعد ذلك أنّ كلّ سلطان يتولّى يتقلّد سيف عثمان الغازي الأوّل بهذا المسجد وهذا الإحتفال يعدّ بمثابة التّتويج عند ملوك الإفرنج» ص 162.
وقال عنه إحسان حقي : «ومسجد أبي أيوب الأنصاري مبني فوق ربوة ذات طلالة على القرن الذّهبي (La corne d'or) جميلة جدا ولكنّه مهمل ولا يليق بهذا الصّحبي الجليل». تاريخ الدولة العلية ، هامش 1 ص 162.

247) في ط : «بمفاتيح».

248) 1456 م.

249) في ط : «نزل» وهو غير المقصود.

وفي سنة ثمان وخمسين وثمانمائة(250) أمر السُّلطان بتجديد دار السَّعادة العتيقة بقرب الجامع الّذي أنشأه السُّلطان بايزيد(251) خان ، وهي أول دار أنشأت الملوك العثمانية في مدينة القسطنطينية.

وفي سنة إحدى وستّين وثمانمائة(252) غزا السُّلطان محمّد بلاد مورة فافتتحها وأسكن فيها طائفة من العرب ، ثم غلب عليها الروم فتنصر جماعة منهم ورحل جماعة أخرى ، ثم عاد السُّلطان لما بلغه ذلك وافتتحها ، وإفتتح نحو ستين قلعة لم يدخلها مسلم قط ، وبالجملة لم يَبْق في بلاد مورة حصن إلّا فتحه(253).

وفي هذه السَّنة خاف على نفسه السُّلطان محمّد ، صاحب سناب الأمير قزل(254) (أحمد بن السفنديار بن بايزيد)(255) ولحق إلى سلطان العجم حسن بيك الطَّويل لينجده ويحرّكه على المسير إلى السُّلطان محمّد / ، فلمّا بلغ السُّلطان ذلك سار إلى بلد(256) [15/أ] السّفنديار(257) واستولى على مدينة قسطموني وعلى سناب وعلى قلعة قطرة بوزون(258) ثم توجّه إلى بلاد الكرج ، فعاث عسكره فيها وغنموا منها شيئًا كثيرًا.

وفي سنة خمس وستين وثمانمائة(259) جهَّز السُّلطان من جهة البحر عمارة عظيمة إلى فتح جزيرة مدلو وكان قد كثر الضَّرر منها للمسلمين في البحر فضبطوا جميع الجزيرة وصَيَّروها دار إسلام ، وشحنوها بالمسلمين.

وفي سنة نيف وسبعين وثمانمائة غزا السُّلطان بلاد بوسنة بعسكر كثير ، وقاتلهم أشد القتال ، واستولى على عامَّة بلادهم ، وجعلها دار إسلام ، ولم يقم بها للكفار بعد ذلك قائم ، ثم بعدما مَهَّد أمور تلك البلاد صرف عزيمته إلى فتح بلاد أرنؤود(260) وهم صنف من النَّصارى يصبرون على المحن ، ويتكلَّفون الأعمال الشاقة ، قيل أصلهم من عرب

---

250) 1454 م.

251) في ط : «أبو يزيد».

252) 1456 – 1457 م.

253) عن كلّ هذه الأحداث أنظر مثلاً تاريخ الدّولة العلية ، ص 167 – 168.

254) في ط : «نزل».

255) في ط وب وت : «أحمد بن السفنديار يزيد».

256) في ت وب : «بلاد».

257) في ط وب وت : «اسفنديار».

258) في ت : «برزون» ، وفي ط : «بوزوق» وفي ب : «بورون».

259) 1460 – 1461 م.

260) في الأصول : «أرنود» والمقصود بها «ألبانيا».

الشَّام من بني غسان ، إرتحلوا من الشَّام بعدما فتحها الإسلام فقدموا إلى هذه البلاد ، وتوطَّنوا بها فازدادوا وكثروا ، وقيل هم طائفة من عرب البربر عبروا البحر إلى هذا الصوب مع يعقوب بن منصور الموحدي فبقوا فيها مدّة ، ولم يزالوا بها حتى غلب الجهل فتنصروا فدخل السُّلطان بلاد أرنؤود[261] فنهبها واستولى على عدة قلاع هناك ، وأمر ببناء قلعة حصينة في ثغر عظيم هناك كالسد بين المسلمين والكفار وشحنها بالرّجال وسمَّاها آق / [15/ب] حصار ، وأودع فيها ما تحتاجه من المدافع وآلات الحرب ما يكفيه ويقيه.

وفي سنة إثنين وسبعين وثمانمائة[262] غضب السُّلطان محمّد على صاحب قونية ولارندة أحمد بك بن قرامان فانتزع الملك منه وفوض بلاد قرمان[263] لإبنه السُّلطان مصطفى ، ثم استولى على بعض قلاع عاصية هناك مثل قلعة أركلي وقلعة أصراي وقلعة كولك وسلَّم الجميع إلى إبنه المذكور.

وفي سنة ست وسبعين وثمانمائة[264] بعث صاحب العجم حسن بك الطويل أميرًا مع عسكر التّتار إلى نهب بلاد إبن عثمان[265] فجاءوا ونهبوا مدينة توقات[266] وأحرقوها ، ثم إغتر بذلك أميرهم فهجم [على] بلاد قرمان[263] وأغار[267] عليها ، وكان واليها يومئذ السُّلطان مصطفى ، وكان شجاعًا في الغاية ، فقاتلهم وهزمهم وأسَّر أميرهم فكبّله بالحديد وأرسله مع عدّة أسارى من الأمراء إلى أبيه.

وفي سنة سبع وسبعين وثمانمائة[268] إستجاش السُّلطان محمّد خان وسلطان العجم جيوشهم للقتال بينهما فالتقى الجمعان قرب مدينة بابيرد ، فمال السُّلطان مصطفى على طرف ولد سلطان العجم زنبيل شاه فقاتله شديدًا[269] حتى ظفر به فقتله ، ففرّ أبوه حسن الطويل وحصل النصر لآل عثمان ، فأتبعوا التتار أسرًا وسبيًا حتى استولوا على عدة بلاد من العجم فصارت لآل عثمان.

---

261) في الأصول : «أرنود».

262) 1467 – 1468 م.

263) في ش : «قرامان» وهو تحريف.

264) 1471 – 1472 م.

265) في ط : «بني عثمان».

266) في الأصول : «توفات» والمثبت من تاريخ الدولة العلية ص 173.

267) في ش : «غار».

268) 1472 – 1473 م.

269) في ط : «فقاتله قتالاً شديدًا».

وفي هذه السّنة أرسل وزيره كرك أحمد باشا لفتح الكُفّة ففتحها مع عدّة قلاع.

[16/أ] وفي / سنة تسع وسبعين وثمانمائة(270)، غزا السُّلطان محمّد كفار بغدان(271) ففرّ كبيرهم رستفان(272) النصراني فهرب إلى أقصى بلاده، فتوغل السُّلطان في بلاده فأذعن النّصراني وأدّى الجزية، ثم سافر السُّلطان محمد إلى بلاد أنظولي، فلّما خيّم بعسكره في ظاهر اسكدار بسفح جبل هناك إتفق أن مرض السُّلطان مرض موته – سقى الله ضريحه شئابيب الرحمة والرّضوان – سنة ست وثمانين وثمانمائة(273).

السُّلطان بايزيد خان الثّاني:

ثم ولي بعده السُّلطان بايزيد(274) خان إبن السُّلطان محمّد مولده(275) سنة ست وخمسون وثمانمائة(276)، وجلس على تخت السلطنة ثامن عشر ربيع الأول سنة ست وثمانين وثمانمائة(277) وعمره إذ ذاك ثلاثون سنة، وهو من أعيان السّلاطين العظماء، إفتتح الفتوحات كقلعة ملوان وقلعة كوكلك وقلعة آق كرمان في سنة ثمان وثمانين وثمانمائة(278) وقلعة متون وغير ذلك من القلاع(279) والحصون.

وفي أيامه إبتدأ أمر شاه اسماعيل إبن الشّيخ حيدر(280) في بلاد العجم سنة خمس وتسعمائة(281) وكان له ظهور عجيب على ما يأتي بيانه قريبًا إن شاء الله تعالى. وكان السُّلطان بايزيد(274) – رحمه الله تعالى ونفعنا به – من العباد المرتاضين بالعبادة،

---

270) 1474 – 1475 م.

271) هي المنطقة الشرقية من رومانيا المتاخمة لحدود الإتحاد السوفياتي والكائنة بين نهري بروت (Prut) وسيرت وكانت هذه المنطقة تصغر وتكبر حسب إرادة الفاتح. تاريخ الدولة العلية هامش 2 ص 173.

272) في تاريخ الدولة العلية كتبها: «اسطفن»، وهو اسطفن الرابع.

273) في 4 ربيع أول / 3 ماي 1481 م.

274) في الأصول: «أبو يزيد».

275) رجع إلى النقل من الإعلام من ترجمة السلطان بايزيد خان ص 258.

276) 1452، في الأصول: «824» والمثبت من الإعلام. وهذا التاريخ يوافق قدر عمره عند ولايته السّلطنة، وفي تاريخ الدولة العلية ص 179 «ولد سنة 1447/851 م».

277) 17 ماي 1481 م.

278) 1483 م.

279) في ش: «القلوع».

280) إبن الشّيخ جُنَيد الصَّفَوي. الإعلام ص 259.

281) 1499 – 1500 م.

السَّالكين في مقامات اليقين ، فقد دخل الخلوة ، وإرتاض بها ، ودخل معه مولانا الشيخ محيي الدِّين ياوضي أفندي ، والد مولانا أبي السعود أفندي المفتي المفسِّر – رحمهم الله ونفعنا بهم – وكان رحمه الله ابتنى الجوامع / والمدارس والعمارات ودار الضِّيافات والتّكايا [16/ب] والزوايا ودار الشِّفاء للمرض والحمَّامات والخانات والجسور ، ورتّب للمفتي الأعظم ومن في رتبته من العلماء في زمنه لكل عام عشرة آلاف عثماني ، ولكل واحد من مدرسي الثمانية من مدارس والده المرحوم السُّلطان محمد خان في كلّ عام سبعة آلاف عثماني ، (ولمدرسي شرح المفتاح لكلّ واحد أربعة ألاف عثماني)[282] ، ولكلّ واحد من مدرسي شرح التجريد[283] ألفي عثماني ، وكذلك رتّب لمشايخ الطَّريق إلى الله تعالى ومريديهم وأهل الزّوايا لكلّ واحد على قدر مرتبته وإستحقاقه هذا غير كسوة الصيف من الأصواف ونحوها ، وغير كسوة الشتاء من الفراء[284] والجوخ لكلّ واحد منهم على قدر مرتبته ، فصار ذلك قانونًا جاريًا بعده مستمرّا ، وكان له – رحمه الله – عدّة أبناء كرام أعلاهم في الكمالات السُّلطان سليم ، فولاّه بحياته لما رأى فيه من علامات السَّعادة[285] الزائدة على إخوته إلى أن حضرت وفاة السُّلطان بايزيد – رحمه الله – سنة ثمان عشرة وتسعمائة[286] وعمره اثنتان وستون سنة.

---

282) ما بين القوسين ساقط من ط.

283) تجريد العقائد ، تأليف نصير الدّين محمّد بن محمّد الطّوسي (ت. 672 / 1273) قال في كشف الظنون 346 : «هو كتاب مشهور إعتنى عليه الفحول وتكمّلوا عليه بالرد والقبول له شروح كثيرة وحواش عليها. وممّن شرحه شمس الدّين محمّد بن عبد الرّحمان الإصبهاني (ت. 746 / 1345) وإشتهر هذا الشّرح بين الطّلاّب بالشّرح القديم ، وعليه حاشية عظيمة للسّيّد الشّريف الجرجاني (ت. 816 / 1414) وقد اشتهر هذا الكتاب بين علماء الروم (الأتراك) بحاشية التجريد والتزموا تدريسه بتعيين بعض السّلاطين الماضية ، ولذلك كثرت عليه الحواشي والتعليقات ، وهي من تأليف علماء الأتراك وهي كثيرة ، وله شروح من علماء آخرين». انظر كشف الظنون 346/1 – 351.

284) في الأصول : «الفراوي».

285) السُّلطان بايزيد الثّاني عصاه أولاده وتمرّدوا عليه وقادوا الجيوش ضده وابنه سليم ممن تمرّد عليه وكان محبوبًا من الجند لمحبته للحرب ، وقد فرضه الأنكشارية على والده السُّلطان وألزموه بالتنازل لفائدته فقبل واستقال في 8 صفر 918 / 25 أفريل 1512 وبعد 20 يومًا سافر للإقامة ببلد ديموتيقا فتوفّي في الطُّريق يوم 10 ربيع الأول سنة 918 / 26 ماي 1512 عن 67 سنة ومن حكمه 32 سنة (تاريخ الدولة العلية 187).

286) 1512 م.

السُّلطان سليم خان الأوّل الغازي :

فاستقل بالسَّلطنة بعده[287] ولده السُّلطان سليم خان الأوّل كاسر أكاسرة العجم ، وفاتح أقاليم مصر والشَّام – طيَّب الله ثراه وجعل الجنّة متقلبه ومثواه – مولده في أماسية[288] سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة[289] ، وجلس على تخت السلطنة سنة وفاة والده وعمره إذ ذاك ست / وأربعون سنة ، ومكث في السَّلطنة تسع سنين وثمانية أشهر ، ووفاته [17/أ] عن أربع وخمسين سنة[290] – كان رحمه الله – سلطانًا قاهرًا قوي البطش ، كثير الفحص عن أخبار الملوك والرعايا ، وكان يُغيِّر زيه ولباسه باللّيل والنّهار ليتفقّد أحوال رعيّته وأسرار مملكته ، وله عدّة مصاحبين يدورون تحت قلعته وأسواق بلده والجمعيات[291] والمحافل ، ومهما سمعوا شيئا ذكروه له في مجلس المصاحبة فيعمل على مقتضى ما يثبت عنده ، وكان – رحمه الله – قامعًا للبدعة .

حركة شاه اسماعيل ومقاومة السُّلطان سليم له :

فمن ذلك أنه ظهر غاية الظهور في أيّامه شاه إسماعيل إبن الشيخ حيدر إبن الشيخ جُنيد إبن الشّيخ إبراهيم ، إبن السُّلطان خواجا شيخ[292] علي إبن السُّلطان صدر الدّين موسى إبن الشّيخ صفي الدّين[293] صاحب زاوية أردبيل[294] له سلسلة في الصّلوحية ،

287) النّقل من الإعلام من ترجمة سليم خان ص 266 .

288) كذا بالأصول والإعلام . ومن كتبها : «أماسيا» .

289) 1467 – 1468 م .

290) كذا بالأصول والإعلام . والصّحيح عن 51 سنة لأنّ ولادته كانت في سنة 875 / 1470 – 1471 ووفاته في 9 شوال سنة 926 / 22 سبتمبر 1520 . ويلقب بياوز أي القاطع . أنظر تاريخ الدولة العلية ص 197 .

291) في الأصول : «الجمعيات» .

292) في الأصول : «السلطان خواجا الشيخ» والمثبت من الإعلام ص 271 . وهو علاء الدّين أبو الحسن علي إبن الشّيخ صدر الدّين إبن الشّيخ صفي الدّين الأردبيلي ، توفّي بالقدس في جمادى الأولى سنة 832 ، أنظر الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل لمجي الدين الحنبلي 169/2 ، دار الجيل لبنان 1973 .

293) إسحاق الأردبيلي وإليه ينسب أولاده فيقال لهم الصّفويون . الإعلام للنهروالي ص 271 .

294) في الأصول : «أدربيل» والمثبت من الإعلام . قال عنها ياقوت : «من أشهر مدن أذربيجان... وقال أبو سعد : لعلّها منسوبة إلى أردبيل بن أرميني بن لنطي بن يانون» معجم البلدان 145/1 .

أخذ عن الشّيخ الزّاهد الجيلاني[295] ويتقرّبون[296] بالنسبة إلى الإمام الغزالي ، توفّي الشّيخ صفي الدّين في سنة خمس وثلاثين وسبعمائة[297] وهو أوّل من ظهر منهم بطريق التّصوّف ، وأوّل من اختار سكنى أردبيل ، وبعد موته جلس في مكانه ولده الشّيخ صدر الدّين موسى ، وكانت السّلاطين تعتقده وتزوره ، وممّن زاره والتمس بركته تيمور لنك لمّا عاد من الرّوم ، وسأله أن يطلب منه شيئًا فقال له : أطلب منك أن تطلق كلّ من أخذته من بلاد الرّوم سركنًا[298] فأجابه إلى سؤله فأطلق السّركن[299] جميعهم ، فصار أهل الرّوم يعتقدون الشّيخ صدر الدّين وجميع المشايخ / الأردبيليين من ذريته ، وحجّ [17/ب] ولده السّلطان خواجا علي ، وزار النبيء ﷺ وتوجّه إلى زيارة بيت المقدس فتوفّي هنالك ، وقبره مشهور في بيت المقدس ، وكان ممّن يعتقده ميرزا شاه[300] رخ بن تيمور لنك ويعظّمه ، فلمّا جلس الشّيخ جُنيد بعد والده في الزّاوية بأردبيل كثر مريدوه وأتباعه في أردبيل ، فتوهّم منهم صاحب أذربيجان يومئذ وهو السّلطان جهانشاه[301] إبن قرا يوسف التّركماني من طائفة قره قوينلو[302] فأخرجهم من أردبيل فتوجه الشّيخ جُنيد مع بعض مريديه إلى ديار بكر ، وإنصرف عنه الباقون ، وكان من أمراء ديار بكر يومئذ عثمان بيك بن قُتلق بيك بن علي بيك البابندري[303] وهو أوّل من تسلطن من طائفته[304] ، وولي السّلطنة منهم تسعة أنفس ، ومدّة ملكهم إثنان وأربعون سنة ، وأخذوا ملك فارس من طائفة قره قُويُنلو[305] ، واوّل سلاطينهم قره يوسف[306] بن قره محمّد التّركماني ،

---

295) كذا بالأصول . وفي الإعلام : «زاهد الكيلاني».

296) في ش وب وت : «يتقربن» . وفي ط : «يتقرب» . وهم علويون حسنيون والشاه إسماعيل هو مؤسس الدّولة الصّفوية الفارسية .

297) 1334 - 1335 م . في الأصول : «سنة ثلاثين وثمانمائة» والتّصويب من الإعلام ص 271 .

298) في الأصول : «تركيا» والمثبت من الإعلام ص 271 .

299) في الأصول : «الترك» والمثبت من الإعلام.

300) في الأصول : «فرزشاه» والمثبت من الإعلام.

301) في الأصول : «شاهنشاه» والمثبت من الإعلام.

302) في الأصول : «آق قونيلو» . والمثبت من الإعلام ص 271 .

303) في الأصول : «البندقداري» والمثبت من الإعلام ص 272 .

304) أي من طائفة آق قوينلو.

305) في الأصول : «آق قونيلو» والتصويب من الإعلام ص 272 .

306) في الأصول : «قرا» والتصويب من الإعلام.

ومدّة سلطنتهم ثلاث وستّون سنة ، وإنقرض ملكهم على يد أوزون[307] حسن بيك المبرور[308] في شوّال سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة[309] ، وكان أوزون[307] حسن ملكا شجاعًا مقدامًا مطاعًا[310] مظفّرًا في حروبه ، ميمونًا في نزوله وركوبه إلّا أنّه وقع بينه وبين السُّلطان محمّد إبن السُّلطان مراد خان حرب عظيم في بابرت فانكسر أوزون[307] حسن ، وقُتل ولده زنيل بيك ، وهرب هو وسلم من القتل وعاد إلى أذربيجان وملك / [18/أ] فارس والعراقين ، ولمّا إلتجأ الشّيخ جُنيد إلى طائفة آق قُويُنلو[311] صاهره أوزون[307] حسن بيك وتزوّج إبنته خديجة بيكم فولدت له الشّيخ حيدر ، ولمّا استولى أوزون[307] حسن بيك على البلاد وطرد منها ملوك قره قُويُنلو[312] وأضعفهم عاد الشّيخ جُنيد مع ولده الشّيخ حيدر إلى أردبيل وكثر مريدوه وأتباعه ، وتقوّى بأوزون[313] حسن بيك لأنه صهره ، فلمّا توفّي أوزون[313] حسن بيك ولي موضعه ولده السُّلطان خليل ستّة أشهر ، ثم ولده الثّاني السُّلطان يعقوب فزوج إبنته حليمة بيكم من الشّيخ حيدر فولدت له شاه[314] إسماعيل في يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من رجب سنة إثنتين وتسعين وثمانمائة[315] ، وكان على يديه هلاك ملوك العجم طائفة آق قُويُنلو[316] [وقره قوينلو وغيرهم][317] من سلاطين العجم كما هو مشهور ، وكان الشّيخ جُنيد (جمع طائفة من مريديه)[318] وقصد قتال كرجستان ليكون من المجاهدين في سبيل الله ، فتوهّم منه سلطان شروان أمير خليل [الله][319] شروان شاه فخرج إلى قتاله فانكسر الشّيخ جُنَيد وقُتِل وتفرّق مريدوه ثم

307) في الأصول : «أزن» . وفي الإعلام : «أوزن» والتصويب من تاريخ الدولة العلية .
308) في الإعلام : «المذكور» .
309) أفريل ماي – 1469 م وفي الأصول : «اثنين وسبعين» والتصويب من الإعلام .
310) في الأصول : «مطيعًا» .
311) يقال أيضًا قويتلي .
312) في الأصول : «آق قيونلو» والتصويب من الإعلام .
313) في الأصول : «أزن» .
314) في الأصول : «الشيخ» والتصويب من الإعلام .
315) 17 جويلية 1487 م .
316) في الأصول : «قونيلو» .
317) إضافة من الإعلام .
318) كذا في ش والإعلام . وفي ط وت وب : «مع طائفة مريديه .
319) إضافة من الإعلام .

إجتمعوا بعد مدة على الشَّيخ حيدر وحَسَّنوا له الجهاد والغزو في حدود كرجستان ، وجعل لهم رماحًا من [أعواد][320] الشجر ، وركَّبوا في كلّ عود سنانا من حديد ، وتسلَّحوا بذلك ، وألبسهم الشَّيخ حيدر تاجًا أحمر من الجوخ ، فسمّاهم النَّاس قزلباش[321] وهو أول من ألبس أتباعه التاج الأحمر فأرسل شروان شاه إلى السُّلطان يعقوب / بن [18/ب] أوزون[322] حسن يخوّفه من خروج الشَّيخ حيدر على هذه الصفة فأرسل أميرًا من أمرائه اسمه سليمان بيك بأربعة آلاف من العسكر ، وأمره أن يمنعهم من هذه الجمعية[323] ، فما أطاعه ، فاتّفق مع شروان شاه فقاتلاه ومن معه ، فقُتل الشَّيخ حيدر ، وأُسِّر ولده شاه إسماعيل وهو طفل ، وأُسِّر معه إخوانه وجماعته ، وجاء بهم سليمان بيك إلى السُّلطان يعقوب فأرسل بهم إلى قاسم بك الفرناك وكان حاكم شيراز[324] من قبل السُّلطان يعقوب ، وأمره أن يحبسهم في قلعة إصطخر[325] ، فحبسهم بها واستمروا محبوسين إلى أن توفّي السُّلطان يعقوب في سنة ست وتسعين وثمانمائة[326] ، وتولّى بعده السُّلطان رستم[327] ونازعه في سلطنته أخوانه ، وتفرقت المملكة واستقر[328] في كل قطر ملك من أولاد السُّلطان يعقوب ، فهرب أولاد الشيخ حيدر إلى لاهجان[329] من بلاد كيلان ، وخرج من إخوان شاه اسماعيل خواجة شاه علي إبن الشَّيخ جُنيد[330] وجمع عسكرًا من مريدي

---

320) إضافة من الإعلام.

321) ومعناه الرؤوس الحمر بالتركية ، وهذا التَّاج الأحمر ذو إثنتي عشرة ذؤابة كناية عن الإثني عشر إمامًا . تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان 3 /120.

322) في ش : «أزن».

323) في الأصول : «الصفة» والتصويب من الإعلام ص 273.

324) في ش وب وت : «شريان» . وفي ط : «شرنان» والتصويب من الإعلام.

325) في الأصول : «اسطمي» والتصويب من الإعلام. وإصطخر مدينة من كور فارس ولها نواح... وهي أقدم مدن فارس وأشهرها إسمًا وكانت دار ملوكها إلى أن ولي ازدشير الملك فنقل ملكهم إلى جور وجعلها دار الملك . الرّوض المعطار 43 . أنظر عنها أيضًا معجم البلدان 210/1.

326) 1490 – 1491 م . وفي الأصول «ست عشرة وثمانمائة» والتصويب من الإعلام.

327) في الأصول : «رسيم».

328) في الإعلام : «واستقل».

329) في الإعلام : «لاهجان» وهو تحريف قال الحموي : «لاهجان بكسر الميم ، وجيم وآخره نون : قرية بينها وبين همذان سبعة فراسخ». معجم البلدان 8/5.

330) في الأصول : «الجنيد».

أبيه وقاتل به فقتل [أيام السُّلطان رستم ابن السُّلطان يعقوب، ثم توفّي](331) السُّلطان رستم(327) وولي مكانه السُّلطان مراد بن يعقوب وألْوَنْد بيك إبن عمه وكان شاه(332) إسماعيل في لاجحان في بيت صائغ إسمه زركر(333). وبلاد لاجحان فيها كثير من الفِرَق كالرّافضة والحروفية(334) والزَّيدية وغيرهم، فتعلم منهم شاه إسماعيل في صغره مذهب الرّفض وكان شعار آبائه مذهب السّنّة / ولها مطيعين منقادين، ولم يُظْهر الرّفض غير شاه إسماعيل، وتطلبه أكثر أمراء أَلْوَنْد بيك من سلطان لاجحان فأبى أن يسلّمه لهم(335)، وأنكر كونه عندهم وحلف على ذلك وورّى في يمينه، وكان مختفيًا في بيت نجم زركر(333)، وكان يأتيه مريدو والده خفية، ويأتونه بالنذور ويعتقدون فيه، ويطوفون بالبيت الذي هو فيه إلى أن أراد الله بما أراد، وكثرت داعية الفساد أتباع شاه إسماعيل، فخرج بمن معه من لاجحان، وأظهر الخروج لأخذ ثأر والده وجده (في أوائل سنة خمس وتسعمائة)(336) وعمره يومئذ ثلاث عشرة سنة، وقصد مملكة الشروان لقتل(337) شروان شاه قاتل أبيه وجده وكلّما سار منزلاً كثر عليه سفلة النّاس داعية الفساد، واجتمع عليه عسكر كثير إلى أن وصل بلاد شروان، فخرج إلى مقاتلته شروان شاه بعساكره فاقتتلوا فانهزم عسكر شروان (وأسر شروان شاه)(338) وأتوا به (إلى شاه إسماعيل أسيرًا)(339) فأمر أن يضعوه في قدر كبير وأن يطبخوه ويأكلوه ففعلوا كما أمروا وأكلوه، ثم توجه لأخذ البلاد من سلاطينها فاستولى على خزائن ألوند بيك بعد قتله ونهب أمواله، ثم قَتَل كل من ظفر به من الملوك فملك تبريز(340) وأذربيجان وبغداد وعراق العرب وعراق العجم وخراسان، وكان يدعي(341) الرّبوبية، وتسجد له العساكر ويأتمرون بأمره، وقَتَل / خلقًا

[19/أ] [19/ب]

331) إضافة من الإعلام يقتضيها السياق.
332) في الأصول: «الشيخ» والتصويب من الإعلام.
333) في الأصول: «زوكر» والتصويب من الإعلام ص 274.
334) في الأصول: «الحرورية».
335) كذا في ط والإعلام ص 274، وفي ش وت وب: «فأبى إسلامه».
336) 1499 م. وفي ط: 950 هـ، وفي الإعلام: «أواخر 905 هـ».
337) في الإعلام: «لقتال».
338) ما بين القوسين ساقط من ط.
339) كذا في ط والإعلام، وما بين القوسين ساقط من ش وب وت.
340) في الأصول: «برين» والتصويب من الإعلام ص 275.
341) في الإعلام: «وكاد أن».

كثيرًا يَنيف على ألف ألف نفس بحيث لم يعهد في الإسلام ولا في الجاهلية ، ولا في الأمم السابقة من قتل النفوس ما قتله إسماعيل شاه ، وقتل عدة من أعاظم العلماء بحيث لم يبق أحدًا من أهل العلم في بلاد العجم ، وأحرق جميع كُتبهم ومصاحفهم لكونها مصاحف أهل السّنّة ، وكلّما مرّ بقبور المشايخ نبشها وأحرق عظامهم بعد إخراجها ، وكان مختلّ العقل فمن جملة حماقاته[342] أن جعل كلبًا من كلاب الصَّيد أميرًا ورتَّب له ترتيب الأمراء من الخدم والكواخي والسِّماط والأوطاق وفرش الحرير ونحو ذلك ، وجعل له سلاسل من ذهب ومسندة ومرتبة يجلس عليها كالأمراء ، وكان أتباعه يعتقدون ألوهيته[343] وأنه لا ينهزم أبدًا.

فلما وصلت أخباره إلى السُّلطان سليم خان غضب لله من هذه الكفريات المبكية والسُّخريات المضحكة ، فأقدم على نصر الشريعة المشرّفة والسّنّة المطهَّرة ، وعدّ قتال هذه الفرقة الضَّالَّة المضلّة من أفضل الجهاد ليمحو آثار هذه الفتنة الخبيثة وينصر السّنّة المحمّدية والملّة الحنيفية ، فركِب بخيله ورجله حتَّى التقى الجَمْعان بعد مقاساة أهوال وشدة أحوال وكادت[344] الخلائق تفنى [ثم] أنزل الله النَّصر على أهل السّنّة والدَّمار والهلاك على أهل الكفر والبدعة ، فانهزم شاه إسماعيل وقتل غالب جنوده ونصر الله تعالى السُّلطان سليم وعساكر السّنّة / فأتبعت عساكره آثار القوم الفاسقين ، وذهب شاه إسماعيل منهزمًا فارًّا [20/أ] مذمومًا مدحورًا ، ﴿فما أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾[345] ، وغنم السُّلطان سليم وعساكره ما كان جمع شاه إسماعيل ممّا لا نظير له من ذخائر الملوك وكنوزهم ، ثم أعطى الأمان العام بعد قتل من يستحقّ القتل ، وأسر من يستحقّ الأسر من رؤوس الفساد ، وأراد السُّلطان سليم أن يقيم في تبريز للإستيلاء[346] على إقليم العجم والتّمكّن[347] من تلك البلاد على الوجه الأتم ، فما أمكنه ذلك لكثرة القحط واستيلاء الغلاء حتى بيعت العليقة بمائتي درهم ، وبيع الرّغيف بمائة درهم ، لأن القوافل التي

342) في ت وط : «حماقته».
343) في الإعلام للنهروالي : «يعتقدون فيه الألوهية».
344) في ط وب : «وكانت» . وفي ش : «وكانت الخلايق في عسر إذ أنزل».
345) إقتباس من الآية 2 : سورة المسد.
346) في الأصول : «تدبير الإستيلاء».
347) في الأصول : «الممكن».

كان أعدّها السُّلطان سليم لأتباعه[348] بالميرة والعليق والمؤن تخلفت عنه في محلّ لا مطمع فيها منه ، ولم يجدوا في تبريز[349] شيئا من المأكولات والحبوب لأن شاه إسماعيل عند قدوم[350] السُّلطان سليم أمر بإحراق جميع الحبوب من الشّعير وغيره ، فاضطرّ السُّلطان سليم إلى العود من تبريز[349] إلى بلاده ، فترك تبريز[349] خاليه خاوية على عروشها هذا ما ذكره الأزرقي في كتاب «أعلام مكّة»[351].

وقال الشّيخ علي دده[352] في «محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر» : أول من تجبّر وطغى ، ورفض أحكام الشريعة وغوى ، وخان الملّة الإسلامية خيانة لم يسمع بمثلها من الفراعنة ، وقهر ملوك العراقين ، وأبطل الخطبة من الجوامع كلّها ، ومنع من الأنكحة في محافل القضاء ، وأفشى منع النكاح بل عدل عنه / إلى الزّناء ، وأباح فروج النّساء حتّى [20/ب] الجمع بين الأخوات والخالات واللّواط لمردة الأشقياء ، الملك الشقي الغوي الشهير شاه إسماعيل بن حيدر بن جُنيد بن إبراهيم إبن الشّيخ العثماني خواجة بن صدر الدّين ابن الشّيخ الصفي الأردبيلي ، قطع الله أعراقهم من العراق وجميع ممالك الآفاق مع أشياعهم الشّيعة النجسة المنجوسة المجوسية الدهرية ، بل إنهم أخبث الفرق الضّالّة المضلّة ، أهلك الله أسرارهم ، ومحا من وجه الأرض آثارهم بسيوف الملوك العثمانية السنية المؤيّدة بالقوة القدسيّة ، لا زالت سيوفهم مسلولة عليهم وعلى أمثالهم من أعداء الدين.

وجُنيد هو أوّل من ظهر بالبغي[353] والتمرُّد ، وطائفته يسمُّون بقزلباش ، فهو أول الفرقة القزلباشية ، ومنه ثار العدوان لأهل الإيمان ، فتملّك العراق بكيده وحيله الّتي لم

---

348) في ط : «لا تباع».

349) في الأصول : «برين» والتصويب من الإعلام.

250) في الإعلام ص 277 : «عند انكساره».

351) كذا في الأصول والصّواب : النّهروالي في الإعلام بأعلام بيت الله الحرام كما سبق التّنبيه إليه والمؤلف نقل ما في الإعلام مع اختصار قليل لبعض الفقرات ص 271 – 277.

352) علي دده بن مصطفى الموستاري ، ثم السكتواري علاء الدين ، الملقب بشيخ التربة ، فاضل بوسنوي مستعرب (ت. 1007 / 1598) ولما فتح السُّلطان سليمان العثماني قلعة سكتوار من بلاد المجر ومات بها ، أقيم علاء الدين شيخًا لتربته ، فلقب بشيخ التربة ، وتوفي عائدًا من غزوة ، فنقل إلى سكتوار ودفن بها. وكتابه محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر ، مطبوع ولم نره وممّا طبع من مؤلفاته خواتم الحكم ، ومن مؤلفاته الباقية تمكين المقام في المسجد الحرام ، ومناقب مكة. أنظر الإعلام للزركلي 287/4 (ط. 5) وله ترجمة قصيرة في خلاصة الأثر للمحبي 200/3.

353) في ط : «البغي».

يُسْمع بمثلها من إبليس الأبالسة ، وذلك أنّه شبَّه نفسه بمشايخ الصُّوفية والسُّنّة ، وأظهر السُّمعة(354) والرِّياء ، وتعلّم من أقوال الصُّوفية واصطلاحاتهم ، فاجتمع مع خواص السُّلطان السَّعيد حسن خان بن علاء الدين(355) البايزيدي ووزرائه وأعوانه ، وأخذ البيعة عنهم ، وعلَّمهم التّوحيد والأذكار ، وتابعوه إلى أن تزوَّج بنت السُّلطان ، فسلك طريق الإمارة ، وتجبر وطغى وادّعى السَّلطنة ، وأظهر البدعة / واللّواط ، وأفسد عقائد الخلق ، [21/أ] لا جرم خذله الله وقهره على يد الملك الصالح خليل خان الشِّرواني ، ثم بعد هلاكه فرّت المتصوّفة الزنادقة بولده حيدر المذكور ، ومكث زمانًا إلى أن بلغ فسعى في صورة الصّوفية ، وقصد بذلك كيدًا وجمع الأشقياء مَرَدَةَ أبيه ، واتخذ التاج من الجوخ الأحمر بإثني عشر رقاعًا ويسمَّى بتاج حيدرية ، ثم هجم على أهل شروان بالقتال والحرب ، ثم خرج شروان شاه مع سليمان خان العثماني فهزموا الملاحدة بإذن الله سبحانه وتعالى ، وقُتِل حيدر الشّقي الغوى في المكان الّذي قتل فيه أبوه ، ثم أخذ بعض مردته ابنه الشقي الشهير بشاه إسماعيل – المتقدّم الذّكر – وفرَّ به وستره بين النَّصارى ، ثم ظهر بعد سنين ، وجمع الملاحدة واغتنم فرصة واستولى على العراق ، وقتل الملوك والأمراء والعلماء إلى أن قهره وهزمه الملك الغازي سليم خان العثماني – عليه الرّحمة والرّضوان – .

ثم مات الشَّقي شاه إسماعيل حتف أنفه ، وعجَّل الله بروحه إلى النَّار وبئس القرار ، ثم جلس مكانه ولده الغوي طهمساب(356) الفتَّان ، فأظهر ونشر الرفض والطغيان في ممالك خراسان إلى أن قهره وغلبه السُّلطان المجاهد سليمان خان – عليه الرَّحمة والرِّضوان – .

ثم جرى ما جرى بين الرّافضة(357) من الفتن والشّر والطغيان إلى أن انتقم الله منهم وسلَّط الله سيوف / عساكر الإسلام على رقابهم عشر سنين في دولة الملك المنصور مراد [21/ب] خان – عليه الرَّحمة والرضوان – ولا زالوا إلى الآن ظاهرين بالخلاف ومعادات أهل السّنّة ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾(358) اهـ.

---

354) في ط وب : «السمع».
355) في الأصول : «علاي الدين».
356) في ش وب وت : «طسماسب» ، وفي ط : «سطماسب».
357) كذا في ط ، وفي ب وت وش : «الرفضة».
358) إقتباس من الآية 87 من سورة الأعراف.

قلت : وإلى الآن ما زالوا متمسكين ببغيهم وبدعتهم ، وسبب طول مدتهم مع أن العساكر العثمانية – نصرهم الله على كل من عاداهم – هو إشتغال العساكر العثمانية بعدوّ الدّين من النّصارى لقرب داره وخوفًا على حوزة الإسلام بخلاف قزلباش فإنه بعيد الدّيار ونكايته أضعف ، والسّبب في الحقيقة هو إرادة الله ﴿ولَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[359].

أخذ سليم الأوّل لبلاد الشّام ومصر:

ولمّا استقرّ السُّلطان سليم – رحمه الله تعالى – بدار سلطنته سأل عن سبب تأخّر قوافل[360] الذّخيرة عنه فأخبر أن سبب ذلك سلطان مصر الغوري فإنه كان بينه وبين شاه إسماعيل مَحَبَّةٌ أكيدة ومراسلات حتى اُتُهِم الغوري بالرفض في عقيدته بسبب ذلك ، فصمَّم السُّلطان سليم على قتال الغوري أوّلاً فإذا استولى عليه وعلى بلاده توجّه إلى قتال شاه إسماعيل ثانيًا ، فتجهّز لأخذ مصر وإزالة دولة الجراكسة[361] منها بقتل الغوري وأتباعه.

والجراكسة جنس من الترك في مشارق الأرض لهم مدائِن عامرة ، وفيهم الجمال البارع ، ولهم في بلادهم أغنام يرعونها ومزارع يزرعونها ، وهم أتباع سلطان سراي[362] قاعدة ملك خوارزم ، وملوك هذه الطّوائف / لملك سراي كالرعية ، فهم يقاتلونهم ويسبون منهم النّساء والأولاد ، ويجلبونهم إلى أطراف البلاد والأقاليم ، ذكره المقريزي في عقوده ، وقد أسلفنا أنهم ملك منهم طائفة مصر بعد الأتراك. [22/أ]

وآخر الجراكسة هو الغوري المذكور ، وذكروا لتوليته أمرًا غريبًا وذلك أن عساكر مصر لما ولّوا[363] عليهم طهمان الملقب بالملك العادل فما استكمل يومًا واحدًا حتى هجموا

---

359) سورة هود : 118.

360) رجع إلى النقل من الإعلام للنهروالي ص 277.

361) إنتهى نقله من الإعلام.

362) جاء في معجم البلدان : «سراو ، مدينة بأذربيجان بينها وبين أردبيل ثلاثة أيام ، وهي بين أردبيل وتبريز» 204/3.

363) في ط : «ولي».

عليه وقتلوه ، فما أقدم[364] أحد على السَّلطنة ، وكانت الأمراء متوفرة ، وكلّهم[365] يشير لصاحبه بالجلوس على تخت الملك خوفًا على نفسه من الموت إذا تولّى ، فاتفقوا على أن يولّوا قانصوه[366] الغوري ، ولقّبوه بالملك الأشرف ، وإنما إتفقوا عليه لكونه في أول أمره كان ليّن العريكة ، سهل الإزالة فأي وقت أحبّوا إزالته أزالوه لقلّة مَالِه وضُعْف حاله ، فأشاروا له بالتقدم فأبى فألزموه بذلك ، فقال : لا أقبل ذلك منكم إلّا بشرط أن لا تقتلوني ، فإذا أردتم خلعي من السَّلطنة أخبروني وأنا أوافقكمْ على ما تريدونه وأترك لكم الملك ، وأمضي حيث أشاء ، فعاهدوه على ذلك ، فقبل منهم ما طلبوه ، فتولّى السَّلطنة سنة ست وتسعمائة[367] ، ففرح العسكر بولايته لأنهم يسموا بتبدل[368] السَّلاطين ، وسرعة تقصي صرفهم ، بل فرح[369] العامة ووطنوا الأمن على أنفسهم وأموالهم ، وكان كثير الدّهاء ذا رأي وفطنة وتيقظ ، إلّا أنّه كان شديد الطَّمع فظلم وعسف وبخل ، وكان مغرمًا مولعًا بالعمارات والأبنية ، فمن جملة عماراته الجامع والتربة / المشهورين [22.ب] بالغورية في وسط القاهرة بالقرب من الجامع الأزهر وما بين القصرين ، وكان في نيته أن يُدْفن بتربته فأوقف عليها أوقافًا كثيرة ، وما قدر له دفنه فيها ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[370] فلمّا حضرت منيّته ذهب تحت سنابك الخيل - كما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى - .

وكان يبسط حرمته على الأمراء بالتنزل معهم من غير تشديد عليهم ، ولا إظهار عظيم أمر ولا نهي في ابتداء أمره إلى أن تمكّن من قوّته وبأسه حتى حُكِي أنه توهَّم من عساكره مبادئ فتنة أراد الأمراء إحداثها ليجعلوها مقدّمة لخلعه من السَّلطنة ، فعمل ديوانًا جمع فيه الأمراء والمقدّمين وأمرهم بالجلوس ، وجلس بينهم كأحدهم ، وكانت عادة الأمراء الوقوف معه إلّا على سماط الأكل فقط ، فلمّا جلس بينهم إستنكروا ذلك منه فجعلوا يسألون عن سبب ذلك فرفقهم وصاروا كلهم مصغين لما يقوله متوجهين إليه

---

364) كذا في ط . وفي ش وت وب : «قدم».
365) في ط : «وكل منهم».
366) في ش وت وب : «قانوصاه» . وفي ط : «قانوصوه».
367) 1501 م.
368) في ط : «يسرون بتبديل».
369) في ش : «خرج».
370) سورة لقمان : 34.

غاية التّوجّه فقال لهم : إنما جمعتكم لأسألكم الآن عن سؤال خطر ببالي وأريد منكم جوابه على الوجه الّذي ترونه صوابًا ، فقالوا : نعم ، فقال : أسألكم عن جماعة جاؤوا إلى رجل بوديعة مربوطة مختومة ، وطلبوا إيداعها عنده ، فقال : لا أستودعها إلّا بشرط أنكم إذا طلبتموها أخذتموها بلا نزاع ولا خصومة فأردّها إليكم ، فقالوا له : نعم ، فأودعوها على ذلك الشرط ومضوا ، ثم عادوا إليه بعد مدّة وقالوا له : نريد الوديعة بنزاع شديد / ومخاصمة ومضاربة ، فقال لهم : هذه وديعتكُم خذوها بلا نزاع عملاً بمقتضى الشّرط فأبوا قبولها إلّا بمقاتلة ، فأيّهم على الباطل وأيّهم على الحقّ؟ فعلموا مراده ، واستحيوا منه ، وقال لهم : ما جلست معكم إلّا لتعلموا أني كأحدكم لا أمتاز عنكم بشيء ، وهذه السلطنة أسلّمها إليكم بلا نزاع ، وأنا واحد من الجند ، فقبّل كلّ منهم يده وأذعنوا له وسألوه البقاء على السّلطنة ، فسكنت الفتنة دهرًا ثم استعلوا عليه بضروريات أخر ، فطاولهم[371] بالحيل إلى أن أخذهم واحدًا بعد واحد ، ويتغافل ثم يجعل حيلة أخرى فيأخذ هذا بهذا ويوقع بينهم الدّسائس ، ويدسّ لهم السّمّ في العسل حتى أفنى قرانصتهم[372] ودهاتهم إلّا قليلاً منهم ممّا لا بدّ له ، واتخذ لنفسه مماليك جددًا واستجلب جلبانًا وأعدّ عَدَدًا وعُدَدًا ، فصاروا يظلمون النّاس ويعسفونهم ويعاملونهم غشمًا وصار هو يقضي عن مماليكه فأظهروا الفساد وأهلكوا البلاد والعباد حتى أن أحدهم يأكل فإذا خرج إلى الطّريق ووجد أحدًا من الناس مسح يديه في أثوابه فأعدّ النّاس لهم الفوط على أكتافهم ، فإذا لقوا أحدًا منهم وأراد مسح يديه بثيابه ناوله تلك الفوطة ، فمن أجل ذلك إستعمل النّاس الطّيالس على أكتافهم عوضًا عن تلك الفوطة الّتي إعتادوها بعد زوال تلك المحنة ، ثم إن الغوري صار يصادر النّاس بأخذ أموالهم غصبًا وقهرًا ، وكثرت السّعاية / في أيامه بالنّاس لكثرة ما يصغي إلى مماليكه ، فصاروا إذا شاهدوا واحدًا توسّع في دنياه أو أظهر التّجمّل في ملبسه ومثواه سعوا به إلى الغوري ، فيرسل إليه الأعوان ويطالبه بالعرض ويستصفي ماله ويسلّمه إلى الأعوان والضوباشي ليأخذ ماله ، ويهتك أهله وعياله ويعذّبه بأنواع الأسلحة إلى أن يصير فقيرًا ، فجمع من هذا أموالاً كثيرة وخزائن وسيعة فذهبت في آخر الأمر سدى[373] ، وتفرقت للعداء ، وهكذا كلّ مال أخذ

[23/أ] [23/ب]

---

371) في ط : «فعالجهم».

372) لعل الصواب : «قراصنتهم».

373) في الأصول : «سدا».

ظلمًا لا ينفع من جمعه بل يكون سببًا لهلاكه لأن القدرة غيورة. قال الشّاعر:
[الطويل]

أَلا إِنَّ مَالاً كان من غير حلّه سَيَخرب يَوْمًا دَارَ من كان جامعه

وأبطل في أيامه الإرث فإذا مات أحد أخذ الغوري جميع ماله وترك أولاده عالة[374] يتكففون ومن رفق بهم أبقى لهم شيئًا يسيرًا يسدّ الرّمق، فاشتد طلبه على الحطام الفاني، وتهالك على الظلم والفساد فعتا عتوا كبيرًا، فاستجاب الله تعالى فيه دعاء المظلومين بقطع دابره، وذلك إنه لمّا سمع بخروج السُّلطان سليم لقتاله جمع الغوري جنوده وخزائنه وخرج إلى حَلَبْ لملاقاة السُّلطان سليم. فلمّا التقى الجمعان بمرج دابق[375] قرب حلب إشتد القتال بين الفئتين، وقامت الحرب على ساقها ودارت[376] الدّائرة على الّذين ظلموا، ونصر الله من نصر دينه فغار[377] الغوري[378] تحت سنابك الخيل ولم يظهر له خبر إلى الآن وذهبت ظلمات ظلم الجراكسة، فكانوا هباء / منثورًا، [24/أ] وكأنهم لم يكونوا شيئًا مذكورًا.

فأقبلت[379] رايات السُّلطان سليم على قلعة حلب الشّهباء، فطلب أهلها منه الأمان، فأجابهم إلى القبول لطفًا وكرمًا، فخرجوا إلى لقائه بالمصاحف وهم يجهرون[380] بالتّسبيح والتّكبير يتلون: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾[381]، فقابلهم بالإحسان والإكرام، وتصدّق بأنواع الصدقات، وحضرت صلاة الجمعة فخطب الخطيب باسمه الكريم، ودعا له ولآبائه وأسلافه، وبالغ في المدح والتّعريف، فلمّا سمع قول الخطيب في وصفه «خادم الحَرَمين الشريفين» سجد شكرًا لله تعالى وقال: الحمد لله

---

374) كذا في ط. وفي س و ب: «عالي». وفي ت «عراي»

375) «بكسر الباء وقد روي بفتحها وآخره قاف. قرية قرب حلب من أعمال عزاز عندها مرج معشب». معجم البلدان 416/2

376) كذا في ط و ت. وفي س و ب. «ودايرت»

377) في ت. «فصار».

378) وسبب هزيمة الغوري وقوع الخلاف بين فرق جيشه المؤلف من المماليك. وساعدت المدافع العثمانيين على النصر، وقتل الغوري أثناء انهزام الجيش وسنه 80 سنة وكان ذلك في يوم الأحد 25 رجب سنة 922 /24 أوت 1516 م. أنظر تاريخ الدّولة العليّة ص 192

379) رجع إلى النّقل من الإعلام للنّهروالي بتصرف ص 278.

380) كذا في ط والإعلام. وفي ت: «يجرون إليه بالتسبيح». وفي س و ب. «يخرون بالتسبيح»

381) سورة الأنفال: 17.

الذي يَسَّرَ لي أن صرت خادم الحرمين الشريفين ، وأظهر الفرح والسرور بتلقيبه بهذا اللقب المنيف[382] والاسم الشريف ، وخلع على الخطيب الخلع المتعددة وهو على منبره ، وزاد في إحسانه بعد ذلك ، ثم أقام بحلب أيَّامًا يسيرة وهو يمهّد الملك[383] ويجري أحكام العدل والسياسة ، ويحسن إلى العرب والعجم من كافة الأمم ، ثم انتقل بجيوشه إلى الشَّام ، فعاملهم بالإكرام معاملة أهل حلب ، وأمر بعمارة قبة[384] الشَّيخ محيي الدِّين ابن عربي –رحمه الله تعالى– وأوقف عليه مرتبات كثيرة وجعل]له[مطبخًا يُطْبخ فيه الطَّعام للفقراء المجاورين للضريح المذكور ، وجعل عليها متولّيا وناظرا لجمع غلات الأوقاف ويصرفها[385] في وجوهها حيث ما عيّن السُّلطان[386].

[24/ب] وهذا الشَّيخ محيي الدّين هو الّذي / نوّه[387] بشأن السُّلطان سليم تنويهًا عظيمًا ونصّ عليه وعلى وقائعه وفتوحاته ونصره وتمكين الله له في الأرض ، فمن جملة ما نصّ عليه ما وجد على قبره ، وذلك أن السُّلطان أوّل ما وصل إلى المدينة وجد عند بابها تلاًّ عظيمًا من مزابل النَّاس الّتي يطرحونها خارج البلد حتى كادوا يزاحمون الباب ويغمرونه في المزابل ، فأمر السُّلطان بإزالة تلك المزابل في الحين ليفرج عن باب المدينة ، فما زالوا يزيلون شيئًا فشيئًا حتى انكشف لهم قبر الشيخ ، وإذا عليه مكتوب : إذا دخل السين الشين ظهر محيي الدّين ، ففسَّره أهل المعرفة بكلام الرُّموز بأنه إذا دخل السُّلطان سليم الشام ظهر أمر الشَّيخ محيي الدّين[388] ، فأظهر السُّلطان أمر الشيخ غاية الظُّهور ، ولم يزل إلى الآن أمره قائمًا ظاهرًا ببركته ، وبركة السُّلطان سليم – رحم الله الجميع ونفعنا بهم وببركاتهم وبركات أمثالهم – .

---

382) ساقطة من ش.

383) في الأصول : «الممالك» والتصويب من الإعلام ص 279 .

384) في الإعلام : «تربة».

385) في الأصول : «صرفها».

386) إنتهى نقله من الإعلام.

387) قال النّهروالي : «ولا شكّ أنّ روحانية الشَّيخ – رضي الله عنه – هي الّتي جلبت السُّلطان سليم طيّب الله ثراه إلى سلطنة بلاد العرب ، وحصل له الإمداد العظيم بالبركة والتأييد في حصول ما أمّله وطلب ...» الإعلام ص 479 .

388) الكلام المتعلّق بالشَّيخ محي الدّين بن العربي يصدر عن عقلية مغرقة في التقديس لا عن عقليّة مؤرخ . ومناقشة كلّ هذا الكلام أمر يطول ، مع العلم بأنّ الأتراك يقدّسون الصّوفية كالشَّيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ محي الدّين بن العربي.

أخذ سليم الأوّل لمصر:

ثم بعد الفراغ من إصلاح الشّام ، وتفقد أحواله إنتقل لإصلاح مصر وتفقد أحوالها ، فتوجّه مسافرًا لها ، فلمّا حاذى[389] القدس والخليل إنفرد ببعض خواصه متوجّهًا لزيارة الخليل وبيت المقدس وزيارة المشهور من الأنبياء والمرسلين ، وأحسن إلى أهل القدس والخليل ، وجعل كلّما وصل إلى بلد أحسن إلى أهله وأظهر فيهم العدل وأزال ظلم الظالمين عن الخاصّة والعامّة ، وكان لمّا انهزم[390] الغوري فرّ بقية[391] من عسكره إلى مصر وولّوا عليهم الدّوادار[392] / الكبير مقدّم ألف طومان باي ، ولقّبوه بالملك [25/أ] الأشرف واجتمعوا عليه ، وحشدوا ما قدروا عليه ، وبرزوا إلى الريدانية خارج مصر[393] ونصبوا المدافع ، وتهيؤوا لقتال السُّلطان سليم ، فأخبرته العيون بصنعهم فعدل إلى مَيْسرتهم[394] وجاء من خلف جبل[395] المقطّم من وراء عسكر الجراكسة ، فما أغنى عن الجراكسة تدبيرهم شيئًا ، بل كان سعيًا في تدميرهم فانهزموا ورجعوا منكسرين ، ودخل السُّلطان سليم مصر بعساكره ونزل بساحلها في الجزيرة الوسطانية ، وطاف عسكره بالبلد ، وأمّنوا الناس ، وأزالوا عنهم الخوف والبأس ، إلّا من كان من الجراكسة ، فكلّما ظفروا بواحد منهم أمر بضرب عنقه ، فعفنت الأرض والنّيل من جيفهم ، وأحضر طومان باي أسيرًا فأمر أن يركب على بغلة[396] ويطوف[397] بالعسكر ويمضي به إلى باب زويلة ويصلب فيه ليراه الناس بأعينهم ، ويصدقوا بأنه مُسِك ، وصُلِب لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة[398] ، ورتّب بها القضاة الأربعة ، فولّى كمال الدّين الطّويل قضاء الشافعية ، ونور الدّين علي بن ياسين

---

(389) في الأصول : «حاذا».

(390) في ش : «هزم».

(391) رجع إلى النقل من الإعلام ص 280.

(392) كذا في ط والإعلام . وفي ش وب وت : «الدويدار».

(393) على الحدود بين مصر وفلسطين.

(394) في الأصول : «مسيرتهم».

(395) في الأصول : «الجبل».

(396) كذا في ط وب وت والإعلام ص 281 . وفي ش : «بغل».

(397) في الإعلام ص 282 : «ويخف به اليكيجرية».

(398) 3 أفريل 1517 م.

الطرابلسي قضاء الحنفية ، وقاضي القضاة الدَّميري قضاء المالكية ، وشهاب الدّين أحمد ابن النجار قضاء الحنابلة ، لأن هذه الأربعة رؤساء المذاهب الأربعة ، فكل رئيس مذهب الذي جعل قاضيًا فيه ، وولّى ملك الأمراء خير بك / على مصر ، وولى جان [25/ب] بردي الغزالي(399) على الشّام ، ومهّد الأمور ، وسار إلى إسكندرية [وعاد إلى مصر ثم إلى تخت مملكته](400) راجعًا إلى القسطنطينية يوم الخميس لخمس بقين من شعبان سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة(401) ، وأخذ معه كثيرًا من أعيان مصر سُرْكُنًا إلى القسطنطينية ، ولم يتيسر له العود إلى العراق وبلاد العجم لمقاتلة القزلباش كما أضمر في نفسه لظهور جراحات فيه إتّصلت بموته في سنة ست وعشرين وتسعمائة(402) ، — رحمه الله تعالى —(403).

السُّلطان سليمان خان الأوّل القانوني :

فتولّى بعده ولده السُّلطان سليمان خان(404) في التّاريخ المذكور ، ومولده سنة تسعمائة(405) ، وتولّى وسنّه(406) ست وعشرون سنة [واستمر في السلطنة تسعًا وأربعين سنة وكان](407) عمره أربعًا وسبعين سنة وشهرين ، وهو سلطان غاز(408) في سبيل الله ، مجاهد في إعلاء كلمة الله ، كان — رحمه الله — مؤيدًا في حروبه ومغازيه ، أين سلك ملك ، وصلت سراياه مشارق الأرض ومغاربها ، فافتتح البلاد الشاسعة والأقطار الواسعة بالقهر

---

399) كذا في ط والإعلام ص 282 . وفي ش وب : «جاو بردى بك الغزالي».

400) إضافة من الإعلام للدقة.

401) 13 سبتمبر 1517 م.

402) 9 شوال / 22 سبتمبر 1520 في السّنة التّاسعة من حكمه والحادية والخمسين من عمره إذ كانت ولادته في سنة 875 . تاريخ الدولة العلية ص 197.

403) عن فتح السُّلطان سليم للشام ومصر أنظر : الإعلام للنّهروالي ص 277 – 283 ونقل المؤلف ما فيه مع تصرف قليل بالحذف وزيادة فيما يتصل بأمر الشيخ محي الدّين بن العربي.

404) سليمان خان الأول الملقّب بالقانوني وهو عاشر سلاطين آل عثمان.

405) في غرة شعبان / 27 أفريل 1495 م.

406) النقل من الإعلام ص 291 بتصرف.

407) إضافة من الإعلام ليستقيم المعنى.

408) في الأصول : «غازي».

والحجّة والسَّيف ، وأقام السّنّة وأحيى الملّة ، ورفع شعائر الشريعة وأعلى منارها ، وأحيى ما اندرس من آثارها ، فكان من المجددين لهذه الأمة دينها في القرن العاشر لكثرة علمه وعمله وأدبه وفضله وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.

وفي أيّامه السعيدة عمل له العلامة مولانا أبو السعود[409] تفسيره المشهور وغزا – رحمه الله تعالى – بنفسه ثلاث عشرة غزوة[410] منها ثلاث غزوات[411] لقتال قزلباش لإطفاء نار البدعة ، والعشرة الباقية لإطفاء نار الكفر / واستقصاء تفاصيل جميعها يُحَوِّج [26/أ] إلى الدَّواوين الكبار ، وقد قام بذلك أهله وهو غير مناسب لهذه العجالة ، وليس غرضنا من ذكر هذه النَّبذة إلّا تزيين كتابنا بذكر شيء من مآثر هذه السُّلالة الكريمة ، فإن مغازي آل عثمان صارت طرازًا للْكُتب من هذا الشأن ، كما أن سيرة[412] المصطفى ﷺ ومغازيه وسيرة أصحابه ومغازيهم أصل وعماد لهذا الدين في كل عصر وأوان. فعلينا بالإشارة إلى بعض مآثر هذا السُّلطان – رحمه الله ونفعنا به –.

فنقول : كان – رحمه الله ورضي عنه – كأسلافه الطّيّبين محبًّا للجهاد في سبيل الله ، باذلاً نفسه وخزائن أمواله لإعلاء كلمة الله ، بحيث لم ترفع راية في زمانه للإسلام على رأس أحد من السّلاطين العظام مثله ، ولم يكن أكثر جهادًا ونصرة للدّين ، وأكمَلُ عُدَّة وآلة لقطع دابر المشركين ، وأكثرُ جيوشًا وأعوانًا ، وأغزر رجالاً وفرسانًا ، وأعدى للإفرنج[413] الملاعين ، وأقمع لأهل البغي والبدعة والكفرة الملحدين ، وأشدّ عضدًا وأشدّ نصرًا لأهل السّنّة والدّين منه – رحمه الله تعالى – فهو سليمان زمانه وفريد عصره وأوانه ، فكم دوّخ بلاد الكفر واجتاحها ، وجاس خلال مغانيها ورباعها ، وافتتح صياصيها وقلاعها ، وأخرب معاهد الأصنام ، وبنى مساجد للإسلام.

ولمّا تعسَّر ضبط فتوحاته علينا لكثرتها إخترنا بعضًا منها له تعلق / بغرضنا ، فمن ذلك [26/ب] غزوة رودس ، وهي جزيرة في وسط البحر الشامي ما بين مصر والقسطنطينية[414] إبتنى

409) أبو السعود هو محمد بن مصطفى العمادي (ت. 981 / 1573 – 1574) عالم تركي مستعرب . أديب له شعر جيّد بالعربية ، وتفسيره اسمه إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، مطبوع . له ترجمة في الإعلام.

410) في ش : «غزاة».

411) في الأصول : «غزاوة».

412) في ش وط : «مسيرة».

413) في الأصول : «اعداء على الإفرنج».

414) لتكون حلقة إتصال بينهما من جهة البحر ولكي لا تكون للمسيحيين مركزًا حصينًا في وسط بلاده تلجأ إليه عمارات الدّول المعادية للدّولة وقت الحرب : تاريخ الدولة العلية ص 203.

بها الكفّار حصنًا حصينًا في غاية الإحكام(415) ذا(416) أسوار وخنادق متعددة(417) يتلو بعض تلك الأسوار بعضًا ، إتخذها الكفّار مكمنًا(418) لأخذ المسلمين ، فإنهم ينظرون من أعلى(419) قلعتها إلى السّفن الّتي تمر في البحر(420) ، فإن علموها مشحونة بعساكر المسلمين (تهيؤوا للتحصين ، وإن علموها بتجارة المسلمين)(421) أخذوها قهرًا ، فاتخذ النّصارى هذا الحصن لهم متعبدًا يجهّزون أموالهم إليه لتصرف في بنائه وإتقانه واتخاذ آلات الحرب ومراكبه وغير ذلك ، وجعلوا أسواره مفتّحة الطيقان من أعلاها إلى أسفلها من جميع الجهات ، ووضعوا فيها مدافع كبيرة كثيرة ترمي على من يقصدها من خارج فتصيبه من أي جهة من الجهات(422) ، ولهذا الحصن أبواب(423) من حديد وسلسلة عظيمة على فم مرساة تمنع المراكب من الوصول إلى الأبواب(423) ، وهيؤوا أغربة مشحونة بالسّلاح والمدافع الكبيرة ، فإذا أحسّوا بسفينة في البحر من الحجّاج أو التّجّار(424) أخرجوا إليها تلك الأغربة وأخذوها ونهبوا ما فيها من الأموال وأسّروا المسلمين ، فيقطعون على المسلمين الطّريق على هذا الأسلوب ، ويجمعون الأموال ويصرفونها على مقاتلتهم ، فكان هذا دأبهم ، وعجزت ملوك الإسلام عن دفع ضررهم ، وعمّ أذاهم المسلمين ، فتجهز السّلطان سليمان / [27/أ] – رحمه الله تعالى – بعسكره المنصور إلى أخذ هذه الجزيرة(425) ، وكان

415) في الإعلام ص 310 : «الاستحكام».

416) في الأصول : «ذو».

417) في ط : «وخنادق ومنطردة» ، وفي ب : «وخنادق منظورة».

418) في ش : «ممكنًا» وهو تحريف.

419) في الأصول : «في أعلى».

420) في الإعلام : «تمرّ في البحر من مسافة بعيدة».

421) ما بين القوسين ساقط من ط وب.

422) في ش : «الجهاة».

423) في الإعلام : «باب».

424) في الأصول : «والتجار».

425) وملوك أوربا لم يكونوا بحالة تسمح لهم مساعدة الرّهبنة المحتلة للجزيرة . فكان ملك فرنسا فرنسوا الأول وشارل الخامس الشهير بشرلكان ملك إسبانيا وألمانيا معًا مشتغلَيْن بمحاربة بعضهما والبابا لاون العاشر Léon X مشتغلاً بمجادلة ومقاومة الرّاهب الألماني لوثر Luther مؤسس مذهب البروتستانت . وبلاد المجر مضطربة في الدّاخل بسبب عدم إتفاق أمرائها وأعيانها وصغر من ملكها لويس الثّاني ، كلّ هذه الأسباب حملت السّلطان على إنتهاز هذه الفرصة لفتح هذا الحصن المنيع ، تاريخ الدولة العلية ص 203 – 205 .

سفره المبارك إليها لعشرين من رجب سنة ثمان وعشرين وتسعمائة[426] ، وكان وصوله إلى رودس ونزوله عليها في شهر رمضان من السّنة المذكورة ، فأحاطوا بها برًّا وبحرًا ، ولم يمكن من في[427] البرّ أن يقرب من سور حصارها للخندق العظيم المحيط به مع صونه بالمدافع العظيمة ، ولم يمكن من في البحر القرب والدّخول للمرسى[428] للسلسلة الممدودة من الحديد في البحر وللرمي على من يقربها بالمدافع الكبار ، فكانوا يصيبون المسلمين بالمدافع ولا تصيبهم مدافع المسلمين ، وإن وصل منها شيء لم ينفذ من السّور لمتانته وعلوه ، فتأخّرت عساكر البرّ قليلاً وأمروا بسوق التراب فساقوه حتى صار أمثال[429] الجبال فتمترسوا به ، وصاروا يُقَدِّمُون تلك المتاريس قليلاً قليلاً إلى أن وصل التّراب إلى الخندق فألقوه فيه فامتلأ وقرب من جدار الحصن[430] وارتفع عليه ، وصار الكفّار الفجّار تحت المسلمين يصابون ولا يصيبون على الضّدّ ممّا كان حالهم قبل ، فرمى المسلمون عليهم بالنّار إلى أن عجزوا ووهنوا وتحققوا أنهم مأخوذون ، فطلبوا من السُّلطان سليمان الأمان وسلَّموا له البلاد على شرط أن يخرجوا نساءهم وأولادهم وأموالهم ويتوجّهوا حيث شاؤوا ولا يتعرض لهم أحد من الجند ، فأجابهم السُّلطان إلى ذلك بعد أن نهاه الوزراء عن أمانهم لسقوط[431] قوة الكفر وإنهم إذا نجوا بهذه / الخزائن أمكنهم التقوي بها وجمع [27/ب] عساكر من النصارى أعداء الدّين ، فيعودون لأذيّة المسلمين ، فلم يصغ السُّلطان إلى منعهم فأعطاهم الأمان ، فخرجوا بجميع أموالهم وأهليهم وما يعز عليهم وتوجّهوا للمغرب ، وعَمَّروا جزيرة مالطة – دمَّرها الله تعالى – فعادوا لأذيّة المسلمين فقطعوا الطَّريق كما كانوا يصنعون برودس[432] ، فندم السُّلطان سليمان على إعطائهم الأمان ، وأرسل إليهم عمارة عظيمة وعساكر كثيرة[433] لأخذهم واستئصالهم آخر عمره لنظر

---

426) 16 جوان 1522 م.

427) في الأصول : «فم» والتصويب من الإعلام ص 311.

428) في الأصول : «المرسا».

429) كذا في ش والإعلام وفي ط وب : «مثل».

430) في الإعلام : «الحصار».

431) في الإعلام : «فإنهم لم يبق لهم منعة ولا قوة» ص 311.

432) هم فرسان مالطة المتسمّون أيضًا بفرسان القدّيس يوحنّا الأورشليمي تاذّت منهم شواطئ البلاد التّونسيّة لقربها منهم وبالخصوص صفاقس ، واستمرّت جزيرة مالطة وكرًا لهذه المؤسسة الرّهبانية إلى أن احتلّها نابليون بونبارت سنة 1798/1213 عند مسيره لفتح مصر.

433) في ط وب : «عظيمة».

مصطفى باشا الوزير ، فوقع بينه وبين القبودان[434] مخالفة أدت إلى منازعة فأفشلوا[435] كما توعّد الله على ذلك ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[436] فرجعوا بغير طائل لأمر أراده الله.

فالنّاس إلى الآن في مدافعة ضررهم ومقاساة أهوالهم وخصوصًا أهل صفاقس فإنهم معهم في محاربة شديدة والأخذ والقتل من الجانبين لما أن الحرب سجال ، ولعلّ في ذلك خير وخيرة لأن ممارسة حرب العدوّ يورث شهامة ونشاطًا بخلاف النشوء على المسالمة والعافية فإنه يوجب خورًا في الطّبع وجبنًا في النّفس وفشلاً عند ملاقاة[437] العدوّ وعجزًا ويختار الله لعبده ما لا يختاره لنفسه ، وفيه أعظم الفوائد وهي ملازمة الغزو والجهاد والرّباط والرجوع بإحدى الغنيمتين : مال أو شهادة ، والأجر حاصل / على كلّ حال. [28/أ]

وكان فتح رودس لستّ مضين من شهر صفر الخير سنة تسع وعشرين وتسعمائة[438] ، وأرخوا بذلك بقوله علت كلمته ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ﴾[439].

وفتح أيضًا عدة قلاع في ذلك العام منها استان كوى[440] وقلعة بودرم[441] وقلعة أودوس[442] وغير ذلك من القلاع.

ومن غزواته المشهورة غزوة أولونية[443] المعروفة بكورفس[444] من أتباع إسبانيا[445] ، توجه إليها في البرّ بركابه العالي وأرسل لطفي باشا في البحر والقبودان[446] خير

---

434) القبودان أو القبطان محرّفة عن كلمة كابيتان الفرنسية Capitaine الّتي معناها قائد السفينة إذا جاءت لأمور تتعلق بالبحر. هامش 1 ص 227 من تاريخ الدولة العلية

435) في الإعلام : «أدّت إلى انكسار المسلمين» وهنا ينتهي – فيما يتعلق بفتح رودس – نقله من الإعلام.

436) سورة الأنفال : 46.

437) في الأصول : «ملاقات».

438) 25 ديسمبر 1522. المؤلّف نقل بتصرف ما يتعلّق بفتح رودس من الإعلام للنّهروالي ص 301 – 316 وأنظر تاريخ الدّولة العليّة ص 203 – 206. تاريخ الشّعوب الإسلاميّة 66/3.

439) سورة الرّوم 4 – 5.

440) في الأصول . «اسان كوى» والتّصويب من الإعلام ص 312.

441) في الأصول : «بدرم» والتّصويب من الإعلام.

442) في الأصول : «ايروس» والتّصويب من الإعلام.

443) في الأصول : «قولونية» والتّصويب من الإعلام ص 318 والحلل السّندسيّة 286/2.

444) في ط وب : «كورفسيد» ، وفي ش . «كورفيس» والتّصويب من الإعلام.

445) في الأصول : «سبانيا».

446) في الأصول : «القبدان».

الدّين باشا[447] بنحو خمسمائة غراب مشحونة بعساكر البحر إلى أن نزل بمخيمه المنصور على أولونية[443] في سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة[448] واستباحها أسرًا ونهبًا ، وافتتح من حصون ذلك البحر أربعة وثلاثون حصنًا حصينًا هدمت إلى الأساس وقتل من فيها ، وغنم المسلمون من الكفّار ما لا يحصى من الأموال والسَّبي.

وآخر غزواته الكبار - رحمه الله ورضي عنه - غزوة سِكَتْوَار[449] ، وكان ذلك عندما أصابه مرض النقرس فتألم به أشَدَّ الألم وهو يظهر الجلد والقوة ارهابًا للعدوّ ، فمنعه حكيمه من السفر فأبى وقال : أريد أن أموت غازيًا في سبيل الله ، فبرز بجيوشه المنصورة سنة أربع وسبعين وتسعمائة[450] ، فنزل على قلعة سِكَتْوار[449] ، وهي من أعظم قلاع الكفار فأحاط عساكره بها ، وكانت في غاية من الحصانة ، واسعة شاسعة مكينة راسخة مشحونة بالآلات الحربية ، وشجعان الكفّار وأبطالها / فضايقهم المسلمون فبرز الكفار [28/ب] للقتال ، فاشتدّ النزال ، ووقع في الكفرة الزلزال ، فقبل الإنفصال إشتدّ بالسُّلطان - رحمه الله - مرضه ، وغمرته غمرات[451] الوفاة ، وهو مع ذلك - رضي الله تعالى عنه - يلهج إلى الله القريب المجيب بطلب الفتح القريب ، فاستجاب الله دعاءه فأضرمت النَّار في خزانة بارود الكفَّار المخزونة بالقلعة ، وكانت موفورة عندهم مهيّأة لقتال المسلمين ، فأصابها شرر من النّار إجابة لدعاء ذلك الرّوح المقدس ، فأخذت جانبًا كبيرًا من القلعة فرفعته إلى عنان السَّماء ، وزلزلت الأرض زلزالها إلى تخوم الأرض السُّفلى ، وتطاير جلاميدُ صخور الحصن ، ورَمت النَّار بشرر كالقصر من جدران ذلك الحصن ، والتهبت النّار وتزايد الدخان حتّى امتلأ الفضاء فضعفت طائفة الكفر وعذّبهم الله بنار الدّنيا ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾[452] فتزاحم الشجعان بآلات الحرب مع صدق النّيّة والإعتماد والتّوكّل على الله تعالى ، وطبول الحرب ونيرانه تضرب ، وتحاملوا على الكفّار حملة رجل واحد ، وتعلّقوا بأطرف القلعة ، وهجموا عليها من فوق الأسوار ، واستشهد

---

447) هو خير الدّين باربروس صاحب الآثار في تاريخ الجزائر بحمايتها من الإسبان واشتهر بمعاركه البحريّة على شواطئ إسبانيا وايطاليا.

448) 1536 - 1537 م.

449) في الأصول : «سكتوان» ، والتصويب من الإعلام ص 324 . ويقال سكدوار مدينة ببلاد المجر تسمى زيجت (Szeged) في الجنوب على الحدود اليكوسلافية ، تاريخ الدولة العلية هامش 3 ص 250.

450) 1566 - 1567 م.

451) في الأصول : «غمزاة».

452) سورة طه : 127.

من سبقت له من الله العناية ، وفتح القلعة من نصره الله من المسلمين ، ورفعت الرّاية السّليمانية على أعلى مكان من القلعة ، ووقع السّيف في الكفّار ، فقتل منهم من قتل ، وأسّر من بقي ، وعند وصول خبر الفتح للسّلطان / فرح ، وحمد الله على هذه النّعمة العظيمة ، وقال : الآن طاب الموت ، فهنيئًا لهذا السّعيد بهذه السّعادة الأبديّة ، وطوبى لهذه النّفس الرّاضية المرضية ، (من الّذين)[453] ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[454]. [29/أ]

ولمّا انتقل لدار السعادة ، والحسنى وزيادة ، أخفى حضرة الوزير الأعظم محمد باشا – رحمه الله تعالى – وفاة السّلطان – رحمه الله – وخرج من عنده وفرق الجوائز السنية والإنعامات ، وأعطى الأمراء والأتابكية[455] الترقيات[456] عملاً بمقتضى السياسة السّلطانية عند الفتوحات ، وأمر بإرسال البشائر إلى سائر الأقطار والجهات ، وأرسل سرًّا يستدعي السّلطان سليم خان ولد السّلطان سليمان خان المرحوم واستعجله في سرعة القدوم عليه ، وكتم ذلك عن جميع الناس الخاص والعام ، فأحسن تدبير السّياسة بذلك لأنهم لم يزالوا بديار الكفر بعيدين من ديار الإسلام ، فوصل ركاب السّلطان سليم خان فأمر العساكر بالرجوع إلى أوطانها ، وحمل السّلطان سليمان معه وعاد بأركان دولته وعساكر بابه العالي إلى القسطنطينية ، فخرج إلى إستقباله جميع العلماء والولاة وسائر الناس من خاص وعام ، فصلوا على المرحوم السّلطان سليمان ، وأمّ[457] النّاس المفتي الأعظم عالم زمانه وعلامة أوانه مولانا أبو السّعود أفندي المفسّر – رحمه الله تعالى – ودفنوه في تربة أعدّها لنفسه في قائم حياته ، ورثاه الشّعراء بكل لسان بقصائد سارت بها الرّكبان / أعظمها قصيدة المفتي المشار إليه وهي طويلة فلنذكر بعضها تبرّكًا بالقائل والمقول فيه ، وهي من البسيط مبدؤها : [29/ب]

[البسيط]

أصوت صاعقةٍ أم نفخةُ الصّورِ فالأرض قد مُلئت من نقرِ ناقورِ
أصاب منها الورى دهياء[458] داهية وذاق منها البرايا صعقةَ الطّورِ[459]

---

453) ما بين القوسين ساقط من ط. 454) مستوحاة من الآية 8 سورة البينة.

455) في الإعلام : «والبكلاربكية» ص 327.

456) في الأصول : «الطارقاة» والتصويب من الإعلام.

457) في الأصول : «وأمر».

458) في الأصول : «دهماء» والتصويب من الإعلام ص 328.

459) في الأصول : «الصور».

تهدّمت بقعة الدّنيا لوقعتها … وانهدّ ما كان من سور ومن دور[460]

أمسى معالمها تيْمَاءَ مُقفرةً … ما في المنازل من دار ودَيُّورِ

تصدّعت قُلَلُ الأطواد وارتعدت … كأنّها قلب مرعوب ومذعور

واغبرّ ناصيةُ الخضراءِ وانكدرت … وكاد أن تمتلِيء[461] الغبراء[462] بالمور

فمن كئيب وملهوف ومن دَنِف[463] … عَانٍ بسلسلة الأحزانِ مَأْسور

فيا له من حديث موحش نكد … يعافه السّمع مكروه ومنفور[464]

تاهت عقول الورى من هول وحشته … فأصبحوا مثل مسجون[465] ومسحور

تقطّعت قِطعًا منه[466] القلوب فلا … يكاد يوجد قلبٌ غير مكسور

أجفانهم[467] سفن مشحونةٌ بدم … تَجْري ببحر من العَبْرَات مسجور

أتى بوجه نهار لا ضياء له … كأنّها غارة شنّت[468] بديْجُور

أم ذاك نعي سليمانِ الزّمان ومن … مضت[469] أوامرهُ في كلِّ مأمور

ومن ملا جملة الدّنيا مَهابَتَه … وسخّرت كل جبّار وتيهور[470]

مدار سلطنة الدنيا ومركزها … خليفةُ الله في الآفاق مذكور

مُعلي معالم دين الله[471] مظهرها … في العالمين بسعي منه مشكور[472]

وحسن رأي إلى الخَيْرات مُنصرف … وصدقُ عزم على الألطافِ مقصور

---

460) في الإعلام والحلل السّندسيّة ص 287 :
«وانهدّ ما كان من دور ومن سور».

461) في الأصول : «أن تملي».

462) في الأصول : «الفقراء» والتّصويب من الإعلام.

463) في الأصول : «ومزدنف» والتّصويب من الإعلام.

464) في الأصول : «مكفور».

465) في الإعلام : «مجنون».

466) كذا في ط وب والإعلام . وفي ش : «منها».

467) في ش وب وت : «أجسادهم» . وفي ط : «أجسامهم» والتّصويب من الإعلام.

468) في الأصول : «شيبت».

469) في الأصول والإعلام ص 329 : «قضت» والتّصويب من الحلل السّندسيّة 287/2 .

470) كذا بالأصول والإعلام . وفي الحلل السّندسيّة : «تيمور» . وتيهور : الرجل التائه المتكبر . تاج العروس 70/3 .

471) في الأصول : «معالم الدّين» والمثبت من الإعلام.

472) هذا البيت ساقط من ط .

بـآيـة(473) العـدل والاحسان مُمْتَثِلٍ بغاية القسطِ(474) والإنصافِ موفور

[30/أ] مجاهـــد في سبيـــل الله مجتهد مؤيّد من جناب(475) القسط منصور/

بلهـذمي(476) إلى الأعداء منعطفٍ ومَشْرِفِي(477) على الكفّــار مشهور

ورايــة رُفعت للمجـد خـافقـة تَحْوي على عَلَمٍ بــالنصر منشور

وعسكر ملأ الآفـــــاق مُحْتَشِدٍ من كلّ قطر من الأقطار محشور

لـه وقائع في الأعداء(478) شائعة أخبارها زُبِرَت(479) في كل طامور(480)

يا نفس ما لكِ في الدُّنيا مخلّفةٌ من بعد رحلته عن هـذه الدُّور

وكيف تمشين فوق الأرض غافلة(481) أليس جُثمانـــه فيهـــا بمقبور(482)

فللمنـــايـــا مواقيت مقـــدَّرة تـاتي على قَـدَرٍ في اللَّوح مسطور

وليس في شأنها للنّـــاس من أثر ومـدخـــل مـا بتقـديم وتـأخير

يا نفس فاتّئدي لا تهلكي أسفًا فأنتِ منظومة في سلك معذور(483)

إذ لستِ مـأمورةً بـالمستحيـلِ ولا بما يُنْوَى بمَجـــذولٍ ومسرور(484)

---

473) في الأصول: «لآية» والتّصويب من الإعلام.

474) في ش: «القطط».

475) في الأصول: «جنان» والتّصويب من الإعلام ص 329.

476) في الأصول: «لهذمي» والتّصويب من الإعلام. واللهذم أي القاطع من الأسنة، يقال سنان لهذم وكذلك سيف لهذم. انظر تاج العروس 69/9.

477) في الأصول: «مرتضى» والتّصويب من الإعلام. يقال سيف مشرفي. قال كثير:

فما تركوهـــا عفوة عن مودة ولكن بحد المشرفي استقـــالها.

أنظر تاج العروس 154/6.

478) في الأصول: «مع الأعداء». وفي الإعلام: «في الأكناف».

479) في الأصول: «زبدت» والتّصويب من الإعلام والحلل السّندسيّة.

480) في الأصول: «مسطور» والتّصويب من الإعلام والحلل السّندسيّة. والطامور والطومار ج طوامير أي الصّحيفة. أنظر تاج العروس 360/3.

481) في الأصول: «حافلة» والتّصويب من الإعلام.

482) بعدها في الإعلام بيت ساقط من كل الأصول:

حقّ على كلّ نفس أن تموت أسًا لكنّ ذلك أمر غير مقـــدور.

483) في الأصول: «مغرور» والتّصويب من الإعلام ص 330.

484) في الإعلام: «بما سوى بذل مجهود وميسور».

ولا تَظُنَّنَّه[485] قد مات بل هو ذا[486] ... حيٌّ بنصٍّ من القرآن مزبورِ[487]

لـه نعيمٌ وأرزاق مقدّرة ... تُجرَى عليه بوجه غير مشعور

إنّ المنايا[488] وإن عمّت محرّمة ... على شهيد جميل الحال مبرور

مرابطٌ في سبيل الله مقتحمٌ ... معارك الحتف بالرّضوان مأجور

ما مات بل نال عيشًا باقيًا أبدًا ... عن عيشٍ فانٍ بكلّ الشّرّ[489] مغمور

(إبتاع سلطنة العقبى بسلطنة ... الدّنيا)[490] فأعظم بربح غير محصور[491]

بل حاز كلتَيْهما إذ حلّ منزله ... من لم يغايره في أمر ومأمور

أمّا[492] ترى ملكه المحمي آل إلى ... سِرٍّ سَرِيٍّ له في الدّهر مشهُور

وَلِيِّ سَلطنةِ الآفاق مَالِكِها ... برًّا وبحرًا بعين اللّطف منظور

ظلّ الإلاه ملاذ الخلق قاطبة ... ومُلتَجَى كلّ مشهور ومدهور[493]

فإنّه عينه في كلّ مأثرة ... وكلّ أمرٍ عظيمِ الشّأن[494] مأثور/ [30/ب]

ولا إمتياز ولا فرقان بينهما ... وهل يميِّز بين الشّمس والنُّور

سُمَيْدَعٌ[495] مَاجِدٌ زادت مهابته ... تحت الخِلافة في عزّ وتَيْقُور[496]

جدّ[497] الجديدان في أيام دولته ... صارا كأنّهما مِسْكٌ بكافور

أضحى بقبضته الدّنيا برُمّتها ... ما كان من مجهل منها ومعمور

---

485) في الأصول: «تظنه».

486) في الأصول: «قل».

487) مشيرًا بذلك لقوله تعالى «ولا تحسبنّ الّذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربّهم يرزقون».

488) في الأصول: «المباة» والتّصويب من الإعلام.

489) في الأصول: «الغيش» والتّصويب من الإعلام ص 330 والحلل السّندسية 288/2.

490) في الأصول: «سلطنة الدنيا بسلطنة الأخرى».

491) في الأصول: «مخسور».

492) كذا في الإعلام والحلل السّندسيّة، وفي الأصول: «ألا».

493) في الأصول: «وملتجأ كل مقهور ومنهور». والتّصويب من الإعلام والحلل السّندسيّة.

494) في الأصول: «أمر عظيم منه» والتّصويب من الإعلام.

495) هذا البيت والأبيات الستة بعده في مدح السُّلطان سليم خان ولد المرثى السُّلطان سليمان القانوني (أنظر العقد المنظوم ص 279).

496) في الأصول: «توفير» والتّصويب من الإعلام.

497) في الأصول: «حتى» والتّصويب من الإعلام.

بـــدا بطلعتـــه والنَّـــاس في كـرب وسوءِ حـــال من الأحوال منكـور
فأصبحت صفحات الكون[498] مشرقةً وعـــاد أكْنـــافهـــا نـورًا على نـور
أكرم بـه ملكًا[499] جلَّت مفـاخرُه عـن البيـــــــان بمنظـوم ومنثـور
كـــأنَّهـــا ويراع الواصفين لها بحرٌ خَميس[500] إلى منقار عُصفور
لا زال[501] أحكـامه بالعدل جارية بين البريّة حتى نفخة الصّور[502].

سليم خان الثَّاني :

وبعد وفاة السُّلطان سليمان خان – رحمه الله تعالى – تولّى السُّلطان سليم خان الثَّاني – رحمه الله تعالى –.

كان مولده المبارك سنة تسع وعشرين وتسعمائة[503] وجلوسه على تخت السلطنة بالقسطنطينية يوم الإثنين لتسع مضين من شهر ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وتسعمائة[504] ومدّة ملكه تسع[505] سنين وعمره يوم تولي السَّلطنة أربع[506] وأربعون سنة وكان – رحمه الله تعالى – مجاهدًا في سبيل الله ، محبًّا للعلم وأهله ، وفي دولته

498) في الإعلام : «الأرض».

499) في الإعلام : «سبحان من ملك».

500) في ش وب : «عميق» ، وفي ط : «عقيق» ، والتّصويب من الإعلام ص 330. والحلل السّندسيّة 2 / 289 وفي العقد المنظوم «مكيس» ولعلّه الأصحّ والأوفق.

501) كذا بالأصول والإعلام وفي الحلل: «لا زالت».

502) نقل المؤلف مرثية المفتي أبي السعود في السُّلطان سليمان القانوني من الإعلام للنّهروالي ص 328 – 330 ، وأورد منها الوزير السّرّاج في الحلل السّندسيّة مقتطفات 387/2 – 389 وكذلك علي بن لالا بالي الأديب التركي المستعرب (ت. 992 / 1584) في كتابه العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم (أي الترك) ط. بعد الشقائق النعمانية دار الكتاب العربي ، بيروت 1395 / 1975 ص 378 – 380.

503) كذا بالأصول والإعلام ص 355 : 1522 – 1523 م ، وجاء في تاريخ الدّولة العليّة ص 253 «كان مولده في 6 رجب سنة 10/930 ماي 1524 م».

504) 24 أكتوبر 1566 ، وفي الأصول : «لتسع مضين من شهر ربيع الآخر سنة خمس وسبعين وتسعمائة» والتّصويب من الإعلام ص 355. وجاء في تاريخ الدّولة العليّة أنه وصل إلى القسطنطينيّة في 9 ربيع أوّل سنة 974 هـ / 24 سبتمبر 1566 م.

505) في الأصول : «سبع» وهو خطأ إذ بقي سليم الثّاني في السّلطنة حتّى سنة 982 هـ / 1574.

506) في الأصول والإعلام : «ستّ» وهو خطأ والتّصويب من مقارنة تاريخ ميلاده وتاريخ تولّيه السّلطنة.

السَّعيدة وأيامه الغرّ الحميدة ، وقعت فتوحات عديدة عظيمة ، فمن أشهرها وأعظمها فتح حلق الوادي بمدينة تونس تحت سلطنة إفريقية بعد إستيلاء الكفرة اللئام عليها ، ولنفرد هذا الفتح بباب لأنه المقصود الأعظم.

ومنها فتح جزيرة قبرس بالسين المهملة[507] /. قال في القاموس في باب السّين: [31/أ] قبرس جزيرة عظيمة للرّوم توفّت بها أمّ حرام[508] بنت ملحان اهـ. وهي[509] من البحر الشامي كبيرة القطر ، مقدارها مسيرة ستة عشر يومًا ، وبها قرى ومزارع وأشجار كثيرة ومواش ، وفيها معدن الزّاج القبرسي ، ومنها يجلب إلى سائر الأقطار ، وبها ثلاث مدن ، ومن قبرس إلى طرابلس الشام مجريان في البحر ، وبينها وبين ساحل مصر خمسة أيام ، ورخاء قبرس شامل وخيراتها كاملة على مَمَر الأيام ، وإنّما سميت بهذا الإسم أخذًا من إسم وثن[510] هناك يسمى قابرس[511] كان يعظّمه الكفّار ، ويعظّمون لأجله هذه الجزيرة ، وأهل قبرس موصوفون بالغناء واليسار ، وبها معادن الصفر ، ويجمع منها اللّاذن[512] الحسن الرائحة الّذي يغلب العود [في] طيبه إذا جمع من فوق شجره[513] خاصة فيحمل إلى سلطان القسطنطينيّة لأفضليته ، وما تساقط منه على وجه الأرض يباع للناس.

وكانت أمّ حرام[514] بنت ملحان الصَّحابية – رضي الله تعالى عنها – شهدت غزوة قبرس فتوفّيت بها ، فأهل قبرس يتبرّكون بقبرها ، ويقولون: هو قبر المرأة الصَّالحة ، كانت سألت رسول الله ﷺ حين سمعته يقول: «يركب ثبج هذا البحر أناس من أمّتي ملوكًا على الأسِرَّة» ، الدّعاء أن يجعلها منهم ، فدعا لها ، وهو حديث معروف أخرجه رجال الصّحيح[515].

---

507) هكذا كتبها الحموي والحميري وغيرهما.

508) كذا في ش وب والإعلام ص 359 والرّوض المعطار ، وفي ط وت: «حزام».

509) النّقل فيما يتعلق بقبرس عن الإعلام للنّهروالي ص 358 والنّهروالي ناقل عن الرّوض المعطار للحميري ، والحميري ناقل عن نزهة المشتاق للإدريسي ص 453 – 454.

510) في الأصول: «دير» والتّصويب من الإعلام ص 358 والرّوض المعطار ص 454.

511) في الأصول: «قابوس» والتّصويب من نفس المرجعين.

512) في الإعلام: «اللّادن».

513) في الإعلام ص 359: «الّذي يغلب العود في طيبه وهو الّذي يجمع منه على الشجر خاصة».

514) كذا في ش وب ، وفي ط وت: «حزام».

515) أخرجه الشّيخان والإمام مالك في الموطّأ والترمذي وأبو داود والنسائي ، وفيه اختلاف قليل في الألفاظ ، وهو حديث طويل وله قصّة اقتصر المؤلّف على محلّ الحاجة منه.

وكان معاوية – رضي الله تعالى عنه – غزاها وصالح أهلها على جزية سبعة آلاف دينار فنقضوا عليه، فغزاهم ثانية / فقتل وسبى كثيرًا منهم، روي أنّه لما فتحت مدائن قبرس، واشتغل المسلمون بقسم السّبي بينهم[516] بكى أبو الدّرداء – رضي الله تعالى عنه – وتنحّى عنهم ثم احتبى بحمائل سيفه ودموعه على خدّيه فقال له أحد الحاضرين: أتبكي في يوم أعزّ الله فيه الإسلام وأهله، وأذلّ الكفر وأهله؟ فضرب على منكبيه وقال: ويحك ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمره، فبينما هي قوّة ظاهرة وسطوة قاهرة لهم على النّاس إذا تركوا أمره فصاروا أذلّة وصار حالهم على ما ترى من السّبي والإهانة. [31/ب]

وقال أبو عبد الله محمّد بن عبد النّور[517] في كتابه الرّوض المعطار في خبر[518] الأقطار: كان الأوزاعي يقول: إنا نرى هؤلاء أهل قبرس أهل عهد، وإن صلحهم وقع على شيء فيه شرط لهم وشرط عليهم، وإنّه لا يسع أحدًا[519] نقضه إلّا بأمر يعرف به غدرهم[520] ورآى[521] عبد الملك، في حدث أحدثوه، أنّ ذلك نقض لعهدهم فكتب إلى عدّة من الفقهاء يشاورهم في أمرهم منهم اللّيث بن سعد، وسُفيان بن عيينة وأبو إسحاق الفزاري، ومحمّد بن الحسن، فاختلفوا عليه، وأجاب كلّ واحد بما ظهر له، قالوا[522] وانتهى خراج أهل قبرس الّذي يؤدّونه إلى المسلمين بعد المائتين من الهجرة إلى أربعة آلاف ألف [وسبعمائة ألف][523] وسبعة وأربعين ألفًا[524] اهـ.

ثم إنّهم[525] هادنوا في الدّولة العثمانية بأداء ما كان مقرّرًا عليهم غير أنّهم أخذوا في المكر والخداع وإظهار الطّاعة وإخفاء / الغدر، فيقطعون الطّريق في البحر على المسلمين [32/أ]

---

516) كان ذلك إثر غزوة معاوية الثانية لقبرس، أنظر عنه الرّوض المعطار ص 454.

517) محمّد بن محمّد بن عبد الله بن عبد المنعم بن عبد النّور الحميري في كتابه «الرّوض المعطار في خبر الأقطار» ويبدو أنّ المؤلّف ينقل ما في الإعلام للنّهروالي ولم يطّلع على كتاب الحميري.

518) في الأصول: «أخبار».

519) في الرّوض المعطار والإعلام: «يسعهم».

520) كذا بالأصول والإعلام، وفي الرّوض المعطار: «عذرهم».

521) كذا بالأصول والرّوض المعطار، وفي الإعلام: «روى».

522) ساقطة من ش.

523) إضافة من الإعلام والرّوض المعطار.

524) إلى هنا ينتهي ما نقله صاحب الإعلام عن الرّوض المعطار، والمؤلّف نقل كلام صاحب الإعلام بتصرف يسير ص 358 – 359. والكلام عن قبرس نقله عن الإعلام صاحب الحلل السّندسيّة ص 292 – 293.

525) يستمرّ في النّقل من الإعلام بتصرّف ص 360.

حتّى [إذا][526] أخذوا سفينة من المسلمين قتلوا جميع من كان فيها وغرّقوها في البحر لإخفاء ما فعلوه ، ويؤوون قطّاع الطّريق من النّصارى ويساعدونهم على المسلمين إلى أن كثر أذاهم وعمّ ضررهم ، فاستفتى السّلطان سليم خان المفتي العلاّمة أبَا السّعود العمادي – رحمه الله تعالى – فأفتاه بأنّهم غدروا ونقضوا العهد[527] ، وأن قتالهم جائز بسبب ما ارتكبوا من الغدر والخيانة ، فجيّش[528] عليهم السّلطان سليم جيشًا كثيفًا أرسله في البرّ وعمارة في البحر ، وجعل سر دار الجميع الوزير الأعظم مصطفى باشا اللالا – رحمه الله تعالى – فبرز بعسكر ملأ الأرض برًّا وبحرًا فساروا إلى أن بلغوا جزيرة قبرس ، ففرّق الجند على حصونها وقد تحصّن بها الكفّار ، وأحكموا خنادقها ، وكان من أحكم الحصون المشيّدة بها ثلاثة عامرة ، وهي في غاية الإرتفاع مشحونة بالسّلاح والأبطال واللّئام والقوت ومن دونهم خنادق غويطة[529] عريضة محمية بالمدافع الكبار ترمي من يقرب منها ، فأحاطت العساكر بتلك القلاع فناوشوهم القتال برمي المدافع العظيمة باللّيل والنهار حتّى حطّمت دورهم وقصورهم ، ففتحوا حصنين منها ، وبقي الثّالث وهو المسمّى ماغوسا[530] ، وفيه سلطانهم محصور ، فاضطرّ إلى طلب الأمان ، فشرط عليه الوزير إطلاق من عنده من أسارى المسلمين ويحضر بين يديه ، فوافق / على ذلك ورضي به ، فلمّا قدم[531] [32/ب] الأسارى أخبروا أنه خان بعد إنعقاد الأمان[532] ، فقتل جماعة من الأسارى صبرًا خفية على المسلمين ، فلمّا علم الوزير ذلك طالبه[533] بالحضور بين يديه ، فحضر فأهانه غاية الإهانة بسبب ما ارتكبه من الخيانة ، وأمر بضرب عنقه ، وأخذ أمواله وذخائره ، وقتل من أراد وأسّر وأطلق من أراد ، فصارت قبرس دار الإسلام ، ومن جملة الممالك العثمانية .

---

526) إضافة يقتضيها السياق.

527) كذا في ط والإعلام ، وفي ش وب وت : «العهود».

528) في الإعلام : «فجهز».

529) في ش وت وب : «عويطة» . وفي ط : «غويصة» وأثبتنا «غويطة» والتّغويط : ابعاد قعر البئر. تاج العروس 194/5 وفي الحلل السّندسيّة 294/2 : «وضاق الخناق بالقلعتين».

530) في الأصول : «ماغور» والتّصويب من الإعلام ص 362 .

531) في ش : «قدموا».

532) كذا في ط وت والإعلام . وفي ب وش : «الأمن».

533) في ط والإعلام : «طلبه».

وتوفّي السُّلطان سليم خان – رحمه الله تعالى – لسبع مضين من شهر رمضان سنة إثنين وثمانين وتسعمائة(534) ودفن قرب أيا صوفيا(535) – رحمة الله عليه –.

بقيّة سلاطين آل عثمان:

ولنمسك عنان القلم عن التّعرض إلى تفصيل مغازي من بقي من سلاطين هذه السّلالة المباركة لأنّ غرضنا بيان أحوال إفريقية، فوجب صرف عنان العناية لما يتعلّق بذلك، ولكن لا بدّ من ذكر أسمائهم – رحمهم الله – لتحصيل بركتهم وتزيينا لكتابنا بنظم عقدهم ورونق مجدهم، وإظهارًا لحبّهم وتعظيمًا لشأنهم فإنهم أحقّاء بكلّ ثناء جميل – أدخلهم الله ظله الظّليل، وحشرنا معهم في زمرة أفضل الخلق أجمعين – فنقول: تولّى(536) السّلطنة بعد السُّلطان سليم – رحمه الله تعالى – ولده السُّلطان مراد خان(537) سنة إثنين وثمانين وتسعمائة(538) ومدّة سلطنته واحد وعشرون سنة.

ثمّ بعده السُّلطان محمّد خان(539) (تولّى سنة ثلاث وألف)(540) ومدّة سلطنته تسع سنين(541).

---

534) كذا في الإعلام وشذرات الذّهب 396/8، وفي العقد المنظوم ص 455 – 456 «كان منهمكًا على لذّاته في المساء والصّباح، ومنكبًّا على اللّعب واللّهو، ويرجّح السكر على الصّحو، مبتلي بشرب الرّاح ومبتهجًا بالكؤوس والأقداح» إلى أن قال: «وقد منّ الله عليه قبل موته بالتّيقّظ العظيم والتّنبّه التّام، فأعرض عن الملاهي، ورغب في صحبة المشايخ الكرام، وقعد عن كلّ خلق رديء، وتاب على يد الشّيخ سليمان الخلوتي الآمدي وكسّر آلات اللّهو وأواني الشراب، وانقطع مدة عن النّدمان والأصحاب وبدّل ترنّمات المغاني بتلاوة السّبع المثاني، ودام على هذه الصّفات السّنية حتّى غالبته أحوال المنيّة، وانتقل من هذه الدّنيا الدّنيّة».
يقابله بالتّاريخ الميلادي 21 ديسمبر 1574، وفي تاريخ الدّولة العليّة توفي في 27 شعبان سنة 982 هـ / 12 ديسمبر 1574 م.

535) في الأصول: «ايا صوفية» وهنا ينتهي نقله من الإعلام ص 398.

536) يرجع للنّقل من الإعلام ص 399.

537) ساقطة من ط. والمقصود هو مراد خان الثالث.

538) في الأصول: «سنة خمس وثمانين» والتّصويب من الإعلام والحلل السّندسيّة. وحسب هذين المرجعين تولّى مراد خان في العاشر من رمضان. يقابله بالتّاريخ الميلادي 1574.

539) محمّد خان الثالث.

540) في ش: «تولّى سنة ستّ وألف» وفي ت وب: «سنة خمسة وعشرة وألف»، وفي ط: «خمس وألف». والتّصويب من تاريخ الدّولة العليّة والحلل السّندسيّة ص 301. يقابله بالميلادي 1595.

541) بقي محمّد خان الثّالث في السّلطنة إلى أن توفّي في 12 رجب 1012 / 16 ديسمبر 1603 م. تاريخ الدّولة العليّة ص 270. وفي الحلل السّندسيّة توفّي سادس عشر رجب ص 303.

ثمّ تولّى بعده السُّلطان أحمد خان سنة إثني عشرة / وألف[542] ومدّة سلطنته أربع عشرة سنة[543]. [33/أ]

ثمّ [تولّى بعده السُّلطان مصطفى وخلع ثالث ربيع أوّل سنة سبع وعشرين وألف][544].

ثمّ تولّى بعده السُّلطان عثمان خان[545] سنة سبع وعشرين وألف[546] ومدّة سلطنته أربع سنين[547].

ثمّ تولّى بعده السُّلطان مصطفى خان سنة واحد وثلاثين وألف[548] ومدّة سلطنته سنة واحدة[549].

ثمّ تولّى بعده السُّلطان مراد خان[550] سنة إثنين وثلاثين وألف[551] ومدّة سلطنته ستّة عشرة سنة[552].

---

542) في الأصول : «سنة خمس عشرة وألف» وهو خطأ. يقابله بالتاريخ الميلادي 1603 – 1604.

543) توفّي في 23 ذي القعدة 1026 / 22 نوفمبر 1617 وعمره 28 سنة . تاريخ الدّولة العليّة ص 275. وترجم له ترجمة مطولة المحبي في خلاصة الأثر 284/1 – 292.

544) إضافة مستوحاة من الحلل السّندسيّة وتاريخ الدّولة العلية ، إذ أنّ المؤلّف أسقط سلطنة مصطفى سنة سبع وعشرين ولم يتسلطن إلّا نحو ثلاثة أشهر تقريبًا وعزل في أوّل سنة 1027 / 26 فيفري 1618 م ، ولمّا عزل تولّى مكانه السُّلطان عثمان الثّاني وعزل في 9 رجب 1031 / 20 ماي 1622 وأعادوا مكانه السُّلطان مصطفى . والسُّلطان عثمان أعدم بعد عزله ، ومدّة حكمه أربع سنوات وأربعة أشهر ، وكان عزل السُّلطان مصطفى في المرّة الثانية في 15 ذي القعدة سنة 1032 / 11 سبتمبر 1623 م . وبقي معزولاً إلى أن توفي وولّوا مكانه عند عزله السُّلطان مراد الرّابع . راجع تاريخ الدّولة العليّة ص 277 – 279 . الحلل السّندسيّة 306/2 – 309 . وللسُّلطان عثمان ترجمة في خلاصة الأثر 105/3 – 108 وترجم للسُّلطان مصطفى 393/4 – 395.

545) عثمان خان الثّاني.

546) 1617 م وفي الأصول : «سنة تسع وعشرين» والتّصويب من الحلل السّندسيّة ص 306 وتاريخ الدّولة العليّة.

547) في الأصول : «سبع سنين» وهو خطأ إذ أنّه خلع في 9 رجب من سنة 1031 هـ / 20 ماي 1622 م.

548) في الأصول : «ستّ وثلاثين».

549) بل بضعة أشهر.

550) هو مراد الرّابع وكانت وفاته في 16 شوال 1049 / 9 فيفري 1640 ومدّة حكمه 16 سنة و 11 شهرًا وتولى بعده أخوه إبراهيم . تاريخ الدولة العلية ص 280 – 285 . الحلل السّندسيّة 309/2 – 314 . خلاصة الأثر 336/4 – 341.

551) 1622 – 1623 م وفي الأصول : «سبع وثلاثين».

552) في الأصول : «ثمان عشرة سنة» وهو خطأ إذ توفّي كما أشرنا في 16 شوّال 1049 هـ / 1640.

ثمّ تولّى بعده السُّلطان إبراهيم خان سنة تسع وأربعين وألف[553] ومدّة سلطنته ثمانية سنين[554].

ثمّ تولّى بعده السُّلطان محمّد خان[555] غازي وفاتح كندية[556]، جلس على تخت السَّلطنة سنة ثمان وخمسين وألف[557] ومدة سلطنته أربعون سنة[558]، وكان فتحه لكندية فيما بلغنا بذي القعدة سنة إحدى وثمانين وألف[559].

ثمّ تولّى بعده السُّلطان سليمان خان[560] سنة تسع وتسعين وألف[561] ومدّة سلطنته ثلاث سنين.

ثمّ تولّى بعده السُّلطان أحمد خان[562] سنة إثنين ومئة وألف[563]، ومدّة سلطنته أربع سنين[564].

ثمّ تولّى بعده السُّلطان مصطفى[565] خان سنة ستّ ومائة وألف[566] ومدّة سلطنته تسع سنين[567].

---

553) في الأصول: «سنة خمس وخمنسين وألف».

554) في الأصول: «خمسة عشر سنة» وهو خطأ إذ بقي في السُّلطنة 8 سنين و9 أشهر ومات مقتولاً أنظر تاريخ الدّولة العليّة ص 286 – 288 والحلل السّندسيّة 314/2 – 317 وخلاصة الأثر 13/1 – 16.

555) محمّد خان الرّابع.

556) Candia كانت تطلق على جزيرة أقريطش (الكريت) ثمّ صارت تطلق على أحد موانيها، ويقع في منتصف هذه الجزيرة من الجهة الشمالية. والصّحيح أن الّذي فتحها السُّلطان المتولّي بعده.

557) في الأصول: «سبعين وألف» والتّصويب من الحلل السّندسيّة ص 317 وتاريخ الدّولة العليّة 288. يقابله بالميلادي 1648 م. وعزل في 2 محرم 1099 / 8 نوفمبر 1687 م.

558) في الأصول: «تسع وعشرون سنة» وهو خطأ إذ أنه خلع في سنة 1099 / 1687 – 1688 م في 2 محرم. الحلل السّندسيّة ص 323 وتاريخ الدّولة العليّة.

559) مارس 1671 وفي تاريخ الدّولة العليّة في 29 ربيع الثّاني سنة 1080 / 27 سبتمبر 1669.

560) هو سليمان الثّاني، ووفاته في 26 رمضان 1102 / 23 جوان 1691 ومدّة حكمه 3 سنوات و8 أشهر. تاريخ الدّولة العليّة ص 305 – 306، الحلل السّندسيّة 323 – 325.

561) 1687 – 1688 م.

562) أحمد خان الثّاني.

563) في 26 رمضان 1102 / 23 جوان 1691 م، تاريخ الدّولة العليّة ص 306.

564) وثمانية أشهر.

565) مصطفى خان الثّاني.

566) في 22 جمادى الثّانية / 17 فيفري 1695 م.

567) بل 8 سنوات و8 أشهر. إذ عزل في 2 ربيع آخر 1115 / 15 أوت 1703 م.

ثمّ تولّى بعده السّلطان أحمد خان[568] غازي فاتح المورة ، جلس على تخت السّلطنة سنة خمس عشرة ومائة وألف[569] ، ومدّة سلطنته سبع وعشرون سنة[570] .

ثمّ تولّى بعده السّلطان محمود[571] خان سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف[572] ومدّة سلطنته خمس وعشرون سنة[573] . / [33/ب]

ثمّ تولّى بعده السّلطان عثمان خان[574] سنة ثمان وستّين ومائة وألف[575] ومدّة سلطنته ثلاث سنين[576] .

ثمّ تولّى بعده السّلطان مصطفى خان[577] سنة واحد وسبعين ومائة وألف[578] ومدّة سلطنته ستّ عشرة سنة[579] .

ثمّ تولّى بعده السّعيد السّلطان عبد الحميد[580] خان سنة سبع وثمانين ومائة وألف[581] ومدّة سلطنته خمسة عشرة سنة[582] .

---

568) أحمد خان الثّالث ، أوّل من أدخل المطبعة وأسّس دار طباعة في الإستانة ، تاريخ الدّولة العليّة 312 – 319 .

569) في 2 ربيع الثّاني 1115 / 15 أوت 1703 م ، تاريخ الدّولة العليّة ص 311 .

570) و 11 شهرًا .

571) محمود الأوّل .

572) 1730 – 1731 م وفي الأصول : «إثنين وأربعين ومائة وألف» .

573) في الأصول : «ستّ وعشرون سنة» ، وهو خطأ إذ «كانت وفاته في 27 صفر 1168 / 13 ديسمبر 1754 ومدّة حكمه 25 سنة ، تاريخ الدّولة العليّة ص 320 – 325 .

574) هو عثمان خان الثّالث .

575) 1754 م .

576) و 11 شهرًا وكانت وفاته سنة 1171 / 30 أكتوبر 1757 ، تاريخ الدّولة العليّة ص 327 – 328 .

577) مصطفى خان الثّالث .

578) في 16 صفر / 30 أكتوبر 1757 م .

579) وثمانية أشهر إذ توفّي في 8 ذي القعدة سنة 1187 / 21 جانفي 1774 . أنظر عنه تاريخ الدّولة العليّة ص 329 – 340 .

580) عبد الحميد خان الأوّل .

581) 1773 م .

582) و 8 أشهر . وفي الأصول : «ستّة عشرة سنة» كانت وفاته في 12 رجب سنة 1203 / 8 أفريل 1789 م ، تاريخ الدّولة العليّة ص 362 .

فضائل العثمانيّين :

ثمّ تولّى بعده سلطاننا السّعيد السُّلطان سليم خان[583] سنة ثلاث ومائتين وألف[584] بارك الله في حياته ، وقرن النّصر براياته ، ونكس أعلام الكفر تحت أقدام جيوشه ومقدماته ، وجعله محفوظًا مؤيّدًا معززًا منصورًا بالقرآن العزيز وآياته ، وخلّد السّلطنة في عقبه وأهل بيته إلى يوم الحقّ وعلاماته ، والله تعالى يتولّى أسلافه الكرام البررة بالروح والرّيحان وتمام المغفرة ، ويبوّء الجميع وإيانا فردوسًا مع نبيّنا صاحب الشّفاعة المنتظرة ، ويديم على الأمّة المحمّدية هذه الدّولة السّعيدة على توالي الأيام ، ويحمي بحمايتها كافّة الإسلام ، ويُبقي سلطنتها القاهرة على الدّوام (إلى يوم القيام)[585] فكم لأسلافها الغزاة المجاهدين في نصرة المِلّة المحمّديّة الغرّاء من يد بيضاء للنّاظرين ، وكم فتحوا من أقاليم للكفر فصارت دار إسلام على رغم أنوف الكافرين ، فالتحقت فتوحاتهم بفتوحات الصّحابة – رضي الله تعالى عنهم أجمعين – وقلّدوا / [34/أ] هذه الأمّة مننًا تعظم عن الحصر والإحصاء[586] وتجلّ عن التكييف والإستقصاء[587] ، فهم – رضي الله عنهم – في هذه الأعصار حماة هذا الدّين بالسّيف والقلم ، وحجّته الواضحة بالكلام[588] والكلم.

ولقد حكمت علماء أئمّة الإسلام واتّفقت كلمتهم – رضي الله تعالى عنهم – على أنّ سيوف الحقّ أربعة وما عداها للنّار ، سيف رسول الله ﷺ في المشركين ، وسيف أبي بكر – رضي الله تعالى عنه – في المرتدّين ، وسيف علي – رضي الله تعالى عنه – في الباغين ، وسيف القصاص بين المسلمين ، فسيوف آل عثمان – رضي الله عنهم – إذا سبرت لم تخرج عن هذه السّيوف الأربعة ، فإنهم ما زالوا منذ كانت أسلافهم إلى نشأة أخلافهم – بارك الله فيهم – يجاهدون الكُفّار والمرتَدّين ، ويقاتلون الباغين والمارقين ،

---

583) هو سليم خان الثّالث وعزل عن السّلطنة في 21 ربيع الثاني سنة 1222 / 28 جوان 1807 ، ومدّة حكمه 19 سنة ، وبقي إلى أن توفّي في 4 جمادى الأولى سنة 1223 / 28 جوان 1808 وعمره 48 سنة تقريبًا ، أنظر عنه تاريخ الدّولة العليّة ص 363 – 393 ، وإشارته إلى كونه سلطان زمانه ، هل يفهم منها بداية تاريخ تأليف كتابه؟

584) 1788 م.

585) ما بين القوسين ساقط من ط .

586) كذا في ط ، وفي ش وت : «الاحصار».

587) في ش : «الاستقصار».

588) كذا في ط ، وفي ش وب وت : «الكلم».

ويقيمون حدود شرائع الدِّين ، فالله تعالى يمدّ ظلال سلطنتهم على المسلمين ويؤيّد بهم أهل السّنّة والدِّين ، ويقمع بهم أهل الكُفْرِ والأهواء والمخالفين ، من قال آمين أبقى الله مهجته فإن هذا دعاء ينفع البشر.

قيل في سبب عصمة العثمانية من الفتن وتغلب الأمراء والوزراء الّتي وقع فيها غيرهم من الدُّول بعد عصمة الله السَّابقة في سابق قَضَائِه وقَدَرِهِ أنّ ملوكهم في أعصارهم منعوا أن يُبَايعُوا غيرهم في تصرف الملك والإمارة والمناصب الجليلة والإشتراك / في الخُطبة [34/ب] والسِّكّة والإستقلال بزمام[589] المناصب واتخاذ الحصون والقلاع ، وتسيير الأغربة البحرية فخصُّوا بذلك أنفسهم ، وميّزوا ألقابهم عن ألقاب الوزراء ، فما شاركهم في أسباب القوة والعُدَّة وجمع الخزائن الجِهَادية وغيرها أَحَدٌ ، وقطعوا رأس من تسمَّى بالسُّلطان والمَلِك ، وقطعوا ولاية العهد بتقديم البيعة ، وفَهِمُوا الإشارة النبوّية في إشتراك[590] البيعة إذا بويع الخليفتان فاقتلوا الآخر أو كما قال اهـ. من محاضرة الأوائل لعلي ددة ، ثمّ[591] قال : سمعت بعض الأولياء نقلاً عن الجفر[592] الجامع أنه تمتد دولتهم إلى زمان المهدي ، ويُسَلِّمون الخلافة إليه ويكونون من شيعته وناصري دولته ، وسَمِعْت ممن أثق بقوله أنه ذكر ذلك عند حضرة السُّلطان سليمان الغازي – رحمه الله تعالى – فقيل له : إن خرج المهدي في عصرك هل تسلّم له الخلافة بلا منازعة؟ فقال : أرى نفسي تنازعني في رياسة الخلافة لأنّه قيل آخر ما يخرج من قلوب الصّدّيقين حبّ الرياسة ، فأنظر إلى كمال معرفته – رحمه الله – بحقيقة النّفس الإنسانيّة حسبما قال الصّدّيق[593] : ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ﴾[594] الآية ، اهـ.

وقال الشَّيخ أحمد بن قاسم بن أحمد ابن الفقيه قاسم إبن الشَّيخ الحجري الأندلسي[595] ، وأنا أدعو للسُّلطان مراد إبن السَّلاطين العثمانيين الّذين أشهر الله / [35/أ]

589) كذا في ط . وفي ش وب وت : «زمامة».
590) في ش : «إشراء».
591) ساقطة من بقية الأصول.
592) كذا في ت . وفي ب : «الحبر» . وفي ط : «الحفر» . وفي ش : «الخبر».
593) هو سيّدنا يوسف عليه السّلام.
594) سورة يوسف : 53.
595) هذا الشَّيخ كان حيًّا بعد 1042 / 1632 وهو باحث مترجم عن الإسبانية ، أصله من إشبيلية ، إنتقل إليها من قرية الحجر (إحدى قرى غرناطة) ثم هاجر إلى المغرب بعد أن عكف سنين على درس الإسبانية حتى ظُنَّ أنه إسباني . وتمكّن بهذا من السفر إلى المغرب سنة (1007 هـ) وأقام بمراكش إلى 1046 ، فكان ترجمانًا للسُّلطان =

بركاتهم في أرضه وبلاده ، حتّى حَصُلَت الرّوعة الموروثة خوفًا منهم في قلوب النَّصارى المشركين الكُفَّار ، أهلكهم الله وأخزاهم وخذلهم ودمّرهم أشدّ الدّمار ، وقد شاهدت في كثير من بلادهم وكتبهم وتحققت من خاصّتهم وعامّتهم أنّ الخوف الّذي في قلوبهم منهم لم يفارقهم في اللّيل والنّهار ، وانقطع رجاؤهم الّذي كانوا يرجونه أن الدّولة العثمانيّة يكون إنقراضها عند السَّادس عشر من سلاطينهم ، واستدلّوا على ذلك من قول[596] يوحَنَّا الحَوَاري الّذي كتب رابع الأناجيل ، ثم كتب كتابًا مرموزًا يسمَّى بِبُقْلِبْش[597] ، فتأوَّلوا بعض رموزه على مقتضى غرَضهم الفاسد ، ومرادهم الخاسر ، فأظهر الله بالبرهان أنّ قولهم كان باطلاً وزورا ، إذ هذا السُّلطان الموجود الآن الثَّامن عشر من السَّلاطين ، فزاد الحساب وظهر الغلط فيما تأَوَّلوه من الكتاب ، وقال علماؤهم : إنّ من بركات[598] الإنجيل الظَّاهرة الآن أن يشغل السَّلاطين العثمانيين عنهم وقد كذبوا ، بل من بركات الإنجيل الظَّاهرة أن نَصَر الله سلاطين الإسلام على النَّصارى ، حتّى يبينهم[599] الله ويهلكهم لعدم إيمانهم بما أمرهم بالإيمان به[600] لأن من جملة ما أمرهم به تصديق أحمد محمّد ﷺ لأنّ عيسى – عليه السَّلام –[601] بَشَّر به وأمر بالإيمان به ، قال تعالى : ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي إِسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[602] وقال تعالى : ﴿وإذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الّذينَ أُوتُوا الْكِتَابَ / لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاس وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾[603] الآية . [35/ب]

قلت : هذا ما كان في زمنه ، وأمّا الآن فإن الله قد أظهر بركته في هذا النّسل السَّعيد ، وزاد عدده زيادة واضحة ، فانقطع آمال الكافرين ، وفرح بذلك المؤمنون ،

= زيدان بن أحمد المنصور السعدي كما كان كاتبه باللّغة الإسبانية ، وحجّ سنة 1046 ، وفي إيابه زار مصر . وصنّف كتابًا في مناظراته مع بعض علماء النّصارى واليهود في أوربا سمّاه «ناصر الدّين على القوم الكافرين» ، وقصد تونس فترجم فيها عن الإسبانية كتاب «العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع» وله غير ذلك . الإعلام 198/1 – 199 . ط . 5.

596) في ط : «بقول» ، ولعلّ المقصود «رؤيا يوحنا».

597) Apocalypse المنشور مع رسائل الرُّسل بعد الأناجيل.

598) في ش : «بركاة».

599) في ط : «يفنيهم».

600) في ط : «من الإيمان».

601) ساقطة من ط .

602) سورة الصّف : 6.

603) سورة آل عمران : 187.

كما(604) قال تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ(605)، وأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾(606)!

وممّا نقل من تاريخ آل عثمان أنّ السّلطان عُثْمَان خان أوّل السّلاطين العثمانيّة كان – رحمه الله تعالى – مُحِبًّا للمشايخ، ومستمدًّا منهم، وكان في زمنه شيخ شُهِرَ «بَادَه بالي»(607) بات ليلة في زاويته وكان مجاب الدّعوة، وله كرامات مشهورة، فرآى رؤيا كَأَنَّ القمر طلع من حرم الشيخ ودخل في حضنه فاستضاءت منه الأطراف، وعند ذلك نبت من سُرَّته شجرة قد سَدَّت الآفاق أغصانها، والأنهار تجري من تحتها، والنّاس ينتفعون بما حولها، فقصّ رؤياه على الشّيخ فقال الشيخ – قدّس الله سرّه – معبّرًا للرّؤيا الدّولة المنصورة المؤبّدة(608) بالقوّة القُدُسيَّة، فزوّج الشّيخ إبنته من السّلطان عثمان، فكان من أمرهما ما كان – عليه وعلى أجداده وأعقابه الرّحمة والرّضوان – وأيّد دولتهم، وأصلح سريرتهم وسيرتهم(609) إلى انقضاء الدّوران، والله المستعين المستعان، وقد كان إسم الزوجة المذكورة مال خاتون(610)، وهي والدة السّلطان أورخان، وهو أوّل من افتتح بورصة(611)، وعثمان غازي أوّل من / دفن بها بعد الفتح لأنّها فُتِحَت بعد وفاته بأيّام [36/أ] اهـ.

---

604) ساقطة من ط وت.

605) سورة التّوبة: 124.

606) سورة التّوبة: 125.

607) هو من أهل العلم صوفي، ترجم له طاش كبرى زاده في الشّقائق النّعمانيّة ص 6 – 7، وقصّ الرؤيا الّتي رآها السّلطان عثمان، وهذا الشّيخ مات عن سنّ عالية إذ بلغ 120 سنة، ومات في سنة 726 / 1325 – 1326. وماتت إبنته بعد شهر وهي زوجة السّلطان عثمان وأمّ ولده السّلطان أورخان، وبعد مضي ثلاثة أشهر من وفاتها مات زوجها السّلطان عثمان، وهذا المنام ذكره صاحب الدّولة العلية ص 116، وقال عقب ذكره له: «ومع اعتقادنا أنّ هذا المنام لا بدّ أن يكون موضوعًا كما يصنع المؤرّخون مثل هذه الأحلام لتعليل ظهور وتقدّم كل دولة سواء كان في ممالك الشرق أو الغرب، فقد ذكرناه تتميمًا للفائدة».

608) ساقطة من ت.

609) ساقطة من بقية الأصول

610) لفظ خاتون يطلق غالبًا على المرأة ذات الشأن أي السيدة كما يطلق على زوجات العظماء، تاريخ الدّولة العليّة ص 118 هامش 1

611) هي أوّل عاصمة للسّلطنة العثمانية ثم انتقلت العاصمة إلى أدرنة ثم إلى إستانبول، وهي مدينة بآسيا الصّغرى شهيرة بجودة هوائها وجمال مناظرها الطّبيعية وبها مياه معدنية شافية لكثير من الأمراض، تاريخ الدّولة العليّة ص 119 هامش 1 بتصرّف قليل

الباب الثّاني

في دخول العساكر العثمانية المنصورة لإفريقية لإنقاذها من أيدي أهل الكفر والضّلال

قد تقدّم أنّ محمّد الحفصي إشترك في حكم المؤمنين مع أهل الكفر[1] فصار لا يقضي أمرًا دون رضا كبير الكفرة، وآل به الأمر حتى تغلّب عليه الكفّار، فلمّا تمكّن الكفّار[2] كاتب صاحب إسبانيا[3] رئيسَه وأعلمه أنّ تونس في قبضته، فصار الكافر في بلده يفتخر بذلك بين أرباب مِلّته وكبرائه، وإذا رآى منهم مَيْلاً عنه يقول لهم: بلادي عندي متى أشاء أرحل إليها عنكم، يريد بذلك تونس، فأراد الإستيلاء عليها مَرَّة واحدة، فتكون تحت ذمّته ظاهرًا وباطنًا، كما تغلّب على بلاد الأندلس.

واتّصلت هذه الأخبار المدهشة بحضرة السُّلطان السَّعيد سليم خان الثّاني – رحمه الله تعالى – فاستشاط غضبًا لله ورسوله، وأخذته حَمِيَّةُ الدّين وعصبيّة الإسلام، وقد قيل إنّه رآى في النّوم الوليّ الصّالح العارف بالله قاطع آثار الشيعة في حياته الشّيخ سيدي محرز[4] – رحمه الله ورضي عنه ونفعنا به – فأشار عليه باستنقاذ تونس من أيدي أهل الزّيغ والكفر والضّلال.

وكان أهل الأندلس لمّا طغى عليهم أهل الكفر ولم يجدوا في ملوك أهل العدوة نجدة صرفوا همّتهم لاستنجاد هذه الأعتاب الشّريفة، فأخذ في[5] تهيئة عمارة لنجدتهم، فلما بلغه إستيلاء الكفر عليهم، وتَعَسَّر / ذلك الوقت إنقاذهم لاتصال بلادهم بأرض الكفر، [36/ب] ومزاحمة النّصارى المطرودين من البلاد الّتي إفتتحها الإسلام، فصاروا مزنوفين من جهة

1) أي الأسبان.

2) في ب وت: «الكافر».

3) في الأصول: «سبانية».

4) هو محرز بن خلف صالح مدينة تونس وعالمها في عصر المعز بن باديس توفّي سنة 413 / 1022 ومثل هذا المنام للتّبرير والتّقديس، والله أعلم بصحته.

5) ساقطة من ش وت.

العساكر الإسلامية لقوّتها(6) عليهم فالتجؤوا إلى مضايقة الأندلس ومزاحمتهم وإزعاجهم من أرضهم حتّى طلبوا منهم الخروج لبرّ العُدْوَة وإفريقية بلا قتال ولا حرب ، فخرج أكثر النّاس ، وإستضعف الكفّار من بقي ، واستولوا على البلاد طوعًا أو كرهًا ففات السُّلطان سليم – رحمه الله – تدارك الأندلس ، فصرف عنان عنايته نحو إفريقية ، وخاطب(7) الوزراء العظام والبكلاربكية(8) الفخام وقال(9) : من يقوم منكم بهذا الأمر ، ويتقدّم لنصرة الإسلام وإذلال عبدة الصّليب والأصنام ، ويستنقذ أسارى المسلمين من أيدي النّصارى الفجرة اللئام ، فبادر الوزير الأعظم أبو الفتوحات سِنَانْ باشا – رحمه الله – وقال : أنا لها ، أنا لها ، فقابله السُّلطان بالقبول والإكرام ، وحسن الثّناء والإنعام ، فجعله سردار(10) العساكر أي الناظر عليها والحاكم فيها ، وأمر بالتوجه معه لضبط العساكر في البحر وتسيير المراكب قابودان الباب العالي أمير الأمراء العظام قلج علي باشا – رحمه الله تعالى – فشرعا في أخذ أسباب السّفر وأخذا معهما من أمراء السّناجق من له خبرة بالتّصرف في أحوال البحر من الماء والريح وإجراء المراكب وضبط أحوالها ، فشحنوا مائتي غراب وعدّة كثيرة من شونات(11) المراكب الكبار لحمل الأثقال / والمدافع ، قيل كان عدّة السّفن ألفا وخمسمائة سفينة ، وكان يوم بروزهم من القسطنطينية يومًا مشهودًا [37/أ] في ساعة مباركة بغرّة أشرف الرّبيعين سنة إحدى وثمانين وتسعمائة(12) ، فشرعوا في السّفر ،

---

6) في ط : «لتقويها».

7) من هنا يبتدئ النّقل من الإعلام بأعلام بيت الله الحرام للنّهروالي ص 371 والنّقل ببعض تصرّف.

8) في الأصول : «الكبلاركية» والتّصويب من الإعلام للنّهروالي ص 371. وواحده بكلربك يلفظ بيلر به أي بك البكوات أو سيّد السّادات ، أنظر تاريخ الدّولة العليّة ص 113 هامش 1.

9) ساقطة من ش.

10) سردار ، كلمة فارسيّة بمعنى السّيّد ، وتعني أيضًا القائد الأعلى للجيش ، تاريخ الدّولة العليّة ص 556 هامش 1.

11) في ط : «انشوات» ، وفي الإعلام : «من المونات الكبار» ص 372 ، والصّحيح ما بالنّص ورد في تاج العروس للزبيدي : «الشونة المركب المعدّ للجهاد في البحر والجمع الشواني لغة مصرية» ، وجاء في المستدرك : «الشين المركب الطّويل» وعند دوزي الشيني (Calère) بالفرنسية وبالايطالية (Galéra) وهي أقدم أنواع السّفن وكانت أهمّ القطع التي يتألف منها الأسطول الروماني ، وفي العصور الوسطى كانت هي أهمّ القطع الّتي يتألّف منها الأسطول الإسلامي لأنّها كانت أكبر السّفن وأكثرها إستعمالاً وتحمل المقاتلة للجهاد... وظلّ إسم شيني متداولاً في الملاحة حتّى أيّام الدّولة العثمانية. أنظر البحرية في مصر الإسلامية لسعاد ماهر ص 352.

12) 31 جويلية 1573 م.

واجتمعوا بميناء ناورين[13] ومن هناك توجّهوا لبرّ المغرب إلى أن وصلوا إلى ماللو كليسان[14] من مملكة البندقية ، فوصلوا يوم الخميس لخمس مضت من ربيع الأول ليمان الخير[15] ، فاستقروا بها ليلة كاملة ، وأصبحوا متوجّهين فعبروا بسفنهم إلى العُمَّان[16] وهو موضع ضيق يتعسر على أمثالهم لكثرتهم العبور منه بهذه السّفن الكثيرة خوفًا من تصادمها عند شدّة تَمَوُّج البحار ، ولكنّ الله سلّم ، فساروا حتّى وصلوا وقت ظهر اليوم التّاسع إلى طُبْرُق حصَار وهو حصن منيع للكفار على ساحل البحر ، فلمّا وصلوا حاربهم الكُفَّار فدهكهم عساكر الإسلام ، فهرب الكفار إلى قلعة حصينة تسمّى تيجة[17] ولحقهم المسلمون فاقتتلوا فاستشهد من رزق الشهادة من المُسْلِمين ، وعجّل الله إلى النَّار من مات من الكافرين ، فلمّا غربت الشَّمس رُمي مدفع لإعلام الغزاة بالعود إلى سفنهم فحضروا وركبوا ، فسافروا إلى أن وصلوا إلى جزيرة مسينة[18] في اليوم الرَّابع عشر ، فاستقرّوا بها يسيرًا ، ثم ساروا وافترقوا بالنّو[19] ، ثم إجتمعوا ومرّوا بقلل يان[20] فحوصرت وهدمت قلعتها ، وقتلوا من بها من النَّصَارَى ، وعادوا إلى سفنهم ، وصاروا ينزلون كلّ يوم للماء إلى جانب من ساحل / صجلية[21] ، وكلّما وصلت يدهم إليه من نهب وغارة وقتل بادروا إليه ، وأخربـوا قرى الكفرة وبساتينهم ، وعادوا إلى سفنهم ، فاجتمع كلّ من في ذلك السَّاحل من النَّصارى من فارس وراجل وصاروا عسكرًا فتقدموا لقتال من نزل من المسلمين إلى البر ، فنزل إليهم المسلمون فهزموهم فقتل منهم كثير ، وأَسَرُوا النّساء والصِّبيان ، وفرّ من أمكنه الفرار من الرّجال ، وأطلق المسلمون النَّار في تلك السَّواحل وحرقوا أشجارهم ودورهم .

[37/ب]

---

13) في الأصول : «ميناء أورين» ، والتّصويب على الطَّريقة التركية كما في تاريخ الدّولة العلية وكتب المتن. وفي الإعلام : «ليمان ناوارين» ، وهي Navarin وتقع شمال مودون (Modon) وهي ميناء بحرية في بلاد اليونان.

14) في الأصول : «مالوكلسيان» والتّصويب من الإعلام ص 373.

15) في الأصول : «ليمان الخيبر» والتّصويب من الإعلام.

16) في ش وت : «القمان» ، وفي ب : «الطقمان» ، وفي ط : «لقمان» والإصلاح من الإعلام ص 373.

17) في ش : «سخية» ، وفي ط : «شخية» ، وفي الإعلام : «نجية» ، والتّصويب من المؤنس ص 187.

18) Messine وكتبها الحموي وغيره : «مسّيني» وهي مدينة في ركن جزيرة صقلية في شرقيها.

19) مكانها بياض في ط ، والنّو : «الرّيح القويّة».

20) في الأصول : «ملكبان» والتّصويب من الإعلام ص 374.

21) في الأصول : «صلحية» والتّصويب من الإعلام ص 374.

وفي اليوم السّادس عشر من ربيع الأوّل ظفر المسلمون[22] بسفينة للنصارى مشحونةً بالقمح كانت متوجهة إلى بعض قلاعهم ، فغنم المسلمون ذلك ، فكان أخذها فالا حسنًا للمسلمين.

وفي ثامن عشر وصلوا إلى جهودا واسي[23] وطاب ريح المسلمين ، فوصلوا إلى قلعة خراب في أرض تونس قرب قليبية ، فزيّنت السّفن والأغربة بالرّايات الملوّنة إظهارًا لهيبة الإسلام وعنوانًا للعساكر العثمانية ، فأرسوا في اليوم الرابع والعشرين بمرسى حلق الوادي ، ونزلت العساكر المنصورة ، ونصبت وطاقات الباشا على مسافة لا تصل المدافع من حصن حلق الوادي إليها ، ونصب معه أوطاق[24] قلج علي وغيره من الكبراء ، وأنزلوا المدافع الكبار ، وشرعوا يتقربون قليلاً قليلاً إلى القلعة ، ويبنون المتاريس يستترون بها ، ويسوقون الأتربة أمامهم ويستترون / خلفها ، ويحفرون الخنادق فينزلون فيها ، فلا تصيبهم[25] [38/أ] المدافع ، فيتقدّمون إلى القلعة على هذا الأسلوب إلى أن وصلت العساكر المنصورة إلى القلعة ، فتقدّموا بالبنادق وآلات الجهاد ، ونصبوا بقرب القلعة المنجنيقات والمدافع ، فوجهت إلى صوب[26] الكفرة مع المكاحل[27] الكبار ، فأقدم الباشا بعساكره بصدق إعتقاد وإعتماد على الله تعالى ، وتهيّأ الكفّار للنّزال ، فتراموا بالمدافع ، فبينما هم كذلك إذ وصل الخبر بوصول حيدر باشا – المقدّم الذّكر – وكذلك بكلاربكي طرابلس الغرب مصطفى باشا – رحم الله الجميع برحمته الواسعة – فوصلا ليلاً[28] مع قليل من الغلمان إلى وطاق سردار[29] العمائر[30] المنصورة ، فدخلا على الوزير المعظم سنان باشا – رحمه

22) في ط : «عساكر المسلمين».
23) في الأصول : «جهودادهي» والتّصويب من الإعلام ص 375.
24) في الأصول : «وطاق» والتّصويب من الإعلام ص 375 والمؤنس ص 187.
25) في الأصول : «يصيبهم».
26) في الأصول : «سور» والإصلاح من الإعلام.
27) في الإعلام : «أفواه المكاحل» ، والمكاحل ج مكحلة : البندقية.
28) الذي يستفاد من المؤنس ص 187 أنّهما وصلا إلى تونس قبل وصول العمارة العثمانية بيوم ، ونزلا معًا بإزاء المدينة في سيجوم لقصد محاصرتها ، وفي الحلل السّندسيّة 227/2 ، كانا نازلين على تونس بمقدار نصف يوم بقصد محاصرتها وأخذها ، وكان نزولهم بالمحمدية ، وفي الإعلام : «كانا وصلا تونس قبيل وصول العمارة الشريفة السّلطانية من البر إلى مقدار نصف يوم عن تونس» ص 376.
29) في الأصول : «سرادق» والتّصويب من الإعلام.
30) في الإعلام : «عمارة».

الله – فأراد أن يتوجّه معهما بنفسه ، وأمر طائفة من أمرائه وعيّن نحو ألف نفس من التوفكجية وبعض المدافع الكبار والضربزانات[31] ، وأن يتوجّهوا مع حيدر باشا ومصطفى باشا إلى محاصرة تونس وأخذها من النّصارى ، وأرسل معهم من أمراء السناجق إبراهيم بك في سناجق محروسة مصر ، ومحمود بك سنجق قرشتي[32] ، وسنجق قره حصار[33] بكر بك[34] وتوجّهوا إلى تونس فوصلوها وأحاطوا بها وناوشوا الكفّار (الذين بها بالقتال ، فلمّا رآى الحفصي[35] ومن معه من الكفّار)[36] كثرة العساكر علموا أن لا طاقة لهم بقتالهم ، مع أن قلعة تونس كان غَالبها خراب لتواتر المحن وقلّة الإهتمام بها ، وكذلك البلاد غلب عليها الخراب ، فعجزوا عن تحصين البلاد / وقلعتها ، فخرجوا من البلاد إلى [38/ب] البستيون[37] – المقدّم الذّكر – خارج باب البحر شرقي تونس ، فتحصّنوا به ، فاجتمع به نحو سبعة آلاف مقاتل ما بين كافر ومرتدّ ، وشَحَنُوه بآلات الحرب والمدافع الكبار ، وجمعوا فيه من الأقوات شيئًا كثيرًا ، فخلت المدينة وقصبتها ولم يبق بهما من يصونهما فدخلتها العساكر العثمانية من كل جهة وضبطوها وحَصَّنُوها ، ثم عادوا إلى (قتال أولئك)[38] الملاعين فحاصروهم في قلعتهم الّتي أحدثوها وأحكموها وأرسلوا خبر ذلك إلى سنان باشا (فأرسل إلى نصرتهم قلج علي باشا)[39] بطائفة من العساكر المنصورة – رحم الله جميعهم – إلى إعانة من بتونس ، فرآى قلج علي صعوبة القلعة الّتي بالبستيون[40] لكثرة من فيها من المقاتلة وطلب عسكرًا آخر وعدّة ومدافع أخرى من الباشا سنان ، فأرسل إليه ألف ينكجري[41] مع علي آغة سلحدار الباب العالي وثمانية مدافع وستّة

---

31) في الأصول : «الزربزانات» والتّصويب من الإعلام ص 376 ، وفي المؤنس ص 187 : «زرابز».

32) في الأصول : «قرشتي» ، والتّصويب من الإعلام ، وفي المؤنس : «قبرص».

33) في الأصول : «قاز حصار» والتّصويب من الإعلام.

34) في الأصول : «باكير بك» والتّصويب من الإعلام.

35) هو أحمد الحفصي ، وفي المؤنس ص 188 : «محمد الحفصي» وفي إتحاف أهل الزمان 20/2 : «محمد بن الحسن الحفصي».

36) ما بين القوسين ساقط من ط .

37) في الأصول : «البستيور».

38) في ش : «تلك» ، وفي ط : «قتل أولائك».

39) ما بين القوسين ساقط من ط .

40) في الأصول : «البستيور».

41) في الأصول : «يكنجد» والتّصويب من الإعلام ، وفي المؤنس ص 188 : «ينشري».

ضربزانات[42] فلمّا وصلوا القلعة إجتمع رأيهم أن يدوروا بالقلعة من كلّ جهاتها ، وكان بها من الكفرة من تقدّم رجالاً وفرسانًا وجاء لنصرتهم طوائف عربان ، فخرجوا من قلعتهم مرارًا ودهموا المسلمين واقتتلوا مرارًا ، واستشهد من سبقت له الحسنى وأُلقي في نار جهنّم بعد نار الحرب من كذّب بالحسنى فريق في الجنّة وفريق في السعير ، واشتدّ الأمر على المسلمين والمدد متّصل / بأعداء الدّين. [39/أ]

فلمّا بلغ الخبر إلى الوزير الأعظم سنان باشا – رحمه الله – توجّه بنفسه وترك أصحاب حلق الوادي على قتالهم ، فلمّا وصل إلى قلعة البستيون[40] وشاهدها وَزَّع على جوانبها عساكر المسلمين ، ووعدهم النّصر المقرون بالصّبر في قوله تعالى ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[43] وعيّن في كلّ موضع طائفة ، وأشار عليهم بما هو الأليق والأصوب في الحروب ، فاطمأنّوا واشتدّت قلوبهم ، وعاد من يومه إلى حلق الوادي لاحتياج من به لحسن تدبيره ، وآستمر كلّ من الفريقين على مجاهدة من في مقابلته.

ووصل في أثناء هذه المقاتلة بكلاربكي الجزائر كان سابقًا أحمد باشا[44] لإعانة عساكر الإسلام ، فدخل على حضرة الوزير وآستأمر بما يأمره به ، فأعطاه عدّة من المدافع ، وعيّن له جهة الجنوب من حلق الوادي ، فتوجّه إليها ، وبنى المتاريس فيها ، وآستمر القتال ، ووصل العسكر المنصور إلى حافة خندق الكُفّار في مقدار تسعة[45] عشر يومًا فبنوا على حافته المتاريس ، ووصل[46] الكفّار للبرج – المقدّم الذّكر – قرب الحصن الكبير من تحت الأرض – حسبما مرّت الإشارة إليه – ، فلؤوه بالآلات والرِّجال ، ففطن

---

42) في الأصول. «زرابزن» والتّصويب من الإعلام ص 377 ، وفي المؤنس ص 187 : «زرابر»

43) سورة آل عمران. 200 وهي ختام السورة.

44) كذا في الإعلام ، وفي الحلل السّندسيّة 231/2 . «وصل رمضان باشا المتولي على مدينة الجزائر إذاك ومعه ثلاثة آلاف مقاتل ، واجتمع مع الوزير سنان باشا وطلب منه تشريف خدمته فيما يأمره به من التّوجه لمقاتلة هذه الكفّار فأمر بالتّوجّه إلى القلعة المحصورة قرب تونس المعبّر عنها بالبستيون فآمتثل وأحاط بها من بعض جهاتها» ، ولعلّ الأصحّ ما في الحلل السّندسيّة لأنّ هذا الباشا معه بضعة آلاف من العساكر ، وهذا أمر له وزنه في ترجيح كفة النّصر ، وأمّا القدوم بالشّخص فقط فلا يعدو الشجاعة والخبرة الحربية إن وجدت وصاحب الإعلام أشار إلى وصول أحمد باشا متولّي الجزائر سابقًا ورمضان باشا وذكر قريبًا ممّا ذكره صاحب الحلل السّندسيّة. الإعلام ص 379.

45) في الإعلام ص 378 : «بعد أربعة عشر يومًا».

المسلمون لذلك وهو أقرب للجانب الّذي فيه حضرة الوزير سنان باشا فتوجّه إليه بنفسه، ووقع فيه حرب شديد، فأخذ ما حَصَّنَه الكفّار، وقتل من فيه منهم، وأستخبر[47] وأَعْمَق الخندق الّذي وصل العسكر / إليه فإذا هو ستّون ذراعًا بذراع العمل، وقعره [39/ب] متّصل بالبحر وهو ممتلئ من ماء البحر، فتشاور أمراء الإسلام[48] فما وجدوا لذلك حيلة إلّا ملء الخندق ترابًا[49] وبقاء المتاريس عليه، فأمر الوزير[50] بذلك فتسارع العساكر إلى ذلك، وباشر الوزير فمن دونه ذلك بأنفسهم حتى صار التُّراب كأمثال الجبال، ورموا بذلك في الخندق إلى أن امتلأ وزاد في الإرتفاع، فبنوا المتاريس فوق ذلك إلى أن إرتفع وعلا فوق الحصار، قيل إنّهم إستعانوا على ردمه بالصُّوف[51] فكان ما ألقي فيه سبعون ألف شليف وجعلوا مع كل شليف قنطارين من رصاص ليرسب في قعر الخندق، ولولا ذلك لرفع التيّار ما ألقي فيه من الصُّوف، واستجلبت الأصواف من قبائل الأعراب المؤمنين[52] لأنه حضر فيه من بقي على الإيمان من عُرْبَان طرابلس والجريد والجزائر، وحضره المحاميد وكبيرهم جدّ أحمد بن نوير، والصُّوف أكثره كان من نجع دريد[53] وباقيه من غيرهم، وكلّ شليف حمل جمل، وهو معروف العدد، والوزن فيه مختلف، عدده مائة جزّة شاة، والوزن يختلف بحسب الكبر والصغر، وكانت لتلك العساكر نِيَّةٌ صالحة قيل إنه مرّ بعضهم ممن حضر تلك المواطن برجل من العسكر وهو حامل على ظهره حِمْلاً من الحطب لكي يلقيه في الخندق وبه عدة جراحات، / وهو على آخر رَمَق، قال: [40/أ] فأردت أن أخفّف عنه ذلك فأبى، ولم يزل سائرًا به إلى أن ألقاه في محلّه ومات لوقته[54] بحضور أجله - رحمه الله تعالى -.

---

46) في الأصول: «ووصلوا».

47) في ط وت: «اختبروا».

48) في الإعلام: «وتشاور الوزير مع الأمراء وأصحاب الرأي في ذلك...».

49) في ش: «تراب»، وفي ت كما في الإعلام: «بالتّراب».

50) في الإعلام: «سائر العسكر بذلك».

51) هذه التّفاصيل غير موجودة في الإعلام، وأكثرها موجود في المؤنس ص 190 - 191 وكلامه يوهم أنه ناقل من الإعلام.

52) في ط: «من المؤمنين».

53) أنظر المؤنس ص 190.

54) عن هذه القصّة أنظر المؤنس ص 191.

وكان بناء المتاريس فوق الخندق لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الثّاني من سنة واحد وثمانين وتسعمائة[55] ، فصارت[56] مدافع المسلمين تصل إلى قلعة الكفّار ، فنال المسلمون من الكفّار كلّ منال ووصل أثناء ذلك بكلاربكي[57] الجزائر المتولّي عليها إذ ذاك رمضان باشا ومعه ثلاثة آلاف مقاتل ، فاجتمع بحضرة الوزير الأعظم سنان باشا وطلب منه خدمة يؤدّيها ، فأرسله بمن معه من العساكر إلى إعانة من بالبستيون[58] ، فتوجّه ونزل في جهة من جهات تلك القلعة ، واستمر الوزير في محاصرة حلق الوادي ، ثمّ أقدم المسلمون على الدّخول إلى الحصار لما شاهدوا من وهن الكفار ، قيل ومن قَدَرِ الله أنّ محمود بك[59] سنجق غربي كان بعسكره من ناحية رادس[60] ، فعزم أهل الحصار أن يدهموه ليلاً ، على حين غفلة ، فخرجوا عليه حين الفجر فوجدوه مستيقظًا على أهبة فأوقع بهم ، فانهزموا بين يديه فتبعهم بالقتل[61] إلى أن أدخلهم حصنهم ، ووافق الحال أنّ الوزير صاح : من يُقدِّم نفسه إلى البرج ويبيع نفسه في مرضاة[62] الله؟ ووعدهم بعطايا سنية زيادة على أجر الآخرة ، وعيَّن لهم من ألف دينار فدون ، الأول فالأول وعمّم ذلك في جميع الأجناس وجميع الجهات[63] ، وإتفق أنّ المنهزمين / من ناحية [40/ب] رادس دخلوا وهم ذاهلون فلم يستطيعوا غلق الباب والمسلمون على أهبة ، فحملوا حملة رجل واحد من كلّ الجهات ، وأعلنوا بكلمة التّوحيد ، وإرتفعت الأصوات ، فتزلزلت الأرض لحملتهم ودخلوا القلعة وفتحوها عَنْوة بالسيف لستّ مضت من جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وتسعمائة[64] ، فوضعوا السيف فيمن وجدوا فيها من الكَفَرة الفَجرة ، وغنموا ما وجدوا بها من آلات الحرب والذّخائر ، واستأسروا[65] النّصراني كبير القلعة

---

55) 13 أوت 1573 م ، أنظر المؤنس 191 والإعلام 379.

56) عود إلى النّقل من الإعلام.

57) في ط : «بكلار» ، وفي ش : «بكلابكي».

58) في الأصول : «بستيور».

59) في المؤنس ص 192 : «محمد عرب».

60) واقعة رادس ذكرها صاحب المؤنس 192 ، والمؤلّف ناقل عنه بتصرّف قليل.

61) في ش : «بالقتال».

62) في الأصول : «مرضات».

63) في الأصول : «الجهاة».

64) 4 سبتمبر 1573 م.

65) واستؤسر صاحب القلعة كبير النصارى المخذولين ، الإعلام 380.

والعرب المرتدّين[66]، وفرح بفتح هذا الحصن الحصين كافة المسلمين فإنه يعدّ من جلائل[67] فتوحات الإسلام، لأنّ هذه القلعة كانت من أحكم القلاع الّتي أحكمتها النّصارى وأقواها مكنة وإستحكامًا، وأشدّها ضررًا على الإسلام.

ومن أعجب الاتفاق[68] أنّ هذه القلعة المنكوسة بنتها النّصارى المخذولون في سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة[69]، وأكملوا إستحكامها في ثَلاَثٍ وأربعين سنة، وفتحت في ثلاثة[70] وأربعين يومًا من أيّام محاصرتها بعدد السّنين الّتي أحكم فيها بناؤها كلّ يوم بسنة.

ولمّا تمّ هذا الفتح رآى[71] الوزير سنان باشا – رحمه الله – أنّ ترميم[72] هذا الحصن وعمارته وحفظه بالعساكر والآلات الحربية يُحَوِّجُ إلى مؤونة كبيرة، وخزائن من الأموال كثيرة مع قلّة جدواه[73] وبُعْده[73] عن الباب العالي، فرآى أنّ الأولى هدمه[73] وتخريبه[73] / حتّى لا يبقى[73] للنّصارى مكمنًا، فأمر بهدمه[73] فهدم[73] حجرا حجرا إلى أن وصلوا إلى أساسه[73]، قيل ولم يبق من أثره إلّا المكان الّذي كان مسكنًا لقبطانهم. [41/أ]

وأرسل الوزير المعظم بشائر النّصر إلى الباب العالي حضرة السُّلطان سليم – رحمه الله تعالى – وبَعْدَهُ إلى سائر بلاد الإسلام ليأخذ المسلمون حظّهم من الفرح ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾[74].

---

66) في الأصول: «المرتدون».

67) في ت: «في جملة جلائل»، وفي ط: «في جلة جلائل»، وفي الإعلام: «من أجل فتوحات» ص 380.

68) في ت: «أعجاب الاتفاق»، وفي الإعلام: «من عجيب الإتفاق».

69) 1531 – 1532 م.

70) في الأصول: «ثلاث».

71) ساقطة من ت، وفي ط: «أبان».

72) في ش: «ترسيم».

73) في الأصول الضّمير مؤنث، والتّصويب لأنّ الضّمير يعود على الحصن، وبالتأنيث يعود على القلعة والمؤلّف ينقل عن الإعلام ويغيّر قليلاً من العبارات ثم لا ينتبه إلى هذا التغيّير فيحدث في تركيبه تحريفًا وخلطًا.

74) سورة الرّوم: 4 – 5.

ولمّا قضى مآربه من حلق الوادي توجّه بمن معه من العساكر إلى البستيون[75] ليطمئن من به من المسلمين ففرح المسلمون به، وحمل بمن معه على من في القلعة حملة واحدة وتسابقت العَسَاكِرُ إلى إستئصال الكُفَّار، وصبروا على حدّ السَّيْفِ وحَرِّ النَّار، وإستشهد كثير من المسلمين، ولم يزالوا كذلك إلى أن دخلوا القلعة ونصبوا الرَّايات السُّلطانية على القلعة، ودخل بقيَّة العساكر فوضعوا السَّيف في الكفّار، وقتلوا منهم ثلاثة آلاف دارع[76] مغلغل من قرنه إلى قدمه في سابغات الحديد، ورمى الباقون بأنفسهم من أعلى القلعة إلى أسفلها، وهم زهاء[77] خمسة آلاف، فنزلوا على أقدامهم[78] في الرَّمل، وهربوا مقدار رمية[79] سهم أو سهمين، وشرعوا في التّترّس بأتربة أرادوا أن يتحصنوا بها والمسلمون مشغولون بقتل من بقي في[80] القلعة ونَهْبِ الأمتعة والأسلاب فَوُجِدَ بها ألواح وأخشاب أَعَدَّهَا الكفّار لإتقان القلعة وإحكامها وبَارُودًا كثيرًا / ومدافع وآلات حرب وبشماط[81] كثير لأزوادهم، وكانت القلعة غير محكمة البناء، ثم أمر الوزير الأعظم أن يتتبّع العساكر المنصورة أولئك الهاربين، فتتبّعوهم ووجدوهم في عمل مكان يتحصَّنون به فهجموا عليهم هجمة واحدة فأيقن الكفّار أن[82] لا مفر، فقاتلوا أشدّ القتال، فانقلب الكفّار صاغرين، وضرب في وجوههم الذِّلّة ورجعوا منهزمين، وأعلى الله كلمة الإسلام بنصر المسلمين ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[83].

[41/ب]

وجُهِّزَت البشائر إلى الأعتاب العليّة العثمانيّة، وتطايرت[84] أخبار هذه البشارة إلى سائر أقطار المسلمين، ولولا لطف الله تعالى بالمسلمين لعمّ أذى الكفرة الفُجَّار[85] جميع

---

75) في الأصول: البستيور».
76) كذا في ش والإعلام ص 382، في ت: «وراع»، وفي ط: «ذراع».
77) في الأصول: «زهى».
78) في الأصول: «إلى».
79) ساقطة من ش وط.
80) في ش: «من»، وفي ت: «بالقلعة».
81) كذا في اللّهجة التّونسيّة ويقصد بها الخبز المجفّف بالتّسخين، وفي الإعلام: «بكسماط».
82) ساقطة من ش.
83) سورة الأنعام: 45.
84) في الأصول: «تطاير».
85) في ط وت: «الفجرة».

المسلمين فيتعدّى أذاهم من تونس إلى أخذ الجزائر وطرابلس ، فيحكمون قلاعها وأسوارها وحُصُونها ويرتدّون عن الإسلام عربان المغرب ، فيتقوّى الكفّار الفجّار على أخذ مصر وغيرها من ديار الإسلام ، فأيقظ الله هذا السُّلطان وبَصَّره لدفع أولائك الفجّار ، ومَزَّقَهم كلّ ممزّق وشتّت شملهم ، وفَرَّقَ جمعهم ، فلا يقوم لهم رَأْسٌ إن شاء الله بعد ذلك ، فرحم الله هذا السُّلطان وعساكره الّذين سعوا في إستنقاذ بلاد الإسلام ، وخلّد الله الملك في آله .

وكان هذا الفتح الثّاني[86] يوم الخميس المبارك لخمس بقين من جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وتسعمائة[87] ، قيل إن طاغية النّصارى / الّذي كان طامعًا في [42/أ] الإستيلاء على تونس لمّا سمع بمجيء العساكر العثمانيّة هَمَّت نفسه أن يَمُدَّ الحصار بمدد من عنده ويرسل عمارة بذخائره وجنوده ، فبعث رجالاً[88] من حكمائه يتجسسون الأحوال ، فرجعوا إليه مسرعين ، فسألهم عمّا شاهدوه من أحوال عساكر الإسلام ، فقالوا له : رأينا ما أذهلنا ، فإنا رأينا كلّ ذي صنعة مشتغلاً بشأنه ، وكلّ من عُيِّنَ في مكان للجهاد ملازم لفرضه ونفله ، والقوم بين جزّار وطبّاخ ، وأسواق ملآنة بالبائع[89] والمشتري وسمسار وحدّاد ونجّار وبيطار[90] ، ومنهم من يتداول الحرب ويتمد عليه ، ومنهم من هَمُّهُ شأن نفسه ولا يلتفت إليه ، وليس لأحد علم بما صنع الآخر ، فلو بعثت إليهم بجميع النّصرانيّة لم[91] تغن شيئًا ، ولم تبق[92] منها بقيّة ، فبطل عزمه وزعمه ، وانفشل حزمه ، وانقطع رجاؤه وخاب أمله[93] .

ولما فتحوا البستيون[94] وجدوا الجامع الّذي بخارج باب البحر ملآن بالسّلاسل[95] والأغلال كانوا أَعَدُّوها[96] للمسلمين ، فكانت والحمد لله بعد الفتح في أعناق من لم

86) هو فتح البستيون.
87) 23 سبتمبر 1573 م.
88) في الأصول : «رجلين» والتّصويب من المؤنس ص 194.
89) في المؤنس : «وأسواق ملئانة بالباعة من كلّ صنف والمشتري بين دلاّل وسمسار».
90) في ط : «وبنائين» ، وفي المؤنس: «وبيطار وأكثرهم مشتغل بجمع الدّرهم والدّينار...».
91) في ش وت : «فلم».
92) في الأصول : «يبق».
93) في ط : «دهشان».
94) في الأصول : «البستيور».
95) في الأصول : «السلاح» ، والمثبت من المؤنس ص 194.
96) في الأصول : «أعدوه».

يقتل منهم ، وأُسِرَ قبطانهم فأراد أن يفتدي بالمال ، فَضُرِب عنقه لأنّهم كانوا وجدوه يبني في رودس[97] وفي جربة لمّا أخذها درغوث باشا ، ووجدوه هنا في البستيون[94] فأراح الله منه الإسلام.

وكان[98] تحصَّن منهم طائفة بجزيرة شكلي / وهي في وسط البحيرة ، فلمّا رأوا ما [42/ب] حلّ بهم وبقومهم طلبوا الأمان من الوزير الباشا سنان ، فأمّنهم لمصلحة رآها ، فجاءه مائتان منهم فأخبروه بأمور مهمّة منها [أنّ عندهم مائتين وخمسة من رجالهم أهل صناعات غريبة منها][99] عمل الطّوب الّذي يُعْجَز عنه ، ومنها تذويب الحديد والنّحاس وعمل المدافع الكبار ، وغير ذلك من بديع الصِّناعات ، فأعطاهم الأمان ، وأخذ أولئك المعلّمين وشرط عليهم تفريغ المدافع[100] وسبك النّحاس ، وتكون في أرجلهم القيود وَرَبَط[101] بعضهم ببعض ، فرضوا بذلك ، وأعطاهم على هذا الشّرط الأمان وكساهم ، وجعل لهم العلوفة واستخدمهم الباب العالي ، ومن ذلك الزّمان كثرت صناعة المَدَافع[102] بتلك الدّيار العليّة[103].

وقتل في القلاع الثّلاثة عشرة آلاف مقاتل ، واستشهد من الغزاة ما يقارب ذلك العدد ، واستشهد من أعيان الأمراء أعلام ، فمن مشاهيرهم صفر بك[104] صاحب إسكندرية ، وبايزيد بك[104] سنجق[105] ترخانة[106] ، وأحمد بك[104] سنجق[105] أولونية[107] ، ومصطفى بك[104] سنجق[105] أسيس[108] ، ومن أمراء الأكراد خضر بك[104] وغير ذلك عدد كثير ، وأخذ الوزير من الأماكن الثّلاثة مائتي مدفع وخمس

---

97) كذا في ش وت والمؤنس ، وفي ط : «دروس».

98) عن هذا الجامع وما أعد فيه الأسبان لفتنة الإسلام ، وعن أسر قبطانهم الّذي أراد الإعتداء أنظر المؤنس 195.

99) إضافة من المؤنس يقتضيها السّياق.

100) في الأصول : «الحديد» والتّصويب من المؤنس ص 195.

101) في المؤنس : «ويتكفل».

102) في الأصول : «كثر صنايع».

103) عن إستسلام جماعة جزيرة شكلي وطلبهم الأمان ومنح الوزير سنان باشا لهم الأمان بشروط أنظر المؤنس 195.

104) في الأصول : «بيك» ، وكأنّه كتبها كما يتلفظ بها.

105) في الأصول : «صنحق».

106) في الأصول وفي المؤنس : «ترحالة» والتّصويب من الإعلام ص 384.

107) في الأصول والمؤنس : «أولونة» والتّصويب من الإعلام ص 384.

108) كذا بالأصول والمؤنس ، وفي الإعلام : «أينة بختي».

مدافع من الكبار ومن[109] الصّغار وضربزانات[110] ما لا يحصى فترك لحفظ تونس من الكبار خمسة وثلاثين مدفعًا ، وأرسل للباب العالي مائة وثمانين للإستعانة بها على الجهاد في أعداء الدّين.

[43/أ] ولمّا[111] فرغ الوزير الأعظم من هذا الفتح الأفخم أنعم على جميع من / بالعسكر من الأمراء والكبراء والبكلاربكية وسائر الزُّعَماء وأرباب الجوامك والعلوفات بالتّرقيات العظيمة والمناصب الكبيرة لكلّ بحسب سعيه ورتبته ، وعرض[112] ذلك على[113] الأعتاب العَلِيَّة ، وكان مبلغًا عظيمًا من الخزائن العامرة السُّلطانية ، فقوبل جميع[114] ذلك بالقبول ، ووقعت موقع الإجابة في المأمول والمسؤول ، كما أنعمت الحضرة العَلِيَّة على الوزير بأنواع الإنعامات السَّنية والتّرقيات العليّة زيادة على أجره المشكور لبذل نفسه في نُصْرَة الدّين وأمواله لعساكر المسلمين ، وأخذ ثأر المسلمين من الكفرة الملحدين بهذا الفتح العظيم ، الّذي أجراه الله على يديه السَّعيدة ، ومساعيه الحَمِيدة.

ثم عاد حضرة الوزير الأعظم[115] الأكرم بمن معه من عساكر الباب العالي إلى الحضرة العلية[116] ، وصحب معه كبير النَّصارى ومحمّد الحفصي[117] ، فكان آخر العهد به ، وقيل حُبِس في القلال السبع إلى أن مات بها ، وأذن لسائر العساكر المنصورة وسائر الأمراء والبكلاربكية بالعود إلى أوطانهم وأماكن حكوماتهم مثل أمراء الجزائر وطرابلس ومصر ، وورد الوزير الأكرم على الباب العالي الأفخم بمن معه ممَّن يسدّ الثّغر ، فقبّل قوائم سرير السَّلطنة ، فجلس السُّلطان الأكرم والمقام الأعظم والسُّلطان الأفخم ، سلطان

---

109) في المؤنس : «غير الصّغار» وغير موجودة بالإعلام.

110) في الأصول : «الزرابزن» ، وفي المؤنس : «زرابز» ، وصوّبناها كما سبقت الإشارة ، هذه الكلمة في مكانها هذا زائدة عن الإعلام ، والمؤلّف فيا يبدو ناقل عن المؤنس ص 194 – 196 ، فقد جاءت فيه الألفاظ كما عند المؤلّف مثل «ترحالة» و«أولونة» و«أسيس».

111) رجع إلى النّقل من الإعلام ص 385.

112) في الأصول : «أعرض».

113) كذا في ش ، وفي ب وط : «من».

114) ساقطة من ش.

115) ساقطة من ط وت.

116) إنتهى نقله من الإعلام ص 386.

117) أخذها عن المؤنس ص 199 ، وعن فتح العساكر العثمانيّة بقيادة الوزير سنان باشا لتونس وحلق الوادي والقضاء على الإحتلال الأسباني ، أنظر الإعلام ص 369 – 385 والمؤنس 185 – 199.

العرب والعجم ، السُّلطان سليم خان – سقى الله ضريحه شثابيب الرَّوح والرَّيحان والرِّضا والرّضوان ، وأسكنه وأسلافه وأخلافه / وإيانا فراديس الجنان – ، فقوبل بأنواع التَّشْرِيف [43/ب] والبشر والإكرام ، ونال من الله وأمير المؤمنين كلّ ما تمنّاه ، وفاز بمحبّة الله ورسوله ، وظفر بجميع مأموله.

وكان يوم دخوله يومًا مشهورًا مشهودًا ، وازدحمت الخلائق لمشاهدة طلعته البَهِيّة ، وتبرّكت الأنفس بمطالعة أنوار محيّاه السَّنيّة ، وحصل مثل ذلك للقبودان من العزّ والإقبال ونيل المُنَى[118] والتّبرك به ، وكذا تَبَرَّك النَّاس بالنَّظر إلى جميع المجاهدين ، ومع ذلك فالكفّار يقادون في السّلاسل والأغلال مُقرنين في الأصفاد مع شديد الذّلّ[119] والنِّكَال ، ودخلت المراكب مُزَيَّنة بالألوية الملوّنة تخفق عليها رايات الفرح بالنَّصر والظَّفَر ، وأطلقت المدافع حتّى كادت الأرض أن تهتزّ ووردت[120] العساكر صفّا صفّا ، وألفا ألفا ، ورحم الله هذا السُّلطان ووزرائه الكرام وأمرائه العظام وعساكره جنود الإسلام الّذين أخلصوا لِلّهِ الطَّاعة ولم يشقّ أحد منهم عصا[121] الإسلام ، ولا شذّ عن الجماعة ، جعل الله سَعْيَهُم سعيًا مشكورًا ، ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ، وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[122].

وما رجع الوزير – رحمه الله – إلى الأعتاب العَلِيَّة حتى مَهَّد البِلاَد ، وأَمَّن العباد ، وترك بتونس من العساكر العُثْمَانية مائتي دار[123] على عادة العَسَاكِرِ العُثْمانية والمتعارف بينهم ، كلّ دار[123] عبارة عن جماعة من الخمسة والعشرين رجلاً وما يقرب منها ، وعلى كلّ دار[124] قَيِّمٌ يقوم[125] بها[126] على جاري قوانينهم[127] / ورتّب لهم [44/أ]

---

118) في الأصول : «منا».
119) في ط : «الذلة».
120) في الأصول : «وورد».
121) في الأصول : «عصى».
122) سورة الإنسان : 11 – 12.
123) في ط : «داي».
124) في ط : «داي».
125) في ط : «يقدم».
126) ساقطة من ش.
127) عن التّرتيب الّذي تركه سنان باشا بتونس ، أنظر : ذيل بشائر أهل الإيمان 87 – 88 ، المؤنس 200 ، إتحاف أهل الزمان 26/2 – 27 ، الحلل السّندسيّة 318/2.

قوانين السّياسة ، فصارت من بعده[128] ظاهرة الرَّسم ، باقية الحكم ، وأضهر فيها نواميس المُلْك والسَّلطنة وقرَّر فيها المعلوم المرتَّب ، ويعبّر عن هذا العسكر الباقي بالينكشرية[129] ، وعيَّنَ لِكُلِّ مَقَامٍ مَنْ يَصْلُحُ لَهُ ، وقنَّنَ القَوانين الموافقة للشَّرع والسِّياسة المناسبة للحكمة والكياسة .

---

128) في ش : «من بعده» ، وفي ت : «من بعدهم» .

129) في الأصول : «الينشرية» ، كتبها المؤلّف كما تنطق إذ الكاف لا تلفظ ومعناها العسكر الجديد «Janissaire» .

الباب الثّالث

في ذكر أمراء تونس من العساكر العثمانية بعد فتح الباشا سنان – رحمه الله تعالى –

عهد الباشوات :

ولَمَّا تمّ الفتح المبارك ، وسافر الباشا سنان قام الينكشرية[1] بعده فضبطوا مُلْكَ تونس ، ومهَّدوا قواعده ودعموها فتمكّن قدمهم ورَسخت ، واستمرت البلاد بأيديهم خلفًا بعد سلف ، وساعدهم القدر فأصلحوا ما فسد من قلعتها وأسوارها وسكنوا ، وجعلوا دار الإمارة بها ، وهي المعبَّر عنها بدار الباشا ، وجعلوا دار الدّيوان ليرسم[2] بها عند التّشاور في الأمور ، وجعلوا لهم قوانين يتميَّزون بها ، وأجْرَوا[3] في أوّل أمرهم الأحكام على قانون الجزائر ، فجعلوا المتصرّف في البلاد دولاتليا[4] ، والمتصرف في دفع المرتّبات والنّظر في الأمور العامّة من السّراحات والإقطاعات وما ينضَافُ إلى ذلك هو الباشا الوارد من الأعتاب العثمانية[5] فكلّما ذهب باشا خلفه باشا ، ولا يكون إلّا بتوليه من الأعتاب العثمانية ، وجعلوا نظر العساكر لآغتهم[6] ، وجعلوا ولاة[7] لجمع الجبايات ، وسمُّوهم

1) في الأصول : «الينشرية».
2) ساقطة من ط .
3) في الأصول : «وجروا».
4) في ت : «دولتليا» ، وفي ط : «دوليته».
5) بعدها في ش : «وجعلوا».
6) كلمة فارسية ويلفظها الإيرانيون آقا ، ولكن القاف تكون بين القاف والغين في اللّفظ وهي تعني السّيّد وقد استعمل الأتراك هذه الكلمة لِدلالات كثيرة ، منها أنّها كانت تطلق على الضّباط الأميّين وعلى موظّفي الدّولة الأميّين الّذين لا يحتاج عملهم إلى معرفة القراءة والكتابة مثل المحصلين وأفراد الدرك . وكانت تطلق على بعض الأسر الوجيهة وعلى وجهاء الأكراد بصورة خاصة كما هي الحال إلى اليوم ، وهي اللّفظ الوحيد الّذي يستعمله الإيرانيون اليوم كما كانوا من قبل بمعنى «السّيّد». تعليق د. إحسان حقي هامش 1 تاريخ الدّولة العليّة ص 177.
7) في ش : «أولاة».

[44/ب] بايات[8] ، ودونوا الدواوين / وخرج الولاة لجباية الأموال على مقتضى تلك الدّواوين ، وجعلوا تفرقة ذلك المال الّذي تجبيه البايات على العساكر في دار الباشا على مقتضى مراتب العساكر ، فانتشرت الأحكام والأعلام في أقاليم إفريقية ، وخطب الخطباءَ باسم السلاطين العثمانية ، وضربت السّكّة باسمهم ، وتوجّهت الآمال نحوهم ، وانضافت إفريقية إلى السّلطنة العثمانيّة.

واستمرّت عليها ولاياتهم[9] ، وتوجّه إليها زعماؤهم ، وحكم فيها باشاواتهم ، فكانت قطرًا من أقطارهم ، ودارًا من ديارهم ، (وجعلوا إصطلاحًا على عادة)[10] أهل الجزائر المتحكّم في الدّيوان والعسكر جماعة البُلكباشية[11] (فساروا على ذلك زمانًا ، ثم أظهر[12] البلكباشية)[13] الحيف على إخوانهم من بقيّة العساكر ، وساروا في أحكامهم بعنف ، فجاروا على بعضهم حتّى أنّ الواحد من البلكباشية[11] إذا كان عنده صبي[14] كانت له حرمة وافرة ، فإذا شاء مدّ يده في اليلداش وما عسى من دونه[15] ، فأنفت نفوس العسكر من ذلك ، وأضمروا[16] لهم الشّرّ ، وتعاهد العسكر بينهم على الفتك بهم في يوم معلوم [وهو] يوم جمعة وكان وكيل الخرج في الدّيوان واحدًا معلومًا منهم إسمه طبّال رجب فساعدهم على ما أرادوه ووعدهم أن لا يحضر ذلك اليوم لتكون بيت السّلاح مغلوقة حتى لا يجدوا سلاحًا يدافعون به عن أنفسهم.

[45/أ] فلمّا كان يوم وعدهم واجتمع الدّيوان دخل عليهم / العسكر على حين غفلة ، ووضعوا السّيف فيمن وجدوه هنالك ، ولم يمنع[17] إلّا من لم يحضر ذلك اليوم ، وتتبّعوهم في منازلهم فقتلوا من وجدوه حيث كان ، ولم ينج إلّا من فرّ بنفسه ، وكانت

---

8) وهو برتبة أمير لواء ، أنظر الحلل السّندسيّة 318/2 ، وعن هذه التّنظيمات أنظر ذيل بشائر أهل الإيمان ص 87 – 88.

9) في ط وت : «ولايتهم».

10) كذا في ط وت والمؤنس ، وفي ش : «وجعلوا عادة على اصطلاح».

11) في ذيل بشائر أهل الايمان «البلقباشية» (طبعة قديمة).
وبولكباشية في الطّبعة المحققة من طرف الطّاهر المعموري ، وفي المؤنس : «بلوكباشية».

12) ساقطة من ت ، وفي ش : «ظهر في».

13) ما بين القوسين ساقط من ط.

14) في المؤنس ص 200 : «إذا كان عنده صبيان وهم المعبّر عنهم بالعزرية تكون له حرمة وافرة».

15) المؤنس ص 200.

16) كذا في ط والمؤنس ، وفي ش : «ظهر» ، وفي ت : «أظهروا» والنّقل الموالي من المؤنس بتصرّف يسير.

17) يقصد «ولم ينج».

هذه الواقعة آخر ذي الحجّة سنة تسع وتسعين وتسعمائة[18]، وَتَقْدُمُ هذه الواقعة إشَارَةٌ إليها من الشَّيخ سيدي أبي الغيث القَشَّاش[19]، وكان من رجال الله، صاحب صدقات وخيرات، وهو أستاذ الشَّيخ[20] سيدي عامر المزوغي[21] – رحمه الله ونفعنا بهم وبأمثالهم –، وكان على باب الإنفاق من فيض الله، فينفق على الفقراء، ويعمّر الزّوايا داخل تونس وخارجها، ويفكّ الأسَارى، فلمّا رأوا تَيَسُّر الدُّنيا عنده، سوّلت لهم أنفسهم مطالبته بمال يستعينون به على مُرَتَّبَاتهم فأبى، فألجأوه إلى ذلك، فبعث جماعة إلى الجزارين الّذين بتونس وأمرهم بشراء رؤوس الكباش، فاجتمع له منها شيء كثير، فلما وقع ما وقع من قتل العسكر للبلكباشية رآى الناس أنّ تلك الواقعة كانت عقوبة من الله لهم على إكراههم للشَّيخ بغير موجب شرعي ولا عادي.

بداية عهد الدايات:

ثمّ إن العساكر تحزّبوا أحزابًا وصار لكلّ حزب منهم رئيس فاجتمع عدّة رؤساء وصار كلّ رايس يُدْعى باسم الدَّاي، ومعنى هذه اللّفظة بلغة الترك خالي بلسان العرب وهي تكبرة[22] لمن ينادى بها[23] في عرفهم، فاجتمع منهم نحو ثلاثمائة داي / [45/ب] وإذا حلّ بهم أمر إجتمعوا في القصبة وتشاوروا بينهم إلى أن يتّفقوا على أمر واحد، ولكن لا يتم لهم أمر إلّا بعد مشقّة لكثرة الخلاف النَّاشئ عن كثرة الدَّايات.

ابراهيم داي:

وكان أكبرهم إذ ذاك إبراهيم داي[24] إشتهر بينهم بشجاعته وكثرة جماعته إلّا أنّه لم ينفرد من بينهم بالحكم، فكث على حالته ثلاث سنين، وطلب منهم دستورًا لحجّ

---

18) 29 أكتوبر 1590 م.

19) من صلحاء تونس (959 – 1031 / 1552 – 1622 م).

20) ساقطة من ط.

21) وإليه تنسب قرية سيدي عامر من ولاية سوسة، وإنما ذكره المؤلّف لأنّه عاش ما يقرب من نصف قرن بصفاقس، وكان الصّفاقسيّون يخرجون لزيارة ضريحه بالقرية المذكورة في يوم معين

22) في الأصول: «تكبير» والتّصويب من المؤنس ص 201.

23) ساقطة من الأصول.

24) هو الرودسلي كما في الإتحاف 28/2، الحلل السّندسيّة 341/2 والرودسلي نسبة على الطريقة التّركية إلى جزيرة رودس، وبه ابتدأ عهد الدّايات.

بيت الله الحرام ، فأذنوا له ففارقهم ولم يعد إليهم بل عاد إلى وطنه من بلاد الروم[25] ، ومات هناك عن عمر طويل ، قيل مات بعد الستّين والألف[26].

موسى داي :

ولما خرج من بينهم قام مقامه موسى داي فأراد أن ينفرد بالكلمة في الحكم فلم يتم له ذلك ، فمكث نحو سنة ، فلما رآى إضطراب الأحوال طلب الدّستور في الذّهاب لحجّ بيت الله الحرام ، فأذنوا له على شرط عدم العود إليهم ، فذهب ولم يرجع .

عثمان داي :

ثمّ تتابع فيهم الرؤساء ، وطلب كلّ أحد الإنفراد بالكلمة ، فقام من بينهم إثنان أحدهما قاره صفر ، والآخر عثمان ، وهو أقلّ الدّايات جمعًا إلّا أنّ القدر ساعده ، فوقع بينه وبين صفر داي مشاجرة ، فذهب كلّ واحد إلى منزله ولبس لامة حربه وأقبل إلى القصبة ، فسبق إليها عثمان فجلس في سقيفتها ، واجتمع إليه بعض جماعته فلمّا رآى صفر داي مقبلاً للقصبة ، بعث إليه من رَدَّه وأمره بالخروج من البلد فخرج إلى الجزائر[27] ومكث بها / دهرًا طويلاً ولم يعد حتّى فرغت أيام عثمان داي[28] وكان خروجه سنة سبع وألف[29]. [46/أ]

وفي أوّل حجّة منها كانت خطرة الجوامر ، وهي ثلاث مراكب مالطية حرثوا هناك من النوّ وفلت منهم إثنان بقية الخمسة فأُخذ الثلاثة غنيمة .

---

25) كذا بالمؤنس أيضًا ، ويقصد بها إلى جزيرة رودس وهي تحت نفوذ تركيا (بلاد الروم).

26) في الأصول : «بعد المائة والألف» والتّصويب من الحلل السّندسيّة 342/3 والمؤنس 201 .

27) إنتهى نقله من المؤنس ص 202 .

28) رجع إلى تونس في أيّام يوسف داي وعاش لحدود 1050 / 1640 – 1641 ، ودفن بتونس . المؤنس 202 قال إبن أبي الضّياف في الإتحاف 28/2 «وله عقب لهذا العصر».

29) 1598 – 1599 م وجاء في الأصول : «سنة أربع عشر وألف» ، والتّصويب من الإتحاف 2 / 28 والمؤنس ص 202 ، وذيل البشائر ص 92 .

وفي سنة خمس عشرة وألف[30] عركوا جبل وسلات ، وكذلك[31] الحملاجي باب عجم.

ولمّا خرج صفر داي انفرد عثمان داي فهابه الرِّجال وهربوا لأطراف البلاد خوفًا من بطشه وبوادره ، فهو أوَّل داي إنفرد بالكلمة في سنة سبع وألف[32] ، فباشر الولاية بجأش متين وربّما باشر الأمر[33] بنفسه وأحاط البلاد[34] خارجًا ودَاخِلاً ، وَربّما سمع بالرجل في الغابة فيخرج بجماعة حتّى يظفر به ، وكَانَ أصحاب البساتين قبل تَوَلّيه إذا طابت غلاتهم طلبوا من الدّيوان من يحرسهم خوفًا من وارد ولص ينهب غَلاَّتهم ، فيعيّنون لكلّ مكان حَفَظَةً[35] ، ويجعلون لهم جعلاً على حفظهم فأبطل عثمان داي تلك العوايد ، وصار يحرسهم بعنايته لخوف العادين والسّرّاق منه ، وجعل تلك العادة يأخذها الساقجي[36] من الباعة الّذين يدورون على كلّ واحد فِلْسَان ، ولمّا تمّ أمره أرادوا قتله مرارًا فلم يَتُمَّ لعدوّه ذلك ، ونفى أهل جربة القاطنين بتونس لأنّهم كانوا إذ ذاك تحت حكم طرابلس[37] / فأجلاهم من تونس ، وكثرت في أيامه غنائم البحر ، وظهر في أيّامه [46/ب] صيت محمد باي إبن حسين[38] باشا ، فكان قبطان البحر بغلائطه فأتى بعدة غنائم ، فكان عثمان داي إذا جاءته الغنائم طلع لحلق الوادي فيبيع الغنيمة كلّها من التُّجّار فيربحون ربحًا عظيمًا ، وجاء في أيّامه دالي[39] قبطان من برِّ النّصارى وحاصر مراكب حلق

---

30) 1606 م.

31) في الأصول : «وكان».

32) في الأصول : «سنة سبع عشرة وألف» ، والتّصويب كما أشرنا.

33) كذا في ط ، وفي ش وت : «الأمير».

34) عاد إلى النّقل من المؤنس.

35) في المؤنس : «ساقجيا» ص 202 والساقجي هو حارس الغابة.

36) في الأصول : «السقجي» ، والتّصويب من المؤنس.

37) كانت جربة في منتصف القرن السّادس عشر محلّ صراع بين الإسبان والأتراك لأهميتها الإستراتيجية ، وعملت كلّ قوة على أخذها ، وفي آخر جولة إحتلها درغوث باشا وجيالي باشا في سنة 968 / 1560 إثر معركة شهيرة جالها ضدّ المسيحيين الّذين كان يقودهم نائب الملك بصقلية جان دي لاسردا (Jean de la Cerde) وألْحقت إلى إمارة طرابلس التّابعة إذ ذاك للسّلطنة العثمانيّة ، وبقيت تابعة لهذه الإمارة إلى ما بعد دخول العثمانيين إلى تونس وإلحاقها بالسّلطنة العثمانيّة مدّة طويلة ، أنظر على سبيل المثال ليبيا لأتوري روسي 188 – 189 والأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا لعزيز سامح ص 55 – 81.

38) أنظر خبره في الإتحاف 29/2 والمؤنس ص 204.

39) في المؤنس : «دال».

الوادي ، ومنعهم من الخروج فخادعه عثمان داي إلى أن ظَفِر به وأسره فسجنه بالقصبة إلى أن مات بها.

وفي سنة سبع عشرة وألف(40) قتل عثمان داي محمد باي إبن حسين باشا خوفًا من قيامه مقامه ، وكان عمره يوم موته ثمانيًا وعشرين سنة ، وكانت فيه شهامة شديدة ونكاية لعدوّ الدّين – رحمه الله تعالى –.

وفي هذه السّنة والّتي تليها جاء أهل الأندلس حين أَخْرَجهم السبنيور(41) لمّا تقوّوا عليهم ، وكانوا أوّلاً بالخيار في البقاء والخروج فأوسع لهم عثمان داي في البلاد مع كثرتهم ، وفَرَّق ضعفاءهم على النّاس وأذن لهم أن يُعَمِّرُوا حيث شاءوا فانتشروا في البلاد وبنوا فيها ، واستوطنوا عدّة أماكن فأنشؤوا بلاد سليمان وَبِلّي ونيانو وقرنبالية وتركي والجدَيْدَة وزغوان وطبربة وقريش الواد ومجاز الباب والسلوقية(42) وتستور وبلاد العالية والقلعة وغيرها مما يزيد على عشرين بلدًا(43) ، فصارت لهم مدن عظيمة / وغرسوا التّين والعنب والزّيتون وأكثروا البساتين ومَهّدوا الطرقات(44) للمسافرين بالكرارط(45) وغيرها(46) وصاروا يُعَدُّون من أهل البلاد ، وسكن طائفة منهم بتونس ، فصاروا من أعيانها ، وتخلّق أهل تونس بأخلاقهم. [47/أ]

وبنى عثمان داي قنطرة مجردة على ثنيّة بنزرت سنة سبع عشرة وألف.

وفي سنة ثمان عشرة وألف(47) عركوا بلاد أركو والحملاجي باب عجم ، وعركوا مطماطة ثلاثة أيام ، والحملاجي درويش الطّويل.

وتوفي عثمان داي – رحمه الله تعالى – يوم سبعة عشر من شوّال من سنة تسع عشرة وألف(48) ، ودفن بتربة الشّيخ سيدي أحمد بن عروس – رحمه الله –.

---

40) 1608 – 1609 م.

41) الاسبان.

42) ساقطة من ش.

43) جلّ هذه البلدان كانت موجودة من قبل ، وإنّما استوطنوها وعمّروها وكبرت عمّا كانت عليه.

44) في ش : «الطرقاة».

45) في المؤنس : «الكراريط» ج كريطة ، وفي الإتحاف : عربات مجرورة لها عجلتان من الخشب مصفّحتان بالحديد.

46) إنتهى نقله من المؤنس.

47) 1609 م.

48) 2 جانفي 1610 م.

يوسف داي :

وتولّى بعده يوسف داي[49] ، فاستقام أمره بلا تعب وكان عثمان داي – رحمه الله – رشّحه في حياته وعقد له على إبنته ، ولم يدخل عليها ، وكانوا سألوه في مرضه من يلي بعده فقال لهم : صاحب الأمر عجم داي ، وإن أردتم راحة أنفسكم قدّموا يوسف داي ، (وكان عجم داي بباجة ، وفيه شهامة زائدة ، وقصد تولية يوسف داي)[50] لمصاهرته ، فبعد موت عثمان داي بعثوا لعجم رسولاً وأصبحوا منتظرين وتجمّعوا عند دار عثمان داي ، فبينما هم كذلك إذ دخل علي ثابت[51] وكان من أصحاب يوسف داي – رحمهم الله جميعًا – فلما رآى جمعهم أقبل بقوّة نفس وقبّل يد يوسف داي وبارك له ، فما بقي أحد من الجماعة إلّا وقبّل يده / وفعل كفعله فبايعه كبراء العسكر وطلعوا[52] [47/ب] به إلى القصبة وأجلسوه كعادة أمثاله ، فجاء بقيّة النّاس وبايعوه على طبقاتهم وتَمَّ الأمر ، فمن الغد أقبل عجم داي من باجة فوجد الأمر قضي بليل فلم يسعه إلّا المبايعة ، فعرفها له يوسف داي ، وعامله بالمبرّة والإكرام مدّة حياته سياسة وحسن جزاء – رحمة الله عليهما – .

فأخذ علي ثابت ، وكان أيضًا ذا سياسة وتدبير ، يساعد يوسف داي على الأمور وتدبير المملكة ، وصَرَفَ نيّة يوسف داي عن التّزوج ببنت عثمان داي ، فتخلّى عنها ، ودبّر عليه[53] بتزوّج[54] حظايا الأعلاج لأنه خاف من مصاهرة أولاد عثمان داي مواجهة يوسف داي لهم دونه ، فصرف عزمه ليستبدّ بالأمر ، فكان كذلك فاستقام له الأمر ، وقام هو بجده إلى أن بلغ رتبة لم ينلها غيره.

وفي أيّام يوسف داي تَحَضَّرت البلاد ، وكَثُرَت عمارتها ، وكَثُرَت مراكب الجهاد

---

49) رجع إلى النّقل من المؤنس ص 205.

50) ما بين القوسين ساقط من ط.

51) كان رَمَّالاً ، بَشَّر يوسف عند قدومه من طرابلس ، بأنه يكون له في تونس شأن عظيم إلى أن يكون الحاكم بها ، فقال له يوسف داي : إن ثبت ذلك لأكرمنّك غاية وبعد أن نزل يوسف بدفتر العسكر وترقي في العسكرية أحوجه الحال إلى شراء فرس ، فوجد فرسًا عظيمًا عند رجل يتّجر في الخيل فتأمله فإذا هو الرَّمال السّالف ، وأخبره بما تقدّم ذكره وجدّد العهد. الحلل السندسيّة 350/2.

52) في ش : «اطلعوا».

53) بقصد نصحه.

54) في الأصول : «بترويج».

في البحر، وبلغت عدّتها خمسة عشر مركبًا من الكبار، فكثرت رؤساء البحر، وكان لمراكبه في البحر صيت وشهرة، ومن أعظم رؤسائه أولا قبطان صمصوم وقبطان وردية، كانا نصرانيين فأسلما، وكانا مسعودين فصار لهما صيت في البحر فساعدت[55] المقادير بغنائم البحر واطمئنان البرّ.

وكان مغرمًا بالأبنية الفاخرة كسوق الترك بتونس، فَنَمَّقَه على أبدع نظام ومسجده المشهور براس سوق[56] الترك المذكور/ ومدرسته الملاصقة للمسجد المذكور، وجعل للطَّلبة مرتّبات وأرغفة وغير ذلك، وبنى بالسّوق المذكور ميضاة، وبنى سوق الجرابة والحَمَّام القريب منه وعدة فنادق لسكنى طائفة اللُّوند، والبرْكَة لبيع العبيد والحُلي، وفتح باب البنات في شهر ربيع الأوّل سنة عشرين وألف[57]، بعدما كان مسدودًا، وجعل عليه مصراعين وعدة حوانيت وسوقًا قربه لبيع الغزل وعمرت في أيامه تلك الجهات بعدما كانت خرابًا والمار منها يخاف على نفسه نَهَارًا. [48/أ]

وكان إبتداء الصَّلاة في المسجد المذكور يوم الجمعة في شهر رمضان المعظم سنة خمس وعشرين وألف[58].

ومن خيراته جلب الماء العذب على الحنايا[59] المشهرة به، وفرّق ماءها في المدينة في عدّة أماكن منها القُبَّة المُرَخَّمَة الّتي تحت صومعة جامع الزيتونة، لكنّ تلك المياه تارة تجري وتارة تتعطَّل بحسب أُمَرَاء الوقت، فنهم من يجريها بعنايته، ومنهم من يُعَطِّلها باعراضه.

ومن خيراته بناء قنطرة مجردة من ناحية طبربة، فكانت من أجلّ القناطر منظرًا وإتقانًا ومتنزّها، وكان عليها برج في حياته، ثم زاد فيه[60] بعده مولاه نصر آغة، ثم تولّع به ولد الداي المذكور أحمد شلبي فَضَخَّمَهُ، ثم صار بعده لحفيده أبي الحسن علي باي، فزاده ضخامة حتى ضُرِب به المثل.

ومن خيراته بناء/ المواجل في الأماكن المعطشة، وجلب الماء من أماكن بعيدة لنفع المسافرين، وله صدقات عديدة[61]. [48/ب]

---

55) كذا في ت، وفي ش وط: «فساعدة».

56) عن هذا المسجد أنظر ج مارسي. G. Marçais: *Manuel d'art musulman*, Paris 1927, 2/847–849.

57) ماي – جوان 1611 م.

58) سبتمبر – أكتوبر 1616 م.

59) في الأصول: «الحناية».

60) كذا في ط وت والمؤنس، وفي ش: «عليه».

61) إنتهى نقله من المؤنس.

وفي سنة عشرين[62] عركوا جبل مطماطة تسعة أيام.
وفي سنة إحدى وعشرين[63] عركوا تيفاش والحملاجي باب عجم.
وفي سنة إثنتين وعشرين[64] عركوا سَدَّادة[65] فأخذوها، وهدَّموا قلعتها يوم الخميس والحملاجي باب مصطفى.
وفي السَّنة المذكورة كانت محلّة الجزائر الأولى ولم يكن فيها قتال وكان آغة المحلّة رتاز آغة في ثلاث من رجب.
وفي السَّنة المذكورة كان ابتداء بناية المسجد – المقدّم الذّكر –.
وفي سنة خمس وعشرين[66] عركوا مطماطة خمسة عشر يومًا والحملاجي باب عجم وهدموها سنة سبع وعشرين[67].
وجاء الطَّاعون[68] لتونس سنة إحدى[69] وثلاثين وألف[70]، فيها مات الشَّيخ سيدي أبو الغيث القَشَّاش – رحمه الله – ومات فيها خلق كثير.
وفي سنة أربع وثلاثين وألف يوم عشرين من رمضان[71] أخذوا زوج أغربة للمالطيين، وزُيِّنت لهما البلاد، وكان القبطان مراد داي قبل تولّيه دايا كانت ستة أغربة عَمَّرها من تونس، وخرجت خمسة أغربة مالطية من صقلية فجاءت في طلبهم، ووقع الحرب العظيم بينهم، ومات من الجانبين خلق كثير، فنصر الله المسلمين، وأخذ من الكُفَّار الغرابين، الكبير منهما يسمى ببطرونة الّذي ينوب عن غراب القبطانة، والآخر كان إسمه برانسيشق[72] وفر الّذي كان فيه قبطان / النَّصَارى بعد أن أشرف على الأخذ، [49/أ] ووجد في الغرابين نحو خمسمائة مسلم.

---

62) 1611.
63) 1612 م.
64) 1613 م.
65) في الأصول: «سدارة» والتَّصويب من الحلل 349/2.
66) 1616 م.
67) 1618 م.
68) هو المعروف عند أهل تونس (العاصمة) بوباء سيدي أبي الغيث، أنظر المؤنس ص 207.
69) في الأصول: «واحد».
70) 1622 م.
71) 26 جوان 1625 م.
72) في ط: «فرانشيشق».

وفي سنة سبع وثلاثين وألف[73] كانت[74] الواقعة العظمى[75] بين عساكر الجزائر وعساكر تونس[76] مات فيها خلق كثير، وكانت لثلاث عشرة خلت من رمضان يوم السبت، وكان السّبب في إستجلابهم الشّيخ ثابت بن شنُّوف[77]، وكان شيخًا على نجعه، وكانوا متغلّبين على بلد الكاف ورعيّته، وهم أصل الفتنة بين العسكرين، فكانت البايات[78] تهابهم، ولا يحوم أحد حول حماهم ولا يطرق دارهم، فاستجلبوا عسكر الجزائر بإطماعهم إياهم في البلاد، ولمّا التقى الجمعان كانت الدّائرة أوّل يوم على أهل الجزائر حتّى طلبوا الأمان لأنفسهم، ثم خانت أولاد سعيد وأشباههم فاختلّت مصاف العساكر التّونسية[79] فتسارع الأعراب إلى نهب المحلّة والوطق، ولم تسكن الفتنة حتّى ذهب الشّيخ تاج العارفين العثماني والشّيخ إبراهيم الغرياني والشّيخ مصطفى شيخ الأندلس وغيرهم فصالحوا ما بين العسكرين.

وفي السّنة الّتي تلتها كانت محلّة الكاف لقيام ابن شنُّوف[77] بها، وكابد هذه الأهوال مراد باي – رحمه الله تعالى – وكان صاحب دهاء.

وفي سنة ثمان وثلاثين وألف[80] أخذ النّصارى زوج غلايط لأهل تونس.

وفي سنة إحدى[81] وأربعين[82] توفّي الحاج علي ثابت، وجاء منصب الباشوية لمراد باي.

[49/ب] وفي سنة سبع وأربعين / وألف مات يوسف داي – رحمه الله – ليلة الجمعة الثالث والعشرين من رجب[83] عن سنّ عالية، ودُفِن بتربة أعَدَّها مجاورة لمسجده[84].

---

73) 1627 – 1628 م.

74) في الأصول: «كان».

75) رجع إلى النّقل من المؤنس ص 208.

76) وسببها الإختلاف في الحدّ بين المملكتين.

77) كذا في ت والمؤنس، وفي ش: «سنوب»، وفي ط: «شنوب».

78) في الأصول: «البيات».

79) كان تغلّب الجزائريين في واقعة تعرف بواقعة السطارة، وغنم الجيش الجزائري من الجيش التونسي 22 مدفعًا، وأنظر أيضًا تاريخ الجزائر العام لعبد الرّحمان محمّد الجيلالي، الجزائر 1375 / 1955، 2/371 – 372، الحلل السّندسيّة 2/360 – 364.

80) 1628 – 1629 م.

81) في الأصول: «أحد».

82) 1631 – 1632 م.

83) 11 ديسمبر 1637 م.

84) يبدو أنّ المؤلف إعتمد في أخبار يوسف على المؤنس 205 – 208، ينقل عنه بتصرّف بدون إشارة كما أنّه فيه تفصيلات أخرى غير موجودة في المؤنس، ولم يذكر المصدر الّذي رجع إليه.

الداي أسطى مراد:

فتولى بعده أسطى[85] مراد داي إبن عبد الله، بويع صبيحة اليوم الّذي مات فيه يوسف داي، وكان أكبر من سعى في توليه أسطى مراد مامي، وهو أكبر مماليك يوسف داي، وكان يرى أنّه أحقّ بالأمر من غيره[86]، إلّا أنه قدم أسطى مراد على أنّهم إن رضوا به دبّر في خلعه واستبدّ بالأمر، فلمّا تمّ أمر أسطى مراد عاجله ونفاه لزغوان، فقُتل هناك.

فلمّا تمكّن وانقطع المخالف وأمنت المخاوف أخذ في تدبير مصالح البلاد، فأوّل شيء إبتدأ به أن قطع الخمّارات الّتي بين الأزقة، وكانت كثيرة وأبطل برج البستيون[87] بإبطال بيع السّميد والدّقيق والقمح الّذي كان يباع هناك به، ونظر في معايش المسلمين أحسن نظر.

وفي هذه السّنة أخذ السُّلطان مراد (بغداد وفي سنة ثمان وأربعين وألف[88] توفّي السُّلطان مراد)[89] حسبما مرّ وتولّى بعده السُّلطان إبراهيم – رحمهم الله تعالى –.

وأسطى مراد أوّل من أمر القوّاد بملازمة بابه كلّ عشية للإنصاف منهم لمن يشتكيهم.

وفي أيامه بنى البرج الذي بغار الملح، وبنى هناك مدينة فاستوطنها جمع من الأندلس[90]، وغيرهم، وكانت مخبأ للنّصارى، فانقطع ضررهم وهو أحد من رأس البحر ورزق فيه سعادة[91] كما تقدّم.

وتوفّي سنة خمسين وألف[92]. / [50/أ]

---

85) في ط: «السطا»، وفي المؤنس وغيره من المراجع: «سطا»، والنّقل من المؤنس ص 209 بتصرّف.

86) وكان يرى نفسه أنه أحقّ بالأمر من غيره إلّا أنّه خاف من العسكر أنّهم لا يقدّمونه. المؤنس 209.

87) في الأصول: «البستيور».

88) 1638 – 1639 م.

89) ما بين القوسين ساقط من ط.

90) كذا في المؤنس 210.

91) ولذلك يقال له مراد قبودان، وكان من الأعلاج وقبودانا في البحر، وله خصال محمودة في الجهاد، وعلاً صيته في جميع بلاد الكفرة والإفرنج، وسار سيرة حسنة ورخصت الأسعار في زمانه وخصبت البلاد في أيامه، ذيل بشائر أهل الإيمان 93. ويبدو أنّ المؤلّف نقل ما في المؤنس 209 – 210 بتصرّف.

92) 1640 – 1641 م.

الداي أحمد خوجة:

فقام بالأمر بعده[93]، أحمد خوجة ويقال له أوزون[94] خوجة، وكانت توليته باتفاق من العسكر لأنّه كان رحيم القلب مُحْسِنًا للفقراء والأيتام والأرامل، فمالت إليه القلوب، وكان أوّلاً خوجة[95] الدّيوان، فمن ذلك الوقت ظهر إحسانه وشفقته على أيتام العسكر وفقرائه، فكان سبب تولّيه.

وفي أوّل تولّيه جاءت أغربة مالطة فدخلوا حلق الوادي، وأخذوا منه مراكب وأحرقوا عدّة مراكب فلم ينفعهم البرج، فمن ثمّ زيد برج آخر[96] تحصينًا للمرسى.

وفي سنة خمس وخمسين[97] كان إبتداء العمارة لكندية[98]، وجاءت الأوامر السُّلطانيَّة بتجهيز المراكب والعسكر، فندب أحمد خوجة النَّاس لذلك وجعل على أهل المدينة والرّبطين[99] أموالاً لتجهيز الّذين عُيِّنوا للسفر، وهم جماعة، وجعل لكلّ واحد مقدار ثلاثين كرونة[100]، وهيّأ معهم جملة من المساحي[101] والفيسان[102] والقفاف، وحملهم في المراكب لحفر الخنادق وردمها وللمتاريس وشبهها ممّا تدعو إليه ضرورة الحرب، ثمّ توجّهت في السَّنة الثانية.

محمد لاز:

وتوفّي أحمد خوجة[103] سنة سبع وخمسين وألف[104].

فتولّى بعده الحاج محمد لاز، ومن هنا إرتفعت رتبة الباي عن رتبة الداي، فلا بدّ

---

93) يستمرّ في النقل من المؤنس بإختصار وتصرّف 210.

94) في الأصول: «أزن» والتّصويب من المؤنس ومعناه «الطّويل».

95) أي كاتبًا، وفي ذيل بشائر أهل الإيمان ص 93، كان دفتر دار بالدّيوان.

96) وهو البرج الصّغير قرب باب رادس المعروف ببرج الخربطة، ثم صار قصرًا للملوك الحسينيين البايات. أنظر إتحاف أهل الزّمان 38/2.

97) 1646 م.

98) Candie.

99) باللّهجة التّونسية، وبالفصحى «الرّبضين».

100) لعلها Coronat وهي سكة ضربت في نهاية القرن الحادي عشر ميلادي من طرف Les comtes de Provence، تعليق 3 ص 409، الحلل السندسيّة ج 2.

101) ج مسحاة.

102) ج فأس.

103) نقل المؤلّف أخباره باختصار من المؤنس 210 – 212.

104) 1647 م.

من التّعرّض لذكر شيء من البايات الماضين عن هذا الدّاي، ثمّ نسوق الكلام على البايات بالذّات وعلى الدّايات بالعرض.

بداية البايات:

فنقول: لمّا كانت دولة بني حفص في أيّام إستقامتها، كان[105] سلاطينهم يخرجون بمحالهم بالجباية / أموالهم، ولمّا جاءت دولة العساكر العثمانيّة تقسّمت البلاد بين [50/ب] القياد، وصار أعظم قيّادهم يخرج بالمحلّة، وكانت الأعراب مع ذلك في قوّة واستحوذوا على جُلّ البلاد كعرب إفريقية أولاد أبي اللّيل وأولاد أبي سالم (وأولاد حمزة[106])[107] وأولاد شنّوف[108] عرب الكاف وأولاد سعيد وأولاد مدافع، وأهل الجبال غالبهم عُصَاة، فكان صاحب المحلّة يعاملهم بالمخادعة والرّفق والقوّاد يتعاقبون في التزامات المحال، فكانت أحوالهم غير مضبوطة، وكثرت الحكّام في المدينة، فكانوا في جهد مع الرّعيّة، وفي أقلّ الأمور يتعذّر الخلاص معهم وخصوصًا أهل جبل عمدون ومن جاورهم وأهل جبل وسلات وأهل جبل مطماطة وغيرهم.

فأوّل من سما[109] وأظهر ناموس البايات[110] وتسامى وتسمى بهذا الإسم على الحقيقة القائد رمضان من الأعلاج، أصله من أهل الجزائر فخدم المناصب هناك، وانتقل إلى تونس، وتحصّل على هذه المرتبة، وكانت له سياسة وتدبير حسن فاقتنى المماليك وعلت رتبته، وتخرّج من مماليكه عدّة رجال أخذوا المناصب في حياته، وتسمّوا[111] بهذا الإسم قبل مماته، فمنهم مراد باي، ورمضان باي، وحسن باي، فهؤلاء مشاهير مماليكه، وكان أعلاهم همّة وأبعدهم صيتًا مراد، فكان فيه زيادة حذق وقوّة علم بسياسة الرّعيّة وتدبيرها، وجباية الأموال وتحصيلها، فاستولى / في حياة سيّده [51/أ]

---

105) النّقل من المؤنس ص 227.
106) في الأصول: «همزة».
107) ما بين القوسين ساقط من ط.
108) كذا في ت والمؤنس، وفي ش وط: «شنوب».
109) في الأصول: «سمى».
110) في الأصول: «البياية».
111) كذا في ط، وفي ش: «تسمى».

على الولاية[112] الضَّخمة ، واستخلفه في حياته ، وكان يتفرّس فيه النّجابة على الإثنين الآخرين .

مراد باي وبداية الدولة المرادية :

ولمّا مات أستاذه أراد [أخوه][113] رجب باي أن يستبدّ وحده بالأمر ، فلمّا خرج بالأمحال لم يقم بها حقّ القيام كما يقوم مراد باي ، ولمّا خرج بها مراد أتى بها على أحسن مراد ، فكانا تارة يفترقان ، وتارة يجتمعان ، وفي محلّة الجزائر — المقدّمة الذّكر — ، كان مراد وحده بمحلّة على جبالها ، وهرب غالب مماليك سيّده إليه ، ولمّا رجعوا إلى محلّة الكاف ساس الأمور بنفسه فكانت على وفق المراد ، فلم يزل يعلو وغيره يسفل إلى أن بعث إلى الباب العالي فجاءه التّقليد من السُّلطان سنة إحدى وأربعين وألف[114] — حسبَما مرَّ — ، وكان مُغْرَمًا بقتال الفئة الباغية أولاد سعيد فاعتنى بتمزيق شملهم ، وكانت له القدرة عليهم إلّا أنه لم ينفرد بتدبير البلاد لمشاركة رجب له فيها ، وآخر غزواته الّتي أجلاهم[115] فيها ، وقطعهم[116] وأخرجهم من البلاد إلى وطن طرابلس ، فلم يستقرّوا فيها وهي آخر محاله ، جاءه[117] خبر الباشوية وحيازة منصبها وهو على صفاقس ، فتسمَّى باسم الباشا[118] وتخلّى لولده حمّودة باشا عن المحال فباشر منصب الباشالك ، ولكن لم تَصْفُ له الأيام فمات من سنته ودفن بجوار سيدي أحمد بن عروس — رحمه الله تعالى ونفعنا به — ولما بنى ولده حمّودة[119] تربته / المجاورة للشّيخ في الجامع الّذي إستحدثه هناك نقله إليها[120]. [51/ب]

112) في ش : «الولايات» ، وفي ط : «الولاة» ، والتّصويب من المؤنس ص 227 .
113) إضافة من المؤنس ص 228 .
114) 1631 — 1632 م.
115) في الأصول : «جلاهم».
116) كذا في ط والمؤنس ، وفي ش : «أقطعهم».
117) كذا في ط والمؤنس ، وفي ش : «فجاءه».
118) في الأصول : «الباشوية».
119) هو أبو محمّد حمّودة باشا.
120) عن إبتداء أمر البايات وعهد مراد باي نقل المؤلّف ما في المؤنس 227 — 228 باختصار مع نقل كثير من عبارات إبن أبي دينار بنصّها.

الباي حمّودة باشا المرادي :

فقام ولده بعده بالأمور وساسها على أحسن منوال ، وأظهر من أبّهة الإمارة ما لم يظهره غيره ، وفعل ما لم يفعله بنو حفص ، فانفرد بالأمر ، وباشر الولاية بقوّة جأش ، وقابل الرَّعيّة برفق وإحسان ، وقرَّب القاصي ، وانتقم من العاصي ، وكان كامل الذّات حسن الصّورة والأفعال والأخلاق ، وله شهامة زائدة وجودة فكر مع رزانة ولين ، وجعل كاتبه الصَّغير بن صندل كاتب أبيه ومستشاره من قبل ، وكان خليفته في السّفر رمضان باي وحسن باي وجعفر باي ومصطفى باي ، وهؤلاء هم المشهورون من مماليكه ، وكان جوادًا شجاعًا محبًّا لأهل العلم والخير ، وكان مجلسه مجمع أهل الفضل والعلم والأدب ، وتجري في مجلسه مباحثة في العلوم ، فيشارك فيها بفهم ثاقب وفكر صائب ، ولأهل مجلسه مرتّبات سَنِيَّة فيعمّ الجميع بالإحسان على قدر مراتبهم بالبرّ والبقر والغنم والدّينار والتّمر ، والتَّفاصيل إلى غير ذلك ممّا هو شأن السَّلاطين.

ولمّا مات رجب باي ، إستقل بالأمر مطلقا فبعد شأوه وتهيّأ لقتال المفسدين من الأعراب ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾[121] ﴿فيهْلِكُونَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ / لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[122] فتصدّى أوّلاً لأولاد سعيد ، وكانوا أوّلاً مُشَتَّتِين في [52/أ] البلاد ، ولمّا وقعت فتنة العسكرين[123] بسبب إبن شنّوف[124] – المتقدّمة الذّكر – قامت قيامة أولاد سعيد ، فلجّوا في الشّقاق والنّفاق ، وسدّ الطّرق وإظلام الآفاق ، وكان المرحوم مراد باي لم يبلغ منهم مراده فكانوا يلجأون إلى حوالي الحامة ويتحصّنون بها لأنها ساعدتهم على نفاقهم سبع سنين ، فخرج لهم حمّودة باشا – رحمه الله – في محلّة الشّتاء سنة إحدى[125] وأربعين[126] وشدّ أزر مدينة القيروان بعدما كاد يقع بها من أولاد سعيد الخسف ، فاستوثق أمرها ، وَوَلَّى عليها مملوكه القائد علي الحَنَّاشي ، ودخل بمحلّته إلى بلاد الجريد ، وخلَّصَ مجباه ، ثم إلتفت إلى الحامّة بعد تشتيت شمل أولاد سعيد وبني

---

121) سورة الشّعراء : 152.

122) إقتباس من الآية 205 من سورة البقرة.

123) أي الجزائري والتونسي.

124) كذا في ت ، وفي ش وط : «شنوب».

125) في الأصول : «واحد».

126) 1631 – 1632 م.

شنُّوف[127] وغيرهم من أخابث الأعراب ، وضرب بعضهم ببعض ، وألحق الغنيّ منهم بالفقير ، والكبير بالصَّغير ، والجليل بالحقير ، فقطع أهل الفساد ، ونفاهم من البلاد ، فخرج إلى الحامة وأرسل المؤونة في البحر ، وحشد إليها الحشود ، وجمع الجموع ، ونصب عليها آلات الحرب من المدافع وغيرها ، وحَفَر المتاريس ، وأمر بقطع نخيلها ، وحَاصرها من جميع جهاتها ، وأعذر[128] إليهم وأنذرهم بنزول البلاء فلم يلتفتوا ، فلمّا لم يأنس منهم رَشَدًا وأيس من إصلاحهم ولم ير منهم أحدًا أقسم أن لا يرتحل عنهم إلى أن يحكم الله بينه وبينهم / ، وجاءهم المَدَد من إخوانهم المتمرّدين فلم يغن[129] عنهم شيئًا [52/ب] فضايقهم بالحصار ، وناوشهم بالقتال ، فمات من الفريقين كثير ، وكانت في غاية من الحصانة ، ولأهلها قوّة بأس وحرب والنخل محيط بها من جميع[130] جهاتها ، والخندق محيط بها ، فلمّا نفذ فيهم القضاء ، بارت حيلهم ، ودارت عليهم الدّوائر ، فلم ينفعهم المدد ولا كثرة العدد ولا مداومة الحرب ومدافعتهم وإستعانتهم بالمفسدين ، ففتحها بعد جهد جهيد ، والإستعانة بكل ما يمكن من المال والرّجال وبعد موت الأبطال والشجعان ، فدخلها عنوة بالسَّيف ، فقتل رجالها وسبى نساءها ، ونهب أموالها ، وبيعت أطفالها ، وأخربت مساكنها وأقفرت من ساكنها ، وذلك سنة خمس وأربعين وألف[131].

وكان جبل وسلات قد رفع أنفه[132] فلمّا سمع ما حلّ بالحامّة إنقاد ، وكذا غيره من العصاة والبغاة ، وأذلّ بني شنوف ، وأطاعه جميع العربان في جميع الأوطان حتّى أنّ وَرْغُمَّة أدخلهم في عمالته بعد أن كانوا يَدَّعون أنّهم من أجواد العرب ، فنظّمهم في سلك أهل جبايته.

وفي حدود الخمسين وألف[133] أخذ في تزميل الزّمول[134] ، فأضاف دُرَيْد إلى

---

127) كذا في ت وفي ش وط : «شنوب».

128) كذا في ش ، واستعمل إبن أبي دينار في المؤنس : «ومع ذلك كان يبالغ في الإرسال إليهم بالأعذار والإنذار» ، ص 232 ، وفي ت وط : «أحذرهم».

129) في المؤنس . «فلم يجد نفعًا لكبير ولا صغير» ، ص 232.

130) ساقطة من ط وت.

131) أواخر ذي الحجة / جوان 1636 م.

132) في المؤنس : «شمخ بأنفه».

133) 1640 – 1641 م.

134) في المؤنس : «ولمّا عزم على ممارسة قبائل العرب شرع في تزميل فرسانهم» ص 236.

رعيّته وركب منهم عدّة فرسان ، وجعلهم من جملة رجاله ، فابتدأ بتزميل رجالهم ، وجعل في كل فج زمالة من فجوج أوطانه ، ولكل زمالة / رئيسًا من رجاله مثل القائد [53/أ] حسن المنتسب لحسين[135] باي وهو أشجع رجاله ، والقائد علي الحنّاشي ، والقائد أحمد الرقيعي ، وركب عدّة رجال من عسكر زواوة يقال لهم الصبايحية ، وجعلهم ملازمين لركابه يسيرون معه حيث سار ، وجعل صبايحية أخر فقرّر سكناهم بالقيروان ، وجماعة منهم بالكاف ، وجماعة بباجة لتأمين الطرقات والوطن.

ثمّ توجّه لتطويع من شذّ عن الطّاعة من طاغية العرب كالشّيخ خالد بن نصر الحنّاشي وكان أشهر العرب صيتًا ومنعة ، وله عدّة وقائع مع عسكر الجزائر ، وكان عمّر طويلاً ، ومارس الحروب ، وشمخ بأنفه على العمالة التّونسية ويمتدّ في وطنها لمجاورتها لوطنه ، ويتعرّض لمحلّتها فيتّقون شرّه ويهادونه بالهدايا فهزمه الله على يدي حَمُّودة باشا – رحمه الله تعالى – سنة أربع وخمسين وألف[136] ، فلم تقم له بعد قائمة ، وصار أولاده من خدّام ركاب حمّودة باشا ، وكذلك الشّيخ إبن علي[137] دخل في الخدمة والطّاعة وكان من المتمرّدين على عساكر الجزائر ، وهزمهم مرارًا متعددة ، فكان يتصرّف عن إذن حمّودة باشا مدّة حياته ، وأوصاه بأولاده فكانوا لا يتشيّخ منهم شيخ إلّا بمشورته ، وإذا أصابهم ضيم دخلوا عمالته ، فأمنت العباد ، واطمأنت البلاد ، وزال الفساد ، فأمنت الظعينة في السفر من بلد إلى بلد ، وزال الخوف عن الجمع والفرد ، وبقيت / العمالة [53/ب] بستانًا مثمرًا والقِفَارُ حاضرة مزهرة[138].

وفي سنة ثلاث وستين وألف[139] ، توفّي الحاج محمّد[140] لاز.

وتولّى بعده الحاج مصطفى لاز ، وتوفّي سنة خمس وسبعين[141] ، فتولّى قارقوز[142].

---

135) في الأصول : «حسن».

136) 1644 م.

137) شيخ مشايخ العرب الّذين كانوا في ناحية الغرب : المؤنس 237.

138) نقل أخبار دولة حمّودة باشا المرادي باختصار من المؤنس ص 229 – 242.

139) في 23 شوّال / 16 سبتمبر 1653 م.

140) الداي المتولي بعد أحمد خوجة. أنظر المؤنس ص 212 – 213.

141) ليلة الجمعة التّاسعة عشرة من ذي الحجة ، المؤنس ص 215 /3 جويلية 1665 م.

142) أنظر عنه المؤنس 215 ، والإتحاف 40/2 ، والخلاصة النّقية ص 96 وذيل البشائر 96.

وفي سنة ثمان وستين وألف[143] جاءت خلع الباشوية لحمّودة باشا مقرونة بالأوامر السّلطانية ، فصار سلطان إفريقية على الإطلاق ، وكانت محاله إذا خرجت لجباية الأموال تجعل سفرها نزهة تخرج وتعود في مدة شهرين مغمودة السَّيف ، ويهيّأ لها الخراج بنفس وصولها .

وفي سنة ثلاث وسبعين[144] بعث إلى الباب العالي يطلب الإستعفاء[145] من المنصب ، فعوفي فتخلّى عن التّدبير وقسّم البلاد بين أولاده الثَّلاثة ، فقدّم على المحال وخراجها ولده الأكبر مراد باي ، وجعل بيد أخيه الذي يليه وهو محمَّد الحفصي صنجق القيروان وسوسة والمنستير وصفاقس وجملة رعاياهم ، وجعل بيد أصغرهم وهو حسن باي صنجق إفريقية ، وكلّهم سمي في حياته وتلقّب بألقاب البايات[146] ، ولم يخرج من الدّنيا حتى رآى ما سرّه في بنيه وبني بنيه .

وله - رحمه الله تعالى - مآثر جميلة منها تشييد منارة الجامع الأعظم ببناء ضخم ، وجعل في أعلاها داربيز[147] يقي المؤذّنين من الحرّ في الصَّيف والبرد[148] في الشّتاء ، وجعل فيها بسيطة لضبط أوقات الصَّلوات مقابلة للنَّاظر إليها ، وإسمه منقوش عليها وتاريخ البناء / بأبيات الأديب الشَّريف السّوسي. [54/أ]

ومنها الحنايا لجلب الماء من مسافة بعيدة من آبار قِصَّة ضَاهَى بِهَا الحنايا القديمة في ضخامة البناء ، فأُدْخِل الماء إلى البلد وفُرِّق في أزقّتها بحسب الإمكان.

ومنها إنشاء المارستان بحومة العَزَّافين مع توفية ما يحتاج من طبيب وأدْوية وطعام وأكسية للمرضى إلى غير ذلك من أوقاف يصرف من ريعها ما يحتاج إليه بعد ذلك .

ومنها المسجد المجاور لسيدي أحمد بن عروس ، وكان مكانه دُورا أشتريت من أربابها ، وأوقف عليه أوقافًا تقوم به وبما يتوقف أمره عليه .

---

143) 1657 - 1658 م .

144) 1662 - 1663 م.

145) كذا في ت والمؤنس ، وفي ش وط : «الاستصفاء».

146) في الأصول : «البيات».

147) في ت وط : «دائرًا» ، وفي المؤنس ص 240 : «درابز» ج دربوز. ويقال أيضًا درابزين ، وتعني عادة الحاجز المفرغ المتكوّن من أعمدة صغيرة من الخشب المخروط ، وتعني أيضًا الرّواق الخشبي ، وفي بعض الحالات تعني الشّرفة.

148) كذا في ش والمؤنس ، وفي ط وت : «القر».

ومنها افتكاكه للمراكب الّتي أُخِذَت للجزائر من أيدي النصارى المرّة بعد المَرَّة وعدّة أسارى ممن عداهم.

ومنها تشييده باردو زيادة على ما أصلحه الحَفَاصَة.

ومات – رحمه الله تعالى – سنة ستّ وسبعين وألف[149].

الدايات في عهد المراديين:

وفيها إنعزل قارقوز[150]، وانفتح باب خَلْعِ الدّايات حتى خلع منه نحو أربعة عشر دايا، وأكثرهم يُعْزَل بقرب توليته.

فتولّى بعد قارقوز الحاج علي آغلي[151] وعزل سنة تسع وسبعين[152]. فتولّى الحاج شعبان خوجة[153]، وعزل سنة ثلاث وثمانين[154]، فتولّى الحاج محمد منتشالي، وعزل سنة ثلاث وثمانين[155]، فتولّى الحاج علي لاز، وعزل سنة أربع وثمانين[156]، فتولّى مامي جمل (فعزل سنة سبع وثمانين[157]، فتولّى الحاج محمد بيشارة، وعزل سنة ثمان

---

149) في شوال / أفريل 1666 م.

150) رجع إلى المؤنس ص 216 وما بعدها.

151) كذا بالأصول والحلل السّندسيّة 433/2، وفي المؤنس وذيل البشائر ص 96: «أوغلي»، وفي الإتحاف 43/2 «أغلو» وهو الحاج محمّد حاج أوغلي، ويعرف بحاجي أوغلي وأوغلي معناها الإبن، وحيث لم يكن للعثمانيّين أسماء أسر فإنهم كانوا ينتسبون إلى آبائهم مثل علي أوغلي، وكامل أوغلي أي ابن علي أو ينتسبون إلى بلدانهم مثل إستانبولي وأزميرلي، أي إستانبولي وازميري، تاريخ الدولة العليّة ص 116 هامش 3.

152) 1668 – 1669 م جاء في المؤنس ص 217: «ودام على حالته إلى أول سنة ثمانين وقيل إحدى وثمانين»، وفي الإتحاف 43/2 كان خلعه: «يوم السّبت الرّابع عشر من صفر سنة إحدى وثمانين وألف / 3 جويلية 1670». وفي ذيل البشائر: «عزل في سنة 1080 / 1669 – 1670»، وفي الحلل السّندسيّة: «كان خلعه يوم السّبت الرّابع عشر من صفر سنة ثمانين وألف» 435/2.

153) أي خوجة الدّيوان كما في ذيل البشائر.

154) 1672 – 1673 م وفي الأصول: «إثنين وثمانين»، والتّصويب من المراجع السّابقة. وفي الحلل السّندسيّة وذيل البشائر: «كان ذلك في 14 حجّة، 2 أفريل 1673 م». وفي المؤنس: «17 ذي القعدة»، وفي الإتحاف: «في ذي القعدة».

155) 1672 – 1673 م.

156) منتصف صفر / 1 جوان 1673 م.

157) 1676 – 1677 م.

وثمانين[158] ، فتولّى مامي جمل[159])[160] ، وعزل من سنته ، فتولّى طاباق[161] ، وعزل سنة ثلاث وتسعين[162] ، فتولّى أحمد شلبي / بن يوسف داي ، وله نبأ عظيم. [54/ب]

مراد باي:

فلنرجع لذكر البايات حتى تنتهي إن شاء الله تعالى ونتكلم عليه بالذات فنقول : لمّا توفّي حمّودة باشا – رحمه الله تعالى – تولّى بعده أكبر أولاده وهو مراد باي ، فانفرد بتدبير الأوطان ، وسلك مسلك أبيه في تطويع العصاة من الأعراب وأهل الجبال.

وفي سنة ثلاث وثمانين[163] خرج كعادته[164] إلى بلد الجريد فجاءته الأخبار أنّ أهل طرابلس عصوا عن باشتهم ، وحاصروه في قلعتها إلى أن مات بها وأنّه أوصى بأولاده إليه ، فسار إليها ليكشف الخبر ، فخرج إليه عسكرها فأعذرهم وأنذرهم ، فأبوا إلاّ قتاله ، فقتل أكثرهم وأسّر باقيهم ، ثمّ عفا[165] عنهم[166].

وفي غيبته إتفق جماعة من العسكر على المكر به ، فدخلوا القصبة وخلعوا الحاج محمد[167] منتشالي الدّاي – المقدّم الذّكر – وجعلوا مكانه الحاج علي لاز ، وتعاقدوا على المكر بالبايات ، فخرج محمد الحفصي ولحق بأخيه مراد باي ، فبعث لاز يخادعهما فلم يغن شيئًا فعند ذلك أمر أن تنهب[168] ديارهم ومنازلهم وأخذوا من متاعهم ما قدروا عليه ، وكره النّاس هذه الفعلة لما وقع في البلاد من الهرج ، ثمّ قدّموا على أنفسهم

---

158) 1677 ، «لم يمكث سوى ثلاثة أشهر» ذيل البشائر ص 97.

159) للمرّة الثّانية في صفر 1088 هـ / افريل 1677 وهي إلى آخر ربيع ثاني من السّنة.

160) ما بين القوسين ساقط من ط.

161) تولّى قبله أوزون أحمد ، «بويع في السّابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين / 29 جوان 1677 ، وأقام يومين ولم يبرز حكمًا» المؤنس ص 222.

162) 1682 م.

163) 1672 – 1673 م.

164) النّقل من المؤنس ص 244.

165) في الأصول : «عفى».

166) عن مراد باي بطرابلس أنظر : حوليّات طرابلسيّة ص 113 – 115 – 133 – 135.

167) أنظر المؤنس ص 244.

168) أنظر الحلل السّندسيّة 442/2.

محمّد آغة[169] وجعلوه بايا ، فركب في الأسواق ، وجلس في منازلهم وأخذ يستعدّ للحرب ، وبعث إلى طائفة[170] من العُرْبان ينتصر بهم ، وخرج بمحلّته ونزل بالملاّسين ، وهو مكان في طريق سيجُوم ، فبعث إليهم / الباي يحذّرهم عاقبة مكرهم فأبوا ، لأنّ [55/أ] هؤلاء الخارجين كانوا رؤوس العسكر ، فكرّر عليهم الإنذار ، فأبوا إلّا اللّجاج ، فكانوا يخرجون كلّ يوم خارج البلد ، ويستنفرون من على رأيهم فجاءتهم أشرار الأعراب[171] ، وهَوَّنوا الأمر عليهم ليأخذوا منهم الأموال ، فأعطوهموها (مع ثياب)[172] وعزموا على الرّحيل فلم يجدوا ظهرًا يحملهم ، فلم تمض أيام إلّا وقد طلع الباي عليهم فتناوشوا القتال ، فلم تكن إلّا ساعة من نهار وقد ولّوا على أدبارهم منهزمين ، فأخذت مدافعهم وأمتعتهم ، ووقعت فيهم مقتلة عظيمة ، ومن أفلت التجأ إلى القصبة فغلقوا بابها سنة خمس وثمانين[173] وألف ، ومن الغد أصبحت القصبة مغلقة الأبواب ، وأهل البلد في حيرة لم تكن في حساب ، وعاثت الأعراب في أطراف البلاد ، ويوم الأحد قدَّموا دايا : مامي جمل ، وبعث أكابر العسكر إلى الباي يعتذرون إليه فقبل منهم وأمرهم بإخراج المفسدين من بينهم ، فبعثوا إلى الجماعة المتحيزين بالقصبة فخادعوهم حتّى أخرجوهم وقتلوهم ، وتتبّع آثار المفسدين بالقتل والنّفي ، واسترجع ما نهب من ديارهم ، وردّ الأعراب الّذين كانوا معه إلى أوطانهم وكتب أوامر إلى الباب العالي ، فجاء الجواب على مقتضى مراده.

وفي هذه السَّنة أخذ أهل وسلات في الشّقاق والنّفاق ، وكان قد إلتجأ إليهم أبو القاسم الشوك لخوفه من سطوة مراد باي لأنّه كان والس عليه ، وساعد بعض / أعدائه [55/ب] فاعتصم بالجبل[174] مع أبناء جنسه[175] ، فكاتب الشّوك وحذّره فلم يقبل ، ففي سنة

---

169) هو رجل من الجند.

170) في ش : «بطائفة»

171) من أولاد سعيد والمثاليث وغيرهم ممّن شرّدهم مراد باي لفسادهم (الإتحاف 2/ 46)

172) ما بين القوسين ساقط من ط وفي ت : «إثنان».

173) انحجر مع محمد آغة في القصبة مع صاحبه الحاج علي لاز وذلك يوم الخميس 16 صفر سنة 1084 / 1673 ، وأصبح باب القصبة مُغلقًا ، فأرسل مراد باي إلى سائر الجند بالأمان ، وأمرهم بخلع الحاج علي لاز وولاية الداي مامي جمل. الإتحاف 46/2 ، المؤنس 244 – 265 ، وذكر أنّ انهزام محمّد آغة وحده كان يوم الجمعة 15 صفر سنة 1085 / 21 ماي 1674م ومن الغد أصبحت القصبة مغلقة الأبواب ، ويبدو أنّ المؤلّف نقل ما في المؤنس باختصار مع الاتفاق أحيانًا في العبارات وأنظر الحلل السّندسيّة 442/2 – 443.

174) ساقطة من ش

175) وكان شيخ الجبل

خمس وثمانين وألف[176] ، خرج إليه بمحلّتين عظيمتين ، وخرج أخوه[177] بمحلّة من صبايحيته ، ونازل الجبل ودار به من كلّ فجّ ، فبعد الإعذار والإنذار بادر إلى قطع أشجارهم وضايقهم ، ثم دخل الجبل عُنْوَةً ، وفرّ الشّوك أمامه بعد قتال شديد ، وقتل نفسه بيده وجيء برأسه[178] وذلك بصفر من السّنة المذكورة[179] ، ورجع بمحلّته مؤيّدًا منصورًا ، فقسم المحال قسمين ، ودخل تونس ومع ولده الأكبر محمد داي محلّة ، ومع ولده الأصغر علي باي محلّة ، وهذه آخر سفراته.

ولم تطل بعد ذلك أيامه فتوفّي – رحمه الله – بمنزله بباردو في العشر الأواخر من جمادى الأولى سنة ست وثمانين وألف[180] ، ودفن بتربة آبائه.

ومن آثاره الجميلة إنشاؤه بباجة مسجدًا[181] إمامه حنفي ، والمدرسة الّتي عند باب الرّبع غربي جامع الزّيتونة بتونس وهي منسوبة إليه ، ومدرسة بجربة للشّيخ الصّالح سيدي إبراهيم الجِمَّني – نفعنا الله به – قبل وفاته بسنة.

محمد باي بن مراد :

وبعد وفاته قام مقامه إبناه الشّقيقان – المقدّما الذّكر – محمّد باي وعلي باي – رحمهم الله تعالى –.

ويوم وفاة والدهما كان محمّد باي بالمحلّة وعَلِي حاضر الوفاة ، فاتفق أهل الحلّ والعقد على تولية الأخوين ، وسيروا لمحمّد باي صحبة أخيه جماعة من أغوات العسكر ، وصُحْبَتُهُم خلع سلطانية وأوامر شريفة / بتوليتهما جميعًا ، (فقرئت الأوامر)[182] بالمحلّة على العسكر ولُبِسَت[183] الخلع وضُربت الطّبول ونشرت الأعلام ، فقام بالأمر محمد [56/أ]

176) 1674 – 1675 م.

177) هو محمّد الحفصي.

178) المؤنس 246 – 247 والمؤلّف نقل ما فيه باختصار.

179) كذا في المؤنس ، وفي الحلل السّندسيّة 450/2 : «وكان دخول وسلات وكسره يوم الخميس 8 محرم سنة 1086 / 4 أفريل 1675 ، وهذا موافق لما في الإتحاف 42/2.

180) الأيّام الأولى من أوت 1675 م.

181) أنظر المؤنس 248 – 249 ولم يذكر بناءه للمدرسة الجمنية بجربة.

182) ما بين القوسين ساقط من ط.

183) في الأصول : «لبس».

أحسن قيام ، واستوفى خلاص رعيته ، ونفذت الأوامر على مراد الأخوين ، ورجعا إلى حضرتهما في رجب من السّنة ، فخرج النّاس للتّسليم[184] ، واجتمع بكلّ منهما من وسوس له من الشّياطين فألقى إليهما أباطيل كانت سببًا للبلاء على الخلق لما سبق في سابق القضاء والقدر ، فانفتح عليهما باب الفتنة ، فطلب محمّد أن ينفرد بالأمر على ما كان عليه في قائم حياة أبيه ، وطلب علي المشاركة على ما أتفق عليه أهل الحلّ والعقد ، وأبى كل أن يسلّم للآخر مراده ، فجرت بينهما مشاجرة أفضت إلى التّحاكم ، وحضرا في الدّيوان وتقارعا ، ثم إتفقا أن يسلّما الأمر إلى عمّهما الأكبر محمّد الحفصي فرضي أهل الديوان فقدّموا عمهما وجعلوا بيده التّصرف في الحضرة والممالك ، وخلعت عليه خلع الولاية .

محمّد باي الحفصي :

ولمّا تمّ أمره أخذ في إصلاح شأنه ، فأنفت نفس محمّد باي من تقديم عمّه وكتم سرّه ولم يظهر لأحد خبره ، فعزم على الخروج من الحضرة ، ووافقه بعض جماعته ، وخرج إلى ظاهر البلد كعادته فتوجّه إلى بلد الكاف أواخر شعبان[185] ، وجدّ في السّير إلى أن بلغها ، فانقسم النّاس ، واختلفت آراؤهم ، وتزايدت الأقوال ، فاجتمع عليه بالكاف خلق كثير من كلّ الجهات ، فأحسن إليهم ، واستخرج من ذخائر أبيه ، وأنعم على وفوده ، وكان قبل خروجه من الحضرة / إتّفق إقبال ركب الحاج ، وكان شيخه محرز [56/ب] ابن هندة ، وكان من رجال الدّولة قبل الفتنة ، وقد خاف الحفصي من هذه الفتنة ، فخلع نفسه وردّ الأمر لابن أخيه محمّد باي ، وبعث الشّيخ المذكور لبلد الكاف لإصلاح ذات البين ، فلمّا وصل أحكم العداوة أكثر مما كانت عليه ، وشاع الخبر أنّ محمّدًا عزم[186] من الكاف إلى باجة ، وأخذ منها ما يستعدّ به ، ثم عزم[186] إلى ناحية القيروان ، وأخذ شيخ الزّمالة أحمد الرقيعي وفتك به ، وأنه معوِّل على القدوم لتونس لمحاربة أخيه وعمّه .

---

184) في ط : «للتسليم عليهما».

185) سنة 1086 / 19 نوفمبر 1675 م.

186) في المؤنس : «غزا».

فلمّا سمع عمّه بذلك خرج من المدينة ومعه إبن أخيه علي باي ليجمعوا أمرهم ، فهرجت البلاد ، ثم رجع محرز من الكاف فهوّن الأمر عليهما ، وهو خلاف ما في باطنه ، فرجعا إلى البلد ، ثم أرسلوا ستّة من أكابر الدّولة ، ورجع محرز المذكور برسالة غير الأولى فزاد بكيده في الشّرّ ، وترادفت الأخبار أن الباي أقسم أن لا يدخل البلد وعمّه فيها ، وذلك برمضان المعظّم من السّنة المذكورة ، فلمّا صحّ الخبر عند عمّه كره إراقة الدّماء بين الفريقين فعزم على الخروج من البلاد ، فهيّأ مركبا [حمل] فيه ما يحتاجه وسلّم ملكه ومتاعه وركب البحر من جهة رادس ، وتوجّه نحو الأعتاب الشّريفة العثمانية .

الفتنة بين محمد باي بن مراد وأخوه علي :

وأمّا محمّد باي فلمّا علم بخروج عمّه من تونس أقبل إلى البلد ، فخرج غالب النّاس للقائه ، وخرج أخوه علي باي للقائه أيضًا مع من خرج ، فأظهر التّنكّر والحقد في / [57/أ] باطنه أكثر ، ونزل في منزله بباردو ، فجاءه النّاس للتّهنئة ، ثم وقع بينه وبين أخيه إتّفاق تراضوا عليه[187] أوّلاً ، ثمّ نقضوه ، وألزم أخاه الإقامة ببعض قصورهم خارج البلد وأن لا يدخل الحضرة في غيبته .

وتهيّأ للمحلّة في شوّال سنة ستّ وثمانين وألف[188] ، فسافر إلى بلاد الجريد ، وفي غيبته تكاثر الوباء بتونس ، ومات فيه عمّهما حسن باي ، فحضر علي باي جنازته ، وبعد زمان شاع الخبر أنّ علي باي توجّه نحو الغرب لخوف لحقه .

وبعدما استخلص محمّد باي مجابيه من الجريد رجع إلى إفريقية بمحلّته فاضطرمت[189] نار الفتنة ، وخرجت المحلّة الصّيفيّة سنة سبع وثمانين[190] للوطن الإفريقي لخلاص المجابي ، وجاء الخبر أن محمّد الحفصي نال رتبة الباشوية ، فرجع محمّد باي إلى الحضرة وإتفق مع أهل الحلّ والعقد على أنّهم لا يقبلون أحدًا جاءهم من عمّه ولا من أخيه ، فوافقه العسكر على ذلك ، وعقدوا مجلسًا بجامع الزّيتونة ، واتفقوا على كلمة

---

187) في ط : «تراضوه» وفي المؤنس : «رضوه أولاً».
188) ديسمبر – جانفي 1675 – 1676 م .
189) كذا في المؤنس وفي ط ، وفي ش : «أضرمت».
190) 1676 – 1677 م .

واحدة ، وفي أثناء ذلك جاء الخبر أنّ محلّة الصبايحية كانت قادمة من جبل عمدون أخذها من أتباع علي باي القائد مصطفى سبنيور ومن معه من الأعراب ، فخرج محمّد باي من فوره من المسجد وجدّ في سيره ، ومن الغد بعث برؤوس الأعراب لتسكين الفتنة ، والأراجيف كل يوم تتزايد.

ولمّا تمّ من إفريقية توجّه نحو القيروان لأنّه بلغه نفاق وسلات ، فسار إليه وحاصره من جميع الجهات وبعث / إليهم جماعة من المرابطين ، فرضوا بأداء المال فلم يقبل منهم [57/ب] إلّا أن ينزلوا على حكمه ، فخافوا من ذلك ورضوا بالموت في منازلهم ، ثم بعث إلى تونس فأمَدّوه بعسكر ثان في شوّال سنة سبع وثمانين[191] ، ورجع في أثناء ذلك إلى تونس ، واستحكم من العسكر بما أراد ، ورجع من فوره إلى محلّته ، وتتابعت رسله إلى أهل الجبل ، ولم يتم له ما أراد فعزم على إستئصال الجبل من أوّله إلى آخره ، فهيّأ له جموعه بعد ترادف العساكر عليه من كلّ الجهات[192].

ودخل إلى الجبل من طرق شتى ، ودهمهم أهله بما لا طاقة لهم عليه ولا قبل لهم به ، فلمّا توَسَّط جل العسكر في الجبل وانتشب الحرب بين الفريقين كادت الدائرة أن تكون على أهل الجبل إلّا أنه من قضاء الله المقدور ما اتّفق أن علي باي كان في الجبل بطائفة من جماعته ، وكان قائده مصطفى بكمين خارج الجبل ، فلمّا سمع توسّط العسكر بالجبل بادر إلى المحلّة ، وأخذ عدّة من الخيل والجمال وكاد يأتي على آخر المحلّة ، فحاربه من بها من العسكر ، ورموا عليه بالمدافع ، فلمّا سمع من في الجبل من العسكر حِسَّ المدافع علموا بحادثة وقعت بعدهم ، فوجلت قلوبهم وداخلهم الرعب ، فولّوا منهزمين لا يلوي أحد منهم على أحد ، فركب أَهْلُ الجبل ظهورهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ومات[193] جملة من رؤساء العسكر وخليفة الباي القائد محمد بن علي وجماعة من الأعيان ، وكاد الباي / أن يقع في المكروه لولا أجله ، فنجا بنفسه وترك المدافع في [58/أ] الجبل ، ورجع إلى الأخبية بمن نجا[194] معه ، ومن الغد رجع إلى المدافع وأتى بها ورحل إلى القيروان[195] ، فمن هناك إتّسع الخرق على الرّاقع.

---

191) ديسمبر 1676 – 1677 م.

192) في الأصول : «الجهاة».

193) في الأصول : «وماة».

194) في الأصول : «نجى».

195) في ش : «ورحل القيروان».

وفي ذي القعدة من سنة سبع وثمانين[196] وألف بعث إلى العسكر يستنجده فأمدّوه بعسكر ثالث ولكن لم يخرج[197] هو وبعث بمحلّة للجريد وسردارها محمّد رايس عرف طاباق المعدود في الدّايات ، وقائده [القائد][198] مراد ، وبقي هو بمحلّته الثّانية ، وجاءه الخبر بأنّ أخاه رحل من الجبل ، وأنّه في جمع قليل ، فطمعت نفسه في لقائه فلحقه وجَدَّ في طلبه بالسّير إلى أن لحقه بمكان يعرف بسبيبة ، وكان يوم عيد الأضحى وعلي باي مقيم ، فلم يشعر إلّا والخيل أقبلت وأخبرته بأنّ أخاه قادم[199] عليه ، وكان ذا حزم وشدّة ، فأصلح شأنه وتهيّأ بجموعه فأدركه أخوه بمن معه ، وكان غالب من معه أدركهم التّعب لعنف السّير ، والتحقوا إبلاً كثيرة، أخذوها وبدا النّهب من العرب ، فلمّا أمعنوا في النّهب دهمهم علي باي بمن معه ، وحملوا حملة منكرة ، وممّن كان في نجدته ذلك اليوم صهره شيخ العرب سلطان بن منصر[200] بن خالد وجماعة من الصبايحية ، فقابلوهم بنفوس أبية ، فلم تمض ساعة إلّا وهزموهم[201].

وكان عسكر المحلّة أدركه التّعب فما وصلوا وبهم قوة ، فلمّا رأوا المنهزمين نصبوا خِيَمَهُم وتحَصَّنوا بها فبعث إليهم علي باي يأمرهم أن يدافعوا عن أنفسهم خوفًا عليهم من العرب / وقُتِلَ من الفريقين من حضر أجله ، وفَرَّ محمّد باي إلى الكاف بمن قدر معه. [5/ب] وغنم أصحاب علي باي ما خلفه أخوه وعجز عن حمله ، وكان شيئًا مستكثرًا لاستصحابه[202] في هذه الوجهة[203] من الذّخائر ما لا يوصف ، فامتلأت أيدي العرب من المال والأمتعة.

ولمّا انفصل الحرب بعث إلى أكابر العسكر وأمَّنهم وسَكَّن روعتهم ، ثم بعث جماعة من أصحابه إلى المحلّة الّتي توجّهت نحو الجَريد ، فاستوثقوا بها وجُبِيَت المجابي

---

196) جانفي 1677 م.

197) «لم يخرج إلّا والفشل دبّ في أكثرهم وخامرهم الرّعب ولم تطمع نفوسهم بالنّجاة إلى القيروان فلمّا وصلوا إلى من تبقى من إخوانهم من العسكر إنتخب منهم جماعة مستفيضة وبعث إلى الجريد محلّة مشحونة ...». المؤنس 254 ، وهو ينقل منه باختصار.

198) إضافة من المؤنس.

199) في الأصول : «قادمًا».

200) في الأصول : «سلطان بن نصر» والتّصويب من المؤنس.

201) في ش : «هزمهم».

202) في ت وب وط : «لأصحابه».

203) كذا في المؤنس ص 255 ، وفي ش : «الوجه» ، وفي ت : «الرجعة».

باسمه ، ولما تيسّر له هذا الواقع بعث بالخبر إلى تونس ، فوصل الخبر ثالث العيد ، فاشتدّ الأمر على أهل الدّولة ، واختلف رأيهم ، ولم يفتح لهم من الرّأي إلّا أن بعثوا جماعة من أكابر العسكر إلى المَحَلّة مع جماعة من العُلَمَاء ليقضوا بما فيه الصّلاح ، فلمّا وصلوا خلعوا الحاج علي مامي جمل الدّاي ، وَوَلّوا الحاج محمّد بيشارة.

واحتوى علي باي على منصب أخيه ، وتصرّفت الأمور عن إذنه ، وهذه آخر محلّة خرجت في تَصَرُّفِ محمّد باي ، (وأوّل محلّة دخلت في طاعة علي باي)[204].

ثمّ إنّه رحل من هناك فكانت له وقعة القرويين فكانت سببا لنفاقهم ، فنزل بالفحص وأقام به أَيّامًا إلى أن تلاحق به العسكر ، وأجمع رأيه أن يتوجّه إلى الكاف ، فنزل قريبًا منها ، وبعث إلى تونس طالبًا[205] للمدافع ، فسيّروا له ما أراد ، وهناك جمع جموعه وقصد محاربة البلد ، فنزل عليها ورمى المدافع وجعل العساكر [نوبا][206] في المتاريس فأصابت / المدافع أماكن من الحصار فَتَصَدَّعَت ولم تقع. [59/أ]

وكان في العسكر جماعة لهم ميل إلى محمّد باي فبعثوا إليه يستنجدونه ، وكان في ناحية الغرب ، فجدّ في سيره راجعًا ودخل الكاف لَيْلاً ، ومشت بينه وبين العسكر عدّة رسل ، فاتّفقوا معه ومَكّنُوه من المَحَلّة ، فاستشعر علي باي بذلك وكان منعزلاً بمحلّته خارج العسكر ، فلم يشعر إلّا والمدافع مالت إليه ، والعسكر الّذي كان معه صار عليه فسُقِط في يده ، ورحل من ساعته للجريد حثيث السَّير خوفًا أن تصل الأخبار إلى من هناك فوصل قفصة ، ولم يخبر المحلّة الّتي هناك فأمر برحيلها ، ورجع كعادته على الطّريق الجَادة ، فلمّا تسامع أهل المحلّة هرب بعضهم ، وأقبل عليه أهل الفساد من الأعراب أولاد سعيد وأتاه الشّيخ أحمد بن نوير وجماعة من المحاميد وجمع عظيم من دُرَيْد ، وجاءت الأجناد من كلّ فجّ عميق ، فأقبل بجمع لا يعلمه إلّا الله ، ولمّا قَرُبَ من القيروان أظهروا[207] له الشَّرَّ ، فلم يُعَرِّجْ عليهم فنزل بالفحص وترادفت عليه النّجوع من كلّ بلاد.

ثمّ إنّ محمّد باي لمّا احتوى على المحلّة جَدَّدَ عهده مع أكابرها ، وبعث إلى

---

204) ما بين القوسين ساقط من ط.

205) في ش: «طلبًا».

206) إضافة من المؤنس.

207) في الأصول: «أظهر».

تونس ، فقام العسكر على ساق ومضوا للحاج مامي جمل داي وكان مختفيًا بزاوية الشّيخ القشّاش ، فأخرجوه وطلعوا به إلى القصبة وأعادوه (إلى منصبه وخلع بيشارة)[208] ، وبعد أيام قتل ، ومن هناك ظهر التخالف ، وعظم الإرجاف[209] واشتدّ الخطب.

[59/ب] فخرج من تونس / جماعة من أهل الفضل والصّلاح وأكابر الدّيوان لإصلاح ذات بين الأخوين فلم يقض الله ما أرادوه لطلب كلّ واحد من الأخوين ما لا يرضى[210] به أخوه ، ففشا[211] النّفاق في الأوطان ، وتقاسمت النّاس ، وسُدَّت[212] الطّرقات.

ثمّ جاءت الأخبار لتونس أن علي باي فارق الفحص بجموعه وأنّه قادم لتونس ، فلم يقبلوه وأمروا من معه من العساكر بمفارقته بالهروب إن أمكن فهرب منهم جماعة.

ولمّا سمع محمد باي تثاقل عن المجيء لتونس ، وجمع ما قدر عليه من الأعراب ، فجاءه الشّيخ الحاج إبن نصر[213] وجماعته ، فأضاف من انحاز إليه إلى مَحَلّته وأقبل في عدد لا يعلمه إلّا الله فجدّ في السّير إلى أن التقيا في الفحص ، وتنازلا الحرب ، فكانت الدّائرة لعلي على أخيه وغنموا ما معه ، وكان الحرب بين أهل الخيل دون العسكر.

والمحلّة الّتي كانت قدمت من الجريد بعثها علي باي لزغوان ، وقال لهم : أقيموا هنالك فإن كنتم معي رجعتم إليّ وإلّا رجعتم إلى صاحبكم فأعطوه عهدهم فلم يقبل ، وكان سردارها محمّد رايس طَابَاقُ ، والمحلّة الّتي جاءت من الكاف انحازت بنفسها على ربوة ومترسوا على أنفسهم ، ومنع علي باي من التّعرّض لها.

فلمّا همدت[214] نار الحرب بعث إلى أكابر المحلّة فعدّد عليهم ذنوبهم ، وكان آخر العهد بهم / واستقدم محلّة الجريد[215] فقدمت عليه ، وبعث قائده مصطفى سبنيور [60/أ]

---

208) في ش وب وط : «وأعادوه لمنصب بيشارة» ، وفي ت : «وأعادوه لمنصه فاشره» والتّصويب من المؤنس ص 261.

209) في الأصول : «وعظمت الأراجيف».

210) في ش : «يرض».

211) في الأصول : «في ت : «فعشى».

212) في المؤنس : «وقطعت» ص 262.

213) في الأصول : «أبو النصر» والتّصويب من المؤنس

214) في ت : «أخمدت» وفي المؤنس : «ارتفع الحرب» ص 263.

215) في المؤنس : «زغوان» وهي في الحقيقة محلّة الجريد وكانت نازلة بزغوان».

[وبلوك باشية][216] إلى تونس ليخبروا[217] بالواقع ، وكانت الواقعة آخر ربيع أوّل سنة ثمان وثمانين وألف[218].

ولمّا جاءت الأخبار اشتدّ كرب أهل تونس لميلهم إلى محمّد باي ، وبعث علي باي لقائده مصطفى فحاصر المدينة إلى أن أذعنت له البلاد بالطّاعة ، وبعث لها الدّولاتلي محمّد طاباق داي بعدما بايعوه بالمحلّة ، وطلع لإفريقية لاستخلاص وطنها ، فكانت له وقعة أخرى مع جموع أخيه كابن الحاج شيخ الحنانشة وأولاد أبي زيّان وجماعة من دريد ، فكانت الطّامّة الكبرى ، ومات الشّيخ سلطان الحنّاشي لأنّهم دهموه على غفلة عشيّة نهار فَطُعِنَ ومات ، وبات النّاس على عسس[219] ، ومن الغد جدّد الحرب فمات خلق كثير ، ووقعت الدّائرة لعلي باي (على أولاد الشابي ومن معهم ، فغنم ما معهم[220] ، ثمّ استوفى علي باي)[221] مجابيه ورجع إلى وطنه وأحسن إلى الشّيخ أحمد بن نوير[222] ورده إلى وطنه فمات قبل أن يصل قرب الحامة في معركة مع جنود محمد باي ، وأخذ غالب نجعه هنالك.

ودخل علي باي تونس وصام بعض رمضان بها ، وخرج بمحلّة الشّتاء فنزل القيروان أواخر رمضان ، فرمى عليها بالمدافع ولو اتفقت كلمة عساكره لاستأصلها ، فَعيَّد عليها.

ثمّ رحل حين بلغه أنّ أخاه طرق البلاد الجريدية ، فلمّا وصلها وجد / أخاه قد [60/ب] إحتوى على معظمها ، وحَصَّن حصار قفصة وشحنه وفرّ إلى الزّاب عند قدوم علي باي فتبعه عدّة مراحل فلم يلحقه ، ثمّ رجع فحاصر حصار قفصة[223] فاستأمنه من به ، فأمَّنهم واحتوى على الحصار وما فيه (وجعل فيه)[224] نوبة من رجاله.

ثمّ بعد استكمال مجابيه رجع قاصدًا تونس ، فاتّصل به الخبر أن أخاه قد قصد تونس فبعث قائده مصطفى في عسكر صبايحية لحراستها فلم يغن شيئًا لمحاربتهم إيّاه

---

216) إضافة من المؤنس ص 263.

217) في الأصول : «ليخبر».

218) 2 جوان 1677 م.

219) «على إحتراس» : المؤنس ص 263.

220) «وملئت أيدي الأعراب ومن سواهم من الإبل والمتاع وكانت بمكان يقال له وادي تاسة». المؤنس : 263.

221) ما بين القوسين ساقط من ط.

222) في الأصول : «بن نويرة».

223) «وعمل له لغمًا» المؤنس.

224) ما بين القوسين ساقط من ط.

فأُحْرقت الأبواب ونهبت الأسواق ، وحاصر من بالقصبة ، وحضر جميع عساكر تونس لقتال علي باي ، وخرج في ذلك العسكر الدّاي الجديد ساقصلي ، وخرجوا بأموالهم وأولادهم فبلغ علي باي الخبر قبل الوصول فجدّ في سيره ، وبعث إلى أكابر المحلّة وأخبرهم بالقصّة فأعطوه عهودهم فوعدهم بزيادة[225] خمسة نواصر [ترقيا] لكلّ واحد ، ورحل إلى الفحص ، فالتقى هناك بالمحلّة الخارجة من تونس ومعها محلّة من القيروان وغيرها من الكاف وصفاقس وعربان[226] في أوائل محرّم سنة تسع وثمانين[227] وألف ، فلمّا التقى الجمعان صار النّاس على كلمة واحدة ، فلمّا تحقّق علي باي خدعتهم رجع على عقبيه بمن معه من الصبايحية والزمول واجتمع العسكران ، وبعثوا إلى محمّد باي وملّكوه أمرهم فرحل بهم في أثر أخيه وقد تَمَسَّحَ[228] أمامهم إلى مكان يعرف / بالمنزل ، [61/أ] فلمّا توسّطوا كَرَّ علي بمن معه وصدقوا[229] الحملة فبدّد شملهم ، ومات خلق كثير وغنم كثيرا وقطع رؤوس القتلى وحملها على الجمال وبعث بها إلى تونس فوضعها بباب القصبة ، ومات ساقصلي أكبرهم.

ثمّ جاءته رسل القيروان لطلب العفو فعفا[230] عنهم ورحل ونزل قريبًا منهم وأمّنهم ما عدا إبن الشاطر الّذي دعاهم[231] إلى النفاق ، فلم يعف عنه فمات في سجنه ، ثمّ كرّ راجعًا إلى تونس.

وبعد استراحته خرج بمحلّة الصَّيف المذكورة فخلّص مجباها ورجع لتونس قبل إبّانه ليلتقي بعمّه محمّد الحفصي لمّا أتى من أعتاب الحضرة العليّة العثمانيّة مستنصبًا بالباشوية[232] وصام رمضان بتونس ، وعيّد وتوجّه إلى المنستير وقد استنفر لها [جمعا][233] من كلّ مكان ، فنزل قريبا منها وحاصرها ، وقطع ما قدر عليه من

---

225) في الأصول : «بطاراق» والتّصويب من المؤنس ص 265.

226) بعدها في المؤنس : «اجتمعت معهم من الاقليم لا يعلم قدرهم إلّا الله».

227) 23 فيفري 1678 م.

228) في المؤنس : «انسحب».

229) في المؤنس : «وصادق بعضهم بعضًا في القتال» ص 265.

230) في الأصول . «فعفى».

231) في المؤنس : «الذي دعم أساس النفاق» ص 266.

232) في المؤنس : «مستوليًا على منصب الباشوية».

233) إضافة من المؤنس ص 267.

أشجارها ، وكاد أن يستولي عليها. فأتاه الخبر أن أخاه في جمع بازاء جربة ، فاستدركه خوفًا من دخوله الجريد ، فتوجّه نحوه ففرّ أمامه ودخل الرّمل وفاته لحوقه فخلّص مجباه وأخذ في رجعته على طريق صفاقس ، فشنّ غارته عليها ، فرعب أهلها ، وأخذ جماعة منهم وقد خرجوا لبساتينهم على غفلة ، ثمّ عفا[234] عنهم ولم يهرق منهم دما.

ثمّ أرسل محلّته لتونس سنة تسعين وألف[235] ، وسار هو بمن معه من الأعراب والصبايحية إلى ناحية الغرب لمّا بلغه / رجوع أخيه إلى هنالك ، وخرجت طائفته وامتدت [61/ب] في البلاد [لخلاص][236] مجباها وهو مقيم [بعساكره][236] من ناحية الحدادة لئلاّ يأتيه من قبل أخيه شيء.

وأتاه الخبر أنّ أهل توزر اختلفوا عليه وأنّ أخاه ابتنى بها حصارًا عظيمًا ، فبعث إليهم جماعة من الصّبايحية ، ثمّ وجّه لهم محلّة الشّتاء مع خليفته القائد مراد ، وانتصر القائد مراد ، ونزل العسكر على البرج[237] وجعلوا متاريس ، وحفروا لغمًا فهدّمُوا منه جانبًا ودخله العسكر بالسّيف ، فجاءت الأخبار [بأخذه][236] لتونس فرحل علي باي إلى الجريد فكمّل مجباها ، ورحل[238] لناحية المغرب بعساكره أوّل سنة إحدى وتسعين وألف[239] ، فأقام مقابلاً لأخيه لئلاّ يحدث شيئًا في البلاد ، وأقام[240] بمن معه من العرب ومحلّة الترك في ناحية الزوارين[241] وبعث إلى محلّة الصّيف ، فخرجت له قبل أوانها ، والتقت[242] المَحلّتان هنالك ، ودفع لهم مرتّباتهم في المحلّة لمّا اشتكوا الضعف.

وعزم في وجهته هذه هلى منازعة بلد الكاف ، فبعث إلى تونس في طلب المدافع ، ثم قرب إلى بلد الكاف بجموعه فوقعت الحرب بينهم أيّامًا.

وفي أوّل ربيع الثّاني[243] من السّنة المذكورة استنفر الدّاي العسكر بالأمر الشّديد وبعث إلى الكاف نصرة ، وجاء الخبر إلى تونس أنّ الحرب وقع بين أهل الكاف وعلي باي يوم الجمعة في ستة وعشرين من ربيع الثّاني ، وأنّه غزا[244] على أخيه يوم الأحد

234) في الأصول : «عفى».
235) في آخر صفر / 10 أفريل 1679 م.
236) إضافة من المؤنس ص 267.
237) في المؤنس : «البرج المذكور».
238) كذا في ط و ت ، وفي ش : «دخل».
239) فيفري 1680 م.
240) في الأصول : «قام».
241) في الأصول : «الزواريين».
242) في الأصول : «التقى».
243) 1 ماي 1680.
244) في الأصول : «غزى».

[62/أ] فاحتوى على ما / كان معه ولم يفلت من جمعه إلّا القليل، ووقع الحرب بينه وبين أهل الكاف، فوقعت الهزيمة على عسكره.

ويوم إحدى[245] وعشرين [منه] نادى المنادي [في الحضرة][246]: من أراد مُرَتَّبَهُ فليخرج إلى الكاف نجدة للعسكر[247]، وحَدَّد لهم الدّاي أن لا رجوع للمُرَتَّبِ إلّا لمن بيده تسكرة[248] بها طابع الباي، فخرجت النّاس ووقع الحرب بينهم وبين أهل[249] الكاف، ورحلوا عنه في تسعة من جمادى الأولى.

وفي إثنين وعشرين منه جاء الخبر لتونس من قبل أهل الجزائر طلبًا للصّلح، فالتقوا بالباي ثمّ أرسلهم لتونس فأكرم الدّاي نزلهم، وبلغ الخبر إلى الباي أنّ أولاد سعيد أهلكوا الحرث والنّسل بعدما كانت نارهم طافئة، وهم مجتمعون على عَمِّه وأخيه، فبعث إلى تونس فعيّنوا له عسكرًا وارتحل بزموله ومن معه إلى القيروان فالتقى بهم، ووقع الحرب ساعة من نهار، فانهزم ذلك الجمع وهرب أولاد سعيد إلى ناحية المنستير ودخل الباشا للقيروان، ورحل علي من القيروان فنزل قريبًا من المنستير وقد تحصّن به أخوه وأولاد سعيد، ولمّا طال الحال بأولاد سعيد رجعوا إلى خداعهم وبعثوا إلى الباي يطلبون منه أن يرحل عنهم يسيرًا لكي يخرجوا له وينزلوا على حكمه، فرحل عنهم ونزل قريبًا من سوسة، وأرسل إلى جماعة من فضلاء تونس يتوجهوا إليه ويحادثهم بمراده.

[62/ب] وفي إقامته هنالك بعث أهل صفاقس وطلبوا الأمان / منه، وأن يسلّموا له مقاليدهم، فأجابهم لما طلبوه وبعث معهم جماعة من أصحابه ليسلموا له البلد وهرب من كان فيها من قبل أخيه.

وجاءت الأخبار لتونس، فامتنع الدّاي من إطلاق المدافع على جاري العادة لأنّه لم يأت كتاب من عند الباي، ثم جاء الخبر بعد أيام، ثم بعد العيد رحل إلى القيروان فغلقوا الأبواب ولم يخرج إليه أحد، فلم يتعرّض لهم، ونزل تحت وسلات.

وفي خامس شوّال جاءت رسل الجزائر إلى تونس ثانية، وأظهروا قصد الصّلح بين الأخوين، فتبيّن أنّ قصدهم غير ذلك، فبعث الداي إلى أشياخ البلد واستخبر أحوالهم

---

245) في الأصول: «وأحد».

246) إضافة من المؤنس ص 268.

247) في ش: «نجدة العسكر»، وفي ب: «نجدة إلى العسكر».

248) أي تذكرة، وتسكرة كلمة عامية شاعت في العصر العثماني

249) ساقطة من ط.

فقالوا : ندافع عن أنفسنا وأولادنا ، فشكر لهم ذلك ، وجاءت الأخبار إلى أنّ الباشا خرج من القيروان فلحق بأهل الجزائر ودخل بهم الوطن ، وأنّهم بعثوا جماعة منهم للكاف لأخذ المؤونة ، وأنّهم أرادوا الدّخول للحصار ، فمنعهم كافله ، وفتكوا بأهل البلد ، وتقوّى طمعهم في أخذ الكاف ومشت(250) رسلهم إلى الباي وهو في منزله السّابق ، فأجابهم بإرضائهم وقال : أنا قاصد إليكم فرحل بهم ، ثمّ إن أهل الجزائر رحلوا عن الكاف ، وفتح الكاف وتوجّه علي باي نحو الزوارين(251) .

علي باي :

وفي ذي الحجة من السّنة المذكورة وقع الصّلح بين الباشا والباي ، فتوجّه محمّد باي للقيروان ، وبقي علي باي حتّى أخذ خاطر أهل الجزائر ورجعوا إلى أوطانهم فأخذ يستجلب / خاطر أولاد سعيد ويماكرهم حتّى نزل عليهم بليل في الفحص فأحاط بهم [63/أ] صباحًا وأخذهم أخذة رابية ، ورحل إلى الجريد ومرَّ بالقيروان وقابس وانتهى لجربة فصالح أهلها ومَهَّد الأوطان ، ثم كرَّ على الجريد راجعًا لتونس ، فلما قَرُبَ من القيروان خرج إليه أخوه للسّلام عليه فتعانقا ورجع كلّ إلى مكانه ، وانفرد علي بتدبير المحال(252) السّلطانية ، وتصرّفت أحكامه في الأوطان والرّعية ، وكانت غيبته ثلاثين شهرًا ودخل مستقرّه في ثلاث من ربيع الثّاني سنة إثنين وتسعين وألف(253) .

ثمّ إنّ محمّد باي(254) صار كلّما ترقّى أخوه اغتاظ(255) ، فمن عجيب مكره أنّ أخاه لمّا اعتضد بطاباق(256) أراد زرع الفتنة بينهما ليقطع عضده فكتب لطاباق صورة جواب خطاب مقرّر من طاباق مضمونه :

---

250) في الأصول : «ومشى» .
251) في ش : «الزواريين» .
252) في ط : «المحال المنصورة السلطانية» .
253) 22 أفريل 1681 وهنا ينتهي نقله المختصر من المؤنس ص 275 .
254) من هنا يبتدئ النّقل باختصار من الحلل السّندسيّة 494/2 .
255) في الأصول : «اغتاض» .
256) معناها بالتركية «الدباغ» قال الوزير السراج : «يقال إن طاباق لما كان ببر الترك تعاطى في صِغَرْ صنعة الدباغ عن رجل أندلسي كان صاحب بركة وإشارات ، ومن جملتها أنّه كان يقول له : يا محمّد تذهب إلى تونس وتصير حاكمًا بها» . الحلل السّندسيّة 497/2 .

«أما بعد فقد بلغنا خطابكم وحمدنا الله على بذل نصحكم وليس بضائع في جانبنا ، وما أوصيتنا كلّه صار في البال ، ونعم النّظر ، وهو أقرب لبلوغ الآمال[257] ، وجزاكم الله خيرًا ، ونحن ليس لنا تأخّر عن الشّروط الّتي اشترطت فكلّ منها سهل والسّلام» .

وأمر حامله أن يتوجّه به لعلي باي على وَجْهِ الخيانة لمحمّد باي ، وطَلَبِ[258] البشارة من علي ، فلمّا قرأ الكتاب وكان بالجريد كَرَّ راجعًا لتونس ، ونصب شباك الخداع لطاباق حتّى ورد للسّلام[259] ، ولم يظهر له ممّا في نفسه شيئًا.

[63/ب] فلمّا ورد عيد الفطر وقد شَمَّ / طاباق رائحة التّغيّر من علي باي تأخّر يوم العيد فوقع ذلك التّأخّر بخاطر علي باي ، فبعث من الغد القائد مراد له فَلاَطَفَهُ وحَضَّهُ[260] على المسير فَنَبَّه طاباق [طائفة][261] الّذين كان أعدّهم بين يديه بالسِّلاَح ، وسار إلى أن دخل باردو فَغُلِقَ[262] الباب في وجوه من خلفه ، فتفرّق عنه جموعه.

وكان علي باي أرسل خيلاً قبل ورود طاباق ، فكان كلّما فارق مكانًا عَمَّرُوه حائلين بينه وبين رجوعه ، فلمّا حَصُلَ بباردو[263] قبضوا عليه وأتوا به لعلي باي فسجنه سبعة عشر يومًا[264] ، ثمّ أرسله[265] مع بلكباشية المُعَيَّنة من الدّيوان على أن يدخلوه لغار الملح لمسكنه هناك قبل ولايته في المُدَّة الّتي كان فيها رئيسًا بالبحر ، وأوصاهم علي باي أن يخنقوه في بعض بساتين الطّريق ، فلمّا بلغوا البستان المسمّى برأس الطابية ونظروا إليه قال لهم : أنزلوني هنا أُسَرِّحُ نظري فساعدوه ، فلمّا دخلوا تكلّموا خفية : أين نجد مكانًا أليق من هذا؟ فقال أحدهم : وأين النّصارى أهل الخنق؟ ففطن طاباق[266] فقال : إن

---

257) في الحلل : «الأمل».

258) في الحلل : «وطلبًا للبشارة والإحسان».

259) في ط : «للسّلام عليه».

260) في الأصول : «وحظه».

261) ساقطة من ش ، وفي الحلل : «طائفته».

262) في الحلل السّندسيّة : «فأغلقوا» . .

263) في ش : «باردو».

264) في الأصول : «يوم سبعة عشر» والصّواب كما أثبتنا وطبقًا كذلك لما ورد في الحلل السّندسيّة 496/2.

265) «ثم أرسله في عربة» ، الحلل.

266) وذلك أنّ عادة هؤلاء الترك ، أنّ من يُحْكَم عليه بالقتل منهم لا يباشر قتله جندي لأنّه أخوه ، والأخ لا يقتل أخاه ، فيأمرون النّصارى الّذين في الحانات مباشرة ذلك ، ويرونه مثل من قتل في الجهاد جهلاً منهم : إتحاف أهل الزّمان 56/2 – 57.

أردتم الخنق فاتركوني أتوضّأ ، فتوضّأ وصلّى ركعتين وأخذ الحبل ووضعه في عنقه وأخرج محرمة من جيبه لربط يديه ، ثمّ قال للنّصارى : إذا جذبتم فلا تُريّحُوا كالعادة ثمّ التفت للحاضرين وقال : سبحان الله ! دخلت النّار خلف علي باي مرارًا(267) فانظروا بما كافأني ، واشتغل بكلمة الشّهادة إلى أن فاضت روحه وكان صاحب / صدقات وإحسان [64/أ] فقدم على ما قدم.

الداي أحمد شلبي ودوره في الفتنة بين الأخوين محمّد باي وعلي باي :

ولمّا رأى أحمد شلبي إبن المرحوم يوسف داي ما وقع بطاباق من غير جرم وكان إذ ذاك آغة القصبة خاف ثائرة علي باي وبطشه فأغلق(268) باب القصبة عليه ، فأرسل علي باي أخاه رمضان باي وخليفته القائد مراد وجماعة من صبايحية الترك فكسوه قُفْطَان الولاية وبايعوه ، فأضحى أحمد شلبي دايا في إثنتين من شوّال سنة ثلاث وتسعين وألف(269). فلمّا بويع أخذته رعشة فاختلج جميع جسده لقوّة شهامته وشجاعته.

فمن مآثره الحميدة النّاشئة عن شجاعته أنّه قدم مركبان(270) من الجزائر غازيان(271) في سبيل الله فنزل بعض جندهما لتونس ، ونزلوا بوكالة العَطّارين ، فرَّ إثنان منهم فمسكا غلامًا من أطفال المسلمين للفاحشة ؛ ومن الغد توجّها إلى مركبيهما(272) بغار الملح فلمّا بلغه ذلك أرسل خلفهما لغار الملح من مسكهما في الطّريق ، فلمّا وصلاه خنقهما وألقاهما ببطحاء القصبة. وكاتب حاكم الجزائر(273) يقول له : إن بعضًا من جندك تعدّى على أبناء المسلمين وصدر منه ما صدر ، وقد فتكت به ، وأنت كذلك إذا رأيت ما يوجب ذلك من عسكرنا فافعل كفعلنا.

---

267) ساقطة من ط.

268) في الأصول : «فغلق».

269) 4 أكتوبر 1682 م.

270) كذا في ط والحلل السّندسيّة 503/2 ، وفي ش وب وت : «مركبا» ، وكلمة غازيين الّتي أتت للوصف تدلّ على أنّ الموصوف مركبين ، والصّواب مركبان غازيان.

271) في الأصول : «غازيين».

272) في الأصول : «مركبهما».

273) هو الحاج محمّد ميز مورتو: الحلل 503/2.

ولمّا استقر به الأمر أخرج طائفة [طاباق][274] من القصبة فنفى بعضهم وأبقى بعضًا ساكنًا بتونس، وأرى[275] النّاس من هيبته ما أزعجهم.

[64/ب] وكان جهّز فرقاطة للجهاد في سبيل الله فأخذها عدوّ الدّين / وبلغه أنّ بعض معاهدي النّصارى أرسل من يخبر العدوّ بشأنها وضعفها فكان سبب خروجهم لأخذها، فعند ذلك جمع القسيسين بتونس وسجنهم وقال: لا ينجيكم من يدي إلّا إرسالها[276] فكان بينهم[277] لجاج كبير، فأطال حبسهم حتّى جيء بها.

ومن سعادته أنّه جاءته غنيمة عظيمة كانت سببًا لقيامه بأمره.

ثمّ إنّه لم يَهْنَ[278] باطنه خوفًا من بطش علي باي خصوصًا وقد مشى أتباع علي باي بالعنف في النّاس، وطالت أيديهم بالجور، ولم يزجرهم سيّدهم، فاستباحوا بعض ما في أيدي النّاس.

ثمّ فسد ما بينه وبين علي باي بموجب أنّ رجلاً من قبيلة وِرْشِفَّانة[279] من أعراب طرابلس إسمه خليفة[280] بن زايد كان له ولد في بلد راس الجبل بقرب غار الملح، فسمع إبنه بعرس مَارٍّ على بابه فنزل وافتكّ البنت على رؤوس الإشهاد وفتك بها وأرسلها إلى أهلها، فجاؤوا مستغيثين رجالاً ونساءً لباب أحمد شلبي، فلما طرق سمعه هذا الخطب أرسل خلفه في الحين وسجنه، فجاء أبوه يتكلّم في شأنه فما التفت إليه، فأغلظ أبوه في الخطاب بحضرة الداي[281] إلى أن قال للدّاي: حكمي ليس تحت نظرك وإنّما هو تحت نظر صاحب البلد علي باي، فازداد الداي غضبًا وأمر بخنق ولده من ساعته، فما ازداد الأب إلّا إغلاظًا[282] في الخطاب فألحقه بابنه وألقاهما ببطحاء القصبة، فلمّا قرع هذا الواقع آذان أتباع علي باي ممّن كان بالمدينة ركبوا خفية ومن جملتهم / مصطفى [65/أ]

274) إضافة من الحلل 504/2.

275) كذا في ط وت والحلل، وفي ش وب: «رأى».

276) في الحلل: «إرجاعها».

277) في الأصول: «منهم» والتّصويب من الحلل 504/2.

278) في ش: «يحن».

279) وهي قبيلة بربرية متعرّبة ما زالت موجودة إلى الآن ومن الأقوال الشائعة عندنا: «السّلام عليكم يا أهل الجبّانة إذا ما فيكمش كيّال وإلّا واحد من ورشفانة».

280) هذه القصة وردت في الحلل السّندسيّة 505/2 والإتحاف 57/2.

281) في الحلل: «لما يعلم من مكانة أمثاله عند علي باي» 505/2.

282) في ش: «غلاظا».

سبنيور[283] فحكى للباي ما وقع[284]، فامتلأ حقدًا على أحمد شلبي فتجهّز في نحو خمسة وعشرين ألف عنان لما تبين له مخالفة أهل المدينة لقيامهم مع الداي ونزل بالحريرية، وسال الدّم من الفريقين، وحاصر تونس تسعة أيّام.

فلمّا اشتدّ الأمر بأحمد شلبي أرسل خفية لمحمّد باي بالقيروان، وعقد معه عهدًا على القدوم عاجلاً وأنّه يُمَكِّنُه[285] البلاد، فأرسل إليه نجدة[286]، فاشتدّ ساعد أحمد شلبي وقوي عزمه، فرحل علي باي من الحريرية، ونزل بقرب أريانة[287] شرقي تونس، وشرع قومه في حرق الزّيتون وقتل عابر[288] السّبيل وسلبه واستباحوا زروع المسلمين، وضيّعوا[289] أحوال الفقراء والمساكين، واشتدّ الأمر على أهل المدينة، وقاتلها من ناحية نزوله.

وفي يوم الجمعة بين الصّلاتين[290] خرج جمع عظيم من أهل تونس وشنّوا الغارة على إبل علي باي وكانت بالمرسى قرب سيدي أبي سعيد الباجي[291] – نفعنا الله به –، وكان في الغارة أولاد سعيد فجسروا على حرم الشّيخ، فبلغ الخبر لعلي باي فركب بمن معه والتقى الجمعان قرب باب الخضراء ولَم يبق بالمدينة أحد لمحبّتهم لأخيه وكرههم فيه لجوره وعتوّ أتباعه، فعظمت الملحمة بين الفريقين، فكانت الهزيمة على أحمد شلبي، وتراجع النّاس وافترق الحرب.

وبعد يومين قدم محمّد باي لتونس، ووقع ديوان عظيم فحضر الباشا والداي وأكابر الدّيوان وأجلة العلماء والصّلحاء والخاصة والعامّة / وخلعوا على محمّد باي، وبويع في ذلك الجَمْع. [65/ب]

ومدّ أحمد شلبي يده لحواشي علي باي الّذين كانوا بتونس، ثمّ اشتغل محمّد باي بتجهيز العسكر لمقاتلة أخيه علي باي.

---

283) ويقال إسبنيول، وهي بالعامية: الإسباني.
284) ساقطة من ط.
285) في الحلل: «يملكه» 506/2.
286) في الحلل: «أرسل له نجدة فأخرى».
287) في ب و ش: «ريانة».
288) في ش: «عابري».
289) في الحلل: «وضيقوا بأحوال».
290) أي صلاة الظّهر والعصر، وذلك أواخر ربيع الثّاني 1093/ 8 ماي 1682 الحلل السّندسيّة 506/2.
291) ويعرف هذا المكان بسيدي أبي سعيد وجبل المنار إذ يحتلّ المنار من ضواحي تونس الشّمالية.

وفي خلال سنة أربع وتسعين وألف[292] قتل علي باي (أحمد باي إبن أخيه محمّد باي الّذي كان أخذه علي باي)[293] رهنًا يوم الصّلح السّابق على يد الجزيريين[294]، وسبب ذلك أنّ أحمد باي كان في مجلس عمّه علي باي فدخل رجل لا يعرف شخص علي باي وقد رآى جمعًا عظيمًا، فقال: دلُّوني على الباي، فقال له أحمد: كلّ واحد باي، فوقعت في نفس علي باي، وكان فيما سبق أن علي باي اجتمع برجل عارف بالرّمل وأحكام النّجوم فأخبر علي باي بأنّه يتحرّك عليه رجل إسمه أحمد فيقوم عليه، فكان ذلك مستقرًّا بباله فظنه هو، فأتاه بطبيب ففصده لمرض أصابه، فبعد فصده ترك[295] دمه يسيل إلى أن مات، ولم يدفع حذر من قدر، فقام عليه أحمد شلبي.

(وهذه المسألة يقع فيها غلط الأمراء حيث يقول لهم صاحب أحكام النّجوم: يكون كذا وكذا على يد شخص صفته كذا فيذهبون يُدَبّرون في قطع ذلك بقتل من يتوهّمونه هو الموصوف، وأوّل من وقع في هذه المحنة فرعون حين أخبر بخراب ملكه على يد رجل يولد من بني إسرائيل فَقَتَل من قَتَل من بني إسرائيل ولم ينفعه ذلك حتّى جاء موسى / [66/أ] - عليه السّلام - وهذا من الحمق إذ الحكم إن كان حَقًّا فهو واقع ولا بدّ، وإن كان كَذِبًا فلا يضرّ شيئًا، وقد نبّه المصطفى ﷺ على وجه الخطأ في هذه المسألة من قضيّة إبن صيّاد[296] حين قيل إنه شبيه بالدّجّال فقال عمر - رضي الله تعالى عنه -: دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فقال ﷺ: إن يكنه فلن تسلّط عليه، وان لا يكنه فلا خير لك في قتله[297]، ولمّا قيل لعلي - رضي الله تعالى عنه - هذا قاتلك الّذي قال فيه المصطفى

---

292) 1683 م.

293) ما بين القوسين ساقط من ط وت وب، وفي الحلل السّندسيّة: «أحمد باي إبن محمّد باي إبن مراد باي» 508/2.

294) كلمة عامية تطلق على الجزائريين، وفي ت: «الجريديين»، وفي الحلل: «على يد بابا حسن حاكم الجزائر».

295) كذا في ت والحلل، وفي ش: «تحرك».

296) إبن الصّياد من اليهود الخيلا في جملتهم، وبلغ رسول الله خبره وما يدّعيه من الكهانة وتعاطي الغيب، فامتحنه النّبيء ﷺ ليبرز أمره ويختبر شأنه، فلمّا كلّمه علم أنّه مبطل، وأنّه من جملة السّحرة أو الكهنة أو ممن يأتيه رئى الجنّ أو تعاهده شيطان فيلقي على لسانه بعض ما يتكلم به.
أدركه عليه السّلام وهو دون الحلم، ولمّا تقدّمت به السّنّ روي أنّه تاب ومات بالمدينة وقيل إنّه فقد يوم الحرّة فلم يجدوه. أنظر جامع الأصول لابن الأثير المبارك بن محمّد (ت. سنة 606 / 1210) 206/11.

297) من حديث طويل أخرجه البخاري ومسلم ومالك في الموطّأ والترمذي عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -.

ﷺ وقد وضع يده الشّريفة على رأس علي – رضي الله تعالى عنه – ويل لمن يخضب هذه بيده يعني لحية علي بدم رأسه ، قال علي – رضي الله تعالى عنه – في جواب القائل له أقتل هذا الّذي هو قاتلك : إذا قَتَلْتُه فمن يقتلني؟ فانظر لهذا التّفويض والإستسلام للقضاء والقدر ، وإن ما قضاه الله يقع ولا يدفعه حذر ، وقد يَدَّعي بعضهم العلم بالأحكام وهو لا يعلم.

فمن ذلك أنّ يهوديًّا دخل على بعض الخلفاء وأخبره أنّ أجله قد حضر فاغْتَمَّ الخليفة لذلك غَمًّا شديدًا ، فدخل عليه بعض النّبلاء فوجده في غمّ شديد ، فقال : ما شأنك؟ قال : أجلي قد حضر ، فقال : وما عِلْمُكَ بأجلك والله تعالى يقول : ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا[298] وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[299] ، قال : أخبرني اليهودي المنجّم ، فقال : وأين هو؟ فأحضر ، فقال : وما قلت للخليفة؟ فقال : أجله قد حضر/ في يوم كذا في ساعة كذا ، فقال : أنظر أنت في أجلك كم بينك وبينه؟ فنظر وقال : ما زال بعيدًا وذكر مُدَّةً طويلة ، فاخترط ذلك النّبيل سيفًا كان حاضرًا وضرب به عنق اليهودي فمات من ساعته ، فانتهره الخليفة وقال : قتلته في غير حق ، فقال له : لتعلم كذبه وأنّك لم يحضر أَجَلُكَ وإنّما حضر أجله فهو فداؤك ، فزال ما بالخليفة من الغمّ)[300]. [66/ب]

ثمّ إنّه[301] في [أثناء][302] مقاتلة علي باي لأحمد شلبي وأخيه محمّد باي قدمت محلَّة الجزائر نصرة لمحمّد باي وأَحْمَد شلبي ، فارتحل علي باي عن تونس بجنوده ومعه بقية المَحلَّة الّتي بالجريد وسردارها الحاج محمّد الزمرلي[303] ، فبايعوه على أنّه داي ، وبايعوا علي باي بمقامه تطمينًا منهم ، ثمّ هرب كثير من محلة علي باي (ودخلوا المدينة ، ولم يزل علي باي)[304] مشمّرًا[305] على النّهب والغارة وكلّ من ظفر به أضافه إلى فريقه طوعًا أو

298) ساقطة من ش وب.
299) سورة لقمان : 34.
300) ما بين القوسين تعليق من المؤلف إضافة عمّا في الحلل.
301) النّقل من الحلل 309/2.
302) إضافة من الحلل.
303) ويقال : «ازميرلي» الحلل.
304) ما بين القوسين ساقط من ط وت.
305) كذا في ط وت والحلل ، وفي ش : «مستمر».

كرهًا إلى أن نزل على الكاف فوضع بحصاره خزائنه مِنَ ﴿الشَّهَوَاتِ [مِنَ] النِّسَاءِ والْبَنِينَ والقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والْفِضَّةِ﴾(306) ، ونزلت مَحَلَّةُ الجزائر بقرب منه ، وعظمت عليهم كيفيّة دخول الوطن.

فبينما هم كذلك إذ أقبل محمّد باي على محلّة الجزائر وصار معهم لُحْمَةً واحدة ، هذا وعلي باي يركب كلّ يوم يجاذبهم الحرب حين رآهم بعين الحقارة وهم كأنّهم صُمٌّ بُكْمٌ إلى يوم السّبت أواخر جمادى الآخرة سنة أربع وتسعين وألف(307) تهيّؤوا / [67/أ] وأوقدوا نار الحرب وتركوه حتّى توجّه لمحلّتهم وظنّ أنّه ظفر بهم دهموا محلّته وأخذوها ، فرجع علي باي مُتَقَهْقِرًا فنزل أهل الكاف وقَبِلُوا محمد باي وبقي الحصار(308) مغلقًا متمسكًا بعهد علي باي ، وكان من فيه لا يلتفتون إلى من حولهم ممّن هو خارج الحصار لاستغنائهم بما عندهم من الذّخيرة وآلات الحرب ، فكان من رأي محمد باي أن كتب كتابًا لصاحب قفصة يأمره أن يُحَضِّرَ له أخْبِيَةً ، فسقط الكتاب ووقع بيد أهل الكاف الّذين فتحوا وأطاعوا وعلموا أن هذه الخيم لم تكن(309) إلّا لحصول الدّرك الأكبر وإن إنفتح هذا الباب تَعَسَّر سدّه ، فكان من رأيهم أن يغتنموا الفرصة بمضايقة الحصار أشدّ المضايقة ليفتح وتَخْلُصُ القضية(310) ، فهيّؤوا رجالاً تقوم بالعسس ليلاً ونهارًا ، واتّفق أنّ القائد مراد باي خليفة علي باي قَدِمَ بعسكره ولا علم عنده بما وقع على أستاذه وحسب أنّ الكاف باق من غير فتح ، فخرج له أهل الكاف مقاتلين ، فلمّا رآهم فرح وظنّهم له فكانوا عليه ، فلم ينج إلّا هو وخاصته ففرّوا هاربين فعثروا في هربهم بقوم إجلاص(311) أتباع محمد باي فما خلصوا إلّا أن قالوا : إنّا من جانب محمد باي وقَصْدُنَا المسير للقيروان ، فأدخلوهم(312) القيروان فبلغ الخبر لتونس فأخبروا محمد باي وسيّروا جوابهم صحبة محمّد سبنيور ، فلمّا بلغ سبنيور ذَبَحَهُ محمد باي وقيّد من جاء / [67/ب] صحبته ، وسَبَبُ ذلك أنّ أحمد شلبي الدّاي(313) لمّا بلغه دخول مراد للقيروان إستبشر وأطلق المدافع فخشي محمد باي أن يكون ذلك السُّرور تحته داء دفين فأهانه بهذه الفعلة.

---

306) سورة آل عمران : 14.

307) 25 جوان 1683 م.

308) أي القصبة.

309) في الحلل : «لم تتيسّر إلّا بحصول» 2/510.

310) في ط : «القصبة».

311) ويقال «جلاص» قبيلة بربرية متعرّبة بولاية القيروان.

312) في الحلل : «فدخلوها».

313) ساقطة من ش.

ثمّ لمّا أُتِيَ بالقائد مراد لمحمّد باي ألحقه بسبنيور ذبحًا ، وعلي باي لم يكن عنده خبر بحال أخيه محمّد حتّى بلغ قفصة وأيقن أهلها أنّهم إن استند إليهم[314] يوقعهم فيما يعجزون[315] عنه ، فكان من رأيهم أن منعوه دخول البلد وصَدُّوه حتّى عن شرب الماء وقاتلوه ولم تكن له قوة ولا نهضة للقتال فألوى عنانه إلى بلد لالا[316] ، فَتَسَلَّطَ عليه أهل جبل القطار ، ونجا منهم ، ودخل صفاقس لأنّ الآغة الّذي كان بها من رجاله فرض بها حتّى أرجف بموته وعزم على الفرار بَحْرًا لأنه بلغه أنّ أحمد شلبي ربط مع أهل صفاقس أن يرسل لها نائبًا من عنده ، فخشي وركب في البحر لسوسة وذلك بشوّال سنة خمس وتسعين وألف[317] فبرئ بها .

ولمّا وقع لعلي باي ما وقع ببحيرة الكاف ونُهِبَتْ خيامه - حسبما مرَّ - رحل محمّد باي بمحلّة الجزائر ورجع لحصار قلعة الكاف وأحاط بها من جميع الجهات فلم يقدر من بالحصار على أدنى مدافعة له ، وكان رئيس القلعة فرج خَرْطَان ، فلمّا تحقّق حفر محمد باي للألغام جعل ينصت لحسّ الحفر ويحفر أمامه لإبطال العمل ، وكان فرّ منهم نَفَرٌ لمحمّد باي فجرّهم في أذناب الخيل فازداد غيظ / أهل القلعة وعظم الأمر عليهم ، فبينما [68/أ] هم كذلك إذ أمر محمّد باي[318] بإيقاد الألغام فانفلق جانب القلعة من جهة الوادي وصارت القتلى أمامه كالتّل العالي ، فلم يسع رئيس القلعة فرج خرطان إذَّاك إلّا أن إتّفق مع الّذين كانوا معه محصورين أنهم يجلسون على البرامل متاع[319] البارود[320] ، ومن جملة المحصورين مصطفى بن موسى خزنادار علي باي ، وأمّا مصطفى سبنيور فإنه قتل نفسه بخنجر كان بيده ، وممّن كان بداخل الحصار رمضان باي أخو محمّد وعلي باي وكذا مراد باي إبن علي باي وكانا صغيرين فكنفهما[321] محمد باي ، ودخل العسكر واتّصل بما تقدّم ذكره من الذّخائر والخزائن .

---

314) في الأصول : «استندوا إليه» والتّصويب من الحلل 511/2.

315) في الحلل : «فيما يعجزهم عن أمره لما يعلمون من شدّة مكره».

316) من ضواحي قفصة .

317) سبتمبر 1684 م .

318) في الأصول : «إذ مرّ محمد باي» والتّصويب من الحلل 512/2.

319) كلمة دارجة لا حاجة بها ، يقال «براميل البارود».

320) «وأوقدوا بها النّار فصاروا إلى ما به طاروا ، والّذين طاروا بالبارود هم فرج خرطان ومصطفى بن موسى كان خزنادار عند علي باي...» ، الحلل 512/2.

321) في ط : «كفلهما».

ثمّ رحل محمّد باي بمحلّة الجزائر وقدم نحو تونس ، ونزل بهم في الحريرية أواسط رمضان سنة خمس وتسعين وألف[322] ، وهي أوّل نزلة نزلوها[323] في الحريرية على تونس ، ومنها انفتحت لهم أبواب الخسارة على تونس وعلى وطن إفريقية.

ثمّ وقعت بينهم وبين أحمد شلبي مُلاَحَّاة[324] أوجبت وحشة بعدما كانوا عازمين على محاصرة سوسة وبها علي ، وراودوا محمد باي على محاربة أحمد شلبي فأبى إلّا العافية والنّهي عن التجري.

ثمّ إنّه وقعت بينه وبين محمّد باي وحشة ، وآخر الأمر أظهر الصّلح وطلب من محمّد باي مرتب العسكر فأجابه ووقع الإتفاق بينهما وما ازداد أهل الجزائر إلّا حقدًا.

[68/ب] ورحل محمّد باي من الحريرية ونزل مرناق آخر شهر رمضان المذكور وبعد / رحيله بيومين رحلت محلّة الجزائر تجاه بلدهم ، ورحل محمّد باي إلى القنطرة بقرب طبربة وأقام[325] ثلاثة أيّام ، ثمّ كرّ راجعًا لمرناق لأمر أراده ، وأظهر أحمد شلبي أنّه يجهّز العسكر لمحاربة علي باي بسوسة ، ولم يزل كذلك إلى أن تحقّق ذهاب محلّة الجزائر فدبّت مبادئ العداوة بين أحمد شلبي ومحمّد باي ، فالتفت عن التّجهيز لسوسة ومنع خروج العسكر لها.

فتنة أحمد شلبي وإتّفاق الأخوين محمّد باي وعلي باي على قتاله :

هذا ومحمّد باي ماكث بمرناق إلى أن استهلّ عليه هلال شوّال وهو يكرّر على أحمد شلبي الرّسل في التّجهيز فلم يلتفت لذلك ، ولمّا ظهرت مخايل العدواة مسك شعبان كاهية ومحمّد بن شكر خليفة محمّد باي وسجنهما ، فلمّا رآى محمّد باي هذه الأمور لم يجد[326] محيصًا عن صلح أخيه علي باي وأخبره أنّ ما بيننا من الفتن موجب[327] لتكسير

322) أواخر أوت 1684 م.
323) في ط : «نزلهما».
324) في الأصول : «ملاحات».
325) في ط : «وأقام بها».
326) في ط : «لم يظهر».
327) ساقطة من ش.

واحد منّا بالآخر [وتتغلّب علينا أيدي الغير][328] وإذا تمادى هذا الحال يظفر أحمد شلبي بالبلاد ، ومن جميل الرّأي أن نصطلح ونُقَسِّمَ البلاد بيننا نصفين [ونتظاهر عليه][329] فطابت نفساهما[330] بذلك وأرسل محمّد باي أخاه رمضان ومراد إبن أخيه وجميع الحريم الّتي[331] كان إتصل بها[332] من قلعة الكاف مع هدايا وثياب وَخِيَمٍ ، والتقى الفريقان بين سوسة والقيروان وصارا يفكّران في حيلة للوصول إلى غرضهما من أحمد شلبي ، وبقيا كذلك إلى صفر من سنة ستّ وتسعين وألف[333] فأمر محمّد باي أخاه عليًّا بتجهيز مائة خباء ، فادَّعى علي عدم ما يقوم به من الخرج فلامه محمّد باي[334] / ثُمَّ [69/أ] قيَّد محمّد باي جميع ما أخرجه على المحلّة من أمواله ممّا يقوم بها كلّها.

ونزل علي باي نحو الدّخلة القبلية[335] من تونس ونزل محمّد باي بغدير السُّلطان[336] وتأهّبوا لقتال أحمد شلبي وجهز هو أيضًا جيشًا عظيمًا وركب نحو الألف من صبايحية الترك عدا[337] ما أنضاف إليه من أولاد سعيد والمِسْعي ، وتربّص ينصب شباك مكره لأنّه كان ذا حِيَلٍ ومكر فجمع جندًا عظيمًا وأخرجهم ليلاً على محمّد باي فأحاطوا به وهاجموا[338] مَحَلَّته على حين غفلة ، وهرب محمّد باي في نفر قليل من توابعه ، ورجع أحمد شلبي بما غَنِمَهُ ، وأحاط بحريم محمّد باي وجواريه ، فسرّ بذلك سرورًا عظيمًا وذلك في إثنين وعشرين من رجب سنة ستّ وتسعين وألف[339].

وقام أولاد سعيد عَلَى عَلِي باي وهو بالدَّخلة القبليّة فنهبوه ومحَلَّته ، ومال النَّاس كلّ الميل لأحمد شلبي عندما بلغهم هذا الواقع بعدما كان أولاد سعيد مع علي باي

---

328) إضافة من الحلل 514/2.

329) إضافة من الحلل.

330) في الأصول : «نفوسهما».

331) في الأصول : «الذي».

332) في الأصول : «به».

333) جانفي 1685 م.

334) «من حيث أنّه كان تصرَّف في البلاد سبع سنين وتمزّقت أمواله في مرضاة توابعه وأبقوه مُثْلَةً عند الشَّدَائِد». الحلل السّندسيَّة 515/2.

335) هي دخلة المعاوين : أنظر الإتحاف 59/2 . النّقل مستمرّ من الحلل السّندسيَّة 515/2.

336) أنظر أيضًا الإتحاف 59/2.

337) في الأصول : «عدى».

338) في الأصول : «هزموا» ، والتّصويب من الحلل 515/2.

339) 24 جوان 1685 م.

فانقلبوا عنه مع الدَّهر ، واجتمع لأحمد شلبي من ذلك جمع عظيم ، فَعَظُم أمره وقوي أزره.

وكان في أثناء ذلك نشر أعلام الولاية على مملوكه الخزنادار(340) محمد مَنُّوط ولَقَّبه بالباي وأولاه ولاية الوطن وجاءه الخبر أن الأخوين جمعا جمعًا ثانيًا واستنفر النَّاس للقتال ، ووردت عليهما الوفود أفواجًا.

وكان محمّد باي وضع قناطر على وادي العلم ، فلمّا عبرت جيوشه عليها أمر بنقضها لئلاّ يُحَدِّثَ أحد نفسه بالفرار ، فكانت ضررًا عليه ، فتهيّأ أحمد / شلبي إذ ذاك ووجه [69/ب] عساكره مع جنود العربان ، فالتقى الجمعان بوادي العلم دون القيروان فظفر بهم أحمد شلبي ، وانهزمت جيوش الأخوين ، ففرّا للقيروان بعدما مات منهم جمع كثير ، وبلغ البشير لأحمد شلبي في يومه ، وجيء لتونس بعشرة أحمال(341) من رؤوس القتلى(342) ، فألقيت ببطحاء القصبة من تونس.

وبعدما دخلا للقيروان كتبا للجزائر مع محمد بن شُكْر يستنجدونهم بنصرة أبيه(343) فلم يكن إلّا يسيرًا وقد أتتهم النُّصرة ، وحصل إجتماع بين الأخوين وتظافروا على محاربة أحمد شَلَبي [وفي أثناء مجيئهم عزم أحمد المسعي على القدوم نصرة لأحمد شلبي فلمّا ثبت مجيء الجزيريين](344) ، أرسل أبو حوش للمسعي يحذّره(345) من القدوم لأحمد شلبي فقلبه(346) عنه ، وهرب أحمد المسعي لناحية الغرب ، وكان هروبه من السِّرْس في ثلاثة من رجب من السَّنة المذكورة ، ثم هرب من محلّة تونس أبو حوش ولحقته(347) خيل محمّد منيوط ليُمسكوه فوقع بينهم حرب شديد ، ومات من الفريقين خلق كثير ، وأتوا بنساء أبي حوش إلى محلّة تونس.

---

340) في الأصول : «مملوك خزنادار» ، والتّصويب من الحلل والإتحاف 59/2. قال إبن أبي الضِّياف : «وكان له مولى من نجباء الأفراد إسمه محمّد منيوط».

341) كذا في ش وت وب ، وفي ط والحلل : «جمال».

342) في الأصول : «القتلا».

343) ساقطة من ش وت وب.

344) إضافة من الحلل يقتضيها السّياق.

345) في الأصول : «يحذرهم».

346) في ش وب : «فعلبه» ، وفي ت : «فقابله».

347) في الأصول : «لحقه».

وفي أحد عشر من شعبان[348] دخلت محلّة تونس لتونس على عادتها ، وفي ذلك اليوم جاء الخبر لتونس أنّ بعض رؤساء علي باي[349] دخل باجة وهربت النّوبة منه في الحصار ووقع بينهم القتال ، ومحال الأخوين إذ ذاك بالكاف ، ومن الغد أرسل أحمد شلبي خلف الحاج حسين آغة الّذي كان بالمحلّة فقتله وقتل معه جماعة كبيرة منهم مصطفى سبنيور وكان شاويش الدّيوان ، قيل كانت أحواله غير مرضيّة حتّى إنّه لمّا أراد طاباق [وضع][350] الرّمية / على أهل تونس وهربوا لجامع الزّيتونة دخل عليهم بنعله إلى المحراب. [70/أ]

وفي منتصف شعبان[351] أخذ أحمد شلبي كاهية باجة وفيَّأَ دُورَهَا وأسواقها وقتل منها جماعة ، ثمّ إنقلب هَارِبًا لتونس.

وفي عشرين منه[352] ورد الأخوان لباجة وحازوها وأنزلوا الترك الّذين كانوا بحصارها على الأمان ، وهم خمسمائة رجل ، وعيّنوا لهم أخبية وأضافوهم إلى عسكرهم ، وعقدوا ديوانًا على أنّ بَقْطَاش [خوجة][353] يكون دايا ، فلمّا سمع أحمد شلبي عقد ديوانًا بباب القصبة ومعه الباشا والعلماء والعسكر بجميع طبقات الدّيوان وأهل المدينة والرَّبَطَين[354] ، وقام أحمد شلبي وخاطب النّاس خطابًا عامًّا وقال لهم : إنّ هؤلاء القائمين عليكم وعلى أولادكم وأموالكم[355] لا يخفاكم ما هم عليه من الجور فما نظركم؟ فكان الجواب من الخاص والعام على كلمة واحدة : أنا نحارب على بلادنا وأولادنا وطاعتك إلى أن نفنى جميعًا ، وقرأوا فاتحة الكتاب ، وحضر ذلك الموطن ثلاثة شوّاش كانوا قدموا من الباب العالي – حفظه الله –.

وفي ذلك اليوم بنوا باب سيدي قاسم الجليزي ، وباب سيدي علي القرجاني ، وباب البنات ، وباب قرطاجنة ، وباب أبي سعدون ، ورتّبوا على كلّ باب نوبة من الترك

---

348) أي من سنة 1096 / 13 جويلية 1685 م.

349) ساقطة من الأصول.

350) إضافة من الحلل.

351) 17 جويلية 1685 م.

352) أي شعبان 1096 / 22 جويلية 1685 م.

353) إضافة من الحلل 519/2.

354) كلمة دارجة للرّبضين وهما بتونس يطلقان على باب السويقة وباب الجزيرة.

355) ساقطة من ط.

والزواوة ، وركّبوا عليها المدافع ، ثم نصبوا ديوانًا آخر بجامع الزيتونة واجتمع فيه ضعف ما كان اجتمع بباب القصبة ، ووقع الإجماع من جميع الناس بالتّصريح بالقتال والحرب.

[70/ب] ومن جملة ما كان بذلك اليوم / أن قرأوا الأوامر العثمانية مضمونها تقرير البلاد لأحمد شلبي ورفع يد الأخوين ، ولمّا تقوى أمر أحمد شلبي وضبط الجنود تزاحمت عليه الوفود.

وفي أواسط رمضان من السّنة المذكورة[356] نزل الأخوان والنّصرة بالقنطرة ثم وقعت محاربة بينهم وبين أهل تونس ، ومات من الفريقين جمع كثير.

وفي ذلك اليوم ازداد المَدَد من الجزائر ، وميّز أحمد شلبي رجاله بسانية الجربي ، وقبل ذلك بيسير رحل[357] أولاد سعيد ونزلوا سيدي حسن السيجومي ، فأرسل خلفهم أحمد شلبي الصبايحية تُرْكًا وعَرَبًا ليأخذوهم ، فلمّا رآى[358] أولاد سعيد الإحاطة بهم أذعنوا وانقلبوا للجبل الأخضر ، وخرج لهم الطرابلسيون والجباليون وعقدوا لهم عهودًا وتحالفوا على ذلك.

ثمّ رحل أولاد سعيد من الجبل الأخضر فنزلوا على سَاحِلِ البحيرة من جهة الزّلّاج[359] ، إلى محلّ القصّارين من باب البحر ، واستباحوا غابة الزيتون وثَمَرَ البساتين ، ولم يبق لأهل الأملاك تصرّف في أملاكهم.

وفي أربعة وعشرين من شوّال سنة ستّ وتسعين وألف[360] نزل الأخوان بمحالهم ونصرتهم بسانية الجربي ، وانتصبت المحال من باردو لسيدي حسن السّيْجُومي ، وتقاتل[361] ذلك اليوم الفريقان من الضحى إلى العصر ، وماتت أمم من الفريقين ، ومكثوا كذلك حينًا من الزّمان والحرب بين الفريقين سجال فيوم لقوم ويوم لآخرين إلى أن دخلت السّنة السّابعة بعد التّسعين والألف.

[71/أ] ففي ربيع الثّاني[362] وردت مكاتيب من أكابر الجزائر يخاطبون أحمد شلبي /

---

356) 15 أوت 1685 م.

357) في الأصول : «دخل» والتّصويب من الحلل 520/2.

358) في الأصول : «رأووا».

359) في الأصول : «الجلاز».

360) 23 سبتمبر 1685 م.

361) في ش : «تقاتلا».

362) في 22 منه / 18 مارس 1686 م.

بالصُّلح مع الأخوين فخرقهما وعزم على إخراج النَّاس للقتال فتقاتلوا ، فكان عِدَّة ما رمى به أهل تونس من المدافع سبعمائة.

وفي خامس[363] جمادى الأولى[364] رمى المحال على تونس بالبونبة من بعد العشاء أربعة وأربعين ، ثم تمادوا على ذلك ليالي مُتَعَدِّدَةً ، فعظم الأمر في تقليد السِّلاح بين الأزقّة والأسواق.

وفي ستّة عشر من الشَّهر المذكور أخذ أمر تونس في الإنحلال ، ومال النَّاس للأخوين وأخذوا في الهروب ، وشرع الأخوان في حفر الألغام من جهة سيدي عبد السلام ، وفي إثر[365] ذلك جاءت أوامر من الأعتاب العثمانية لتونس ، فلم يقدر أحمد شلبي على إدخالهم[366] لضيق الحال ، فعقد أحمد شلبي ديوانًا بجامع الزيتونة بالخاص والعام ، وأظهر أوامر قرئت على رؤوس الإشهاد مضمونها الإذن باستقرار إفريقية تحت نظر أحمد شلبي ورفع يد الأخوين.

وفي أربع وعشرين[367] من جمادى الأولى أرسل أحمد شلبي الشّوّاش الواردة من الأعتاب العالية إلى المحال ليَكُفُّوهم عمّا هم عليه ، فلمّا وصلوا تلقّاهم قاره عبد الله من الأتراك وقال لهم : أرجعوا قد علمنا ما جئتم به ، فرجعوا إلى تونس ، ثم تزايد المدد من الجزائر بحرًا[368] وبَرًّا فهرب من تونس خلق كثير ووردت لتونس مراكب بالقمح فتلقّاها الأخوان وأخذا ما فيها فضاق حال تونس.

وفي ثمانية من رجب هرب أولاد سعيد فنهب النَّاس بيوتهم ، ثم تتابع النَّاس بالهروب وتسارعوا لتلَقّي الأخوين من ربط بني حمّاد ووضعوا لهم السلالم[369] وأدخلوهم الرّبط ووقع الإختلال / في مواضع كثيرة وإنحل العقد واتسع الخرق وأدخلوا أصحاب [71/ب]

---

363) في الأصول : «أول» ، والتّصويب من الحلل 531/2.

364) 30 مارس 1686 م.

365) 19 جمادى الأولى 1097 / 12 أفريل 1686 م . والّذي يفهم من الحلل السّندسيّة 532/2 أنّه ورد شاوش من تركيا في التّاريخ السّابق ، وورد آخر ضحوة يوم الأربعاء 21 جمادى الأولى ، وكان ورود الثّاني للجزائر إلّا أنّ أحمد شلبي أراد أن ينزله للمدينة ليشاهد ما هم فيه هؤلاء المؤمنون.

366) الّذي يفهم من الحلل السّندسيَّة أنّه دخل وشاهد الأحوال كما يفهم من كلام المؤلّف الآتي.

367) في الأصول : «إثنين وعشرين» والتّصويب من الحلل 533/2.

368) في 29 جمادى أولى 1097 / 24 أفريل 1686 م.

369) في ش و ط : «السلاح» ، والتّصويب من الحلل.

الأخوين ، وهُدمت الأبواب وأصبحت القصبة مغلقة[370] من الغد ، والقتال بين من فيها وبين من كان خارجها اليوم كلّه ، وآخر أمر أحمد شلبي فراره بنفسه بليل بعد صلاة العشاء[371] ليلة الأحد الحادي عشر من رجب سنة سبع وتسعين وألف[372] مع بعض حواشيه فأحاط بهم العسس بسبخة سيجوم فقاتل بنفسه فوقعت به جراحات فأثقلته وكبت به فرسه فأخذ وقُيِّدَ عند الأخوين ووضع تحت يد إبراهيم خوجة حاكم العساكر الجزائرية.

نهاية علي باي :

وطلب أهل المدينة الأمان ، فأمّنوا وألبس بقطاش خلعة ولاية الدولاتلية فصار[373] دايًا ، واستولوا على جميع مخلّفات أحمد شَلَبي ، وجددت البيعة للأخوين[374] إلّا أنّ نفوس العسكر مائلة لمحمّد لما يعلمون من رفقه وعسف أخيه.

ثمّ قَسَّم الأخوان البلاد فكان سَهْمُ محمّد باجة وما يليها والقيروان والمنستير ، وسَهْمُ علي سوسة ووسلات والسَّاحل والكاف وما يليها ، وأظهروا أوّلاً أمنا ثمّ تنازعوا.

في سبع وعشرين من الشّهر[375] تَجَمَّعَت جميع العساكر[376] وتَقَلَّدُوا السِّلاح وخرجوا نحو المحال برأس الطابية ، وجمعوا الخاص والعام وقالوا بلسان واحد : إنّ علي باي لا يصلح ولا نرضى إلّا لمحمّد باي فقط ، وكان الأخوان إذ ذاك بخيمة إبراهيم خوجة فاطلعا على العسكر (قائمًا وقاعدًا فخرجا بلطافة)[377] فأمّا محمّد باي فطلع على ربوة[378] وأمّا أخوه علي فذهب إلى محلّته وخرج في بعض خيل معه ناويًا[379] / [72/أ]

370) في الأصول : «مغلوقة».

371) خرج من باب غدر من القصبة : أنظر الإتحاف 60/2.

372) 3 جوان 1686 م وفي الأصول : «ليلة إحدى وعشرين وألف» ، والتّصويب من الحلل 539/2.

373) في الحلل : «خلعة الولاية وجلس مرتبة الداي» ، 540/2.

374) يوم الأحد 10 رجب سنة 1097 / 2 جوان 1686 يوم دخولهما لتونس.

375) 19 جوان 1686 م.

376) أي التونسية والجزائرية.

377) في ط : «قائمًا قاعدًا بالطابية».

378) «ينظر ما يكون» الإتحاف 60/2 ، وفي الحلل : «طلع على ربوة بالرَّواهب» 543/2.

379) أي بنية.

الفرار[380] فلامه بعض أصحابه بقوله : ألم تر إلى أخيك ماكثًا على الرّبوة الفلانية وإنّا لا نعلم بما اجتمعوا عليه فربّما إذا فررنا يصير لنا ما صار في فرارا الكاف مع أنّا ظفرنا بالبلاد ، وما زالوا يقيمون عليه الحُجَجَ وقد قيّدتهِ المقادير وجعل الله لكلّ شيء سببًا .

فبينما هم كذلك إذ أقبل نحو علي باي خيل مسرعة فظنّ أنّهم أتوه بالبشارة فكانت بحضور أجله المحتوم ، فما وصلوه إلّا وقد بادروه بالبندق دفعة واحدة فأصيب وسقط عن فرسه فأُجْهِزَ[381] عليه ونهبت محلّته ، وقطع رؤوس بعض من أصحابه[382] ، وأرسلوا خلف محمّد باي في تلك السّاعة ، وكسوه القفطان ، وجددوا له البيعة العَامَّة ، ثم قتل في اللّيلة الآتية أحمد شلبي خنقًا برجب سنة سبع وتسعين وألف .

وفي أوائل شعبان[383] توفّي الباشا محمّد الحفصي ببر الترك وأُتِيَ به لتربة آبائه .

عود إلى أخبار محمد باي :

وجَهَّزَ محمّد باي العساكر الجزيرية بعد الثّناء والجزاء الحسن ، وتوَجَّه لإصلاح[384] البلاد وتطمين العباد ، وقمع أهل الزيغ والفساد بالقتل والنّفي والإبعاد .

ثمّ أظهر أهل الحامة مخالفة أوامره ، وكان بها أولاد سعيد ، فجهّز لهم عسكرًا[385] في البحر وسافر هو في البرّ فأحاط بهم وقاتلهم إلى أن فَتَحَها ، ثم دخل الجريد آمنًا مطمئنًا منفرد الكلمة وأقبل لتونس آمنًا مسرورًا فبنى وشيَّد بباردو[386] زيادة على ما كان قبله .

ومآثره – رحمه الله – كثيرة ، فبنى مدّة مقامه بالقيروان مسجدًا عظيمًا ومدرسة جليلة / وبنى بعد ذلك قنطرة مجردة بالحترمين[387] واخترع فيها صنعًا عظيمًا بجعل أبواب [72/ب]

---

380) قاصدًا جهة منّوبة قبل أن يعلم شيئًا : «أنظر الإتحاف 60/2 .

381) في ش وت : «فجهر» ، وفي ط : «فحهر رأسه من عليه» .

382) وذلك يوم الثلاثاء 27 رجب سنة 1097 / 19 جوان 1686 م .

383) سنة 1097 / أواخر جوان 1686 .

384) في ش . «لتصليح» .

385) ساقطة من ط .

386) في الحلل «واعتنى بقصور باردو ، واخترع فيها غرائب التّفصيل...» 547/2 .

387) كذا في ش ، والحلل 549/2 وهي على طريق بلد طبربة . ذيل بشائر أهل الإيمان 103 . وفي ت وط : «الحرمين» .

لها يتصرّفون بها في مائها[388] تقييدًا وإرسالاً ، وأحدث بحافتيه بلدانًا كثيرة أمر ببنائها ، وغرس بها جنّات[389] ، وقد بلغ مصروفه في ذلك مقدار ألف ألف.

وفي تلك السّنه جاءت الأوامر السّلطانية للحاج : بقطاش الدّاي بالباشوية.

فتنة محمّد بن شكر:

وفي تلك السّنة وقعت وحشة بين محمّد وبين خليفته محمّد بن شُكْر[390] ، فاختفى أيّامًا وطلب الإجازة للحجّ[391] فنفي إلى فرانسة ونهب جميع ما كان بيده ثم إنقلب إلى الجزائر يتقلب بين أعتاب أرباب الدّولة يسعى في الإستنصار على تونس لمقاتلة مُحَمَّد باي.

وفي تلك السّنة قدم إبراهيم خوجة ، كان دايًا في الجزائر مغاضبًا لعسكره ، وكان محاصرًا لوهران لمّا بلغه أنّ الحاج ميز مورتو باشا الجزائر تظافر مع العسكر على الفتك بإبراهيم المذكور ، فأكرم محمّد باي نزله وهاداه بما يليق بحاليهما.

وفي سنة تسع وتسعين وألف[392] توفّي بقطاش باشا داي ، فتولّى بعده حفيده[393] علي رايس.

وفيها تجهز إبن شُكْر بعسكر الجزائر متوجهًا بها لتونس على يد الدّوْلاَتلي الحاج حسين ميز مورتو وكانت عساكرًا وجنودًا تسدّ الفضاء ، ثمّ إنّ[394] أهل الفضل منهم لم يرتضوا

---

388) في الأصول : «مائة» ، وفي الحلل : «يتصرف بها في فياض مائها قيدًا وإطلاقًا» 549/2.

389) في ش : «جناة».

390) كان متزوجًا أخت محمد باي. أنظر بلانتي : Plantet, *Correspondance des Beys de Tunis et des consuls de France avec le cour 1517–1830* الجزء الأول ، باريس 1894 ص 417 الرّسالة عدد 433.

391) فتمّم له ذلك وركب البحر فدفعته يد الأقدار طردًا عن بيت الله الحرام وجذبته أقرانه الشياطين إلى منبع الشرك والحرام وحمل إلى افرانسة ونهب كلّ من كان بين يديه وخلص برأسه لا له ولا عليه ، وتوجّه إلى الجزائر ومكث أيّامًا ، يتقلب بين أعتابها ، ويتردّد إلى أبوابها ، واستفتح في إنشاء خبائث فتنة بذرها في رياض المفسدين وسقاها من جداول الإغراء عددًا... الحلل السّندسيّة 552/2.

392) كذا بالأصول والحلل ، 1687 – 1688 م ، وفي ذيل بشائر أهل الإيمان ص 102 ، توفّي سنة 1100 / 1688 – 1689.

393) إبن أخته.

304) ساقطة من ش.

ذلك ورأوا أنّ فيه سفك دماء المسلمين بغير موجب فرجعوا على الدّولاتلي وعزلوه ، فخرج في مركب على حين غفلة من النّاس فاتصل الخبر بمحمّد باي فَجَهَّز مركبًا في أثره / أين كان فصادفوه وأتوا به لمحمّد باي فعاتبه ثم عامله بالحلم والإكرام وبَذَل له [73/أ] أموالاً ومماليك وخدمه وجَهَّزَهُ إلى إسلامبول ، فصار من أكابر رؤساء البحر وغنم غنائم عظامًا للسُّلطان سليمان خان إبن السُّلطان ابراهيم خان - رحم الله الجميع برحمته الواسعة - .

وفي ربيع أول من سنة مائة وألف[395] وقع الطّاعون بتونس ، فبلغ تسعمائة نفس في اليوم الواحد ، فأقام ثمانية أشهر ثمّ إرتفع ، فَحُزِرَ[396] من مات بتونس فناف على ستّين ألف .

ثمّ شرع محمّد باي (- رحمه الله تعالى -)[397] في فعل الخيرات[398] ، فاحتفر بئرين بطريق القيروان وبنى بها مواجل كثيرة ، وكذا بطريق قفصة آبارًا وصهاريجَ تُضَاهي مصانع الأقدمين ، وأُخرى بطريق سوسة ، وأحيى مصانع[399] صفاقس بسور عليها بعد دثورها وأجرى المياه العذبة لباجة ، وبنى (مدرسة ومسجدًا ببلد الكاف)[400] ومدرسة ومسجدًا بباجة ، ومدرسة بقابس مجاورة لسيدي أبي لبابة الأنصاري - رضي الله تعالى عنه - صاحب رسول الله ﷺ.

وفي سنة ثلاث ومائة وألف[401] أنشأ أسواق الشّواشية الثلاثة ، وكانت دورًا ومخازن فاشتراها .

وفي هذه السّنة جاءت الأوامر الخاقانية بزيادة طوخ[402] له ثان .

---

395) ديسمبر - جانفي 1688 - 1689 م .

396) كذا في ط ، وفي ش وت : «فحوز» ، وفي الحلل : «وكانت جملة» .

397) ساقطة من ط .

398) لم يستوف كلّ منشئات محمّد باي . وذكرت في الحلل السّندسيّة 580/2 .

399) في ط : «مواجن» ولعلّها المواجل المعروفة بالنّاصرية ، وفي الحلل السّندسيّة 580/2 : «وأحيى ماجل صفاقس بعد دثوره» ، وإن كان ماجلاً مفردًا فالمقصود به فسقية الشّعري الكائنة بطريق العين على مقربة من المدينة خارج السّور .

400) ما بين القوسين ساقط من ط .

401) 1691 - 1692 م .

402) وهذه العلامة الرّفيعة تشعر أنّ صاحبها من الدولة العثمانية بمنزلة هي أعلى من منزلة باشا تونس : الحلل السّندسيّة 580/2 .

وفي سنة أربع ومائة ألف[403]، شرع في بناء جامعه الأعظم أمام سيدي محرز بن خلف بباب السُويقة، فجاء على أسلوب غريب.

وفي سنة خمس ومائة وألف[404] قدم إبن شُكْر المذكور بعساكر الجزائر على يد شعبان خوجة حاكم الجزائر واستنجد / أيضًا حاكم طرابلس فأنجده بعساكره في البحر [73/ب] إلى بَلَدِ العِنَّاب، فقدم الجميع لمحاربة محمّد باي بتونس[405] فتجهّز لهم والتقى الجمعان على الحدادة، فخان محمّد باي عُرْبَانُه على جاري عادتهم فَاخْتَلَّت مَصَافه منهزمين في ثلاثة من القعدة سنة خمس ومائة وألف[406].

ولمّا بلغ الخبر لتونس عَزَمَ الدَّاي علي رايس ورمضان باشا لبر الترك[407]، وقدم من الغد محمّد باي لتونس فَوَلَّى مكان علي رايس إبراهيم خوجة دايا في سبعة من قعدة[408]، ثم أخذ محمّد باي في (تحصين[409] حصونه وعسكره وحفر خندقًا محيطًا وأجراه من البحر إلى)[410] البحر[411] وجمع جموعًا أخرى لمدافعة محاربيه[412] وتتابعت عليه العساكر من الجزائر بحرًا وبرًّا مع أهل طرابلس، وتزايد مدد الجزائر بحرًا وبرًا، رجالاً[413] وعدة من المدافع والبونبات، ونزلوا بقرب تونس أوائل ذي الحجة، وعقدوا ديوانًا على أنّ إبن شُكْر: باي، ومحمود: داي.

ويوم نزولهم وقعت معركة حتّى كاد يُفْني بعضهم بعضًا، ثمّ رجعوا إلى أخبيتهم وبقوا على تلك الحال يرمون المدافع العظام والبونبات ليلاً ونهارًا حتّى رموا في اليوم الواحد

---

403) 1692 – 1693 م.

404) 1693 – 1694 م.

405) محاصرة أسطول الجزائر وأسطول طرابلس لتونس أشار لها شارل فيرو في حوليات ليبية ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، دار الفرجاني، طرابلس – ليبيا، 314/1 نقلاً عن دي هامير الذي جعل هذه الحادثة سنة 1107 / 1695، ولاحظ أن دي هامير يروي ما سبق إستنادًا على الوثائق التركية المفتقرة إلى الصَّواب في كلّ ما يتعلّق بشؤون إفريقيا.

406) 26 جوان 1694 م.

407) أي السّفر إلى مركز الدّولة العثمانيّة.

408) جوان 1694 م.

409) في الحلل: «تصحيح» 566/2.

410) ما بين القوسين ساقط من ط وت.

411) في الأصول: «البر» والتّصويب من الحلل.

412) في الأصول: «محربه».

413) ساقطة من ط.

ما ينيف على مائة قنطار بارودًا ، وأكثر ما يكون أوقات الصّلوات[414] ، فبقوا على تلك الحالة ثلاثة أشهر ونصف مع توارد (المدد من الجزائر وتراكم العربان وليس مع محمّد باي إلّا)[415] العسكر الّذي معه ، ثمّ إنقسم القتال عليه بقسمين وضاق عليه الحال.

ففي ربيع أوّل من سنة ستّ ومائة وألف[416] فرَّ بنفسه ، ودخل إبن شُكْر بايا / [74/أ] ومعه محمود دايا ، فدخلا القصبة معًا وقلوب عسكر تونس غير راضية ، فدخل شعبان خوجة المدينة ، وشرع إبن شُكْر في أخذ أموال النّاس ليرضي العساكر الواردة معه ، ثم عُزِل محمود داي[417] وَوُلِّيَ مكانه محمّد طَاطَار في ثمانية من ربيع الثّاني سنة ستّ ومائة وألف[418] ، وكان مُسْرِفًا في القتل ، قتل في مدّة خمسة[419] أشهر ما ينيف على ثمانمائة نفس ، إتَّخَذَ جبًّا يلقي فيه النّاس أحياء بعضهم فوق بعض.

ثمّ سافر العساكر برًّا وبحرًا وأخذ أهل طرابلس مركبين لأهل تونس ذهبوا فيهما لبلدهم.

فتنة الداي محمّد طاطار:

وخرجت محلّة إبن شكر لخلاص مال الجريد مع فرحات.

ورجع إبن شكر من الكاف بعد توديع عساكر الجزائر ، فقصد ناحية القيروان ، فعامل أهلها بالظلم ، وأخذ الأموال ، وحَمَّلَهُم في ذلك ما لا طاقة لهم به ، وأرسل القائد أبا راوي[420] لسوسة ووطنها ، وكان على قَدَمِ طاطار وابن شكر ، فَمَدَّ يده لنهب أرزاقهم فضجّوا وخرجوا عن طاعة إبن شكر ، وغَلَّقوا الأبواب ، وأرسلوا إلى محمّد باي ، وكان إذ ذاك بالصّحراء ، كما قام أهل القيروان على ابن شُكْر ، فخرج منها فارًا بنفسه وخرجوا عن طاعته وغَلَّقُوا أبوابهم دونه ، وأرسلوا البشائر لمحمّد باي يستقدمونه.

---

414) في الأصول : «الصلاة».

415) ما بين القوسين ساقط من ط.

416) في 24 منه / 12 نوفمبر 1694 م.

417) لأنّه غير صالح ، ومدّة ولايته 13 يومًا.

418) 26 نوفمبر 1694 م.

419) وهي مدّة ولايته.

420) في الحلل : «بوراوي» 575/2.

هذا وطاطار لم يزل في غيّهِ فأبَاح للنَّصارى هدم مسجد كان أنشأه علي رايس داي قرب القصبة ، فكان النَّصارى يَتَقَرَّبُونَ بهدمه.

فلمّا بلغ البشير لمحمّد باي أسرج وألوى عنانه نحو البلاد ، فلمّا قرب من قفصة بلغ خبره إبن شكر وكان محاصرًا / للقيروان ، فاستنفر جنوده[421] لتلقي محمّد باي فالتقى [74/ب] الجمعان بمرق اللّيل قرب وسلات ، فانهزم إبن شُكْر في ستة من رمضان سنة ست ومائة وألف[422] ، فاستولى محمّد باي على جميع مخلفات[423] إبن شُكْر ، ثمّ نادى بالأمان على من سلم من العسكر ، ثمّ تَقَدَّم للقيروان ، وأرسل خزناداره رجبا إلى تونس ومعه جريدة خيل فدخلها ليلا ، فلمّا سمع به النَّاس قبلوه بالتِّرحاب ورأوا كأنّه[424] قد نزل من السَّماء لِمَا لاقوا من إبن شكر وطاطار وبقيّة رجاله.

وأعلن النَّاس بالطَّاعة لمحمّد باي ونبذوا طاطار فوقعت مقاتلة ، ثمّ إنّ قوم طاطار أدخلوا من وجدوه من العسكر معهم للقصبة[425] كَرْهًا وغَلَّقُوا أبوابها ، ودخل محمّد باي من الغد لتونس ، ورَتَّب عسكره في كلّ ناحية محاصرًا للقصبة ، ومَتْرَسوا ببراميل التُّراب ، وأقاموا بها ليلاً ونهارًا ، وولي يعقوب[426] دايا فبايعه العسكر في إثني عشر من رمضان[427] بدار الباشا ، فَلَمَّا لم تغن المتاريس في حصار القصبة حاربها بالألغام فلم يَتَّفِق الفتح.

في القعدة أرسل محمّد باي لحضرة الجزائر العُلَمَاء والصُّلَحَاء كسيدي علي عَزُّوز – رحمه الله – وأضرابه – نفعنا الله بهم – صُحْبَةَ أعيان العسكر وخوجة ديوان الوقت محمّد خوجة ، فركِبُوا البحر ووصلوا الجزائر فراودوا شعبان خوجة على الصُّلح فامتنع وعمل على إرسال نجدة لطاطار ، وردّ الشُفَعَاء غير مُشْفِعِين ، فأقلعوا في البحر من ليلتهم

---

421) في ط : «جنده».

422) 20 أفريل 1695 وفي الحلل : 578/2 : «يوم السبت 8 رمضان 1106» ، وفي الإتحاف 66/2 : «يوم السّبت ثالث رمضان».

423) في الأصول : «مخلفاة».

424) في ش : «أنه نزل».

425) في ش : «أدخلوا معهم من وجدوه من العساكر كرهًا للقصبة» ، وفي ط : «أدخلوا معهم من العسكر للقصبة».

426) بعد أن قتل محمّد باي طاطار شرّ قتلة أنظر ذيل بشائر أهل الإيمان 105.

427) 26 أفريل 1695 م.

فعاصفهم[428] الرِّيح فرجعوا على خوف من شعبان خوجة فكان / من قدر الله تعالى أن [75/أ] رفض عسكره طاعته ، فَقُتِلَ[429] وولّوا غيره فدخل عليه الشُّفَعَاء في طلب الصّلح فقبل شَفَاعَتَهم ، وطاطار متماد على الحصار ويعد قومه بالنّصر والنَّجدة من[430] الجزائر ، ففي غرّة حجة من السّنة المذكورة قام عليه من معه وَفُتِحَتْ القصبة ، وخرج طاطار فدخل زاوية سيدي أحمد بن عروس فصدم العسكر الزَّاوية ، وضُرِبَ بالرَّصاص وقُطِعَ رأسه ولم يدفع الله عنه ما حلّ به لأنّه كان إنتهك حُرْمَةَ الشَّيخ بإخراج المُحْتَجِبين[431] بضريحه جزاء وفاقا ، وكانت مُدَّة المحاصرة شهرين ونصف ، فمُدَّته سبعة أشهر.

عود إلى أخبار محمّد باي :

وَجُدِّدَت البيعة لمحمد باي يوم فتح القصبة ، ثم خرج محمد باي بالمَحَلَّةِ الصيفية فعصى عليه جبل عمدون[432] ، فجَهَّز لهم عسكرًا ثانيًا ودخل جبالهم وقطع أشجارهم ومهَّد الطُرقَ للسَّالكين إلى أن طوَّعهم ، ثم جاء[433] شفعاء الجزائر مسرورون[434] ، ثمّ لمّا رآى في يعقوب داي غلبة السِّنِ والعجز عقد ديوانًا لتولية الحاج محمّد خوجة الّذي كان مع الشُّفَعَاء فقبلوه على رضى من عامّة النَّاس في ستّ من ربيع أوّل سنة سبع ومائة وألف[435] ، وفوَّضَ له أحكام المدينة أتمّ تفويض.

ثمّ ظهر الخلاف من جبال مَطْمَاطة فَجَهَّز لها عسكرًا في البحر ، وسار هو في البرّ فأتاهم من حيث[436] لم يحتسبوا ، فقاتلهم وقتل مفسدهم وقاومهم حتّى أطاعوا[437]

---

428) في ش : «فعاسفهم» ، وفي الحلل : «فركبوا البحر وبلغوا الجزائر وراودوا شعبان خوجة على الصّلح...» ، 579/2.

429) في ط : «فقتلوه».

430) ساقطة من ش.

431) في ش : «غير واضحة».

432) وخمير.

433) في ش : «جات» ، وفي ت : «جاءت».

434) في الأصول : «مسرورين».

435) 15 أكتوبر 1695 م.

436) ساقطة من ش وت.

437) في ش : «طاعوا».

وأعطوا مجابيهم على جاري العوائد ، وكَرَّ على الجريد فأخذ من القادر وصفح[438] عن العاجز / وفي محرَّم سنة ثمان ومائة وألف[439] جَهَّز محلَّته الصَّيفية وجبى المجابي ، وأقام بباجة أيَّامًا فأخذه مبادي المرض الّذي مات منه ، فرحل منها ودخل تونس في ستّة وعشرين من صفر من السَّنة المذكورة[440] ، فكانت وفاته ليلة الإثنين سابع عشر ربيع أول سنة ثمان ومائة وألف ، ودُفِنَ بتربة آبائه. [75/ب]

رمضان باي :

وتولَّى أخوه رمضان باي إبن مراد باي في ثمانية عشر من ربيع أوّل من سنة ثمان ومائة وألف[441] ، فأبقى عُمَّال أخيه على طبقاتهم في مراتبهم ، وكان ممن بقي من رجال إبن شُكْر فرحات ، فجمع رمضان باي عظماء دولته واستشارهم في وجه الحيلة في تحصيله ، فجهَّز محلّته الشتوية ، ورحل يَجُرّ على ساحل سوسة وصفاقس.

وفي وجهته نقم على الشَّيخ محمّد شيخ جربة[442] وقتله قصاصًا ، وتَوَجَّه نحو الجريد ، فلمّا سمع به فرحات كاتبه يهنيه ، فَرَدَّ له جوابًا مُفْرِحًا مُمَوّهًا إنخدع له فأرسل أخاه القائد مراد [لرمضان][443] باي ، فقبله وأقبل عليه ورَدَّه بهدايا مُتْحِفَة ، ولم يدر أنّ السُّمَّ في العسل فظنّ فرحات أنّ الخيالات فرحات[444] ، فاستشار يوسف بن حسن في حركته فنهاه عن السَّير لرمضان باي وقال له : من الرَّأي أن نرسل إبني وإبنك له يقيمان عنده سنة كاملة حتّى نرى ما في ضَمَائِرِه فنكون على بَيِّنَة من أمره ، فألقى كلامه وراء ظهره لمّا حان حِمَامُه ، فركب في محفل عظيم حتّى قدم توزر في نحو ثلاثمائة نَفَرٌ أو يزيدون فأكرم رمضان / باي نُزْلَهم ، فاطمأنّ وبات فرحات وجماعته في محل فصدهم محمّد بن مصطفى ورجب خزنادار ومعهما جماعة بأسلحتهم وأغلقوا جميع أبواب البيوت [76/أ]

---

438) في الأصول : «أصفح».

439) أوت 1696 م.

440) 25 سبتمبر 1696 م.

441) 15 أكتوبر 1696 م.

442) في الحلل : «وسجنه ثم قتله» ، 590/2.

443) إضافة من الحلل 591/2.

444) جمع فرحة والتي قبلها إسم شخص.

على من كان فيها ، ثمّ صاروا يُخْرِجُونَهم واحدًا بعد واحد للقتل حتّى استأصلوهم وقطعوا رؤوسهم وطافوا بهم في تونس.

وفي محرّم سنة تسع ومائة وألف[445] ، رحل بمحلّته الصَّيفيّة ، ودخل بها جبل خمير فأذعنوا وأطاعوا.

وفي شوّال من تلك السّنة[446] زرع مزهود الفتنة[447] بين رمضان باي وبين مراد إبن أخيه علي باي بن مراد باي وذلك أنّ مراد كان ذا شهامة وقوّة بطش من صغره ، وكان مزهود شديد الوصلة برمضان باي ، فثقل ذلك على قلب مراد باي ، فانتبه مزهود لذلك فسعى في التّضييق على مراد باي فوضعه رمضان باي في مكان خاص به وجعل عليه العسس ، وكان مزهود وجد لذلك راحة وفُسْحَة ، فانفتحت له أبواب التَّصَرُّفات[448] حتّى مدَّ يده بالجور لبعض العلماء كالشَّيخ أبي عبد الله محمّد بن محمّد ابن ابراهيم[449] فتاتة شيخ الشَّيخ أبي عبد الله محمّد زيتونة ، فمنعه من التَّحْدِيث بجامع الزّيتونة ، ثم منعه حتّى الخروج من داره ، ثمّ سعى في قتله.

وفي سنة عشرة ومائة وألف[450] ، كانت وفاة الشَّيخ أبي الغيث البكري إمام جامع الزّيتونة وخطيبه ومحدّثه المتّصل النّسب بعثمان بن عفان[451] – رضي الله تعالى عنه – خليفة رسول الله ﷺ ليلة الخميس ثانية عشرة ربيع أوّل.

ثمّ إنّ رمضان باي لمّا جَهَّز / محلّته الصّيفية حمل مراد إبن أخيه معه تحت نظره ، [76/ب] فلمّا رجع ألزمه عدم الخروج من بيته ونصب عليه العَسَس ، وألقاه في زوايا الإهمال ، فتواعد مع مملوكه علي الصُّوفي أن يحضر له فرسا خارج السُّور وينزل له في السَّاعة الخامسة من الغروب ، وفكّ شباكًا من البيت الّذي هو فيهْ ونزل خفية من حيث لا يشعر به أحد ، فلمّا رَقَى السُّور صاح به العسس وعرفوه فجدّوا في طلبه ، فدخل حريم عمّه فَرُدَّ إلى موضعه ، وجُدِّدَ عليه عسس أحفظ من الأوّل ، ثمّ استشار رمضان باي في شأنه ،

445) جويلية – أوت 1697 م.

446) أفريل – ماي 1698 م.

447) في الحلل : «الوحشة» 598/2.

448) في ش : «التصرفاة».

449) في الأصول : «محمد بن حمودة».

450) ليلة الخميس 12 ربيع الأوّل كما سيذكر / 18 سبتمبر 1698 م ، وفي الأصول : «في سنة إحدى عشر ومائة وألف» والتّصويب من الحلل 610/2.

451) والبكري نسبة إلى الشّيخ أبي بكر دفين المنيهلة من غابة تونس كما ذكره السنوسي في مسامرات الظريف.

فمن مشير بقتله ، ومن مشير بسجن مؤبّد إلى أن إتّفقوا على تكحيل عينيه بالنّار بحيث لا ينقطع نسله ولا يطمع في الملك ، فَفُعِل به ذلك.

ثمّ انهمك رمضان في لذّاته حتّى إنقطع عن النّاس في لهوه بالشهور ، وانقطعت شكوى المظلوم ، يسهر ليله وينام نهاره ، فأشفت دولته على الهلاك ، واستقلّ مزهود بالأمور.

ولمّا جهّز رمضان محلّته الشّتويّة حمل معه إبن أخيه ، ثم وضعه بحصار سوسة ، ووضع معه مملوكًا إسمه سليمان البيّاس ليرقبه ، ثم سار نحو صفاقس فأقام بها أيّامًا ثمّ لقابس.

ثمّ إن مراد باي برئت عيناه على سلامة في نظره ومادة[452] نازلة من جفنه يكفها بمُجَفّف[453].

فلمّا اطمأنّت به الدّار عمل على الحيلة في خروجه ، فأطْلَع بعض خُدّامه على مراده ، فعَمَلُوا على قتل سليمان البيّاس فقتلوه ثم نقبوا الحصار وأخرجوه ، وكان هناك فرس فعقلوه كالبعير ، وأخرجوه من النّقب ، فوقعوا / في خندق الحصار ، فما زالوا طول ليلتهم [77/أ] يسعون في الخلاص إلى أن خلصوا ، وكانت له محفظة[454] محتوية على آلة[455] التّجفيف لما ينحدر من مادّة عينيه من مقص وحمص وخِرَقٍ وغير ذلك ، فلمّا خرجوا سقطت وهم لا يشعرون ، فلمّا انفصلوا تفقّدها عند جموم المادة وأظلمت عليه الدّنيا[456] وخاف الفضيحة واجتماع المادة ، فإذا برجل يركض خلفهم فخافوه فإذا هو صديقهم ومعه المحفظة ، فقوي جأشه وثبت عزمه وقوي حزمه فتوجّه للقيروان في أربعة أنفار ، ثم صعد جبل وسلات فقبلوه ومالت إليه أنفسهم وعاهدوه لإهمال عَمِّهِ المملكة ظنًّا منهم أنّه أصلح من عمّه ، فلمّا بلغ الخبر لعمّه أمر أهل وسلات باعتقاله فأبوا إلّا القيام بدعوته ، فلمّا أيس منهم رجع إلى تونس وتجهّز لجبل وسلات ، فانحاز أكثر النّاس

---

452) في ش : «مدت».

453) في ش : «يجفف» ، ونقرأ في الحلل : «فبينما هو في رحلته إذ تخلّص مراد باي من وحلته وكان في الحقيقة ما ضرّ الإكتحال بالنّار من عينيه شيئًا ، وإنّما وقع الإضرار في أهداب عينيه فقط ، ونشأت عنه دمعة يكفّفها» 634/2.

454) في ت : «محفة».

455) في ت : «آلات».

456) ساقطة من ط.

لابن أخيه ولم يبق مع رمضان باي إلّا ما قَلَّ من النَّاس ، ففرّ لسوسة لقصد ركوب البحر ومعه مزهود ، فتبعه القوم وصاحوا بمزهود فتمسَّك ببرنس سيّده رمضان باي ، فخلع رمضان البرنس وتخلَّى عنه في يده وهمز فرسه وخَلَّفَه في أيديهم ، فحملوه لمراد باي على أشرّ الحالات في ثمان من رمضان سنة عشر ومائة وألف(457).

ثمّ نزل مراد باي للقيروان وبايعوه بها وبعث لسوسة أمرًا بقتل عمّه فوجدوه بزاوية سيدي أبي راوي – نفعنا الله به – فخنقوه بالقلعة وقطعوا رأسه ودفنوه بها ، فأمر بنبشه وإخراج رأسه / والبعث به لتونس ليطاف به في(458) الأسواق ، فكانت مدّة رمضان باي [77/ب] ثلاثين شهرًا.

مراد باي بن علي:

وبايع(459) النَّاس مراد باي ، فعزل محمّد خوجة الدّاي ، وَوَلَّى محمّد(460) آغة الصبايحية دايا فبايعه النَّاس ، ولمّا دخل مراد تونس بايعه النَّاس بها بيعة(461) عامّة يوم الإثنين وسنّه ثمان عشرة سنة.

وكان مراد في بداية أمره يظهر الشّكوى للنّاس من عينيه ويبدي لوائح العدل والإنصاف ، فصَدَّقه النَّاس ولاموا عمّه وهم لا يعلمون ما انطوى عليه باطنه ، فلمّا تَمَكَّن تصرّف بعنف وقساوة قلب وعسف ، فسفك الدِّمَاء بغير حقّ ، وكان يوقف الرجل ويُقَطِّعُه قطعًا بيده حتّى يفرغ من لحمه فيدخل يده في جوفه وأمعائه ، ويَتَصَرَّف فيها تصرّف الجزّار في الشَّاة ، وانهمك في خموره وجاهر بمعاصيه ، ولم يفارق السِّلاح ليلاً ولا نهارًا ، وكلّ من معه كذلك ، فصار ذكره مُفْزِعًا للأسماع مَسهِلاً للأمعاء ، وكل يوم تزداد القلوب منه رعبًا بظهور أمور لم تعهد.

---

457) 11 مارس 1699 م ، وفي الأصول : «سنة إحدى عشرة ومائة وألف» والتّصويب من الحلل السّندسيّة 636/2.

458) في ش وت : «على».

459) في ش : «وبلغ».

460) دالي محمّد آغة صبايحية الترك ، وكانت ولايته يوم الأحد 23 رمضان 1110 / 25 مارس 1699 م.

461) في اليوم الموالي لتولية دالي محمّد دايا.

ثمّ جمع أكابر دولة عمّه ومن جملتهم مزهود فكَحَّل أعينهم بالنار كما تسبّبوا له في ذلك ، ثمّ فقأ أعينهم وعَذَّبَهم بما لم يعذّب به أحد ، وقَبْلَ العمي[462] ألزمهم أن يلعبوا برأس عمّه بأن يتلقّفوه بين أيديهم ، وألزمهم سَبَّهُ بجميع أنواع الفحش ، وألزمهم يُغَنُّون كما كانوا يُغَنُّون لعمّه ، وهو يقطع لحومهم بيده ويعبث بذلك ، ثمّ نكَّل بهم وثَقَّلَهم بالأغلال ، فلمّا كانت ليلة العيد قطع رؤوسهم وأمر رجاله أن يقفوا / على أهل كلّ رأس ليعطوا البشارة على موت أعداء سَيِّدهم مراد باي ولا ينفصلوا إلّا بجائزة لها بال ، ويفعلون ذلك بالأسواق ، فجمعوا أموالاً عظيمة. [78/أ]

وليلة ثالث العيد أظهر من القتل والخمور والفواحش ما عظم على البلاد أَمْرُه ، ثمّ إنّ الحقوق ضاعت لخوف الخلق من الوقوف بين يديه ، وتمادى على قبيح أفعاله وهو ينتقل من غار الملح لبنزرت إلى غير ذلك ، ويقتل الخلق ذبحًا ورميًا بالرَّصَاص وغير ذلك ، ثم ظفر بالأستاذ مفتي المالكية أبي عبد الله محمد العَوَاني القيرواني[463] فقتله وأكل من لحمه مشويًّا وأطعم خاصّته منه[464] ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون وكان ذلك في الكتاب مسطورًا.

وضَيَّق الأمر على العباد وتعطّلت الأحكام الشرعيّة والأسباب ، فهلكت البلاد ، ثمّ توجّه لسوسة فأمر بإحضار كثير من الحطب فأوقد نارًا ، وأخرج عَمَّه من قبره وألقاه فيه ، وباتت النَّار يحطّم بعضها بعضًا ومن الغد أمر بجمع رماد عمّه ووضعه في مركب وألقاه في وسط اليمّ كي لا يعرف له قبر[465].

وأرسل إلى الجزائر بهديّة فردّوها عليه وأظهروا له العداوة لما بلغهم من قبائح أفعاله الّتي تُذْهل العقول ، فلمّا بلغه ذلك شرع في تجهيز محلّته الصّيفيّة واجتمعت عليه جموع لا نهاية لها ، فدخل باجة ونقم على أهلها ففروا منه ، فردّ العقوبة على ما وجد من دوابهم بجعلها هدفًا للرّصاص حتّى أفناها.

ثمّ توجّه نحو الجريد / على طريق القيروان فخافوا شَرّه لما بلغهم من جوره وما فعل بباجة ، وتشوّشت بواطنهم لما يعلمون من عسفه فأعلنوا بالخروج عن طاعته ، فلمّا نزل [78/ب]

---

462) في الأصول : «العماء».

463) وهو شريف النّسب ، وعائلة العواني من كرائم العائلات بالقيروان ومن أقدمها والمترجم ولاّه رمضان باي الفتيا بتونس.

464) الحلل 641/2.

465) الحلل 644/2.

بهم أغلقوا الأبواب دونه فقاتلهم حتّى كاد يفنيهم فاستأمنوه ، فأظهر الأمن ثم نقض العهد ومسك منهم الشّيخ الإمام خطيب الجامع الأعظم أبا العباس أحمد بن إبراهيم الرَمّاح ، والشيخ أبا الحسن علي بن أحمد الغرياني ، وحملهم أموالاً عظيمة.

ثمّ استمرّ للجريد ورجع لتونس ، وعقد ديوانًا على السّفر للجزائر فامتثلوا أمره فأمر بتجهيز آلات الحرب وما يحتاجه من العساكر(466) ، وتَوَجَّه بذلك نحو قسنطينة ونزل بها ، فخرج له أهلها وبايُهَا علي خوجه بمحلّته واستنفر من حولها فجاء بجيش عظيم ، فلمّا التقى الجمعان وقعت الهزيمة عَلَى عَلِي خوجة سنة إثنتي عشرة ومائة وألف(467) . وقتل من كان معه(468) ، فأقام مراد باي على قسنطينة وحاصرها(469) ، ثم أرسل لهم الأمان فلم يقبلوا لما يعلمون من عسفه وشِدَّة بطشه ونقمته ، فاحتوى على القلعة الّتي بخارج البلد فنهبها وقتل جميع من بها ، وأخذ منها ستّة مدافع نحاس فبعث بها إلى تونس ، ثمّ هَدَّمَ القلعة ، ثم أرسل إلى خليل ، باي طرابلس(470) ، مستنجدًا به ، فقدم عليه واجتمع معه على قسنطينة ، فأكرم نزله وأعطاه فوق ما كان يؤمل ، وأحاطوا بالبلد من جميع جهاته ، وطالت محاصرتهم له ، إلى أن رفعوا عرض حالهم لعساكر الجزائر فتأهّبوا للخروج لدفع مراد باي / وجموعه عن قسنطينة وعزلوا الداي الذي كان سامعًا ولم يدفع الضّرر [79/أ] عن رعيّته وولّوا دايا غيره ، ولم يزل مراد عَلَى المحاصرة والمقاتلة إلى أن سمع بقدوم عساكر الجزائر ، فتلقَّاهم بعد محاصرة قسنطينة خمسة أشهر فسار ثلاثة أيَّام متوالية من الزروق(471) إلى الغروب ، فأتعب عسكره وانقطعوا ضجرًا من السير ومع ما هم عليه ألزمهم المقاتلة رابع يوم ، فأشار عليه بعض نصحائه بالإمهال لتحصيل راحة النَّاس فلم يقبل ، ورآى ذلك جُبْنًا ، فلمّا التقى الجمعان بالحجار الحمر كانت الهزيمة أوّلاً على

466) مع الرّغبة في أخذ ثأر والده الذي قتل في مؤامرة شارك فيها الجزائريون ، راجع : Charles Feraud, *Annales tripolitaines*, p. 188

467) 1700 – 1701 م.

468) أي مع علي خوجة.

469) عن حصاره لقسنطينة راجع تاريخ حاضرة قسنطينة للحاج أحمد المبارك ص 12 ، التذكار لابن غلبون (ط. 1) ص 152.

470) هو قائد جيش طرابلس لا بايها بعد أن وافقه على ذلك محمّد الإمام داي والد زوجته. راجع عن هذه الأحداث : حوليات ليبية 1/317 – 318.

471) كلمة عامية يقصد بها طلوع الشمس.

عساكر الجزائر ففزع خليل ، باي طرابلس ، ففرّ بمن معه ، فانثلم عسكر مراد باي ، فظن النّاس أنّ مراد باي فرّ مع خليل باي وتبع الخيول بعضها ، وبقيت رجالة العسكر وحدها ، فعظم الأمر في الإزدحام ، ولم يبق الّا ضرب السّيوف فانهزمت عساكر مراد باي في تسعة عشر من ربيع الثّاني سنة إثنتي عشرة ومائة وألف[472] ، فرجع مراد باي لتونس وظنّ أنّ أهل الجزائر يتبعونه ، فاستنفر أهل الكاف بأهاليهم فأدخلهم تونس ، وكذا فعل بتبرسق وتستور[473] وما حولها بلدًا بلدًا ، وأخذ يتأهّب للقائهم ، فلم تتبعه عساكر الجزائر ، ولكن قطعوا رؤوس من كان معه من الزواوة[474] وغيرهم من العرب[475] ، وردّوا عسكر مراد حفاة عراة بعد أن ألزموهم بجر المدافع السّتّة والعشرين الّتي استصحبها مراد باي عند خروجه من تونس عوض الخيل إلى أن وصلوا بها إلى قسنطينة على ظهورهم /. [79/ب]

ولمّا ورد عسكر مراد باي من قسنطينة وَفَّاهم مرتبهم وانتخب منهم خمسمائة نفر وكساهم كسوة عظيمة وبذل لهم من الإحسان فوق الحصر بحيث يأخذ قفة مملوؤة بأكياس الأموال ويُخْرِج يده من طاق الصِّراية ويضرب الكيس بالسّيف فينتشر ما فيه من الأموال ، فَيَتَخَطَّفها الرّجال وهو يضحك ، ثمّ كيسًا آخر وآخر فاستجلب بذلك وِدَّهم ، وكان يأتيه الجندي بحمامة أو أرنب فيجازيه بما يكفيه مؤونة سنة ، فَصَحَّحَ خَيْلَهُ ورجاله وحصّن أبوابه وانتظر من يأتيه من عساكر الجزائر فلم يأته أحد ، فلمّا تَحَقّق رجوعهم لوطنهم أخذ يتحدث في الرجوع إليهم.

وفي تلك الأيّام أرسل خليل باي إلى القيروان فَتَمَّمَ سبيها وهتك حرمها ، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون ، وأخرج من بقي بها من الرّجال فجمعهم بذراع التّمّار فاستأصل رقابهم ، ورجع جند طرابلس ومعهم أبناء المسلمين من القيروان وبناتهم ، وأمر مراد باي بهدم القيروان لتُجْعَل محترثًا عدا المساجد والزّوايا.

ثمّ جهّز ثلاثة مراكب ليأتوه بالعسكر من برّ الترك وأَمَّرَ عليهم إبراهيم الشّريف وكان آغة صبايحية الترك ، فاتفق أن كان هناك مراكب الجزائر فالتقى الجمعان بالحضرة

472) كذا بالحلل الّتي ينقل عنها المؤلّف 649/2 ، الموافق 2 أكتوبر 1700 وفي الإتحاف السّابع عشر منه 75/2 – 76 والتّحريف كثير بين سبعة وتسعة ، وصاحب الإتحاف يعتمد على الحلل السّندسيّة في أخبار الدّولة المراديّة.

473) في ش : «تاستور».

474) كذا في ب وط وت ، وفي ش : «الزواودة» ، وفي الحلل : «الزواويين» 649/2.

475) في الحلل : «ومن انضاف إليهم من جنس العرب».

الخاقانية ، وعرض كلّ من الفريقين أحوالهم واشتكوا من الآخرين فخرج التّوقيع على إيجاب الصُّلح بينهم ، فافترقوا على ذلك ، فلمّا قدموا عليه بذلك أبى قبوله وقويت عزيمته على تحريك الفتنة معهم وأنّه يقصدهم.

وفيها عَزَل دالي محمّد الداي / وَوَلّى عوضه قهواجي محمّد(476) ، وانفرد مراد بالأمر والنّهي في البلاد. [80/أ]

وفيها أمر أن لا يدخل عليه أحد من النّاس مطلقًا إلّا بعد نزع برنسه ومسك إثنين له من اليمين والشّمال ، وكان يُرْسِل خلف العلماء وأرباب المناصب ويسألهم عن سيرته فمن ساعده وزَيَّنَ له عمله وحَسَّن له قبايحه سقاه طوعًا أو كرهًا شيئًا من المُنْكِرات ، ومن أنكر وثبت على قَدَمِ الحقّ والصّدق هدّده بالموت.

ومن جملة عتوّه أنّه جهّز محلّته الصَّيفيّة أوائل محرّم سنة أربع ومائة وألف(477) ، فلمّا خرج بالمحلّة المذكورة وقع نظره على الشّيخ محمّد شيشار رئيس المُؤَذّنين بجامع جدّه حَمُّودة باشا فقال له : ألست عسكريًّا؟ ما لي أراك بغير سلاح في مثل هذا الموكب؟ وأمر خدمته بوثاقهِ ثمّ أرسل به من الغد إلى الدّيوان فجلده ثلاثمائة سوط وردّه للسجن مع كبر سنّه وعجزه عن حمل السِّلاح ، ثمّ أرسل لجميع المؤذّنين بجوامع الحنفية المعدودين من جملة العسكر فسجنهم وبعث بهم إلى الديوان ، وأوصل كلّ واحد منهم خمسمائة سوط ، ثمّ أرسل لهم طبيبًا يختبرهم فمن وجده لم يؤثّر فيه الضرب أعاده عليه فتفَطَّرت من ذلك الأكباد ، وضَجَّت العباد ، واقشعرّت البلاد ، وَرَبُّكَ بالمرصاد.

فاتّفق أنّه مكر بهم يوم السّبت فما أتى السّبت الّذي يليه إلّا ورأسه على رمح يطاف به في الأسواق ، وسبب ذلك أنّه لمّا خرج بتلك المَحَلَّة ، توجّه لنحو باجة مصرًّا على الإرتحال للجزائر / ولم يرتض ذلك أحدٌ من العسكر ، فلمّا نزل وادي الزُّقَّاق جدّد ذكر عزمه للجزائر ، وبيت تلك اللّيلة على الرِّحلة ، وركب من الغد في كرّوصته وسار على عادته إلى أن بلغ وادي الزّرقاء(478) ويسمّى وادي البَوْل هجم عليه إبراهيم الشّريف الّذي كان وجّهه لجلب العساكر من برّ الترك فرماه ببندقية(479) زنتها أربعة وعشرون [80/ب]

476) في ط وب : «محمّد الدّاي».

477) أواخر ماي 1702 م.

478) في الأصول : «الزرقة» ، والتّصويب من الحلل 673/2.

479) في الأصول : «بندقة».

درهمًا مع كثير من الحب الصّغير ، فنزل بحرارة الضّرب إلى الأرض وضرب إبراهيم الشّريف بحبة رصاص أصابت فخذه فلم تؤذه ، ونزل رفقاء إبراهيم الشّريف عن خيولهم وقطعوا رأس مراد[480] باي بالسّيف وأرسلوا خيلاً إثر حسين[481] ومراد ولدي محمد باي فقطعوا رأسيهما في الحال وأرسلوا رؤوس الثلاثة إلى تونس ، وكان بها من ذرّية مراد باي واحد من البله إسمه حمّودة بن [حسين][482] بن مراد قطعوا أيضًا رأسه ، ولحمّودة ولد صغير عمره أربع سنين فقطعوا رأسه أيضًا ، ووضعوا الرؤوس الخمسة ببطحاء القصبة.

وممّا شاع أنّ ولاية بني مراد كانت على قدر ولاية بني أمية ألف شهر تقريبًا ، ويقولون أوّلها مراد وآخرها مراد فكان كذلك[483].

إبراهيم الشّريف :

وتولّى بعده إبراهيم الشّريف يوم السّبت ثالث عشر محرّم فاتح سنة أربع عشرة ومائة وألف[484] ، فسار أولاً سيرة حسنة وأبقى ذوي المراتب على مراتبهم إلّا قاسم بن أحمد فإنّه عذّبه بالسّجن / حتّى أيس من خلاصه فشرب مقتلاً[485] ومات في سجنه واستمرّ [81/أ] إبراهيم الشّريف ، فسافر لباجة وجبى مجابيه على جاري العادة ، وأرسل لتونس بعزل الدّاي محمد قهواجي ، ووَلّى عوضه قاره مصطفى دايا يوم الثّلاثاء ثاني عشر صفر سنة أربع عشرة ومائة وألف[486] ، وجعل آغة القصبة كاتبه محمّد الأزعر[487] ، ثمّ رجع من سفره ونزل بدار الباي من تونس.

---

480) مراد باي هذا يعرف بمراد أبي بالة لسيف له سمّاه بذلك ، وإذا مرّ ولم يقتل أحدًا يقول : «إنّ البالة قد جاعت» ويخرج بها فيقتل من صادفه.

481) في الأصول : «حسن».

482) ساقطة من ش.

483) أنظر تفصيلها وتحليلها في الحلل السّندسيّة 2/673 – 674.

484) 9 جوان 1702 م.

485) أي زعفرانًا.

486) 8 جويليه 1702 م ، وبعدها في ط : «وأنّ هذا المرحوم المنعّم برحمة الحيّ القيّوم إبراهيم الشريف أبطل جميع القضاة الملتزمين بعمالة تونس حسبما هو مبيّن بأمره مضمونه بعد الخطاب إلى قائد صفاقس : «السّلام عليكم فالّذي أعرّفكم طبق وصول أمرنا هذا إليك تبقى تبعث للقاضي متاع البلد المذكور يرفع يده وأنّنا أبطلنا جميع القضاة الملتزمين في عمالتنا ولا بقت لزمة على القضاة وحضّر جميع أهل بلد صفاقس ويختارون بأنفسهم رجلاً مليحًا بهم وممّن يصلح أن يكون قاضيًا يقضي بين النّاس فيما لهم وعليهم ويكون ديّنًا ويكتبون له عدالة =

وفي تلك الأيّام ظهر مملوك من مماليك [آل](488) مراد إسمه [علي](488) الصّوفي فشنّ الغارة على المسلمين ، وانضمّ إليه أوباش وطائفة مفسدون ، واستند إلى قلعة سنان ، وتزايد توارد الأخباث عليه ، فبعث إليه إبراهيم الشّريف محمّد بن مصطفى(489) وكان من أعالي خاصّته ففاجأه(490) ليلاً فوجد باب القلعة مغلقًا ، فخلعه وتَسَوَّر عليه داره وهو في فراشه ، فقطع رأسه وأراح العباد من بغيه.

وفي سابع جمادى الآخرة سنة أربع عشرة(491) عَزَل قاره مصطفى بعدما مكث ثلاثة أشهر وأربعة وعشرين يومًا وأرسله إلى المنستير، وصار يكتب أوامره «إبراهيم الشريف باي داي».

ثمّ خرج بمحلّته الشّتائية فنافق عليه جبل عياش(492) قرب قفصة فأخذه ، وعصاه [بعض](493) دريد فسكهم وتَصَرَّف فيهم ، ورجع إلى القيروان(494) وأمر أهلها بالرّجوع إليها.

= بالتّقديم بأنّهم رضوا به بأنّه يكون قاضيًا عليهم ويحكم بين النّاس بالحقّ بما أتت به السّنّة المحمّدية ولا يأخذ من المتحاكمين شيئًا سواء كان مدعي أو مُدَّعَى عليه ولا يأخذ على الوفى ولا على جميع القوانين شيئًا وجعلنا له من عندنا أربعة نواصر في كلّ يوم تبقى تدفع له العدد المذكور ونحن نحاسبك بذلك والذي نسمع به أعطاه شيئًا أو أخذ هو من الناس شيئًا حتى ناصري واحد يقع فيه الحكم الشّديد والسّلام من الفقير إلى ربّه الشّريف إبراهيم [دالي] باي وفّقه الله أواخر رجب سنة أربعة عشر ومائة وألف» وبحوله طابعه وقف عليه كاتبه وابتداؤنا وأن هذا المرحوم المنعّم برحمة الحيّ القيّوم إبراهيم الشريف وجدته في الطّرّة فجعلته في الصّحيفة خوفًا من ضيق الطّرّة الخ.

وهذا النّص موجود في «ب» في غير هذا الموضع وسنشير إليه في الإبّان ، وهو كما ذكر في آخره ، وجد في الطرة ، ربّما بقلم المؤلف ولكن الناسخَين اجتهدا كلّ من جهته فأدمجاه دون أن يوفّقا فبدا وكأنّه حشو.

وخطاب إبراهيم الشّريف هذا ، مع اختلاف يسير في الإملاء معروض بمتحف الفنون والتقاليد الشعبية بصفاقس ومحفوظ تحت رقم 1129 وهو من الوثائق التابعة أصلاً لآل النوري.

487) محمد خوجة الأزعر ، وكان يكتب بين يديه لما كان آغة الصبايحية.

488) إضافة من الحلل 676/2.

489) المعروف بابن فطيمة : «الإتحاف 81/2.

490) في ش و ب : «ففجاه» ، وفي ط : «فجاءه».

491) 29 أكتوبر 1702.

492) في الأصول : «عياشة».

493) إضافة من الحلل للدقّة.

494) كذا في ت ، وفي بقيّة الأصول : «وراجع القيروان».

وضرب سكّة النواصر[495].

[81/ب] وفي ذي الحجّة ظهر أحمد بن سليمان باي[496] قائمًا في البلاد فجمع أهل / الفساد ، فجهّز له إبراهيم الشّريف العساكر وخرج في أربعة من المحرّم سنة خمس عشرة ومائة وألف[497] وقصده نحو السّرس ، فالتقى عسكر من عساكر إبراهيم الشّريف بأحمد بن سليمان فوقعت الهزيمة على جيش إبراهيم الشّريف ، فرحل أحمد بن سليمان نحو إفريقية بقرب جندوبة ، وتبعه إبراهيم الشّريف ، والتقيا في الحادي عشر من محرّم المذكور ، فانهزم أحمد بن سليمان وتَشتّتَ جمعه وكان ينيف على ثلاثين ألف ، ولم يكن مع إبراهيم الشّريف إلّا نحو ثمانية آلاف ، فقصّ آذان القتلى وبعث بها إلى تونس فكانت أزيد من ثلاثمائة زوج ، ثمّ دخل جبال خِميرِ وعَمْدُون بنفسه ، وقطع قطعة من محلّته وأَمَّرَ عليها حسن آغة الصبايحية ، وبعث بها نحو القيروان حَرَسًا من العدوّ ، فبلغ ذلك أحمد بن سليمان فقصدهم فجأة وصدمهم برئيس[498] قومه جلال بن المسعي[499] ، فانتبه له حسن آغة ونصب لهم كمينًا ، فلمّا (وَرَدُوا ماء المنايا ضربوا)[500] جلالاً فسقط عن فرسه فَقُطِعَ رأسه وبُعِثَ إلى تونس ، فاستراح النّاس من بغيه.

وفي سنة ستّ عشرة [ومائة وألف] أتت هدايا لإبراهيم الشّريف من مصر خيول مسوّمة وغيرها ، فدخل الرّكب[501] إلى طرابلس فمد خليل باي[502] يده إليها واغتصبها فكاتبه إبراهيم الشّريف في شأن ذلك فامتنع وأغلظ القول في ردّ الجواب.

وفيها جهّز إبراهيم الشّريف مراكب صغارًا للغزو في سبيل الله ، فغنمت إحداها [82/أ] غنيمة بها / ثلاثون نصرانيًا وعدّة صناديق بها أَمْوَالٍ جزيلة ، فدخلوا طرابلس فأحضرها خليل باي بين يديه واغتصب منها أحد عشر نصرانيًا واحتاط على الأموال بأسرها فلم يُبْقِ

---

495) بعدها في «ب» ، نص خطاب إبراهيم الشّريف إلى قائد صفاقس المشار إليه في صفحة 177 ، هامش 3 ، والمتعلّق بعزل القضاة الملتزمين وتسمية غيرهم.

496) إبن رمضان باي مولى مراد باي الأوّل : الإتحاف : 81/2.

497) 20 ماي 1703 م.

498) في الأصول : «رايس».

499) كذا بالأصول والحلل 683/2 ، وفي الإتحاف 81/2 : «جلال بن مِسْعي الرزْقي».

500) في الأصول : «ووردُوا ضرب» والتّصويب من الحلل 683/2.

501) في الأصول : «المركب» والتّصويب من الحلل.

502) هو خليل الأرنؤوطي الّذي صار حاكم طرابلس.

منها ولم يذر ، واغتصب عدّة صناديف بها آلات حرب[503] وطردهم[504] ، فلمّا علم بذلك إبراهيم الشّريف ورآى تجرّؤ[505] خليل جمع جمُوعه ونصب ديوانًا في شأن تعدي خليل ، فكان إتفاق الدّيوان على المدافعة والذّبّ عن المال[506] ، فتجهّز إبراهيم الشّريف للخروج على طرابلس لمقاتلة خليل باي ، فَقَدِمَ قهواجي عثمان من الجزائر يحرّضه على النّهوض لطرابلس ، وأرسل عساكر الجزائر مَرْكَبَيْن لإبراهيم الشّريف يطلبون منه الميرة لقحط بلادهم تلك السّنة ، فتعلّل إبراهيم الشّريف باشتغاله بالسّفر وعدم حصول الذّخيرة ، وأرسل لهم مائتي قنطار بشماطا ، فلمّا جاءهم ذلك جمعوا ديوانًا وقال حاكمهم : ألا ترون إلى إبراهيم الشّريف يعطي القمح للنّصارى ويمنع المسلمين فما يريد إلّا توهين عساكر الجزائر ليتقوّى عليها ، فخرج إبراهيم الشّريف إلى طرابلس في العشر الأواخر من جمادى الآخرة سنة ستّ عشرة ومائة وألف[507] ، فالتقى الجمعان في إثني عشر من شعبان[508] ، فلم تكن إلّا ساعة وانهزم خليل باي وأُخِذَ منه مدفعين[509] نحاس وثمان رايات وبغلين محملين[510] مالاً ، ومات من قوم خليل أزيد من ألف نفس وأسّر منه مثلها ، وفرّ خليل هاربًا فتبعته خيول إبراهيم / الشّريف فتنكّر ودخل المدينة خائفًا من [82/ب] قومه حيث أوردهم هذه الموارد وما فعل بأهاليهم ، ومكث إبراهيم محاصرًا لهم[511] فضايق بالبلد أشدّ مضايقة فطلبوا العفو وبذلوا المال[512] ، فأبى وامتنع ، فتجدّد الحرب

---

503) في ش : «الحرب».

504) والسبب أن خليل باي بينه وبين مراد باي مَوَدَّة محكمة ، وآسفه ما وقع به من فتكة إبراهيم الشّريف ، فغضب لذلك وناصب العداوة له كلّ ذلك ليثير غضب إبراهيم الشّريف ليكون هو المبتدئ بالحرب. الإتحاف 82/2.

505) في الأصول : «تجري».

506) «هذا وحاكم الجزائر إذ ذاك يُغري خليل باي على تلك التّجرّؤات ويَعِدُه أنّه في نصرته ، وكذلك يغري إبراهيم الشّريف بمثل ذلك ، ومكاتيبه تزرع النصيحة في آذان كلّ من الفريقين بما يثير الفتنة ويوقد نارها ، ويطير بأجنحة الحزم شَرَارُها ، وكان قهواجي عثمان منفيًا بالجزائر بعد أن كان حاكمًا بطرابلس فجَهَّزَه وأرسله إلى إبراهيم الشّريف إغراء في الحركة ، وأرسل إثر ذلك مركبين لإبراهيم الشّريف يطلبهما موسوقين قمحا لأنّهم كانوا في قحط ومجاعة» : الحلل السّندسيّة 696/2 – 697.

507) في 26 منه / 26 أكتوبر 1704 م.

508) من السّنة المذكورة / 10 ديسمبر 1704 م.

509) في الأصول : «مدفع».

510) في الأصول : «بغلان محملان» ، وفي الحلل : «وبغلتين بالمال» 697/2.

511) ساقطة من ش و ط.

512) وذلك بواسطة حسين بن علي كاهية إبراهيم الشّريف : الإتحاف 82/2.

بين الفريقين ولم يزل متماديًا حتّى قام الطّاعون في المحلّة ومات منها خلق كثير وفرّ عنه العرب[513].

وبلغه أن عساكر الجزائر قادمة عليه فثنى عنان فرسه إلى تونس وتأهّب للقائهم، وحصّن حصار الكاف وجدّد بناءه، وحصّن الأسوار وأقام فيها أخاه محمّدًا وعَمَّر الحصار بجميع ما يحتاجه من طعام وآلة حرب، وخرج بمحاله أوّل يوم من محرّم فاتح سنة سبع عشرة ومائة وألف[514].

وكان من نظره أن بنى بالجبل الأخضر المشرف على تونس حصارًا يمنع به مدينة تونس من الضرر الوارد عليها، ثمّ زاد بُرْجَيْن آخرين بذلك الجبل.

ووقع الطّاعون بتونس فبلغ سبعمائة كلّ يوم، فأُحْصِيَ من مات في ستّة أشهر فكان أربعين ألفًا، فما خفّ الطّاعون إلّا وعساكر الجزائر[515] قرب الكاف فزاد إبراهيم الشّريف في تقوية الكاف بالرّجال وبقي بالمرصاد، وعوّل على أنّهم إن التفتوا للكاف فالحصار قوي وهو من خلفهم، وإن تقدموا نحو تونس فهو محيط بهم، وجرّد لذلك جميع من استحسنه من العرب والعَجَم، فلمّا نزلت عساكرهم وبقوا منه رَأْيَ العين فَرَّ أولاد سعيد وتبعهم أمثالهم من العربان[516] ولم يبق معه غير صبايحية الترك / وقليل من [83/أ] العرب[517]، وَفَرَّ صاحب سِرِّهِ محمد بن مصطفى[518] وتبعه[519] دريد وبقوا على حالهم إلى سبعة عشر من ربيع أوّل[520] فنزلوا وادي الرّمل قرب الكاف، وطلبوا من إبراهيم

---

(513) فارتحل عنها أواسط رمضان 1116 / أواسط جانفي 1705، ودخل تونس في أواسط شوّال / أواسط فيفري: الإتحاف 82/2، وعن حملة إبراهيم الشّريف على طرابلس وما صاحبها من أحداث أنظر: التّذكار لابن غلبون (ط. 1) ص 156 – 157، حوليات ليبية 333/1 – 340، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، مكتبة الفرجاني، ليبيا بدون تاريخ، ط. 2، ص 281) وأنظر أيضًا A. Rousseau، *Annales tunisiennes*، دار بوسلامة تونس 86 – 87.

(514) 25 أفريل 1705 م.

(515) وحاكم الجزائر هو عشجي مصطفى بفتح العين وسكون الشين. ومعناها طباخ بالتركية وكان وظيفة من أهمّ وظائف الدّولة التّركية بالجزائر، فكان هو النّاظر على مطابخ دار الدّاي: تعليقات الأستاذ نور الدّين عبد القادر في أواخر كتاب تاريخ حاضرة قسنطينة. وفي الإتحاف 83/2: «عشي»، وهو تحريف ظاهر.

(516) «الذين استباح أموالهم وقتل ذريتهم واستاق إبلهم وخيلهم»: الإتحاف: 83/2.

(517) «الذين آثروا حقّ الوطن على أنفسهم»: الإتحاف 2 / 83.

(518) المعروف بابن فطيمة. نفس المرجع.

(519) في الأصول: «وتبعهم».

(520) سنة 1117 / 8 جويلية 1705 م.

الشّريف [وجهًا للصلح][521] على أن يعطيهم جانبًا من المال له خطر عظيم وألف بعير على شرط أن يقطعوا رؤوس من عندهم ممّن تسبّب في إنشاء الفتنة ويرسلون له رؤوسهم ، ويعطيهم أولاده رهائن حتّى يستوفوا ما طلبوا ، فَصَعُبَ عليه إرسال أولاده وقال : والله لا أفعل هذا ولو قُطِّعْت إربًا إربًا ، فقام خليفته إذ ذاك المرحوم برحمة الله سيدي حسين باي وقال لإبراهيم الشّريف : إذا لم تطب نفسك بإرسال أولادك فأنا أرضى أن أكون بنفسي عِوَضًا عن أولادك رَغْبَةً في إطفاء نار هذه الفتنة حتّى تستوفي لهم ما طلبوا ، وانفصل الفريقان عن هذا الرّأي ، فذهب الرّسل إلى أكابر عساكر الجزائر يخبرونهم بما انفصل عنه المجلس ، وإذا بابراهيم الشّريف أذن لجميع جنده بالرَّحيل لمقاتلة العساكر الجزيرية فسمع الخليفة المذكور ذلك فاستكره ورآه نقضًا للعهد ، فعارضه فلم يقبل لما في سابق[522] قضاء الله وقدره.

[الكامل]

إذا لم يكن عَوْنٌ من الله للْفَتَى   فأوّل ما يجني عَلَيْهِ إجْتِهَادُه

فلمّا رآه مصمّمًا لم يسعه إلّا الإسعاف إذ هو مشير ناصح وليس عليه الإلْجَاءُ فعند ذلك إستدعى آغة صبايحية الترك وأوقفه على مائتين من صبايحيته في طريق معلوم وأمره / [83/ب] بتثبيت قدمه ، وعين غيره من الآغوات في محلّ مخصوص ، وتقدّم ببقيّة العسكر ليأمرهم بالنّزول ، وصعد إبراهيم الشّريف إلى محلّ هناك فأبصر عساكر الجزائر وقد انحدرت كالسُّيول وانتشرت على وجه البسيطة بأنواع المشاة والخيول ، فلمّا رآى إبراهيم الشّريف ذلك كَسَّرَ في درعه ، فلم يكن له من الرّأي إلّا إستدعاء الخليفة للإستشارة وقد بدت بروق الحرب ورعوده ، فقال : لا يسعني أن ألوي عناني في مثل هذا الموقف الصّعب الهائل[523] ، وما بقي إلّا ثبوت الأقدام على المصاف ، فألَحَّ عليه بالإرسال لتزلزل قدمه وذهاب جأشه لما أراد الله من زوال ملكه ، فلما أيس إبراهيم الشّريف منه إستدعى آغوات[524] الصبايحية ممتثلة[525] ولم تنظر في وخامة عاقبة هذه الإجابة ، فلمّا وصلت

---

521) إضافة مستوحاة من الحلل 704/2 ، يقتضيها السّياق.

522) في الأصول : «لما سبق في سابق».

523) في ط : «الحائل».

524) في ط : «استدعى على أغوات».

525) في ط : «تمثله».

خيوله الّتي استدعاها وجدوه في مكان وَعْرٍ لا يمكنهم وصوله فساروا في ظلّ الكهف ، وكلّما استرجعهم الخليفة لم يقبلوا فتفرّقت عساكر إبراهيم الشّريف ، واختلّ(526) المصاف وأخذوا في القهقرى(527) ، فازدحمت الأعراب على إمساك إبراهيم الشّريف إلى أن وقع في شِعَابٍ(528) يعسر الخلاص منها ، فأحاطوا به فأيس من الخلاص ، فقاتل بقدر الطّاقة فكبت به فرسه مرارًا إلى أن مسكوه حيًّا وساروا به لحاكم العساكر الجزائرية ، فانهزم الباقي من عساكره ، فَقُيِّدَ ونصب عليه العسس في ثمانية عشر من ربيع / أوّل سنة سبع عشرة ومائة وألف(529) ، فكانت مدّته ثلاث سنين وشهرين وخمسة أيّام. [84/أ]

ثمّ أخذوا طابعه وأرسلوه إلى أخيه محمّد ببرج الكاف على أنّه يأتي طوعًا أو كرهًا (ويضاف إلى أخيه في قيد واحد)(530) ، وكان بالبرج تسعمائة نفس فثبت البعض على القتال ، وطلب البعض المسالمة ، فلم ينفصلوا عن طائل ، فقام السلاقجي أحمد(531) وكان رئيس القوم إذ ذاك فقال : من الرّأي أن نسيرَ بأنفسنا ونشاهد إبراهيم الشّريف بأعيننا فإن كان محبوسًا عندهم فما لنا إلّا التّسْليم ، وإلّا دافعنا عن أنفسنا ، فسار ورجع عند الغروب ، وأخبرهم بما عاين ، فَسَلَّمُوا(532) محمّد أخا إبراهيم الشّريف لطالبه ، فلمّا وصل وضعوه في الأغلال مع أخيه إبراهيم ، وأخرجوا جماعة العسكر من البرج بغير سلاح ، ونهبوا ما فيه من سلاح وذخيرة طعام تكفيهم سنين متطاولة(533).

---

526) في ش : «اختلت».

527) كذا في ط وب ، وفي ش : «القهقرا».

528) في الأصول : «شعب» ، وفي الحلل 706/2 : «يعسر تخلص المنفرد منها».

529) 10 جويلية 1705 م.

530) في الأصول : «يأتي طوعًا أو كرهًا إلى أخيه» والتّصويب من الحلل السّندسيّة 707/2.

531) في الأصول : «محمد» والتّصويب من الحلل.

532) في الحلل 707/2 : «ونزلوا بمحمد أخي إبراهيم الشّريف بالسّبحة ودلائل الخيرات على وجه الأمان. ولما وصلهم وصلوه بالأغلال مع أخيه إبراهيم الشّريف ولم يكن للعهد والأمان إلّا ما شاهدوه لفظًا» الحلل السّندسيّة 707/2.

533) «ومن المال والأثاث ما يخرج عن الحصر. ونهبوا البلاد والعباد. وأضرّوا بالنّساء والبنين. وتصرّفوا فيهم تصرف من يزدري بالبعث. وليس له عن خبر الوقوف بين يدي أحكم الحاكمين بحث. حتّى أنّ الذي احتمى بزاوية أو بيت من بيوت الله أخرجوه كرهًا وسلبوه. ونهبوه عن الجبن والخذلان ونهبوه ، وخرّبوا الدّور والمساكن وحاكمهم فرح بما يحزنه يوم الفزع الأكبر وكل من سوّد الله وجهه بذلك الغرور وسلم في القلعة ندم حيث لا ينفعه الندم ، وباء بالإدبار وفضيح الأخبار» الحلل السّندسيّة 707/2 – 708.

وانسابت العربان لنهب[534] البلاد والعباد وأضرّوا بالبنين والنّساء ولم يَحْمِ منهم أحدًا مسجد ولا زاوية ، وأخربوا الدّور والمساكن[535] . وتقدّمت العساكر حتّى نزلوا على تونس لتسعة عشرة خلت من جمادى الأولى ، ورحلوا ليلة الأربعاء الثامنة عشر خلت من جمادى الثانية[536] ، وصحبوا معهم إبراهيم الشّريف حيًّا فبقيت البلاد بلا باي ولا داي.

فقام الخليفة المشار إليه مقامه مستمسكًا بحسن عهده / حاكمًا بمقتضى خلافته عن [84/ب] إبراهيم الشّريف منتظرًا قدومه ، وبذل في استخلاصه أموالاً حتّى خلص من سجنه ثمّ استقدمه لحضرة تونس تمسّكًا بالعهد فاكترى مركبًا وتوجّه فيها نحو الحضرة فأدركته منيّته قبل وصوله لتونس.

حسين بن علي وقيام الدّولة الحسينية :

فعند ذلك إجتمع أهل الحلّ والعقد من العلماء وأكابر العسكر بتونس فنصبوا ديوانًا لتولية من يصلح للقيام بأمر الخلق ، فلم يجدوا أصلح من المقام الأرفع والصّدر الهمام الأمنع ذو السّياسة اللّطيفة والمكارم المنيفة سيدي حسين باي بن علي – رحمه الله تعالى – ورحم أسلافه وبارك في عترته وأخلافه فجددوا بيعته[537] وأبقوه على ما هو عليه

---

534) ساقطة من ط .

535) إنتهى نقله من الحلل السّندسيّة 708/2 ، وعن حصار الجزائر لتونس ومقاومة حسين بن علي لها أنظر مثلاً : الحلل السّندسيّة 23/3 – 48 .

536) وحاصروا تونس (العاصمة) مقدار الأربعين يومًا ، فضجروا وعجزوا عن المقاتلة ورحلوا بليل على حين غفلة وساروا على أشر حالة : ذيل بشائر أهل الإيمان ص 108.

537) وقعت بيعة حسين بن علي في 20 ربيع أوّل 1117/ 12 جويلية 1705 م ، الحلل 9/3 وفي ذيل البشائر ص 108 : «لثلاث بقين من شهر ربيع الأوّل».

«تزايد سنة ستّ وثمانين وألف 1086 / 1675 ، قدم والده من بلاد الرّوم وأصله من جزيرة كندية ، كان أبوه قائدًا لزمام العربان توفي سنة 1087 / 1676 ونشأ إبنه حسين في خدمة أمراء إفريقية وباياتها وخدم محمّد باي ومن بعده أخاه رمضان باي ، ومن بعده حفيده مراد باي ثم بعده القائم إبراهيم الشّريف باي...» ذيل البشائر ص 112.

وانظر عن حياته قبل توليته الإتحاف 85/2 – 87 .

من ولايته لما يعلمون من شفقته وعطفه وحسن عهده وسلامة صدره من المكر والحقد والغدر ، ولما جبله الله عليه من اللّين والرفق وحسن التّدبير والسّياسة ، ففرح الخلق عامّة من أهل تونس وأوطانها وعجمها وعَرَبِها وبلدانها بتوليته ، وسُقِطَ في يد أهل الفساد ما كانوا يتمنّون ، وازداد أهل الخير فَرَحًا به لما كانوا منه يرتقبون ، وهو الّذي بشّر به الأولياء والصلحاء ، وارتقب دولته العلماء والفضلاء قبل توليه بل قبل وجوده كالشّيخ المجذوب الصّاحي سيدي عبد السّلام الأسمر الطرابلسي الفيتوري تلميذ سيدي أحمد زرّوق وسيدي عبد الواحد / الدّكالي وكان من أهل القرن العاشر فإنّه بشّر به وبعترته قبل وجوده [85/أ] وأنه صاحب تونس ، وأنه به تعمر ، وهو الّذي يسعد الله به البلاد والعباد ، فوقع كما قال ونصّه : «وأمّا تونس فمن حين يموت سبطها المسمّى باسم ولد فاطمة وعترته لا خير فيها ، آه آه ، آه على أهل إفريقية بعد السبط حسين ، ولا يأت أمير أحسن منه إلى انقراض الدّنيا» ونوّه بذكره في مواضع كثيرة من وصيّته، كما نوّه كثيرًا بذكر أحمد باشا قرمانلي(538) ، وكذا الشّيخ الفاضل أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله الجمّني(539) – رحمه الله ونفعنا به – بشّر سيدي حسين باي – رحمه الله – بالتّولية ، وأوصاه بالرِّفق بالرّعيّة ، ودعا له بالبركة والتّأييد ، فطلب من الشّيخ السِّتْر خوفًا من أمير وقته فقال له : لا عليك من بأس فإنّ الله تعالى أولاك ملكه واستخلفك في أرضه على عباده ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ الآية(540) وكذلك الشّيخ الفاضل أبو الحسن سيدي علي النوري(541) أوصاه بمثل ذلك ، ومن ثمّ قوي إعتقاده في أولياء الله ، وكَثُرَت محبّته للأولياء والعلماء وأهل الخير المنتسبين لجنب الله ، وعَظُمت رغبته فلاحظ الأحياء والأموات بكلّ ما تيسر من الخيرات ، فمن ثمّ نمت بركاته ، وتزايدت خيراته ، وبارك الله فيه وفي عتْرَته ، فهو سبب سعادة أهل بيته ، وفّقنا الله وإيّاهم لما يحبّه ويرضاه ، وأجرى الصالحات / على [85/ب] أيديهم وبارك فيهم.

---

538) في ت : «قرمالي» ، وفي بقية الأصول : «من مالي» وأحمد قرمانلي هو مؤسس الدّولة القرمانلية بطرابلس ، وتولاّها من سنة 1714 إلى سنة 1745 م.

539) 1037 – 1134 / 1628 – 1722 م ، الفقيه الزّاهد صاحب المدرسة الجمنية بحومة السّوق بجربة ، مؤلّف هذا الكتاب من تلاميذ تلامذته وسيترجم له المؤلف فيما بعد.

540) سورة آل عمران : 26.

541) علي النوري 1053 – 1118 / 1644 – 1706 م صاحب المدرسة النورية بصفاقس وصاحب الفضل عليها ، سيُتَرجم له المؤلّف فيما بعد.

وكان – رحمه الله تعالى – عفيف البطن من المُسْكِرَات والفرج من الفواحش والمنكرات. فاستقامت[542] أحواله وانتظمت آماله، وسعدت رَعِيّته بسعده، ودافع عنهم بجدّه وجهده، فجزاه الله عن نفسه وعن رَعِيَّتِهِ ما هو أهله، ومزاياه وفضائله بَحْرٌ لا ساحل له.

وهذه العجالة لا تفي باستقصاء مآثره، وقد اعتنى بجمع ذلك جماعة نبلاء كالشَّيخ أبي عبد الله محمّد الوزير[543] وأضرابه[544] فذكروا من مزاياه ما يُثْلِجُ[545] صدر أهل الخير والفضل الّذين يفرحون بالأمر الصَّالحين المحسنين لرعاياهم، وامتدحه الشعراء من كل مكان فأحسن جوائزهم، ووفدت[546] عليه الوفود فأكرم نزلهم وأحسن وفادتهم.

وافتكّت عساكر الجزائر – رحمهم الله – وهران من يَدِ عدوّ الدِّين أواخر شوّال سنة ثمان عشرة ومائة وألف[547] ثمّ ارتجعها النَّصارى حتّى افتكوها على يد الأمير محمّد، باي تلمسان، حسبما أشرنا إليه عند تعرضنا لذكر بلد الجزائر.

وفي سنة إحدى وثلاثين ومائة وألف[548] قدم خمسة أغربة من مالطة – دَمَّرَها الله – دخلوا جزيرة الجنان بنواحي[549] البقالطة فنزلوا البر لأخذ الماء، فهجم عليهم أهل وطن المنستير، فدخلوا عليهم الجزيرة، فانهزم الكفّار ومات منهم نحو المائة والعشرين، وأَسَّرَ المسلمون منهم نحو المائتين، واستشهد من المسلمين اثنان وكانوا قبل / [86/أ] ذلك بَاتُوا على صفاقس ليلة واحدة، فرموا عليهم بالمدافع فأصابوا سفينة كبيرهم فَفَرُّوا هاربين مخذولين.

ولسيدي حسين باي – رحمه الله تعالى – مَبَانٍ[550] عظيمة فمنها صهريجه العظيم الشأن بتونس، وهو مشهور باسمه، ومنها مسجده الأنور بمدينة تونس، ومدرسته المتّصلة

---

542) في الأصول: «استقت».

543) هو السراج الأندلسي الأصل في كتابه الحلل السّندسيّة في الأخبار التّونسيّة.

544) مثل الشّيخ محمد سعادة في قرة العين

545) كذا في ط، وفي ت: «يلج»، وفي ش و ب: «ينج».

546) في الأصول: «وفد».

547) 3 فيفري 1707 م

548) 1718 – 1719 م.

549) من ولاية المهدية.

550) في الأصول. «مباني»

به على أبدع نظام وأبهج : منظر وإحكام ، وبه تربته – رحمه الله – متّصلة به ، وكذا مدرسته المشهورة بالنّسبة إليه في صفاقس[551] ولها نور زائد تنبسط النّفس وتميل إليها عند الدّخول إليها ، وكذا جميع مبانيه – رحمه الله تعالى – وذلك يدلّ على حسن نيّته وخلوص طويّته ، ومنها إحياؤه للمدرسة اللّطيفة بالطّيبيّين[552] من تونس قرب جامع الزيتونة[553] ، وحبّس على كلّ بناء أحباسًا تقوم به ، وأجرى المُرَتَّبَات على أهل العلم القائمين بذلك من معلمين ومتعلمين ، وغير ذلك من المباني العظيمة وتتبّع ذلك يطول .

وبالجملة فهو – رحمه الله تعالى – من غرر الزمان ونوادره ، وعلامة ذلك أنّ الله جبل القلوب على مَحبَّتِه ، فكلّ من سمعه تَرَحَّم عليه وَوَدَّ أنّه كان في زمانه لما يسمعون من حلمه ورفقه برعيّته واكتساب النّاس في أيَّامه الدّين والدُّنيا وأَمْنِ البلاد والعباد ، وتطويع أهل البغي والفساد من العربان وقطّاع الطّريق .

وفي أيّامه – رحمه الله تعالى – رخصت[554] الأسعار ، وعمرت الفيافي والقفار فضلاً عن المدن والقرى والدّيار ، / وتسارع العربان لطاعته لحسن سيرته وصالح نيّته وإرادة الخير لرعيّته . [86/ب]

وكان – رحمه الله تعالى – أَوَّلاً أَمَّرَ على محاله وأسفاره المرحوم نجل أخيه محمّد – رحمه الله – سيدي علي باشا ، وزوّجه إبنته وعلّمه من العلوم ما هو به مشهور ، وأحسن إليه غاية المقدور ، ثمّ كَسَاهُ خلع الباشوية بالأوامر السُّلطانية العثمانية ، وأقامه بدار الباشا لدفع المرتّبات للعساكر والنّظر في أمورهم ، وأقام في مقام البِيَايَة نجله الأسعد الأكبر سيدي محمّد بن سيدي حسين باي – رحم الله جميعهم – فاستَمَرَّ الحال على ذلك إلى أن آن الأوان وأراد الله إبراز ما قَدَّر من تولية الباشا على تونس – رحمه الله تعالى وعاملنا وإياه بالعفو والغفران – ، فتحرّك لما جرى وسُطِّرَ في أمّ الكتاب .

---

551) وهي موجودة إلى الآن وقد صارت مدرسة إبتدائيّة منذ السّنوات الأولى للإحتلال الفرنسي.

552) هو سوق العطارين ، وفي الأصول : «الطيبين».

553) بعدها في ط : «وتسمّى الآن بمدرسة النخلة لكونها بوسطها نخلة».

554) في الأصول : «رخست».

الفتنة الحسينية الباشية :

ففي سنة أربعين ومائة وألف[555] خرج الباشا – رحمه الله – خُفْيَةً ليلاً من تونس على حين غفلة من أهلها وطلع جبل وسلات أوّلاً[556] ثم إنتقل لمدينة الجزائر فمكث بها سبع سنين.

ففي سنة ثمان وأربعين[557] تجهّز مع العساكر الجزيرية ، وانضاف إليه من إنضاف من غيرهم ، فنزلوا بسمنجة[558] ، وخرجت عساكر تونس لمدافعتهم ، فلم يقدروا على مدافعتهم لما سُطِّر في اللّوح المحفوظ ، فخرج سيدي حسين – رحمه الله تعالى – وخاصّته وأهله ونزلوا بمدينة القيروان ، فظنّ خيرًا ولا تسأل [عن الخير][559] وتفصيل ذلك يطول ، والرّجوع إلى الحقيقة أحقّ ما يرغب فيه أولو العُقُول.

وكان الباشا – رحمه الله تعالى – يَوَدُّ لمّا دخل تونس / أن لا يخرج سيدي حسين من [87/أ] تونس بل يبقى على ما كان عليه ، ويرجع هو للخروج بالأمحال فينتظم الحال وتتّحد الكلمة ، فلمّا خرج سيدي حسين للقيروان سعى العرب في إفسادهم وانشقّت العصا ، وتفرّقت الكلمة ، فلمّا تفاقم الأمر أخرج الباشا عساكر لإطفاء نار الفتنة وجَمْعِ الكلمة.

في سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف استُشْهِد سيدي حسين باي[560] – رحمه الله تعالى – بعد حصار طويل من عساكر الباشا – رحمه الله – وخُرِّبَت القيروان.

وخرج أنجال سيدي حسين – رحمهم الله جميعًا – لمدينة الجزائر ، فأكرموا نزلهم ومكثوا هناك. ونقل سيدي حسين – رحمه الله – لتونس ودفن بتربته المجاورة لمسجده.

---

555) غروب يوم الجمعة 10 رجب / 20 فيفري 1728 م : الإتحاف 106/2.

556) بعد أن جرت معارك متعددة بينه وبين جنود عمّه . وانهزم علي باشا في آخر الأمر واخترق الصحراء إلى أن وصل إلى الجزائر ودامت المعارك بينه وبين عمه 18 شهرًا . ورجع الأمير حسين بن علي باي إلى الحاضرة في محرّم سنة 1142 / جويلية – أوت 1729 : الإتحاف 110/2.

557) ومائة وألف . «خرج علي باشا بمحلّة عسكريّة فيها جزائريّون من الجزائر في ذي الحجّة 1147 / أفريل – ماي 1736» : المرجع السّالف ص 111.

558) نزل حسين بن علي باي وجنوده بسمنجة . ونزل الجزائريون مقابلين لهم من جهة الغرب (المرجع السالف نفس الصفحة .) وعن عسكر الجزائريين المصاحبين لعلي باشا وما قاموا به من معارك . أنظر تاريخ حاضرة قسنطينة 19 - 20.

559) ساقطة من ش.

560) قتله يونس بن علي باشا بعد دخوله للقيروان إثر حصارها ثلاث مرّات وكان دخوله القيروان يوم الجمعة 16 صفر سنة 1153 / 13 ماي 1740 : المرجع السّالف ص 114.

ولمّا بَلَغَ سيدي الباشا – رحمه الله – وفاة سيدي حسين بكى بكاء شديدًا واسترجع(561) وتأسّف أسفًا كثيرًا وحزن عليه حزنًا طويلاً واستيقظ وعلم أن الأمر كلّه لله كما قال الشّاعر:

[الرجز]

إذا أراد الله أمرًا بـامْرِئٍ ... وكان ذا عقل وسَمْعٍ(562) وبَصَرْ
أصَمَّ أذنيـه وأعْمَى بَصَرَهُ ... وسلّ منه عقله سلَّ الشَّعَر(563)
حتّى إذا أنفَذَ فيـه حُكْمَه ... رَدَّ عليـه عقلـه كَيْ يَعْتَبِرْ

وكَانَ يودّ أنّهُ يصل إليه حيًّا فيعامله بالمَبَرَّة والإكرام، وحسن النزل والتّعظيم والإحترام لما سلف له من خيراته وإكرامه ومَبَرَّاته.

والباشا – رحمه الله تعالى – كان رجلاً عالمًا عاقلاً وأهلاً للمكافأة بالإحسان ولكن جَفَّ القلم ومضى الحكم، فمن رضي سَلِمَ ومن سخط نَدِمَ.

وحزن لموت سيدي حسين جميع النَّاس / خصوصًا العُلَمَاء والصُّلحاء والفقراء لما أجراه عليهم من إحسانه وصِلاَتِهِ وهباته وعَطِيَّاتِهِ، وما زال الخلق يُثْنُون عليه بكلّ ثناء جميل ويَتَرَحَّمُون عليه في كلّ وقت وحين – رحمه الله ورحمنا به ورحم جميع المسلمين –. [87/ب]

علي باشا بن محمّد:

ولمّا خرج سيدي حسين من تونس، وتخلّى عن العسكر بايعوا بعده سيدي علي باشا إبن محمّد – رحمه الله –.

ولمّا توفّي سيدي حسين بايعه النَّاس بيعة عامة، فلم يَتَخَلَّف أحد إلّا من بغى وطغى، إذ بعد بيعة أهل الحلّ والعقد لا يتخلّف إلّا أهل البغي والفساد، فَجَرَّد الباشا – رحمه الله – سيف الشَّرع(564) لأهل البغي وتَتَبَّع آثارهم في البوادي والقفار وبعيد

561) في الإتحاف 115/2: «وانكر فعل إبنه».
562) في ط وت وب: «وكان ذا سمع وعقل».
563) في ط وت وب: «وسل عقله كَسَلاَّنِ الشعر».
564) علي باشا معروف بجرأته على سفك الدّماء. قتل كثيرين بدون حقّ. وأشاع الرّعب والخوف من سطواته. والمؤلّف فيما يبدو معظّمًا له غاضًّا الطّرف عن سيّئاته، وهذا من الأسباب الّتي دفعت باي عصره إلى حجز نسخ كتابه حتّى قلّت.

المَفَاوِز وقاصي الدِّيار ، فقطع آثار كلّ جبَّار عنيد بعد جهد جهيد ، وكان مؤيّدًا في حروبه يحصل لأهل الزيغ إزلاق أمعائهم بمجرّد سَمَاعِ ذكره ، وبعدما طوّع طغاة البوادي طوّع طغاة النّصارى ، فهابه المعاهد والمحارب ، فأسعفوه بمطلوبه وسالموه في حروبه ، وكان - رحمه الله تعالى - منتبهًا لجميع الشّؤون ، وله نوادر وغرائب تَتَبُّعُهَا يخرج بنا عن الإختصار.

ومن نباهته وحزمه صارت الملوك يسألون عن مآثره ليسلكوها وآثاره ليقتفوها ، فمن أغرب نكته أنّ رَجُلاً زَيَّاتًا اشترى قُلَّةَ سمن وطبخ عشاءه في دكّانه بالسُّوق ، وجعل فيه شيئًا من ذلك السَّمْن ، فلمّا فارت البُرْمَة مَرَّت به إمرأة فتعلَّقَت نفسها بشهوة / الأكل من ذلك الطّبيخ ، فَألجأها الحال أن سألته أعطني[565] شيئًا من ذلك الطَّعَام ، فلم يسعه إلّا إسعافها خوفًا أن يكون بها حمل فتزلق حملها ، فدخلت للدّكان وناولها شيئًا منه ، فلمّا أكلت منه كان في ذلك أجلها فماتت ، فاحتار الرّجل ولا عَلِمَ[566] لموتها سببًا ، فغلق دكّانه وبقي خائفًا أن يفطن له أحد ، فلما كان اللّيل أخذ المرأة فَلَفَّها في حصير جديد كان[567] عنده وأخرجها إلى مكان بعيد منه بحيث تنقطع عنه التّهمة[568] ووضعها فيه ، فلمّا أصبح الصّبح وإذا بالمرأة [وجدت] ميّتة ، فأُخبِرَ الباشا - رحمه الله - بذلك ، ففكَّر ساعة وقال : في أي شيء وجدتموها؟ فقالوا : في حصير ، فقال : عليّ بشيخ الحُصْرِيّين ، فحضر ، فقال : أتعرف هذا الحصير صنعة من؟ قال : نعرف ، فَعَيَّن رجلاً من رجال الصّنعة فأُحْضِر ، فقال : بعته لفلان[569] الزَّيَّات ، فأُحْضِرَ ، فقال : هذا الحصير الّذي اشتريت من فلان وجد فيه إمرأة ميّتة ، فكيف القصّة؟ أخبِرْنَا بالواقع ولا بأس عليك ، فأخبر بما وقع ، فقال : وأين الطّعام؟ قال : حاضر ، فأُحْضِرَ فألقي منه لُقْمَة لقِطَّةٍ فلمّا أكَلَتْهَا ماتت ، ففكّر وقال : من أين وضعت السَّمْنَ؟ قال : من قلّة اشتريتها ، قال : هل بعت منها لأحد ، قال : لا ، قال : هل أَكَلْتَ منها؟ قال : لا ، قال : أحضرها ، فأُحْضِرَت فإذا هي لم ينقص منها إلّا ما وضع في الطّعام فأمر بتكسيرها

[88/أ]

---

565) في ط وت وب : «اعطاء».

566) في ط وت وب : «أعلم».

567) في الأصول : «كانت» وكذلك بقيّة الضّمائر العائدة على الحصير جاءت بصيغة التأنيث فصوّبناها.

568) في ط : «منه».

569) في ط وب وش : «من فلان».

[88/ب] فكسّرت، فإذا في أسفلها حَيَّةٌ ميّتة، فعفا عن الرّجل/ لعذره وأمر أصحابه الدّكّاكين[570] أن لا يبيعوا قلّة إلّا بعد كسرها وتفقّدها، وأمر أصحاب السّمن أن لا يضعوه إلّا بعد تَفَقُّدِ الأوعية.

وكان فاضلاً عالمًا مُطَّلِعًا على الأحكام الشّرعية والعادية، ولا يقدر أحد من أولي الأحكام أن يتساهل في جُزْئِيَّةٍ ولا يولي أحدًا ولو مقام التوثيق إلّا بعد الإختبار الزّائد، وله توغُّل في العلوم العربية، فَشَرَحَ تسهيل إبن مالك[571] بشرح عظيم الشأن، فَقَبِلَه علماء المشرق والمغرب وأَقَرُّوا له بالفضل، وكان يسوس العلماء في تعليمهم ويحثُّهم على تعليم العلوم النّافعة والكتب المتداولَة وترقية المبتدئين ويحذّر من علوم الأوائل[572] وأهل الأهواء، ويحَذِّرُ من الخوض في علومهم، ويشدِّد النّكير على الخائض فيها وربّما نفاه من عمالته.

وكانت له غيرة زائدة على رعيَّتِهِ ومهما سمع على بعض قوّاده ما يسوء رعيّته انتقم منه بالضّرب والسجن[573].

واعتنى كثيرًا ببناء المدارس فبنى أوّلاً مدرسة بحومة عاشور من تونس، ورتَّب فيها شيخنا أبا محمد سيدي عبد الله السُّوسي[574] –رحمه الله تعالى– وأخرى ببير الحَجّار[575] وهما معًا للمالكية، ثم زاد ثالثة بالقَشّاشين قرب جامع الزّيتونة وهي للحنفية، وجعل بها تربته، ثم زاد رابعة بالقرب منها للمالكية، وجعل شيخها الشّيخ أبا عبد الله سيدي محمّد الغرياني[576] – رحمه الله تعالى– وجعل بكلّ مدرسة خزانة

---

570) في مكانها في ش: «بياض وشطب».

571) إسم هذا الشّرح: «دفع الملم عن قراء التّسهيل بجلب المهم ممّا يقع به التّحصيل». منه نسخة في المكتبة الوطنية بتونس. ولعلي باشا ترجمة في الإتحاف 117/2 – 145.

572) هي الفلسفة وتشمل حسب المصطلح القديم العُلوم الرّياضية والموسيقى والطّب والمنطق.

573) شديدًا على العُمّال. محترسًا من عسفهم رادعًا لعدوانهم. يحبّ أن يظلم وحده ويأنف أن يشاركه غيره فيه: الإتحاف 118/2 – 119، وبه يتّضح وجه الحقّ. ويعلم ما في كلام المؤلّف من دعوى أنّه كانت له غيرة زائدة على الرّعيّة.

574) السكتاني المغربي. نزيل تونس. وشيخ المؤلّف (ت. 1169 / 1752) له ترجمة في كتاب تراجم المؤلّفين التونسيين 86/3 – 88.

575) هذا المكان يقع بنهج الباشا الآن بالحاضرة.

576) أصله من جبل غريان بليبيا، قدم تونس واستقر بها، وعقبه موجود إلى الآن وهو راوية مسند فقيه صوفي. ووفاته بتونس في 1195 / 1781 أنظر تراجم المؤلّفين التّونسيين 459/3 – 460.

كتب ، وجعل لها مرتّبات من الخبز والدّراهم / إعانة لطالب العلم ، وزاد دورًا في زاوية [89/أ] الشّيخ سيدي إبراهيم الجِمّني بجربة ، فوق الدّور الأسفل الّذي بناه مراد باي – رحمه الله تعالى – .

ومن غريب ما وقع للباشا مع سيدي عبد الله السّوسي – رحمة الله عليهما – أنّ الشّيخ كان زاهدًا في الدّنيا متقلّلاً منها مقبلاً على العلم ، فكان الباشا يحبّه ويُجلّه ويفضّله لذلك ، فلمّا شيّخه على المدرسة أسكنه في دار بقربها ، وأجرى عليه من حُبُسِ المدرسة ما يقوم به وبعياله ، فاتّفق أنّ الشّيخ – رحمه الله – أصابه تشويش منعه من الخروج للإقراء ، فسأل الباشا مُقَدّم المدرسة عن الشّيخ ، فقال : به تشويش منعه من الخروج وطالت مدّته ، فقال له : هل وفيته[577] مرتّبه ليستعين به في مرضه ، فقال : لا ، قال : إذهب وَفِّ له مرتّبه ، فصحب المرتّب ودخل على الشّيخ داره وأحضر له المرتّب ، فامتنع الشّيخ من قبوله وقال : هذا المرتّب إجارة عن عمل ، وقد طال مرضي ولم أعمل ، فكيف آخذ من غير عَمَل؟ وهذا حبس على القراءة ولم تحصل منّي ، فرجع إلى الباشا وأعلمه بما وقع ، فقال له : إرجع وقل له : هذا إعانة من عندي لا إجارة ، فقبله ودعا بخير ، رحمة الله على هذه النفوس العفيفة ، طيّبوا سرايرهم مع مولاهم فسخّرهم للخير وسخّر لهم من أعانهم عليه .

وبنى مصانع للماء بتونس ، وبنى سور ببنزرت ، وافتكّ طبرقة من أيدي النصارى[578] واستحفظها جماعة من العسكر ، وله خيرات كثيرة غير ذلك وكان – رحمه الله – / عفيف البطن من جميع المحرّمات ، تاركًا للمشتبهات ، فمن ثمّ إجتنب [89/ب] الدّخان ولو نشوقًا ، ولا يقدر أحد أن يظهره حيثما حلّ ، وكان عفيف الفرج ، دخل يومًا الحَمّام مستصحبًا بعض غلمانه فاستدعاه لتدليك رجليه ، فظنّ الغلام سوءا وتمادى إلى

---

577) في ش : «وافيته».

578) كان أخذه لها سنة 1153 / 1740 – 41 من أهل جنوة . أعطاهم السّلطان العثماني هذا المكان ليلتقطوا المرجان الموجود بالبحر ، وبنوا قرية بطبرقة وجعلوا قصبتها بأعلى الجبل ، لأنّها جزيرة فيها جبل مرتفع في البحر ، وهي واقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط بين عنابة بالجزائر وبنزرت ، وظهر لعلي باشا منهم النكث لتجاوز القدر المأذون لهم في البناء ، وقد أرادوا جعلها قلعة حصن ومدافعة ، وأمر بهدم القرية الّتي أسّسها أهل جنوة وأبقى قصبتها ، وأمر ببناء برج على السّاحل خارج الجزيرة . أنظر إتحاف أهل الزّمان 124/2 – 125 .
واستحواذه على طبرقة يدخل أيضًا في نطاق ردّ فعل على محاولات الشّركة الإفريقية الفرنسيّة للتّوسّع في أعمالها السّاحليّة من الجزائر نحوطبرقة . أنظر على سبيل المثال جوليان : تاريخ شمال إفريقيا 299/2 .

ما لا يحلّ النَّظر إليه ولامسه فدفعه[579] الباشا برجله وانتهره نهرة منكرة ففاضت روح الغلام من شدّة الهيبة والفزع.

ولقوّة شهامة الباشا وشدّة بطشه وانتقامه من المفسدين صارت الظعينة تمشي وحدها من أرض إلى أرض، وصارت الفيافي والقفار كالحاضرة في الأمن والعافية، ومن قصد الطَّريق لا يرتقب الرّفيق لكثرة السّالكين.

وبالجملة فقد أقام الدّين بالسّيف والقلم، فالسّيف للبغاة، والقلم للعلماء.

وفي سنة ثلاث وخمسين[580] إبتدأ النَّاس الغلاء، وفي أربع وخمسين إشتدّ الحال بالنَّاس حتّى أكل بعضهم بعضًا حقيقة فضلاً عن الميتة والدّم، وكان إشتدّ ذلك بطرابلس وإفريقية، ثمّ تدارك الله عباده بالرَّحْمة، فأخصبت الأرض ورخصت الأسعار.

وفي سنة تسع وخمسين ومائة وألف[581]، قدم أنجال سيدي حسين – رحم الله جميعهم – بعساكر الجزائر، ولمّا سمع الباشا بقدومهم حصّن مدينة الكاف غاية التّحصين بكلّ ما يمكن، فما أمكنهم فتحه لأنّ أوانهم ما آن، ورأوا أن مجاوزته من غير فتح يعود / [90/أ] عليهم بالضَّرر لقطع مددهم فرجعوا من حيث قدموا ولم يحصل ما قصدوا[582] ولكلّ أجل كتاب.

فتنة يونس باي:

وفي سنة خمس وستّين ومائة وألف[583] وقعت وحشة بين المرحومين أنجال الباشا أكبرهما يونس باي – رحمه الله – وأخوه[584] شقيقه محمّد باي – رحمه الله تعالى –

---

579) كذا في ت، في ش: «فرفضه»، في ط وب: «فرفعه».

580) 1740 م.

581) في ربيع الأوّل / مارس – أفريل 1746 م.

582) «ويقال إن حسين باي قسنطينة لمّا رآى ما في الكاف من الرّجال والعُدَّة ومنعة القلعة كاتب إبراهيم خوجة صاحب الجزائر يستمدّه، وتثاقل عن إمداده، ويقال إنّ علي باشا جاعله بالمال. فأقلع بمدافعه وتأخّر. وذلك عاشر رجب السنة 1159 (يوم الجمعة 29 جويلية 1746)»: الإتحاف 129/2.

583) 1752 م.

584) في ط: «وآخره».

أوجبت غضب الأكبر لقوّة شهامته وبطشه ، فدخل[585] القصبة بشهر رجب من السّنة المذكورة مغاضبًا لأبيه وأخيه ، وغَلَّقَ أبواب المدينة من جهة ربط[586] باب السويقة ، وصار معه المدينة والرّبط[586] القبلي ، ومع الباشا ربط[586] باب السويقة وما يليه ، واشتدّ الحرب بينهما إلّا أنّ الباشا كان أقوى حربًا ، فأضر بتونس بكثرة المدافع من الأبراج الّتي على الجبل الأخضر حتّى امتنع النّاس من المشي في الطرقات ، واستمرّ الحال على ذلك نحو الشهرين[587] ، فلمّا اشتدّ الأمر ، وضاقت الأرض بما رحبت خرج يونس باي – رحمه الله تعالى – فنهى الباشا – رحمه الله – عن التّعرّض له فلم يتبع ، فخرج سائرًا حتّى انتهى إلى قسطينة ، فبقي بها إلى أن أدركته منيّته[588] – رحمه الله تعالى – .

وفتحت تونس أبوابها وطلب النّاس العفو من الباشا فعفا[589] عنهم إلّا من كانوا سعوا في الفتنة فنفاهم من تونس ، فاجتمع أكثرهم بالجزائر مع من ذهب من غيرهم خوفًا من بطش الباشا ، فاجتمع هناك خلق كثير فكانوا أعوانًا عليه .

فلما آن الأوان ودخلت / سنة تسع وستين ومائة وألف قدم أنجال سيدي حسين [90/ب] أوائل حجّة من السّنة المذكورة[590] . فدخلوا تونس بعَساكِر الجزائر وغيرهم بعد حروب ومقاساة أهوال وموت ما لا يُحصى ، واستشهد الباشا[591] – رحمه الله تعالى – وولده محمد باي – رحمه الله تعالى – .

محمد بن حسين بن علي :

وبايع النّاس أكبر أنجال سيدي حسين – رحمه الله تعالى – وهو المقام الأعظم والهمام الأفخم ، سيّدي محمّد باي ، بيعة عامّة .

585) إستعمل الحيلة حتّى دخل ظهر يوم الإثنين تاسع جمادى الثانية سنة خمس وستين ومائة وألف / 24 أفريل 1752 : الإتحاف 140/2 .

586) ربض .

587) وكانت مدّة حصاره القصبة خمسة وعشرين يومًا : الإتحاف 140/2 .

588) بعد أن وقع له تضييق على حرّيّته من صاحب قسنطينة وإدخاله الحبس . وخرج منه منتفخ البدن . وتوفّي بعد قليل في ربيع الثّاني 1182 / أوت سبتمبر 1768 المرجع السّالف ص 142 .

589) في الأصول : «فعفى» .

590) أواخر أوت 1756 م .

591) قتل خنقًا في أواخر ذي الحجّة سنة 1169 / سبتمبر 1756 : أنظر الإتحاف 154/2 .

وكان – رحمه الله تعالى رحمة واسعة – ذا همّة عالية وشهامة وبطش ، فأطاعته العصاة من ساعته وانقادت له العباد ، فاطمأنّت البلاد ، ومحا[592] آثار الفساد وكأنّ الأرض لم تقم بها فتنة ، ولا وقع بها حروب ، لطفًا من الله بعباده.

ثمّ جاءت التّشاريف العثمانية والخلع الخاقانية لثاني النجلين صاحب السّياسة الملوكية والرياسة السّلطانية سيدي علي باشا – رحمه الله تعالى – فلبس خلعة الباشوية ، فتَمَّت نعمة الله عليهما ، واتّفقت كلمتهما ، وسلّمهما من داء الخلاف والشِّقَاق لما جبلهما الله عليه من المحبّة والإتّفاق ، فانتظمت الأحوال واتّسقت ، وأمنت البلاد وسكنت ، وانقطعت نار الفتنة وخمدت.

ولمّا تَمَّت نعمة الله عليهما بالملك شرعَا في تجديد سور القيروان وتحصينها إذ هي إحدى حصون الإسلام بل أعظم مدينة بإفريقية ، بل هي أمّ قراها فهي أحقّ بحفظها وصيانتها – أبقاها الله دار عزّ للإسلام ، / وحفظها من طوارق اللّيالي والأيّام. [91/أ]

ولمّا كانت سنة إثنتين وسبعين ومائة وألف حضرت منيّة[593] سيدي محمّد باي – رحمه الله تعالى – على فراشه فسار لرحمة الله الواسعة ودُفِن بتربة أبيه – رحمهم الله تعالى –.

علي باشا إبن حسين بن علي:

فبايع النَّاس بعده بيعة عامة لأخيه سيدي علي باشا – رحمه الله تعالى –. فصار باشا بايا ، ففرح النَّاس به لما يعلمون من رفقه وحلمه وَرِقَّة قلبه على رعيَّته وكرمه ، فاستقرّت البلاد على أمنها ، ولم يقع في الأرض ما يوجب اضطرابها.

ثمّ لم تمض أشهر قلائل إلّا وقد طلعت خيول إسماعيل[594] باي ، إبن يونس باي إبن الباشا – رحمة الله على جميعهم – وكان لما وقع على جده الباشا ما وقع استبدل ثياب السَّلطنة بثياب عامّة النَّاس وغير زيِّه ، وسار حتّى انتهى إلى طرابلس ، فنزل على علي باشا[595] صاحب طرابلس ، فأكرم نزله وَرَتَّبَ له ما يحتاجه بموجب ما تقتضيه حقوق

---

592) في الأصول : «محى».

593) ليلة الإثنين 14 جمادى الثّانية سنة 1172 / 12 فيفري 1759 : الإتحاف 159/2.

594) وصل إلى جَمَّال في 15 ذي القعدة 1172 / 10 جويلية 1759 : الإتحاف 162/2.

595) هو علي بن محمد قرامانلي (1745 – 1754) : أنظر الإتحاف 161/2 ، وأتوري روسي : ليبيا . 296 – 308.

السَّلطنة ، فلمّا سمع بموت سيدي محمد باي وتولية سيدي علي أخيه تحرّك لنحو تونس طالبًا لملك جدّه ، فسار من طرابلس خفية من الباشا مع جماعة من العرب ، وصار كلّما مرّ بطائفة من الأعراب تبعه منهم جماعة فانتهى إلى قابس ومعه جموع كثيرة ، ولم يزل سائرًا حتّى انتهى إلى جَمَّال[596] فأقام بها وقاموا بدعوته ، فلمّا بلغ الخبر لسيدي علي باي – رحمه الله تعالى – جَهَّز له عساكر من تونس ، فلمّا التقى الجمعان كان الظَّفر لعساكر تونس على عساكر جَمَّال ، فخرج من جمّال / إلى وسلات فتبعته العساكر إلى [91/ب] وسلات ، فلمّا علم أنّه لا يحصل من المكث بوسلات[597] إلا الهرج وقلة الفائدة عمل على السَّفر إلى الجزائر[598] فسار إليها حتّى انتهى إليها فأكرموا نزله.

وكان – رحمه الله – بطلاً شجاعًا مقدامًا على قدم أبيه وجَدِّه في الشّهامة والشّجاعة. فأقام بالجزائر ما شاء الله حتّى أدركته منيّته بها – رحمه الله –.

ولمّا خرج من الجبل رآى سيدي علي باي أنّ أهل الجبل لا يسكنون من الفتنة ، وخاف من طارق يقوم به ، فرآى الصّواب في نزول أهله إلى البلاد فأمرهم بالنّزول منه فنزلوا وتفرّقوا ، وذهب كلّ أحد منهم إلى ما اختار ، فمنهم من اختار القيروان ، ومنهم من اختار تونس ، ومنهم من اختار السَّاحل إلى غير ذلك ، فأمنت فتنته وانقطعت ثائرته.

وانفرد سيدي علي باي بملكه ولم يبق له منازع ، فظهر تمام حسن سيرته وسعدت رعيّته ، وكان على قدم أبيه ، والولد نسخة من أبيه ، ومن يشابه أَبَهُ فما ظلم ، بل زاد في الحلم والعفو على أبيه – رحمهم الله – ، وكان يكره قتل النّفوس ولو قصاصًا فيصالح أصحاب الدّماء ما أمكن من مال الجاني وإلّا فمن ماله هو ، ولا يقتل قصاصًا إلّا من لم يمكن له خلاص بوجه ما شرعي ، وإذا لم يقتل قصاصًا فكيف بالقتل ظلمًا.

وكان – رحمه الله – محبًّا للعلم وأهله وللصّلاح وأهله ، محسنًا للفقراء ، وجعل مرتّبات للعميان الفقراء ، وقطع حانات الخمر أينما كانت ، ولقد أفرده وزيره / الشَّيخ [92/أ]

---

596) لمّا كان بالحامة قدم إليه جعفر بن عمر في أعيان من أهل جَمَّال وفرسان من المثاليث وغيرهم... وَزَيَّنوا له الرّحلة إلى بلدهم. واتّفق أنّ قائدهم منصور المشرق أساء فيهم السّيرة حتّى أفسد منهم السّريرة وأرهقهم جورًا وظلمًا... المرجع السّالف ص 162.

597) دارت عدّة معارك بجبل وسلات كان النّصر فيها لجيوش علي وأنصاره من القبائل ، ورآى علي باي ألّا يقتحم الجبل ويطاوله بالحصار. وأدار بالجبل جلاص وأولاد عون وغيرهم ، أنظر المرجع السالف ص 163.

598) فرّ إلى قسنطينة لاحقًا بأبيه يونس باي : المرجع السّالف ص 164.

حَمُّودة بن عبد العزيز – رحمه الله تعالى – بكتاب ضخم حافل[599] إستقصى فيه دولته ومزاياه وجميع أحواله. وكان الباشا – رحمه الله – يحبّه مع ما بينهما من التّباعد حبًّا شديدًا لأنّه صاهره الباشا بابنته، ولما يعلم من حلمه وعفّته وكرمه – رحمهم الله أجمعين –.

ولمّا منّ الله عليه بطول الملك والسّعادة وعلم أنّ الدُّنيا زائلة والرّجوع إلى الله حقّ زهد في الملك[600] والحكم ومزاولة الخصومات والدّعوات، وكاتب الأعتاب العثمانية الخاقانية يستعفي من الحكم، فعوفي، ونزلت الأوامر والخلع العثمانية والتّشاريف السُّلطانية لنجله الأكبر الأسعد الهمام الأمجد سيدي حمّودة باشا – نصره الله –.

وسلّم له والده في البياية فصار باشا بايا كوالده وهو سلطان وقتنا – دام مجده وعلاه وأناله الله من سعادة الدّارين سؤله ومتمناه –[601].

وانفرد والده[602] – رحمه الله تعالى – بنفسه لصلاته ودروس العلم ليلاً ونهارًا، وبَذْلِ المعروف والصّدقات والعفو عن الخطيّات، والإحسان للأرامل والأيتام، ولقد امتدحه الشعراء بما لا يحصى، فأجزل جوائزهم وقد استوفى ذلك وزيره في تاريخه، فليراجع ثمّة من أراد ذلك.

وأكثر من البنايات النّافعة فمنها فسقيته بتونس، ومنها مدرسته المشهورة[603] بها أيضًا، ومنها قنطرة واد مليان على ثنيّة السّاحل، ومنها فسقية[604] صفاقس الّتي غفل عنها غيره / ممّن تقدمه من الملوك، ومن تنبّه لها لم يجعل الله له تيسيرًا فيها حتى جاء هذا السُّلطان الأسعد – رحمه الله تعالى – فكانت من غرر محاسنه، ومنها إتمام سور مدينة القيروان[605] إلى غير ذلك من أفعال الخيرات ممّا يطول إستقصاؤه. [92/ب]

---

599) سمّاه الباشي نسبة إليه. طبع منه الجزء الأوّل، والباقي ما زال مخطوطًا.

600) «ولمّا طعن في السّنّ. وظهر فيه مبادئ الهرم مع مرض النِّقْرِس المصاحب له، وعيل الصّبر بتعلل أهل الجزائر. لعلمهم بأنّه في قيدي شاخة ومرض. لاذ به رجال دولته. إمّا من تلقاء أنفسهم، أو بإيماء منه إلى ذلك، وطلبوا منه أن يُولي عهده لابنه الشّاب المقتبل الخليق للرّئاسة، أبي محمّد حمّودة باي»: الإتحاف 176/2.

601) هذا الدّعاء يشعر بأنّه يتكلّم عن باي عصره كما صرّح به بعد قليل.

602) لم ينعزل تمامًا إذ كان إبنه حمّودة باشا يكتب الأوامر باسم والده ويأتيه بها، وما ارتضاه منها أمضاه بختمه. وردّ الباقي. وينوب إبنه في مغيبه إذا سافر بالمحلّة لاستخلاص الجباية: المرجع السّابق ص 177.

603) المعروفة بالجديدة. قرب تربته جوار صاباط عجم: الإتحاف 174/2.

604) الموجودة بقاياها بالحديقة العمومية على طريق المطار.

605) وأبوابها وبرجها: المرجع السّالف ص 175.

وكان عفيف البطن مُنَزَّهًا عن المسكرات ، عفيف الفرج إلّا ما أباحه الله ، ولا عيب فيه ، إلّا أنّه كان يلبس خَشِنَ الثّياب تحت ثياب الملك ليذوق مع فقراء المساكين ما هم فيه ويتذكّرهم ولا يغفل عنهم ، وكان رحيم القلب ليس بفظّ ولا غليظ ولا سَخَّاب في الأسواق ، ولا يُجْزِي بالسّيّئة السّيّئة ولكن يعفو ويصفح ، وهذه من أخلاق النبوة ، وكل من خرج عن طاعته رجع إليه باختياره لما يعلم من حلمه فيأتيه ويعترف بذنوبه ، فيعفو عنه ويُكْرِمُه ولا يوبِّخُه ولا يعاتبه سجيّة طبعه الله عليها وَطوَّع له بها جميع رعاياه.

وفي سنة أربع وثمانين[606] قدمت[607] مراكب الفرنسيس محاربين[608] فرموا على بنزرت بالبونبة شيئًا كثيرًا ، ورموا على سوسة كذلك ، فأضرُّوا بالبلدين ، ثمّ قمع الله شَرَّهم وقطع ضررهم بوقوع الصّلح.

حمّودة باشا الحسيني :

وفي سنة ستّ وتسعين ومائة وألف[609] حضرت وفاة سيدي علي باشا باي – رحمه الله تعالى – على فراشه ، آمنًا مطمئنًّا على سنّ عالية ، قرير العين ، ودُفِن بتربته المعدّة لدفنه بمدرسته ، فحزن النّاس لموته ، ولكن قلوبهم آمنة مطمئنة بنجله الأسعد سيدي حمّودة باشا / – دَامَ[610] علاه – ، فجدّد النّاس له البيعة ، فكانت تعزيته مقرونة بتهنئة البيعة العامّة ، ولم يتخلّف عنها أحد ، وأتت الوفود ، وقصده النّاس من كلّ فجّ عميق ، فأحسن وفادتهم وأكرم نزلهم ، فهو سلطان وقتنا أقرّ الله به أعيننا ، وأمَّن به أوطاننا [93/أ]

---

606) 1770 – 1771 م.

607) في الأصول : «قدم».

608) يرجع سبب التّنافر الحاصل بين تونس وفرنسا إلى إحتلال فرنسا لجزيرة كورسيكا ممّا أضرّ بالمصالح التّونسيّة والإخلال بالعقد المتعلّق بصيد المرجان بطبرقة . كما ترجع إلى قضيّة فرعيّة تتعلّق بعدم إحترام مركب فرنسي لمركب تونسي في عرض البحر خلافًا لما تقتضيه العادات الجارية . أنظر مثلاً الإتحاف 166/2 – 170. وشارل جوليان : (Ch. A. Julien: *Histoire*...., 2/300).

609) يوم السبت 13 جمادى الثّانية / 26 ماي 1782 م ، ومدّة ولايته 24 سنة وكانت ولادته في شوّال سنة 1126 / نوفمبر 1714 م (أنظر إتحاف أهل الزمان 178/2).

610) في ش : «أدام».

وأرضنا ، أدام الله علاه ، ونصره على من ناواه ، فسار سيرة[611] آبائه الكرام ، وقام بالأمر أحسن قيام ، فأمِنَت البلاد واطمأنّت العباد ، وساسهم بلطف ، واجتنب الشِدَّة والعنف ، وفّقنا الله وإيّاه لما يحبّه ويرضاه ، وأدام الله في أمن وعافية أيّامه ، وثبّت على نهج الهدى والتّقوى أقدامه.

ومن مزاياه الجليلة وأخلاقه الجميلة أنّه جمع شمل عترته من إخوته وبني أعمامه وكلّ من ينتمي لنسبه الكريم ، وأنزلهم في المقام الأعظم والمَبَرَّة والإحترام ، والتّشريف والإكرام ، فاتّحدت الكلمة ، وتَمَّت عليهم وعلى الرَّعِيَّة النّعمة ، وماتت شياطين الإنس والجنَّة ، وانقطعت المظالم والظّلمة ، وانطفأت[612] نيران الفتنة ، ولله الحمد والمنّة ، والصَّلاة والسَّلام على نبيء الرَّحمة ، وعلى آله وأصحابه هداة هذه الأمّة ، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة والرّحمة[613]. / [93/ب]

(611) في ط : «سريرة».

(612) في الأصول : «انطفت».

(613) [ثمّ أدركته منيّته فانتقل إلى رحمة الله تعالى رحمه الله تعالى برحمته الواسعة فكانت وفاته رحمه الله أوّل يوم من شوّال المبارك سنة تسع وعشرين ومائتين وألف ، فكان رحمه الله من يوم توليته دار الملك إلى يوم وفاته ثلاثة وثلاثين سنة إلّا ثمانية أشهر.

تولّى الملك بعده سيدي عثمان باشا باي فأقام في الملك ثلاثة أشهر وإثني عشر يومًا من السّنة المذكورة فأدركته منيته فتولّى الملك بعده سيدي محمود باشا باي ابن سيدي محمد باي وهو أمير عصرنا سنة ثلاثة وثلاثين ومائتين وألف ، نصره الله وأدام أيّامه وأيّد بالعدل أحكامه ، فهو حليم كريم ، أقرّ الله به أعيننا ، وأمّن به أوطاننا ، فسار على سيرة آبائه الكرام ، وأقام بالأمر أحسن القيام ، فأمنت البلاد واطمأنّت العباد ، وساسهم بلطف ، واجتنب الشّدّة والعنف ، وفّقنا الله وإيّاه لما يحبّه ويرضاه وهذا آخر ما قصدناه في هذا الكتاب من الكلام في هذا الباب والحمد لله وكفا بالله وكيلاً].

هذه الزّيادة موجودة في ط وت وب ، وفي مكانها في ش بياض ، وقد جعلناها بالهامش لأنّنا أثبتنا في مقدّمة الكتاب أنّ المؤلّف توفّي قبل وفاة حمّودة باشا ، وقد تكون هذه الزيادة من ناسخ إعتمدته النّسخ المشار إليها.

[أ/94]

/الخاتمة :

في ذكر ما يتعلق بصفاقس ووطنها وفيها أبواب

الباب الأوّل :
في ذكر وضعها وما يتعلّق بذلك

تأسيس سور صفاقس :

أقول : كانت صفاقس في ابتداء أمرها محرسًا من المحارس ، بُرْجًا في موضع قصبتها الآن[1] ، وهو البرج الأحمر المحاذي لسيدي جَبَلَة[2] ، وكان هناك أناس يقال لهم الأعشاش[3] ، وآخرون يقال لهم النواولة[4] ساكنون في أخصاص من خوص ، لا كسب لهم هناك إلاّ صيد السَّمك ، وكان حوالي ذلك المكان بسواحل البحر وما قاربه من الأراضي قرى كثيرة مُتَّصِلة ومتقاربة ، ولهم في ذلك الموضع في كلّ يوم جمعة سوق

1) لقد أدّت الحفريات الأثرية الّتي قام بها المعهد القومي للآثار والفنون داخل القصبة الّتي تقع في الركن الجنوبي الغربي من سور مدينة صفاقس إلى إكتشاف بقايا مسجد سفلي له طراز مساجد الرّبط القديمة بإفريقية في هندسته وبنائه ، ولعلّه مسجد المحرس الّذي يشير إليه المؤلّف ، وإن صحّ هذا تصحّ نظريّة مقديش من أنّ إنطلاق تأسيس مدينة صفاقس كان محرسًا من المحارس.

2) الشّائع على الألسنة سيدي جِبْلَة بكسر الجيم وسكون الباء الموحدة وفتح اللاّم ، وبالفصحى بفتح الأحرف الثّلاثة.

3) آل العش وآل عشيش من الأسر المعروفة في صفاقس إلى حدّ اليوم.

4) أسرة انقرضت من صفاقس ، وبقي لنا مسجد الشّيخ سالم النوالي داخل المدينة المسوّرة وذكر أبو بكر عبد الكافي «تاريخ صفاقس 1966 ص 22 : «أنّه تفرع على هذه الأسرة آل الجرّاية والعمّوص وعبّاس».

يجتمع فيه أهالي تلك القرى ، فاتّخذوا له فنادق لحفظ دواب الواردين وأمتعتهم ، وأحدثت[5] هناك مرسى للقادمين من البحر كأهل قابس وجربة وطرابلس وقرقنة وغير ذلك ، فابتنى النّاس لهم مساكن وكثرت النّاس.

فلمّا كان زمن أبي إبراهيم أحمد بن الأغلب – رحمه الله – وكان له اعتناء بأفعال الخيرات وإنشاء الحُصُون والمحارس ، أمر ببناء سُور من الطوب على ما اجتمع من المساكن والفنادق والسُّوق على يد علي بن سلم[6] جد سيدي أبي إسحاق الجبنياني – نفعنا الله به –

وسبب بناء أحمد بن الأغلب – رحمه الله – على ما نقل في معالم الإيمان[7] عن أبي بكر التُّجيبِي[8] أنّه كان – رحمه الله – أجمل بني الأغلب ، وكانت له شعرة يعني شيئًا من شعر في وسط رأسه ، فكان إذا جلس للشّرب مع الجواري نُظِّمَت شعرته بالجوهر / المُصَنَّف ، ويجعل من فوقها التّاج المكلّل بالدّرّ والياقوت الأحمر ، وكذلك [94/ب] يفعل الجواري ، فنظر إلى وجهه في المرآة فتكلّم بكلمات[9] كفر فلمّا أفاق أُخْبِرَ بذلك ، فبكى وندم وأمر برأسه فحلق شعرته وتاب ، وَوَجَّه في طلب القاضي سليمان وجمع علماء المدنيين والعراقيين[10] وسألهم فصعَّبوا عليه ، وركب إلى دِمْنَة ، وهو إسم مكان يجتمع فيه الزُّهَّاد والمرضى ، قال : ركب إلى دحيم[11] الضرير[12] المتعبّد وكان مستجابًا ، فأخبره وسأله الدّعاء ، ثمّ ركب إلى قصره في قضاته ووزرائه حتّى دخل على محمّد بن يحيى بن سلام التّميمي الفقيه ، فسأله عمّا صدر منه ، وهل له من توبة؟ فقال له : إن كنتَ اعتقَدْتَ ما تكلمتَ به فهو عند الله عظيم ، وإن كنت لم تعتقده فالتّوبة

---

5) في الأصول : «حدثت».

6) كذا في الأصول كما في بعض نسخ الحلل (أنظر هامش 2 من المناقب ص 2) والدّيباج وفي بعض نسخ المناقب «مسلم» و«أسلم» ، وفي رحلة التجاني ، وبعض نسخ الحلل (313/1) والمناقب «سالم».

7) 147/2 بتصرف.

8) أبو بكر عتيق بن خلف الفقيه الواعظ المؤرّخ (ت. 1031/422) أشهر مؤلّفاته «كتاب الطّبقات» ، و«كتاب الإفتخار بمناقب شيوخ القيروان وما تعلّق بهم من تاريخ فقهاء الأمصار» وهما مفقودان. أنظر معالم الإيمان 158/3 والإعلام 362/4 ومعجم المؤلّفين 248/6 وتراجم المؤلّفين التّونسيين 224/1.

9) في المعالم : «بكلمة».

10) هم أتباع مذهب أبي حنيفة.

11) ساقطة من ت.

12) في ط : «دحيم الغريق» ، وفي المعالم : أبي عبد الضرير.

مبسوطة فتب إلى الله تعالى ، وتقرّب إليه بالصّدقة ، فقال له : جزاك الله خيرًا كما دلّيتني على الله تعالى ، ولم تُؤَيِّسني من رحمته التّي وسعت كلّ شيء ، فظهرت من أبي إبراهيم آثار جميلة من أفعال البرّ والصَّدقات وبناء المساجد والمواجل حتّى مات ، ولم يترك في بيوت أمواله شيئًا بأن أخرج ثلاثمائة ألف دينار من بيت مال المسلمين فأمر ببناء ماجل باب تونس ، وبنى في جامع القيروان القُبَّة الخارجة عن البُهُور[13] مع الصفتين اللّتين تليانها من جانبيها جميعًا ، وبِلاَطَها الّذي بين يديها مفروش ، وعمل المحراب جُلِبَتْ له تلك القراميد[14] المهيئة[15] لمجلس أراد أن يعمله ، وجلب له من / بغداد خشب السَّاج [95/أ] ليعمل له منه عيدان الملاهي فعملها مِنْبَرًا للجامع ، وجاء بالمحراب مفصّلاً رخامًا من العراق عمله في جامع القيروان ، وجعل تلك القراميد في وجه المحراب وكَمَّلَ له رجل بغدادي قراميد زادها إليها وَزيَّنَه تلك الزّينة العجيبة بالرّخام والذّهب والآلة الحسنة ، وبنى ماجل باب [أبي][16] الرّبيع ، وأمر ببناء ماجل القصر الكبير بسوسة ، وبنى جامع مدينة تونس ، وَبَنَى سُورَ سوسة ، وبنى دار الملك بسوسة ، وبنى قصر لمطة[17] ، وبنى سور صفاقس ، وتصَدَّق بباقي المال على الفقراء والمساكين ، قال : وملك إفريقية وهو إبن عشرين سنة ، وعاش بعد هذه الحادثة خمس سنين[18] اهـ.

وقد تقدّم أنّ وفاته كانت سنة تسع وأربعين ومائتين[19] فيكون بناء سور صفاقس في سنة خمس وأربعين[20] وما بعدها.

وذكر[21] الشّيخ الفقيه أبو القاسم عبد الرحمان بن محمد اللّبيدي الحضرمي – رحمه الله تعالى – «أنّ علي بن سلم جدّ سيدي أبي إسحاق الجبنياني – رحمه الله تعالى – كان من أهل العلم من أصحاب سحنون بن سعيد – رضي الله عنه – وهو ولد سحنون من الرّضاعة ، أرضعته أمّ محمد بن سحنون مع محمّد ، ثم ولاّه سحنون قضاء

---

13) في المعالم : «البهو».

14) ج قرمد.

15) في المعالم : «اليمنية».

16) ساقطة من الأصول.

17) لمطة : بلدة بالسّاحل التّونسي ، وقصر لمطة يدخل في جملة الرّباطات الّتي أحدثت في القرن الثالث ، واشتهرت به وكان أمر ببنائه الأمير أبو إبراهيم أحمد ورابط به جماعة من العلماء والعبّاد منهم أبو هارون الأندلسي ، ويرجع تأسيس البلدة إلى العصر القرطاجي.

18) المعالم 2/147 – 148.

19) 863 م.

20) 859 م.

21) في مناقب أبي إسحاق الجبنياني.

صفاقس وسائر السّاحل[22] ، وهو ، فيما ذكر لي أحمد وغيره ، كان بنى[23] جامع صفاقس وسورها بالطّوب[24] وبنى المحرس الجديد[25]. قال : وكان يعدل في أحكامه ، وكانت له دنيا عريضة ، ومنازل كثيرة ، منها / جبنيانة وغيرها له بها رباع عجيبة ، وكان له بصفاقس رباع كثيرة ، ولقد وقع في مكاتبات سحنون إلى علي بن سلم قاضي صفاقس أنّه بلغني أنّ قبلك قومًا ينكرون المنكر بأنكر منه ، فازجرهم عن ذلك والسّلام»[26] اهـ.

[95/ب]

ثمّ بعد ذلك جعل النّاس على السّور المذكور أوقافًا ، إبتغاء لوجه الله ، فكلّما وقع جانب من سور الطّوب ردّوه بالحجر والجير ، وفي أيّام السُّلطان أبي فارس[27] الحفصي – رحمه الله تعالى – جُدِّدَ الباب الجبلي وما يليه من السّور ، واسمه مكتوب على الباب في حجر[28] وهو باق إلى الآن ، واعتنى النّاس ببناء السّور وترميم ما انهرش منه إعتناء كثيرًا ، وإلى الآن والحمد لله لا ينقطع منه الفعلة دائمًا وأبدًا ، فقد صار في غاية المنعة[29] والحمد لله.

---

22) صفاقس من السّاحل ، وما يعبّر عنه بالسّاحل فهو المنطقة السّاحلية الممتدّة من بوفيشة إلى المحرس آنذاك ويحدّده الجغرافيّون حاليًا من بوفيشة إلى الشّابة.

23) في الأصول : «بنا».

24) كشفت لنا الحفريّات الأثريّة في الرّكن الجنوبي الغربي من السور ، بقايا من الطوب المبني به هذا المعلم قبل تجديده.

25) في المناقب : «الذي يعرف بمحرس علي ، وهو الآن يعرف بمحرس علي» ، ص 3 ، هو البلدة المعروفة الآن ببلدة المحرس.

26) المناقب ص 2 – 3.

27) أبي فارس عبد العزيز كما جاء في النّقيشة الّتي تعلو الباب من الدّاخل.

28) نقرأ في هذا الحجر :

«بسم الله الرحمٰن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد النصر والتمكين
والفتح المبين لمولانا الخليفة الامام أمير المؤمنين أبو فارس
عبد العزيز ، عمل هذا الباب بمكانه في أوائل محرم فاتح شهور
ثلثة وعشرين وثمانمائة غفر الله لمن وقف وصرف». الموافق جانفي – فيفري 1420 م.

وجدّد الباب مرّة أخرى في شعبان 1224 / سبتمبر 1809 م على يد محمّد المنيف والتّاجر الأمين إبراهيم السّلاّمي.

29) كانت للسّور أوقاف ورباع ووكيل – مقدّم – يقوم بالإنفاق على السّور من أمواله . لإصلاحه وترميمه بمشورة أهل الحلّ والعقد ، وفي سنة 1748/1161 كان الحاج عبد العزيز السّلاّمي مقدّمًا على السّور حسب النقيشة الّتي تعلو باب الدّيوان من الدّاخل المقابل لجامع العجوزين.

الجامع الكبير :

ثمّ إنّ المسجد الأعظم لمّا تطاولت الأزمنة ، واستولى على البلاد الخراب من الميورقي والنّصارى وإبن كيداد[30] الخارجي ، والطّاعون ، والأعراب ، وغير ذلك – حسبما مرّ مفصّلاً – إستولى الخراب على معظم المسجد ، فاختصروه بتعمير الجانب الشّرقي منه وألغوا الباقي .

فلمّا منّ الله على الخلق بدخول العساكر العثمانية أذهب عن البلاد والعباد الفساد بقطع أيدي الجور والعدوان ، والبغي والشّقاق والعناد ، ولا سيّما دولة سيدي حسين باي – رحمه الله – فعمّت البلاد ، واطمأنّت العباد ، فظهر فضل في غلات أوقاف المسجد[31] مع ما زاده أهل الخير من أموال وأوقاف ، فاسترجع في كلّ زمان ما أمكن إرجاعه / من داثر المسجد ، بل قد وجد في بعضه إحداث حوانيت ودور فاشتريت من أيدي أربابها إذ بأيديهم حجج إشتراء الأرض من أهل الجور من المستولين على البلاد ، وكلّما استرجع جانب أدخل في المسجد ببناء على قدر الطّاقة في ذلك الوقت. [96/أ]

وكان الخطيب إذ ذاك سيدي عبد العزيز الفراتي الأكبر[32] الآتي ذكره – إن شاء الله – فقام في هذا الأمر غاية القيام مع مساعدة أهل الفضل من رجال البلد.

ولمّا وصلوا إلى آخر ما دُثِرَ وأرادوا إدخاله وجدوا أساس المسجد الأصلي فاستبشر النّاس بذلك ، ثمّ إنهم لمّا فرغوا من ذلك جعلوا على بعضه سَقْفًا من خشب وأبقوا بعضه بلا سقف على صورة الصحن ، وبقيت أسطر عُمَدِ المسترجع غير مناسبة لأسطر عُمَدِ الذي كانوا أبقوه لأنّ الأصلي كان قَبْوًا بالجير والحجر[33] فاسطواناته على قالة واحدة وأسطر إسطوانات المسترجع لمّا كان سقفه بالأخشاب ، والأخشاب أقلّ من قالة القبو ، بل الخشب تارة يوجد طويلاً وتارة قصيرًا ، وبقي المسجد على غير نظام مناسب ، فرغب أهل الخير في جعله على قالة واحدة بنقض بناء المسترجع ، ولأنّ سقف الخشب كثر فيه القاطر وخيف عليه السّقوط ، فاجتمع أهل الفضل من البلد ورأوا الصّلاح في نقض

---

30) مخلد بن كيداد صاحب الحمار.

31) كانت له أوقاف واسعة داخل المدينة وخارجها . ويملك متحف صفاقس وثيقة في تعداد أحباس الجامع مؤرخة في 23 رجب 14/1251 نوفبر 1835 والمحتسب إذ ذاك الحاج محمّد الشّعبوني.

32) بن محمد (1050 – 1641/1131 – 1719) درس بهذا الجامع بعد تخرجه من الأزهر الشّريف.

33) ساقطة من ط .

ذلك البناء ، وجعله مناسبًا للسابق ، ويكون سقفه قبوًا بالجير والحجر.

ولمّا وجدوا غلات الأوقاف كثيرة خافوا أن تدخل بَوَاطِنَ الوكلاء فَتَعَيَّن ما رأوه صلاحًا ، / فانتدبوا لذلك أكبر المهندسين ممّن له خبرة ونصح للمسلمين ، وهما المعلّمان الأكبران أمين البناء الحاج الأبر سعيد القِطيّ ، والمهندس المتقن المعلّم أسطى طاهر المنيف[34] ، فتقدّما للقيام بشؤون الصَّنْعة ، وقدم للقبض والصرف الأمين علي العذار وخطيب ذلك الوقت الشيخ سيدي حسن الشرفي – رحم الله جميعهم –. [96/ب]

فشرع المهندسون والفعلة في النَّقْضِ وحفر أساس الإسطوانات وتقوية ما يحتاج للتَّقوية لأنّهم ربّما وجدوا موضع بعض الإسطوانات كان صهريجًا أو بئرًا أو مرحاضًا فتتبَّعوا ذلك كلّه بالحجر الصَّلب والجير[35] الافراغ[36].

ولمّا أتقنوا مواضع الإسطوانات وضعوها في مواضعها مؤسَّسة البُنيان على قوة وإتقان ، وما وجدوه من العُمْدان[37] السَّابق غير لائق أتوا بعوضِه[38] بالشّراء أو الهبة من أهل الخير. فجعل من عنده عمودًا في داره مبنيًا يعرضه للبناء في المسجد رغبة فيما عند الله من الأجر ولو مع أخذ الثَّمن ، لأنّ النّيّة الصَّالحة تثبت الأجر كأمّ موسى أرضعت ولدها وأخذت أجرها ، والأعمال بالنّيّات ، فأكملوا بناءه على تقوى من الله ورضوان.

والفاصل بين المسترجع والذي قبله سطر العمدان الذي فيه بمكان الواحدة ثلاثة ، وهو سطر أخذ من الحائط الجنوبي منتهيًا لآخر المسجد.

---

34) من الشّائع أنّ أسرة المنيف من أصل أندلسي ، وقد اشتهر أفرادها أبا عن جد بإتقان صنعة البناء ، وكانت الحكومة تختار بعضهم للقيام بمهمة أمين هذه الصنعة ، وتركت لنا الوثائق المحفوظة بمتحف صفاقس ، والنّقائش التي بالمعالم الأثرية عدّة أسماء ، منهم زيادة على المعلّم الطاهر بن أحمد المنيف المشار إليه وابنه محمّد الذي كان بنى السقالة الدّفاعية في مقابلة مرسى المراكب.

35) يقصد اللّياط ، ويعرف عاميًا بالبغلي وهو خليط من الكلس (الجير) والرّمل بنسب معينة 3 نسب من الرمل و2 من الجير ويقع تحضيره على طريقة خاصة. أنظر محمّد المصمودي. *«L'habitation traditionnelle dans la banlieue de Sfax», Cahiers des A.T.P.*, n° 1, 1968, p. 31

36) في ط : «الافرا».

37) في ط : «العمد».

38) وهي عمد وتيجان أثرية من بقايا الرومان والرُّوم كما نلاحظه اليوم ، متناسقة مع العمدان التي بقيت قائمة في الجزء الأول من المسجد.

ونُقِل المحراب[39] من مكانه إلى الوسط ، وفي المحراب[40] مكتوب قوله تعالى ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا إسْمُهُ﴾[41] الآية ، ومن تحتها مقطعة من كلام أبي الحسن الغُرَاب وهي هذه / : [97/أ]

[الكامل]

تِهْ يَا صَفَاقِس وافتخِرْ طول المَدَى[42] عَجَبًا بمسجدِك العَدِيمِ مِثَالُهُ
سِيَمَا بِمِحْرَابٍ تكامَلَ حُسْنُهُ وَيَزِيدُ في نَظَرِ اللَّبِيبِ جَلاَلُهُ
أَبْدَى المَنِيفُ بِهِ المُعَلِّمُ طَاهِرٌ مَا رَقَّ مِنْ نَقْشٍ وَرَاقَ جَمَالُهُ
حَتَّى تَكَامَلَ قُلْتُ فِيهِ مُؤَرِّخًا مِحْرَابُ مَسْجِدِكَ انْتَهَى اكْمَالُهُ[43]

وهو إثنان وسبعون ومائة وألف[44].

ثمّ بعد مدّة ضاق المسجد بأهله فطلبوا زيادة مسجد ثان بخطبة ثانية ، فاستفتوا أهل العلم في ذلك فأجاز بعضهم لضرورة الضّيق ، ومنع البعض تمسّكًا بظاهر مشهور المذهب ، فاضطرَّ النَّاس لزيَادَة في المسجد طلبا للتّوسعة ، وكان في جهة الرُّكن الشّمالي الغربي ميضاة يمكن الإستغناء عنها وبعض حوانيت ملك لأربابها وبعضها خلو للمسجد الأعظم ، فأرضوا أصحاب الكلّ وأدخلوا الجميع في المسجد[45] ، وجعلوا العمدان على قالة المسجد.

وهذه الزّيادة حائطها الشّرقي ملاصق لصحن المسجد الأصلي ، ففتحوا فيه خمسة أبواب بهور وجعلوا عليها مصارع منقوشة بأبدع نقش[46] ، وتاريخ الفراغ من جميع ذلك سنة ثمان وثمانين ومائة وألف[47].

---

39) طمس المحراب القديم الذي كان يتوسّط الجامع ولم يعد كذلك بعد التّوسعة ، وأظهرته التّرميات الأخيرة ويرجع إلى الفترة الزّيرية.
40) أي المحراب الجديد.
41) سورة النّور : 36.
42) في الأصول : «المدا».
43) ما تزال بالمحراب ، وقراءتها به واضحة ، أنظر أيضًا ديوان علي الغُرَاب الصّفاقسي : الدّار التّونسيّة للنّشر 1973 ص 319 ، والتّاريخ بحساب الجمل 1171 وما أثبته مقديش هو الصّحيح.
44) 1758 – 1759 م.
45) أثبتت الحفريّات الأثريّة داخل هذا الرّكن من المسجد صحّة قول المؤلّف إذ وقع إكتشاف آثار مباني هي بدون شك آثار الحوانيت والميضاة المشار إليها.
46) أضيفت إلى أبواب البهور الخمسة الّتي ببيت الصلاة الأولى . وبكلّ هذه الأبواب زخارف وكتابات منقوشة =

وظهر في الخمسة الأبواب بهور المسجد السّابق الّتي تفتح للشّمال بعض انهراش واستاست[48] مصارعها لمضي سبعمائة سنة عليها ، فاتّفق رأي أهل الفضل على تجديدها ممّا فضل من غلاّت أوقاف المسجد فجدّدوها على نمط الخمسة السّابقة ، فاتّسق المسجد في بنائه وأبواب / بهوره ، وصار على أبدع نظام ، أبقاه الله معمورًا بذكره وتلاوة كتابه وقراءة سنّة نبيه ﷺ وعلوم شريعته المطهّرة ، والفراغ من الخمسة الأخيرة بتاريخ سنة سبع وتسعين ومائة وألف[49] ، وتجديدها على يد أكبر المعلّمين أسطى أحمد ابن الحاج عبد السّلام الشّعبوني[50] وإخوته من الشّعريّين[51] أصحاب الصّناعة . [97/ب]

السّقاية :

ثمّ إنّ البلد لمّا كانت مشتهرة بالعطش لأنّ عمدتهم[52] على شرب ما يختزن من ماء المطر ، وفي سنة الشّدّة يلجؤون[53] إلى ماء الآبار ، وآبارها غير عذبة لأنّها سبخة والعذب من الآبار بعيد ، فلمّا قدم النّاصر[54] من مرّاكش لإنقاذ[55] البلاد من يد الميورقي – حسبما مرّ مفصّلاً – وقدم إلى صفاقس وجدها في غاية العطش ، واشتكى النّاس ما هم فيه من العطش ، فأمر ببناء مصانع لطيفة خارج البلد من شمالها ، عدّة تلك المصانع بقدر أيّام السّنة : ثلاثمائة وخمسة وستّون[56] ، وقال : يكفيهم كلّ ليلة

= لآيات قرآنية وأشعار وأخرى تخلّد من أذِنَ بصنعها : وهما المفتيان عبد الرّحمان ، والحاج حمّودة والقاضي عبد السّلام أحفاد الشّيخ الإمام عبد العزيز الفراتي.

47) 1774 م.

48) نخرها السوس ، والسّوس هو الدّود الذي ينخر الخشب وغيره.

49) 1783 م.

50) كما جاء منقوشًا على الباب الثّالث والرّابع في الإتجاه الشّرقي.

51) ذكرهم.

52) في ط : «عهدتهم».

53) في الأصول : «يلجون».

54) بن يعقوب بن عبد المؤمن الموحدي.

55) في ط و ت : «لاستنقاذ» وفي ش : «انتقاذ».

56) مما يتفكّه به في الأوساط الشّعبية الصّفاقسيّة هذا اللّغز :

أنثى زميمـــة هي من عمر الجد إترضع في ثلاثمائة وستة وستين ولد

ماجل ، فبقيت على ذلك مدّة ، وسمّوها النّاصرية(57) ، ولمّا طالت الأزمان استولى الفساد على أكثرها.

فلمّا ملك البلاد محمد باي إبن مراد باي – رحمهم الله – جميعًا ، واستبدّ بعد أخيه علي باي – حسبما مرّ – وكان مُحِبًّا لفعل الخير طلب منه أهل البلد إصلاح الناصرية ، فأسعفهم بإحياء ما دثر منها(58) ، وجعل عليها سورًا محيطًا بها من جميع جهاتها وجعل عليها بابًا يُتَوَصَّل منه لدخولها.

ولمّا كثر أهل البلد وعمرت ولم يصبها الطّاعون مدة نحو ثمانين سنة شرع أهل الخير / في زيادة مصانع جديدة ، وكلّ يعمل بقدر طاقته ، فمن مقل ومن مكثر من واحد إلى أربع وأقل وأكثر ، وصار أكثر النّاس يوصون بثلث أموالهم(59) لبناء مصانع للماء في النّاصرية ، فكثرت وكَفَتْ النّاس في السّنين المخصبة ، وإذا توالت المسغبة رجع النّاس إلى شرب ماء الآبار ويحصل لهم بذلك تعب ومشقة شديدة ، فاشتهر البلد بشدّة العطش لا سيّما وهي مرسى مورد السُّفَّار بحرًا وبرًّا(60) ، ومورد الأمحال السّلطانية الشّتائية(61). وعلى البلاد عدّة أودية(62) إذا نزل المطر حملت الأودية بماء كثير يروي الأراضي ويصل إلى قرب سور البلد ثمّ يصب في البحر مع شدّة حاجة النّاس لبعض ذلك الذي يصب في البحر. [98/أ]

فلمّا كانت أيّام الباشا – رحمه الله تعالى – بعد سيدي حسين باي – رحمه الله – بلغه ما يقاسيه أهل صفاقس من شدّة العطش فاستدعى وجوه البلد من صفاقس ، وكان رجلاً شهمًا مهيبًا صعبًا فعرَّفهم أنّ قصده إنشاء فسقية لحفظ(63) ماء الأودية ، فخافوا أن يأمرهم ببنائها من أموالهم لعدم قدرتهم على ذلك ، فقالوا : إن الماء قريب من سطح

---

57) مع الأيّام وبتوسّع العمران إزدادت صهاريج النّاصرية كما سيشير المؤلّف ، وردمت النّاصرية باستثناء خمسة منها وبنيت في مكانها مدرسة ثانوية للفتيات تعرف بالنّاصرية.

58) ساقطة من ط و ت.

59) كانت للنّاصرية أوقاف كثيرة تشير إلى أهميّتها في حياة النّاس.

60) كانت صفاقس نقطة إستراحة وتزويد على الطّريق السّاحلي الرّابط بين الشّمال والجنوب ثمّ منه إلى طرابلس والشّرق ، وطريق القوافل البرّية في نفس الإتجاهات بإضافة إفريقيا السوداء عبر غدامس.

61) محلّة الشّتاء تذهب إلى الجريد لاستخلاص مجابيه لأنّ إصابته تعتمد على نتاج النّخيل.

62) واد القناطر وواد الشعبوني.

63) في ط و ت : «تحفظ».

الأرض ، وليس في بلادنا عمق في الأرض يتحمّل حفر الفسقية بمجاري الأودية ، فقال : إذهبوا وتفحّصُوا[64] وأخبروني ، قالوا : نعم ، فلمّا قدموا حفروا في أماكن لا تليق ، وعرفوه بعدم الإمكان.

فلمّا أفضت السّلطنة للمنعّم المرحوم برحمة الحيّ القيّوم ، صاحب الخيرات والإحسان والمبرّات ، ذي النّيّة الصّالحة والتّجارة الرّابحة ، من ذَخَّرَ[65] الله له كنزًا من دعاء الخير / ونزول الرَّحمة لاَ نَفَاذ له حتّى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين [98/ب] لتجدّد الدّعاء الصّالح عليه من الصّغير والكبير ، والغني والفقير ، والذّكر والأنثى ، والحرّ والعبد ، ليلاً ونهارًا ، صيامًا وإفطارًا ، إحضارًا وإسفارًا ، في الشّدّة والرّخاء ، ألا وهو السّلطان الأفخم ، والمقام المعظم والأعظم ، سيدي علي باي إبن سيدي حسين باي - خلّد الله الملك في أخلافه - وأحَلّه دار الرضى والرضوان مع جملة أسلافه.

فلما أقرّ الله عينه بالملك ، ولم يبق معه من يخالفه وتَمّت عليه نعمة الله ، وأراد شكر ما تولاّه ، تتبّع بنظره السعيد من هو أحوج لفعل الخير ، فكشف الله عن بصيرته حتى رأى حاجة أهل صفاقس لحفظ مياه أوديتها ، فأمر قائد البلد إذ ذاك ، وهو المرحوم المنعّم صاحب السّياسة السُّلطانية ، والآداب الملوكية بكّار الجلولي[66] بالنَّظر في شأن هذه القضيَّة وكان - رحمه الله - حريصًا على حبّ الخير سيما في شيء يعود نفعه لأهل[67] بلده ، وأجره لسُلْطَانه ، وكان سبّاقًا للغايات ، محبًّا لإظهار المزيّات ، لا سيما فيما يبقى ثوابه لفاعله بعد الممات من إجراء الأنهار ، وحفر الآبار ، وحسبما ذكره النبيء المختار - عليه صلاة الله وسلامه أثناء الليل والنهار - والدَّال على الخير كفاعله ، فامتثل الأمر ، وبادر إلى فعل الخير ، وأحْضر أكابر المهندسين ممّن له خبرة بحفر الأنهار واستنباط المياه كأمين البناء الحاج سعيد القطي ، وأسطى طاهر المنيف - المتقدّمي الذّكر - / [99/أ] وغيرهما ممّن له نظر في صناعة المياه ، وأمرهم بالخروج للنّظر في الأرض لطلب مكان يصلح لوضع الفسقية ، فوقع إختيارهم على موضع مُعَيَّن بعده من سور المدينة بقدر ميل

64) في ط : «ابحثوا».

65) في ط و ت : «ادخره».

66) بن علي بن فرحات (ت. في سنة 1782 م) وأسرة الجلّولي من أكبر أسر صفاقس في القرنين الثّامن والتّاسع عشر ، وخدم أفرادها السّلطنة الحفصية والعثمانية في أغلب الأحيان برتبة ولاة (قياد) بصفاقس وغيرها من الأوطان.

67) في ط : «على أهل».

من الجهة الغربية[68] التي تأتي منها الأودية ويصل إليها الماء بالمطر اليسير ، فَعَرَّفوا السّلطان بذلك ، فجاء الجواب من السُّلطان بالأمر بالشروع في العمل ، ولمّا شرعوا في الحفر وأخرجوا التّراب من الأرض ، وكان النّاس في شدّة العطش ، ولم يكن الوقت أوان المطر أنشأ الله السَّحاب ، وأنزل من السَّماء ماءً مباركًا بالقرب منها فسالت مياه بقدرها ، واجتمعت فيما حفروه فانتفع النّاس به أيّامًا ورأوه فألاً حسنًا ، ومن ذلك الوقت لوقت التّاريخ لم تخل سنة من السّنين إلّا وتمتلئ إما في أوّل السَّنة أو وسطها أو آخرها ، وفي ذلك دلالة على صلاح نيّة منشئها وقبول عمله لأنّه لله ، وما كان لله دام واتصل.

ثمّ إنّ أهل البلاد اختاروا للقيام بأمرها في قبض المال وصرفه الحاج الأبر الفقيه النّبيه أبا عبد الله محمّد إبن الحاج الأبر الفقيه العدل الأمثل الشَّيخ المسنّ الصَّالح أبي العبّاس أحمد الشّعبوني ، لأنّه أصلح رجل يقوم بهذا الشأن ، ولأنّه قبل بناء الفسقية كان حفر بئرين غربي البلد ، وفّق الله فيهما لعذوبة مائهما ، كان قصد بهما سقي أشجاره فلمّا استعذبهما النّاس أوقفهما على المسلمين ، فانتفع الناس بهما مدة ، تقبَّل الله عمله.

وأمر السُّلطان – رحمه الله – أن يكون المال المصروف على / الفسقية من غلّة الزّيتون الجالي[69] بغابة صفاقس ممّا لم يعرف له مالك لأنّه فيء للمسلمين ونظره للسُّلطان ، فبذل المعلّمون جهدهم وكذا القائد والمقدم حرصًا على فعل الخير ، وخوفًا من عوائق الدّهر ، فاغتنم النّاس الفرصة ، وأمّن الله السُّلطان ، واطمأنّت الأوطان بقدر حسن نيّة السُّلطان ، فجاءت في أسرع زمان ورِفْقٍ في المصروف بالنّسبة لغيرها ، فيسَّر الله الإتمام ، وظهرت بركاتها للأنام ، فاستبشر المسلمون وحصل للكلّ من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلا الله ، وأخبروا السُّلطان بالتّمام واستبشر ، واستقلّ[70] المصروف ، وعلم أنّ الأمر كان عناية من الله ، تقبَّل الله عمله وجعله سببًا للسّعادة الأبديّة ، وخلَّد الملك في ذرّيّته ، وأجرى الصَّالحات على أيديهم. [99/ب]

ولمّا ظهرت بركاتها ونفعها ، رغب أهل الخير في العمل الصَّالح بأن جمعوا ما تيسّر من الأموال ، وحفروا صهريجًا عظيمًا ملاصقًا للفسقية ، وأبقوا سور الفسقية حاجزًا بينهما ، فلمّا حملت الأودية دفعت بقوّتها ذلك الحاجز ، وكان بعض النّاس فوقه

---

68) هذه الفسقية ما زالت موجودة إلى الآن وتقع في وسط حديقة عمومية كما أشرنا.

69) الجالي في اللّغة الدّارجة «البرّي».

70) كذا في ط و ت ، إستقل أي وجده قليلاً ، وفي ش : «استقال».

يتفرّجون ، فلمّا دفعته المياه وقع من كان فوقه في وسط ذلك الماء[71] المستبحر فتسارع النّاس لإنقاذهم فأنقذوهم ، وحضر أجل واحد – رحمة الله عليه – مات شهيدًا ، فأخبروا السّلطان بالواقع فجاء الجواب بأن لا أريد أن يشاركني أحد في هذا الأمر رُدُّوا الأموال لأربابها وأَدْخِلُوا الصِّهْرِيج في الفسقية ، فامتثلوا الأمر.

[100/أ] ولمّا تمّ أمرها وتواترت الأودية / ظهر في مكان إنضغاط الماء بعض تغوير حوالي جدرانها وأساسها فخافوا أن يظهر خلل فيها مع طول السِّنِين ، فسعوا في تدعيم جدرانها وأساسها والإكثار من صَبِّ التُّرَاب حواليها وبناء أسوار تذهب بقوّة وصول الماء ونزوله فتمّت النّعمة وعَمَّت الرَّحْمَة ، وكلّما امتلأت أخبروا مولانا السّلطان بحصول الخير وبَشَّرُوه بانفتاح باب أدعية الْخَير من كَافَّة النَّاس وبظهور سرورهم وتجديد صالح أدعيتهم في كلّ وقت وحين ولو سكنت ألسنتهم نطقت جوارحهم بالدُّعاء والثَّنَاء[72] الجميل . قال الشاعر :

[الطّويل]
فعاجوا فأثنوا بالّذي أنت أهله ولو سَكَتُوا أثنت عليك الحَقَائِبُ[73]

ويوم امتلائها عندهم يوم عيد كما عند مصر يوم جري[74] النِّيل وأنشدوا فيها الأشعار[75] وأحسن ما قيل فيها ما أنشده الأديب الأريب الشّيخ أبو إسحاق إبراهيم الخرّاط[76] صاحب القصائد المشهورة ، والأدبيات المنظومة والمنثورة ، مادحًا للسّلطان ومتوسِّلاً في تولية منصب الإشهاد فقال :

[الوافر]
سَلُوا أَهَوَاكَ[77] عين المستحيل فَما يُغْني إذًا[78] عَذَل العَذُول
أأسلوه وطرفي سارح في ريـاض من محيـاك الأَسِيـل

---

71) في ط : «المياه».
72) في ط : «انشاء».
73) كذا في ط وفي ش : «الحنايب» وفي ت : «المغايب».
74) في ش و ت : «جبر».
75) في ش : «أشاعر».
76) سيترجم له المؤلّف فيا بعد.
77) في ط و ت : «سلو أهواك» وفي ش : «سلو هواك».
78) في ش : «اذن».

يلوح عليـــه خَـــالُ عَنبَرِي كزنجيٌّ يمانـــع للـــدخـول
فَيَا دَوْرَ العِذَارِ عليه[79] ماذا التَّسلسـل[80] فيـه منك بلا دَلِيـل
وكيـف اخضرَّ نَبْتُك وَسْط نار أكَـانت هـذه نـارُ الخَليـل / [100/ب]
أَحالت لي عيون النَّاس دينًا عليك مُثبت بِهَوى العـدول
وقاضي الحب يحكم لي[81] وهذا ثبوت رِضَى المحَال مع المُحيل
وهَبْكَ أسرتني وملكت رقي أتقتُلني بنـاظرك الْكَحيـل[82]
قد استَفْتَيْتَهم[83] قتل الأسارى أيـذهبُ قـاتـل بـدمِ القَتيل
رويـــدا إنِّني مُتخلِّص من وثـاق الأسرِ بـالملك الجَليـل
أبِي الحَسَنِ المليكِ عليّ باشا سَليـلِ حُسَيْنِ الملكِ الأصيل
هـو النَّفَّـــاعُ والضَّرَار جُودا وبـأسا للـذّليـل وللظَّليـل
مُحـاول مجده أتزيـل مـا في مَبيتِ صالح وهنـا مقيـل
ومـا بـالسيف تُلْتَمَسُ المَعالي ولَكِن بـالسَّعـادة والقَبول
أَمَوْلايَ الذي سلب العِدَا في[84] مواقف دونها سَلْبُ العقول
رُقيتَ مَرَاقِيَ الأفلاك فينـــا فَدُسْ هَامَ الكواكب بالخُيول
وأَوْرِدْهَا المجرَّة[85] واجْنِ زهر الثريـا واقتطفتـــه بِلاَ ذُبول
وفُضَّ نطاق جَوْزَاهـا وجاوز بسبقِ غير هيَّـــاب مَلُول
فتعتصمَ الـدَّراري لـو تُجارى خُيولَك بالوقوف أو الأُفول[86]
وتَحْتَجِبَ الرِّيـاحُ فما[87] لديها مهبٌّ من شمال أو قبول
فَصِلْ واعزِم على الاعدا بدهر ولا تَصْحَبْـه الا بـالنُّصول
فأنت حليفُ[88] سرج مع عنان ومنطقـــة وهنـدِيّ صقيـل
وأنت أخـو المكـارم والمعـالي ومَلْجَؤُنـا من الخطب المذيل

---

79) ساقطة من ت.
80) في ط : «اتسلسل»، وفي ت : «السلسل».
81) في ط و ت : «يحكم ويا».
82) في ط : «بنظرك الكليل».
83) في ط : «أستقتيهم».
84) في ت و ط : «العراقي».
85) كذا في ش وب، وفي ط : «الجمرة»، وفي ت : «الحجرة».
86) بيت ساقط من ب.
87) في ط : «فيما».
88) في ش : «خليف».

أميرَ المؤمنين بقيتَ سترا على الخضراء بمُلكٍ مستطيل
ولا زالت عبـــادُ الله تثني عليك ثَنَا الرِّياض على السّيول
[101/أ] أرحت صفاقسا من كدِّ مَحْلٍ ومن عطش ومن كرب طويل /
ومن شُرْب من الآبار ملحاً يَزِيـدُهُمُ لهيبا في الغليل
فقد روَّيْتَهم ببسبيل[89] ماء له تُجْبى[90] السُّيول لدى النّزول
فيملأُ[91] بركة عَذُبَت وراقت وجَعَّدها النّسيم لدى الأصيل
كأن مياهها عَسَلٌ مصفى فيا لِلّه من ذاك السّبيل
فأنشد في تمامه إن تُؤَرّخ سبيل جا كطعم السّلسبيل
لك الله المقدَّس من أمير حكَيم الدِّين والدّنيا نبيل
بثت صنائعا في الناس كانت[92] ملوك سواك عنها في نكول
وها هي بالعيان دليل صدق مدى الأزمان لا قول القَؤُول
ومثلُك لا يظنّ المال يبقى ولا يبقى سوى قصد السَّبيل
على المعروف والدّنيا ضمان لكم بالملك والعمر الطَّويل
مدحتك أيّها الملك المُعلَّى بدُرٍّ فاق من بحر الخَليل
ولو أنّي قدرت على الدَّراري لكم نضَّدتُها عِوض المَقُول
شهدت بمدحكم نظما فحقّ[93] لي التّنضيدُ في سِلك العُدول
بقَيتَ بقَا الزمان أخا وفاء تُحقّق كل مأمول جليل
عليك مخلَّدٌ مُلْكٌ ضَخِيم وعزّ في السَّعادة والقَبول
وصلّى الله ربُّ النّاس طرًّا على المختار سيّدنا الرّسول
وآله ثم صحبه[94] ما تغنّت على الأغصان وُرْقٌ في الأصيل.

وكيفية [وضع][95] هذه الفسقية أنّ شكلها مربَّعٌ مستطيل ويجانبها من ناحية

89) كذا في ش و ت، وفي ب: «سبيل»، وفي ط: «بسبيل».
90) بياض في ط.
91) بياض في ط.
92) كذا في ط، وفي ش: «كان أت»، وفي ب: «كا»، وفي ت: «كنت».
93) كذا في ش و ب، وفي ت: «يحق» وفي ط: «بحق».
94) في ط: «صحب».
95) ساقطة من ش.

الشّمال فسقية صغرى ينزل الماء (إليها أولاً بما احتمل السّيل من زبد وغثاء[96] ، وبعد ركوده بعض ركود[97] ينزل الماء)[98] من الصّغرى للكبرى من طيقان بينهما / ويبقى الزّبد [101/ب] والغثاء في الصّغرى ، وبعد مضي جملة من السّنين يزيلون ما تجمع فيهما من الحمإ ليبقى الماء على عذوبته ويتّسعان بفراغ موضع الحمأة ، وجعل المهندسون في جانبها الشّرقي قبوا على طائفة منها ، وجعلوا فيها أفواهًا لاخراج الماء وجعلوا عليها سورًا من جميع الجهات حفظًا لها وجعلوا فيه[99] أبوابًا لدخول المُسْتَقِين.

ولمّا كان شكلها مربّعًا بطريق مساحتها ليعلم قدر ما تحمله من الماء يكون[100] بضرب أذرع الطّول في أذرع العرض ، وما يخرج فيضرب في أذرع العمق ، فيخرج عدّة ما فيها من الأذرع.

فطول الكبرى من المشرق إلى المغرب مائة وخمسة عشر ذراعًا ، وعرضها من الشّمال إلى الجنوب مائة ذراع إلّا ذراعًا ، وعمقها الحامل للماء سبعة أذرع ، فإذا ضُرب أذرع الطول في أذرع العرض خرج خمسة وثمانون ذراعًا وثلاثمائة وأحد عشر ألف ذراع ، والخارج من ضرب هذا الخارج في سبعة العمق خمسة وتسعون وستمائة وتسعة وسبعون ألف ذراع.

وطول الصّغرى كطول الكبرى مائة وخمسة عشر ، وعرضها أحد وثلاثون ذِرَاعًا ، وعمقها أربعة أذرع إلاّ ربعًا ، فإذا ضَرَبْتَ عرضها في طولها خرج خمسة وستون وخمسمائة وثلاثة آلاف ذراع ، فاذا ضَرَبْتَ هذا الخارج في العمق ، وهو أربعة إلاَّ رُبُعًا ، خرج ثمانية وستون ذراعًا وثلاثمائة وثلاثة عشر ألف ذراع. (وثلاثة / أرباع ذراع ، [102/أ] فإذا جمع[101] خارج ضرب الكبرى بخارج ضرب الصغرى بلغ ثلاثة وستّين ذراعًا وثلاثة وتسعين ألف ذراع وثلاثة أرباع ذراع)[102].

وأخبرني المهندس أسطى محمّد المنيف أنّ الذّراع من الماء يملأ أربع قلال[103] فيكون الخارج من عدة الأذرع هو عدة وقر[104] الحمار لأن وقر[104] الحمار أربع قلال فإذا

96) في ت : «عشاب».
97) بعض ركود : ساقطة من ت و ط.
98) ما بين القوسين ساقط من ط.
99) في ش : «فيها».
100) ساقطة من ت و ب و ط.
101) في ط : «ضرب».
102) ما بين القوسين ساقط من ب.
103) ج قلّة وهي من الفخّار. وفي ش : «قلل».
104) الحمل الثّقيل. تاج العروس 605/3.

أريد عدة ما في الكبرى والصّغرى من القلال فاضرب عدة الأذرع في أربع يخرج عدّة ما فيهما من القلال وذلك ظاهر.

وجملة ما أصرف على الفسقية من أولها إلى آخرها أربعة عشر ألف ريال ومائة ريال وثمانون ريالاً.

وكان إبتداء بنائها أوائل شوّال من سنة ستّ وثمانين ومائة وألف(105)، وانتهاؤه أواخر ربيع الثّاني من شهور سنة ثمان وثمانين ومائة وألف(106).

وبعد الفراغ من بنائها على التَّمَام أمر السُّلطان – رحمه الله تعالى – ببناء فندق وقفا عليها، تُصْرَفُ غلاّته في مصالحها إتمامًا لهذه النِّعْمَة على الخلق، أتمّ الله عليه وعلينا النّعمة بدخول دار الرضا والرضوان، والتّمتّع بالنظر إلى وجهه الكريم، فشرع المقدّم المذكور في بناء الفندق بالرّبض(107) قرب باب بحر المدينة، وكان المصروف عليه نحو ثمانية آلاف ريال، والفراغ من بنائه سنة إثنتين وتسعين ومائة وألف(108).

الربض القبلي:

وهذا الرّبض لم يكن قبل وإنما أحدثه الناس بأمر السُّلطان المذكور – رحمه الله تعالى – بعد الإستئذان فيه مرّة بعد أخرى، فأذن في سنة تسع وثمانين / [10/ب] ومائة وألف(109) فبنى النّاس فيه، ولولا ما نزل بالناس من الطَّاعون سنة تسع وتسعين ومائة وألف(110) لضاق بالنّاس.

واستجدّ بهذا الرّبض من رغب في فعل الخير وما عند الله من الثَّواب(111) والوعد الحسن لمن بنى لله مسجدًا ولو كَمُفْحِصِ(112) قطاة أن يبني الله له بيتًا في الجنّة، وهو التّاجر أبو محمّد حمودة إبن التّاجر الحاج الأبر أبي العبّاس أحمد إبن التّاجر الحاج الأبر أبي عبد الله محمد السَّلاَّمي، فبنى المسجد المشهور بالرّبض في طريق باب البحر من خالص ماله إبتغاء مرضاة(113) الله تعالى، ورَتَّبَ له ما يحتاجه من إمام ومؤذّنين وقرّاء

---

105) أواخر ديسمبر 1772 م.

106) 10 جويلية 1774 م.

107) ما يعرف بالرّبض القبلي.

108) 1778 م.

109) 1775 م.

110) 1784 – 1785 م.

111) في ط و ت و ب: «المثوبات».

112) في ط و ت و ب: «كفحص».

113) في الأصول: «مرضات».

وحفظة ، وبنى له ميضة[114] وصهريجًا ، وأجرى عليه ما تتوقّف عليه العبادة عادة من حصر ووقيد وغير ذلك مما تتوقّف عليه المساجد ، وأوقف عليه رباعًا وعقارًا يصرف محصول غَلاَّتها على المسجد والقائم به ، تقبّل الله عمله وجعله عملاً خالصًا لوجهه الكريم ومقبولاً ومشكورًا وأناله به جنّة وحريرًا ، وانتهاء بنائه سنة تسع وتسعين ومائة وألف[115] ، وابتداء التّعمير سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف[116].

كسوف بالشمس :

وفي سنة سبع وتسعين ومائة وألف[117] وقع تَغَيُّرٌ في الهواء فَكَثُفَ حتّى كان الجوّ يظلم وتظهر الشمس بصورة الإنخساف ولا خسوف بها ، وإذا بقي للغروب قيد رُمْحَين[118] زال[119] نور الشمس بالمرّة من شدّة كُدُورَةِ[120] الهواء فيظهر في مرأى[121] العين أنّها غربت والحال أنّها فوق الأفق ولا سحاب هناك بل غِلْظُ هواء / وتتابعت[122] [103/أ] خسوفات في القمر.

الطّاعون وأثره :

وكثر الطّاعون بأرض المشرق من مصر وبلاد الترك ، فلمّا كانت سنة ثمان وتسعين ومائة وألف[123] (ظهر بجمّال من بلاد السّاحل واستمرّ لتونس[124] ، وفي أوّل سنة[125]

114) تعبير عامي ، والفصيح : «ميضاة».
115) 1784 – 1785 م.
116) 1779 م.
117) 1783 م.
118) في ط : «قدر رمحين» ، وفي ت : «قدر عين» ، وفي ب : «قيدر عين».
119) في ت : «زوال».
120) في الأصول : «كدرة».
121) في ط : «بمرآى».
122) في الأصول : «تتابع».
123) 1784 م.
124) في ط : «بتونس».
125) جانفي 1785 م.

تسع وتسعين ومائة)[126] وألف عَمَّ إفريقية وطرابلس والجزائر ، ففي شهر ربيع أوّل[127] من السّنة المذكورة ضَرَب بصفاقس رجل ومات من يومه ، وأصيب غدًا آخر وآخر ، ثمّ كثر وتضاعف حتى انتهى لنحو مائتين وخمسين في كلّ يوم ببلد صفاقس ، ثمّ أخذ في الرَّاجعِ[128] على نحو مائة إلى نحو ما نزل[129] ، ولقد عَمَّ المدن والقرى والحاضرة ، وغالب البادية ، والجزر كجزيرة جربة وقرقنة ، وحرز[130] من مات من صفاقس[131] في أمد أيّام الطَّاعون فكان نحو خمسة عشر ألفًا ، وفي النّساء أكثر منه في الرِّجال ، ولم يبق من الزّنج إلاَّ النَّادر الّذي لا يعدّ ، ومات أكثر أهل الخير والصَّلاَح ، وحملة القرآن العظيم ، وأكثر الفقهاء ، واسودّت الدّنيا في أعين أبنائها ، وأيِّسَ الناس من حياتهم وعجزوا عن الحمل والدَّفْنِ ، ولا نَفْعَ[132] تميمة[133] ولا رقيًا ولا تعاويذ ولا بخور ولا كتابة على أبواب الدُّور ، ولا غير ذلك ممّا يذكره بعضهم ، فلذا قال الشَّيخ الأديب أبو الحسن علي ذويب – رحمه الله وعفا[134] عنه – وقد مات بالطَّاعون في الأمد المذكور لمّا أصيب به ، وكان يميل لبعض أقوال الحكماء المُتَطَبِّبِين وأصحاب الطلسمات وشبهم : الآن أيقنت أنّ التأثير لله ، وأنّه الفعَّال لما يريد ، وكفرت بما يقوله الحكماء المتطبّبون / من إستعمال أكل مخصوص ، وشرب مخصوص ، وبخور مخصوص ، واستفراغ فضول فصدًا أو إسهالاً ، فإن الكلّ باطل ، وإن ما قضاه الله كان ، فقد فعلت ما أمروا به ولم يغن عنّي شيئًا . [103/ب]

وأبْلَغُ من هذا أنّ العدل أبا الحسن علي العش – رحمه الله تعالى – كان أغلق بابه وقطع الدّاخل والخارج زعمًا أنّ الهواء يفسد بالمجاورة فيدفع الفساد بتغليق الأبواب وقطع المخالطة ، وكان صحيحَ الإعتقاد إلاّ أنّ الخوف يحمل الإنسان على أشياء لا اختيار له

______

126) ما بين القوسين ساقط من ط .

127) جانفي – فيفري.

128) تعبير عامي والفصيح التراجع .

129) في ط و ت و ب : «بدى».

130) في ت : «وحصر».

131) في ط : «بصفاقس».

132) في الأصول : «فيه».

133) في ت : «تحميه».

134) في ش : «عفى».

فيها كما خاف الكليم – عليه السّلام –[135] من العصا حين ألقاها فصارت ثعبانًا ، فلمّا فرغ الطّاعون واطمأنّ وفتح بابه ودخل وخرج أصيب في جوفه ، فأقام ثلاثة أيام ثمّ انتقل إلى[136] رحمة الله تعالى ، فكان آخر من أصيب بالطّاعون.

وفيما ذكرناه من وصف البلد مع ما تقدّم في صدر الكتاب كفاية.

صوف البحر :

وذكر التّجاني أنّ بحر صفاقس يوجد به صوف البحر[137] الذي يعمل منه الثّياب الرّفيعة الملوكية وربّما وجد في بحرها صدف يشتمل على لؤلؤ صغير الحب[138] اهـ.

قلت : أمّا الصّوف البحري فيوجد منه الأخضر ، قيل : إن أهلها كانوا يشتغلون منه بعض الثياب والآن ما رأينا من يستعمل ذلك ، وبلغنا أنّ الباشا[139] – رحمه الله تعالى – أمر أهل جربة فاستخرجوا له صوفًا بين السّواد والحمرة واشتغلوا[140] له منه طيالسة.

وهذا الصّوف ينبت على الحجارة في أقاصير البحر ، وأما حبّ اللؤلؤ فما رأيناه ولا أخبرنا أحد / بذلك فلعله كان وانقطع ذلك. [104/أ]

---

135) ساقطة في ط و ب و ت.

136) ساقطة من ش.

137) يرى هادي إدريس (R.H. Idriss: *La berberie orientale*, 2/635). ، أنّ صوف البحر قزّ رطب ، ينبت في أطراف نوع من المحار المثلّث الشّكل.

ولكنّ النّصوص العربية القديمة تعتبره غير ذلك ، يقول القلقشندي في صبح الأعشى إعتمادًا على إبن سعيد في تقويم البلدان : «ومن بحرها يستخرج الصّوف المعروف عند العامة بصوف السمك الذي تنجز منه الثّياب النّفيسة» قال إبن سعيد : «أنا رأيته كيف يخرج ، يغوص الغوّاصون في البحر فيخرجون كمائم شبيهة بالبصل بأعناق ، في أعلاها زويرة ، فتنشر في الشمس ، فتنفتح تلك الكمائم عن وبر ، فيمشط ويؤخذ صوفه فيغزل ، ويعمل منه طعمة لقيام من الحرير وتنسج منه الثّياب» والنّسيج المصنوع من هذا الصّوف يتلون عند رؤية العين ويدخل في باب الأنسجة المعروفة بالبوقلمون – القرمسود عند العامّة – ومن المؤرخين من يطلق إسم البوقلمون على الصّوف نفسه ، أنظر إدريس (*La Berberie*...) ، نفس المرجع ، وعلي الزواري ، صفاقس ، دار الجنوب للنشر ، تونس 1980 ص 63.

138) رحلة التّجاني ص 68.

139) يقصد علي باشا الأول.

140) في ط و ب : «اشتغل» وفي ت : «وصنعوا».

آراء بعضهم في صفاقس :

ثمّ قال التّجاني : ومرساها مرسى حسن ميّت المات والماء يمدّ به ويجزر عنه كلّ يوم ، فإذا جزر استوت السفن على الحمأة ، واذا مَدَّ طَفَتْ[141] على الماء ، وفي المدّ والجزر يقول بعض المجيدين من شعرائها وهو علي بن حبيب التنوخي وسيأتي ذكره قريبًا :

[مجزوء الكامل]

سَقْيًا لأرضِ صفاقسَ ذَات المَصَانِع والمُصَلَّى
فَحمى[142] القصير إلى الخليج فقصْرِها[143] السَّامي[144] المُعَلَّى
بلد يكاد يقول حين تَزُورُه أهْلاً وسهلاَ
وكأنَّهُ والبحر يجزُر[145] تارة عنه ويمْلاَ
صَبٌّ يريد زيارَةً فإذا رأى الرُّقَبَاء ولَّى

وأين هذا من قول أبي عبد الله محمد إبن الشّيخ الصّالح أبي تميم المعز[146] بن سليمان يذمها ويخيل أنّ هذا الجزر هروب من البحر عنها لقُبْحِهَا ، وقد كان ولي إشرافها[147] سنة خمس وستين وستمائة[148] فقال فيها :

[البسيط]

صفاقس لا صفا عيش لساكنها ولا سَقَى أرْضَهَا غيْثٌ إذا انْسَكَبَا
ناهيك من بلدة[149] من حَلَّ سَاحَتَها عانى[150] بها العادِيَيْن الرُّوم والعَرَبَا
كم ظَلَّ[151] في البحر مسلوبًا بضاعَتَهُ وبَاتَ في البحر يشكو الأسر والعَطَبَا

---

141) في الرّحلة : «عامت».
142) في الأصول : «تحمي» والتّصويب من الرّحلة. وفي الحلل السّندسيّة 312/1 : «يحمي».
143) في ش و ب و ط : «بقصرها» وفي ت : «فقصرا» والتّصويب من الرّحلة.
144) كذا في ت و ب والرّحلة ، وفي ط و ش : «اسامي».
145) كذا بالأصول والحلل ، وفي الرحلة : «يحسر».
146) في ط : «المقرى».
147) الإشراف هو رئاسة القمارق.
148) 1266 – 1267 م.
149) في الأصول : «بلد».
150) في الأصول : «عانا».
151) في الأصول : «ضل».

وُليتُهـــا فتولتني الهموم وقــد لقيت من سَفَري[152] في أرضها نَصَبَا
قد عاين البحر قُبْحًا[153] من جوانبها فكلَّمَا هَمَّ أن يدنو لها هَرَبَا[154]

قلت : من بلاغة الكلام مطابقته لمقتضى الحال ، وكلّ شاعر يتكلم بمقتضى حاله ، (فالأول كان صاحب بخت وسعد / فجاء في وقت سعيد ورأى ما يبسطه فنطق بمقتضى حاله)[155] (والثّاني كان منحوسًا فنحست البلاد به فرأى ما يُقْبِضُه فنطق بمقتضى حاله)[156] والبلد على بخت أميره[157] فإن كان سعيدًا سعد[158] به وإن كان نحيسًا نحس[159] به وأمّا البلد[160] في حدّ ذاته فلا يقتضي سعدًا ولا نحسًا. [104/ب]

والرّوم والعرب لا تختصّ أذيّتهما[161] بصفاقس ، فإن أمّ إفريقية وبلاد أصحاب رسول الله ﷺ هي مدينة القيروان بلا دفاع ولا نزاع ، وقد أصابها من العرب وغيرهم ما يُبْكِي الدّم بعد الدّمع – حسبما مرّ مفصّلاً – ، وهذه تونس كرسي إفريقية وقد أصابها من الأعراب والميورقي[162] والرّوم ما يُذْهِلُ العقول – حسبما مرّ – وكلّ ذلك لا يوجب قدحًا في القيروان وتونس ، ولكن ما زالت الأخيار تمتلئ بالأشرار من لدن آدم – عليه السّلام – وقد قال جلّ قائلاً ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوفِ﴾ الآية[163] ، هذا إن صدق الشّاعر في شعره ونطق بمقتضى حاله ، وإلاّ فكثير منهم يذمّ من لا يستحقّ ذمّا من كثرة هَيَمَانِهِم فيتردّدون بين طرفي الإفراط والتّفريط في المدح والهجاء كما قال جلّ ثناؤه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾[164] الآية ، على أنّا لو عملنا بقول كلّ شاعر وتمسّكنا به وطعنا فيمن طعن فيه لطعنا في أهل تونس وسوسة لقول التّجاني : وممّن

---

(152) في ط : «سفرها».
(153) في ط : «في».
(154) أنظر رحلة التّجاني ص 68 – 69.
(155) ما بين القوسين ساقط من ط.
(156) ما بين القوسين ساقط من ش و ب.
(157) في الأصول : «أميرها» والبلد مذكر.
(158) في ش و ط و ب : «سعدت» ، وفي ت : «فسعدت».
(159) في الأصول : «نحست».
(160) في الأصول : «البلاد».
(161) في ط : «اذايتهما».
(162) هو ابن غانية.
(163) سورة البقرة : 155.
(164) سورة الشّعراء : 225.

ينسب إلى سوسة شيخ شيوخنا أبو عبد الله محمّد بن عبد الجبّار الرَّعَيْني السوسي قال : كان يداعب طلبته من أهل تونس بسؤاله عن قول الشَّاعر : / [105/أ]

[الخفيف]

لا تَلُمْنِي على الدَّناءة إنّي ... تُونِسي وجُزْتُ يَوْمًا بسُوسَة

أيٌّ البلدين يقتضي الشّعر أن يكون أعظم دناءة؟ فيقولون له سوسة[165] اهـ. مع أنّا لا يمكننا الطَّعْنُ في تونس وسوسة لتحَقُّقِنا قَطْعًا فضل أهلهما، وكفى حطَّة في هذا الشّاعر أن جعل كلامه موردًا للسّخرية والضَّحك لا للموعظة والحكمة.

ثمّ قال التّجاني : وقد شاع في النّاس تسمية صفاقس بلعنة الله[166]، قلت : هذه التَّسمية لموجب لا يقتضي طعنًا في البلد، وسبب ذلك أنّ بعض الملوك[167] بتونس غضب على بعض النَّاس فأمر بنفيه ولم يُعَيِّن بلدًا بل قال : أنفوه إلى لعنة الله، فاسْتُرْجع بتعيين بلد، فقال : إلى صفاقس، فلمّا سكن[168] غضبه، وأظهر البسط، سئل عن تسمية صفاقس بلعنة الله، قال : والله لا علم عندي بشيء إلاَّ أنّ الكلام صدر منّي في حالة الغضب، وكثير من النّاس إذا غضب يقول إذهب إلى لعنة الله[169] أو إلى سخط الله والله أعلم.

---

165) رحلة التّجاني ص 52 – 53.

166) الرّحلة ص 69.

167) نقل المعنى من رحلة التّجاني.

168) زيادة من عند المؤلّف عمّا في الرّحلة.

169) ساقطة من ش.

الباب الثّاني
في ذكر ولاّتها

قد تقدّم أنّ أوّل من اختطّ سورها وجعلها مدينة أحمد بن الأغلب – رحمه الله تعالى – فكانت ولاّتهَا تتردّد عليها من قبل بني[1] الأغلب.
فلمّا تولّى إفريقية بنو عبيد الله الشّيعة[2] كانت ولاّتها تتردّد عليها من قبلهم.

إستقلال حمّو بن مَليل بصفاقس:

فلمّا تولّى بنو مَناد وهم صنهاجة تردّدت ولاّتها من قبلهم إلى أن ولي المعز بن باديس من صنهاجة فولّى عليها منصور البَرْغَواطي[3] / وكان من الفرسان المعروفين [105/ب] بالإقدام فأراد أن يثور بها وأخذ في محالفة العرب ومصادقتهم فعاجله ابن عمّه حمّو بن مَليل وقتله غدرًا في الحمّام سنة واحد وخمسين وأربعمائة[4].
ولمّا قتله جاء حلفاء منصور من العرب فحصروا حمّو[5] بصفاقس فبعث إليهم يسألهم هل قصدهم الأخذ بثأر إبن عمّه منه أو المال، فقالوا: نحن لا ندخل بينكم[6] في الدّماء، وإنما غرضنا الأموال، فالتزم لهم من المال ما رضوا به وعَجَّل لهم ما تيسّر وانفصلوا، وثار حمّو بصفاقس وأظهر العناد على بني مناد.
فلمّا تولّى تميم بن المعز بعد أبيه طمع حَمُّو في الإستبداد والتّغلّب على غير صفاقس من البلاد، فحالف جماعة من العرب عَدِيًا[7] والأَثْبَج[8] ومن ضامهم[9]، وزحف

---

1) في ش: «بن».
2) في ط: «بنو عبد الله الشيعة».
3) أنظر التّجَاني ص 70 والحلل السّندسيّة 313/1.
4) 1059 م.
5) في ط: «حصرا».
6) ساقطة من ط.
7) في الأصول: «عدي».
8) في ش: «الأشج»، وفي ت «الأشيخ»، ساقطة من ط والتّصويب من رحلة التّجاني ص 70.
9) في الأصول: «ضامهم».

بهم وبمن معه من رجاله إلى بعض القرى فملكها واستحوذ عليها ، ثم نهض إلى المهديّة يريد حصارها فنهض تميم للقائه ، فولّت نجدة حمّو أدبارها وأسرعت فرارها ورجعوا إلى صفاقس .

ودام أمر حمّو في صفاقس زمانًا واتفق أن قدم[10] بعض الأتراك من المشرق إلى تميم في جماعة من أصحابه ليكونوا من رجاله فأكرمهم تميم ، ورتّب لهم جراية ، فلم ترض كبيرهم ، وبلغه عن تميم ما أوحشه وكان داهية ذا مكر وخبث[11] فخرج هو وأصحابه مع يحيى بن تميم يتصيّد[12] ، فأبعدوا عن المهديّة فقبض التّركي / على يحيى [106/أ] وعلى جماعته وَوَلّى هاربًا وأفلت رجل ممّن حضر فوصل يركض إلى تميم فأعلمه ، فأنفذ الخيل في طلبه ففات ولجأ إلى صفاقس ، فأكرمهم حَمُّو بن مليل وبالغ في التّحفّي بيحيى ومسكه عنده ، ثم خاف أن يولّيه أهل صفاقس عليهم ، فأحبّ إخراجه من البلد فكتب إلى أبيه يعرّفه [أنه] إن بعث أموال الترك الهاربين وأهليهم وجّه إليه إبنه يحيى ، ففعل تميم ذلك ووجّه إليه إبنه يحيى ، فلمّا وصل يحيى إلى تميم ردّه إلى حصار صفاقس ، فحاصر حمُّو أيّامًا ثمّ رجع عنه ، ويقال إنّ يحيى أحبّ الإبقاء على حمُّو فلم يبالغ في حصاره ، وكان حمُّو يقول : إن هذا لعجب : بالأمس أخلص يحيى واليوم يحاصرني .

ولاّتها بعد فتح تميم بن المعز لها :

فلمّا كانت سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة[13] تَوَجَّه تميم بنفسه فافتتحها وفرّ حمُّو منها فاستجار بمكّي بن كامل الرِّياحي بقابس ، وكان لحمُّو بن مليل أيّام ملكه لصفاقس كاتب يعرف بمظفر إبن علي مشهور بالبلاغة وحسن الكتابة ، وكان يكتب عن حمُّو إلى تميم ما يغيظه[14] ويبلغ منه كل مبلغ ، فلمّا فرّ حمُّو إلى قابس لم يشعر تميم إلاّ ومظفر قائم بين يديه يطلب العفو فعفا تميم عنه مع شدّة حقده عليه ، قال أبو الصّلت : ومثل

10) نقل بالحذف من رحلة التّجاني ص 70 وأنظر الحلل السّندسيّة 114/1.

11) كذا في ش و ب ورحلة التّجاني والحلل ، وفي ط : «حيل» ، وفي ش : «خداع».

12) في ت و ب : «يتصيدوا» ، وفي ط : «يتصيدون».

13) 1099 – 1100 م.

14) كذا في ش والرّحلة والحلل ، وفي ط و ب و ت : «يقبضه».

هذا الذّنب لا تغتفره[15] الملوك بل يجاوز التّثريب فيه إلى التّعذيب ، ويتعدّى العتاب إلى ضرب الرّقاب ، قال التّجاني[16] : وذكر أبو الصّلت جملة ممّا تمثل به مظفر في الكتب عن مخدومه إلى تميم / قال : أمكنت حمّو فرصة في طائفة من جند تميم فقتلهم بصفاقس [106/ب] وكتب مظفّر في ذلك إلى تميم متمثّلاً بقول أبي الطّيب[17] :

[المتقارب]

إن كـان أعجبكم عـامُكُمْ فعودوا إلى مصر[18] في القابل
فإن الحسام المصيب[19] الذي قُتِلْتُمْ بـه في يـد القَـاتِـلِ

قال : وتحدّث مرّة بالمهديّة بموت حمّو وبلغه ذلك فأمر مظفر أن يكتب إلى تميم في هذا المعنى فكتب له متمثّلاً بقول أبي الطّيب :

[البسيط]

كم [قد][20] دُفِنت [وكم] أُقْبِرتُ[21] عندكم ثمَّ انْتَفَضْتُ فَزال القبر والكفن
مـا كُلُّ مـا يتمنّى المَرْءُ يـدرِكه تجري الرِّيـاح بما لا تشتهي السُّفُنُ

وكتب إليه تميم يتوعّده ويَتهدّده[22] وتمثّل فيه بقول الشّاعر :

[الطّويل]

سَتَعْلَم ليلى أي ديـن تَدَايَنَتْ وأيُ غريم للتقـاضي غريمُهَـا

(فراجعه عنه مظفر متمثّلاً بقول قيس بن ذريح[23] :

---

15) في ط : «تغفره».
16) الرّحلة ص 72 .
17) هو المتنبّي.
18) في الرّحلة : «حمص».
19) كذا بالأصول ورحلة التّجاني وفي الحلل السّندسية : «الخضيب».
20) إضافة من الرّحلة والحلل وديوان المتنبّي.
21) في الأصول : «قبرت».
22) في ط و ت و ب والرّحلة : «يهدده».
23) في الأصول : «زريح».

[الطّويل]

ستعلم إن شطت به[24] غربة النّوى[25] وزالوا بليلى[26] أَنَّ عقلك زائِلُ[27]

وفي رواية أنّ مظفرًا (تمثّل له في مراجعته عن هذا الكتاب)[28] ممتثلاً بقول جرير:

[الكامل]

زعم الفرزدق أن سيقتل مَرْبَعًا أبْشِرْ بطول سلامة يا مَرْبَعُ

وكتب إليه في إثر وقيعة كانت له عليه كتاب إيناس والطاف [فراجعه][29] متمثّلاً بقول عبد الله بن محمّد العطّار:

[الرّمل]

لا تظن[30] امْرِأً أغضَبَهُ سَبَبٌ ثمّ انقضى ذاك السَّبَبُ

سَالِمَ الصَّدْرِ من الحقد وَلَوْ أظهَرَ الوِدَّ وَلَمْ يُبْدِ الغَضَب

كرماد[31] النّار يبقى حَرُّهَا كامنًا فيه[32] وإن زال اللَّهَب

[107/أ] ولمّا فتح تميم صفاقس كانت ولاّتها تتردّد عليها من قبله / إلى أن توفّي.

وتَوَلّى إبنه يحيى فَوَلّى عليها إبنه أبا الفتوح[33] فقام عليه أهلها ونهبوا قصره وأرادوا قتله، فغضب يحيى لذلك وأخذ في تفريق كلمة أهل صفاقس وتشتيت شملهم، ولم يزل يوالي[34] عليهم البؤس، ويملأ منهم الحبوس إلى أن شفى نفسه منهم ثمّ عفا[35] عنهم

24) في الأصول: «بك».

25) في ش و ب و ت: «النوا».

26) في ط وب وت: «بليل».

27) ما بين القوسين ساقط من ت.

28) في ت: «فراجعه عنه مظفر ترجعه عن هذا الكتاب» وفي ش و ب: «تراجعه عن هذا الكتاب» وفي ط: «راجعه عن هذا الكتاب». والتّصويب من رحلة التّجاني ص 72.

29) إضافة من الرحلة.

30) في الأصول: «تظنن».

31) في الأصول: «كرمًا بالنار».

32) في الأصول: «فيها».

33) في الأصول: «أبا الفتح».

34) في الأصول: «يولي».

35) في ت و ش: «عفى».

بعد ذلك . وفي الواقعة يقول أبو الصَّلت (يذكرها ويشكر ليحيى وعفوه عنهم في قصيدة طويلة أوّلها)[36] .

[الطّويل]

قضى[37] الله أن يَفْنِي عداك وأن تبقى[38] وتخلــد حتى تملك الغرب والشَّرْقَـا

إلى أن قال :

وربّ أنــاس أجَّجُوا نــار فِتْنَــةٍ يُجَنِّبُها[39] الأَتْقَى وَيَصْلَى بِهَا الأشْقَى[40]
وَجَرَّ عليهم جَهْلُهُمْ حُلْم مالكٍ[41] يرقُّ ويحنو كلّمـــا ملك الرِّقَّـــا
ولـو شاء رَوَّى السّيف منهم فطالمَا نَضَاهُ فَسَقَاهُ من الدَّم ما اسْتَسْقَى[42]
ولكن دَعَاهُ الفَضْلُ والحلم والحِجَى[43] إلى أن يكون الأحْلَمُ الأكرم الأتْقى[44]
سجيَة مجبولِ السَّجايا على الهُدى إذا غضب استأْنى[45] وإن ملك اسْتَبْقى[46]

قال أبو الصَّلت : أنشدت يحيى هذه القصيدة وخاصَّته بين يديه وعبد العزيز بن عمّار في الجملة وكان في هذه الصِّناعة أبصرَ هذه الجماعة ، فقال له يحيى : كيف ترى ما تسمع؟ فقال : حسن الرّدّ[47] ، محكم السَّرد ، فقال : أتعرف قائله؟ قال : لا ، قال هو ذاك[48] الجالس يشير إلي ، فعلاه فتور ونفور عن الإستماع[49] حسبما يعرض من العوام الرّعاع عندما ينشدون لمن جمعهم وإياه مكان وزمان ، وإن كان في أعلى درجات

---

36) كذا في ش والرّحلة وساقط من بقية النسخ وما يليه ساقط من ط أيضًا.
37) في ش و ب : «قضا».
38) في ش : «وأين تبقا».
39) في الأصول : «فيجنبها».
40) في الأصول : «والأشقا».
41) في ب و ش : «مالكا».
42) في الأصول : «ما سقا» ، والتّصويب من الرّحلة ص 73.
43) في الأصول : «الحجا».
44) في الأصول : «الأتقا».
45) في الأصول : «استأنا».
46) في الأصول : «استبقا».
47) في الرّحلة : «الحوك».
48) في الأصول : «لذلك».
49) في ش : «استماع» ، وفي ط و ت و ب : «اسماع» ، والإصلاح من الرّحلة ص 74.

ذوي الإحسان ، وإنّما عنوا بامتداح القديم ، وتعظيم العظم الرّميم ، وسبب ذلك الحسد وكثيرًا ما / يعدّون الصّواب محالاً ، (والعداة[50] آلا)[51] والقوام إعوجاجًا[52] والعَذْبُ ملحًا أجاجًا . [107/ب]

ثمّ ولّى يحيى على صفاقس إبنه عليًا وهو ولي عهده ، فلمّا توفّي يحيى وعلي بصفاقس وصل واستبد بالملك ، وكان يبعث الولاة إلى صفاقس إلى أن توفّي .

ولاّتها أيّام الموحّدين :

وولي إبنه الحسن ، فوقعت الوحشة بينه وبين «لجار» الكافر حسبما مرّ ، فلمّا تغلّب على المهديّة وصفاقس[53] وغيرهما جعل عاملاً عليها الشّيخ عمر الفرياني فبقي متصرّفًا أعمالها إلى أن افتكّوها كما مرّ ، واستمر الشّيخ عمر متصرّفًا إلى أن نزل عبد المؤمن ، فوصل إليه الشّيخ عمر مع جماعة من أشياخ البلد فأذعنوا له بالطّاعة ، وعيّن لهم عبد المؤمن حافظًا من الموحّدين ، وأمر الشّيخ عمر – رحمه الله – بالرّجوع إلى بلده ، وأن تكون الأشغال المخزنية تتصرّف على يده ، فأقام على ذلك إلى أن توفّي – رحمة الله عليه – فخلف في ذلك وَلَدُه عبد الرّحمان بن عمر وأقام مقامه ، فوصل الميورقي إلى صفاقس واستولى عليها ، فرغب إليه عبد الرّحمان أن يسرحه إلى الحجّ فارتحل بأهله ولم يعد ، وبقي بعض ولده بصفاقس فذرّيته بها إلى الآن[54].

ولمّا قدم النّاصر واسترجع البلاد[55] من يد الميورقي واستخلف أبا محمّد عبد الواحد ابن أبي حفص حسبما مرّ أرسل واليًا عليها من قبله .

---

50) في ت و ب و ش : «العذب» ، والتّصويب من الرّحلة .

51) ما بين القوسين ساقط من ط .

52) في الأصول : «عواجًا» .

53) تصرّف في النّقل واختصر ما يتعلّق بثورة عمر الفرياني على النّرمان لأنّه تكلّم عنها فيا سلف .

54) إلى هنا ينتهي النّقل عن التّجاني ص 70 – 76 ، وأسرة الفرياني من الأسر المعروفة في صفاقس إلى الآن .

55) في ط : «البلد» .

ولأتها أيام الدّولة الحفصية :

ولمّا أفضت السّلطنة لأولاده الحفاصة بقيت الولاّة ترد على صفاقس من قبل الحفاصة إلى زمن أبي فارس فأرسل أخاه عمر على صفاقس فخالف عنه / فخرج له [108/أ] فافتكها منه حسبما مرّت الإشارة إليه.

قال في معالم الإيمان عند التّعرض لكرامات الشّيخ عبيد الغرياني نقلاً عن الشّيخ المسراتي قال : حدّثني السّلطان أمير المؤمنين أبو فارس عبد العزيز قال : لمّا حاصرت أخي عمر بمدينة صفاقس ورد علينا ونحن نتعشّى فقلت له : باسم الله ، قال : لا حتّى تشرب فرسي ويعلّق عليها علفها فأمر من أتى له بالماء وشربت قدامه وبالشّعير فَعُلِّقَ عليها علفها بحضرته ودنا معنا فأكل ما تيسّر ثمّ قال : نعم يا سيدي أنتم أولاد مولانا أبي العبّاس أحمد فيكم الخير والبركة والشّفقة والرّحمة والرّأفة ، وجئت أطلب من فضلك أن ترحم أخاك عمر فقلت له : يا سيدي لو كنت تعلم أنّ فيه مصلحة لخلق الله لأجبتك فيما طلبتني فيه وهو ممّن يخشى منه على النّاس وسكت أخواني فاستشهدت بهم فصدّقوني فقال : وأنا يا أخي ما جرى مني إلاّ خير ، زرت قبر سيدي عيسى بن مسكين وتبركت به وقلت : اللّهم بحقّك يا ربّ العالمين وبجاه سيدي عيسى بن مسكين أنصر أمير المؤمنين سلامٌ عليكم ، فكلّمناه في المبيت عندنا فقال : لا ومشى عند الفقيه إبن قليل الهم واعتقادي أنّه مقيم فسألته عنه من الغد ، فقال : يرحمك الرّحمان ما أقام إلاّ يسيرًا ومشى ، ونحن في المجلس ولا لي في أهل صفاقس طميعة ولا لي معهم حديث وإذا هم بعثوا لي بأخذه وَحَلّ البلد ، فكان كذلك فأنزلوه لي مكتوفًا من فوق سور البلد / فهو أشار لبصر الله لي عليه [108/ب] اهـ.

إستقلال المُكّني بها :

ثمّ توالت الولاة من الحفاصة إلى زمن الحسن ، فلمّا اختلّ نظام ملكه ، وخرج أكثر البلاد عليه كالقيروان والمهديّة وسوسة والحَامَّة ، خرجت عليه صفاقس وكان القائم بها عليه أبو عبد الله محمّد المُكّني مشدّد الكاف مضموم الأول ، وكان رجلاً من الشابيين[56] نشأ في صغره نوتيًا حتّى ترأس وصار يسافر في البحر رئيسًا[57].

---

56) نسبة إلى الطّريقة الشّابية الصّوفية.

57) أي ربانا.

وسبب قيامه أنّه لمّا قدم من سفره جلس هو وأتباعه قرب باب البحر على عادة أمثالهم ، فمر عليهم أتباع قائد البلد بامرأة يقودونها في أيديهم وهي تستغيث من يُخَلِّصَها من هؤلاء الظّلمة ، فسأل عن قصّتها ، فقيل له : إن زوجها طولب[58] بمال للمخزن ولم يجد ما يعطيه ، فَفَرَّ بنفسه ، فربطوا زوجه عوضًا عنه لكي تعطي ما عليه من الأداء ، وكان رجلاً ذا هِمَّة ورأي وحذق وشجاعة ، فأخذته الغيرة الإسلامية فنزل لأصحاب القائد وقال لهم : أطلقوا المرأة فإنها عورة وفقيرة وزوجها هارب[59] من قلّة ذات يده ، ولا يحلّ لكم أن تأخذوا المرأة في زوجها لضعفها وعدم قدرتها على الخلاص ، فسطوا عليه بكلام قبيح وتوعَّدُوه ، فأخذ لهم عمودًا وضرب كلّ واحد منهم بالآخر ، وافتكّ المرأة منهم ، وفَرُّوا هاربين بأنفسهم ، ولا زالوا هاربين حتّى دخلوا على قائدهم فرآهم على أسوء حال ، فقال : من فعل بكم هذا؟ فقالوا له : أهل البلد ، فأمر أن يُغْلِقُوا باب الحصار فغلقوه ، فلمّا سمع أهل البلد بذلك تحَيَّرُوا وخافوا فاجتمعوا وطلعوا / إلى القصبة [109/أ] فوجدوا الباب مُغْلَقًا ، فما زالوا يرفقون بهم حتّى فتحوا الباب ، فسألوهم عن السّبب ، فأخبروهم بما جرى لهم من المُكَّني فقالوا بأجمعهم : لا يصلح بنا هذا ونحن وأنتم فيه سواء فإذا ظفرتم به فافعلوا به ما شئتم ، فلمّا سمع المُكَّني بذلك أجرى مركبه حالاً وسافر إلى جربة فاستنفر بها واتخذ أصحابًا ، وصار النّاس من أهل صفاقس كلّ من تنوبه[60] نائبة يذهب إليه[61] يحتمي به إلى أن كثر جمعه ، وكانت الأخبار تتردّد عليه كلّ وقت وحين من أهاليهم وأقاربهم من صفاقس ، فلمّا قوي جمعه خاف أهل صفاقس من هجومه عليهم فاحتزم[62] أهل البلد ، وكان أكبر مقدميهم إثنان : مَعَلَّى[63] والزَّوَارِي[64] فأرسلوا إلى المحرس وطلبوا من أهله أنّهم إذا نظروا مركب المُكَّني أو سمعوا به أخبروهم بذلك ، وكانت البلاد في غاية من الضّعف والحفصي على شفا من ملكه والنّاس في حيرة لا يهتدون سبيلاً ، فلمّا سمع ضعفهم وقوي جمعه مع شجاعته وقوّة بأسه وعدم النّاصر لأهل الجور إرتقب المصيف.

---

58) في الأصول : «طلب».

59) في ط : «هرب».

60) في ط : «تنبه».

61) في ش : «به».

62) في ط : «فاجتمع».

63) اسم لأسرة صفاقسية.

64) اسم لأسرة صفاقسية.

فلمّا حصل أوانه ركب بمن معه في مركبه ، فأنذر أهْلُ المحرس البلد به ، فاحترسوا واجتمعوا بباب البحر ليلاً ونهارًا ، فوصل المُكّني ليلاً للبلد فربط مركبه ونزل بمن معه من أبطاله فوجدوا البلد محروسًا بالعسس ، وكان معهم حزام ، وكانت داره بالجانب الغربي من البلد ملاصقة للسور قرب البالوعة التي تخرج من سور البلد وإلى الآن يقول أهل البلد فَوَّارَة حزام ، وكانت واسعة فأدخلوه / منها فأتاهم بحبل وطلعوا كلهم من [109/ب] السُّور ، فلمّا نزلوا إلى البلد إتفق رأيهم أن يسيروا لباب البحر[65] ، فلمّا وصلوه وجدوا به الجماعة والزواري ومعلّى ، فلمّا وردوا عليهم مُسَلَّحِين خافوهم وقاموا إضطرارًا وسلّموا عليهم وقالوا لهم : مرحبًا بكم فسيروا بنا معًا للقائد بالقصبة[66] نسلّم عليه ، ونصبوا لهم غدرًا ومكرًا ، وفطن لهم محمّد المُكّني ، فأجابهم لما طلبوا ، فساروا جميعًا ، فلمّا وصلوا لِرُكْنِ الجامع الجديد بباب البحر ، التفت المُكّني للزواري ومعلّى فضرب أحدهما بسيفه ، فأزال رأسه عن بدنه ، فالتفت إليه صاحبه وقال للمُكّني : قطع الله يدك ، فقال له المُكّني[67] : إن لم أكمّل بك ، فضربه فأزال رأسه كصاحبه ، ثمّ قال لأصحابه : أتبعوني فتبعوه ، فصار يُخْرِجُ النَّاس من ديارهم بأسلحتهم ويحضُّهم على القتال حتّى استولى على البلد ، فلمّا أصبح الصُّبح أتى نحو القصبة فوجدها مغلقة الأبواب فحصر من فيها وطال حصارهم إلى أن ضاقوا[68] من كلّ وجه ، وكان لهم صهريج ماء يشربون منه خارج القصبة فكسروه وغُوِّر ماؤه ، فعطشوا واشتدّ بهم الأمر ، فخرجوا من القصبة ليلاً من باب غَدَرْ[69] وفرّوا بأنفسهم لطرابلس.

وحاز المُكّني البلد ثمّ جمع النّاس وأوقف واحدًا من أهل البلد قائدًا يقال له النوالي ، وقدّم الشَّعْرِي[70] وغيره ممن يصلح للمقدمية فجعلهم مشايخ[71] البلد وصار هو

---

65) ما يعرف بباب الدّيوان ، وهو الباب القبلي للمدينة ، وكان يفتح على المرسى قبل بناء الربض القبلي ، ثمّ صار يفتح داخله بعد بنائه ، ويطلق اليوم على حي باب البحر الذي تكون شيئًا فشيئًا بعد انتصاب الحماية على تونس في سنة 1881 م.

66) كانت القصبة مقرّ العامل – القائد – المتولي على المدينة من طرف السّلطة المركزية.

67) ساقطة من ط .

68) في ط : «خافوا».

69) أظهرت الحفريات الأثرية بالقصبة العثور على باب غَدَر صغير في أحد جوانب المسجد السّفلي، وباب الغدر هذا يعطي على المرسى ، ولا تفصله عنه إلّا بعض أمتار ، ولعلّه باب الغدر المشار إليه في النّص.

70) إسم لأسرة ما تزال موجودة بصفاقس.

71) كانت المدينة مقسمة إداريًا إلى أحياء ، وكل حيّ يرأسه شيخ له إتصال بعامل المدينة .

يحكم في محلّه ، فلم يأت أحد للنوالي لانكباب النّاس على المُكّني ، فاجتمع مشايخ البلد مع النوالي ، وقالوا : هذا / نَصَّبَنَا للاستهزاء بنا والسُّخرية ، يتعاطى الأحكام والقائد [110/أ] كالمسجون في حصار ، فلا يفيدنا هذا ، ولا بدّ أن يرسل القَائِدُ إليه ويسجنه ونختبر بذلك النّاس ، فإن لم يتكلم منهم أحد قضينا نحبه وتولّينا بلادنا ، وإن قاموا في عنايته غالطناهم وسرّحناه وقلنا له : إنما فعلنا ذلك لننظر أمر النّاس هل يثبتون معنا ومعك أو لا ، ولا لنا عليك زهدة ، فاتّفقوا على ذلك ، فأرسل إليه القائد النُّوَالي ، فلمّا حضر بين يديه أمر بسجنه ، فلمّا سجن تسامع النّاس بذلك[72] وأسرعوا من كلّ مكان وهجموا عليهم [في] القصبة طلبًا لخلاص المُكّني ، فلمّا رأوا ذلك أطلقوه ، وقالوا له : يا رئيس إنما فعلنا ما رأيت لننظر أحوال النّاسِ معنا ومعك وهل يثبتون معنا في المضايق إذا قصد أحد بلدنا بسوء ، فقال لهم : وأنا علمت ذلك ، ونزل من عندهم وتبعه النّاس ، فلمّا وصل محلّه التفت إلى النّاس وقال لهم : يا جماعة البلد ، إن رضيتم بالنوالي وأصحابه فابقوا في بلدكم بخير[73] ، وأنا أذهب حيث أشاء ، وإن رضيتم بي فلا بدّ من قتل النوالي وأصحابه ، فقالوا كلّهم على كلمة واحدة : لا نرضى إلاّ بك ولا حاجة لنا بغيرك ، فشكرهم على ذلك وقرؤوا معه فاتحة الكتاب على انفراده بالأحكام ، فلمّا سمع النوالي بذلك فرّ هو وأصحابه لبلد قفصة ، فأقاموا بها.

وانفرد المُكّني بحكم البلد وسار مع النّاس بسيرة حسنة ، فعَمَّرَ البلاد والوطن ، وركبَ معه ثمانين فارسًا من أشجع النّاس فطَوَّع بهم عصاة / العرب والوطن ، فصار [110/ب] النّاس في أرغد[74] عيش.

فبعد مدّة رجع الشعري أحد المقدّمين للمشيخة خفية لصفاقس فسمع به المُكّني ، فما زال يتبع آثاره حتّى ظفر به فقتله ، وكذا النوالي أتى خفية فما زال معه حتّى قتله وانقطع عنه الاغيار واطمأنّت به الدّار.

وكان له ولد مشهور بالشجاعة المفرطة وأحبّه أبوه لذلك لأنّه لا يقابله الأبطال فضلاً عن غيرهم ، وكان لا يطيق الصَّبْرَ عليه ، فسمع به الشَّيخ عرفة[75] صاحب

72) في ش : «ذلك».

73) في ش : «الخير».

74) في ط : «أغر».

75) هو شيخ الطّريقة الشابية وأوّل من أسّس إمارة بالقيروان منفصلة عن الدّولة الحفصية التي كانت في حالة ضعف وأمراؤها تحت براثن الأسبان المحتلّين للعاصمة.

القيروان – المقدّم الذكر – فأظهر في نفسه التحيّل على قتل الولد نكاية لأبيه وطمعًا في إدخال صفاقس تحت حكمه ، فكتب للمُكّني كتابًا زوّره على لسان بعض الصّالحين يذكر فيه : إنّا نظرنا في ولدك فلان فرأيناه من الصّالحين وله نصيب على أيدينا من طريق القوم فلا بدّ من إرساله إلينا لينال ما كتب الله له من الطّريقة ، وأرسل الكتاب مع رجل من خواص الشّيخ عرفة ذا دهاء وسياسة ، وكان المُكّني يعتقد الصّالحين ويخاف منهم كثيرًا ، فتَحيَّر المُكّني وعزّ عليه ولده ولم يصبر على فراقه ، وخاف من عصيان الشّيْخ صاحب الكتاب (الّذي زوّره الشّيْخ عرفة على لسانه)[76] وخاف أن يدعو عليه بخراب ملكه إن لم يسعفه بإرسال ولده ، ولم يتفطن أن الكتاب دِلْسَةٌ عليه من الشّيْخ عرفة ، فشاع الكلام في صفاقس أنّ بعض الصّالحين أرسل للمُكّني يطلب ولده ليأخذ عليه العهد والطّريقة ، فسمع بذلك الشّيْخ عبد المولى السّيالة / وكان الشّيْخ سيدي مَحَمَّد الكَراي – رحمه الله – سافر لبعض شؤونه وعند سفره أمر تلميذه الشّيْخ عبد المولى المذكور وقال له : احرس البلد بعدي ، واحذر صاحب الخاتم والشّعْرَة ، فلمّا سمع عبد المُولى بالرّسول الذي قدم بالكتاب المُدَلِّس بحث عنه ، فقيل له : هو يلعب الشطرنج بسوق الرَّبَع[77] ، فقصده فوجده يلعب على دُكَّانَةِ حانوت ، فسلّم عليه وتأمّله ، فوجد باصبعه خاتمًا ، فقال هذا الخاتم وبقيت الشّعْرَة ، فلاطفه بالكلام وصاحبه ثمّ قال له : لي إليك حاجة فلا بدّ من قيامك معي ، فقام وسار معه ، فخرجا من باب البحر حتّى دخلا مقام الشّيْخ النونشي[78] وهو الآن بالرّبض في الرّكن الجنوبي الشّرقي[79] فقال له : أخبرني كيف قصّتك؟ فأخبره بأنّه مرسل من الشّيْخ صاحب الطّريقة كما هو شائع ، فأمره بإزالة العمامة من رأسه فأزالها فوجد الشّعْرَة ، فلمّا رآها تحقّق أنّه هو الذي أوصاه عليه الشيخ سيدي مَحَمَّد الكراي ، فقال له : يا هذا قد أوصاني شيخي وقال لي : إذا غبت فاحتذر من صاحب الخاتم والشّعْرَة ، وأنت هو لا شك فيك ، وأنت أرسلك الشّيْخ عرفة تخدع الرّجل في ولده ، فلمّا سمع مقالته خاف

[111/أ]

76) في ط و ب و ت : «الذي زوّره الشّيْخ عرفة الكتاب على لسانه».

77) من أهم أسواق صفاقس المسقوفة القريبة من الجامع الكبير ، وسوق الربع يربط بين سوق الكامور وسوق الصباغين في اتجاه باب الجبلي ، واختصّ سوق الربع ببيع المنتوجات الصوفية ، وما يَزال إلى حدّ اليوم على هويته التقليدية.

78) لعله الينوشي.

79) إندثر هذا المقام.

الفضيحة واضطرب في أمره ، فقال له : لا بأس عليك وأنا آتيك بهدية من المُكَّني وتذهب تحت ستر واحذر أن تعود لمثل هذا ، ثمّ ذهب عبد المولى للمُكَّني ، ففرح به وسأله عن حاله ، فقال : أنا / في حيرة من أجل ولدي ، وقد غاب الشَّيْخ سيدي مَحمد الكرّاي وقت الحاجة ، فقال له : هو نَوَّبَني في هذه الحاجة فلا بأس عليك – إن شاء الله تعالى – فاجعل لهذا الرّسول هديّة وأنا أكتب له ورقة على لسان الشَّيْخ لمن أرسله ، وأردّه عن قصده ، فلا يخالف – إن شاء الله تعالى – فَسُرَّ بذلك وزال عنه ما كان يَجدُهُ ، فعيّن للرسول هديّة تليق بالحال وجهّزه فسار ، فبعد يومين أتى الشَّيْخ عبد المولى للمُكَّني وعرّفه بحقيقة الأمر وما أوصاه به الشَّيْخ الكراي ، فقال له : لو أخبرتني لقتلته لاستحقاقه لذلك ، فقال : لم يأذن لي الشَّيْخ في ذلك وخفت من قتل نفس من غير موجب شرعي وأنت احْتَفِظ بولدك. [111/ب]

ولمّا مضت للمُكَّني ثمان عشرة سنة أتاه إنسان وقال له : إن أبا الحسن بن جلّول – وهو صاحب قصر إبن جلّول[80] المشهور بالبلد[81] وهو اليوم حبس على أولاد البِجّار ، وكان رجلاً موسرًا – معه فلان وفلان وَعدَّ له جماعة ، عَامِلُون على قتلك ، وهم يجتمعون كلّ ليلة يدبّرون في الحيلة ليقتلوك ، فَأَرْسَلَ لأبي الحسن بن جلّول فَأُتِيَ به وسجنه ، فأتت أمّه وأقاربه للشَّيْخ سيدي مَحَمَّدْ الكراي ، وطلبوا منه أن يُسَرِّحَه من السّجن ، فذهب الشَّيْخ للمُكَّني ، فلمّا رآى الشَّيْخ قام له ورحّب به وسأله عن مطلوبه ، فلمّا عَرَّفَهُ بمراده قال له : يا سيّدي كلّ ما تريده أقضيه[82] من غير تحديد ولا استثناء إلاّ أبا الحسن الجلّولي فإنّه يريد قتلي ، فقال له الأستاذ : ما جئتك إلاّ شافعًا فيه ، وكان لا يعصي للشَّيْخ / أمرًا ، وكانت أمّ المُكَّني مشرفة من كوة عليهما تسمع ما يجري بينهما من المحاورة ، فلمّا أيس الشَّيْخ منه ، قال : شدّ الله حبلك وانصرف ، فتغيّرت أمّ المُكَّني لردّه للشّيْخ[83] بشفاعته وسألت ولدها عمّا قال له الشَّيْخ ، فقال لها : قال شدّ الله حبلك ، فقالت : من شدّ حبله قطع ، فأمرته بردّ الشَّيْخ وطلب رضاه ، فلحق الشَّيْخ بعد أن سرح إبن جلّول وقَبَّلَ رأسه ويديه وأعلمه أنه سرّح إبن جلّول ، وطلب منه رضاه وتطييب قلبه عليه ، فقال له : قد قُبِلَتْ الدعوة فانتظر خراب [112/أ]

---

80) ما زال معروفًا بهذا الإسم قرب سوق بلعج في وسط المدينة غربًا.

81) في ش : «للبلد».

82) في ط : «نقظيه».

83) في الأصول : «لرد الشّيخ».

ملكك فقد فرغت مدتك ، فتحيَّر من مقالة الشَّيْخ وصار منتظرًا لما قال له.

فما أتمّت ثمانية عشر يومًا إلاّ وقد نزل الباشا درغوث صاحب طرابلس لَمَّا استدعاه أهل القيروان لما لحقهم من إذاية الشابيين – حسبَما مرت الإشارة إليه – في دار الغنم(84) قرب البلد بالجهة الغربية منها وكانت قرى مسكونة ، فعمل المُكَّني على محاربة الباشا وقتاله فاستشار الشَّيْخ في ذلك ، فمنعه وقال : لا يفيدك شيئًا وكلّ من يموت من الفريقين فأنت محاسب به فَسَلِّمْ الأمر لله ، وقال له : هذا حَدُّ أمرك وملكك ، فخرج للباشا وسلّم عليه وتأدّب معه وقال له : يا مولانا إنّما ضبطت البلاد لكم وأنا خديمكم ، فلمّا رآه طائعًا قبله وعزم على إبقائه عاملاً على صفاقس ، فسمع بذلك أهل البلد فمنهم من رضي ومنهم من أبى ، فغيَّبُوا المُكَّني واجتمعوا بالباشا وقالوا له : يا سيّدنا لا يغرّنّك فعله / [112/ب] معك وخضوعه بين يديك فإنه صاحب دهاء وحيل ومراوغة وشيطنة فإن أبقيته ينقلب عنك ولا تقدر عليه ، فوافقهم الباشا على ما قالوا ، فلمّا أتاه المُكَّني قال له : لا بدّ من مسيرك معي ، ففهم النّكتة ومن تسبّب فيها ومن سعى في كيده ، فقال له : يا مولانا نِعْمَ ما رأيت وإن هذا مرادي نفوز بخدمتك ومباشرة شؤونك ، ودعا بخير وأظهر السّرور والبشر.

وكانت طرابلس قد استولى عليها الخراب وتمزّق شملها وباد أهلها ، فاستجدّ درغوث باشا – رحمه الله – هذه المدينة الموجودة الآن بين البرجين الذين استحدثهما النّصارى على الميناء ، وكانت البلاد عامرة بالجنود والعساكر محتاجة لمن يقوم بصنائعها ، فقال له : يا مولانا إن بلدك ليس بمدينة إلّا أن تُعَمِّرَها بأناس من أهل هذا البلد ، فانّ أهلها ذو حذق وقواعد ولهم مدخل في الرأي والأمور ، فإذا أَنْقَلْتَ منهم طائفة تَجَمَّلَت بهم مدينتك واستقامت وتحَضَّرت ، فاستصوب كلامه لموافقة ما ظهر له من أحوالهم لأنّهم أهل هِمَّة واحتشام في لباسهم وقواعد في كلامهم ، فقال له : يا رئيس هذه وظيفتك فاختر من يصلح لهذا الشأن ، فقال له : سمعًا وطاعة وسأكتب لك أسماءهم ، فنظر في أمره وعين أصحابه الّذين دبّروا في عزله وخروجه من وطنه ، فكتب أربعين عائلة(85) جانبًا من كلّ قبيلة ، وأعطى الكتاب للباشا فوافقه(86) على ما فيه ، وأمر كلّ من كان إسمه في الكتاب / بتجهيز عياله لطرابلس ، فندموا وعرفوا وبال صنيعهم وتأسَّفُوا على ما [113/أ]

---

84) على طريق عقارب من مدينة صفاقس.

85) في الأصول : «عيلة».

86) في ط : «موافقة».

صدر منهم ، فتأهَّبُوا للمسير مع الباشا كارهين ، فأمَّرَ عليهم المُكَّني وجعلهم تحت نظره ، فتمنّوا الموت لفراق وطنهم وأحبابهم ودخولهم تحت نظر عَدُوِّهم ، فلمّا وصلوا لطرابلس فرح النّاس بهم وأنزلوهم ، وصار المُكّني وزيرًا أعظم عند الباشا ، وما زالت أعقابه(87) وأعقاب تلك الجماعة بطرابلس إلى الآن ، ولقد شاهدت دارًا عظيمة بالمنشية من طرابلس ، ورأيت حولها أطفالاً عليهم آثار النخوة ومعهم جَوَارٍ سود ، فسألت عن الدّار فقيل لي هي دار المُكّني وهذه بقيّة من ذرّيته وذلك سنةً أربع وسبعين ومائة وألف(88).

ولمّا فتح العساكر العثمانية تونس إسترجعوا صفاقس لحكم تونس(89) وصار الولاة واردين عليها من تونس كما كانت في سالف الزمن.

إبن عطية جلي :

ولمّا تولّى الملك مراد باي إبن حمّودة باشا –رحمهما الله تعالى– ولى على صفاقس إبن عطيّة(90) جلّي فكان ظالمًا غشومًا فاستولى على جميع الوظائف المخزنية ، وكان في ابتداء أمره معتقدًا في الشَّيْخ أبي الحسن الكرّاي(91) – نفعنا الله به – ويُظْهِرُ الإحسان حتّى تمكّن من البلد ، وابتنى له قصرًا خارج البلد تشبهًا بملوك تونس في قصر باردو ، وانقلب إحسانه إساءة ، ومحبّته في الشَّيْخ أبي الحسن بُغْضًا.

فلمّا نافق أبو القاسم الشّوك بجبل وسلات وخرج له مراد باي – رحمه الله – وحشد له الحشود فمن جملة / من خرج معه بعسكر من صفاقس إبن عطية ، وخلّفَ نائبه على [11/ب]

87) أسرة المُكّني كان منهم طلبة علم تولوا الوظائف الشرعية في طرابلس ، وقد تكون باقية إلى الآن.
88) 1760 – 1761 م.
89) بعد إنضمام تونس إلى السّلطنة العثمانية ، بقيت صفاقس تتأرجح بين حكم تونس وحكم طرابلس ، وطبقًا للأمر السّلطاني المؤرخ في رجب 1002/مارس – أفريل 1594 رجعت صفاقس نهائيًا إلى حكم تونس. أنظر عزيز سامح ، الأتراك العثمانيون ص 289.
90) وهو الذي ينسب إليه طريق عطية المعروف الآن بمنزل شاكر.
91) إبن أبي بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن علي بن ميمون الكراي من أحفاد الشَّيْخ الصالح علي الكراي أبي بغيلة ، العالم الصوفي الوفائي نسبًا وطريقة (ت. 1115/1703) ترجمه مقديش فيا بعد من هذا الكتاب ، وأنظر عنه تراجم المؤلفين التونسيين 4/155 – 157.

المكوس والغرامات ، وأمره أن لا يترك أحدًا ولو كان من المساريح[92] ، فسطا[93] على مساريح الشّيخ الكراي ولم يقبل مراجعة ، ورضي بذلك إبن عطية وتحامل على حرم الشّيْخ ومساريحه ، فدعا عليه الشّيْخ أبو الحسن الكراي فازدرى[94] به وهزأ.

فلمّا انتقل مراد باي إلى رحمة الله ووقعت بين أخيه محمّد الحفصي وبين إبني أخيه مراد ما وقع ، سعى إبن عطية في الفتنة ولم يراقب الله تعالى ، فأوقد نار الحرب ليجد لنفسه فسحة في تصرفاته لاشتغال السّلطنة عنه بما هو أهم.

فلمّا تولّى الحفصي ولاّه على صفاقس. ولمّا قدم محمّد باي وخرج محمّد الحفصي فَرَّ ابن عطية لعنّابة نحو سنتين ونصف.

فلمّا استولى على البلاد علي باي في[95] ثالث عشر من صفر سنة ثمان وثمانين وألف[96] استلزم[97] إبن عطية بلد صفاقس من علي باي[98] ، فتَحَيَّر النّاس قاطبة منه لما يعلمون من شؤمه وظلمه وعسفه ، فاجتمع أهل الحلّ والعقد من البلد وهربوا لزاوية الشّيْخ سيدي[99] علي الكراي بأهاليهم ونقلوا معهم ما يعزّ عليهم (من المتاع والأثاث)[100] فجعلوه بدار بعض حفدة الشّيْخ قرب[101] الزّاوية ، فدخل إبن عطية ليلاً للبلد في نحو ستّين فارسًا مماليك سود وبيض وصبائحية ، فقصد زاوية الشّيْخ الكراي ، فنزل على الدّار التي بها أموال المسلمين وحريمهم وأشعل[102] الشموع

92) أي المتمتعون بالإعفاء من الضريبة وأهمهم أصحاب الطرق والزوايا ومن ينعتون بالمرابطين من ذرية أصحاب الربط المجاهدين.

93) في الأصول : «سطى».

94) في الأصول : «ازدرا».

95) في الأصول : «ففي».

96) 17 أفريل 1677 م.

97) أي اشتراه لزمة.

98) بعدها في ط : «قوله استلزم أي الشقي المجتري الفاسق إبن عطية جلي عام ثمانية وثمانين وألف يوم ثلاثة عشر من صفر وكان فارًا بنفسه في تلك الأيام في بلد الغرب ، فرجع الشقي من بلاد الجزائر واستلزم بلد صفاقس» وهذه الإضافة حشو يكرر بالمعنى جملاً سبقته.

99) توجد في القسم الغربي من المدينة في آخر سوق الفرياني حاليًا.

100) ما بين القوسين ساقط من ش ، وبعده كررت «ب» النص الذي بالهامش السابق.

101) في ب و ت و ط : «قرب ملاصقة الزاوية».

102) في الأصول : «وشعل» طبقًا للغة العامية.

والفنارات[103] ، وأخرج كلّ ما كان بالدّار والزّاوية حتّى أن رجلاً دخل تحت صندوق[104] الشّيْخ أخرجه ، ثم خرج وبعد / ذلك حمله بغضه للشّيْخ أبي الحسن [114/أ] الكرّاي – نفعنا الله به – على دخول حرم زاويته[105] ، وكان الشّيْخ معتكفًا بها ملازمًا للاعتكاف ، فهجم وهو سكران على الشّيْخ وأخرجه وأكرهه على المشي معه لداره ، فاستغاث الشّيْخ بالله تعالى وقال : «يا قهّار» ثلاثًا ، ثمّ استصرخ أولياء الله ، فنادى بسيدي عبد القادر[106] ثلاثًا (ثم عمّم رجال الله ثلاثًا)[107] فلمّا ذهب سكره رجع نادمًا ، فأتى الشّيْخ وقال له : نَدِمْتُ[108] فقال : نَدِمْتَ حيث لا ينفعك الندم ، وتَندم وكررها ثلاثًا ، ثم أتاه بشربات تطييبًا لقلبه ، وكان الشّيْخ صائمًا فأبى ، فأمره بالرّجوع إلى زاويته نهارًا ، فأبى ذلك وقال : لا أرجع إلّا ليلاً ، فلمّا حلّ الفطر وصَلّى المغرب عرض عليه الطّعام فأبى حتّى جيء له بشربة ماء من زاويته فأفطر عليها ، فلمّا أراد الإنصراف أتى له بفرس الزّاوية ، فلمّا أراد الرّكوب حمل له الفاسق الرّكاب (وتحلّل من الشّيْخ وخاف وارتعد قال الشّيْخ أبو الحسن – رحمه الله تعالى –)[109] : وكان مع إبن عطية خليله المتجري الأكبر الذي نزل عليه البلاء واحتاط الشقي قاسم الخرّاط وغيره من أتباعه لا سامحهم الله .

وكان الهجوم على الزّاويتين يوم السّبت ، فلمّا كان الخميس الذي بعده أتى الخبر من محمّد باي إبن المرحوم مراد باي من بلد الكاف وأنّه حاز المحلّة والبلاد في تلك الساعة التي دخل فيها للزاويتين ، فرعب إبن عطية من ذلك رعبًا عظيمًا ، وأرسل محمّد باي إبن الانكشاري لصفاقس وأمره بالقبض على إبن عطية ، وجَهَّزَ معه نحو العشرين فارسًا ، فتوجّهوا / لصفاقس وسبق إبن الانكشاري ومعه فارس واحد ، فلمّا بلغه خبر وصولهم [114/ب]

---

(103) في ش : «فيارات» ، وفنارات ج فنار ، فانوس زيتي يصعب وصفه لعدم معرفتنا لجزئياته ، وكانت للمدينة حسب ما ترشدنا إليه دفاتر الأحباس المحفوظة بمتحف صفاقس فنارات تنير الشوارع ليلاً .

(104) يقصد التابوت الذي يعلو القبر .

(105) الموجودة الآن في الشارع الذي يحمل إسمه داخل المدينة .

(106) عبد القادر الجيلاني (1077 – 1166 م) مؤسس الطريقة القادرية ومن كبار الصوفيين ، فتح له زاوية في بغداد ، وكانت الطريقة القادرية من الطرق الصوفية الرائجة في صفاقس في عصر المؤلّف ، ولها أتباع كثيرون .

(107) في ب و ط : «ثم عمم في الاستغاثة فصار يقول : يا رجال الله ، ثلاثًا ، فلمّا أدخله بعض دوره رجع الكلب نادمًا» .

(108) في ط و ب : «قد ندمت» .

(109) ما بين القوسين ساقط من ط .

- وكان يحلق رأسه فحلق منه نصفه وبقي نصفه - حمله[110] الفزع على ترك رأسه مُنَصَّفًا من غير إكمال ، وفرَّ هو وحريمه وأتباعه (ومماليكه عراة)[111] حفاة فلم يهتدوا[112] لزاوية أبي بغيلة إلاّ بعد (التي واللتيا)[113] فقيّده الله في زاوية سيدي علي الكراي - رحمه الله ونفعنا به -[114] وأقام بها أيَّامًا ، وبقيّة فرسان إبن الإنكشاري لمّا وصلوا البلد وجدوا الباب مغلقًا فرجعوا للقيروان ، وذلك أنّ أهل البلد من شدّة بغضهم في إبن عطية لمّا دخل إبن الإنكشاري خافوا أن يخرج إبن عطية فغلقوا أبواب البلد ، ولمّا استقرّ ابن الإنكشاري هجم على إبن عطية فعجز عنه لتحرسه بالبندق.

قال الشَّيْخ أبو الحسن - رحمه الله تعالى - دخل بعض النّاس على إبن عطية يوم موته فرأى (وجهه منتقعًا[115] وصدره مختلجًا فقال له : ما لك؟ فقال : أخذتني سنة فرأيت ثلاثة رجال قد دخلوا علي هذه التُّرْبَة ، فقال أحدهم : كَتِّفُوه ، فكتفني واحد.ثم دقّني واحد منهم في هذا الموضع الذي تراه مختلجًا ، فقلت لهم : من أنتم؟ فقال أحدهم : أنا عبد القادر الجيلاني ، وهذا أبو إسحاق الجبنياني ، وهذا الذي دَقَّكَ أبو بكر الكرَّاي ، وجعل الشَّيْخ الجيلاني ينادي : يا علي يا كراي ، فأجابه الشَّيْخ من القبر ، فكان أوّل من ضُرِبَ من جماعة إبن عطية هو برصاصة في الموضع الذي اختلج عليه من صدره ، ثمّ قُتِلَ أتباعه ومماليكه جميعًا بالسَّيف والبندق وربطت[116] أرجلهم بالحبال وجُرُّوا بالأزقّة[117] وكان بين دخول حرم الشَّيْخ وقدوم إبن الإنكشاري خمسة / [115/أ] أيّام فمن ثمّ يسمّى الشَّيْخ أبو الحسن الخُمُوسي[118].

---

(110) في الأصول : «فحمله».

(111) ساقطة من ش.

(112) بعدها في ب : «ففرح بذلك الخاص والعام والكبار والصغار فيا له من يوم عند أهل البلد» وهذه الجملة حشو في غير مكانها.

(113) في ت : «جهد جهيد».

(114) بعدها في ط : الجملة التي نقلناها من «ب» في الهامش الذي قبل السابق.

(115) في ت : «وجهه منتفخ وصدره مختلج» ، وفي ب : «وجهه منتقعًا وصدره مختلجًا» ، وفي ط : «وجهه منتقعًا منتفضًا مختلجًا».

(116) في الأصول : «ربط».

(117) بعدها في ط : «قال الشَّيْخ أبو الحسن : فعوقبوا مثل ما صنعوا واحدة بواحدة والبادئ أظلم ، كما تدين تدان ، والعبد يجازى بمثل ما صنع ، فأُخْرِج من الزاوية هو وأتباعه ومماليكه وقتلا معًا بالحديد الخ. نسئل الله السلامة والعافية ، ورأى بعض الناس الشيخ في تلك الليلة.

(118) يعرف بهذا اللقب إلى الآن ، وبعده في ب : «قال الشيخ أبو الحسن : فرقبوا بمثل ما صنعوا واحدة بواحدة =

إبن الإنكشاري :

قال الشَّيْخ – رحمه الله تعالى – وأصل إبن الإنكشاري أنّه كان في صفاقس قائدًا في زمن مراد باي ، وكان ظلومًا جهولاً ، مُدْمِنَ خَمْرٍ ، قليل خير ، فسلَّط الله عليه الجُذَام ، وكان متزوّجًا بامرأة لها ولد من غيره يقال له «إبن الإنكشاري» نشأ في حجر هذا الظّلوم ، فغذّي بالظّلم والفجور ونشأ عليه ، فَتَمَكَّن من أبواب المخزن والظّلم والشؤم.

فلمّا وقعت الفتنة بين محمّد باي وأخيه علي باي تعلّق الإنكشاري بمحمّد باي حسبما مرّ[119] ، ولمّا اختلفت الأحوال بين البَايَيْن ، وتردّدت البلاد بينهما إتفق[120] أن قيد محمّد باي الحاج قاسم القفال ، وجعل رايس أتباعه إبن الإنكشاري ، وأرسل علي باي قائده محمّد صبّاح ، فلمّا أتى الْبلاَدْ[121] وجد البلاد[121] قد إحتوى عليها القفال والإنكشاري ، فخاف صبّاح على نفسه ففرّ لزاوية الشَّيْخ أبي الحسن – رحمه الله – ، فأقام بها مدة طويلة ، فاتّفق رأي القفّال والإنكشاري على قتل محمّد صَبَّاح[122] بالزّاوية ، فجمعوا نحو سبعين رجلاً مسلّحين فتقدّموا بعد صلاة الظّهر للزّاوية فواجههم الشَّيْخ ونهاهم ووعظهم فلم يتّعظوا إلى قرب العشاء الأخيرة وهو يناشدهم الله تعالى ، فأبوا

= والبادي أظلم ، كما تدين تدان ، والعبد يجازى بمثل ما صنع فأخرج من الزاوية هو وأتباعه ومماليكه وقُتِلاَ معًا بالحديد الخ ، نسئل الله السلامة والعافية ورأى بعض الناس الشيخ في تلك الليلة وهو يشيرها بهذا ا هـ. قال الشيخ أبو الحسن : وقد أتى ابن ميلاد إلى صفاقس بسفينة بقصد أخذ الناس وقتلهم ، أرسله ابن الشوك فتعرض له جماعة من أهل البلد في سفينة فظفروا به وقتلوه صبيحة يوم الرأيا وأراح الله المسلمين منه ، وخرج وصيفه هاربًا بها اذ كان حاضرًا بزاوية أبي بغيلة بعد أن قتل سيده وكان دقّه رجل من أهل صفاقس بمخلب».

119) بعدها في ط : «قال أبو الحسن – رحمه الله – ، وقد أتى إبن ميلاد إلى صفاقس في سفينة بقصد أخذ الناس وقتلهم أرسله ابن الشوك فتعرض له جماعة من أهل البلد بسفينة فظفروا به وقتلوه صبيحة يوم الرأيا وأراح الله المسلمين منه وخرج وصيفه هاربًا بعد أن كان حاضرًا بزاوية أبي بغيلة بعد أن قُتِلَ سيده وكان دقه رجل من أهل صفاقس بمخلب».

120) في الأصول : «فاتفق».

121) يقصد المدينة (مدينة صفاقس) طبقًا للهجة صفاقس السائدة آنذاك التي سارت عليها العقود والمراسلات الرسمية.

والرحالون الأجانب أيضًا ، وما تزال كلمة «بلاد» مستعملة في الوقت الحاضر لنفس الغرض ، وقد استعملها المؤلف تارة ، واستعمل «بلد» مرة أخرى لنفس المعنى. وقد عوضنا «بلاد» «ببلد» تفاديًا للخلط بين مدينة صفاقس وكامل التراب التونسي دون الإشارة إلى ذلك.

122) في بقية الأصول : «إبن صباح».

إلاّ كسر حرم الزّاوية فكَسَّرُوا الأبواب ، قال الشّيْخ أبو الحسن – رحمه الله تعالى – [115/ب] دخل الشّيطان الخبيث هو وبعض شياطينه على الرجل الهارب ، فضربه الخبيث برصاصة فخرج فارًّا بنفسه فتلقاه من كان بوسط الزّاوية من الأشقياء ، وهو عمر سعادة ، فرموه بالرَّصاص حتى وقع ميتًا لوقته ، ولم يكفهم ذلك حتّى احتزّوا رأسه / وكان الذي اشلاهم صاحب المكر الاسرائيلي قاسم القفّال[123] واشترط لهم هو وأمّه ، إن حضروا برأسه بين يديه ، مالاً كثيرًا.

قال بعض تلاميذ الشَّيخ أبي الحسن : إنّ الشَّيخ بعث مقدّم الزَّاوية للقفّال يستنجده ويقول له : سيّدك واقف بين الرَّصاص في باب البيت ربّما انقلبت بعض البندقيات فيصيبه لظنّه أنّه لا يخالف[124] لأنّه ربّاه بزاويته وتعلم عليه جملة وافرة من العلم ، (فلم يلتفت لقوله وأرسل بعض أعوانه وهو يحضّهم على عدم الخروج حتّى يقتلوا إبن صَبَّاح)[125].

قال الشَّيخ أبو الحسن : فبعد أيّام يسيرة أتاهم الخبر أنّ علي باي قادم عليهم بجيوشه ففروا بأنفسهم وأموالهم وحريمهم إلى طرابلس ، قال : فأمّا المُتَجَرّي الأكبر صاحب المكر الإسرائيلي والغدر أُخِذَ جميع ما كان معه من المال وطُلِبَ وعُذِّبَ بالعصا ولم يظفر بصفاقس ، وأما الفاسق خليفته – يعني إبن الإنكشاري – فرجع إلى البلد بعدما أخذ العدوّ أهله وماله وجمعًا من أصحابه وناله من الذّلّ (والإهانة ما علمه الله ، وبقيت أمّه وأخوه وأخته وزوجها وعمّه وزوجه)[126] وبنوه ببلاد الكفار فلم يتعظ الفاسق بذلك حتّى فعل من الشَّيْطَنَةِ في البلد وتَعَدّي الحدود والفجور وارتكاب كل قبيح ما [116/أ] يقصر عنه الوصف ، وحاز حصار البلد ولم يبق لأهل البلد شَفَاعَةٌ ولا نجدة ، فَسَلَّطَ الله عليه من اعتزّ به فقتله أشر قتلة بالحديد وغيره كما فعل هو بالمسلمين ، وأراح الخلق منه ، وتَبَدَّدَ جمعه فمنهم من مات مقتولاً / ومنهم من أُسِرَ ومنهم من نفي ، ولم يبق من أعوانه أحد إلاّ عوقب على قدر فعله اهـ.

وهذه إشارة إلى ما فعله إبن الإنكشاري ، وذلك أنّه لما طالت الفتنة بين علي باي وأخيه محمّد باي – رحمهما الله تعالى – (وعفا[127] عنهما)[128] واشتغل كل منهما بنفسه

---

123) ساقطة من ط.

124) في ت و ط : «يخاف».

125) في مكانها في بقية الأصول : «فلم يقتلوا صباحًا».

126) ما بين القوسين ساقط من ط.

127) في ش : «عفى».

128) ما بين القوسين ساقط من ت.

انتهز إبن الإنكشاري الفرصة فاستأثر بالبلد وخرج عن طاعة الأخوين ونهب أموال الخلق ، وتحكَّم بظلمه وشؤمه فلا خاف من الله ورسوله ولا من سلطان يزجره ، فمن أقبح صنائعه أن أنشأ له مركبًا وجعل له[129] مقاذيف ، وجمع جماعة من شبان البلد وشجعانهم ، ومن عرف فيه أهلية أدخله طوعًا أو كرهًا ، وصار يقطع طريق البحر على المسافرين من النّصارى والمسلمين ، فينهب الأموال ويقتل النّفوس إن نازعوه ، وإذا[130] انتصف النّهار يركب بجمعه ويقصد جربة بحيث يكون موافاتها ليلاً ، فينزل على النّاس في منازلهم في زي النصارى فيأخذ أموالهم ، ومن تكلّم منهم قتلوه ، ويسافر ليلاً فيصبح داخلاً للبلد ، فيظنّ أهل جربة أنّهم أخذتهم النّصارى ليلاً وهربوا ، وكذا يفعل بكل بلد قَدَرَ عليه ، ويظهر لأهل صفاقس أنّه يحرس البلد ويحميهم من عدوّهم ، وكلّ من أذنب ذنبًا وهو أهل للسّفر معه لا يُخَلِّصه إلاّ الدّخول معه وإلاّ عذّبه عذاب الهدهد ، وخندق على البلد الخنادق ، وسكن بالقصبة وطغى وبغى وحَسِبَ أنّ الشَّر يدوم له.

فلمّا استقلّ محمّد باي – رحمه الله تعالى – بالأمر بعد وفاة عمّه وأخيه وموت إبن شكر / أرسل لصفاقس من قتل هذا الخبيث الفاجر ، وطَهَّر الله الأرض من شؤمه وبغيه ، وتفصيل ذلك يطول ولا فائدة فيه. [116/ب]

قال الشَّيْخ أبو الحسن – رحمه الله – : ولمّا وقع ما وقع من الأشقياء غَلَقْتُ باب زاويتي وصرت أنتحب ليلاً ونهارًا ، قال بعض تلاميذه : ولمّا صدر منهم ما صدر في الزّاوية غلق الشَّيْخ باب الزّاوية ولا بقي أحد يدخلها لا لقراءة ولا لزيارة ولا لصلاة ولا لغيرها ، وفقدنا درسه[131] واشتقنا فيه نظرة ، وتكدّر علينا زماننا وهاج شوقنا إليه بسببهم ، وربّما عُرِضَت له حاجة فيخبرنا بها بكتابة ورقة[132] يرسلها لنا اهـ.

وفي هذه الأزمان منذ تولي سيدي حسين – رحمه الله وعترته – طهّر الله البلاد والعباد من أهل البغي والفساد ، وتوالت الولاة من الحضرة داخلين تحت الأمر والنّهي أدام الله هذه النّعمة على عباده ولا أراهم ما يسوءهم بفضله وكرمه.

---

129) في الأصول : «لها».

130) في بقية الأصول : «ان».

131) كان – رحمه الله – يعمل الميعاد (مجلس الوعظ) يوم الجمعة بقراءة كتب الوعظ والسير والمغازي على عادة أهل صفاقس في ذلك التّاريخ ، ويعلّم التلاميذ علوم الطّريقة والحقيقة.

132) بسبب هذه المحنة بقي سيدي أبي الحسن معتكفًا بزاويته مدّة خمسين سنة بين ذكر وعبادة ونسخ وتآليف إلى أن وافاه أجله. نفس المرجع.

الباب الثّالث

فيما وقع لأهل صفاقس من الجهاد في هذه الأعصار المتأخّرة

حروب صفاقس مع مالطة :

لمّا كثر جور أهل مالطة[1] – دمّرهم الله تعالى – إستشار أهل الفضل بعضهم بعضًا كالشّيْخ النّوري – رحمه الله تعالى – وأضرابه في شأن جهاد هؤلاء الكفرة ، ورأوا أنّه لا يكون إلاّ بإنشاء سفن مخصوصة تناسب القتال ، فوافق على ذلك جلّ النّاس ورأوه حَسَنًا شرعًا ، وَطبْعًا لما رَغَّبَ الله فيه ، وحماية لأرزاق المسلمين وأنفسهم ، وإنّما / قام [117/أ] بهذا الفرض أهل صفاقس لأنّ لهم تعلّقًا كبيرًا بسفر البحر[2] ، فهم مضطرون للجهاد دُنْيَا ودِينًا[3] ولا قدرة لهم على تركه ، قال تعالى : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾[4].

فلمّا إتفق أهل الفضل على إنشاء السّفن تعاونوا على الخير وبذلوا أموالهم إبتغاء رضوان[5] الله ، فأنشؤوا عدّة سفن ، فَوَفَّق الله رأيهم[6] ، فغنموا من الكفّار كثيرًا ، وقمع الله الكفّار.

1) كانت تحت سيطرة فرسان مالطة (فرسان يوحنا الأورشليمي) وهي منظّمة رهبانية مسيحية ترى من أوكد واجباتها محاربة المسلمين. ومؤسّسها وجماعته كانوا في جزيرة رودس ، ولمّا احتلّها الأتراك إنتقلوا إلى مالطة.

2) وممّا يدلّ على تعلّقهم بركوب البحر والسّفر للتّجارة الخرائط الّتي أنشأها بعض أفراد أسرة الشّرفي الصّفاقسيّة خلال القرن السّادس عشر ، وأهمّها الخارطة الّتي وضعها علي بن أحمد الشّرفي في سنة 1551/958 وتملك منها المكتبة الوطنيّة بباريس نسخة مخطوطة. أنظر كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب العربي 456/I.

3) نظرًا لبعد صفاقس عن العاصمة تونس ، كان من المفروض عليها في تلك الأعصار المضطربة أن تعتمد على نفسها عسكريًا واقتصاديًا. أنظر أحمد عبد السلام *Les historiens tunisiens*.

4) سورة التّوبة : 123.

5) في ط : «مرضات».

6) في ش : «في رأيهم».

ثمّ طالت الأيّام وتهَشَّمَت تلك السّفن ، ووقعت فتنة وشدّة ، ومات أولئك النّاس ، فرجع الكفّار لجورهم لأنّهم – لعنهم الله – ما زالوا على ما كانوا عليه من أذيّة المسلمين (منذ[7] خرجوا من رودس ، فلمّا سكنت الفتنة وتراجع النّاس إنتبهوا – رحمهم الله – من أمر البحر فرأوا ما وقع من أذيّة الكفّار للمسلمين)[8] وعلموا أنّه لا يقمع شرّ هؤلاء الكفرة الفجرة إلاّ إنشاء غير تلك السّفن ، فاتّفقوا على ذلك وأنشؤوا ثمان سفن ، فَأَمِنَ بهم البحر وانقطعت[9] أذيَّة الكفّار.

وعادة أهل البلد في غزوهم أنّهم مهما سمعوا بخبر بعض سفن العدوّ[10] ضربوا طبلاً على سور البلد فوق باب البحر[11] وأجرى الرُّؤساء سفنهم ، وتسارع أهل الخير للنّزول للبحر ، وأخذوا ما تيسّر من الزّاد وآلة الحرب ، وركبوا في السّفن ، فيسيرون طالبين آثارهم من رأس المخبز قرب طرابلس إلى قرب رأس أدار[12] بتونس ، فإن وجدوا عَدُوًّا حاربوه ، فإن قسم فيه النّصيب أخذوه ، وإن فلت وفرّ تبعوه إلى بلاده أو إلى ما يقرب / [117/ب] منه ، وإن لم يقسم النّصيب أو لم يجدوا عدوًّا رجعوا لبلادهم سالمين مأجورين[13] ، (فغلبت السّلامة في البحر من طرابلس لتونس)[14].

حروب صفاقس مع البلنسيان :

ثمّ إنّ الباشا[15] – رحمه الله تعالى – كان حربًا على البناديق[16] من النّصارى ويسمّيهم النّاس بلنسيانًا[17] ، وبينهم وبين طرابلس صلح وهدنة[18] ، فأمر الباشا

7) في ش : «من ذو».
8) ما بين القوسين ساقط من بقيّة الأصول.
9) في الأصول : «انقطع».
10) في بقية الأصول : «بعض العدو».
11) هو باب الدّيوان الآن كما أشرنا.
12) في الأصول : «رأس دار».
13) يقصد مأجورين من الله.
14) في ط : «فقبلت اسلامة في البحر من طرابلس لتونس».
15) يقصد علي باشا الأول.
16) سكّان البندقية بايطاليا ، والمعروف في الجمع البنادقة.
17) بلنسيان تحريف لكلمة vénitiens نسبة إلى Vênise التي يسمّونها البندقية وكتبها إبن أبي الضيّاف في الإتحاف : «الفنسيان» 20/3.
18) كانت البندقية تستغلّ الملح بمناطق زوارة، وكانت تقع بين سفنها وسفن المسلمين مناورات ، واستمرّ ذلك مدّة طويلة إلى أن عُقِد في 11 ديسمبر 1764 اتفاق أولي صودق عليه في أفريل 1765 بين طرابلس والبندقية يضبط

– رحمه الله – أهل صفاقس بالمسير لرأس المخبز فإذا وجدوا مراكب البلنسيان تُشْحَنُ بالملح تربّصوا بهم حتّى يفارقوا المرسى ويسيروا فبعد ذلك يتبعونهم ويقاتلونهم ، ففعلوا ذلك وغنموا منهم سفنًا غير أنّهم ربّما عاجلوهم عن الخروج من المرسى فيهجمون عليهم ويأخذونهم قبل مفارقتهم الميناء التي هي في أرض طرابلس فيردّهم الباشا ، فخاف الكفّار من صفاقس فاستعدّوا وصاروا لا يأتون إلاّ بأكبر مراكبهم في أقوى العَدَدِ والعُدَدِ.

ففي سنة ستّين ومائة وألف[19] جاء منهم مركبان في غاية الكبر والقوّة والمنعة ، فأمر الباشا بالذّهاب إليهما ، فركب النّاس في ثمان سفن وتوجّهوا نحوهما ، فسمع النّصارى بتوجّههم إليهم فتأهّبوا للقاء المسلمين فربطوا إحدى السّفينتين على الأخرى بحبال في غاية الثّخانة والقوّة حتّى تَعَسَّر المرور بين السَّفينتين ، ووضعوا أثقالهم في الشّقّ غير المواجه لسفائن المسلمين ، فارتفع الشّقّ الآخر المقابل للمسلمين فصار علوّ مراكبهم يحاذي رؤوس قلوع سفن المسلمين ، فلمّا وصلت[20] سفن المسلمين قريبًا من العدوّ وصاروا رأي العين بادر المسلمون[21] / بالحرب ، ولا علم عندهم بما فعله الكفّار من إمالة مراكبهم وحسبوا [118/أ] أنّهم من الجانبين في ذلك العلوّ على حدّ السّواء فاشتغلوا بالحرب عن تدوير السّفن للجانب الآخر ، وكان الرّيح في ذلك اليوم ساكنًا ، فكَثُر الكور والبندق والحوارق[22] من الجانبين حتّى أطبق الجوّ وصار النّهار ليلاً من ظلمة الدّخان ، وصمّت الآذان من صوت الصواعق ، وفشا[23] القتل والجراح في الفريقين وحسبوا أنّه الفناء ، فأيس كلّ فريق من نفسه ، وانقطع طمع المسلمين في أخذ الكفّار ، ففارقوهم وحلّوا قلوعهم ورجعوا لبلادهم بما نالوا من أجر الجهاد وشهادة من استشهد ، وكان عدّة الشّهداء أربعين والجرحى[24] ستّين ، ووقع في الكفّار مثل ذلك وأكثر منه ، وما منع المسلمين من أن ينالوا الكفّار إلاّ علو مراكب الكفّار ، فصاروا يرمون على المسلمين من علوّ ، ولا ينال

= العلاقة بين البلدين ، ومن بنوده منح البندقية وحدها امتياز الملح بزوارة ، وجدد هذا الإتفاق في أوت 1766 مؤكّدًا النّصوص السّابقة إثر الخلاف الذي حصل بين البلدين في سنة 1765. انظر مثلاً أتوري روسي : ليبيا ص 299 – 300.

19) 1747 م.

20) في ت و ش : «وصل» ، وفي ط : «وصلوا».

21) في ش : «بادر المسلمين».

22) في ط : «الحارق».

23) في الأصول : «فشى».

24) في الأصول : «والجرحا».

المسلمون منهم إلاّ من أظهر رأسه من الطِّيقَان ، فكلّ من أظهر رأسه أصابوه ، وطلعوا في رؤوس القلوع يرمون منها ما قدروا عليه ، وكان رجوع المسلمين لصفاقس آخر يوم من شعبان سنة ستّين ومائة وألف[25].

ولمّا سافرنا لبرّ[26] المشرق ونزلنا بلادهم على الصُّلح ، فرأيناهم صَوَّرُوا مراكبهم وسفائنُ صفاقس قادمة عليهم وصورة الكور والحرائق والدّخان ، وأبقوا ذلك مصوّرًا في كنائسهم ، ووجدنا بعضهم أعرج ، فسألناهم عن سبب عَرَجِهم فقالوا : واقعة رأس المخبز ، فذلك دليل على عظم / مُصَابهم. [118/ب]

وأنشد في هذه الواقعة أبو عبد الله محمّد الخميري – عفا الله عنه – هذه الأبيات وكتبت على ضريح المعلّم أسطى أحمد السيالة – رحمه الله تعالى – وهي :

[الرّجز]

الحمدُ والشّكر لـه[27] تعالى	هـذا ضريح أحمـد السَّيـالـه
هـذا شهيـدُ المعترَكْ في الغزوِ	من قبل رَمضان بيومٍ يحوى[28]
في عـام ستين وألـف ومـائـه	فيـا لها من غزوة مستكملـه
بها قـد استُشْهِـد أربعونَ[29]	عـدة جرحـاهم بها ستّونَ
يا ربُّ سامح جمعهم والحقنا	بهم على الإيمان واعف عنّـا

ولمّا رأى البلنسيان ما حلّ بهم وانقطع طمعهم من رأس المخبز لما خافوا إن عادوا أُخِذُوا سارعوا لطلب السِّلم مع سلاطين تونس ، ولمّا سمع[30] أهل مالطة بهذه الواقعة فرحوا وانتهزوا الفرصة ، فخرجوا لفسادهم في البحر وظنّوا أنّ أهل صفاقس أصابهم قرح يفشلهم مع أنّ أهل صفاقس نَزَّلُوا الشُّهَداء ودفنوهم والجرحى للعلاج ، وضربوا طبلهم على الفور وخرجوا في طلب الكفّار في[31] كلّ جهة ، فالتقوا بمركب فرنجي سلما[32]

---

25) 5 سبتمبر 1747 م.
26) في ط : «بلاد».
27) في ت و ب : «لله».
28) في ت : «يجرء».
29) في ت : «أربعين».
30) في ت وش : «سمعوا».
31) في ط و ب و ت : «من».
32) في ط : «أسلماه».

لأهل صفاقس ، فلمّا فارقهم وجد سفن المالطيين فسألوه عمن لقيت[33] ، قال : لقيت سفن صفاقس ، فرعب المالطيون ورجعوا مذمومين مدحورين ، وأيسوا من بحر صفاقس.

وفي سنة خمس وتسعين ومائة وألف[34] وقع الطّاعون بأرض مصر فاكترى أهل صفاقس مركبًا من ريس من جنس البلنسيان ، وشحنوه بالغزل والكتان والقماش وغير ذلك من بضائع مصر ، وركب بعض التجّار / بها من أهل صفاقس وغيرهم وتوجّهوا [119/أ] لصفاقس ، وبلغ خبر الطّاعون لسلطان تونس سيدي حمّودة باشا – دام علاه – فكتب لقائد صفاقس المرحوم القائد بكّار الجلّولي – رحمه الله برحمته الواسعة وعفا[35] عنه – وأمره بأن لا يقبل من أتاه من برّ مصر وأن يوجّهه لتونس ليبقى تحت نظره مخافة من المسارعة بالنزول والدّخول للبلد[36] فربّما يكون فيه ضرر على المسلمين لقوله عليه الصّلاة والسّلام : «لا يورد ممرض على مصح» أو كما قال عليه الصّلاة والسّلام : «وإن كان الحقّ لا عدوى[37] خوفًا من ضعف يقين بعض النّاس فيفتتن في دينه» فحسم الشّارع المادة.

وعادة السّلاطين بتونس أنّ من كان به من الطّاعون يمنع النّزول حتّى تمضي عليه أربعون يومًا[38] فإن مات منهم أحد استظهروا[39] بأربعين أخرى طمعًا في السّلامة ونجاة الخلق ، وحكم الفرار من الطّاعون والقدوم عليه معلوم وهو المنع ، أمّا القدوم عليه فلأنّه يحرق القلوب ، فعدم القرب منه أريح للسرّ ، وأمّا الفرار منه فلا فائدة فيه فإنّه في عنق الفار ولا يفيده الفرار شيئًا.

وكان القائد – رحمه الله تعالى – شديد الحرص على تتبّع أمر السّلطان ، وأمّا المركب فإنها لمّا سافرت من إسكندرية وتلجّجت البحر وقع في أهلها الطّاعون ومات منهم كثير من النّصارى والمسلمين ، ومات ريس المركب فخلفه ولده ، فقام[40] بأمر [119/ب] المركب ، (ولمّا مات أكثر[41] النوتية من النّصارى)[42] وتعطّلت أحوال المركب / وخاف

---

33) في ط و ب و ت : «لقيته».
34) 1781 ، وفي الإتحاف كان ذلك في سنة 1204 هـ/1789 م وهو مخالف للواقع.
35) في الأصول : «عفى».
36) في ش : «ليلا» ، في ط : البلاد : «المدينة».
37) في الأصول : «عدوا».
38) ما يعرف بالكرنتينة وهي تعريب للأربعين ، وتعرف بالحجر الصّحّي وحكّام تونس اقتبسوها من أوربا.
39) في ش : «فاستظهروا».
40) في ط : «فأقام».
41) في ط : «كبير».
42) في ت : «وكان الموت في النصارى كثير».

الباقي الهلاك[43] إلاّ أنّ النّاس مسكوا قلوبهم وتعاونوا على السّفر وإجراء المركب ، فما زالوا على أسوإ حال حتّى بلغوا صفاقس بعد التي واللتيا ، فمنعهم القائد من البقاء بالمرسى وأمرهم بالتّوجّه لتونس تحت نظر السُّلطان فأبوا وقالوا : نحن أشفينا[44] على الهلاك ، فكاتب السُّلطان فأكد عليه عدم قبولهم ، فبلغهم ما أمر به السُّلطان فأبوا إلّا البقاء ، فتهدّدهم وتوعّدهم بأشدّ الأذى ، فأيسوا وسافروا وفي[45] ظنّ المسلمين التّوجّه لتونس فأبى النّصارى إلّا الذّهاب لمالطة — دمَّرها الله — ، فتنازعوا مع المسلمين في ذلك والمسلمون لا يعرفون السَّفر ، فما شعروا إلاّ وهم داخلون لمالطة — دمّرها الله تعالى — فسألهم أهلها : ما شأنكم؟ فعرَّفوهم بحالهم فأمروهم بالخروج من مرساهم والسَّفر حيث شاءوا ، فامتنع النَّصارى من ذلك فخوّفوهم بالحرق فلم يمتثلوا ، فطلب المسلمون الذين في المركب من وكيل البلنسيان ويسمّونه قنصلاً أن يكتري لهم نصارى يسافرون بهم ، فقال : لم أجد من يسافر معكم ، فسألوه أن يفتدي لهم أسارى ويعطوا لهم فداءهم فأبى ، وحاصل الأمر أنّه تعَذّرت الحيلة وتعسَّر السَّفر بوجه ما ، ولم يرض أهل مالطة ببقائهم خوفًا أن ينزل منهم أحد فيقع فيهم الطَّاعون لأنّهم يقولون بالعدوى فلا شكّ عندهم في وقوعها ، فلمّا رأوهم غير ممتثلين لما أمروهم به من الخروج جمع الكفّار بمالطة بعضهم بعضًا لينظروا في أمرهم ، فاتّفق رأيهم على نزول الآدميين وحبسهم في حبس يتعذر / [120/أ] الفرار منه في مكان منعزل عن النَّاس وحرق المركب بما فيه من جميع الأمتعة عدا النقد ، فأنزلوا النّاس وغمسوهم في الخلّ وبَخّرُوهم ببخور نتن الرِّيح يكاد يُزْهق الرّوح ، وكرروا عليهم ذلك مرات متعدّدة ، وحرقوا المركب بما فيه ، هذا بحسب ما حكم به أهل الكفر ، وأمّا المسلمون أصحاب المركب فإنهم غير راضين بهذا الحكم من النّصارى.

ولمّا فرغت مدّة الحبس[46] والتّبخير أخرجوا النّاس وأمروهم بالسّفر لبلادهم ، فطلبوا منهم كتابًا للسُّلطان بتونس أنّ الحرق كان من غير اختيارنا خوفًا أن يطالبهم التّجّار بثمن أرزاقهم إذا ادّعوا منهم تفريطًا ، فامتنع النّصارى من ذلك ، فاستجاهوا برسول مولاي محمّد الشَّريف إبن مولاي عبد الله — رحمهم الله وجعلنا في شفاعة جدّه ﷺ —

---

43) في ت : من الهلاك.

44) في ب : «شفينا» وفي ط و ت : «أشرفنا».

45) في ط : «في».

46) ساقطة من ط .

وكان قدم بخزائن الأموال في فكّ أسارى المسلمين من أيدي الكفّار – حسبما مرت الإشارة إليه – فتكلم مع النّصارى واعتذر للنّاس بأنّهم يخافون من المسلمين أن يدعوا عليهم تفريطًا ، فلم يزل بهم حتّى قبلوا شفاعته وكتبوا لهم بما يبري ساحتهم ، ولمّا أخذوا الكتاب عمل قنصل البلنسيان على المكر وطلب منهم الكتاب ليطالع ما فيه ليعمل فيه على مكره ، فأنكروه عليه ، ثمّ قدموا لتونس وليس معهم إلاّ الذّهب فسلّموه لأصحابه ، ورفعوا أمرهم للسُّلطان وقد بلغه عملهم تفصيلاً ، فدعا[47] وكيل البلنسيان بتونس وطلب ثمن بضائع المسلمين / لأنّهم ما رضوا بذهاب المركب لمالطة ، وطلبوا من وكيلكم بمالطة [120/ب] أن يكتري لهم مركبًا أو رجالاً أو يفتدي لهم أسارى من أموالهم فأبى ، وقائد صفاقس أمر رئيس المركب بالتّوجّه لتونس ، فالذي يُقَدِّره على السّفر لمالطة يُقَدِّره على السّفر لتونس ، فلمّا وقفت عليه الحجة إستمهل لردّ الجواب لبلاد البلنسيان فأُمْهِلَ ، وكتب لهم[48] بذلك.

واتّفق أنّ مركبًا مشحونًا[49] بأرزاق المسلمين رئيسه من جنس البلنسيان أيضًا ، فسرق النّصارى الذين به أكثر أرزاق المسلمين ، ولما خافوا الفضيحة حرقوا المركب وزعموا أنّ ذلك من غير إختيار ، فأثبت المسلمون عليهم سرقتهم وأنّهم حرقوه باختيارهم فطالبهم السُّلطان بثمنها أيضًا فصاروا مطلوبين بثمن بضائع المركبين ، ولمّا وصل البلنسيان خبر المركب الأوّل توقّفوا أوّلاً ثمّ همّوا بالطّوع بثمنه[50] ولمّا بلغهم خبر المركب الثّاني[51] نكصوا على أعقابهم وأبوا من بذل ثمن الأول والثّاني[52] لكثرة أثمان بضائعهما ، فقال لهم السُّلطان : لا بدّ من دفع أثمان بضائع المركبين وإلّا فلا عهد لكم عندي ولا ذمّة ويقع الحرب بيني وبينكم ، فامتنعوا من بذل الأثمان ولَجُّوا في طغيانهم يعمهون ، فقطع ما بينه وبينهم من العهد والذّمّة وأمر بحربهم ، فجهزوا مراكبهم وجاؤوا يلتمسون الصّلح وبذل بعض المال وترك الباقي ، فأبى عليهم إلّا ببذل الجميع ، فنشأت من ذلك حروب

47) في الأصول. «فدعى»

48) عن قصّة المركبين أنظر : Alphonse Rousseau, *Les annales tunisiennes*, 2e édition, Tunis 1980, pp 197–202 نقلاً عن وثائق القنصلية الهولندية بتونس وأنظر الإتحاف 20/3

49) في الأصول : «مشحونة».

50) في الأصول : «بثمنها».

51) في الأصول «الثانية».

52) في الأصول : «الأولى والثانية».

[121/أ] كثيرة في سنين متطاولة ، فخرجوا سنة مائتين وألف إلّا واحدًا[53] / في تسع مراكب في غاية ما يكون من الكبر ﴿يُفْسِدُونَ في الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾[54] فرموا على بنزرت وسوسة شيئًا كثيرًا من البونبة حتّى أذوهم أذًى شديدًا ، ثم قدموا لصفاقس ، فباتوا ليلة واحدة ورموا ما قدروا عليه ، فحاربهم المسلمون ومنعوهم من القرب من البلد ، فذهب عملهم سدى هباء منثورًا ، وما أصبحوا إلّا مسافرين ، وكأنّهم مكثوا على صفاقس تَحِلَّة القَسَمِ وخرجوا خائفين ، ﴿ وَكَفَى اللهُ المُؤْمِنِينَ القِتَالَ﴾[55] .

ولمّا دخلت سنة مائتين وألف[56] استعدّ الكفّار بأقوى ما عندهم لقتال صفاقس بالخصوص فجمعوا كيدهم وعدّتهم وعددهم لما بينهم وبين صفاقس من العداوة السّابقة ، وسمعوا أنّ البلاد قد أصابها من الطّاعون ما أصابها ، فظنّوا أنّ البلاد تسوّغ لهم وأنّهم ينالون منها ما نالوا من بنزرت وسوسة ، وكان اجتماعهم بمالطة فجعل كبيرهم يأمر بالمناداة[57] في مالطة – دمّرها الله – : من أراد الذّهب والفضّة واللؤلؤ والجواري[58] الحسان والسّبي الكثير فليتوجّه لصفاقس ، فهزأ به أهل مالطة لما يعرفون من حرب صفاقس وشِدّة بأسهم على الكفّار ومحبتهم في القتال في سبيل الله وما لهم من تعوّد بمحاربة الكفّار.

وعادة النّاس إذا أرادوا قتالاً في البحر أن يكون خروجهم[59] زمن المصيف لأنّه أطوع لمزاولةِ آلات الحرب من المدافع والبونبات ، غير أنّ هؤلاء الكفرة الفجرة خافوا إذا تأخّروا لزمن المصيف يستعدّ النّاس لقتالهم ، وخدعهم أهل مالطة / بأنّ مرسى صفاقس [121/ب] أقاصير لا يكثر هيَجان بحرها ، فعملوا على الخروج أواخر الشتاء فبلغ السّلطان بتونس – نصره الله – أنّهم قاصدون خصوص صفاقس ، فجهّز لها ما تحتاجه من مدافع النّحاس ومدافع الحديد والكور والبارود أحمالاً محمّلة ، وقناطير مقنطرة وجميع ما تتوقّف[60] عليه المحاربة من كلّ شيء أكثره ، وجَهّز عدة رؤساء عارفين بصناعة الرّمي

53) 1784 – 1785 م.
54) إقتباس من الآية 152 سورة الشّعراء.
55) سورة الأحزاب : 25.
56) 1785 – 1786 م.
57) في ش و ت و ب : «المنادات».
58) في الأصول : «الجوار».
59) في ط و ب و ت : «حروبهم».
60) في الأصول : «يتوقف».

مع ما عليه أهل البلد من المعرفة ، فكان نورًا على نور ، وأمر عربان الوطن بالنّزول على شطوط البحر وأخرج النّاس أهاليهم إلى البَسَاتين ، وحملوا إليها جميع أثقالهم وتركوا البلد كقلب أمّ موسى ، فخاف أهل البلد إذا إشتغل الرّجال بالقتال أن يقع من العرب تسوّر[61] على الحريم فكاتب السُّلطان قائد العرب وَعرَّفه مهما يثبت أنّ أعرابيًّا دخل بساتين النّاس وأذاهم في حريمهم ليلاً أو نهارًا لأعذّبنه عذاب الهدهد ، فقرأ عليهم كتاب مولانا السُّلطان وحذّرهم بطشه وتوعّدهم بالوعيد الذي توعّدهم به السُّلطان ، فأعطوه عهودهم على الأمن والمسالمة ، فعصمهم الله من المخالفة.

فلمّا كان خمسة عشر يومًا من جمادى الأولى سنة إحدى ومائتين وألف[62] وافق ذلك أوّل يوم من الحسوم[63] جاء الخبر من قرقنة أنّ مراكب البلنسيان قدموا وأنّهم سائرون لنحو صفاقس ، فاجتمع أهل البلد قاطبة خاصّتهم وأهل الحلّ والعقد منهم وعامّتهم وقائد البلد يومئذ القائد أبو الثّنا محمود إبن المرحوم القائد / بَكّار الجلُّولي – أعان [122/أ] الله الجميع على طاعته ووفّق الكلّ لصالح القول والعمل وحماهم من الخلاف والزّلل – فاتّفق الكلّ على كلمة واحدة وعصمهم من التّنازع ولو في شيء يسير ممّا يوجب الفشل ، فأحضروا أوّلاً أمين المهندسين رئيس البناء أبا عبد الله أسطى محمّد إبن المرحوم أسطى طاهر المنيف ، وكانوا ابتدأوا إسقالة في مقابلة مرسى المراكب ليمنعوا مراكب العدوّ من القرب للبلد ولم تكمل ، فأحضروا جميع ما تحتاجه الإسقالة ممّا يتوقّف عليه القتال ، وبات النّاس على ساق الجدّ فما أصبحوا إلاّ وقد أحكموا الإسقالة غاية الإحكام وأحضروا بها ما يتوقّف عليه القتال من مدافع وكور وبارود وعيَّنُوا بها من يصلح للرّمي ، وكذا فعلوا ببرج النّار وهو البرج الذي في ركن البلد الشرقي الجنوبي[64] وكذا ببرج الربض[65] – وهو أمام البرج المتقدّم – وبباب البحر وبالحصار وبكلّ مكان فيه نكاية للعدوّ ، ونصبوا خيامًا على الإسقالة وساحل البلد من شرقها وغربها وعَمَّروها بحملة القرآن ، وتنافس النّاس في

---

61) في ت وط وب : «ستور».

62) 4 مارس 1787 م.

63) في القول الدّارج الحسوم نصفها فراريات ونصفها مارسيات ، وهي سبع ليال وثمانية أيّام ، تدخل في يوم 10 مارس حسب التقويم الغريغواري (Grégorien) وهو يوافق يوم 24 فيفري حسب التّقويم القديم ليوليوس قيصر (وهو المعروف عند العامة بالعجمي) ، وتنتهي يوم 17 مارس بدخول الغاية وهو يوافق يوم 4 مارس العجمي.

64) من السّور ، وما زال معروفًا بهذا الإسم.

65) الرّبض القبلي بباب البحر حيث المدينة الحديثة الآن ولعله يقصد البرج الذي بناه حمّودة السّلامي.

الإسقالة لأنّها جاءت في نحر العدوّ وهو متوجّه إليها بالقصد أكثر من غيرها ، وعيّن لكلّ مكان من يقوم به من رماة[66] وحرّاس وقرّاء وغير ذلك ، ورتّب أهل الخير رجالاً لحمل الماء لشرب النّاس ليلاً ونهارًا ، وكثرت صَدَقَات[67] أهل الفضل ، وواسى الغني الفقير ، ورتّب أهل الفضل / بالإسقالة الطّعام لمن يبيت من الغرباء بالإسقالة وغيرها ، وصارت الأرض كأنّها مسجد من مساجد الله ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ، رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِم تِجَارَةٌ ولاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾[68] ، فلا تسمع بها إلاّ تلاوة لكتاب الله ، أو صلاة على رسول الله ﷺ أو تهليلاً أو تكبيرًا برفع صوت ونشاط وحزم ، إظهارًا لعزّة الإسلام وإرهابًا لأهل الكفر والضّلال ، وإذا جنّ الليل[69] ترك النّاس خيامهم[70] فيذهب أهل الجانب الشرقي لأهل الجانب الغربي ، وأهل الجانب الغربي لأهل الجانب الشرقي زيادة في الحرس وإيقاظًا وتنشيطًا ، فمنهم الرّاكب ومنهم الرّاجل ، ولا نوم لأحد بطول الليل ، بل رباط مستمرّ ليلاً ونهارًا ، فانتظم أمر النّاس والتأم شملهم طلبًا لرضاء الله وإظهارًا لكلمة الله العليا ، وقمعًا لكلمة الذين كفروا السفلى ، فانتظر الكفّار سكون البحر والرّيح ، فلمّا أحسّوا بذلك شرعوا في الحرب ، فأنشؤوا أنشولات إثني عشر ، وهي مراكب واسعة قصيرة الجوانب ، ملؤوها بالرّجال وآلات الحرب من المدافع والبونبات ومهاريسها ، ولهم مراكب يسمّونها هويات معدّة لرمي البونبة ، فركّبوا مدافعهم ومهاريسهم وما يحتاجونه ، وشرعوا في الحرب أوّل يوم من الزّوال إلى الغروب ، فوقع الرمي من المسلمين والكافرين فصار الجوّ ليلاً مظلمًا من الدّخان ، فلا يسمع إلاّ صوت القوارع والصواعق / على وجه الأرض وفي جوّ السّماء ، فكثر الرّمي من الجانبين وعجز النّاس عن الإحصاء لأنّه يخرج مع الوجه[71] الواحد عدة وجوه من الجانبين دفعة واحدة لتعدّد أماكن الرّمي من الجانبين ، وكلّما فرغ وجه عُمِّرَ غيره[72] من غير فتور لأنّ على كل مدفع جماعة ، فالبعض للمسح والبعض للتّبريد ، والبعض للجرّ ،

[ب/122]

[أ/123]

---

66) في ش : «رمات».

67) في ش : «صدقاة».

68) إقتباس من الآية 36 – 37 من سورة النّور.

69) في الأصول : «اليل».

70) ساقطة من ط ، وفي ش : «من خيامهم».

71) يقصد رمي المدافع وقصفها.

72) تعمير المدافع من الكور وغيره.

والبعض للوزن لتعيين موضع الرَّمي ، والبعض لوضع النّار وغير ذلك ، فما يفرغ المدفع إلاّ وداروا به كلّ من له عمل إستقبله ، فأظهر الكفّار غاية طاقتهم ومجهودهم ظنًّا أنّ ذلك يجديهم نفعًا وحسبوا أنّهم يُرْهِبُون المسلمين بذلك ، فخيّب الله أمل الكفر وكذّب ظنّهم ، فما ازداد المؤمنون إلاّ نشاطًا وجدًّا واجتهادًا ، وأنزل الله عليهم النّصر وأفرغ عليهم الصَّبر ، وجعل المسلمون يتلقّون ما يرميه الكفّار من الكور فيلتقطه الأطفال والمتجالات ويجعلونه في المدافع ويرمون به الكُفَّار ، فسقط عندهم[73] البعض من ذلك ، فسقط في أيديهم ورأوا أنّهم قد ضلّوا فكان ما يرمونه وبالاً عليهم ، وكلّما رموا بونبة وسقطت صحيحة[74] أخذها المسلمون وأفرغوا ما فيها من البارود ، وصار المسلمون يرتقبون ما يسقط صحيحًا يغتنمونه. والحاصل لمّا حاربوهم أوّل يوم ورأوا حربهم إستخفّوا بهم واستهانوا[75] أمرهم ، فمات من الكفّار شيء كثير ، وعطب منهم شيء كثير ، ولم يقتل في هذا اليوم / من المسلمين إلاّ ثلاثة : أبو عبد الله محمّد الشّهيد إبن الشّهيد المجاهد في سبيل الله حمّودة السّلاّمي ، كان ممّن سبَّل نفسه على الجهاد في سبيل الله ، إنكسر عليه مدفع حديد في برج الرّبض ، والثّاني أبو عبد الله محمّد بن[76] أحمد بن حسين مساعد أصابته كورة في جوفه بالإسقالة فاستشهد من ساعته ، وضرب إثنان كلّ واحد بكورة في فخذه وَرُفِع حيًّا ، ثمّ استشهد بعد أيام أبو العباس أحمد بن عبد اللطيف المصمودي ، كان مارًّا بالإسقالة فأصابته الكورة ، وأبو عبد الله محمّد بن حمّودة القرمازي ، أصابته كورة في برج النّار ، وأمّا بعد ذلك فما أصاب أحد من المسلمين شيء إلاّ محمّد الجلباني[77] أصابته كورة في برج الربض برأسه فاستشهد من ساعته ، ولم يوجب قتل من قتل فزعًا ولا رعبًا بل استبشر المسلمون بذلك ، وتلقوا أهلهم بالتّهنئة بنيل درجة الشّهادة ، وسارعوا لدفنهم وحملوهم على أعناقهم بل فوق رؤوسهم متبرّكين بحملهم – رحمة الله عليهم واحشرنا يا ربّنا معهم في زمرة الشّهداء والصّالحين – . [123/ب]

ولمّا رأى الكفّار الذين نزلوا في الأنشولات ما حلّ بهم من المسلمين ، وكلّما حاولوا القرب من المسلمين نزل عليهم عذاب الدّنيا ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾[78] وضرب رئيسهم[79] الذي يدبّر أمرهم في وجهه ، وزال بغضه وانقطعت أطماع الكفّار ، وعظم

73) في ط : «عنهم».
74) كاملة دون أن تتفرقع.
75) في ط و ش : «استهان».
76) ساقطة من ط و ب و ت.
77) في ط : «الجيلاني».
78) سورة طه : 127.
79) في ش : «رايسهم».

[124/أ] فيهم الرّعب والخوف / فبات المسلمون على مصَافِّهم منتظرين للقتال ، فلمّا أصبح الصُّبْحُ أمر كبراء الكفّار رجال الأنشولات بالنّزول إليها ليقربوا من المسلمين بعض قرب فامتنعوا من ذلك وتنازعوا وقال كبراؤهم : أما اكتريناكم لهذا الأمر؟ فقالوا لهم : نحن ما حسبنا أن نلقى من صفاقس هذا الحرب ، بل حسبنا أنّا من أوّل وهلة نرميهم فيفروا وننزل البلاد ، وها نحن بطلت حيلتنا وضعفت قوانا ، ومات أكثرنا ، وتعطّب البعض منّا ولم نحصل على طائل ، فقالوا لهم : أما ترون المسلمين ثابتين على دينهم يقاتلون؟ قالوا : المسلمون متحصّنون ونحن في أجفان ملقاة على وجه المّاء ، فإن رميناهم لم يصبهم رمينا وإذا رمونا أصابونا ، ما لنا بهذا القتال طاقة ، فرفقوا بهم ووعدوهم أوعادًا خدعوهم بها وزادوهم في العطاء كلّ ذلك خوفًا من الفضيحة لا سيّما ومراكب بعض أصناف الكفّار المعاهدين حاضرون يعاينون ، فأيس الكفّار من الظّفر بشيء من المسلمين ، فجعلوا يتجلّدون ويظهرون التّشجّع بشيء لا يجديهم إلاّ خسارة الدّنيا والدّين وفضيحة العاقبة ، وكان عاقبة أمرهم خسرًا.

فصبر الكفّار عدّة أيّام حتّى أصلحوا ما انثلم من سفنهم وبرئ جَرْحَاهُم وأرسلوا مركبًا لمالطة لتجديد زادهم من الماء والطعام إذ لا طمع لهم في النّزول لبرّ الإسلام لأنّ الأرض مشحونة بالمسلمين من كلّ ناحية ، فلمّا سكن الرِّيح وهدأ[80] الجوّ عادوا لإفسادهم ولكن برمي ظاهر الضعف والفشل / فأظهر المسلمون القوّة والنجدة ، ولو كان [124/ب] للمسلمين سفن تضاهي سفنهم ما أمهلوهم لحظة واحدة ولعاجلوهم بالأخذ ، ثمّ إنهم فرّقوا أنشولاتهم على جهات شتّى ليشغلوا المسلمين ، فساق المسلمون لهم مدافع في مقابلة ما تفرّق منها ، ومنعوهم ممّا أرادوا فلم يمهلوهم يقربون من البلد ، وجعلت الخيول تجول حول البلاد وعلى ساحل البحر من جميع الجهات.

واتّفق في بعض الأيّام أن قدم بعض صنادل[81] من قرقنة[82] فتلقّاهم النّصارى طمعًا في أخذهم ، فتسارع المسلمون لإنقاذهم بالخيل والرّجال في ساحل البحر ، فحماهم الله تعالى ﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾[83] فلامهم

80) في الأصول : «هدى» كما تنطق بالعامية.

81) ج صندل ، سفينة شراعية

82) الحركة البحرية بين صفاقس وجزر قرقنة دائمة لارتباط حركتيهما الإقتصادية بعضهما

83) سورة الأحزاب : 25.

كبراؤهم على أخذ الصنادل وهم في وسط البحر والمسلمون في البرّ ، فقالوا لهم : رأينا خيولهم تركض في وسط الماء ، وذلك لما ألقى الله في قلوبهم من الرُّعب وهيبة المسلمين ، ولمّا أيسوا من فائدة تعود عليهم من[84] الأنشولات رجعوا لضرب البونبة من سفنهم الكبار بالليل ، فعاجلهم المسلمون برمي المدافع فأفشلوهم وصار رميهم هدرًا لوقوع أكثر ما يرمونه خارج البلد ، وربما أصاب سور البلد شيء لا يضر ، فيسارع النّاس إلى إصلاحه في أقرب من ردّ الطّرف[85] فحمى الله سور المسلمين من أن يناله ما يؤذيه.

ولمّا أعيتهم الحيل والمسلمون لا يزدَادون كلّ يوم إلّا قوّة ونشاطًا قال كبيرهم – لعنه الله – لرؤساء البونبة : إن أصبتم مأذنة المسلمين[86] أو ناظورهم[87] فلكم منّي كذا وكذا ، وبذل لهم / مالاً جزيلاً في ذلك ، فبذلوا جهدهم في ذلك ولم يحصلوا على [125/أ] طائل ، فانقطعت آمالهم ولم ينالوا من المسلمين قلامة ظفر إلاّ صندل سمك تركه صاحبه بعيدًا عن البلد لعدم إهتمامه به ، وقيل إنّه طلع بالليل يتصَيَّدُ به خفية من النّصارى والمسلمين لأنّ المسلمين منعوا اصطياد السّمك خوفًا أن ينال الكفّار منهم أحدًا بسوء ، فلمّا طلع الصندل ليلاً أبصره الكفرة فنزلوا ليأخذوه ، فلمّا أحسّ بهم نزل في الماء وجعل يسبح حتّى خلص ، وأخذ الكفّار الصّندل ، ولمّا رجعوا به لكبرائهم رأوا أن لا فائدة فيه ، فرجعوا لمركب النّصارى المهادنين وقالوا لهم : أبلغوا المسلمين إنْ أحبّوا نرد عليهم صندلهم ، فأجابهم المسلمون بأنّا ما تركناه في المكان الذي وجدتموه به إلاّ لعدم الحاجة إليه ونحن في غنية عن ألف منه ولنا منه كثير ، وأمّا أنتم فقد صارت في وجوهكم فضيحة خسرتم أموالكم ورجالكم وترجعون لبلادكم بأسطولكم[88] خائبين خاسرين من غير نتيجة ، فهذه نتيجتكم أنّكم وجدتم صندل سمك لا قيمة له مهملاً أخذتموه بهذا الأسطول[89] وشجعانه فلا بدّ أن تصحبوه وتزخرفوه ليعظم صيتكم بهذه الغنيمة التي عجز عن مثلها أساطيل[90] السّلاطين ، أفّ لكم من قوم سفهاء لا عقل لكم ولا همّة.

---

84) في ت و ب و ط : «في»

85) في ط : «في أقرب من طرف العين»

86) يقصد مأذنة الجامع الكبير الذي يحتل قلب المدينة.

87) كان مرتفعًا على سور المدينة الجنوبي المطل على الربض والبحر، وكان محاذيًا لباب البحر (باب الديوان) من جهته الغربية ، وما تزال آثاره باقية.

88) في الأصول «أصطولكم»

89) في الأصول : «الاصطول»

90) في الأصول. «أصاطيل»

ولمّا كانت ليلة النّصف من رجب عادوا لفسادهم ليلاً ، فلمّا بلغ رميهم قريبًا من تسعين بونبة إنكسرت[91] عليهم واحدة فقتلت رؤساء عملهم وعَطُبَت / منهم جماعة [125/ب] فبطل عملهم ، وأصبحوا مسافرين فردَّهم الله خائبين خاسرين لم ينالوا إلاّ خسارة الدّنيا والدّين. فكان مدّة مقامهم على البلد شهرين[92].

ومن أغرب ما اتفق في هذه الواقعة أنّه قدم قبلها بمدّة يسيرة رجل من بلاد السُّوس إسمه] الحاج محمّد السُّوسي ، وكان من العُبَّاد المتجرّدين وجاور بالحرم الشريف زمنًا طويلاً ، فحضر هذه المواطن كلّها ، وإنّه ملازم للإسقالة مدّة مقامه ليلاً ونهارًا ، ويوم فَرَّق الكفّار أناشيلهم أخذ بيده سيفًا وأشار بيده كالضّارب لأعناقهم مرّتين أو ثلاثًا ، ثمّ ناولني ذلك السَّيف وأمرني بفعل ذلك مثل ما فعل هو فخرجوا ولم يرجعوا في الأنشولات حتّى سافروا ، ولعلّ إشارته[93] كانت لموت من انكسرت عليهم البونبة ، ثمّ أخذه[94] مرض حتّى خشينا عليه الموت ، ثمّ تداركه الله باللّطف والعافية ، ومدّة مرضه لم يقع من الكفّار حرب ، فلمّا صَحَّ ورجعت له عافية حاربوا في الليلة الّتي انكسرت عليهم البونبة ، فحضر تلك الليلة بعافية وسلامة ، ولمّا سافر الكفّار سافر هو في ذلك اليوم ، فسألناه عن ذلك فقال : لا بقي لي هنا مقام لأني البارحة رأيت سيّدنا عبد الله بن جعفر – رضي الله تعالى عنهما – إبن عمّ رسول الله ﷺ ومعه جماعة من المسلمين راكبين خيولهم ، فقلت : ما شأنكم راكبين؟ قالوا : قد فرغ الجهاد من هذه البلاد فلا بقاء لنا هاهنا ، فأنا الآخر فلا بقاء لي هنا ، فسافر بعدما أوصى بكثرة زيارة الإسقالة وعدم الغفلة / عنها وقراءة الفاتحة فيها لأنّه موضع إجتمع[95] فيه أولياء الله ، وبعد زمان قدم [126/أ] زائرًا فمنع اليهود من الدُّخول إليها وقال : هذا موضع الجهاد وتلاوة القرآن واجتماع الصّالحين لا يدخله اليهود.

ولمّا سافر الكفّار نزل رئيس مركب من الفرنسيس ومعه واحد من البلنسيان أسلم وأَخْبَرَ بجميع ما حل بالبلنسيان من الموت والعطب وشدّة البلاء وجميع ما أصابهم وما وقع

---

91) في الأصول : «انكسر».

92) ترجم نالينو ما كتبه مقديش عن حروب صفاقس مع السدقية ويراه مخالفًا لما جاء في وثائق هذه المدينة ، وذلك إثر تقديمه لمحمود مقديش وكتابه نزهة الأنظار في مقالة

93) في ت : «الاشارة» وفي ب و ط «اشارة».

94) في ش : «ثم انه أخذه».

95) في ط : «تجتمع».

عليهم من أوّل الأمر ، وأكثر ما يزيدهم قهرًا أنّكم تحاربونهم وترقصون وتلعبون وتستبشرون وأنتم غير مكترثين بحربهم ولا سيما يوم سفرهم فإن المسلمين[96] اتبعوه بالرمي بالكور ؛ وخرج الكفّار وهم مذمومون مدحورون ، والمسلمون في فرح وبشرى أن ﴿رَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ المُؤْمِنِينَ القِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾[97].

ولمّا دخلوا مالطة جعلوا يضحكون عليهم ويستهزؤون بهم وقالوا لهم : أين الغنائم والسّبايا التي كنتم توعدون؟

ولمّا انصرف الكفّار فكّر المسلمون في شأنهم وقالوا : ربّما استعدّوا بأقوى من هذا ورجعوا ، فالأولى بنا أن نستعدّ للقائهم وأن نتّخذ[98] أنشولات مثل ما عندهم ، ونركب لهم فيها لمقاتلتهم ، ونقمع بها أنشولاتهم ونقطع نكايتهم ، فأمر السّلطان سيدي حمودة باشا – دام علاه ونصره الله – بإنشاء أربع أنشولات فهيؤوهم للقتال وأرسل الباشا علي القرمانلي[99] ، وَفَّقَه الله لصلاح الدّارين عدّة مدافع إعانة للمسلمين ، وكذا أرسل مهاريس لرمي البونبة ، فازداد البلد / قوّة وعدة والمسلمون نشاطًا وتأنّسوا بالحرب ، وحَصُلَتْ لهم جرأة قوية على العدوّ. [126/ب]

وفي سنة أربع ومائتين وألف يوم رابع شوّال[100] قدم من البلنسيان عدّة مراكب للقتال في البحر ، وأرسوا على قدر عشرين ميلاً من البلد ، وقصدوا قطع طريق المسلمين فركب لهم المسلمون في عدّة سفن تليق بحربهم ، فوقع بين الفريقين حَرْبٌ شديد ، وكان يومًا مشهودًا حتّى ذهل فيه كلّ فريق عن الآخر ، ومات من كل مركب من مراكب النّصارى وتعطّب منهم شيء كثير ، واستشهد من المسلمين أربعون وجرح ما يقرب من ذلك . ولمّا اشتغل كل فريق بما أصابهم وعجزوا عن أخذ عدوهم ، رجع المسلمون بما نالوا من أجر الجهاد وشهادة من استشهد ، وانصرف الكفّار بما نالوا من عذاب الدُّنيا ، ﴿ولَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾[101].

---

96) في ش : «المسلمون».
97) سورة الأحزاب : 25.
98) في ش : «نتخذوا».
99) في الأصول : «علي قرمالي» تولى علي باشا القرمانلي السلطة في طرابلس من سنة 1754 إلى سنة 1793 م.
100) 17 جوان 1790 م.
101) سورة طه : 127.

وأنشد الأريب الأديب الشَّيْخ أبو إسحاق الحاج الأبر إبراهيم الخَرَّاط أبقى الله مهجته وأحسن عاقبته في هذه الواقعة ما كتب على ضريح الحاج الأبر أبي[102] الثّناء محمود بن عمر، أحد الشهداء يومئذ – رحمه الله تعالى – هذه الأبيات:

[مجزوء الرّجز]

هذا الضَّريح المُشْتَهَرْ فيه الشَّهِيدُ ابن عُمَرْ
محمود البِرُّ الذي طَافَ وحجّ واعتمَرْ
ومات في معترك الكـ ـفَّارِ من غَيْرِ مَفَرْ
وأربعون جَاهَدُوا معه فماتوا عن أَثَرْ
يا ربّنا انفعنا بهم بجاه سيّد البَشَرْ
تاريخه في رابع من قرن ثالث عشر

وفي عشرين من محرّم سنة خمس ومائتين وألف[103] قدم أربع مراكب من أكبر ما يكون للبلنسيان وأربع غلايط / وأرسوا على البلد[104]، فاستعدّ النّاس لقتالهم وعَمَّرُوا الأناشيل الأربعة بالرّجال وآلات الحرب، وقبل إرسائهم قدم مركب من إسكندرية من جنس الفرنسيس فذهبوا إليهم وسألوهم عن سبب قدومهم فقالوا: فقدنا مركبين منّا أخذهما[105] المسلمون فقلنا: أخذوهم أهل هذه البلد لأنّ لهم سفنًا يأخذون بها محاربيهم[106]، ونحن لهم حرب فلعَلَّهم أخذوا المركبين فقالوا: لعلّ غيرهم أخذهما[107]، أمّا هذه الغنائم التي عندهم فمن صنف غيركم، فلمّا نزل الفرنسيسون أخبروا المسلمين بخبرهم، فلم يطمئن النّاس لقولهم وباتوا مرابطين، فما أصبح الصّبح إلّا وقد أقلعوا منصرفين ﴿وكَفَى اللهُ المُؤْمِنِينَ القِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾[108].

[127/أ]

ولمّا أعيت الكفرة الحيل ولم يقفوا على طائل من محاربة المسلمين بل وقعوا في

102) في ش: «أبو الثناء».
103) في سبتمبر 1790 م.
104) في الأصول: «البلاد».
105) في ش و ب: «أخذهم»، في ت: «أخذتهم».
106) في ط: «يأخذون بما هو أيسر».
107) في الأصول: «أخذهم».
108) سورة الأحزاب: 25.

مهاوي التلف وخسارة الدَّارَين ، وضيّعوا أموالهم ، وقتلت رجالهم ، وتشتّت آراؤهم ، وتلفت أحوالهم ، وغنم منهم المسلمون غنائم عظيمة ، نكسوا على رؤوسهم وأعَدُّوا عدّة مراكب وقدموا لتونس طالبين الصّلح[109] فاشترط عليهم السُّلطان – نصره الله – بذل جميع ثمن المركبين وأموالاً غيرها[110] ، فبذلوا جميع ما أحبّ[111] ودخلوا في ربقة العهد والذِّمَّةِ طوعًا أو كرهًا كغيرهم من أصناف الكفر من إعطاء كلّ سنة ما اشترط عليهم ، والله تعالى ينصر مولانا السُّلطان وعساكر الإسلام ويحمي الجميع من طوارق الحدثان ، وألزم الكفرة الذِلَّةَ والهوان بجاه نبيّنا محمّد – عليه / أفضل الصَّلاة وأزكى السّلام –[112]. [127/ب]

---

109) عن الحرب بين البندقية وتونس الواقعة في عهد حمودة باشا الحسيني أنظر : كتاب روسو (مرجع سبق ذكره) ص 203 ، 213. ورشاد الإمام ، سياسة حمودة باشا في تونس ، 349 – 354 ، وبلانتي (Plantet) مراسلات (Correspondance) 132/3 – 133 – 138 – 140 – 142 – 143 – 144 – 146 – 149 – 150.

110) تعويضًا قيمته مائة ألف محبوب ، الإمام : سياسة حمّودة باشا ، ص 353 نقلاً عن رسالة من ج. تريل ، قنصل الانقليز إلى حكومته في 2 مارس 1787.

111) من شروط المعاهدة الّتي تمّت في 27 رمضان 18/1206 ماي 1792 م بين حمّودة باشا والبندقية شرط يوجب على البندقية دفع أربعين ألف محبوب كتعويض ، وهدايا ثمينة تقدم لحمّودة باشا : روسو ، حوليات.. ص 212 ، وقدم نص المعاهدة ص 562. وأخبَرَ القنصل الفرنسي ديفواز (Devoize) حكومته بشيء يخالف هذا إذ ذكر أنّ المبلغ المتّفق عليه هو ثمانون ألف محبوب تدفعها البندقية بالإضافة إلى الهدايا... بلانتي (Plantet) مراسلات (Correspondances) 211/3 ، ويذكر روسو إعتمادًا على نيسن (H. Nyssen) أن البندقية دفعت 40 000 محبوب إلى الايالة التونسية.

112) في ط و ب و ت : «أفضل الصلاة والسلام».

الباب الرّابع
في ذكر بعض أهل الخير والصَّلاح من العُلَمَاء والأولياء المتقدّمين بصفاقس ووطنها

مفهوم الولي والكرامة :

إعلم أوّلاً أنَّ الله – جلّ ثناؤه – أرسل المرسلين رحمة للعالمين ولئلاّ يكون للنّاس على الله حُجَّة ، فيرسل بعد كلّ فترة رسولاً يوقظ الخلق من سِنَة الغفلة[1] ويسوقهم لما خلقهم لأجله من نيل كراماته[2] في مقعد صدق عند مليكٍ مقتدر ، ثمّ ختم الرّسالة بخيرة خلقه محمّد ﷺ فجعل شرّ كلّ مائة[3] في آخرها فيضعف حملة الدِّين إمّا بموت أو ظلم أو جور أو غير ذلك ، وجعل على رأس كلّ مائة سنة من يجدّد لهذه الأمّة أمر دينها من العلماء والأولياء ، فكانوا ورثة نبيهم[4] فلذا كانوا كأنبياء بني إسرائيل[5].

قال أبو عبد الله المغربي[6] : «تقع في كلّ مائة سنة فَتَرَة ، وتموت العلماء والحكماء ثمّ يبعث الله في هذه الأمّة على عدد الأنبياء قومًا يُذَكِّرُون الخلق[7] ويردُّونهم إلى الحقّ ، فهم أنباء الزّمان» ، ذكره في معالم الإيمان[8] في ترجمة أبي عبد الله المغربي ، فلهذا تعرّضنا لذكر شيء من العلماء والصَّالحين ممّن حمل هذا الدّين في هذه البلاد[9] ، ولكلّ بلاد حَمَلَةٌ ، وقد قال ﷺ : «يحمل هذا الدّين من كلّ خلف عدوّ له ينفون عنه تحريف الغالبين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين» فأشار عليه الصّلاة والسّلام إلى حملة هذا الدّين بصفتهم ، فمن وجدت فيه العلامة فهو منهم.

---

1) في ط : «العقبة».
2) في ط : «نيل كرامته».
3) في ش : «غير واضحة».
4) إقتباس من الحديث الشّريف : «العلماء ورثة الأنبياء».
5) إقتباس من حديث لم يصحّ : «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل».
6) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل المغربي.
7) في معالم الإيمان : «يذكرونهم».
8) 286/2.
9) يقصد صفاقس.

ولمّا كان ذكر الأولياء(10) مستلزمًا / لذكر شيء من كراماتهم ، دعت الضّرورة [128/أ] إلى ذكر مقدّمة مشتملة على بيان حقيقة الكرامة وجوازها وما قال النّاس في ذلك ليكون الواقف على ذِكْرِ شيء منها على بصيرة من أمره ، فلا يسيء الأدب مع أولياء الله وإلاّ وقع في العطب من بعض الأولياء سيما من يعاصره ، (وقد قيل)(11) إعتقد ولا تنتقد(12) فمن إعتقد سلم ، ومن إنتقد ندم. فنقول في حدّها : هي أمر خارق للعادة يظهر على يد الولي مقرون بالطّاعة والعرفان بلا دعوى(13) نبوة ، فخرج بقَيْدِ خَرْقِ العادة العاديات ولو قلّ وقوعها كالخسوفات ، وبقيد الإقتران بالطّاعة والعرفان السّحر والكهانة لأنّهما كفر ، والشعوذة لأنّها امّا من قبيل السّحر فهو كافر ، أو غيره شبيه به فهو فسق(14) والإستدراج لعدم الطّاعة وبلا دعوى(13) نبوة المعجزة فإنها مقرونة بدعوى(13) النبوة وتكون الدّلالة على صدق الولي وفضله ، أو لقوّة يقين صاحبها أو غيره ، وحكمها الجواز والوقوع

10) التّصوّف إنتقل على مرّ الزّمن من علاقة روحية بين الإنسان وربّه وإتخاذ موقف معيّن من الحياة إلى ظاهرة إجتماعية طرقية ، وانفتح هذا الميدان الدّيني الرّوحي الذي كان خاصًا بالعلماء إلى شتّى أنواع النّاس حتّى العامّة والأميين ، وعُرف هؤلاء بالفقراء ، «وكثر الأولياء والأدعياء ونسبت إليهم الكثير من الكرامات والخوارق ومعرفة علوم الظاهر والباطن ، واختلط الأمر بين الأحياء والأموات ... وكثرت المزارات ... وخُصِّصَت لذكرها الكتب والرسائل ، وقد أصبح بعضها حَرَمًا آمنًا وملاذًا للمجرمين والهاربين من السُّلطة وضَاقت الفروق في اللهجة أو زالت بين مفردات الولي والدّرويش والمرابط ... وسيطر التّصوّف في العصر الحديث على الحياة العقلية سيطرة بالغة وكثرت ألوان الأدب الصّوفي في مؤلّفات الطّبقات والمناقب والسّلاسل والأوراد والأحزاب والوظائف والمراثي وشروحها كما تعدّدت ألقاب السّلّم الصّوفي من نحو القُطبِ والأوتاد والأبرار والنّقباء والنّجباء والأبدال ... ومن المتصوّفة من كان في حياته صادق التّصوّف ولكنّ النّاس بعد مماته جعلوا منه وليّا ونسبوا إليه ما لم يَدّعِ ... وكما مارس رجال الطّرق الصّوفية نفوذا واسعا على النّاس فقد أتيح لهم كذلك – أحياء وأمواتا – نفوذٌ وسلطان على الحكّام وكانوا الوسطاء بينهم وبين الشعب ، وقد تحالف العثمانيون مع بعض الطّرق الصّوفية في سبيل هذه الغاية». فتمتّعوا بامتيازات مختلفة وقد تأثّر محمود مقديش بهذه المفاهيم كما سنلاحظه ممّا سيأتي من كلامه عن الصّوفيّين والأولياء وكراماتهم في تحمّس عقائدي نستغربه من تلميذ تلاميذ الشّيْخ علي النوري الصّفاقسي ، الذي كان صوفيًا ، ولكنّه من الصّوفيين السّنّيين الصّادقين أفزعه ما آلت إليه النّزعة الصّوفية من إنحطاط فقاومها بإحياء طقوس السّنّة ، وحذّر من إستعمال حلقات الذّكر والسّماع بآلات الطّرَب والمنبّهات ، ومنع بناء قبة على قبره حتّى لا تجعل العامّة منه وليّا.

11) ما بين القوسين ساقط من ط .

12) هذا مما تسرّب من المسيحية وإلاّ فالقاعدة الإسلامية الصّحيحة : «إنتقد قبل أن تعتقد» لأنّ الإعتقاد لا يكون إلاّ بعد النّظر والدّليل وإقتناع العقل.

13) في ش : «دعوا».

14) في ش : «فسوق».

عند أهل السنة ولو بقصد الولي على الأصحّ، وإن كان الغالب خلافه، ومن جنس المعجزات من الخوارق على الصَّواب لشمول القدرة الإلاهية، لأنّ وجود الممكنات مستند إلى قدرته تعالى الشّاملة لكلّها فلا يمتنع شيء منها على قدرته تعالى ولا يجب.

ولا ريب أنّ الكرامة أثر ممكن إذ لا يلزم على فرض وقوعه محال لذاته، فهي جائزة وواقعة حسبما نطق به القرآن والحديث النبوي. أمّا القرآن فكقصّة أصحاب الكهف حيث / أقاموا فيه ثلاثمائة سنة وأزيد نياما أحياء بلا آفة ولا غذاء وليسوا بأنبياء بإجماع [128/ب] الفِرَق، وكقصّة مريم - عليها السّلام - حملت بلا ذكر، ووجد عندها زكرياء رزقًا بلا سبب، وتساقط عليها الرّطب من نخلة يابسة بلا موجب، وكقصّة آصف[15] حيث أحضر عرش بلقيس من مسافة بعيدة[16] في طرفة عين، وليست كرامة مريم معجزة لزكرياء، ولا إرهاصًا[17] لعيسى - عليهما السّلام - لأنّ المعجزة لا بدّ أن تكون مقصودة مقرونة بدعوى النبوّة تحقيقًا ليدل على صدق مدّعي الرّسالة، ولا كذلك قصّة مريم إذ زكرياء لا علم له بها ولا بسببها فلذا سأل وإلاّ لما سأل بقوله: ﴿أَنَّى لَكِ هَذَا﴾[18]، ولو كانت إرهاصًا لما علمت[19] مريم من أين حصل ذلك لها، ولا أجابت بقولها: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾[20]، وأيضًا فإن الخوارق إنّما سيقت في الآيات لتعظيم حال مريم، ولا ذِكرٌ فيها لزكرياء ولا لعيسى بالقصد، وليست قصّة آصف معجزة لسليمان إذ لم تقع على يده بل على يد آصف، نعم قيل إن المراد بالذي عنده علم من الكتاب هو سليمان - عليه السّلام - فلا دليل حينئذ في الآية.

وأمّا المنّة[21] فلحديث جُرَيْج الرَّاهب الذي كلَّمه الصَّبي في المهد، حيث قال له: يا غلام من أبوك؟ فقال: الرّاعي الذي زنى بأمّه ممّا هو مذكور في الصّحيحين[22]

15) هو إبن برخيا.
16) من اليمن إلى القدس بطلب من سيّدنا سليمان النّبي الملك - ص -.
17) هو الأمر الخارق للعادة الذي يظهر قبل النبيء.
18) سورة آل عمران: 37.
19) ساقطة من ش.
20) سورة آل عمران: 37.
21) في بقية الأصول: «السنة».
22) عن أبي هريرة في ذكر الأطفال الذين تكلّموا في المهد، وهو حديث طويل، وصاحب جريج ترتيبه الثّاني في الحديث.

وكَحديث الثّلاثة[23] الذين دخلوا لغار في جبل فوقعت[24] على فم الغار صخرة فانطبق عليهم ، وذكر كل واحد منهم ما أنعم الله عليه به من طاعته ، وتوسّل إلى الله بذلك ، فانفرجت عنهم / وأنكرها المعتزلة والحَليمي[25] بصيغة الكبر من الكرامية أتباع محمّد بن [129/أ] كِرَام[26] وهم محجوجون بما سبق من أدلّة العقل والنّقل ولا تظهر على يد الفسقة الفجرة باتّفاق القائلين بثبوتها فلا تقع إلاّ على يد الأتقياء البررة التّابعين للرّسل ، وبذلك فارقت السّحر الواقع على (يد الكفرة كاليهود ، والكهانة الواقعة على يد المتنبّي كمسيلمة ، والإبتلاء الواقع على [يد] مدّعي الألوهية كالدّجّال[27] لكفرهم)[28] وكذا الشّعبذة إذ المتّقي يتنزّه عن فعلها ، وكذا المعجزة إذ الرّسول مستقلّ بأمره ، وإن أمر بشرع من قبله فهو متّبع لما أُمر به لا للرسول الذي كلف بشرعه بخلاف الولي فإنه منقاد للرّسول . وقول القاضي أبي بكر الباقلاني[29] : يجوز ظهور الخارق على يد الفاسق إستدراجًا وعلى يد الرهبان وأهل الصّوامع مع أنّهم مقيمون على الكفر ، فقال إمام الحرمين[30] : هذه ليست كرامة ، فإن الخارق أعمّ ، نعم تظهر الكرامة على يد غير التّقي فتخرجه من الضّلال إلى الهدى والتّقوى ، وتسمّى إعانة كما تسمى كرامة ، كأهل الكهف حيث أنقذهم الله من ملّة آبائهم إلى الهدى والإيمان.

---

23) حديث أصحاب الغار مخرج في الصّحيحين عن عبد الله بن عمر وهو حديث طويل.

24) في الأصول : «فوقع».

25) الحليمي أشعري ليس من الكرامية ، وهو الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخاري الجرجاني ، أبو عبد الله ، فقيه شافعي قاض كان رئيس أهل الحديث فيما وراء النهر ، مولده في جرجان (950/338) ووفاته في بخارى (1012/403) له منهاج في شعب الإيمان (خط) رأيت منه مجلدًا ضخمًا في المكتبة النورية التي نقلت إلى المكتبة الوطنية بتونس ، قال الأسنوي : جمع فيه أحكامًا كثيرة ومعاني غريبة أظفر بكثير منها في غيره ، أنظر : الإعلام 234/2.

26) إبن كرام – بكسر الكاف – أو كرّام بتشديد الراء ، وهو محمد بن كرام بن عراق بن حزابة ، أبو عبد الله السجزي إمام الكرامية من فرق الإبتداع في الإسلام ، كان يقول بأنّ الله تعالى مستقرّ على العرش ، وأنّه جوهر ، فهو من المجسمة ، ولد في سجستان وجاور بمكة خمس سنين ، وورد نيسابور ، فحبسه طاهر بن عبد الله ثمّ انصرف إلى الشّام وعاد إلى نيسابور فحبسه محمد بن طاهر ، وخرج منها سنة 865/251 إلى القدس فمات بها سنة 869/255 الاعلام 14/7 (ط . 5)

27) هو المسيح الذي ينتظره اليهود وهو عندهم من نسل داود – ص – يعيد لهم ملكهم بفلسطين.

28) ما بين القوسين في مكانه في ط و ت و ب . «مدعى الألوهية كالدجال لكفره»

29) هو سيف أهل السّنّة.

30) هو عبد الملك بن يوسف الجويني الشّافعي من أئمة أهل السّنّة ومن نظّارهم من شيوخ الإمام الغزالي.

ولا تشتبه المعجزة بالكرامة في أعصارنا هذه إذ لا نبي بعد نبيّنا – عليه الصّلاة والسّلام – ومن أظْهَرَ خَارِقًا مدّعيًا للرّسالة قطعنا بكفره وسَمَّينا ما وقع على يده كهانة كمسيلمة الكذّاب وإن لم يَدَّعِ رسالة فهو إمّا سحر أو كهانة أو إستدراج على ما مرّ.

[129/ب] وقد ظهرت الكرامة على يد الخيرة / من هذه الأمّة:

فمنها ما ظهر على يد الصِّدِّيق – رضي الله تعالى عنه – من إخباره في مرض موته بمولود يولدُ له انثى، وتكثير الطعام القليل فأكل هو وأضيافه من قصعة صغيرة حتى شبعوا وصار ما فيها أكثر ممّا قبله.

ومنها ما ظهر على يد عُمَر – رضي الله تعالى عنه – من مخاطبته – وهو على منبر الرّسول – لسارية أمير جيشه وهو بنهاوند بقوله: يا سارية، الجبل، تحذيرًا له ولمن مَعَهُ من كمين المشركين في الجبل، فسمع سارية وجيشه صوته فحذروا[31] ونجوا، وجرى النّيل بكتابه لمّا كانت عادة أهل مصر أن يلقوا فيه أوان الزيادة بِكْرًا، ونهاهم عن ذلك فوقف ولم يزد حتى أشفوا على الجلاء، فكتب للنّيل كتابًا فيه: إن كنت تجري من قِبَلِك فلا حاجة لنا بك، وإن كنت تجري بأمر الله فنسأله تعالى ذلك، وأُلْقي فيه الكتاب فزاد فورًا، وكذا ضربه الأرض بدِرته، بكسر الدال، عصاة، لما ارتجّت[32] وقال: قرّي[33]، ألم أعدل عليك؟ فقرَّت وسكنت؛ وكذا حبسه للنار التي كانت تخرج من الجبل فتحرق ما أصابت فخرجت في زمنه فأمر أبا موسى[34] أو تميمًا[35] فجعل يسوقها بردائه حتى دخلت الكهف فلم تعد بعد ذلك، وكذا ردّه لطائفة من الجيش مرة بعد أخرى لما عرضوا عليه، فتبين بعد موته أن منهم قاتل عثمان – رضي الله تعالى عنه –.

ومنها قول عثمان – رضي الله تعالى عنه – لرجل لقي إمرأة في الطّريق فقابلها بشهوة: أيدخل عَلَيَّ أحدكم وفي عينيه أثر الزّنا؟.

[130/أ] ومنها قول إبن عمر لأسد / قطع الطّريق على قافلة هو فيها: تنحّ، فَبَصْبَصَ بذنبه وذهب.

---

31) في الأصول: «فاحتذروا».

32) في ط: «ارتحل».

33) في الأصول: «أقرى».

34) هو الأشعري صَحَابِي جليل.

35) هو الداري، صحابي، كان نصرانيا.

ومنها مشْيُ العلا الحضرمي على الماء هو وجيشه لما كانَ في غزوة وحال بينه وبين مقصده البحر ، وكذا دعاؤه أن لا يرى أحد جسده إذا مات فلم يجدوه في اللّحد.

ومنها مشي جعفر إبن أبي طالب في الهواء[36].

ومنها تسبيح القصعة بما فيها بين يدي سلمان وأبي الدرداء.

ومنها سماع عمران بن حصين تسبيح الملائكة إلى أن إكتوى.

ومنها شرب خالد بن الوليد السّمّ فلم يضرّه.

ومنها إضاءة السّوط كالمصباح بين يدي أُسَيْد بن حُضَيْر وعبَّاد بن بِشرْ لمّا خرجوا من عند المصطفى ﷺ في ليلة مظلمة.

ومنها إيتان العنب لحَبِيب بن عَدِي وهو أسير عند مشركي مكّة فيأكل منه وليس بمكّة إذ ذاك عنبة واحدة.

ومنها عروض الأسد لسُفَيْنَة مولى رسول الله ﷺ فقال له : أنا مولى رسول الله فمشى حتّى أوصله قصده.

ومنها إبرار قَسَم البراء بن عازب حالاً إذ أقسم على الله.

ومنها عمي أروى بدعاء سعيد بن يزيد عليه بذلك لمّا كذب عليه.

ومنها طلب الأسود العبسي أبا مسلم الخولاني لمّا ادعى النبؤة فقال : أتشهد[37] أنّي رسول الله؟ فقال : لا ، فقال : أتشهد[37] أنّ محمدًا رسول الله؟ قال : نعم ، فأمر بنار فألقِي فيها فوجدوه قائمًا يُصَلّي وقد صارت عليه بردا وسلاما ، فكان عمر بن الخطاب يقول : الحمد لله الذي لم يمتني حتّى رأيت من أمّة محمد ﷺ / من فُعِل به كما فُعِل بإبراهيم الخليل – عليه السَّلام –. [130/ب]

ومنها أخذ عامر بن عبد قيس عطاءه في كمه فلا يجد سائلاً إلاّ أعطاه بلا عدد ، فلمّا رجع إلى بيته وجد الدّراهم كلّها كاملة العدد ، إلى غير ذلك ممّا لا حصر له ولا حدّ.

واستمرّت الكرامة وهي وإن ظهرت على يد غير الصّحابة ولم تظهر على يد بعض الصّحابة لا تقتضي أفضلية غيرهم عليهم إذ المزية لا تقتضي أفضلية. قال الإمام أحمد ابن حنبل – رضي الله تعالى عنه – إنّما كانت الكرامات بعد زمن الصّحابة لأنّ قوة إيمان

---

36) في ش : «الهوى».

37) في ط و ت. «اشهد».

الصّحابة لا يُحتْاج معها إلى الكرامة ، ولأنّ الزمن الأول كان كثير النور فلو[38] حصلت لم تظهر كلّ الظهور لاضمحلالها في نور النبوّة بخلاف من بعدهم ، ألا يرى أنّ القنديل لا يظهر نوره في القناديل بخلافه في الظلام ، والنّجوم لا يظهر لها نور مع نور الشّمس.

قال الشّيْخ عبد الرؤوف المناوي في طبقاته : قال السُّبْكي : إنّي لأعجب كلّ العجب من منكر الكرامة ، وأخشى عليه المقت ، ويزداد تعجّبي من نسبة إنكارها إلى الأستاذ الأسفرائيني[39] وهو من أساطين السُّنّة والجماعة على أنّ نسبة إنكارها إليه على الإطلاق كذب ، والذي ذكره الرّجل في كتبه أنّها لا تبلغ مبلغ خرق العادة ، وقال : كلّما كان معجزة لنبيء لا يجوز مثله كرامة لولي ، وإنما غاية الكرامة إجابة دعوة أو شربة ماء في مفازة أو كسرة في منقطعة وما يضاهي ذلك ، وجرى على نحوه القشيري فقال : إن الكرامة لا تنتهي إلى وجود إبن بغير أب ، وقَلْبِ جَمَادٍ بهيمة ، لكنّ الجمهور على الإطلاق / [131/أ] وقد أنكروا التفصيل على قائله حتّى ولده أبو نصر في الرّشد ، وإمام الحرمين في الإرشاد ، وقال : إنه مذهب متروك ، وبالغ النووي فقال : إنه غلط وإنكار للحسّ ، وإن الصّواب[40] وقوعها بقلب الأعيان ونحوه.

وقد عدّ بعض الأئمة الأنواع الواقعة من الكرامات عشرين ، وهي أكثر بكثير.

النّوع الأوّل : إحياء الموتى وهو أعلاها ، فمن ذلك أنّ أبي عبيد البسري غزا[41] ومعه دابّة فماتت ، فسأل الله تعالى أن يحييها حتى يرجع إلى بلده ، فقامت تنفض أذنيها ، فلمّا بلغ بلده سقطت ميّتة.

ومنها أنّ مفرجا الدماميني الصَّعِيدي أحضر له فراخ مشويّة ، فقال لها : طيري بإذن الله تعالى فطارت.

وكان للشّيْخ الأهدل هِرَّة فضربها خادمه فماتت فرماها فسأله الشّيْخ عنها بعد ثلاثة أيّام ، فقال : لا أدري ، فناداها فجاءت تجري.

ووضع الكيلاني يده على عظام دجاجة أكلها وقال : قومي بإذن الله الذي يحيي العظام ، فقامت.

---

38) كذا في ش . وفي بقية الأصول : «فلما».

39) في ط و ت : «الاسفراني».

40) في ت و ط : «والصواب».

41) في ش : «غزى».

ومات لتلميذ أبي يوسف الدّهماني ولد فجزع عليه ، فقال الشّيْخ : قم بإذن الله فقام وعاش طويلاً ، وسقط من سطح القاري[42] طفل فمات فدعا الله فأحياه.

النّوع الثّاني : كلام الموتى وهو أكثر مما قبله بكثير ، ووقع ذلك للجيلاني ولجماعة أخرى منهم بعض مشايخ السّبكي ، وقال : كان جدّنا يخاطب الإمام الشّافِعِي فيكلِّمه من قبره.

النّوع الثّالث : إنفلاق البحر وجفافه والمشي عليه ، وذلك كثير ، وممّن وقع له ذلك إبن دقيق العيد.

الرّابع إنقلاب الأعيان : ومنه ما نُقِل عن المختار / اليمني أنّه أرسل إليه بعض [131/ب] المستهزئين بإنَائَيْنِ من خمر فصَبَّ من أحدهما عسلاً ومن الآخر سمنًا وأطعم الحاضرين.

الخامس : إنطواء[43] الأرض لهم ، حكوا أنّ بعضهم كان بجامع طرسوس فاشتاق إلى زيارة الحرم فأدخل رأسه في جيبه ثمّ أدخلها في الحرم. والقدر المشترك في هذا بالغ مبلغ التواتر ، ولا ينكره إلاّ مباهت[44].

السّادس : كلام الحيوان والجماد ، ولا شك في كثرته ، ومنه أنّ إبن أدهم قعد تحت شجرة رمّان ، فقالت : يا أبا إسحاق أكرمني بأكلك منّي فأكل منها ، وكان رُمَّانها حامضًا فحلى ، وحملت في العام مرتين ، وسُمّيت رمّانة العَابِدِين.

وأراد الشبلي أن يأكل من شجرة فلمّا مدّ يده قالت : لا تأكل منّي فأنا اليهودي.

وجاء العمدلي[45] رجلان يختصمان في بقرة ، وكان قاضيًا بالصّعيد ، فأقام كلّ منهما بَيِّنَةً أنّها له ، فقالت له : أنا لفلان.

قال ومن ذلك أنّ جدنا[46] الشرف المناوي زار الشرف الأنصاري وجلس معه بمنطرة[47] بيته ببولاق فشكى إليه كثرة زرق[48] الطّيور على الكتب والفرش ، فرفع رأسه إليها وقال : يا أيّها الطّيور لا تحوموا حول هذا الحمى إلاّ بخير ، فلم تعد بعد ذلك.

---

42) في ش : «الغارقي» ، وفي ط : «الغار بطبل».

43) في ش : «انزواء».

44) في ت : «مناهب» في ش : «مباهب» وفي ط : «متاعب».

45) في ط و ت : «الغمرلي».

46) في ط : «خبرنا».

47) في ط : «بنظره».

48) في ط : «زق» وهي المعنى العامّي لزرق. وزرق الطّائر رمى بما في جوفه.

السّابع : إبراء العليل كما روي أنّ الجيلاني قال لصبّي مقعد مفلوج أعمى : قم بإذن الله تعالى ، فقام لا عاهة به.

الثّامن : طاعة الحيوان لهم ، كما حكي أنّ اليمني وغيره كان يركب الأسد ، بل وطاعة الجماد كما في قول إبن عبد السّلام في واقعة الافرنج : يا ريح خذيهم ، فأخذتهم.

التّاسع والعاشر والحادي عشر : طي الزّمان ونشره وإجابة الدُّعَاء وذلك كثير.

[132/أ] الثاني عشر : / إخبارهم[49] ببعض المغيّبات والكشف وهو درجات تخرج عن حَدِّ الحصر ، وذلك موجود الآن بكثرة[50] ولا يعارضه قوله تعالى ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إلاّ مَنْ اِرْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾[51] لأنّا لا نسلّم عموم الغيب فيجوز أنْ يخص بحال القيامة بقرينة السِّياق.

الثّالث عشر : الصّبر على عدم الطّعام والشّراب الأمد الطّويل وهو كثير مشاهد.

الرّابع عشر : مقام التّصريف وهو كثير في كلّ زمن ولا ينكره إلاّ المعاند.

الخامس عشر : القدرة على تناول الكثير من الطّعام كما نقل عن الشّيْخ دمرداش أنّ بعض الامراء عمل له وليمة ودعاه وجماعته ، فتوجّه إليه وحده فتشَوَّش لعدم حضور الفقراء وقال : من يأكل الطّعام؟ فمدّ السّماط فأكله الشّيْخ كلّه.

السادس عشر : الحفظ عن الحرام أن يدخل الجوف كما حُكيَ عن الحارث المحاسبي أنّه كان إذا أحضر له طعام فيه شُبُهَة تحرّك فيه عرق ، وكان المرسي[52] يتحرّك منه كلّ عرق.

السّابع عشر : رؤية الأماكن البعيدة من وراء الحجاب ، فمن ذلك أنّ الشّيْخ أبا إسحاق الشيرازي[53] كان يشاهد الكعبة وهو ببغداد.

الثّامن عشر : الهيبة التي لبعضهم بحيث مات من شاهده عند رؤيته كما وقع لأبي يزيد البسطامي مع بعض الفقراء ، ووقع للشّيْخ أحمد البدوي وغيره.

التّاسع عشر : قَصْمُ الله من يُرِيدُهم بِشَر ، كما وقع لبعضهم أنّه زاحم رجلاً

49) كذا في ط ، وفي بقية الأصول : «اخباره».

50) ساقطة من ط و ت.

51) سورة الجن : 26 – 27.

52) هو أبو العبّاس المرسي دفين الإسكندرية من أصحاب أبي الحسن الشاذلي.

53) هو إبراهيم.

فضربه على وجهه فطارت يده مع الضربة فأبصره رجل فشدّد النّكير عليه وقال له : كف كف إنّ هذا لشيء عظيم ، فقال : والله ما أردته / وإنما ربّ الجنّة غار عليها. [132/ب]

العشرون : التّطور بأطوار مختلفة وأشكال متباينة ومنه ما وقع لقضيب البان الموصلي أنّ فقيهًا أنكر عليه لكونه لم يُصَلّ ، فتطوّر له في الفور في صور مختلفة ، فقال : في أي صورة من هذه الصُّوَر لم ترني أصلّي.

والصّوفية يثبتون عالمًا متوسّطًا بين عالم الأجسام والأرواح يسمّونه عالم المثال[54] واستأنسوا بقوله تعالى : ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[55].

ووقع أن بعض العلماء رأى فقيرًا يتوضّأ في المدرسة الصُّوفية وضوءا مُشَوَّشا غير مرتّب فقال : حرام عليك ، فقال : لم أتوضّأ إلاّ مُرَتَّبًا وإنما أنت أعمى لو أبصرت لأبصرت هكذا ، وأخذ بيده فأراه الكعبة والطّائِفين وهو بمصر.

قال في روض الرّياحين[56] : وقد سمعت سماعًا محقّقًا أنّ جماعة شوهدت الكعبة تطوف بهم طوافًا محقّقًا قال : ورأيت من شاهد ذلك من الثّقات[57] بل من السّادة العلماء وقال : قال بعض الكاملين: إظهار الكرامة وإخفاؤها على حسب النّظر لأصلها وفرعها ، فمن عَبَّر عن بساط إحسانه أصْمَتَتْهُ الإساءة مع ربّه ، ومن عَبَّر عن بساط إحسان الله إليه لم يصمت إذا أساء ، وقد صحّ إظهار الكرامة من قوم ، وثبت العمل في إخفائها عن آخرين كالمُرْسي في الإظهار وابن أبي جمرة في الإخفاء ، حتّى قال بعض أتباع إبن أبي جمرة : إن طريقهما مختلف فبلغه ، فقال : والله ما اختلفت طريقتنا قطّ لكنه بسطه بالعلم وقَبَضني بالتّورّع ، وقال بعضهم : من النّاس من يغلب / عليه الفناء بالله فيظهر الكرامات وينطلق لسانه بالدعاوي من غير احتشام ولا توقّف ، فيدّعي بحقّ عن حقّ لَحِقَ في حقّ ، كالكيلاني وأبي يَعْزى وعامة متأخري الشّاذُلية ، ومنهم من يغلب عليه الفقر إلى الله تعالى فَيَكِلُّ لسانه ويقف مع جانب الورع ، ومنهم من تختلف أحواله فتارة وتارة ، وهو أكمل الكمال لأنّه حال المصطفى ﷺ لأنّه أطعم النّاس على صَاع وشدّ الحجر على بطنه ، ثمّ قال : قال في روض الرّياحين: النّاس في الكرامة أقسام : [133/أ]

54) لعلّهم أخذوه عن أتباع أفلاطون لأنّ أفلاطون هو المثبت لعالم المثال.

55) سورة مريم : 17.

56) هو لليافعي وهو مطبوع.

57) في ش : «الثقاة».

منهم من ينكرها مطلقًا وهم أهل مذهب معروفون ، وعن الهدى والتّقى[58] مصروفون ، ومنهم من يُصَدِّقُ بكرامة من مضى دون أهل زمنه ، وهم كبني إسرائيل صدقوا بموسى حين لم يروه ، وكذّبوا محمدا حين رأوه مع كونه أعظم ، ومنهم من يصدّق بالأولياء في زمنه لكنّه لم يصدّق بأحد معيّن وهذا محروم من الإمداد لأنّ من لم يسلم لأحد مؤمن[59] لا ينتفع بأحد أبدًا.

ثمّ إن ظهور الكرامة لا يدلّ على أفضلية صاحبها بل على فضله ، وقد يكون غيره أفضل منه ، فالأفضلية إنّما هي بقوة الإيقان وكمال العرفان ، ولهذا قال سيّد الطائفة الجنيد : مشى[60] رجال على الماء ومات بالعطش أفضل منهم.

ولمّا كانت رتبة النبيء أعلى وأرفع من الولي ، كان الولي ممنوعًا مما يأتي به النبيء على وجه الإعجاز والتحدي أدبا معه ، وقال السّبكي : معاذ الله أن يتحدّى نبيء بكرامة ظهرت على يد ولي ، بل لا بدّ أن يأتي النبيء / بما لا يوقعه على يد الولي ، وإن جاز وقوعه ، فليس كل جائز في قضايا العقول واقعًا ا هـ. [/ب]

قال الشّيْخ إبن عربي : الشّيْخ أبو السّعود إبن شبل أعلى مقامًا من شيخه عبد القادر الجيلاني لإعراضه عن التّصرف الذي يفعله الشّيْخ عبد القادر ، وقال عزّ الدّين عبد العزيز بن عبد السّلام : من أدل دليل على القوم[61] قعدوا على أساس الشّريعة ، وقعد غيرهم على الرّسوم ما يقع على أيديهم من الخوارق ، ولا يقع شيء منها من فقيه إلاّ أن سلك طريقهم.

وقال الشّاذلي[62] : لا يُعْطى الكرامة من طلبها ولا من حدث بها نفسه ، وقال : إبتلى الله هذه الطّائفة بالخلق سيّما أهل الجدال ، فلما ينشرح صدر واحد منهم للتصديق بِوَلِي معين من معاصريه يقول : نعم إنّ لله أولياء لكن أين هم؟ وقال : لكلّ ولي ستر أو ستور ، فمنهم من سِتْرُه بالأسباب ، ومنهم من سِتْره بظهور العزّة والسطوة والقهر على حسب ما يتجلى الحقّ سبحانه وتعالى لقلبه ، فيقول النّاس : ما هذا بولي وهو في هذه النّفس ، وذلك أنّ الحق إذا تجلى في قلب عبد بصفة القهر أو بصفة الإنتقام كان

---

58) في ش : «التقا».
59) ساقطة من ط.
60) في ش : «مشا».
61) في ط : «على أن القوم».
62) أبو الحسن.

منتقمًا ، أو بصفة الرّحمة والشّفقة كان رحيمًا شفيقًا وهكذا ! .

وقال المُرْسي : ربّما دخل في طريق الرّجل بعد وفاته أكثر ممّا دخل في حياته ، فما دام بين أظهر النّاس لا يلقون إليه بالاً ، وقال أيضًا : طريقتنا هذه لا تنسب للمشارقة ولا للمغاربة بل واحد عن واحد إلى الحسن بن علي ، وهو أوّل الأقطاب / وقال : إنّما [134/أ] يلزم الرّجل تعيين مشايخه إذا كان طريقه ليس الخرقة لأنّها رواية ، والرّواية يتعيّن رجال سَنَدها ، وطريقتنا هداية ، وقد يجذب الله العبد فلا يجعل عليه منّة للأستاذ ، وقد يجمع شمله برسوله فيكون آخذًا عنه وكفى بذلك منّة ، وقال : والله ما كان إثنان من أهل هذا العلم في زمن واحد قط إلاّ واحد بعد واحد إلى الحسن بن علي ، وقال : شَارَكْنَا الفقهاء فيما هم فيه ولم يشاركونا فيما نحن فيه ، وقال : إذا ضاق الولي[63] هلك من يؤذيه حالاً وإن اتّسع الحمل أذى الثقلين ، وقال : لحم الولي سُمٌّ فإيّاك وإيّاه ، وكان بخط المقسم من القاهرة ، وكلّ ليلة يأتي إسكندرية فيسمع ميعاد الشاذلي ثمّ يرجع للقاهرة من ليلته .

وذكر الشّيْخ المُناوي في ترجمة قضيب البان : إنّ أبا النجا المغربي خرج من بلده يريد المشرق ومعه أربعون وَلِيًّا ، فكان يستوعب ما في كل بلد من الرّجال حتى وصل الموصل ، فسأله قضيب البان عن كلّ رجل لقيه ، فذكر رجالاً وقضيب البان يقول : وزنه ربع رجل ، ونصف رجل ، وهذا وازن ، وهذا كامل ، وهذا وان ملأ صيته ما بين الخافقين لا يساوي عند الله جناح بعوضة ، قال : وسئل عن قضيب البان الشّيْخ الجيلاني فقال : هو ولي مُقَرّب ذو حال مع الله ، وقدم صدق عنده ، فقالوا : ما نراه يصلي ، فقال : إنه يصلّي من حيث لا ترونه ، وإني أراه إذا صَلّى بالموصل وبغيرها من آفاق الأرض يسجد عند باب الكعبة ، ثم قال : قال الشّيْخ خليل المالكي / صاحب المختصر [134/ب] المشهور : الولي إذا تحقّق في ولايته تَمَكّن من التّطور في روحانيته (ويُعْطَى من القدرة التّطور في صور عديدة وليس ذلك بمحال لأنّ المتعدّد هو الصّور الروحانية)[64] قال : وقد اشتهر ذلك عند العارفين ، كما حكى عن قضيب البان لما أنكر عليه بعض الفقهاء عدم الصلاة في جماعة ، ثمّ إجتمع ذلك الفقيه به فَصَلّى بحضرته ثمان ركعات في أربع صور ، ثم قال له : أي صورة لم تَصَلِّ معكم؟ فقبّل يد الشّيْخ وتاب ، ثم قال : ولا

---

63) ساقطة من ط .

64) ما بين القوسين ساقط من ط و ت و ب .

مانع من أن يخصّ الله من يشاء من أوليائه بالتّصرف في بَدَنَيْنِ أو أكثر ، فيكون جسمه الأوّل بحاله ثمّ يتغيّر ويقيم له شبحًا آخر وروحه تتصرّف فيهما معًا في وقت واحد.

واعلم أنّ الأولياء على طبقات ومقامات مختلفة ، نُقِل في سيرة الخميس عن أبي بكر الكناني – قدّس الله سره – أنّ النقباء ثلاثمائة ، والنّجباء سبعون ، والأبدال أربعون ، والأخيار سبعة ، والعمداء أربعة ، والغوث واحد ، ثم مسكن النقباء المغرب ، ومسكن النّجباء مصر ، ومسكن الأبدال الشّام ، والأخيار سيَّاحُونَ في الأرض ، والعُمَد في زوايا الأرض ، ومسكن الغوث مكّة ، فإذا عرضت الحاجة من أمر العامة إبتهل فيها النّقباء ، ثمّ النّجباء ، ثمّ الأبدال ، ثمّ الأخيار ، ثمّ العُمَد ، فإن أجيبوا وإلاّ ابتهَل فيها الغوث ، فلا تتمّ مسألة حتّى تجاب دعوته اهـ.

وزاد بعضهم بعد الأبدال الرجال وهم عشرة ، وسمى الأخيار وهم السبعة الأقطاب ، ورتبهم هكذا : نجباء فنقباء فأبدال / فرجال فأقطاب فأوتاد فغوث ، وفي هذا [135/أ] القدر كفاية لمن كان له قلب أو ألقى السّمع وهو شهيد.

ولنرجع إلى ذكر ما قصدنا إيراده من ذكر بعض العلماء والصّالحين من صفاقس ووطنها بقدر الإمكان ، وهم – رضي الله تعالى عنهم – متفاوتون بحسب الزّمان ، فمنهم السّابق واللاّحق ، فلنورد ما تيسّر بحسب ترتيبهم في الزّمان.

ترجمة أبو خارجة عنبسة :

فنقول : أوّلهم من اجتمع بإمامنا مالك – رضي الله تعالى عنه – وأخذ عنه من أهل الوطن ، وهو أبو خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي(65) ، سمع من مالك والثّوري والليث وابن عيينة وإبن وهب والمغيرة المخزومي وغيرهم ، وله سماع من مالك فَدَوَّنه كسماع إبن القاسم وأشهب ، وكان سحنون يُجلُّه ويعرف حقّه ، وإذا سئل بحضرته أحال عليه ، وكان أسنّ من سحنون ، وكان ساكنًا بحصن من جهة صفاقس غربًا منها ، ويسمَّى ذلك الحصن يونقا – بالياء التّحتيّة المضمومة بعدها واو ساكنة ثم نون ساكنة فقاف مفتوحة بعدها

65) له ترجمة في ترتيب المدارك 486/2 – 489 ، الدّيبَاج 45/2 – 46 ، رياض النّفوس للمالكي (ط.2) 241 – 249 ، طبقات أبي العرب 172 ، وللشّيْخ محمود السّيالة تأليف في مناقبه إعتمد فيه على هذا التّاريخ لشيخه ، وزاد زيادات ليست ذات بال.

ألف – وكانت تسمّى قصر تليدة ، بينها وبين صفاقس ثمانية وعشرون ميلاً ، وخُرِّبَ ذلك الحصن[66] اليوم لأنّه استولى عليه البحر ، وضريح الشّيْخ إلى الآن مشهور مزار ، وله كرامات في حياته وبعد مماته ، فيُحكى عنه عجائب من الأخبار والوصف لما[67] لم يكن ، فيكون كذلك مثل ما يحكى بالأندلس عن بقي بن مخلد.

ويحكى أنّه وقعت في زمنه شِدَّة فطلبوا منه الإستسقاء فأمر النّاس بالصَّوم والصَّلاة وإصلاح[68] ذات البين وخرج / بهم إلى الصحراء ومعه سائر الحيوانات ففرّق بينها وبين [135/ب] أولادها ، ووقع البكاء والضّجيج ، فأقام على ذلك إلى منتصف النّهار ، ثم صَلّى وخطب بالنّاس فسقوا ، وهذا نظير ما وقع لموسى بن نصير – حسبَما مرّ – .

وممّا وقع في هذه الأعصار أنّ بعض النّاس كانوا مسافرين في البحر فنزلوا لزيارته ، فقال بعضهم : ودَدْنَا لو وجدنا من يبيع لنا شاة نتعَشّى منها ، فنظروا فلم يجدوا أَحدًا من العرب[69] ولا من غيرهم ، فدخلوا ضريح الشّيْخ وخرجوا فإذا بصوت شاة فتبعوا صوتها ، فإذا بشاة مكتوفة على عادة العرب ينذرون ويضعون[70] نذورهم حذو الشّيْخ إذا لم يجدوا زائرًا ، فأخذوها وأكلوها وعَدُّوها من كرامات الشّيْخ – رحمه الله تعالى ونفعنا به – .

وكانت وفاته – رحمه الله – بشهر ربيع سنة عشرين[71] ومائتين.

وممّن إجتمع بامامنا مالك – رضي الله تعالى عنه – وأخذ عنه إسرائيل بن رَوْح.

قال التّجاني[72] : وارتحلنا عن الجم ففارقنا بمفارقته أرض حكيم وطرود ، ودخلنا في أرض أخوتهم حصن ، وكان مسيرنا منذ فارقنا الجم في الزّيتون القديم المتّصل بالمعروف بزيتون السّاحل ، قال الرشَاطي[73] في كتابه المسمّى «باقتباس الأنوار» : إنما سمّي هذا الموضع بالسّاحل وليس بساحل بحر لكثرة ما فيه من سواد الزّيتون والشّجر والكرم ، قال :

---

66) من الحصون البيزنطية السّاحلية ، وما تزال بقاياه قائمة بجانب مقام هذا الشّيْخ المعروف عاميًا بسيدي أحمد عبسة.

67) في ط : «ما».

68) في ط و ت : «صلاح» ، وفي ب : «صلاح ذلك».

69) يقصد أهل البادية.

70) في ش : «يصنعون» ، وفي ت : «يعطون».

71) ربيع الآخر سنة 825/210 – 826 وسنه 86 سنة ، فيكون ميلاده سنة 741/124 – 742.

72) الرّحلة ص 65.

73) الرّحلة ص 66.

وكلّه قرى متّصلة البعض بالبعض ، وذكر من المنسوبين إليه من العلماء إسرائيل بن رَوْح السّاحلي وأخبر أنّه لقي مالك / بن أنس وحدَّث عنه ، قال أبو بكر أحمد بن علي بن [136/أ] ثابت الخطيب[74] : أخبرنا أبو الفرج أحمد الواعظ قال : حدّثنا عبد الله بن أحمد بن زياد قال : حدّثني إسماعيل بن حصن قال : حدّثنا إسرائيل بن رَوْح السّاحلي قال : سألت مالك إبن أنس فقلت له : يا أبا عبد الله ما تقول في إتيان النّساء في أدبارهن؟ فقال : أما أنتم قوم عرب؟ هل يكون الحرث إلاّ في موضع الزّرع؟ أما تسمعون الله يقول : ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾[75] قائمة وقاعدة وعلى جنبها ولا تعدوا الفرج ، فقلت له : يا أبا عبد الله إنهم يقولون أنك تخبرهم[76] بذلك ، فقال : يكذبون عليّ وكرّرها ثلاثًا اهـ[77].

ترجمة القاضي عيسى بن مسكين :

ومن فقهاء وطن صفاقس الشّيْخ الإمام العالم العلاّم[78] الهُمَام القدوة المتقن المتفنن[79] العامل الورع الصالح القاضي سيدي عيسى بن مسكين[80] الإفريقي[81] ، أصله من العجم ، سمع من سحنون وابنه وغيرهما ، وبالشّام ومصر ، وكان محبًّا لسحنون وإبنه ويثني عليهما كثيرًا ، فقال : سحنون راهب هذه الأمّة ، لم يكن بين سحنون ومالك أفقه من سحنون ، وقال : خير[82] من رأيت محمد بن سحنون ، كان جامعًا لخصال من الخير : العلم والورع ومعرفة الأثر ، وكثرة الأخبار ، والتّفقّد للإخوان ، وقال

---

74) هو الخطيب البغدادي ، المحدّث المؤرّخ صاحب التّصانيف الكثيرة (ت. سنة 463/1070 – 1071) في السّنة التي توفّي فيها إبن عبد البر الأندلسي.

75) سورة البقرة : 223.

76) في الرّحلة : «تخبر».

77) الرّحلة 65 – 66.

78) في ت و ط و ب : «العلم».

79) في ط : «المفتي».

80) ترجمته في ترتيب المدارك 212/3 – 228 ، الدّيباج 66/2 – 70 طبقات علماء إفريقية للخشني 193 – 195 ، المرقبة العليا للنباهي 30 – 32 مرآة الجنان لليافعي 224/2.

81) تطلق هذه الكلمة على من كان أصله بربريا أو رومانيا.

82) كذا في ط و ب والمعالم ، وفي ت : «خيرما» وفي ش : «خيرت».

أيضًا : ما رأيت بعد سحنون مثل إبنه ، قال في المعالم : قال عيسى بن مسكين القاضي : لمّا وصل كتاب الإمامة[83] الذي ألّفه[84] محمد بن سحنون إلى بغداد كُتِبَ بالذهب وأهدي للخليفة ا هـ[85].

[136/ب] وأخذ عن عيسى – رحمه الله – جماعة / منهم الشَّيْخ الصّالح سيدي أبو إسحاق الجبنياني – نفعنا الله به – وأبو حفص عمر بن مثنى صاحب الشَّيْخ أبي إسحاق ، قال الشَّيْخ أبو إسحاق : أهدى عيسى بن مسكين إلى سحنون عَسَالِج خُبَّيْزٍ فقال سحنون : لو علمت بك للقيتك بموضع كذا وكذا ، قال : وعلى مزبلة سحنون من الخُبَّيْزِ كثير لأن فعل سحنون ذلك بعيسى فرحًا به ومودة.

قال الشَّيْخ أبو القاسم اللبيدي[86] : أخبرني أبو حفص عمر بن مثنى عن أبي الحارث ليث بن محمد بن صفوان عن عيسى بن مسكين عن سحنون أنّه كان إذا رأى إعراض الجاهل عن العلماء يقول :

[الوافر]

لمنزلــة الفَقيــهِ من السَّفيــهِ كمنزلــة السَّفِيــهِ من الفَقِيــهِ
فَهَــذا زاهــد في رأي هــذا وهـذا أشَدُّ زُهْدًا مِنْهُ فِيهِ[87]
إذا غَلَبَ الشَّقَاءُ على السَّفِيه تقطـع من مخالَفَـةِ الفقِيــهِ

وممّن[88] أخذ عن عيسى محمّد بن أحمد بن تميم ، وكذا أخذ عنه أبو العبّاس أحمد[89] بن تميم بن أبي العرب فإنه لقِي عيسى وأخذ حديثه عن أبيه أبي العرب ، وممّن أخذ عنه مروان إبن نصر بن حبيب ، كما سمع منه أيضًا أبو محمّد عبد الله إبن قاسم مسرور التّجيبي المشهور بالحَجَّام ، وحدّث عنه بالإجازة أبو القاسم زياد بن يونس

---

83) في الأصول : «ألف».
84) في ت : «الأمة».
85) معالم الإيمان 127/2.
86) في مناقب أبو إسحاق الجبنياني ص 46. وأبو القاسم اللبيدي (360 – 971/440 – 1048) هو عبد الرّحمان بن محمد بن عبد الرّحمان الحضرمي اللبيدي نسبة إلى لبيدة كان له إعتقاد في الصّالحين يزورهم في السّاحل ، ويبحث عن مناقبهم وأحوالهم ، أنظر المراجع التي تخصّه في تراجم المؤلّفين التّونسيين 210/4.
87) في بعض نسخ المناقب «وهذا فيه أزهد من فيه».
88) في ش : «من».
89) ساقطة من ش و ب.

اليحصبي السّدري[90]، ولي القضاء لإبراهيم إبن الأغلب فاشتهر بالقاضي، وكان كاتبه أيام قضائه محمّد بن الفرج[91] بن البنّاء البغدادي الفقيه، قال أبو بكر المالكي[92]: أودعه عيسى بن مسكين ودائع ثمّ طرأت شِدَّة عظيمة، فقيل لعيسى بن مسكين: ذَهَبَتْ / ودائع النّاس عند إبن البناء قال: ولم[93]؟ قيل: رأيناه يقطع الميتة، فَوَجَّه إليه [137/أ] عيسى في إحضارها فأحضرها فقال له عيسى إبن مسكين: تأكل الميتة وهذه عندك، قال: نعم لأنّ الميتة حلّت لي مع[94] الإضطرار ولم يحل لي أن أخون أمانتي، فقال له: أرجع بها، فقال: والله لا رَجَعَتْ لي، وامتنع من قبولها.

وكان مشهورًا بالصّلاح، وَعظَّمَه الصَّالحون، بل حتّى الشّيعة يعترفون بفضله.

ذكر في معالم الإيمان أنّ المنصور إبن الظّاهر العبيدي لمّا سار إلى السّاحل ومرّ بقرية عيسى بن مسكين[95] القاضي صلّى في مجلسه ركعتين تبرّكًا به، وأوصى العامل بحفظ القرية.

ولم يزل أهل صفاقس عند القحط يذهبون لضريحه يستسقون به فيسقيهم الله.

وكان مولده ليلة الجمعة أوّل رمضان المعظّم قدره بالإنزال من سنة ثلاث عشرة ومائتين[96]، وتوفّي – رحمه الله – سنة خمس وتسعين ومائتين[97]، ودُفِنَ بقريته المشهورة به وقبره بها مشهور، وعليه قُبَّة، وهو على يسار الذّاهب لتونس من صفاقس، بعده من صفاقس يقرب من عشرين ميلاً.

وممّا يُسْتَغرب أنّا لمّا أردنا تحقيق وفاته لم يحضرنا ما نعتمد عليه فسألت عن ذلك الأخ الأكمل ذا[98] الذّهن الثّاقب والفكر الصّائب، من فاق من صغره أهل عصره، فنال من كل فنّ عيونه، ومن كلّ علم فنونه، فشارك في العلوم النّقلية والعقلية والأصلية

______

90) في ط: «السوري».

91) في الأصول: «بن هرج»، وجاء في رياض النفوس: أبو علي عبد الله بن محمد بن الفرج المعروف بابن البناء، 156/2 وفي المدارك والبيان «بن المفرج».

92) رياض النّفوس ص 157 ومعالم الإيمان 318/2 – 319.

93) في ب و ت و ش وفي المعالم: «لم»، وفي ط: «لما».

94) في ط: «عند».

95) هذه القرية ما زالت معروفة بإقليم السّاحل إلى الآن.

96) 13 نوفمبر 828، وفي غيره سنة 829/314.

97) 907 – 908 م.

98) في الأصول: «ذي».

والفرعية ، الحسيب النسيب ، الشريف النجيب العفيف ، أبا عبد الله سيدي محمّد حَمْزَة ، وفّقنا الله وإيّاه لما يحبّه ويرضاه / فقال لي : كنت منذ عشر سنين رأيت عند [137/ب] رجل يصنع أسفار الكتب حَجَرًا مكتوبًا فيه تاريخ وفاة الشّيْخ سيدي عيسى بن مسكين ، فكان يبسط الأسفار على ذلك الحجر ، قال : فنهيته عن ذلك ، فلمّا قال لي ذلك طلبت منه البحث عن ذلك ، فقال : الرّجل الذي رأيته عنده مات ولكن عليّ بالطّلب وعلى الله الهداية ، فذهب وسأل إبن عمّ الرّجل الذي كان عنده فقال : ليس عندنا من آلته شيء ، ثمّ إن إبن عمّ المسفّر كان ذاهبًا في الطّريق فرأى رجلاً بيده حجر مكتوب ولا دري[99] ما فيه فرجع لسيدي محمّد حمزة فأخبره ، فقال : وأين الرّجل؟ قال : ذهب ، قال : فبينما نحن في الحديث والتّلَفُّتِ فإذا بالرّجل جالس بالقرب منهما فسألناه فقال : نعم هو حجر وجدته عند رجل يخصف عليه النّعال ، فقلت له : هذا فيه إسم الله لا ينبغي أن يُهَان ، فأخذته منه ، فاذهبا معي أعرفكم به ، فذهبنا معه فقال : صدق وأنا اشتريته ، ولمّا طلبه منّي أعطيته له ، ثمّ أمرناه بإحضاره فأحضره ، فسألناه عن سبب حمله ذلك اليوم الذي رأيناه في يده ، قال : كنت ساكنًا في دار فانتقلت منها[100] منذ شهر[101] وأبقيت بعض مصالحي ومن جملتها هذا الحجر ، فسألني مَنْ سَكَنَ الدّار بَعْدِي نَقْلَ ما أبقيته من المصالح فنقلتها ، وأخرجت الحجر في ذلك الوقت الذي لقيتني فيه ، فأتاني[102] به ، فحمدنا الله تعالى ودعوت له بخير ، وعلمنا أنّ هذا الأمر من بركات الشّيْخ – رحمه الله تعالى ونفعنا به –.

---

99) في ش و ت و ب : «درا».

100) في الأصول : «منه».

101) في ط : «أشهر».

102) جولة قلمية طويلة للتّعرف على وفاة عيسى بن مسكين ، وما ذكره يبدو غريبًا ولكنّه ممكن فمثل هذه الأحجار التي ذكرها كانت تستعمل لشتّى الأغراض في البناء والصّناعة كما أشار وكما دلّتنا عليه الأعمال الأثرية داخل المدينة ، وقد جاء تاريخ وفاة عيسى بن مسكين في الدّيباج لابن فرحون وفي أصله : ترتيب المدارك للقاضي عياض ، ولو كان مطّلعًا عليهما لما احتاج إلى هذا اللّفّ والدوران.

ترجمة الشّيْخ أبي إسحاق الجبنياني ومناقبه :

ومن أجل أعيان وطن صفاقس الشّيْخ الصّالح الجليل أبو إسحاق إبراهيم[103] بن أحمد بن علي بن سلم[104] الجبنياني البكري / من بكر [بن][105] وائل من ربيعة ، كان أبوه وجدّه[106] من اهل الخِطَطِ ومسجد إبن سالم ورَبْعُه بالقيروان مشهور ، وكان جدّه علي بن سالم[104] من أهل العلم ومن أصحاب سحنون بن سعيد - رضي الله تعالى عنه - وهو ولد سحنون من الرّضاعة ، أرضعته أمّ محمّد بن سحنون مع محمّد ، ثمّ وَلاَّهُ سحنون قضاء صفاقس وسائر السّاحل فلم يكن يغمض عليه في أحكامه شيء.

[138/أ]

فلمّا مات علي بن سالم[107] وَلَّى بنو الأغلب أبا العبّاس أحمد والد الشّيْخ أبي إسحاق خراج إفريقية فتَوَرَّط معهم فيما هم بسبيله.

وكان من أهل الأدب والفهم ، ثمّ ارتفع شأنه عندهم إلى أن صار في حدّ الوزارة والمُشاورة ، وكان إذا خرج إلى منازله خرج في عسكر كما يخرج الوزراء ، وبين يديه وخلفه النّجائب.

وأبو إسحاق في ذلك غلام له معلّمان أحدهما يعلّمه القرآن والآخر يعلّمه العربية والشّعر في رفاهية من العيش. قال الشّيْخ أبو القاسم اللبيدي - رحمه الله تعالى - وعليه أعتمد فيما أنقل من أمر هذا الشّيْخ : ولقد عرّفني شيخ معمّر يَعْرِفه في تلك الأيام أنّه رأى حوله خمسة عشر صقلبيًا موكّلين بحفظه.

وسبب انقطاعه عن هذا الحال وزهده أنه كان إذا نزل والده بقرية جبنيانة في أيّام النّزهة[108] ، يقيم بها الشّهر وأكثر منه.

وإلى جانب جبنيانة قرية يقال لها طرس أَسْبَاط بها شيخ معلم يعرف بابن عاصم وقد شهر بالعبادة والبكاء وإجابة الدعاء ، وكان النّاس يتبرّكون بدعائه ، وكان قد نفع

---

103) له ترجمة في ترتيب المدارك 497/13 - 517 ، الدّيباج 264/1 - 265 ، رحلة التّجاني 80 - 81 ، شجرة النّور الزّكيّة 95 ، مناقب أبي إسحاق الجبنياني للبيدي ص 2 ، جامع كرامات الأولياء للنبهاني 392/1 ، وفيه الحسباني وهو تحريف ، الحلل السّندسيّة 323/1 - 324.

104) أنظر ص 172 هامش 6.

105) إضافة من المناقب.

106) النّقل بتصرّف يسير ص 12.

107) في الأصول : «سلم».

108) في ش : «النزاهة».

الله به خلقًا كثيرًا منهم علماء / ومتعبّدون ، وكان أيّام إقامة أبي العبّاس ، والد أبي [138/ب] إسحاق بجبنيانة ، يوجّه بأبي إسحاق إليه يعلّمه ويقيم عنده يتعلّم فيتخلّف إليه غدوًّا وعشيًّا تبرّكًا به ، يفعل ذلك في كلّ سنة إلى أن بلغ أبو إسحاق الحلم ، فدخل قلبه من الخير ممّا يسمع من إبن عاصم وما يعاين من فضله ما أزعجه عما كان فيه ، فانخلع من الدّنيا ولبس عباءة وهرب ، فَطُلِبَ فَلَمْ يُوجَد.

قال الشّيْخ أبو القاسم : عرّفني الشّيْخ الجليل أبو الحسن علي بن محمّد الفقيه – يعني القابسي – عن أحمد بن عيشون البَكّاء ، وكان من خيار أصحاب أبي إسحاق ، أن أبا إسحاق وجد بعد مدّة يعجن طينًا بمدينة سوسة بأُجْرة ، فقيل [له] إن أباك كثير الإجتهاد في طلبك ، فقال : قولوا له : أكنت تظنّ أنّه يخرج من ظهرك من يطلب الحلال؟ .

ولمّا هرب وقع عند رجل بناحية سوسة ، فاستأجر نفسه عنده يرعى(109) له بقرًا ، فأتاه يومًا بفأس ، فقال : إقطع خشبة من هذه الشّجَرة ، فقال له الشّيْخ أبو إسحاق : ليست لك إنما هي لأخيك ، فقال له : صرت له ضدًّا ، إنما عليك أن تستمع ما آمرك به فتعمله ، فقال له الشّيْخ : بل عليّ أن أتّقي الله ، فانصرف عنه فلحقه ، وبذل له أجرته ، فقال له الشّيْخ : من أين تدفعها إلي ، أنت لم تتورع عن قطع شجرة أخيك في غيبته ، فمن أين تريد أن تدفع إلي؟ فذهب ولم يأخذ منه شيئًا.

(وإذا استأْجَرَ نفسه لجمع الزيتون وبذلوا له أجره ردّ لهم بعضه خوفًا أن يكون حصل منه تقصير في العمل)(110) ، ثمّ وفّقَهُ / الله لطلب العلم ، فكان(111) لا يسمع بعالم [139/أ] إلاّ أتاه ، فسمع منه وكتب عنه ، ولا يسمع برجل صالح إلاّ أتاه وانتفع به ، وذلك كلّه أيّام بني الأغلب ، وأبوه معهم على حالته إلى أن زال بنو الأغلب ، وطولب أبوه فيمن طولب ، فأخذت أملاكه ومنازله ورباعه ، ولم يبق له إلاّ بعض دُور بمدينة صفاقس.

كلّ ذلك والشّيْخ أبو إسحاق هارب من بلد إلى بلد مُجِدٍّ في طلب العلم والعبادة والزُّهْدِ في الدُّنْيا.

ثمّ حجّ في سنة أربع عشرة وثلاثمائة(112) وانصرف ، فكان يبحث عن العلماء

---

109) في ش : «يرعا».

110) في المناقب عن أبي القاسم عن أبي بكر السّيوطي : «ربّما استأجرنا أنفسنا في جمع الزيتون ، أنا وهو . إذا دفعت إلينا أجرتنا يحط منها ويقول : نخشى أنا لم نوف فكيف نستوفي» . ص 6.

111) «فكان في تصرفاته وسياحته» ، المناقب ص 7.

112) 926 م.

ويتبعهم ويكتب عنهم ، وأخذ من عيسى بن مسكين الإجازة[113] ، وكتب عن أبي بكر ابن اللباد ، وأقام عنده مدّة وكان به معجبًا.

ومدّة إقامته بالقيروان للسّماع عن إبن اللبّاد كانت عنده جرادق[114] من دقيق شعير يفطر كلّ ليلة على واحدة ويشرب من بئر روطة[115] ، فلمّا فرغت جرادقه إنصرف ولم يشتر بالقيروان شيئًا[116] ولا يشرب بها إلاّ من بئر روطة.

وكان أكثر دراسته بالسّاحل على أبي عبد الله محمّد بن سهلون الفقيه الزّاهد ، صاحب أبي عبد الله محمّذ بن عبدوس ، وانتفع أيضًا بصحبة محمّد بن عبد الرّحيم بن علي بن عبد ربّه ، وكان من الحُفّاظ.

وكان كثير الصّحبة لأبي يوسف بن مسلم بن يزيد بن ربيعة ، وكان أبو يوسف من أهل العلم والفهم والعبادة والورع ، وكان أبو يوسف هذا قد لقي جماعة من أصحاب سحنون ، ولقي بمصر أصحاب الحارث بن مسكين ، وكتب عنهم ، ولقي بمكة / [139/ب] إبن الجارود النيسابوري[117] وإبن المنذر[118] والخزاعي[119] والجندي[120] والمغربي وغيرهم ، وكتب عنهم ، وأبو يوسف هذا أخوه مَسَرَّة بن مسلم وهو أكبر منه ، وهم أهل بيت وعلم وقرآن وعبادة ، محمّد وأبو يوسف وأحمد ويزيد ومسرّة كلهم ممّن سمع العلم وتعبّد ، وكان أكثر منفعتهم بابن عاصم الذي إنتفع به أبو إسحاق.

---

(113) في المناقب : «أجازه».

(114) جمع جردقة وهي خبز شعير ينضج في المنزل لا في الفرن ، وخبز القمح يسمّونه مبسوط بالتّأنيث والتّذكير.

(115) ما زالت موجودة إلى الآن بالقيروان في علو.

(116) في المناقب : «شيئًا يؤكل». ص 8.

(117) في الأصول : «ابن الجارود والنيسابوري» والتّصويب من المناقب ص 9 ، والنيسابوري هو عبد الله بن علي بن الجارود النيسابوري أبو محمد ، المجاور بمكة ، من حفاظ الحديث ، ووفاته بمكة 920/307 ، له المنتقى في الحديث ، وهو مطبوع (الإعلام 104/4).

(118) محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري أبو بكر ، فقيه مجتهد ، من الحفاظ ، كان شيخ الحرم بمكّة ، قال الذهبي : إبن المنذر صاحب الكتب لم يصنف مثلها منها «المبسوط في الفقه» و «الأوسط في السنن» و «حد الإجماع والإختلاف» و «الإشراف على من أسب أهل العلم» و «تفسير القرآن» وغير ذلك ، وتوفّي بمكة سنة 931/319 م (الإعلام 294/5 – 295).

(119) لعله أبو القاسم أحمد بن علي الخزاعي الراوي عن الهيثم بن كليب عن الترمذي كما في برنامج الوادي آشي ص 211 ، عند الكلام عن الشمائل للترمذي.

(120) المفضل بن محمد بن إبراهيم الجندي الشعبي ، أبو سعيد ، مؤرخ يماني الأصل ، كان محدث مكة وتوفي بها سنة 920/308 م من كتبه «فضائل المدينة وفضائل مكة» الإعلام 280/7.

وصحب أبو إسحاق غير هؤلاء فإنه قال : لقد أدركت هذا السَّاحل وما منه قرية إلاّ بها رجل من أهل العلم أو من أهل القرآن أو رجل صالح يزار.

وعن عيسى بن ثابت قال : يقول أبو إسحاق : اِنْصب شبكتك على هذا البحر ، فلا بدّ أن يقع في يدك طائر فاره ، يريد أن يقع في يدك رجل يُنْتفع به لكثرة من كان يرد الحصون من الصَّالحين.

ولقد كان بقصر زياد المرابط من أصحاب سحنون أربعة عشر رجلاً منهم ثابت بن سليمان وهو جليل في أصحاب سحنون.

قال يحيى بن عمر[121] : إذا رأيت محمّد بن سحنون [يقول][122] : حدّثني الثّقة عن سحنون ، فهو ثابت بن سليمان.

وسكن يحيى بن زكرياء الأموي صاحب أبي مصعب[123] بقصر زياد ، وكانوا يسمّون قصر زياد دار مالك لكثرة من كان به من أهل العلم ذلك الزمان ، وكان قد سكنه أبو الحارث ليث بن محمّد ، وحمدون بن مجاهد ، ومحمّد بن الأنباري[124] نشر مصحفًا يقرأ فيه فمات من خشية الله ، وسكنه قبلهم عبد الرَّحيم الزاهد ، وعبد الرَّحيم بن علي ، وصام بقصر زياد سحنون خمسة عشر رمضانًا[125] ، وكان محمّد بن سحنون لا يكاد ينقطع عنه.

قال أحمد / بن حبيب[126] – وكان من أهل العلم – قال لي أبو إسحاق : أتدرس [140/أ] في هذا الوقت العلم؟ قلت : نعم ! قال : فتجتمعون للمذاكرة؟ قال : قلت نعم ! قال : إنما العلم بالمذاكرة ، لقد كنّا نحن نجتمع ، ولقد ألقينا المُدَوَّنَة في شهر ، ندرس النّهار ونلقي بالليل ، فما علمت أنّا نمنا في ذلك الشّهر ، ثمّ قال لي : أي كتاب في أيديكم تدرسون؟ قلت : العتق الأوّل[127] ، قال : فألقى علي من أوله ، وسرد المسائل حتى كأَنَّ الكتاب

121) في الأصول : «يحيى بن عمران» والتّصويب من المناقب ص 10.

122) إضافة من المناقب يقتضيها السّياق.

123) أحمد بن أبي بكر القاسم بن الحارث بن زراة بن مصعب بن عبد الرَّحمان بن عوف الزهري المالكي (ت. 242 بالمدينة) الدّيباج 140/1 – 141.

124) في ش : «الانبري» وفي ط و ب «الانيري» وفي ت «الايزري».

125) في الأصول والمناقب : «رمضان».

126) في الأصول : «أحمد بن أبي حبيب» والتّصويب من المناقب ص 11.

127) أي من المدونة.

في يده ، فإذا ألقى علي مسألة وزاد فيها من غير المُدَوَّنة وقفت ولم أدر ما أجاوبه ، فيقول لي : أنت كرجل لا يعرف غير طريقة واحدة ، فإذا عرضت له أخرى وقف.

وكان أبو إسحاق لا يفتي إلاّ أن يسمع من يتكلّم بما لا يجوز ، فيردّ عليه أو يرى من يخطيء في صلاته.

قال الشّيْخ أبو الحسن القابسي في أوّل سفرة سافر إليه : أوّل ما قربنا من جبنيانة دخل قلبي منه رعب وهيبة عظيمة وقلت لأصحابي : إني خشيت أن يجري على لسان هذا الشّيْخ الجليل من أحوالنا ما يظهره الله للنّاس ، فوجدناه غائبًا ، خرج ليصَلّيَ على جنازة في إحدى القرى ، قال : فلمّا جاء وقت الصَّلاَة وأذَّن فما هو إلاّ أن وقع أذانه في أذني ما ملكت نفسي حتّى جلست إلى الأرض وسمعت أذانا ما سمعت مثله ، ثمّ دخلنا المسجد فلا أسمع أحدًا يتكلّم إلاّ أن سَلَّمَ سلامًا خفيفًا ، قال : فلما صَلَّى انصرف فسلمنا عليه ، فكان منه إقبال ودعاء.

وكان قبل دخولنا جبنيانة تكلّم منّا بعض أصحابنا فقال : أنا رجل من العرب ، وقد خطب إلى ابنتي رجلان / من الموالي صالحان ، فإن زوجتهما لم يطب على قلبي ، [140/ب] وإن رددتهما خشيت أن لا أجد مثلهما ، قال : فكان أوّل شيء سمعناه من الشّيْخ لمّا أن جلس بعد الصّلاة قال : كان لسحنون بن سعيد صاحب من العرب ، وكانت له بنت خطبها إليه رجل من الموالي ، فالتمس خلوة من سحنون ليشاوره فلم يجد حتّى خرج إلى السّاحل فأخبره ، فقال له [سحنون] زوّج من له دين ومروءة ، ولو إنفلقت عنه بعرة ، يعني كان غير معروف النّسب ، ثمّ حَوَّل أبو إسحاق وجهه إلى صاحب البنتين فقال : كذا قال سحنون ، قال : فقلت له : قد أفتيت في مسألتك على لسان الجبنياني.

قال أبو الحسن : ثمّ سألته أن أذكر له إسمي فتى ذكرني دعا لي ، فقال لي : بل أدعو لك في جماعة المسلمين ، فقلت له : بل تخصّني ، فقال لي : أرأيت من أودع وديعة فضيّعها ، أليس يضمن كما يضمن المتعدي؟ فقلت بلى ، قال : فما دعا[128] الإنسان إلى شيء إن ضيعه صار كالمتعدي قال : فقلت له : فلا عليك أن أعرفك باسمي ، فإن نشطت للدعاء لي دعوت وإلّا تركت ، قال : لا. ثمّ أخذ بيدي فرآني كئيبًا إذ لم يقبل منّي ما سألته فيه ، فقال : ما اسمك؟ فقلت له : علي ، فقال لي : أبشر يا علي ! أعلى الله قدرك في الدّنيا والآخرة ، ثمّ لمّا قُرِّبَت لي دابتي لأركب أخذ بركابي ،

128) في ش : «دعى».

وكذلك شأنه أن يأخذ بركاب من فيه علم أو خير.

قال أحمد بن عيشون : قال أبو إسحاق يومًا بعد صلاة الصُّبْح : يا أحمد ، إني فكرت البارحة فيَّ وفيك أن الناس يرون أَنَّا خير أهل هذه القرية ، ونحن شرّها / فقم بنا [141/أ] نبكي على أنفسنا يومًا من الدَّهْرِ ، قال : فخرجنا إلى فحص منقطع نذكر ونبكي النهار كلّه حتّى ذهب بصري فلم يعد لي إلاّ بعد مدّة من الزّمن.

قال الشَّيْخ أبو محمّد بن أبي زيد إذا ذكر أبا إسحاق : طريق أبي إسحاق خالية لا يسلكها أحد في هذا الوقت ، وكان يعظِّمه كثيرًا ويقول : لو لم يكن أمر أويس القَرَني صحيحًا فالجبنياني أوَيْس هذه الأمّة ، وكان أيضًا يقول : لو فاخرنا بنو إسرائيل بعبّادهم لفاخرناهم بالجبنياني. وقال أيضًا : من محبّتي فيه وذكري له أراه في المنام ، ولقد قوى قلبي لمّا بلغني أنّه يدعو لي ، وبلغني أنّه رأى جامع مختصر المُدَوَّنَة الذي أَلَّفْتُ فأعجبه.

وكان أبو إسحاق يرغب في طلب العلم وصحبة العلماء ويقول : وددت لو أنّي على أبواب العلماء أفترش خدي لطلبة العلم ، ويقول للزّوار : أتتركون العلماء وتأتوني !

وكان متقلّلاً في أكله ولبسه غاية[129] قال منصور إبن هانئ المعلّم : رأيته يومًا مهمومًا فَسَلَّمْتُ عليه وقلت : ما بالك – أصلحك الله – مغمومًا؟ فقال : لأنّ المنكر على داري ﴿ والله لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[130] قلت له : المنكر؟ قال : أي والله ، قلت : ما هو يرحمك الله؟ قال : قشور قرع ملقاة[131] على بابي رَمَاهَا أهلي ، يُمْشى عليها وفيها قوت ، أيموت أحدكم جوعًا ويجد قشر قرع يقتات بها؟ فلمّا صَلَّى جمع تلك القشور فطبخت[132] لقوته.

ويلبس الصّوف من موضع يعرف أهله ، فلمّا تغيّرت الأمور صار يلبس من خرق المزابل يجمعها فيغسلها ويُبَطِّنُ بعضها ببعض / فيجعل شيئًا منها في وسطه وشيئًا على ظهره [141/ب] ويخيطها بمسلّة من عظم غزال ، ويأكل البقل البرّي والجراد إذا وجده ، ويطحن الشّعير قوته بيده ، ثمّ يعجنه[133] بنُخَالَتِه دقيقًا في قدر مع ما يجد من بقل بري أو غيره حتّى إنّه ربّما رَمَى منه شيئًا لكلب أو هرٍّ فلا يأكله ، وربّما عوتب في ذلك ، فيقول :

---

(129) في المناقب : «أشدّ الناس أخذًا وتضييقًا على نفسه ثمّ على أهله» ص 19.

(130) إقتباس من الآية 11 من سورة الرّعد.

(131) في الأصول : «ملقى».

(132) في المناقب ص 20 : «طبخها».

(133) كذا في ش وت وط ، وفي ب : «يطحنه» ، وفي المناقب : «يجعله».

الرّقاد مع الكلاب على المزابل وأكل خبز الشعير بنخّالته كثير لمن يرجو في الآخرة شيئًا ، وكان قوته من شعير يتولاّه له رجل من إخوانه يحرثه في أرض حلال وبذر حلال وبقر حلال يوجّهه إلى أبي إسحاق شيئًا فشيئًا ، فإذا أصاب فيما زرع أكثر من القوت تصدّق به.

وكان يتوطّأ[134] الرّمل ، فإذا كان الشِّتاء أخذ قفاف المعاصر الملقاة على المزابل يجلعها تحته.

وأعانه الله بأبناء صالحين ، كان عنده سبعة من الولد : أبو بكر وأبو الطّاهر وأحمد وأبو عبد الله محمّد وأبو الحسن علي وأبو زيد عبد الرَّحْمَان ، وأبو محمّد عبد الله.

مات عبد الله[135] وهو دون الثّلاثين سنة ، وكان – رحمه الله – أشَدَّ من الشَّيْخ إجتهادًا في العبادة ، قتله القرآن ، كلّما مرّ بآية فيها وعد ووعيد يبكي حتّى أذاب الحزن فؤاده ، فمات رحمه الله ، لقّنَهُ والده حتّى مات فأغمضه ، ثمّ استرجع على المصيبة ودعا له ، ثمّ قال لزوجته أمّ عبد الله ، وكانت قريبة من الشَّيْخ في الفضل والعبادة : إحمدي الله[136] واشكريه فقد مات عبد الله على الإسلام وحصل في صحيفتك ، فإن كان عندك طيب فتطيّبي وتجمَّلي لنعم الله ، ثمّ قام فتوضّأ / وأخرج مئزرًا قديمًا عنده تجَمَّلَ به ، وركع ، ثمّ جلس للنّاس ، وظهر عليه من البشر والفرح ما لم يكن يظهر عليه قبل ذلك. [142/أ]

وتوفّي عبد الرَّحْمَان[137] بعد الشَّيْخ بثلاث سنين ، كان يختم كل ليلة.

وكان الشَّيْخ أبو إسحاق يسرد الصوم ولا يفطر إلاّ في الأيّام التي لا يحلّ صومها[138] ويختم القرآن في ثلاثة أيام بلياليها لأنّه كان يقرأ ويتدبّر ، وإذا دخل في الصَّلاة فلو سقط البيت الذي هو فيه ما التفت إليه إقبالاً على صلاته واشتغالاً بمناجاة الله ، وقام سنة في آية ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ﴾[139].

وقال أحمد بن عيشون لمّا حججت أتيت معي بِحُصَيَّات من حصى المسجد

---

134) كذا بالمناقب ص 21.
135) مات قبله أبو الحسن علي قبل أن يحتلم ، المناقب 21.
136) ساقطة من ش.
137) توفي قبله أبو الحسن في حياة الشيخ أيضًا ، المناقب ص 22.
138) أو في مرض ، المناقب.
139) سورة الصافات : 24.

الحرام فقلت للشَّيْخ أبي إسحاق الجبنياني : إني أتيت بحُصيّات من حصى المسجد الحرام ، أتحبّ أن أعطيك منها شيئًا تسبّح به؟ فقال لي : إرْمِ بهنّ يا أحمق فعلى أقل من هذا عبدت الحجارة ، فبلغ ذلك الشَّيْخ أبي الحسن القابسي فأعجبه لقول مالك : فيمن يخرج شيئًا من حصباء المسجد الحرام في نعليه فإن كان قريبًا [منه] ردّه إليه وإن كان بعيدًا رماها.

وقال الشَّيْخ أبو إسحاق : لا تعلِّموا أولادكم إلّا عند رجل حسن الدّين ، فدين الصبي على دين معلّمه ، ولقد عرفت أنّ معلّمًا كان يخفي القول بخلق القرآن ، فلمّا فُطِنَ به ضُرِبَ فوقف بين يدي صبيان المكتب وقال لصبيانه : ما تقولون في القرآن؟ فقالوا : لا علم لنا ، فقال : هو مخلوق ، ولا تزولوا عن[140] هذا القول ولو قتلتم ، ثمّ هرب عنهم فبلغني / أنّهم ماتوا كلّهم ، وهم يعتقدون هذا القول. وبلغني عن معلّم [142/ب] عفيف رُئِيَ وهو حول الكعبة يدعو ويقول : اللهم أيّما غلام علَّمْتُه فاجعله من عبادك الصّالحين ، فخرج على يديه نحو من سبعين ، ما بين عالم ورجل صالح. فكم بين الرّجلين!

وقيل[141] للشَّيْخ لِمَ سكنت جبنيانة؟ قال : رجاء أن يخمل[142] ذكري فيها لأنّي رأيتها من أقل القرى ذكرًا.

وكان للشَّيْخ أخت إسمها عائشة ، وهي سوداء ، ولَدَهَا أبوه من جارية سوداء ، فكانت أكبر من الشَّيْخ أبي إسحاق ، وكانت من العابدات الزَّاهدات ، وكان يُعظِّم قدرها ويحقر نفسه عندها في العبادة ، وكان أبو إسحاق إبن جارية ، فكان إذا ازدحم عليه النّاس يقول : كانت أمّي - رحمها الله - خادمًا ثمنها كذا وكذا ، يذكر ثمنًا قليلاً.

وكان الشَّيْخ أبو إسحاق يؤثر [أبا بكر][143] مسرّة في العلم لفضله ، ويأمر بالسّماع منه ولده وغيره.

جاءه الشَّيْخ عطية الصفاقسي بموطّأ مالك ، فسأل الشَّيْخ أبا إسحاق أن يُسْمِعَها

---

140) كذا في المناقب ص 25.

141) قالها إبنه أبو الطاهر ، المناقب ص 26.

142) كذا في ط والمناقب ، وفي ش : «يخل».

143) مسرة بن مسلم بن ربيعة الحضرمي ، من أهل العلم والعبادة (ت. 393/1002 - 1003 م) ترتيب المدارك : 533/4 - 535 نقلاً عن اللبيدي والمالكي ، شجرة النّور الزّكيّة : 97 ، وهو قيرواني له رحلة إلى الشرق أخذ فيها عن جماعة من الأعلام.

له ، فامتنع منه ، وقال : أنا أدلّك على رجل صالح من أهل العلم تسمع منه ، فلبس أبو إسحاق نعله وخرج بين يدي الشَّيْخ عطية ، فتبعه حتى انتهى به إلى قرية عظيمة وكان مَسَرَّة يومئذ بها ، وهي قرية زوجته ، فلمّا دنا أبو إسحاق منها قال : تلك دار الرّجل فاقرئه سلامي ، وانصرف راجعًا ، قال عطية : فدخلت على أبي بكر مَسَرَّة ، فسلّمت عليه ، وأقرأته سلام أبي إسحاق وأخبرته بما قال لي ، فخرج مَسَرَّة ليدركه ففاته / لأنّه كان إذا مشى أسرع حتّى لا يكاد يُدْرَكُ إلاّ بالجري. [143/أ]

وكان أبو بكر مَسَرَّة يُجِلُّ أبا إسحاق ويعرف قدره أيضًا فكان إذا ذَكَرَ أبا إسحاق بعد موته بكى بكاء شديدًا ويقول : كان والله مقدّمًا علينا في صغره وكبره ، مع أنّ أبا بكر مسرّة لم يترك من إجتهاده في العبادة ، وكان من البكَّائين على أنفسهم حتّى تستقرّ[144] الدّموع في موضع سجوده ويسقط من قيامه فيتهشَّم وجهه ، واجتمعا بقرية لبيدة[145] للصّلاة على جنازة سليمان بن يزيد بن أخي مَسَرَّة ، وكان صالحًا ، فقدم مسرة أبا إسحاق للصّلاة مع أنّ مسرّة وليّ الجنازة ، فلمّا فرغا من الدّفن جرى بينهما حديث ودعاء ثمّ افترقا على دعاء ، وتوادعا وتصافحا ، فما اجتمعا بعدها حتّى مات أبو إسحاق ، فأقام بعده مسرّة ثلاث سنين – رحمة الله عليهما – .

وقال أحد أولاد أبي إسحاق : ضاق بنا الحال فلم نجد قوتًا ، وكنت جمعت سمارًا وعملت منه مصلية[146] بعتها بنصف درهم ثمّ عرضته عليه ، فقال : حتّى أسأل أبا عبد الله بن سهلون ، وبين صفاقس وابن سهلون نحو من يوم ، فتوجّه إليه فسأله ، قال : ولطف الله بنا من بعده في شيء أكلناه ، فرجع من عند إبن سهلون ، وكشف عن الأرض التي جمع منها السمار ، فوجدها غير طيّبة ، فتصدّق بنصف الدّرهم ، وكان إذا فرغ قوته يقول :

[البسيط]

مالي بلادُ ولا استطرفت من نَشَب ... ولا أؤمّل غير الله من أحد
إنَّ القَنوع بفضل الله يمنعني ... من التَّعرُض للمَنَّانة النُّكُدِ / [143/ب]
إني لأكرمُ وجهي أن أُعَرّضه ... عند السّؤال لغير الواحد الصَّمَدِ

144) في الأصول : «يستقر».

145) قال عنها الحميري : إنها قرية من قرى القيروان ص 508 . وذكرها التّجاني وعَدَّها من منازل صفاقس . ورسمها عنده «لبيدى» ، إذ قال : «كذا تحقّقتها وسمَّاها الرّشاطي : «لبيدة» وينتسب إليها الفقيه الصالح عبد الرّحْمَان بن محمد الحضرمي اللبيدي». الرّحلة ص 83.

146) ما يصلّى عليه . وهي المعروفة عندنا بالسّجادة.

وإذا هدأت العيون في جوف الليل يقول :

[الوافر]

إلى كم أنت في بحرِ الخطايا تُبـــارز من يراك ولا تَراهُ
وسَمْتُكَ سمتُ ذي ورع وزهدٍ وفعلك فعـــل متَّبـــعٍ هَواهُ
أيا من بات مرتكبَ المعاصي وعينُ الله شاهــــــدة تراه
أتطمــع أن تنـال العفو ممن عَصَيْتَ وأنت لم تَبْلُـغْ رضاه
فتب قبل الممات وقبل يوم يُلاقِي العبد ما كسبت يداه

وكان بمرسى أنشلة شيخ يختلف إلى المنستير في كلّ عام ، فإذا رجع مَرَّ بالجبنياني فيقول له : أخوك أبو الحسن الكانشى يقرئك السّلام ، فيقول له أبو إسحاق : أنت في ثغر فأولى بك سدّ ثغرك ، فلا تدعه وتمشي إلى المنستير ، قال : فأتاه مرّة فقال له مثل ذلك ، فقال له الرّجل : قد عرفت بما قلت لي أبا الحسن ، فقال : قل لأبي إسحاق : انتهاني عن ذلك وأنت تعرف أنّ المنستير باب من أبواب الجنّة ؟ فقال أبو إسحاق : قل له : يا أبا الحسن قد جاء في الخبر أن ما بين مصراعي باب الجنّة كما بين المشرق والمغرب[147] ، فنحن إن شاء الله تعالى بين مصراعي الباب ، ليس المنستير وحدها مخصوصة بذلك.

ومن خاصة إخوانه الذين يزورهم سيدي مروان ، وهو الشّيخ الصّالح ، كان يسكن بشريانة[148] إلى جانب سوق بدرنة ، وكان مشتهرًا بالعبادة فهلكت له إبنة ، فصلّى عليها الشّيخ أبو إسحاق ، فانصرف كلّ من بالسُّوق إلى الصّلاة خلفه ، وكان معه كبار الموضع وغيرهم[149] / ممّن على السّنّة[150] ، فرفع الأمر إلى السلطان معد ، [144/أ] واشتهرت عنده[151] المسألة ، وقيل [له][152] إنه مطاع[153] ، فأمر بالبريد فخرجت لتأتي به ،

147) جاء في الحديث : «إنّ ما بين مصراعين في الجنّة مسيرة أربعين سنة ، ذكره السيوطي في الجامع الصّغير ورمز لحسنه وذكر أنّه أخرجه الإمام أحمد في المسند وأبو يعلى في مسنده عن أبي سعيد الخدري» (أنظر فيض القدير للمناوي 519/2).

148) بكسر الشين المعجمة وسكون الراء المهملة وفتح النون ، من قرى صفاقس من الناحية الشرقية.

149) في الأصول : «وغيره».

150) في المناقب : «الإسلام». ص 36.

151) كذا في ش والمناقب ، وفي ت : «عنه».

152) إضافة من المناقب ص 36.

153) كذا في ش والمناقب ، وفي ت : «استغاض».

فسمع وزراؤه بذلك ، فأتوا حفاة مشاة يقولون : إنّا تحت[154] الهلاك ما ظنّك برجل مجاب الدعوة ، منقطع عن الدّنيا وأهلها؟ فوجّه بردّ البريد ، ثمّ أرسل شيخًا من كتامة معه سبعة في زي نُسّاك ليحبسوا اخوانه[155] ، فنزلوا في زي زوّار عند الشّيْخ عيشون بن يزيد ، وكان من الفُضَلاَء ، القوّام الصوّام ويطعم الطعام. فاختفى الشّيْخ الكتامي في المسجد خلف حصير كان في مؤخره ، فلمّا جاء الشّيْخ أبو إسحاق أذّن بالمغرب وأقام وصلّى ، فخرج الكتامي من وراء الحصير فقال للشّيْخ : يا منافق على مولاي ألا تؤذّن حيّ على خير العمل ولا[156] تقرأ باسم الله الرّحمان الرّحيم ، ولا تسلّم على النّاحيتين ، ما لمولانا عدوّ مثلك ، فدعا عليه وقال : اللهم اجعله آية للعالمين ، فطارت عيناه ، فما خرج إلاّ بقائد وهو يقول : الموت الموت مع هذا الشّيْخ ، لا تَقْرَبُوه ، فانصرف هو وأصحابه إلى معد فارتاع وقال لوزرائه : ألم تروا كيف بدر منه فينا بادر!

ووقف عليه رجل فقال للشّيْخ : عندي دعاء إبراهيم – عليه السّلام – الذي دعا به حين أُلْقِي في النّار ، ودعاء يونس – عليه السّلام – حين التقمه الحوت ، فقال له الشّيْخ : إذا كنت تدعو بدعاء الأنبياء وتفعل فعل الفراعنة فمن تخادع؟

وكان رجل بالسّاحل يقال له نصير / صاحب خبر السّلطان ، وكان مارقًا معلنًا ، [144/ب] فمرّ بالشّيخ وهو يؤذّن ، وهو راكب على فرس ، فقال للشّيْخ : يا منافق كم تضل النّاس وتصدّهم عن دعوة مولانا ، فلمّا قضى الشّيْخ أذانه قال له : أذلّك الله يا فاسق عاجلاً على يدي من اعتززت به ، فبعث السّلطان إليه بعد ثلاث في أمر نقم[157] عليه ، فضرب خمسمائة سوط وصلب حيًّا ، (فكان بعد ذلك يقول : دواء مجرّب ، من أحبّ أن يضرب خمسمائة [سوط][158] ويصلب حيًّا فليسبّ[159] الجبنياني)[160].

ومن أصحاب الشّيْخ أبي إسحاق الشّيْخ عيسى بن ثابت.

---

154) في المناقب : «أنّا نخشى الهلاك».

155) في بعض نسخ المناقب : «أحواله».

156) كذا بالأصول ، والمناقب ص 36 ، والشيعة الإسماعيلية يقرؤونها في الصّلاة ، وجرت مناظرات وخلاف في ذلك بينهم وبين المالكية.

157) في بعض نسخ المناقب : «يقيمه» ، هامش ص 40.

158) إضافة من المناقب.

159) في ش : «فيسب».

160) ما بين القوسين ساقط من ت.

قال الشّيْخ أبو القاسم اللبيدي[161] : بتّ ليلة عنده فسمعته وقد طلع إلى فراشه وهو يبكي ، وزوجته تعذله[162] وتقول له : تبكي تصلّي ، وتبكي تمشي[163] وتبكي في فراشك أيضًا ، فقال لها : ولم لا أبكي؟ والله لا بكى أحد على ذنوبي غيري أبدًا ، ثمّ غلبته العبرة ، فترك النّوم وأحيى ليلته.

وكان مجاب الدّعوة ، واجتمع بالشّيْخ [أبي] محمّد بن أبي زيد فجرى[164] بينهما بكاء شديد وذكر ، فلمّا أراد فراقه قال له عيسى : أحبّ أن أكتب إسمي في البساط الذي تحتك ، فإذا رأيته دعوت لي ، فبكى أبو محمّد وقال : قال الله تعالى ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[165] فهذه دعوتي لك ، فأين عمل صالح يرفعه؟ وكذا إجتمع بأبي الحسن القابسي ، فتذاكرا وبكيا حتّى سقط كلّ واحد منهما على ظهره ، فما اجتمعا بعدها.

وجعل[166] على نفسه بعد موت أبي إسحاق / أن لا يمرّ بناحية جبنيانة وما قاربها [145/أ] إلاّ زار قبره[167] ، قال : فزرته يوم الجمعة فدعوت له ، ثمّ عرض لي أمر يوم السّبت فمررت بالموضع فلم أزره وقلت : بالأمس كنت عنده ، قال : فنمت فرأيته في المنام ، فقال لي : يا أبا موسى : ما أقلّ الوفاء ، تمرّ قريبًا من قبري فلا تقف عليه ، وتقول قد زرته بالأمس! فلم يترك زيارته حتّى مات.

وكان الشّيْخ عيسى هذا – رحمه الله – كثير قيام الليل ولا ينام إلاّ قليلاً ، وربّما غلبته الخشية ، فسقط على[168] الأرض على وجهه من قيامه للصلاة فيخدش وجهه.

وكان أكثر أصحاب الشّيْخ أبي إسحاق فضلاء أجلاّء. فمن أصحابه أبو جعفر أحمد بن عيشون البكّاء ، كان بكى حتّى ذهبت أشفار عينيه واتخذ الدّمع في خدّيه أخدودًا ، وكان كثيرًا ما يسكن بقصر زياد ، فيسكن في بيت في جوف المسجد ، فيغلق

---

161) المناقب ص 41

162) في الأصول . «تعزله».

163) في المناقب : «كم تبكي . تصلي وتبكي ، وتمشي وتبكي...».

164) في س ، وت : «فجرًا».

165) سورة فاطر : 10

166) أي عيسى بن ثابت

167) مقام أبي إسحاق حيث قبره مشهور في هذه البلدة ، ومزار أهل هذه المنطقة وغيرها إلى اليوم.

168) في الأصول والمناقب ص 42 : «في»

باب المسجد وباب البيت إرادة أن لا يسمع قراءته أحد ، وكان حزين القراءة إذا قرأ ترك أهل الأحزاب أحزابهم وبكوا لبكائه ، حتّى تصير كأنّها مناحة.

ومن خيار الشَّيْخ أبي إسحاق عيشون بن يزيد ، وأبو بكر بن داوود ، كان عيشون كثير التلاوة والخشية وإطعام الطّعام وإحياء الليل والنّاس نيام ، مجاب الدّعوة.

قال عيشون – رحمه الله – خرج زيان الصقلي من المهدية ومعه ثلاثمائة فارس حتى وصل جبنيانة ، وافترقت خيله في تلك المنازل حولها ، وجاء إلى مسجد الشَّيْخ وأمرهم أن يفرشوا له في ظله فنام في صحن المسجد ، فذبحنا له ولرجاله / أرخة[169] وغنمًا ، ثمّ [145/ب] دخلنا على الشَّيْخ وقلنا له : هذا الظَّالم في مسجدك ، فقال : أظننتم أنّي أترك الصلاة في المسجد؟ فلمّا كان وقت الصّلاة خرج ، وكان يبتدئ الأذان من باب داره ، فلا يصل إلى المسجد حتّى يتمّ الأذان ، فكان كلّ من يسمع الأذان تدخل قلبه خشية عظيمة ، فلمّا سمع زَيَّان أذانه جلس متّكئًا على يديه ، فلمّا فرغ الشَّيْخ أذانه دخل المسجد ، فركع ثمّ جاء إلى زيان فجعل يديه على كتفي زيان وقال له : يا ظالم يا غلام الظالم ، توضّأ وصلّ ، فقال زيّان : نعم ! ودخل أبو إسحاق المسجد ، فأمرهم زيان أن يشدوا له على دابته ، وركب بلا عمامة ولا خف ولا سراويل ، وقال لخيله : والله لا أقام واحد منكم في هذا المنزل ، فقال له رجاله : نفعل بهذا ونصنع ، فقال لهم : اسكتوا فوالله لولا أنّه رفع يديه عن كتفي ما غرقت إلاّ في الأرض ، وكان زيان طويلاً سمينًا.

قال الشَّيْخ أبو القاسم[170] : دخلت على الشَّيْخ عيشون قبل موته بأيَّامٍ يسيرة ، وهو مريض ، وحبل معلّق من السّقف عند رأسه ، فسألت إبنه إبراهيم عن الحبل ، فقال : يتعلّق به بالليل ويصلّي.

وكان قلّما ينزع ثوبه للنوم ولا ينام إلا مغلوبًا.

وكان يكثر من قول : لا يأتي بالخير إلاّ الله ، لا يذهب السّوء إلاّ الله ، لا حول ولا قوّة إلاّ بالله ، لا يكاد يزول ذلك من لسانه.

قالت زوجته : ما نام معي على فراش قط ، فإذا كان منه ما يكون من الرّجال مع نسائهم إغتسل وأحيى ليلته.

---

169) كذا في المناقب ، والأرخة هي العجلة الصغيرة في اللهجة الدارجة.

170) اللبيدي في المناقب ص 43.

ولمّا أيقن بالموت / قال : أخْرِجُوني إلى المَكان الذي أجيبت فيه دعوتي أدعو [146/أ] فيه ، وذكر أنّ النّاس كانوا يأتمنونه فأودعوه حليًا ومتاعًا فعمل اللصوص على قصره فأتوا بالشّموع والسلالم وطلعوا ففتحوا باب القصر فخلصوا ما في القصر ، ولمّا نزلوا قطعوا علي صلاتي وقالوا : هات ما كان عندك من وداعة . فقلت : ما شاء الله ، لا قوة إلاّ بالله ، لا يأتي بالخير إلاّ الله ، لا يُذهب السّوء إلاّ الله ، لا حول ولا قوّة إلاّ بالله ، فنزعوا ثيابي وتركوني في مئزر ، وقالوا : يخرج من كلّ طائفة رجل يقتلونه في مرّة ، فوقف ستّة نفر في ناحية ، وستّة من ناحية ورفعوا سيوفهم ليقتلونني ، فلمّا أيقنت بالهلاك رفعت رأسي تحت ظلال السّيوف إلى السّماء ، فقلت : يا غياث المستغيثين أغثني ، فوقعوا على ظهورهم وطارت سيوفهم من أيديهم ، ونظرت إلى نفسي قائمًا في أعلى القصر لا أدري والله كيف رفعت وخرجوا هاربين.

ومن أصحاب الشّيْخ أبي إسحاق محمد بن يزيد أخي مسرّة بن مسلم ، فكان من الصّالحين المجتهدين في الدّعَاء الشاكرين ، كان يخفي الذّكر. وكان الشّيْخ أبي زيد يوجّه إليه بالدعاء لما ثبت عنده من فضله ، وكذا الشّيْخ القابسي.

وكان نبت في ساق الشّيْخ أبي إسحاق نبت ، فقال له محمّد بن يزيد : داوه رحمك الله حتّى يطيب . فقال له : بماذا؟ فقال : بأغثاء البقر يسخن مع الزّيت ويلصق به يطيب ، قال أبو إسحاق : هل عندك من بقر؟ فقال : لا . قال : هل تعلم بقرا أصله من حلال؟ قال له : / عند علي بن عيشون ، قال : قد مات وترك ورثة فيهم[171] أطفال [146/ب] من لنا بهذا.

ومات محمّد بن يزيد هذا في السّجود ، قرأ سورة «ق» وسجد ، فَقُبِضَ في السّجود وهو من أهل قرية لَبيدة ، حضر جنازته قوم برؤيا رآها رجل صالح ، نام بعد صلاة الفجر يوم موته قال : رأيت سليم بن عزوز كان رجلاً استشهد بقتله ظلمًا وكأنّه راكب فرس ، فقلت له : أين تريد؟ فقال لي : نحن جماعة الشّهداء مع عمر بن عبد العزيز ، أذن لنا في حضور جنازة الرّجل الصّالح محمّد بن يزيد ، يدفن اليوم بعد صلاة الظّهر بقرية لبيدة ، فقال جيرانه : فلمّا أخبرنا بالرّؤيا قلنا له : نمضي ، فإن كان حيًّا زرناه وإن صدقت رؤياك صَلَّيْنَا عليه ، فأدركوا الصّلاة عليه وموضعهم بعيد.

ولم يخلّف محمّد بن يزيد إلاّ ثيابه الّتي كان يلبسها ، فكُفِّنَ فيها ، وصلّى عليه

---

171) في ش : «فهم» ، وبقية الأصول تتّفق مع المناقب.

الشّيْخ الجليل أبو حفص عمر بن مثنى[172] وكان من العلماء بالقرآن[173] ، يجيد[174] رواية ورش وكان مقدامًا في الإعراب ومعرفة النّاسخ والمنسوخ والخاص والعام ، والأحكام والتّفسير والعربية والحساب ، والفرائض والفقه ، وكان منقطعًا في العبادة ، كان أبو محمّد الصدَفي يقول : ما رأيت في إفريقية[175] أعلم منه ، لزم بعد وفاة مسرّة بن مسلم سكنى قصر زياد ، يؤم فيه ويطلب النّاس عليه.

وكان ضَحِكُه التبسّم ولا يتكلّم فيما لا يعنيه ، إنما يجلس لقراءة القرآن أو لمذاكرة في علم أو لانتظار الصّلاة أو للذّكر ، وكان من أعلم النّاس بالوثائق والشروط والبلاغة في التّرسّل ، وكان من جلّة أصحاب عيسى بن مسكين ، / مات وتركه صغيرًا ، فَرَبَّاهُ الشَّيْخ [147/أ] الجليل الفاضل أبو الحارث ليث بن محمّد بن صفوان ، وكان ليث هذا من الفقهاء ، وكان منقطعًا في الزّهادة والإنزواء عن النّاس متبَتِّلا بقصر زياد ، فإذا كثر النّاس عليه هرب.

ومن أصحاب عمر بن مثنى حمدون بن مجاهد ، قال عمر بن مثنى : إذا انصرف حمدون بن مجاهد من المحراب وجد موضع سجوده مبتلاً بدموعه ، ولقد صَلّى بنا القيام ليلة سبع[176] وعشرين من رمضان فبكى وأبكى ، وتاب في تلك الليلة على يديه ممّن شرب[177] المسكر ومن غير ذلك نحو من سبعين رجلاً.

وكان حمدون مشتهرًا بالعلم. روى عنه أهل مصر وأهل المغرب ولا يكتب إلاّ ما يفهم ، ويعجم كل مشكل. قال مسرّة بن مسلم : قال لي حمدون : كتبت بيدي ثلاثة آلاف كتاب ونيفا ، ولعلّ الكتاب الذي أدخل به الجنّة ما كَتَبْتُه بعد ، وكان يحب نشر العلم وإذاعته.

وكان أبو حفص عمر بن مثنى من خاصة أبي إسحاق الجبنياني ، وكان ينبسط معه ما لا ينبسط مع غيره ، فقال للشّيْخ يومًا : إلى جانبي قوم يقال لهم بنو قراضة يتشيّعون ولا يسبّون أحدًا ، ولا يخالفون في صلاة ولا زكاة ولا صيام ، فما ترى في السّلام عليهم

---

(172) له ترجمة في ترتيب المدارك 627/4.

(173) في المناقب : «بالقراءة».

(174) في الأصول وبعض نسخ المناقب : «يجود».

(175) في المناقب : «في خارج إفريقية» ، ص 45.

(176) في الأصول : «سبعة».

(177) في المناقب : «يشرب» ، ص 46.

ومخالطتهم ، فقال له الشّيخ أبو إسحاق : سلهم من أفضل : أبو بكر وعمر أو علي؟ فقال : يقولون عليّا أفضل ، فقال الشّيخ : لا توادهم ولا تسلّم عليهم ولا تناكحهم ، فإنّ من فضّل عليّا على أبي بكر وعمر فقد أزرى باثني عشر ألف صحابي صحبوا رسول الله ﷺ لأنّه ﷺ مات وبالمدينة وما حولها ممّن آمن به وصحبه / نحو إثني عشر ألف ، [147/ب] كلّهم إتفقوا على ولاية أبي بكر وعمر وتفضيلهما – رضي الله تعالى عنهم أجمعين – ، فمن أزرى بواحد منهم هلك ، فكيف بمن خالفهم وأزرى بهم أجمعين؟ والصّحابة – رضي الله تعالى عنهم – لا يجتمعون على ضلالة ، فمن نسب إليهم أو إلى أحد منهم ظلمًا أو ضلالاً فهو الظّالم المضلّ ، وهم الهداة الأئمّة الرّاشدون.

وقال أبو حفص عمر بن مثنى : كلّ من أدركت بهذا السّاحل من عالم أو عابد كان يستتر وينزوي بدينه من بني عبيد إلّا أبا إسحاق ، فإنّه بائن ، ووثق بالله ، فلم يُسَلِّمْه ، ومسك به قلوب المؤمنين ، وأعزّ به الدّين وهَيَّبَهُ في عيون المارقين.

وأخبر أبو حفص عمر بن مثنى عن محمّد بن عبد الرّحيم بن علي بن أخي عبد الرّحيم إبن عبد ربّه الزّاهد أن محمّد بن سحنون أتى بعد موت سحنون هو وأصحابه زائرين إلى عبد الرّحيم بن عبد ربّه الزّاهد ، فسلّم عليه ، فردّ عليه السّلام ، وتركه جالسًا حيث بلغ به المجلس ولم يُقْبِل عليه حتّى انصرف ، فلمّا كانت الجمعة الآتية إستنهض إبن سحنون أصحابه في الرّجوع إلى عبد الرّحيم ، فقالوا له : رأيناه لم يقبل عليك ، فقال لهم : ليس هذه بغيتي ، هو رجل صالح تُرْجَى بركته وبركة دعائه ، وقد كان سحنون يأتيه ويتبرك بدعائه ويلجأ إليه في المهمّات من الأمور ، فعاد إبن سحنون وأصحابه إلى عبد الرّحيم فلمّا رآه قام له على رجليه وأجلسه في موضعه ، ولم يزل مقبلاً عليه حتّى انصرف. فرجع إليه بعض أصحاب إبن سحنون فقال له : أصلحك الله رأينا فيك عجبا ، فقال له : وما هو / يا ابن أخي؟ قال : أتاك إبن سحنون تلك الجمعة ، فلم تُقْبِل [148/أ] عليه ، ثمّ أتاك اليوم فأقبلت عليه. فقال عبد الرّحيم : والله ما أردت بذلك إلاّ وجه الله ، رأيت إجتماع النّاس حوله فخفت عليه الفتنة ، فعملت ما عملت لأحزنه ، فرأيت اللّيلة المقبلة قائلاً يقول لي : ما لك لم تقبل على إبن سحنون وهو ممّن يخشى الله؟ فكان منّي ما رأيت.

ومن أصحاب الشّيخ أبي إسحاق الشّيخ أبو زكرياء يحيى ، ويعرف بابن المزيدي كان في سبيله ، فكُتِبَ في جملة البحريين. فرُفِع إلى المهدية. فوجّه إلى الشّيخ أبي إسحاق وعرّفه أنّ الوقت وقت إستعانة ، وتَعَرَّفَ إلى أين يذهبون ، قال : فوصلوا بي عند

الغروب وأُدْخلت دار الصّناعة فوجدت بها خلقًا كثيرًا ، كلّهم على المعاصي والفسوق لا يذكرون الله إلاّ قليلاً ، فانزويت خلف مركب فصلّيت سرًّا لأنّي ما رأيت أحدًا منهم يتوضّأ ولا يصلّي ، فبقيت إلى الغد ضحى ، فنودي بي ، فقال لي صاحب الصِّنَاعة : أنت صاحب الجبنياني؟ قلت له : نعم. قال : إنصرف وها أنا محوت إسمك من الدّفتر ، قلت : من سأل في؟ قال : أتاني رجل راكب على فرس له هيبة ، سألني فيك ، والله ما رأيته قبلها ، ولا أعرف من هو ، قال : فمضيت فأتيت أهلي ليلاً ، فسألت إبني متى مضيت إلى أبي إسحاق ، فعرفني أنّه ضحوة في حين أطلعت من الصنعة ، فقلت لابني : كيف كان دعاؤه؟ قال : لما أخبرته توضّأ وقام يصلّي ، وقد أغلق على نفسه باب المسجد ، وكنت أسمعه وهو يبكي / ويقول : اللهم ، السّاعة السّاعة فكّ أسره وأنقذه من يد عدوه ، ولا [148/ب] تجعل لهم عليه سبيلاً ونحو هذا من الدعاء ، قال : فأتيت الشّيْخ وأخبرته ، فقال : احمد الله فأنت مضطرّ وقد أجيبت دعوتك ، ولكن أعرف كيف تستقبل نعمة ربّك ، فاعتزل أبو زكرياء هذا ولزم العبادة بمرسى اللوزة ، وكان يسرد الصَّوْم ويصيد بيده من البحر لقوته ويتصدّق منه حتّى جرت له قصّة في آخر عمره فكتمها ، وهي : أن سَلاَّبة نزلوا عليه في مرسى اللوزة بشماع[178] ففتحوا الباب ، ثمّ قسموا بيوت المرابطين فانتهبوا ما كان فيها حتّى أتوا إلى بيت أبي زكرياء ، فوجدوه قائمًا في الصّلاة وسراجه يوقد ، وهو يصلّي ، فقطعوا صلاته وقالوا له : هات ما عندك من الودائع وإلاّ عذّبناك ، فقال : إتّقوا الله ولا يغرّنّكم حلمه فيكم ، ولا تتّبعوا الشّيطان ، فقال بعضهم لبعض : هذا لا يجيئكم منه شيء إلاّ بالعذاب ، قال : فجاءوا إليّ بخيط قنب[179] ورفعوا مئزري ليلقوه في أنثيي[180] فلمّا رأيت البلاء قد نزل رفعت عيني إلى السّماء وأنا أبكي وأتَضَرَّعُ فقلت : إلاهي ، ما هذا ظنّي بك ، أعبدك لا أشرك بك شيئًا تسعين سنة ، فتهتك ستري وتفضحني في آخر عمري ، لا وعزتك ما هذا ظنّي بك ، قال : فسقط الخيط من أيديهم وولوا هاربين ما أخذوا من البيت شيئًا ، فقلت : اللهم لا تبق[181] على الأرض منهم أحدًا ! فما أتى عليهم ثلاثون يومًا حتى قتلوا كلّهم ، ومات أبو زكرياء وقد بلغ المائة.

---

178) كذا كتبها اللبيدي وكتبها المؤلّف فيا سبق : شموع وهو الصّواب.

179) في بقية الأصول والمناقب : «قرنب».

180) كذا بالأصول وبعض نسخ المناقب ، وفي أخرى : «انثاي» ، وفي تاج العروس 600/1 : «تحت الأذنين».

181) في الأصول وبعض نسخ المناقب : «تبقى» ، هامش 9 ص 52.

ومن أصحاب الشّيخ أبي إسحاق موسى المعلّم كان / مشهورًا بالعبادة وممّن كان [149/أ] سكن قصر زياد في آخر عمره وبه مات ، وكان كتب أسماء إخوانه ليخصّهم بالدّعاء عنده غدوة وعشية ثمّ يدعو لسَائِرِ المسلمين.

وكان إذا سمع بامرأة فقيرة أرمل لا مال لها ولا جمال ، ولها أطفال فقراء ، تزوجها ليربي أطفالها ، فاذا زوجهم وقاموا بأنفسهم فارق أمهم. حكى بعض أيتام تزوج أمهم أنّه قال : تزوّج أمّي وكانت لا مال لها ولا جمال ولا خلق حسن ، وكانت تعاتبه على كثرة صلاته تقول له : كم تصلّي ولا تسأل عن شيء ، فيقول : ما جئت رغبة فيك ، إنّما جئت رغبة في هذه الأيتام ، قال : فزوَّج أختي وأدخلها على زوجها ، وعلّمني القرآن وجعلني عند من يعلّمني النجارة ، فلمّا اكتفينا فارق أمّي فبكت عليه ، فقال لها : ما يبكيك؟ ما كنت راغبًا فيك ، فما لك في فائدة ، الذي قصدت إليه قد وفّقه الله لي ، يريد كفالة الأيتام.

ومن أصحاب الشّيخ أبي إسحاق الفضلاء عبد الله بن صالح ، إختفى فلم يعلم به إلاّ بعد دهر طويل ، وقد صار كَشن قد تَقَطَّع ، وليس في بيته غطاء ولا وطاء إلاّ قطعة تَلِيس على ظهره ، وقطعة في وسطه ، وقطعة من حصير أسود تحته ، وقد اتّخذت الدّموع في خدّيه أخدودًا ، وله أخت متعبّدة ، ماتا في يوم واحد ، وسبب انقطاعه عن النّاس أنّه شَهَّر بصحبة أبي إسحاق فهرب ، وكان من النّصحاء الفصحاء الدّعاة إلى الله تعالى.

ومن أصحاب / الشّيخ أبي إسحاق أبو عبد الله [محمد] بن أبي العبّاس المؤدّب [149/ب] يعرف بابن قَشّاش(182) كان من العبّاد الصّالحين ومن أهل العلم ، فكان أبو إسحاق يعرف حقّه ويقرّبه ، وكان إلى جانب أبي عبد الله عين تسمّى عين العافية ، إفتتن بها العامّة يأتونها من الآفاق ، من تعذّر عليها نكاح أو ولد قالت : أمضوا بي إلى عين العافية. قال أبو عبد الله المذكور : فأنا في سحر ليلة سمعت أذان أبي اسحاق الجبنياني نحو العين فخرجت فوجدته قد هدّمها ، وأذّن للصّبح عليها ، ثمّ قال : اللهم إني قد هدمتها لك ، فلا ترفع لها رأسًا ، فكان كما قال ، ثمّ مشيت معه فأتاه قوم من خدّام السّلطان يُنْسَبون إلى الاعتزال ، فسلّموا عليه ، وعليهم ثياب جدد ، فنزلوا عن خيولهم للسّلام عليه فاعترض لنا كلب فرجمه إنسان عنّا(183) فقال له الشّيخ : دعه ، فلعلّه خير

---

182) هو كذلك في مناقب اللبيدي وعرف به ص 54 – 55 ، وهو فيما يبدو قريب إبراهيم بن أحمد بن أبي قشاش ، من أهل صفاقس ، الفقيه الزاهد ، له ترجمة في رياض النفوس 2/201 – 202.

183) في المناقب : «انسان منا» ، ص 54.

ممّن يتقرقع عليه ثيابه ؛ فلمّا سمعوا مقالته هربوا ، وكانوا من بني نافد ، وكان منهم ومن آبائهم وزراء وكبراء لبني الأغلب ولمن بعدهم.

قال أبو عبد الله المذكور عرفني بعض شيوخنا أنّ أبا العبّاس أحمد بن نافد ، وزير بني الأغلب ، منهم ، وكان رجلاً على السّنّة ، وكان له إبن عمّ على البدعة ، فبنى كل واحد منهما قصرًا وجعل حوله بستانًا بقرية بِلْيانة ، فأمّا أبو العباس فإنّه لمّا أكمل قصره وعُمِلَت له قبة عجيبة على باب قصره قال : ما تمنّيت إلاّ سماع العلم / فيها على سحنون بن [150/أ] سعيد ، وكان إبن عمّه مباينًا بعداوة أهل السّنّة ، فخرج سحنون بن سعيد من قريته يريد قصر زياد لزيارة عبد الرَّحيم المستجاب ، فترك الطريق وأخذ غير الجادة فظنّ أصحابه أنّه غلط حتّى قرب من قصر أبي العبّاس بن نافد الوزير ، فقال : إذا صرنا هاهنا فلا بدّ من زيارة أبي العبّاس ، فأُخْبِرَ أبو العبّاس ، فخرج للقاء سحنون مع أصحابه راجلاً فَسَلَّم عليهم ، فقال له سحنون : نحبّ أن نرى هذا القصر وهذه القبّة ، فمشى معهم فيه ، ثمّ جلسوا في القبّة ودعا سحنون بالبركة ، ثمّ قال سحنون لأصحابه : أي شيء في أيديكم تسمعون؟ فقالوا له : كتاب الحجّ الأوّل من موطّأ إبن وهب ، فقال : اقرؤوا ، فسمعوه عليه في القبّة التي تمنّى أبو العبّاس ذلك فيها ، ثمّ نهض سحنون ومن معه إلى قصر زياد فتقوّت بذلك نية أبي العبّاس في المذهب ونُصْرَة أهله ، وكان نصرة لمن يُظْلَم من أهل السّنّة بعد ذلك اليوم. فلمّا أُخْبِرَ أبو الحسن القابسي قال : هكذا يفعل من كان إمامًا داعيًا إلى الله تعالى.

ومن أصحاب الشّيخ أبي إسحاق العالم العابد أبو عبد الله محمّد بن محمّد الطّومَشي ، كان من أهل الرّواية الواسعة ، روى عنه خلق كثير ، وكان زاهدًا ورعًا ، لا يتكلّم عنده أحد في أحد من النّاس ، وكان يقول : إني لأرجو أن ألقى الله وما اغتيب عندي أحد قط ، وكان مجاب الدّعوة ، وربّما نزل به ما يبلى به المؤمنون ، فما يلجأ إلى أحد من المخلوقين ، بل يستقبل / القبلة ، فربّما قام اليومين بلياليها لا يبرح عن القبلة ، [150/ب] ولا يخرج إلّا لما لا بدّ منه حتّى تقضى حاجته ، فأُعْجِبَ بذلك أبو الحسن القابسي ، وقد سقطت [أشفار][184] عينية من البكاء والنّحيب ويهرب من مكان إلى مكان ، وكان أمير قريته على غير مذهبه ، وصاحب المرسى يعافيه من المظالم فلقيه يومًا فطلب كلمة

184) إضافة من المناقب ، ص 56.

يقولها له ترضيه ولا تسخط الله تعالى فوجدها ودعا له بها وهي : تولّى الله عنّا مكافأتك فيما ولّيت ، وأراد بها الدّعاء عليه ، ففرح وظنّ أنه دعا له ونجا بها منه.

وكان استنسخ[185] من الشّيخ أبي إسحاق كتابًا فيه رقائق وحكايات ، فقال لعبد الرحمان إبن الشّيخ أبي إسحاق : لعلنا نلاطف الشّيخ ، أنا وأنت ، لنسمع الكتاب عليه ، قال : فجئنا إلى الشّيخ فقلنا له : أصلحك الله نقابل هذا الكتاب بين يديك ، قال : إفعلا ، فلما أخذنا في المقابلة قلت له : أصلحك الله على من قرأته وعَمَّن رويته؟ فأخذ الكتاب من يدي وقال لي : إنصرف ، فقلت له : أصلحك الله ، لو ترك العلماء الرواية لانقطع العلم ، وأنت تعلم ما جاء في الحديث فيمن كتم علمًا عَلِمَهُ أنه يلجم بلجام من نار[186] ، فكان من ردّ الشّيخ وهو يبكي : أليس قد جاء في الحديث : «يحمل هذا العلم من كلّ خلف عدوّ له ينفون عنه تحريف القائلين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين» فقلت : نعم ، فقال لي شيخ جبنيانة : ليس بعدل حتّى تنقل شهادته عن رسول الله ﷺ فانصرفت / عنه وأنا أبكي. [151/أ]

ولمّا قدم أبو حامد الخراساني لزيارة أبي إسحاق سَلَّمَ عليه وقال له : جئتك من خراسان زائرًا ، فقال له أبو إسحاق : إن صدقت فأنت أحمق ، وإن قبلت أنا هذا منك فأنا أحمق منك ، كيف تترك العراق ومن به من العلماء ثمّ حَرَمَ الله وَحَرَمَ رسول الله والشّام ومصر ، وتأتي إلى المغرب ، إلى شيخ جبنيانة تقول له هذا؟ فبكى أبو حامد وقال له : لو لم يكن هذا لم آتك. ولمّا انصرف أبو حامد من المغرب قيل له : ما أعجبك ما رأيت بالمغرب؟ قال : رأيت أربعة لم أر[187] مثلهم قطّ ، رأيت أبا الحسن علي بن محمّد بن مسرور الدّبّاغ[188] ، فلم أر أكثر حياء منه[189] ، ورأيت أبا إسحاق

---

185) أي أبو عبد الله محمد الطومشي.

186) يشير إلى الحديث الشريف «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيام بلجام من نار» ، رواه الإمام أحمد في المسند وأصحاب السنن الأربع ، أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة ، والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة ، ورمز السيوطي لصحته. أنظر فيض القدير ، 146/6.

187) ساقطة من ش.

188) هو الفقيه العابد الورع ، له رحلة إلى المشرق (ت. سنة 969/359 – 970) : ترتيب المدارك 525/4 – 528 ، الديباج 98/2 – 99 شجرة النور الزكية : 94 وذكر أنه بقصر أبي الجعد أحد قصور المنستير.

189) قال القابسي : «ما رأيت أكثر حياء من أبي الحسن الدباغ ما يكلمه أحد إلّا احمر لونه ولقد كان أحيا من الأبكار» الديباج.

الشيباني فلم أر أعقل منه[190] ، ورأيت أبا الحسن الكانشي فلم أر أظهر حزنًا منه ، ورأيت أبا إسحاق الجبنياني فلم أر أزهد في الدُّنْيَا منه.

قال الشَّيْخ أبو القاسم اللبيدي[191] : وكان من أصحاب الشَّيْخ جماعة من أهل العلم والعبادة لوْ ذهبت إلى ذكرهم لطال الكتاب.

وأما زوجة الشَّيْخ[192] فكانت في الفضل بمكان مكين ، قيل لها : هل رأيت من الشَّيْخ شيئًا تخبرينا به؟ فسكتت وأبت من القول. فلما مات الشَّيْخ سئلت فقالت : بينما أنا في ليلة مظلمة إذ رأيت نورًا غشى الحجرة والموضع الذي به الشَّيْخ ، وسمعت الحديث ، فرعبت ، وأقام[193] ذلك مدّة ، فأحسّ بي الشَّيْخ وعلم أنّي يقظانة فقال لي : احذري أن تذكري ما رأيت ما دمت حيًّا.

[151/ب] وكان الشَّيْخ أبو / إسحاق يؤخّر الظُّهرين مخالفة للشيعة لأنّهم كانوا يلزمون النّاس بأدائها لأوّل الوقت ، وربّما زاحموا الوقت فخاف الشَّيْخ أن يعتقد وجوب ذلك أو وقوعها قبل وقتها ، واقتدى به أبو الحسن القابسي فكان يؤقّت للظّهرين.

وكان الشَّيْخ محبًّا لآثار الصّالحين وحكاياتهم ، ويكتب ذلك ، وكتب بخطّه على ظهر كتاب الجنائز[194] حكاية يقول : بلغنا أن إبن عباس – رضي الله تعالى عنهما – ضرب يومًا مثلاً للنّاس فقال : خرج رجل من مدينة فنصب فخاخًا نائية عن الطريق وحيدة ، قال : فوقع بين يديه عصفور ، فأنطق الله الفخّ وألهم العصفور ، فقال له العصفور : ما لي أراك نائيًا عن الطّريق؟ فقال : اعتزلت شرار النّاس ، فقال : ما لي أراك منحنيًا؟ قال : نهكتني العبادة ، فقال : ما هذه العصا بين يديك؟ قال : أتوكّأ عليها من طول القيام ، قال : فما هذه الحبّة في فيك؟ قال : أترصّد بها أبناء السّبيل ، قال : وأنا منهم ، قال : فدونك ، فنقر العصفور الحبّة فصارت العصَا في حلقه ، فصاح : غاق غاق والله لا غرّني مُرائي[195] بعدك. قال إبن عبّاس – رضي الله تعالى عنهما – فهذا مثل قراء يكونون في آخر الزّمان.

---

190) ساقطة من ش.

191) المناقب ، ص 60.

192) المناقب ، ص 64.

193) في ش : «قام».

194) أي من المدوّنة ، والكتاب مقصود به الباب.

195) في الأصول : «مزائي».

فلمّا سمع أبو الحسن القابسي هذه الحكاية بكى وقال : ﴿أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾[196] ، وأعوذ بالله من الفتنة في الدِّين ، واتِّبَاع سبيل المفسدين.

قال أبو عبد الله النَّجَّار : مشيت مع أبي إسحاق في فتنة أبي / يزيد الخارجي [152/أ] حتى دخلنا قرية ، فرأينا بعض أعراب أبي يزيد فاختفينا في حجرة في أقصاها حتى دخل فارس منهم بامرأة ذات هيبة وجمال يقودها يراودها عن نفسها ، فلما أحسسنا به لم أستطع أن أمسك أسناني (مما تتقلقل)[197] من الخوف ، وأما أبو إسحاق فوضع خدّه على كفّه وهو يتطلّع إلى السّماء ويدعو ، فنزل الفارس عن فرسه وحلّ سراويله ، وهي تتضرّع إلى الله تعالى أن يتركها ، واستدعى[198] انتشار آلته فما جاءه من نفسه شيء فتركها ، فانصرفت وانصرف ، فخرجنا نمشي بعدما ذهبوا ، فلمّا صرنا في الفحص قلت : يا أبا إسحاق ألا ترى هذا البلاء الذي نزل؟ فقال لي : ما هو يا أحمق؟ قلت له : قتل الأنفس ، وهتك الحريم ، وذهاب الأموال ، وخراب الدّيار ، وقطع السّبيل ، فأقبل علي وهو مغضب ويقول : أين هذا من أن يدعى الله عجلا في الأسواق ، لو خرّت السّماوات على الأرضيين وهلك العباد أجمعون على هذه الكلمة لكان قليلاً ، قال ذلك وهو يبكي ، ثم قال لي : يستعظم الناس هذا ولم يستعظموا أن يجعلوا ربّهم عجلا ، ثم هم يقيمون على البيع والشراء والاغترار بالدّنيا.

فلمّا بلغ ذلك أبا الحسن القابسي بكى بكاء عظيمًا وقال : والله إنّه كما قال الجبنياني ، ولا أدري كيف خلاص العباد من هذه المسألة يوم القيامة إن لم يتغمدهم الله برحمته.

وكانت وفاة الشَّيْخ أبي إسحاق / يوم الأربعاء سابع عشر من المحرّم فاتح سنة تسع [152/ب] وستين وثلاثمائة[199] ودفن شرقي جبنيانة[200].

وجبنيانة من وطن صفاقس الشرقي ، بينها وبين صفاقس مرحلة خفيفة ، فهي من منازل صفاقس الراجعة إليها ، فما ذُكِرَ مع الشَّيْخ من رجال الوطن فكلهم من رجال صفاقس ، فلذا ذكرتهم.

---

196) إقتباس من الآية 67 من سورة البقرة.

197) كذا في الأصول وفي بعض نسخ المناقب ، وفي غيرها : «تتقلقل». «ومما تتقلقل بي».

198) في الأصول : «استدعاء».

199) 14 أوت 979 م.

200) في ت : «هذه جبنيانة».

ولمّا توفّي الشّيْخ أبو إسحاق وجد في رقعة[201] معه، تحت قطعة الحصير الذي تحته، مكتوب بخطّه: رجل وقف به هاتف فقال له: حَسِّنْ عملك فقد دنا أجلك.
قال ولده عبد الرّحمان: كان الشّيْخ إذا قَصَّر في العمل أخرج هذه الرّقعة فنظر إليها ثمّ ردها ورجع إلى الجدّ فيما هو فيه من العبادة.
وما وجد له من الدّنيا قليل ولا كثير إلاّ أمداد شعير في قلّة مكسورة، والحجرة التي كان يسكنها لولده أبي الطّاهر إشتراها بثلاثة دنانير، وما كان له على وجه الأرض [شيء][202] يورث[203].

ترجمة الأديب عبد الله الجبنياني:

وكان ولده أبو الطاهر صالحًا فاضلاً ولأبي الطاهر ولد يسمّى عبد الله[204]، كان أديبًا شاعرًا، ظريفًا، ذكره إبن رشيق في الأنموذج، وأخبر أنّ صفاقس موطنه وأنّ بها منشؤه، وكانت له نباهة ولطافة في جميع أحواله مع نزاهة نفس وعلو همة، قال: واجتمعت به في صفاقس فكنت أقطع الغربة بقربه، ثمّ انفصلت إلى الحضرة فلم يكن إلاّ قليل حتّى اجتاز علينا متوجّهًا إلى الأندلس، فسألته عن سبب ذلك، فأخبرني أنّ عليه دَيْنًا ثقيلاً قد إستغرق ذمّته وأنشدني لنفسه وهو يتمايل وكان / متعلّق[205] القلب [153/أ] بجارية له أم ولد تركها بموضعه.

[وافر]

سأضربُ في بلاد النّـــــاس برًّا ... وبحرًا بـــالسّفـــائِن والرِّكَـــابِ
إلى أن تُنْكِرَ الأحبـــابُ منّي[206] ... ثوابّي بـــالمغـــارب واغترابي[207]
لأَكْسِبَ ثروَةً وأفيـــد مـــالا ... وأُبْلِي عـــذر نفسي في الطّلاب

201) في المناقب: «رق».
202) إضافة من المناقب، ص 69.
203) إنتهى نقله من المناقب، ص 2 – 69.
204) ما يتعلّق بعبد الله نقله من رحلة التجاني ص 81 – 82. الحلل السندسية (نقلاً عن التجاني) 324 – 325.
205) في ط: «معلق».
206) في الأصول: «منا»، والتّصويب من الرّحلة.
207) في الأصول: «الاغتراب».

فــــإن نِلْتُ المراد فـــذاك حسبي　　وإن أحْرَمْ فــــإني ذو احتساب
ومــــــا فــــارقت إخـواني وأهلي　　وما[208] أُحْبِبْتُ إلاّ عن[209] غلاب.

قال : وارتحل فاتّصل بالحاجب الموفّق مجاهد بن عبد الله[210] فأكرمه وعظّمه وأدناه وقرّبه وكشف عنه، فوجد فضلاً وجلالة، فاستمسك به وحُسِدَ على مكانه منه فَوُجِدَ في منزله مذبوحًا وسكّين الأقلام بين يديه مغالطة كأنّه فعل ذلك بنفسه، وبقيت الرّوح فيه، فسألوه من به، فأشار إلى فقيه الموضع، وكان الفقيه المذكور كثير الملازمة [له] وهلك من ساعته، فقال الفقيه : إنّما أشار إليّ بالوصية، فقيد وسجن إلى أن جاء وليّ الدم فطلبه فلم يتوجّه له عليه حقّ[211]، فأطلقه، وكانت وفاة[212] عبد الله المذكور سنة خمس عشرة وأربعمائة[213].

ترجمة الفقيه أبي القاسم عبد الرّحمان اللبيدي :

ومن منازل صفاقس أيضًا قرية لبيدة[214] كما قال الرُّشاطي[215]، وإليها ينسب الفقيه الصالح أبو القاسم عبد الرّحمان بن محمّد الحضرمي اللبيدي[216]، قال إبن شرف في صلته لتاريخ الرّقيق : كان بقية أهل العلم وله تصانيف في الفقه، وبرع في الفتيا، وذكر الرّشاطي أنّ تأليفه المسمّى «بالشّرح والتّفصيل لمسائل المدوّنة» كتاب كبير.

قال في المعالم[217] : / سمع على الشّيخ أبي الحسن القابسي، وأبي محمّد بن أبي [153/ب] زيد، وغيرهما، وسمع منه أبو عبد الله محمّد بن سعدون وغيره من القرويين والأندلسيين،

208) في الرّحلة : «ومن».
209) في الأصول : «من».
210) هو العامري.
211) في ت : «حق أبدًا»، ساقطة من ب.
212) في الأصول : «وفات».
213) 1024 – 1025 م.
214) أنظر رحلة التّجاني، ص 83.
215) بواسطة التّجاني.
216) له ترجمة في رحلة التّجاني 83، الحلل السّندسيّة 325/1، تراجم المؤلّفين التّونسيين 208/4 – 210 وذيّل التّرجمة كعادته بذكر المصادر والمراجع.
217) النّقل من معالم الإيمان زيادة عما في رحلة التّجاني.

ووجهه أبو الحسن القابسي لتفقيه أهل المهدية وامتد عمره بعد اقرانه فحاز رئاسة العلم والتّشيّخ[218] به بالقيروان ، وكان فاضلاً فقيهًا زكيًّا له اعتقاد في الصّالحين يزورهم في السّاحل ويبحث عن مناقبهم وأحوالهم ، وهو الذي ألّف مناقب[219] أبي إسحاق الجبنياني ، وله كتاب في الفقه كبير جمع فيه بين النوادر لأبي محمّد[220] وموطّأ مالك وغيرهما ، فجمع فيه مذهب مالك كله ، وألّف اختصار المدوّنة[221] ، توفّي بالقيروان سنة أربعين وأربعمائة[222] وسنه ثمانون سنة[223] وأنشد لنفسه بعد ما ذكر مناقب الشّيخ أبي إسحاق الجبنياني وأصحابه هذه الأبيات[224] :

[البسيط]

أنت العليُّ وأنت الخالق الباري ... أنت العليم بما تخفيه أَسراري

أنت الغني فما للخلق مَقْدُرة ... في وسع عيش وفي بؤس وإقْتار

تُعْطَى[225] الولاية أقواما فتُلْبسهم ... ثوبَ المهابة محروسًا من العار

تجول في ملكوت العِزِّ أنفسهم ... تبدو مدامعهم خوفًا من النّار

قد أسلموا الأهل والأوطان وارتحلوا ... ما أنْ ترى مثلهم في نازح الدّار

يا طول حزني على تركي لوَصْلِهِمُ ... يا وَيْحَ نفسي على بعدي وإدْباري

لِمْ لاَ أظلّ على الأشجان[226] معتكفا ... أدعو المليك بإفصَاح وإضمارِ

على[227] المليكِ يذودُ النَّفس عن عطب ... يجلو الغَمَاء[228] بتوفيق وأنوارِ

---

218) في ت : «مع التشيخ».

219) حقّقه وترجمه إلى الفرنسية الأستاذ هادي روجي إدريس مع مناقب محرز بن خلف لأبي طاهر الفارسي ، «أطروحة تكميلية» ، من منشورات كلية الآداب بجامعة الجزائر ، باريس 1959.

220) هو إبن أبي زيد القيرواني وهو شيخه ، وهذا الكتاب يعرف بزيادات الأمّهات.

221) ويعرف بالملخّص كما ذكره إبن شرف في صلته لتاريخ الرّقيق ، وذكر الرّشاطي أنّه توفّي سنة ثلاثين وأربعمائة ، أنظر رحلة التّجاني 83.

222) 1048 – 1049 م.

223) فيكون مولده سنة 360/971 م.

224) المناقب ص 70.

225) كذا في بعض نسخ المناقب ، وفي بعض النسخ الأخرى وفي الأصول : «تصفى».

226) كذا بالأصول والمناقب.

227) كذا بالأصول وفي بعض نسخ المناقب ، وفي غيرها : «عسى» ، هامش 14 ص 70.

228) في الأصول : «العمى» ، والتّصويب من المناقب.

ترجمة أبي عمرو عثمان الصّدفي المعروف بابن الضّابط :

[154/أ] ومن علماء صفاقس[229] وشعرائها المتقَدّمين ولم يذكره إبن رشيق / في الأنموذج وهو من المعاصرين له أبو عمرو عثمان بن أبي بكر بن حمّود الصَّدَفي المعروف بابن الضّابط ، الإمام المحدّث الشّاعر ، له رحلة إلى المشرق وأخذ فيها عن جماعة يطول تعدادهم ، منهم الحافظ أبو نُعَيْم ، صحبه باصبهان ، وكتب عنه كثيرًا ، ذكر أنّه كتب عنه بخطّه مائة ألف حديث ، وكان يقول : لم ألق مثل أبي نُعَيْم علمًا وعملاً ، ثمّ توجّه إلى الأندلس سنة ستّ وثلاثين وأربعمائة[230] فأقرأ بها وأخذ عنه علماؤها وأثنوا عليه ، وعاد منها إلى القيروان[231] ، فوجّهه صاحبها الصنهاجي[232] رسولاً إلى القسطنطينية[233] فمات في طريقه إما صادرًا أو واردًا بعد أربعين وأربعمائة[234] ، وذكره أبو عمرو بن الحذّاء[235] في تسمية رجاله الذين التقى بهم ، فقال : قدم علينا طليطلة وسنه نحوا من خمسين سنة ، وكانت له رواية واسعة وكتب كثيرة قد رواها بالعراق وبالشّام والحجاز ومصر ، وتجوّل عندنا بالأندلس نحو عامين ، ثمّ انصرف إلى القيروان ، وكان لي صديقًا وتكررت كتبه إلي من القيروان إلى أن أرسله الصنهاجي إلى القسطنطينية فبلغتنا وفاته .

وذكره الحميدي[236] أيضًا فقال : كان حافظًا عاقلاً ، قرأت عليه كثيرًا وكتبت عنه وأنشدني :

[المتقارب]

إذا مـــا عــدُوّك يومــا سما إلى حاجة[237] لم تُطِقْ نَقْضَهَا

فقبِّـــلْ ولا تَـــأْنَفَنَّ كَفَّـــهُ إذا أنت لم تستطــع عَضَّهَـا

---

229) النقل من رحلة التجاني ص78 .

230) 1044 – 1045 م .

231) في أواخر سنة 438/1047 م .

232) هو المعز بن باديس .

233) هذه المرّة الثّانية التي وجّهه فيها المعزّ بن باديس إلى القسطنطينية .

234) 1049 م .

235) في الأصول : «بن الجواد» ، والتّصويب من الرّحلة ص 79 .

236) في جذوة المقتبس ص 285 – 286 (ط . مصر) 2/387 – 390 .

237) في الرّحلة : «حالة» .

[154/ب] وذكره إبن بشكوال في الصّلة[238] وأثنى عليه وأخبر عنه أنّه قال : / بعث إلي شعراء القيروان ، حين مقامي بها ، منهم : إبن رشيق وابن شرف وابن حجاج والعطار ، يسألونني[239] أن أرسل إليهم بشعري ، فقلت للرّسول : إنه في مسودّاته ، فقال : أحمله كما هو فأخذته وكتبت عليه إرتجالاً ، ثمّ بعثت به.

[المتَقارب]

خَطبْتم[240] بناتي فأرسلتُهُنَّ إليكم عواطلَ من كُلِّ زينَة
لتعلموا[241] أنّي[242] مِمَّنْ يجود[243] بمحض الوداد وليس[244] ضنينه

قال فأجابوني بعد بطء بهذه الأبيات :

[المتقارب]

أتتنا بناتُكَ يَرْفُلن في ثياب من الوشي يَفْتِنَّ زينة
فلمّا سفَرن فضحنَ الشموس وسِرب الظِباء وأخجلن[245] عِينه
ولمَّا نطقن[246] سحرنَ العُقُولَ وظلَّ القرين ينادي قرينه
أفي بَابِلٍ نحن أم[247] في العراق وفوق البسيطة[248] أم في سفينة
فدعني أراقب[249] صوت[250] الجميع لنسمع من كلّ مدح عُيونَه

وأبو عمرو هذا هو أوّل من أدخل إلى الأندلس كتاب غريب الحديث

238) نقلاً عن التّجاني ، الرّحلة 79 ، وأنظر الصّلة عدد 131.
239) في ش : «يسئلوني».
240) في الرّحلة ، ص 80 : «خطبت».
241) في الرّحلة : «لتعلم».
242) في الأصول : «انني».
243) في ش : «أجاد».
244) في الأصول : «وشيئًا».
245) في الأصول : «ونجلاء».
246) في الأصول : «نطقنا».
247) في الأصول : «أو».
248) في الأصول : «البساط».
249) في الأصول : «أرقب».
250) في الرّحلة : ضوء».

للخطابّي ، وله جزء تضمّن عوالي كتبها لأبي محمّد بن عبد الرّحمان إبن عَتَّاب يعرف بعوالي الصفاقسي[251].

ومن منازل صفاقس قصر نَقَّطَة قال التّجاني : ويقال أن جماعة من أصحاب معروف الكَرخي – رحمه الله – رابطوا بقصر نَقَّطَة هذا وماتوا به فقبورهم هنالك اهـ[252].

ترجمة الشّيْخ أبي حفص عمر القمّودي :

ومن فقهاء صفاقس وشعرائها المتقدمين أبو حفص عمر القَمُّودي[253] ، قال في معالم الايمان[254] : قيرواني الأصل نزل بصفاقس ، وكان فقيهًا أديبًا مفتيًا من حفاظ المدونة والقائمين عليها ، ومن حفاظ الشعراء ، أخذ عن / أبي بكر بن عبد الرّحمان ، [155/أ] وأبي عمران الفاسي ، وصحب أبا القاسم السُّيوري ، ذكر بعض أصحابه قال : لما ودعني الفقيه أبو حفص عمر القمُّودي[253] أنشدني بيتين شعرًا :

[الرّمل]

هَيَّجوا لِلبين بَرْقًا فلمع وأثاروا دمع عيني فاندفعْ
ودعوا قلبي فلما جاءهم أوقعوه بين يأس وطمَع[255].

---

251) نقل الترجمة من رحلة التجاني 78 – 80 ، وأنظر الحلل السندسية 320/1 – 323 ، تراجم المؤلفين التونسيين 261/3 – 263 .

252) رحلة التجاني 84 ، الحلل السندسية 326/1 – 327 ، ونَقَّطَة تقع على ساحل البحر غربي صفاقس ، وبها أولاد الرقيق الحسنيون ، انتقل بعضهم إلى صفاقس وبعضهم ما زال موجودًا بها إلى الآن ، وأولاد الرقيق ذكرهم العبدري في رحلته عند عودته من الحج.

253) في الأصول : «الغمودي». والقمودي بالقاف المفتوحة المعقدة كالجيم المصرية.

254) 201/3 .

255) أنظر عنوان الأريب 440/1 ، ترتيب المدارك 798/4.

ترجمة الشَّيْخ أبي الحسن علي اللخمي :

ومن أعيان فقهاء صفاقس وأفاضلها المشهورين أبو الحسن علي بن محمّد الربيعي المعروف باللخمي[256] ، وهو ابن بنت اللخمي ، تفقه بابن محرز والتونسي والسُّيُوري وغيرهم ، وظهرت فتاويه ، وكان فقيهًا فاضلاً متفننًا ذا حظ من الأدب والحديث ، جيد النظر حسن الفقه ، كان فقيه وقته وأبعد النّاس صيتًا في بلده ، وبقي بعد أصحابه فحاز رئاسة بلاد إفريقية جملة ، وتفقّه به جماعة من الصفاقسيين وغيرهم ، أخذ عنه أبو عبد الله المازري ، وأبو الفضل النحوي ، وعبد الحميد الصفاقسي ، وأبو علي الكلاعي ، وعبد الجليل بن مفوّز[257] وغير واحد ، وله تعليق على المدونة سماه «التبصرة» ، مفيد حسن ، وهو مقدم[258] بتخريج الخلاف في المذهب واستقراء الأقوال ، وربما اتبع نظره فخالف[259] المذهب فيما ترجح عنده ، فخرجت اختياراته في الكثير عن قواعد المذهب.

وكان حسن الخلق مشهور الفضل ، زاد ابن ناجي[260] قوله : أصله من القيروان ونزل صفاقس ، مسجده[261] بصفاقس مشهور إذا دخله الداخل يرى فيه نورًا زائدًا على غيره من المساجد ، وفي زماننا يدرس فيه / الشَّيْخ أبو بكر القرقوري صاحب الزاوية [155/ب] القريبة[262] منه ، فدرس فيه نحوًا من أربعين سنة ، ثم قال : ولما قرئ قول المدونة في بيوعات[263] الآجال بمنع ضع وتعجل[264] في درس بعض مشيخة التونسيين لم يذكر أحد من أهل الدَّرْس خلافًا الا واحدًا فقال : هذا المشهور وأجازه ابن القاسم فأنكر عليه ، فقال : اللخمي حكاه. فلما انفصل المجلس نظر أهله كلام اللخمي في بيوعات[263] الآجال فلم يجدوا فيه شيئًا ، فلما كان من الغد قالوا له : ما ذكرت عن

---

256) النّقل من معالم الإيمان 199/3.

257) في الأصول : «بن فوز».

258) في الأصول : «مقرى».

259) في ش : «مخالف».

260) في تعليقاته على معالم الإيمان 199/3.

261) جامع الدربية الآن ، بحومة الرقة سابقًا.

262) في المعالم : «الغربية».

263) في الأصول : «بياعات».

264) هذه مسألة من بيوع الآجال بالمدونة ، أنظر ص 185 ج 3 (طبع الخشاب بالقاهرة) ، وقد أخذت عندَ الفقهاء عنوان (ضع وتعجل) ، وهي أن يسلف بضاعة لأجل ثم يضع من السلف ويتعجل القبض وفيها مراباة منعها مالك.

اللخمي غير صحيح اذ لم يذكره هنا وهو محله ، فانفصل الطالب عنهم في غم شديد ، فلما نام[265] من الليل رأى في منامه الشّيْخ أبا الحسن اللخمي فقال له : يا سيدي نقلت عنك ، وذكر له القصة وكون الطلبة نظروا كتابه في بيوع الآجال ولم يجدوا فيه ذلك النقل ، فقال له : ذكرته في فصل الخلع ، فانتبه الطالب فرحا فقام في ليله ونظر الكتاب فوجده كما نقل ، فلما أصبح ذكر ذلك لأهل المجلس واشتهرت قضيته وفضل الله عليه برؤيته المذكورة.

وتوفي – رحمه الله تعالى – سنة ثمان وسبعين وأربعمائة[266] وقبره مزار[267] يعرفه الخاص والعام ، ولهم فيه اعتقاد تام وحق لهم ذلك[268] اهـ.

قلت : وقد بنى عليه بعض الولاة قبة مشهورة ظاهرة النور والبركة [وعلى باب القبة في العتبة العليا منقوش هذه الأبيات لبعض الشعراء تدل على أن القبة بناها مراد باي :

[الطويل]

هلال تَبدَّى[269] في علا الأُفقِ ساطعُ ... وأشْرَق عنه[270] الكون كالبرق لامع[271]

أمين كريم علي زكي الفواضلِ ... مُرادُ[272] مراد الباي في العزّ طالع

فأحيي ضريح الحبر عِلْمُه ظاهر ... أبي الحسن اللخمي يكن له شافع

فيا رَبَّنا أبقِ الباي واحفظه دائمًا ... فكلٌّ كريم في حماه تُراتع

وبلّغه في نَجليه ملكا ورفعة ... وقلِّده سيف النصر رحبهُ واسع[273]

ومعه فيها صاحبه الشّيْخ عبد الجبَّار الفرياني خلف قبر الأستاذ متّصلا به ، وفي مؤخر القبة قبر عليه شباك في الرُّكن الشّرقي الشّمالي لبعض / الولاة رجاء بركة الشّيْخ أن يعفو الله تعالى عنه ، فرؤى الشّيْخ في النّوم فقال : فرقوا بيني وبينه ، فجعل ذلك الشباك ، والله أعلم[274]. [156/أ]

---

265) في المعالم : «قام».

266) 1085 – 1086 م.

267) خارج سور المدينة.

268) معالم الإيمان 200/3.

269) في ت : «تبدأ» ، وكذلك في النقيشة الموجودة الآن فوق الباب.

270) كذا في ت ، وفي بقية الأصول : «عليه».

271) في ت : «اللمع».

272) في ت : «مرادي».

273) إضافة من بقية الأصول.

274) لأبي الحسن اللخمي ترجمة في تراجم المؤلفين التونسيين 214/4 – 219 ، وأنظر الحلل السّندسيّة 322/1 – 323 ، وسقطت ترجمته فيا طبع من رحلة التّجاني.

ترجمة الشّيخ أبي القاسم عبد الخالق السّيوري :

ولما جرى ذكر السّيوري فلا بد من التّعرّض لذكره لفائدة . هو أبو القاسم عبد الخالق بن عبد الوارث القيرواني ، آخر طبقة من علماء إفريقية[275] ، وخاتمة أئمة القيروان ، ويقال انه تفقه بأبي بكر بن عبد الرّحمان وأبي عمران[276] وتلك الطبقة ، وعليه تَفَقَّه اللخمي وعبد الحميد المهدوي إبن[277] الصائغ ، وأخذ عنه قديمًا عبد الحق وابن سعدون وغيرهما ، وطال عمره ، فكانت وفاته بالقيروان سنة ست وستين وأربعمائة[278]. قال في معالم الايمان[279] : قال عياض : ويقال أنه مال أخيرًا إلى مذهب الشافعي ، قلت[280] : ليس هو بتقليد ولا خلاف في أكثر المسائل ، وانما خالف في قليل كقوله : القمح والشعير جنسان. وما زلت أسمع أنه رمى لِقطَّةٍ لقمة من شعير وأخرى من قمح فشَمَّت اللقمة الأولى وانصرفت عنها ثم شمت الأخرى فأكلتها ولم تعد للأولى ، فقال : هذا الحيوان البهيمي فرق بينهما ، وكذلك خالف المذهب في التدمية البيضاء وقال : لا يعوّل عليها ، وكذلك قال بخيار المجلس كما قال المخالف ، وهو قول ابن حبيب من أصحابنا للدلائل الدَّالة على رجحان مذهب من خالف مالكا فيها ، قال ابن المواز في كتاب الخيار من تعليقته[281] : حلف السّيوري بالمشي لمكة لا يفتي مالك في هذه الثلاث مسائل.

قال : ولما أرادوا تجديد / السُّور بعد خراب القيروان وطلب إدخال داره امتنع بعض من له القول[282] فدعا[283] عليهم بعدم الاتفاق في الكلمة فمن ثم لم يكن لهم مشيخة أي عرفا[284]. [156/ب]

---

275) النّقل من معالم الإيمان بتصرّف 181/3.

276) هو الفاسي.

277) في الأصول : «أبي».

278) 1073 – 1074 وجاء في المعالم أنه توفي إمّا في سنة 462 أو في سنة 1068/460 م.

279) 183/3.

280) أي مؤلف المعالم.

281) في الأصول : «تعلقته».

282) في المعالم ص 184 : «لما أخذ الناس في بناء القيروان اختصارًا عمّا كانت عليه أراد الشيخ أن يدخلوا داره في البلاد فاختلفوا فغلب من أراد خروجها فدعا عليهم بأن لا تتفق لهم كلمة فيقال أن دعوته أجيبت».

283) في ش : «فدعى».

284) أنظر عن السيوري أيضًا : ترتيب المدارك 170/4 – 171 ، وتراجم المؤلفين التونسيين 116/3 – 117.

ترجمة الشَّيْخ أبي يحيى زكرياء إبن الضابط :

ومن تلاميذ الإمام اللّخمي الشَّيْخ أبو يحيى زكرياء بن الضابط ، كان مفتيًا بصفاقس بعد الإمام اللخمي معاصر للإمام المازري ، قتله النَّصارى[285] – دَمَّرَهم الله – ، لمّا تملّكوا المهدية وسوسة وسائر بلاد الساحل إلى[286] طرابلس ، دخلوا عليه فوجدوا بيده مصحفا يقرأ فيه فقتلوه ، وقتلوا جماعة من الفقهاء – وإنّا لله وإنّا إليه راجعون – ا هـ بالمعنى من كتاب جامع مسائل الأحكام[287].

وكان – رحمه الله تعالى – يفتي بأن الجهل بالأحكام ، وما توجبه السنة عذر مقبول على الصحيح فيما سوى الحدود ، ومما نقل بالسّماع الشائع أنه – رحمه الله تعالى – لما تملك النصارى البلاد طلبوا من الناس الزيت ، فضاق ذرع الناس فقال لهم الشَّيْخ : لا بأس عليكم ، مروا النصارى باحضار مراكبهم وأوعيتهم ، فلما أحضروا ذلك أمر من يملأ الماء ويناوله فيعطيه لمن يكيله بحضرة النَّصارى فاذا هو من أطيب الزَّيْتِ وأعلاه ، فلؤوا أوعيتهم وشحنوا مراكبهم وسافروا لبلادهم ، فلما وصلوا بلادهم[288] فتحوه فوجدوه ماء فرجعوا به فقالوا : هذا ماء ، فقال : بل زيت ، ففتحوه فاذا هو زيت ، فرجعوا إلى بلادهم فوجدوه ماء ، فصاروا كلما فتحوه بصفاقس وجدوه زيتا ، وكلما فتحوه ببلادهم وجدوه ماء ، فلعل ذلك كان سبب قتله وقتل جماعته / لينال رتبة الشهادة. [157/أ]

واستيلاء الكفار قد تقدم أنه كان سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة[289] ، فهو تاريخ وفاة الشَّيْخ أو بعده بيسير ، وضريحه بداخل صفاقس برأس زقاق الذهب[290] منها من جهة جنوبيه ، وهو مشهور مزار متبرك به .

واستيلاء الكفرة[291] على ما تقدم من البلاد هو سبب إنقطاع الفقهاء المجتهدين من إفريقية لا سيا وقد استولى عليها مفسدو الأعراب .

---

285) يقصد النّرمان.

286) في ش : «الا».

287) تمام إسمه ، «فيما نزل بالمفتيين والحكام لأبي القاسم البرزلي القيرواني». (ت. 841/1438).

288) أي صقلية.

289) 1148 – 1149 م.

290) هذه الحومة (الحارة) وتعرف اليوم بهذا الإسم وتقع غربي المدينة.

291) في ط : «الكفار».

قال في معالم الإيمان[292] : «وانقضت هذه الطبقة بعد الخمسمائة سنة[293] ، ولم يبق بالقيروان من له اعتناء بتاريخ لاستيلاء مفسدي الأعراب على إفريقية وتخريبها وإجلاء أهلها عنها إلى سائر بلاد المسلمين ، وذهاب الشّرائع بعدم من ينصرها من الملوك إلى أن مَنَّ الله تعالى على النّاس بظهور دولة الموحّدين فوضحت بها معالم الدّين وسبل الحقّ ورسوم الشّرع ، فظهر بظهورها بإفريقية العلماء والصّلحاء» اهـ.

ترجمة الشّيْخ أبي بكر الفرياني :

وقد تقدّمت قضيّة الشّيْخ أبي الحسن الفرياني – رحمه الله ونفعنا به – وذكر ولده عمر – رحمه الله ونفعنا به والمسلمين ببركاته ورحمهم الله ورحمنا بهم – ، ومن أنجال أبي الحسن الفرياني الفقيه النّبيه العارف بالله تعالى الشّيْخ سيدي أبو بكر بن علي بن محمّد الفرياني شهر اللخمي ، توفّي – رحمه الله تعالى – لثمان خلون من جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وخمسمائة[294] ، وقبره مشهور ظاهر مزار ، هو أول قبة تلاقيك من مقبرة صفاقس[295] ، وكان قبره اندثر لطول الزمان فتغطى بالتّراب فحفر النّاس قبرًا لميت / فكشف القبر وعليه إسمه ناطق وتاريخه حسبما ذكرنا ، وكم تحت التّراب من فضلاء محيت قبورهم وبقيت فضائلهم منشورة مسطورة. [157/ب]

ثمّ في حدود خمسين ومائة وألف قدم[296] مركب به[297] أناس غرباء يسألون عن أبي عبد الله سيدي محمّد الفرياني ، وكان معلّم أطفال المسلمين وطبيبًا للمرضى احتسابًا لله تعالى ، فدلّوا عليه فسئلوا عن سبب سؤالهم قالوا[298] : كنّا بالبحر وأصابنا نوٌّ كبير فأشفينا على الهلاك فاستغثنا الله ببركة رجاله الصّالحين ، وإذا برجل معنا في المركب ،

---

292) 3/203 – 204.

293) بعد 1106 هـ. / 1694 – 1695 م.

294) 16 ماي 1160 م.

295) المقبرة شمال المدينة المسورة ، قبالة باب الجبلي ، وقبر أبي بكر الفرياني يقابل الخارج من هذا الباب ، ونقلت المقبرة منذ سنوات إلى مكان آخر ، وفي مكانها بدأت تهيئة أحياء جديدة لمدينة صفاقس عرفت على أمثلة التهيئة «بصفاقس الجديدة».

296) في الأصول : «قدمت».

297) في الأصول : «بها».

298) في الأصول : «فدل عليه فسئل عن سبب سؤاله قال».

وسكن[299] وهدأ النَّو ، فسألناه : من أنت؟ فقال : أبو بكر الفرياني من مدينة صفاقس ، فسألناه : هل فيها أحد من ذرّيّتكم ، فأرشدنا إلى إسمكم ، فخذوا هذا النّصيب الذي حضر عندنا من الدَّراهم ، فأخذه واستعان بأهل الخير وابتنى على قبره قبة ، فهي ظاهرة مشهورة باسمه ، وعلى قبره سيف من رخام مكتوب فيه : هذا قبر الفاضل المرحوم المنعّم الإمام الفقيه النّبيه العارف بالله تعالى سيدي الشَّيْخ أبي بكر بن علي ابن محمّد الفرياني شهر اللخمي.

ترجمة عبد الله الفرياني :

قال التّجاني[300] : ومن شعراء صفاقس ثم من الفريانيين ورؤسائها عبد الله بن عبد الرّحمان بن علي الفرياني ممَّن تقدّم عصرنا قليلاً ، مولده بمالقة من بلاد الأندلس ، وأبوه هو المنتقل إليها من صفاقس ، له رحلة أبعد فيها شرقًا وغربًا ، أخبرنا عنه صاحبنا أبو العبّاس أحمد بن عبد السَّلام الأموي التاجوري ، وقد رآه وجالسه بطرابلس كثيرًا ، وسمع منه بعض / شعره وكان هجّاء مقرعًا[301] ، ومن شعره حين ولي السّعيد مراكش [158/أ] وكان السّعيد أسود اللّون.

[الكامل]

كان الخلائفُ[302] قبلُ في مراكش ... صُوَرًا من الكافور يعْجِب خالصُه

فأتى على بعدهم[303] ختمًا لهم ... كالمسك لونا ليس فيه خصائصه

وله في مثل هذا :

[الكامل]

أسفًا على مراكش وولاّتها ... لم يبق للأيّام فيها رَوْنَقُ

كانوا حمامًا فالليالي لم تَدَعْ ... في دارهم إلّا غُرَابًا يَنْعَقُ

---

299) في الأصول : «وسكنت».

300) الرّحلة 83 – 84 والحلل السّندسيّة 326/1 وعنوان الأريب 61/1 – 62.

301) كذا في بعض أصول رحلة التجاني ، وفي النّص المحقّق : «مقذعًا» ، وفي الأصول : «مفرغًا».

302) في الأصول : «الخلافة» ، والتّصويب من الرّحلة.

303) في الأصول : «فأتى على بعداهم ختمًا لهم» ، والتّصويب من الرّحلة.

وألمّ إبن الابار[304] في التّحفة[305] بذكر جماعة من هجاء الشعراء فذكر أوّلهم أبا محمّد عبد الله بن عبد الرّحمان[306] الفرياني ، وكان بإشبيلية ناظرًا في المواريث لأبي سليمان داوود بن أبي داوود وأنشد له بيتين في هجاء إبن زهر[307] وهو غير الذي ذكرنا ، وإن توافقا في الإسم والأب والنّسب والصّفة لبعد ما بين زمانيهما.

ترجمة الشّيْخ عبد الرّحمان الطّبّاع :

ومن فقهاء صفاقس الشّيْخ العالم العلاّمة الفقيه العمدة الفهّامة أبو زيد سيدي عبد الرّحمان الطّبّاع ، مقامه مشهور بداخل صفاقس قريب سجن القضاة شرقي البلد ، وقبره مشهور قرب الشّيْخ اللخمي عليه سيف من رخام مكتوب فيه إسمه ، ووفاته سنة سبعين وخمسمائة[308] ، فهو – رحمه الله تعالى – ممّن قام بنشر العلم بعد فتح عبد المؤمن البلاد من أيدي النّصارى.

ترجمة الشّيْخ طاهر المزوغي :

ومن منازل صفاقس الرّاجعة إليها قصور السّاف[309] وهي بلد الشّيْخ العارف بالله تعالى سيدي طاهر المزوغي ، أصله من عرب مزوغة بإفريقية ، فانتقل ونشأ بتونس / ثمّ لما شاخ استوطن قصور السّاف ، وطال عمره وانتفع النّاس به. [ا/ب]

قال الشّيْخ أبو علي يونس السماط : بلغ الثّمانين سنة وتوفّي بوطنه من صفاقس ، وقبره بها يزار ، وله كرامات كثيرة ، فمنها ما نقله السماط عن بعض الثّقات أنّه كان شخص جالسًا بمسجد الشّيْخ إذ خرجت من الشّيْخ تفلة فأرسلها فأصابت شخصًا أسود ،

---

304) في الأصول : «ابن الأنباري».

305) هي تحفة القادم لابن الابار المتوفّي سنة 1260/658 م.

306) في الأصول : «محمّد».

307) في الأصول : «ابن زهير».

308) 1175/1174 وهذه الرّخامة التي كانت على قبره ، محفوظة بمتحف صفاقس.

309) هي الآن من ولاية المهدية لقربها منها ، وما قاله المؤلّف يدلّ على أنّ صفاقس في القديم معتبرة من إقليم الساحل.

ونفذت من ظهره فوقع على وجهه ، فقال له رجل كان معه بالمسجد وقد شاهد ذلك : يا سيدي رأيت كذا وكذا ، وذكر ما رأى ، فقال له : قل للحاضرين فعرفهم بذلك ، ثم قال له : يا سيدي وما ذلك الأسود الذي رأيته ، فقال : هو صاحب مراكش جاليًا أخذ تلمسان فأخذه الله ، فقيد ذلك بالكتابة التي وقعت[310] ، فجاء الخبر بعد ذلك بما طرأ للملك السّعيد صاحب مراكش من الكائنة[311] التي وقعت عليه وعلى جيشه ، أنّه لمّا بقي بينه وبين تلمسان مسافة يوم واحد قتل هنالك على ظهر فرسه هو وجيشه في صفر سنة ستّ وأربعين وستّمائة[312] – حسبما مرّ – ، فنظروا التّاريخ فوجدوه مطابقًا ، وقد أخذ الطّريق عن أبي مدين شعيب وهو أخذ عن أبي يعزى[313] وهو عن أبي الحسن إبن حرازم[314] ، وهو عن أبي بكر محمّد بن العربي ، وهو عن حجّة الإسلام الغزالي وهو عن أبي المعالي[315] ، وهو عن أبي طالب مكي ، وهو عن أبي القاسم الجنيد وهو عن سري السقطي[316] ، وهو عن معروف الكرخي[317] ، وهو عن أبي سليمان داوود / [159/أ] الطائي[318] ، وهو عن حبيب العجمي[319] ، وهو عن الحسن البصري[320] وهو عن

---

310) ساقطة من ط وب وت. 311) كذا في ط وب وت ، وفي ش : «الكتابة».

312) ماي – جوان 1248 م.

313) هو بنور بن ميمون (ت. 1176/572) وعند إبن قنفذ في الوفيات أنّه توفّي سنة 1165/561 وانظر الإستقصا 187/2 ، شجرة النّور الزّكيّة 163 ، الطّبقات الكبرى للشعراني 136/1 – 137. الحقيقة التاريخية للتّصوّف الإسلامي لمحمّد بهلي النّيّال ص 202 – 204.

314) ويقال إبن حرزهم توفّي بمدينة فاس سنة 1164/559 م وهو علي بن إسماعيل الفاسي ، (ت. 1163/559) ومن شيوخه أبو الفضل النحوي التوزري : الحقيقة التّاريخيّة للتّصوف الإسلامي ص 201 – 202 ، التّسوّف لرجال التّصوّف ، والوفيّات لابن قنفذ ص 43.

315) الجويني إمام الحرمين.

316) السري بن المغلس السقطي ، وهو خال الجنيد وأستاذه (ت. ببغداد سنة 849/235) جامع كرامات الأولياء 89/2 – 90 ، الطّبقات الكبرى للشّعراني 74/1 – 75.

317) أبو محفوظ إمام الصّوفية (ت. ببغداد 816/201) جامع كرامات الأولياء 490/2 – 491 ، الطّبقات الكبرى للشعراني 72/1.

318) من أصحاب الإمام أبي حنيفة (ت. سنة 778/162) أنظر جامع كرامات الأولياء 63/2.

319) هو حبيب بن عيسى بن محمد ، أصله من فارس وسكن البصرة ، لقي الحسن البصري وابن سيرين وغيرهما ، مات سنة 125 ، وقيل سنة 119 كما ذكره ابن الجوزي في المنتظم ، ودفن بها ، ذكره ابن حيان في كتاب الثقات ، والبخاري في التاريخ ، وابن أبي حاتم الرازي في الجرح والتّعديل ، وغيرهم.

320) سيّد الزّهّاد والعلماء والنّصحاء ، وترجمته خصّها بالتآليف د. إحسان عبّاس ، (ت. 729/110) ، والمراجع عن ترجمته نكتفي منها بجامع كرامات الأولياء 21/2 ، الوفيات لابن قنفذ 19.

الإمام علي بن أبي طالب[321] – رضي الله تعالى عنه وعنهم أجمعين – ولم نظفر بتاريخ وفاته لكن يؤخذ من ذكر وفاة الملك السّعيد المتقدّمة تقريب وفاته[322].

ترجمة الشّيْخ أبي مدين شعيب :

ولمّا جرى ذكر أبي مدين[323] فلا بدّ من ذكر التّعريف به وبعض كلامه فنقول : أبو مدين شعيب بن الحسين الأندلسي أصلاً ، البجائي مولدًا ومنشأ ، المشهور بالغوث ، كان من أعيان مشايخ المغرب وصدور المقربين. كان سلطان تلمسان لمّا بلغه خبره وما كان فيه من الشّهرة الّتي ملأت الآفاق وصيرورته إمام الصّدّيقين في وقته بلا شقاق ، أمر بإحضاره من بجاية ليتبرَّك به لتعذّر وصول السّلطان إلى زيارته خوفًا من اختلال أمر رعيّته ، فأجاب بالسَّمْع والطّاعة ، ثمّ قال بخفض[324] صوته : ما لنا وللسّلطان الليلة نزور الإخوان ، ثمّ نزل بتلمسان واستقبل القبلة ليلة دخوله وتشهّد وقال : ها قد جئت ﴿وعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾[325] ، ثمّ قال : الله الحيّ[326] ، ففاضت روحه ولم يمكث في تلمسان شيئًا ، فمات – كما تقدّم – في حدود تسعين وخمسمائة[327] عن نحو ثمانين سنة ، فدفن بتلمسان في تربة العبّاد – رحمه الله تعالى ونفعنا ورحمنا به –.

وكان رأس العارفين في زمانه ، فأخذ عن الكبراء كالعارف إبن عربي وأضرابه من أهل عصره ، قال الشّعراني في طبقاته[328] : كان الشّيْخ / أبو الحجاج الأقصري – رضي [159/ب]

---

321) وهذا السّند في الطّريقة ذكر قريبًا منه إبن قنفذ في الوفيّات ص 58 أثناء ترجمة جدّه لأمّه يوسف بن يعقوب الملاري (ت. 764 – 773) سقط من السّند أبو يعزى وجعل أبا مدين أخذ مباشرة عن إبن حرزهم.

322) أنظر الحقيقة التاريخية للتّصوّف الإسلامي ص 228 ويبدو أنّه اعتمد ما قاله المؤلف في وفاته لكنّه أثبت أنّه أخذ عن أصحاب أبي مدين كأبي سعيد الباجي وعبد العزيز المهدوي والدهماني.

323) تكنى باسم ولده مدين وهو مدفون بمصر.

324) في ط : «فخفض».

325) سورة طه : 84.

326) في ط وب : «الخير».

327) 1194 م.

328) الطّبقات الكبرى 157/1 – 159 ترجمة الأقصري.

الله تعالى عنه – يقول : سمعت شيخي عبد الرّزّاق(329) يقول : إجتمعت بالخضر – عليه السّلام – سنة ثمانين وخمسمائة(330) فسألته عن شيخنا أبي مدين ، فقال : هو إمام الصّدّيقين(331) في هذا الوقت وقد أعطاه الله مفتاحًا من السّرّ المصون بحجاب القدس ، فما في هذا الوقت(332) أجمع لأسرار المرسلين منه ، ثم إنّ أبا مدين مات بعد ذلك بيسير.

وقال الشّيخ محيي الدّين بن عربي(333) – رضي الله تعالى عنه – ذهبت أنا وبعض الأبدال إلى جبل قاف ، فلمّا مررنا على الحيّة المحدقة به سلّمنا(334) عليها فردّت علينا السّلام ثمّ قالت : من أي البلاد أنتم؟ فقلنا لها : من بجاية من أرض المغرب ، فقالت : ما حال أبي(335) مدين مع أهلها؟ فقلنا لها : يرمونه بالزندقة ويؤذونه أشد الأذى(336) ، فقالت : عجبا والله لبني آدم كيف يؤذون أولياء الله؟ والله ما كنت أظنّ أنّ الله عزّ وجلّ يوالي عبدًا من عبيده فيكرهه أحد(337) ، إنّه(338) والله ممّن اتّخذه الله وليّا وأنزل محبّته في قلوب عباده ، فقلنا لها : ومن أعلمك به؟ فقالت : أعلمني به الله عزّ وجلّ(339) ا هـ.

وقد أجمعت المشايخ على تعظيمه و إجلاله ، وتأدّبوا بين يديه ، وكان جميلاً ظريفًا متواضعًا زاهدًا ورعًا محقّقًا ، قد إشتمل على أكرم الأخلاق – رضي الله تعالى عنه – وكان يقول : ليس للقلب إلاّ وجهة واحدة ، متى توجّه إليها حُجِبَ عن غيرها ، وكان

---

329) قال الشّعراني : «شيخه الشّيخ عبد الرّزّاق الذي بالإسكندرية قبره ، من أجلّ أصحاب سيدي الشيخ أبي مدين المغربي ، وله كلام عال في الطّريق ، وزاويته وضريحه بالأقصر من صعيد مصر الأعلى.

330) 1184 – 1185 م.

331) هذا القول غير موجود في ترجمة أبي الحجاج الأقصري في الطّبقات ، وإنّما ذكره في ترجمة أبي مدين 154/1.

332) السّاعة.

333) في الفتوحات.

334) «فقال لي البدل : سلّم عليها فإنها تردّ عليك السّلام فسلّمنا عليها».

335) في ش : «ابن».

336) في ش وب وت : «الأذاء».

337) في ت : «اخوانه» ، وفي ط : «لعباده».

338) ساقطة من ط وب.

339) تصرّف المؤلّف في نقل كلام إبن عربي.

[160/أ] يقول : من خرج إلى الخلق قبل وجود حقيقة تدعوه إلى ذلك / فهو مفتون ، وكلّ من رأيتموه يدّعي[340] مع الله حالة لا يكون على ظاهره منها شاهد فاحذروه ، وكان يقول : من تحقق بمقام العبودية لله – عَزَّ وجل – شهد أعماله بعين الرياء وأحواله بعين الدعوى[341] وأقواله بعين الافتراء ، وكان يقول : ما وصل إلى مقام الحرية من بقي عليه من نفسه بقية ، ويقول : لا تنظر إلى مشاهدتك له وانظر إلى مشاهدته لك ، وكان يقول : الفقر نور ما دمت تستره ، فإذا أظهرته ذهب نوره ، وكان يقول : كلّ فقير كان الأخذ أحبّ إليه من العطاء فهو كاذب لم يشم رائحة الفقر ، وقال : من لم يَصْلُح لِخِدْمَتِهِ شَغَلَهُ بالدّنيا ، ومن لم يصلح لِمَعْرِفَتِهِ شَغَلَهُ بالآخرة ، وكان يقول : من لم يخلع العذار لم ترفع له الأستار ، وكان يقول : إياكم أن تتعدوا مقاما قبل احكامه فان ذلك يقطعكم عن كمال الوصول إلى حقيقته ، وكان يقول : إياكم وصحبة الأحداث المبتدئين في الطّريق ولو كانوا أبناء سبعين سنة إلاّ بعد تعيّن ذلك عليكم.

ومكث – رضي الله تعالى عنه – سنة في بيته لا يخرج إلاّ للجمعة ، فاجتمع النّاس على باب داره وطلبوا منه أن يتكلّم عليهم ، فلمّا ألزموه خرج ، فرأته العصافير التي كانت على سدْرَة في داره ففرت ، فرجع وقال : لو صلحت للحديث عليكم لم تفرّ منّي الطّيور ، فجلس في البيت سنة أخرى ثمّ جاءوا إليه فخرج ، فلم تفر منه الطيور ، فتكلّم على النّاس ونزلت الطّيور تضرب بأجنحتها وتصفق حتّى ماتت منها طائفة كثيرة / ومات [160/ب] رجل من الحاضرين.

وكان يقول : كلّ فقير لا يعرف زيادته من نقصه فليس بفقير. وكان يقول : نسيان الحقّ تعالى طرفة عين خيانة من العبد يستحقّ بها العقوبة ، وكان يقول : الحضور مع الحقّ تعالى جنّة ، والغيبة عنه نار ، والقرب منه لَذَّة ، والبعد منه حسرة وموت ، والأنس[342] بذكره حياة ، وكان يقول : من طلب الطّريق بلا توبة[343] من سائر الآثام[344] فهو جاهل. وكان يقول : من قطع موصولاً بحضرة ربه قطع به ، ومن أشغل

340) في ط وب وت : «يدعو».
341) في ش وت : «الدعوا».
342) في ب : «الأقس» ، وفي ط : «الانسان».
343) في ط : «تبرئة».
344) في ط وب : «الأنام».

مشغولاً بربّه أدركه المقت في الوقت ، وكان يقول : من شرط العارف أن يتحكم فيما بين العرش والثرى .

وكان الحق تعالى أذَلَّ له الوحوش فإذا رآه الوحش ارتعد من هيبته ، ومرّ يومًا على حمار والسّبع قد أكل نصفه ، وصاحب الحمار ينظر إليه من بعيد لا يستطيع أن يقرب منه ، فقال لصاحب الحمار : تعال(345) ، فذهب به إلى الأسد وقال له : أمسك بأذنه واستعمله مكان حمارك حتى يموت ، فأخذ بأذنه فركبه وصار يستعمله سنين مكان حماره حتى مات الأسد.

وفي طبقات المناوي نقلاً عن إبن عربي : ان الشّيْخ أبا مدين كان يقول : من علامة صدق المريد في إرادته فراره عن الخلق ، ومن علامة صدق فراره عنهم وجوده للحق ، ومن علامة صدق وجوده للحق رجوعه للخلق ، وهذا هو حال الوارث للنبيء ﷺ فإنّه كان يخلو بغار حراء وينقطع إلى الله فيه ويترك بيته وأهله ويفرّ إلى ربه حتى فاجأه(346) / الحقّ فبعثه الله رسولاً مرشدًا لعباده ، فهذه حالات ثلاث ورثه فيها من اعتنى الله به من أمته ، ومثله يسمى وارثًا ، فالوارث الكامل من ورثه علمًا وعملاً وحالاً . [161/أ]

ورأى بعض الأولياء إبليس فقال : كيف حالك مع أبي مدين؟ فقال : ما شبّهت نفسي فيما نلقي إليه (في قلبه)(347) إلاّ كشخص بال في البحر المحيط فقيل له : لم تبول فيه؟ قال : حتّى أنجسه فلا تقع به الطّهارة ، فهل رأيتم أجهل من هذا؟ فكذا أنا وقلب أبي مدين ، كلما ألقيت فيه أمرًا قلب عينه ، وقال الخواص : كان مذهب الشّيْخ تقريب الطّريق على المريدين ونقلهم إلى محلّ الفتح من غير أن يمرّ بهم على الملكوت .

ووقع له في سياحته أنّه دخل على عجوز في مغارة فأقام عندها ، فجاء إبنها آخر النّهار فسلّم عليه ، فقدَّمَتْ العجوز سفرة فيها صحن وخبز ، فقعد الشّيْخ والإبن يأكلان فقال : تمنّيت أن لو كان هذا كذا ، فقال له : سَمّ الله وكل ما تمنّيت ، فلم يزل يعدّد الفتى وهو يقول مقالته الأولى واللون الواحد ينقلب ألوانًا كثيرة ، ويجد طعم(348) ما تمنّى .

وكان إذا خطر له خاطر في نفسه وجد جوابه مكتوبًا في ثوبه الذي عليه ، فخطر

345) في الأصول : «تعالى».

346) في الأصول : «فجاه».

347) ساقطة من ش.

348) ساقطة من ط .

له يومًا أن يُطَلِّقَ امرأته وكان بحضور العارف أبي العبّاس ، فرأى مخطوطًا في ثوب الشّيْخ : أمسك عليك زوجك .

قال إبن عربي : شيخنا أبو مدين[349] من الثّمانية عشر نفسًا الظّاهرين بأمر الله عن أمر الله ، لا يرون سوى الله من الأكوان ، وهم أهل علانية وجهر / مثبتون للأسباب [161/ب] وخرق العوائد عندهم عبادة ، قل الله ثم ذرهم ، قال : وكان يقول لأصحابه : أظهروا للنّاس ما عندكم من الموافقة يظهر[350] للنّاس بالمخالفة ، وأظهروا مما أعطاكم الله من نِعَمِهِ الظاهرة والباطنة ، يعني[351] خرق العوائد والمعارف ، فإنه تعالى يقول ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[352] وهذه الطّائفة اختصت باسم الظّهور لكونهم ظهروا في عالم الشَّهادة .

وقال في موضع آخر : شيخنا أبو مدين الغالب على قلبه وبصره مشاهدة الحق في كل شيء ، فكل حال عنده أعمال فيعلن بالصدقة كما يذكر في الملأ ، فان من ذكره في الملأ فقد ذكره في نفسه ، فان ذِكْرَ النفس متقدم بلا شك ، وما كل من ذكره في نفسه ذكره في الملأ فهذه حالة زائدة على الذكر النفسي لها مرتبة تفوق صاحب ذكر النفس ، فان ذكر النفس لا يطلع عليه في الحالين فهو سر بكل وجه ، فصدقة الاعلان تؤذن بالاقتدار الإلاهي ، فن يخفيها أو يسرّها فهو الظاهر في المظاهر الإمكانية ، فهذه كانت طريقة شيخنا .

وكان يقول : قل الله ثمّ ذرهم أَغَيْرَ أَللهِ تَدْعُونَ[353] قال : وكان يقول لأصحابه : أعلنوا بالطاعة حتّى تكون كلمة الله هي العليا كما يعلن هؤلاء بالمعاصي ولا يستحيون من الله . وكان يقول في قوله تعالى ﴿فإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾[354] ، فإذا فرغت من الأكوان فانصب قلبك لمشاهدة الرّحمان ، وإلى ربك فارغب في الدّوام ،

349) بعدها في ط وب وت : «رضي الله عنه».
350) في ط : «ينظر».
351) في ط : «في».
352) سورة الضحى : 11.
353) إقتباس من الآية 40 من سورة الأنعام.
354) سورة الشّرح : 7 – 8.

وإذا دخلت في عبادة فلا تُحَدِّثْ / نفسك بالخروج منها ، وقل : ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾[355]. [162/أ]

وكان الشَّيْخ أمّيًا وعلوم الأمّيّ تأتي خالية من الأشكال اهـ[356].

ترجمة الشَّيْخ أبي الحسن علي المزوغي :

ومن أحفاد سيدي طاهر المزوغي الشَّيْخ أبو الحسن سيدي علي بن أبي القاسم إبن أحمد بن محمّد بن علي بن عبد العزيز بن عمر ابن الشَّيْخ سيدي[357] طاهر ، وأمّه خديجة بنت الشَّيْخ سيدي علي المزوغي ، وكانت من العابدات.

مولده بقصور السّاف سنة ستّ وسبعين وسبعمائة[358] ووفاته ببلده ، فهو من أهل القرن الثّامن ولم يثبت عندنا تعيين سنة وفاته ، وقبره مشهور ببلده ، مزار يتبرك به.

كان من أعيان المحقّقين والعلماء العارفين صاحب كشف وكرامات وأحوال ومقامات. تصدّر – رحمه الله – للفتوى في جميع العلوم وصنّف الكتب المفيدة في علوم الشّريعة والحقيقة ، واجتمع عليه وانتفع به جمّ[359] غفير من الفقهاء وإليه انتهت تربية المريدين من مشارق الأرض ومغاربها ، وتفقّه وأخذ الطّريقة عن الشَّيْخ أبي علي السِّماط ، وعن الشَّيْخ سيدي عبد الغني المزوغي. قيل كان الخضر لا يفارقه ليلاً ولا نهارًا ، وله التّصرّف في الكون بما شاء الله.

وقد أخذ عنه من أخيار الإنس والجنّ مائة ألف أو يزيدون ، ومن مريديه الشَّيْخ الصّالح سيدي محمّد الزرمديني ذو الكرامات والمكاشفات ، ومن أخصّ مريديه الشَّيْخ أبو الحسن سيدي علي الكراي أبو بغيلة كما يأتي الكلام / عليه في محلّه إن شاء الله. [162/ب]

---

355) سورة الحاقّة : 27.

356) لأبي مدين ترجمة في الطّبقات الكبرى للشّعراني 154/1 – 156 والمؤلّف نقل ترجمته عنها ، جامع كرامات الأولياء 117/2 – 122 ، الحقيقة التّاريخيّة للتّصوّف الإسلامي ص 204 – 207.

357) أنظر الحقيقة التّاريخية للتّصوّف الإسلامي ص 228 ولم يذكر تاريخ وفاته وذكر أنّ له مصنّفات عديدة.

358) 1374 – 1375 م.

359) ساقطة من ب و ط.

ترجمة الشَّيْخ أبي الحسن علي المحجوب :

ومن أحفاد سيدي علي بن أبي القاسم الشَّيْخ أبو الحسن سيدي علي المحجوب إبن الشَّيْخ أبي الحسن علي ، إبن الشَّيْخ أبي عبد الله محمّد إبن الشَّيْخ أبي الحسن سيدي علي ابن أبي القاسم ، سمي المحجوب لكثرة احتجابه ، كان شيخ الطَّريقة والحقيقة ، وانتهت إليه تربية المريدين ، أخذ الطريقة عن سيدي علوان بن سعيد(360) صاحب المقامات والكرامات.

وقبره غربي قصور السّاف بينهما قدر أربعة أميال. قال الشَّيْخ سيدي علي المحجوب لأولاده : كلّ النّاس تزوركم إلاّ الشَّيْخ سيدي علوان فزوروه.

وأخذ أيضًا عن سيدي محمّد بن جابر وقبره بالمهدية مشهور مزار ، كان سيدي علي المحجوب – رحمه الله تعالى – صاحب اجتهاد وعبادة ذا حظّ من صلاة الليل ، كان ورده كلّ ليلة ألفا ركعة بختمة من القرآن الكريم.

ومن كراماته أنّه أشبع خمسمائة زائر من ويبة واحدة ، فشبع الجميع ومن حضر ، وبقي من الطّعام كثير.

قتل – رضي الله تعالى عنه – شهيدًا لما أخرب الكفار(361) المهدية سنة سبع وخمسين وتسعمائة(362) فقاتل قتالاً شديدًا بنفسه وجواده حتّى أنه يأتيه الكفار من خلفه فيرفسهم(363) جواده بسنابكه فيقتلهم ، نودي في سرّه ذات يوم من أيام قتاله : يا علي ، الأجل قد حضر ، فأخبر بذلك أولاده ، وان الكُفّار يقتلونه ويقطعونه قطعًا ويرمونه في البحر ، فارتقبوا أجزائي على شاطئ البحر ، فأتوا لشاطئ البحر ليلاً ، فوجدوا على أبعاضه(364) نورا تتميز به عن غيرها ، فاستجمعوها / [163/أ] مستكملة ونقلوها لبلده قصور السّاف ، فقبره بها مشهور(365) قرب جده سيدي علي بن أبي القاسم.

---

360) الذي سمّيت به قرية سيدي علوان غربي قصور الساف ، وتاريخ وفاته غير معروف ، ولعلّه من أهل القرن العاشر إستنباطًا من تاريخ وفاة تلميذه علي بن أبي القاسم المحجوب : وانظر الحقيقة التّاريخيّة للتّصوّف الإسلامي ص 319.

361) الأسبان.

362) 1550 م.

363) في الأصول : «فيرفصهم».

364) في ت وب وط : «الفاظه».

365) الحقيقة التّاريخيّة للتّصوّف الإسلامي ص 228 – 229 ، إختصر ترجمته من هنا.

ترجمة الشّيْخ طاهر بن عبد الواحد المزوغي :

وممّن أدركنا من أحفاد سيدي طاهر المزوغي الشّيْخ الأبر النّاسك سيدي طاهر بن عبد الواحد بن علي بن عبد الواحد بن عبد الرّحمان بن الفضيل بن عبد الرّحمان بن أحمد – شهر زروق – بن محمّد بن عمر بن سعيد بن علي بن محمد إبن الشّيْخ سيدي المزوغي ، وجدت بخطّه : قدم كاتبه لبلد قصور السّاف المعروفة بزاوية الجدّ الشّيْخ سيدي طاهر المزوغي من تونس برمضان من عام ثلاثة وسبعين ومائة وألف[366].

(وكان زمن مكثه بتونس لطلب العلم مقدار خمس سنين)[367] (وكان مكثه قبل ذلك بصفاقس مقدار خمس سنين)[368] يطلب العلم ، وحجّ عام واحد وستين ومائة وألف[369] مع والده عبد الواحد ، وكان تفقّه بصفاقس على الشّيْخ سيدي طيّب الشّرفي[370] ، وبتونس على الشّيْخ الشّحمي[371] ، وشيخنا سيدي عبد الله السّوسي[372] ، وشيخنا المحجوب[373] ، والشيخ الغرياني[374] وغيرهم ، وتفقّه في بلده على[375] أخيه الشّيْخ أبي عبد الله محمّد بن عبد الواحد ، وتفقّه أخوه بصفاقس على[375] الشّيْخ سيدي محمّد الشّرفي إبن المؤدّب[376] ، توفّي صاحب التّرجمة آخر شوّال سنة ثمان وتسعين ومائة

---

366) أفريل – ماي 1760 م.

367) ما بين القوسين ساقط من ب.

368) ما بين القوسين ساقط من ش.

369) 1748 م.

370) الطّيب بن محمد ابن المؤدب الشرفي كان من النبهاء وفحول الفقهاء (ت. 1783/1198) شجرة النور ص 344 – 345.

371) هو محمد الشحمي كبير علماء المعقولات في عصره (ت. بعد 1777/1190) شجرة النور 349.

372) المغربي نزيل تونس (ت. في حدود 1755/1169) ، شجرة النور ص 345.

373) أبو الفضل قاسم المحجوب المساكني مولدًا ودارًا ، التونسي قرارًا الفقيه المحقق ، تولى رئاسة الفتوى مدة الأمير علي باي وتوفي في سنة 1776/1190 : شجرة النور ص 348.

374) هو محمد بن علي الليبي الأصل ، نزيل تونس ، المسند الفقيه الصوفي ، له مؤلفات (ت. 1780/1195) شجرة النور ، ص 349.

375) في الأصول : «عن».

376) الفقيه الفلكي الشاعر ، شيخ المدرسة الحسينية بصفاقس من تلامذة الشيخ علي النوري والشيخ عبد العزيز الفراتي ، وقرأ بالأزهر (ت. 1745/1157) شجرة النور ص 344 – 345.

وألف[377] وعمره ثلاث وستّون سنة ، وولادته سنة خمس وثلاثين ومائة وألف[378] ووفاة أخيه سنة تسع وتسعين ومائة وألف بربيع الثاني[379].

ترجمة الشَّيْخ الولي عبّاس الجديدي :

ومن أولياء الله بمدينة صفاقس الشَّيْخ الولي الصّالح الحسيب النّسيب الشّريف المزار المتبرّك به سيدي أبي الفضل عبّاس الجديدي / إبن الشّيْخ السّيّد الشّريف عبد الله إبن [163/ب] السّيّد الشّريف أحمد إبن المعظّم الأجل سيدي إدريس الأصغر ، إبن مولانا إدريس الأكبر[380] – رحمهم الله تعالى ورضي الله عنهم ونفعنا بهم – مقامه عظيم مشهور[381]. وكان له خلف صالحون ، ولهم إجازات وأسانيد في أخذ الطّريقة والمصافحة ولبس الخرقة ، وبأيديهم أوامر سلطانية حفصية وعثمانية باحترام زاويتهم وأخذ أعشار لقوتهم وإطعام فقرائهم.

ثمّ انقضت تلك السّنون وأهلها فكـأنّهـا وكـأنّهم أحلام

غير أن المقام معظّم محترم وهو بالرّكن الشّمالي الشّرقي من داخل المدينة ، معروف[382] معظّم محترم.

ونقل الشَّيْخ أبو الحسن الكرّاي – رحمه الله تعالى – أنّ الشَّيْخ أبا بغيلة – نفعنا الله به – كان يلتقي بالخِضر في مقام سيدي عباس الجديدي ، وأنّه دعا له ولذرّيته بالبركة ، ولم نقف على تاريخ وفاته ، لكن يعرف بالقرب من [وفاة] مولاي إدريس ، وربّما كان ممّن استشهد في وقعة إستيلاء لجار على البلد ، فإنّ أكثر أهل الخير والصّلاح استشهدوا بها.

---

377) 15 سبتمبر 1784 م.

378) 1722 – 1723 م.

379) فيفري – مارس 1785 م.

380) فهو حسني نسبة للحسن السّبط.

381) موجود حاليًا بآخر نهج الجم شمالاً.

382) حاليًا موجود في آخر نهج السور داخل المدينة العتيقة وتحول هذا المقام فيما مضى إلى مدرسة إبتدائية تعرف بمدرسة الهلال ، ثمّ تعطّلت وتحوّل المقام إلى مقرّ للكفيف.

ترجمة المرابطة السّتّ أم يحيى مريم وشيخها أبي يوسف الدّهماني :

ومن منازل صفاقس الرّاجعة إليها المنية[383] وهي قرية العابدة السّتّ أم يحيى مريم وهي معروفة مشهورة.

قال في فضلها سيدي علي بن أبي القاسم – نفعنا الله به – : السّتّ أمّ يحيى خير من ألف لحية من لحية علي بن أبي القاسم ، أخذت الطَّريقة عن العارف بالله سيدي أبو يوسف يعقوب بن ثابت الدّهماني[384].

ولا بدّ لنا من ذكر شيء من مآثره ليعلم علو الفرع بعلو أصله ، ولتزداد لنا البركة بذكر هؤلاء الأخيار. قال / في معالم الإيمان[385] : كان من أعلام طريق الإرادة وكبار [164/أ] مشايخها ، سمع الفقه على الشّيْخ أبي زكرياء بن عوانة ، ولازم مجلسه وانتفع به ، وسمع الحديث على أبي محمّد عبد الله بن حوط الله وغيره ، ورحل إلى بجاية للقاء الشّيْخ أبي مدين شعيب ، ثمّ رحل إلى الحجّ سنة خمس وتسعين وخمسمائة[386] ، ولقي الشّيْخ أبا عبد الله القرشي – رضي الله تعالى عنه – ثمّ قال : ولد أبو يوسف بالبادية بقرب قرية تسمّى المسروقين[387] من حوز القيروان ، ونشأ بالبادية والقيروان ، وقرأ القرآن على أبي عبد الله محمّد بن عمر بن جابر – رحمه الله –.

وكان – رحمه الله – منذ مراهقته البلوغ محافظًا على الصَّلاة متنزهًا عن الفواحش ، وكان محبًّا في ركوب الخيل العتاق.

وكان سبب انقطاعه عن العرب[388] أنّه قال : سرت مرّة مع جماعة من بني عمّي من عمل القيروان إلى المهدية بنيّة الجهاد عند نزول الرُّوم عليها في وقعة الجمعة المشهورة ،

---

383) قرب جبنيانة : الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي ص 223.

384) رحل إلى لقاء أبي مدين ببجانة سنة 1174/570 وله نحو 20 سنة ، وهو قيرواني كانت له تنقلات وزيارات إلى المهدية وأحوازها ، ومن مريديه أم يحيى ، وله أشعار تنم على فكرة وحدة الوجود (توفي سنة 1224/621 – 1225) ودفن بالقيروان وقبره بجوار قبر أبي الحسن القابسي قرب باب تونس ، أنظر : الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي ص 223 ، شجرة النور : 168 – 169 ، ومعالم الإيمان 213/3 – 229.

385) 213/3 – 229 م.

386) 1198 – 1199 م.

387) كانت في المكان المعروف في وقتنا هذا بمركز «سيدي الماني» ، قبلي الطّريق الرّابطة بين مدينتي سوسة والقيروان : الحقيقة التّاريخية للتّصوّف الإسلامي ، هامش 1 ص 223.

388) المقصود بهم سكّان البادية.

وكان عَلَيَّ درع حسن وأنا راكب على فرس أدهم ، فلقيَنَا الشَّيْخ الصَّالح الوليّ أبا[389] زكريّاء بن الأجباري ، فنظر إلينا ثمّ كرّر إليّ النّظر دونهم ، ثمّ قبض على ركابي وقال لي : ما اسمك يا فتي؟ فقلت له : يعقوب ، فقال : إسأل الله يا فتى أن يفني شبابك في طاعة الله ، فثار خاطري لذلك في الحين ، وكأنّما رماني بسهم ، فخرجت من المهدية وأنا على خلاف ما كنت عليه ، ثمّ وصلت إلى القيروان ، فتركت ركوب الخيل ومكاثرة أهلي ، وانقطعت إلى عمارة مسجد كان هناك بقربنا / [164/ب] ثمّ قصدت إلى ميعاد الشَّيْخ الصّالح الزّاهد الفقيه أبي زكرياء بن عوانه – رحمه الله تعالى – ثمّ لم يزل ملازمًا لميعاده حتّى تعلّم كثيرًا من العلم[390] ، ثمّ لازم الخير والخدمة[391] في المسجد إلى أن وصل الشَّيْخ أبو عبد الله البسكري تلميذ أبي الفضل البسكري[392] القيروان ، فصحبه مُدَّة وانتفع به ، ثمّ ارتفعت أحواله ، وأخذ في المجاهدة وسلوك سبيل الرِّيَاضَة ، وصحب جماعة من كبار المشايخ فانتفع بصحبتهم.

وله كرامات كثيرة ، فمنها أنّ الشَّيْخ أبا عبد الله القرشي[393] كان قد هجر السّماع وحضوره فقيل له : لم منعته وهجرته؟ قال : لما حدث فيه من المقاصد لغير الله ، ولمّا قدم عليه الشَّيْخ أبو يوسف سأله الاذن فيه ، وحضوره معه قال : هذا باب سددناه ومنعناه فقال : أنا قادم ولي عليكم كرامة القدوم ، فأجابه إلى ذلك ، فجعل مجلس سماع حضر فيه إثنا[394] عشررجلاً من الأكابر ، وجَمْعٌ من الطلبة والمحبِّين ، فلمّا أخذوا في السّماع تواجد الشَّيْخ أبو يوسف وارتفع من موضعه في الهواء[395] فقام الشَّيْخ أبو عبد الله القرشي على قدميه وكان زمنًا مقعدًا منذ أعوام تقدَّمت ، قال أبو عبد الله القرطبي : فجعلت أمدّ يدي وأنا قائم على صدور قدمي لعلّي ألحق قدم الشَّيْخ أبي يوسف وهو في الهواء[395] فلم أستطع ، فدار ذلك البيت جميعه ثمّ عاد إلى موضعه وأنا أنظر إلى بياض

---

389) في الأصول والمعالم : «أبو».

390) في المعالم : «العمل» 216/3 .

391) في المعالم : «الخلوة».

392) أبو الفضل ابن النحوي إبن الشّيخ أبي الفضل البسكري (ت. 1119/513) الوفيات لابن قنفد ص 40.

393) هو محمد بن أحمد بن إبراهيم ، أصله من بلاد الأندلس وسكن مصر ثمّ القدس وبه مات في سنة 1203/599 ، ودفن به : أنظر جامع كرامات الأولياء 190/1 – 195 ، الطبقات الكبرى للشعراني 159/1 – 160.

394) في ش : «اثنى».

395) في ش : «الهوى».

قدميه وهو في الهواء[395] ، فكان الشَّيْخ أبو عبد الله يقول : تقولون ذهب الرّجال؟ أنظروا إلى هذا البدوي.

قال وعمي في آخر عمره وكان إذا أخذ / المصحف نظر فيه. [165/أ]

ورأت أم يحيى مريم بالمنية من قطر صفاقس في منامها قائلاً يقول لها : سر إلى الشّيخ أبي زكرياء المعروف بابن هناص بالمهدية وبايعه ، قالت : فاستيقظت واستعذت بالله من الشّيطان الرّجيم ونمت ، فعاد إليّ ثانية وثالثة فقال لي في الثالثة : ما أنا شيطان وإنّما أنا ملك . قالت : فسرت من بلدي إلى المهدية في طلب من ذكر لي ، فلمّا دخلت البلد بقيت حائرة أتوسّم من أسأله يدلّني على موضعه ، فبينما أنا كذلك إذ فتح باب دار فخرج رجل عليه ثوب وعلى رأسه قلنسوة دون عمَّة ، فقال لي على البديهة : أهلاً ومرحبًا بالمرابطة مريم على عدد ما مشيت من منزلك إلى هنا ، والذي يخاطبك يعقوب الدَّهماني ، والذي خوطبت به في منزلك هو عندي في منزلي ، قالت : فبقيت متعجبة لكشفه ما خوطبت به في منامي في بلدي ومخاطبته لي باسمي من غير سابق معرفة ، فدخلت الدَّار فوجدت بها زوجه أمّ يوسف ولم يكن عنده إذ ذاك غيرها ، ووجدت الشّيخ أبا زكرياء عنده في خدمته ، فأقمت عنده وقتًا ، فقال لي الشيخ أبو زكرياء : عليك بخدمة الشّيخ أبي يوسف فيمَا أُمِرْتِ وحسبك ما خاطبك به أول ما رآك وكاشف بما رأيته في المنام وعن السؤال أغناك ، قالت : فألزمت نفسي لطاعته من ذلك الزّمان إلى الآن ، وكان عندها للشّيخ أبي يوسف زيادة تعظيم وهيبة واحترام لا ينحصر / طول حياته وبعد مماته ، وكان لها قرب التّسعين أو الثّمانين ، فكانت لا تجلس دون لحاف ولا تستطيع رفع الكلام عنده ولا النّظر إليه ، ولا تقرب منه هيبة واحترامًا. [165/ب]

ولمّا رجعت إلى موضعها ومرض الشَّيخ أبو يوسف مرضًا شديدًا نُقِلَ إليها أنّه مات ، فدهشت وأقعدت وسكنت دهرًا لا تستطيع القيام ، فلمّا برئ الشّيخ من ذلك المرض الذي قال فيه : سررت[396] بولدين يزدادان لي ، وأعيش إثني عشر عامًا ، فكان كذلك ، فعند تمام عافيته وصحّته ، وسمع بخبرها سافر لها ، فلمّا قرب من موضعها قال : لا يخبرها أحد بي حتى أدخل عليها المنزل ، فلمّا دخل قيل لها : الشّيخ طالع إليك ! فقامت من زمانتها في ساعتها وتلقّته خارج باب البيت ، وقالت : يا سيدي ، قيل

(396) في المعالم ص 222 : «بشرت».

لي أنّك متّ فدخلت عليّ حسرة ، فقال لها : يا مريم لا شيء يحيي ويميت إلّا الله تعالى ، فكان لها في الشّيخ قصد عظيم ونيّة حسنة ، واتّخاذ صحبة.

قال بعضهم : نزل الشّيخ عندنا بقصر وكنت بالقصر الآخر ، فسرت إليه وقلت في نفسي : تمنّيت لو أطعمني الشّيخ ثلاث لقم بيده في فمي ! فلمّا دخلت عليه وجدته في جماعة يتناولون طعامًا ، والمرابطة مريم جالسة ، فلمّا رأتني قالت للشّيخ : إدفع لصاحب الأمنية ما طلب ، فأعطاني ثلاث لقم كما خطر في سرّي فتعجّبت من مطابقتهما لذلك.

[166/أ] ومن كراماتها ما حدّث به / بعضهم قال : كنا ليلة عند المرابطة في البيت فضربت بيدها ، فبقينا ننظر ، فقالت : محمد البرزلي أتي من قصر زياد والأسد بالجابية أخشى أن يروعه ، وإلّا فما يرى منه بأسًا ! ثمّ سكتت ساعة وقالت : قوموا افتحوا له الباب ، فقمنا فوجدناه قرب الباب ، آتيًا ، ونظرنا الأسد بالموضع الذي ذكرت لم يتحرك.

وقال بعض أصحابها : خرجت من المهدية ومعي شيء من السريس[397] برسمها ، فلمّا وصلت الغيضة[398] وحان الليل سمعت خلفي حِسًّا ، فوقفت أتحسّس إليه ، فانقطع عنّي ، فلم أزل كذلك حتّى وصلت ولا رأيت شيئًا ، فلمّا ضربت الباب وفتح لي أخرجَتْ لي رأسها من الطّاق ، وقالت : قد[399] وصل ! فقلت لها : من هو؟ قالت : الأسد كان خلفك يشيعك ، فنظرت فإذا هو كما قالت ، وكانت أمّ يحيى هذه من أصحاب الشّيخ الأوّلين ، وخواصه ، وكان يقول : أصحابي الأوّل دخلوا من الباب الذي دخلت منه وحصل لهم مثل ما حصل لي وزيادة.

قال[400] : ومن كرامات الشّيخ أبي يوسف ما حدّثني به أبو علي فضل الصّفاقسي قال : عطشت ليلة عطشًا شديدًا ولم أجد ماء ولم أطق صبرًا ، فأخذت الإناء ومددت يدي وقلت : يا ربّ بحرمة سيدي أبي يوسف إلّا ما أسقيتني السّاعة ، والسّماء مصحية ، والنّجوم تزهر ، ويدي ممدودة بالإناء ، ثمّ غلب عليّ غالب حال غيّبني عن حسّي ، فلم أدخل يدي إلّا وقد قيّض الله بمطر غزير / في الوقت فوجدت الماجل[401] قد امتلأ حتّى ارتفع الغطاء. [16/ب]

---

397) في ط : «السريس» ، وفي المعالم ص 222 : «السرجس» ، وفي نسخ أخرى منه : «الموبس».

398) في ت : «الغيظمة».

399) في الأصول : «من» ، وفي المعالم : «قد وصل وصل» ص 223.

400) المعالم 226.

401) في الأصول : «الماجن».

وحدّثني أبو علي فضل الصّفاقسي أيضًا قال : كنّا بزويلة جلوسًا مع الشّيخ في مسجد ورجل جندي ينظر إلينا من كوّة في المسجد ، ثمّ إنه سار وعاد ينظر ، ثمّ مضى ، وقام الشّيخ وقمنا معه ، فلمّا جلس في الدّار ساعة دعا[402] بفقير كان عنده فقال له : يا سليمان سر إلى المسجد الذي كنّا فيه وانظر حُصُرَهُ ، فمضى الفقير ثمّ عاد وقال : يا سيدي ما فيه حُصُر ، فبعد ساعة طويلة سمعنا مناديًا ينادي على رأس مقطوع : هذا جزاء من فعل كذا ، فأخرج الشّيخ رأسه من طاق في الدار ، ونظر فقال : هذا رأس ذلك الرجل الذي كان ينظر إلينا في المسجد ، فلمّا خرجنا أخذ حُصُرَ المسجد يشرب عليها أصحابه الخمر ففعل الله به هذا.

قال[403] : وتولّى الشّيخ أبو يوسف القطابة ، حدّث الشّيخ حزام المدفون بالمرسى قرب مدينة تونس قال : لمّا زار الشيخ أبو يوسف والشّيخ أبو محمّد عبد العزيز أبا مدين ببجاية قال لبعض أصحابهما : احتفظوا بهذين[404] فإنه تكون لهما القطابة[405] سبعة أعوام بهما شركة ، قال : تكون للأوّل ، فإذا مات يكون الأمر للّذي يبقى بعده بقدر ما تخلّف بعده ، فتوفّي الشّيخ أبو يوسف بالمحرّم من عام واحد وعشرين وستّمائة[406] ، وتوفّي الشّيخ أبو محمّد في شهر رجب من ذلك العام.

ودفن الشيخ أبو يوسف بالقيروان قرب الإمام أبي الحسن القابسي.

ترجمة الشّيخ عبد الواحد إبن التّين :

ومن مشايخ صفاقس / المشهورين سيدي عبد الواحد ابن التين شارح البخاري ، [167/أ] وشهرته تُغْني عن التّعريف بفضله ، وشرحه[407] مشهور ، وله فيه اعتناء زائد بالفقه مع

---

(402) في ش : «دعى».
(403) المعالم 227/3.
(404) الشيخين.
(405) في ش وت : «قطبية».
(406) جانفي – فيفري 1224 م.
(407) «يسمّى المخبر الفصيح الجامع لفوائد مسند البخاري الصّحيح» ، يوجد الجزء الرّابع منه في المكتبة الوطنية بتونس (مكتبة ح. ح. عبد الوهاب) ، وسمعت من بعض أهل العلم أنّه يوجد كاملاً في مطماطة. (م. محفوظ).

رشاقة العبارة ولطف الإشارة ، توفّي – رحمه الله – سنة إحدى عشرة وستمائة[408] وقبره مشهور مزار متبرّك به ، أَمَامَ الإمام اللخمي[409].

ترجمة الشّيخ الولي سيدي جبلة :

ومنهم الشّيخ الصّالح سيدي جبلة المدفون خارج البلد بشاطئ البحر[410] عند الركن الغربي الجنوبي تحت سور القصبة ، كان له سبعة أولاد ، فقتل شهيدًا في واقعة إستيلاء أصحاب لجار[411] في المكان الذي دفن فيه ، وقُتِل جميع أولاده شهداء ، وله مقام بداخل صفاقس كان يقرئ به العلم قرب ساباط عريبة[412] ، وهو اليوم مكتب يُقرِئ فيه ذرية معلّم أطفال المسلمين شيخ البركة أبو عبد الله سيدي الحاج محمّد المصمودي – رحمه الله تعالى – .

وللشّيخ سيدي جبلة كرامات عديدة منها أنّ بعضهم خرج ليلاً لصيد الجرمان من البرك التي تخلّفها الأمطار ، فلمّا قرب من ضريح الشّيخ قال له رفيقه : وجبت علينا زيارة الشّيخ وقراءة فاتحة الكتاب فقال له مُسْتَخِفًّا : اتركنا ما نعرف شيخًا رح بنا ، فما استتم كلامه إلّا ولطمه كفّ على وجهه ذهب بصره ، فلم يدر أين يذهب ، فأخبر صاحبه بما طرأ له وقال : ارجع بنا إلى الشّيخ ، فرجع به يقوده ، فلمّا دخل جعل يَتَضَرَّعُ ويطلب الإقالة والعفو ، فبعد مشقّة ظهر له بعض ضوء ، فخرجا ورجعا إلى محلّ الإصطياد ، فدخل كلّ / واحد منهما زريبة[413] فرمى المستخفّ بندقية على الجرمان فانكسرت وخرّ [167/ب] عليه سقف الزريبة[413] فأثقله التّراب فلم يستطع الحراك ولا الجواب ولا شعور لصاحبه بما وقع عليه ، فلمّا أراد الإنصراف ناداه فلم يجبه ، فظنّه رجع إلى البلد ، فلم يجده بالبلد فرجع إلى الزريبة[413] فوجده على تلك الحالة بآخر رمق ، فاستخرجه هو ومن معه بعد جهد جهيد ، وأتوا به إلى ضريح الشّيخ ، فتركه[414] به (وخرج إلى أهله يخبرهم ،

408) 1214 – 1215 م.

409) أنظر تراجم المؤلّفين التّونسيين 276/1.

410) هذا في زمانه أمّا الآن فهو بأرض يابسة بعد أن وقع ردم البحر.

411) النرماني ملك صقلية.

412) اليوم بآخر نهج الدريبة شرقًا ، سمي في أول هذا القرن سيدي بو علي وصار اليوم منزلاً.

413) كذا في ب وت ، وفي ط وش : «زيبة».

414) في ط : «فتركوه».

فجاء[415] أهله إليه يستشفعون)[416] ويطلبون الإقالة ، فأقاموا به حتّى شفاه الله ، فتاب وَحَسُنَ اعتقاده.

ومنها أنّ رجلاً بات يحرس مقثاته من اللصوص ، فلمّا أحسّ بمبادئ الفجر اطمأن وأخذته غفوة ، فانتبه فظهر له أثر لصوص خرجوا من المقثاة وساروا نحو البلد ، فاتبعهم قليلاً قليلاً (فأتوا البلد)[417] فوجدوا الباب مغلقًا فتمادوا سائرين من الباب فتبعهم حتّى وصلوا ضريح الشّيخ وطلع النّهار ، فاستوقفهم فوقفوا ، ووجد عندهم غرارة على حمارة مملوءة بالقثاء[418] فقال : ما هذا؟ ففرّ منهم إثنان ومسك واحد فطلب منه الإقالة لوجه الله ، فأبى إلّا إدخاله للحاكم ليسجنه ويضربه وينتقم منه ، فجعل اللّصّ يتمرّغ[419] في تراب الشّيخ فلم يقله ، فسمع صوتًا ولم ير شخصًا يقول : اتركه لوجه الله ولا تفضحه يكفيه ما أصابه ، فلم يلتفت لذلك ، فكثرت المراجعة فقال : / آخر الكلام ، إمّا أن [168/أ] تتركه لوجه الله وإلّا عاقبتك ، تهتكه في حرمي أما تستحي؟ خذ متاعك واتركه ، فالتفت وَإذا خيال شخص على باب الضّريح[420] يخاطبه بعنف وغلظة حتّى خشي على نفسه ، فتركه خوفًا منه ، فلمّا نام فإذا بشخص واقف على رأسه وهو يقول : أما تستحي؟ تهتك حرمي والله لولا تركك له لقطعت ظهرك ، فطلب من الشّيخ العفو فعفا[421] عنه ، فاستيقظ مرعوبًا ، والقَصَّارون يقصرون القماش وينشرون بجواره قماشهم ، فكثير ما يأتيهم الأعراب على خيولهم يريدون نهبهم ، فيصيبهم من البلاء ما يقتل بعضهم ، ويذهل بعضهم ، ومن سرق شيئًا افتضح حتى صار حرمًا آمنًا ، ونسوا[422] مرّة شَدَّادَتَيْنِ[423] من القماش ولم يتفكّروهما حتّى صار الليل وغلقت الأبواب ، فأيسوا منهما ، فجاء بعض أهل البادية فوجدهما حول الشّيخ ، فأخذهما وسار فوقع في خليج البحر قرب الشّيخ ،

415) في بقية الأصول : «وخرج إليه أهله يستشفعون».

416) في الأصول : «أخذه».

417) ساقطة من ش.

418) في ب وت : «القثا» ، وفي ط : «القث».

419) في ط : «يتضرع».

420) في ط : «وإذا خيال على بابا الضريح شخص».

421) في ش : «عفى».

422) في ط : «وتنشروا».

423) ج شدّة أو شدادة ، مصطلح تجاري وتعني عادة مجموعة من الأصواف (أغطية أو برانيس) مشدودة مع بعضها برباط.

وعالج الخروج فلم يقدر حتّى طلع النهار، وجاء أصحاب القماش فأخذوا قماشهم وتركوا سبيله.

وعلى ضريحه هيبة وجلالة تقشعّر منه الجلود، قال بعضهم: علامة الولي أنك إذا وقفت على ضريحه وجدت من نفسك قبضًا أو بسطًا، وعلامة غيره أن لا تجد شيئًا منهما، وهذا مشاهد محسوس[424]، فضريح الشّيخ اللخمي عليه أنس وبسط مشاهد معروف عند كلّ أحد، وضريح الشّيخ سيدي محمّد الكراي عليه من المهابة ما هو/ [168/ب] مشاهد لكلّ من زاره.

ترجمة الشّيخ علي بن عبد النّاظر:

ومن مشايخ صفاقس المشهورين بالفضل والصّلاح: سيدي أبي الحسن علي بن عبد النّاظر، قبره مشهور[425] وعليه قبّة في الرّبض، خارج باب البحر، بالقرب منه من جهة الغرب. أصله من قرية مَلُّول[426]، وهو من ذرية سيدي أبي محمد عبد النّاظر صاحب الشّيخ أبي علي سالم بن أبي عثمان سعيد القُدَيْدِي بلدًا، الحضرمي نسبًا، القيرواني مسكنًا ومدفنًا.

قال في معالم الإيمان لمّا ذكر مناقب الشّيخ القديدي المذكور قال: فمن كراماته ما حدّثني من نثق به قال: وقعت بين عروة وملّول فتنة، وهما قريتان من عمل المهدية، وسبب ذلك أنّ أهل عروة سرقوا لأهل ملّول حوائج وحليًا، واتّهموهم بذلك، فأنكر أهل عروة ذلك، فمشى الشّيخ الصّالح أبو محمّد عبد النّاظر وهو من أهل ملّول إلى أهل عروة وتحدّث معهم في السّرقة فأنكروها وحلفوا فضاق عبد النّاظر من ذلك ثمّ قال: ما لهذه المسألة غير الشّيخ أبي علي سالم والفقيه أبي زيد عبد الرّحمان الأجمي، فركب وسار إلى الشّيخ أبي علي وهو بمنزل قديد، فلمّا وصل سلّم عليه وقال له: ما أتى بك يا شيخ أبا محمد؟ فأخبره بالقضيّة وقال: تأمرني أن أمشي إلى الشّيخ الفقيه أبي زيد الأجمي لمؤانستك؟ قال له: افعل ما تريد، فمشى وأتى به وساروا جميعًا حتّى وصلوا إلى القريتين

424) في ط: «مشاهد معروف عند كل أحد».

425) إندثر هذا القبر

426) من قرى السّاحل التّونسي.

فقالوا : بأيّهما نبدأ؟ فقال الشّيخ أبوعلي : نبدأ بعروة ، فخرج أهل البلد كلّهم للقاء الشّيخ أبي علي ، وحلفوا عليه لينزلنّ عن فرسه ، فامتنع / من ذلك ، فألحّوا عليه ، [169/أ] فقال : ما ننزل عندكم إلّا على شرط أن تطعمونا الجرادق والعسل ، فقالوا : هذا أيسر ما عندنا ، وإنّما أردنا أن نذبح الدّجاج ونكثر من الطعام ، ولو أمكننا التّقرّب إليك بأنفسنا لفعلنا ، قال : لا ،[427] إلّا[428] الجرادق والعسل ، قالوا : نعم ، ثمّ نزل الشّيخ عن فرسه وجلس ووجّه معهم فقيرًا من فقرائه وبيده قصعة ليأخذ فيها العسل ، فلمّا أتوا إلى سرير النّحل وفتحوا أوّل بيت من بيوت النّحل وجدوها دودًا فغلقوها وعمدوا إلى الثّانية فكانت كذلك ، فعمدوا إلى الثّالثة ، فلما فتحوها وجدوا فيها الحوائج والحلي الّذي لأهل ملّول ، فأخذ الفقير الحوائج في طرفه وأتى بها إلى الشّيخ أبي علي ، فلمّا وضعها بين يديه قال الفقيه أبوزيد الأجمي : يا سيدي أبا علي ، لقد أطلعك الله على أمر عظيم ، فسبحان من وهبك هذا السّرّ ، فقال الشّيخ : يا فقيه أبا زيد تعجب من ذلك؟ المنّة لِلّه وحده وما ذلك على الله بعزيز ، ثمّ قال الشّيخ عبد النّاظر : يا فقيه أبا زيد قال الله العظيم ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾[429] ولا تستكثر هذا من الشّيخ أبي علي فإنّه شيخ الإطّلاع والمكاشفة والمراقبة ، فقال الشّيخ أبوعلي : لا تتّهموني فإني أَعْرَف بنفسي ، وهذا الذي ظهر لنا هو نيّتكم وخواطركم ثمّ أخذ أهل منزل عروة من الحياء والحشمة ما أفهمهم[430] ، واستحيوا من الشّيخ لما وقعوا فيه ، وقالوا : ما علمنا من فعل هذا فلا تؤاخذنا واجبر كسرنا / فقال : توبوا إلى الله – عزّ وجلّ – فتابوا ، ثم قال [169/ب] الشّيخ : تاب الله علينا أجمعين.

وتوفّي الشّيخ أبوعلي القُدَيْدِي يوم الجمعة قبل الزّوال لثمان عشرة ليلة خلت من ذي القعدة من عام تسع وتسعين وستمائة[431] ، ودُفِنَ بقبر كان أمر بحفره قبل وفاته بثلاث سنين بزاويته المبنية بمدينة القيروان[432].

وتوفّت والدته أمّ سلامة[433] واسمها زينب في اليوم الثّاني والعشرين لذي الحجة

427) ساقطة من ط وب وت.
428) ساقطة من ب.
429) سورة الجمعة : 4.
430) في ط : «أبهمهم».
431) 5 أوت 1300 م.
432) الحقيقة التّاريخية للتّصوّف الإسلامي 258 – 259.
433) في ط : «أم سلمة».

مكمل عام تسعين وستمائة[434] ، وقبرها بمسجد الزّاوية مشهور يزار ويتبرّك به.

وكان الشّيخ الصّالح أبو محمد عبد النّاظر الملّولي يزورها ، وأوصى ولده الصّالح[435] أبا علي محمّد [بأن] يزورها فكان يزورها في كلّ وقت ، وعَلِي الذي كُنِّيَ به محمد الذي أمره الشّيخ عبد النّاظر بالزيارة هو سيدي علي عبد النّاظر صاحب هذه الترجمة.

فإن أهل ملّول انتقلوا لصفاقس وإلى الآن يقال لهم الملالة[436] ومن جملتهم أبناء عبد النّاظر ، وأولاد الوافي ، والدرايسة[437] والبكاكشة[438] ، كما أنّ أهل عروة[439] انتقلوا لسوسة.

وسبب انتقال أهل ملّول لصفاقس أنّ شيخ القرية كان له صديق بصفاقس عمل عرسًا ، فسمع الملّولي بذلك ، فاحتمل جانبًا من العسل لصاحبه وتوجّه به إليه فلقيه أعرابي فسأله فعرَّفه بقصده ، فقال : أنا أولى بالعَسَل من صاحبك ، فاعتذر إليه فأبى وأخذه رغمًا عليه ، فرجع من القهر واحتمل أهله إلى صفاقس ، فاتبعه أهل القرية وَخَرُبَت.

ومكان هذه القرية مكان قبة سيدي أبي النُّور.

ذكر إبن ناجي في مناقب الشّيخ أبي عفيف صالح بن عبد المعالي الصدفي[440] وكان من أئمة الكتاب / والسّنّة وله كرامات كثيرة من جملتها أنّ الشّيخ كان يومًا سائرًا [170/أ] مع أصحابه ببني[441] جرير بلده ، وإذا به قال لأصحابه : كَبِّرُوا ، فكَبَّروا بِتكْبيرة أربعًا ، وسلّم[442] وسلّموا معه ، فظهر الأمر أنّ تلك السّاعة صلّى فيها على الشّيخ أبي الضّياء بنّور بملّول وبينهما مسيرة نحو يومين.

وتوفّي الشّيخ صالح الصدفي ببني[443] جرير سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة[444]

---

434) 16 ديسمبر 1291 م.

435) ساقطة من ط.

436) جمع واحدة = ملّولي.

437) جمع واحدة إدريس.

438) جمع واحدة بكّوش ، وكل هذه الأسر باقية بصفاقس إلى الآن.

439) ولقب العروي موجود بسوسة والمنستير.

440) معالم الايمان.

441) ساقطة من ط.

442) ساقطة من ط.

443) في ط : «يعني».

444) 1370 – 1371 م.

وصَلّى عليه بها ، ودفن بالقيروان بجبانة باب سلم اهـ.

ثمّ إن الشّيخ سيدي علي بن عبد النّاظر صاحب التّرجمة مات عن غير عقب ، وخلّف دارًا فبيعت ، وبني بثمنها تلك القبّة الّتي عليه والله أعلم.

ولم نقف له على تاريخ وفاة لعدم اعتناء النّاس في تلك الأزمان بالتّاريخ لكن يؤخذ ممّا مرّ أنّه من أهل القرن الثّامن.

ترجمة الشّيخ أبي الحسن علي بن عبد الكافي :

ومن مشايخ أهل صفاقس المشهورين بالفضل والصّلاح سيدي أبو الحسن[445] علي ابن عبد الكافي صاحب الزّاوية المشهورة خارج البلد بالوطن الغربي بين ضريحه وصفاقس قدر خمسة أميال.

وممّا وجد مسطورًا بخطوط العدول ما معناه : في علم شهديه حين أتى المكرم جعفر المنصوري وزير المعظّم سيدنا ومولانا أبي حفص عمر[446] ملك طرابلس - أيّده الله بالنّصر المبين ، وثبّته الله على طريقة طاعته ، وكلمة الحقّ واليقين ، إلى زاوية الشّيخ الولي الصّالح المزار ، المتبرّك به سيدي أبي الحسن علي ، صاحب الزّاوية الكائنة بوطن صفاقس الغربي ، قرب منزل قلمام ، ابن الشّيخ الولي الصّالح القطب الغوث أبي عبد الله محمد إبن الشّيخ الإمام الخطيب المدرّس التّقي / الواعظ العالم العلاّمة الولي الصّالح القطب [171/ب] الغوث أبي الكرامات[447] سيدي عبد الكافي القرشي العثماني اليثربي ، أعاد الله علينا من بركاته ، وزادنا من سحائب خيراته ، ومعه خمسة أبغال مُحمَّلة بالذّهب والسّروج والملبوس من أكراك[448] وحلل وغيرها من أنواع اللّباس ، ونزل في الزّاوية المذكورة هو وخدّامه ، فاستقرّ بالزّاوية المذكورة ثلاثة أيام. ففي اليوم الثّالث أقبل نحو الزّاوية قدر ثلاثين فارسًا على خيل ظامئة[449] من درك السّير وهم يبحثون عن جعفر المذكور ، فوجدوا سيدي علي هناك جالسًا بباب زاويته ، فسلّموا عليه ، فردّ عليهم السّلام وأمرهم

445) ساقطة من ط.

446) إنتقلت طرابلس من حكم الموحّدين إلى حكم الحفصيين في تونس وذلك خلال القرن الثامن الهجري.

447) في ط : «البركات».

448) ج كرك وهو ما يلبس بالرّجل.

449) في ت وب : «طامية» ، وفي ط : «ضامية».

بالنّزول ، فقالوا له : يا سيدنا ، هل أتاكم وزير سيّدنا الأمير أبي حفص عمر هاربًا ومعه خزنة من خزائن الأمير؟ فلك منه العطاء الجزيل ، فقال لهم الشّيخ : ليس غير الله بمعط[450] ولا مانع والمال محفوظ ، وها هو الوزير المذكور عندنا أتى[451] دخيلاً على الله ونزيلاً علينا ، انزلوا يا فرسان على بركة الله وكلوا طعام الزّاوية ، فأبوا أن يأكلوا الطعام ، فقال لهم الشّيخ : ما لكم لا تأكلون من طعام البركة؟ فقالوا له : يا شيخ كيف نأكل الطّعام وعدو سيّدنا عندك؟ فوالله لا نأكل من طعامك شيئًا إلّا أن تمكّننا من عدوّ سيّدنا وما معه من أموال سيّدنا الأمير ونتوثّق منه ، فقال لهم الشّيخ : ما سبب هذا الرّجل والأموال[452]؟ فقالوا له : (يا شيخ ، هذا الرّجل)[453] كان عند سيّدنا وزيرًا أعظم ووكيلاً على خزائنه ، ولا أحد أقرب منه عند سيّدنا ولسيّدنا الأمير بنت جميلة الصّورة ، ما رأى الرّاءون / أحسن منها ، فذات يوم من الأيّام طلب من سيّدنا الأمير أن يزوّجه بها ، فأبى سيّدنا من ذلك ، وقال له : يا جعفر إبنتي صغيرة السّنّ وتعزّ عليّ ولا نزوّجها لأحد هذه الأعوام ، فعند ذلك اشتدّ غضب الوزير وطعن على خزائن سيّدنا ، ورفع منها هذه الخزنة ، ونحن نريد أن نأخذه هذه السّاعة ونرفعه لسيّدنا ، فقال لهم الشّيخ : يا فرسان ، الزّاوية زاوية الله ، وزاوية الله ملجأ[454] الملهوف ، وأنتم على بركة الله[455] (احترموا الزاوية واعتقوا هذا الملهوف الدّخيل لوجه الله تعالى)[456] ، فقالوا له : يا شيخ كفّ عن هذا الخطاب ، فوالله ثمّ والله ، لو اجتمع أهل السّموات وأهل الأرض لم يمنعوه منّا بعد أن أوقعه الله في شباكنا ، وأرادوا رفعه من الزّاوية كرهًا ، وكان أولاد الشّيخ الثّلاثة بإزائه[457] وهم : سيدي محمد وسيدي عبيد الزّوّاي وسيدي يعقوب حاضرين للخطاب ومعهم جميع أهل الزّاوية عن آخرهم ، ثمّ طال الخطاب بينهم ، وغضب العمّال وهجموا على الزّاوية المذكورة ليأخذوه كرهًا ، فقال لهم الشّيخ : ارجعوا لله[458]

[171/أ]

---

450) في ط : «معطي».

451) في ش : «أتاه».

452) ساقطة من ط .

453) ما بين القوسين ساقط من ط .

454) في ط وت : «وملجا».

455) في ط : «الله تعالى».

456) ما بين القوسين ساقط من ط .

457) في ب : «بزاوية» ، وفي ط : «بالزاوية».

458) ساقطة من ط .

يا فرسان لا تهتكوا الحرم ، فأبوا أن يرجعوا فقال لهم الشّيخ : على الله شباككم ممزّقة وعروقكم مُقَلَّعة ، فقام أوْلاد الشّيخ ثلاثتهم وأخذهم حال وانجذاب ، وصاحوا صيحة منكرة ، فتكلّم[459] في الحين مدفع من تحت الأرض من قبل الله في وسط العمّال ، وفرّوا هاربين لم يرجع منهم أحد إلى أن بلغوا طرابلس ، فدخلوا على الأمير فقال لهم : ويحكم / أين الوزير؟ قالوا له : وجدناه في زاوية[460] بها خلق كثير ، وأرادوا قتلنا عن [170/ب] آخرنا ، وشتموا أهل الزّاوية عند الأمير شتمًا زائدًا حتّى غضب الأمير غضبًا شديدًا على أهل الزّاوية ، وأمر أن يجهّز لهم عسكرًا قدر ثلاثة عشر خباء ، فخرجوا من طرابلس ، وأمرهم الأمير بتخريب الزّاوية وقتل صغيرها قبل كبيرها ، فخرجوا مجدّين السّير إلى أن وصلوا الزّاوية المذكورة ، ونزلوا قرب سدرة المحلّة غربي الزّاوية ، فوقع الرّعب في قلوب أهل الزاوية ، وكان نزولهم بعد العصر عشيّة الجمعة والشّيخ في الدّرس ، فجاء أهل الزّاوية وأخبروه بنزول المحلّة ، فقال لهم الشّيخ : ارجعوا يا إخواني على أنفسكم ، من أتانا زائرًا رجع مجبور الخاطر ، ومن أتانا بجور غائر أعمر الله به المقابر ، فخرج الشّيخ من الدّرس ونظر العسكر فلم يأت منهم من يرد الخبر بما يقصدون ، خيرًا أو شرًّا ، إلى أن أصبح الله بخير الصباح ، فبينما الشّيخ في صلاة الصّبح وإذا بالعسكر يضربون طبولهم ويزعقون الأنفرة ، ونشروا الرّايات وعزموا على الحرب ، فرجع أهل الزّاوية للشيخ فوجدوه قد فرغ من صلاة الصّبح ، فقالوا : يا سيّدنا نفذ القضاء ولا حول ولا قوّة إلّا بالله ، فردّ عليهم الشيخ فقال : أمهلوا فلمّا حلّت النّافلة صلّى ركعتين وخرج ووقف على كوم الزّاوية الذي به الرّوضة ، ومدّ بصره إلى العسكر فظهروا له / كلّهم على ساق [172/أ] واحدة ، وأهل الزّاوية يبكون بكاءً شديدًا ، فاشتدّ حال الشّيخ وسقطت دمعته وصاح صيحة عظيمة وقال : يا غياث المستغيثين ، يا ناصر المستنصرين انصرنا عليهم ، يا خير النّاصرين يا ذا القوّة يا متين ، وأومأ[461] إليهم بكمّ ثوبه وقال : أعمر القبور يا جابر[462] المكسور ، فما استتمّ كلامه إلّا والعسكر بلعته الأرض بإذن الله ، ونزل في هاوية ولا بقي منه إلّا رَجُلٌ واحد ، فسار ذلك الرّجل الواحد إلى طرابلس وردّ الخبر ، فحكى للأمير ما

459) عامية بمعنى إنطلق.

460) في ط : «بزاوية».

461) في ط وش : «أومى».

462) في ط : «يا جبار».

وقع فاشتدّ بالأمير الحال وقال : لا بدّ لي من المسير إلى هذا الشّيخ فأنظره ، فسار بمن معه من حاشيته إلى أن بلغ الزّاوية ، فنزل هنالك وجعل يسأل عن الشّيخ إلى أن اجتمع به ، فتواضع بين يديه وقال : يا سيدي أنا صنعت الوزير لأجلك وسامحته[463] فيمَا أخذ من خزائني ، وأنت سامحني ، فسامحه لِلّهِ تعالى ، فقال له الأمير: اطلب شيئًا من الدّنيا تستعين به على الزّاوية؟ فقال الشّيخ : نطلب من الله الآخرة ، وأبى أن يطلب شيئًا من الدّنيا ، هذا من كراماته – نفعنا الله به – فمن عَلِمَ ذلك وتحقّقه قيَّدَ بذلك شهادته هنا ، بتاريخ أواخر صفر الخيّر سنة خمس وسبعمائة[464] ، وكتبه محمّد بن محمّد الرّقيق ومحمّد التّميمي ، وكانا عدلين من عدول صفاقس.

[17/ب] ثمّ إنّ الولد الأكبر من أولاد الشّيخ وهو أبو عبد الله محمّد اشتهر بأبي عتّور ، وله / عقب إلى الآن.

وأمّا شقيقه المرابط الأصلح الأنجح الأسعد الولي الصّالح المجذوب السّائح في ملكوت الله ، وهو سيدي عبيد اشتهر بالزّوّاي ، فانتقل لرحمة الله عن غير عقب ، واشتهرت الزّاوية في هذه الأعصار باسمه.

وأمّا شقيقهما المرابط الأصلح أبو يوسف يعقوب فله عقب إلى الآن.

وأمّا الجدّ الأعلى وهو سيدي عبد الكافي فله ضريح مشهور بقرية بُرشانة بالقرب من قرية سيدي عيسى بن مسكين – رحم الله جميعهم ونفعنا بهم وبأمثالهم –.

ترجمة الولي إبراهيم بن يعقوب المعروف بصيد عقارب :

ومن أكابر الصّالحين بوطن صفاقس الغربي الشّيخ العارف بالله تعالى (صاحب الكرامات والإشارات)[465] أبو إسحاق سيدي إبراهيم بن يعقوب بن فضل بن محمد بن سباع الذوّادي[466] الشّهير بصيد عقارب من أولاد صولة.

كان – رحمه الله تعالى – من أعراب البوادي ، أخذ الطّريقة عن الشّيخ أبي الحسن سيدي علي العبيدلي نزيل القيروان ، فجذبه بهمته.

---

463) في ش : «سمحته».
464) 19 سبتمبر 1305 م.
465) ما بين القوسين ساقط من ط.
466) في ط وب : «الزوادي».

ترجمة الشّيخ أبي الحسن علي العبيدلي :

ولمّا جرى ذكر الشّيخ العبيدلي فلا بدّ من ذكر شيء من التّعريف به وبمقامه ليعلم مقام الشّيخ صيد عقارب ، ويعلم أنّ له أصلاً في الطّريقة مبنيًّا عن معرفة محقّقة ، ثمّ بعد ذلك ننتقل للكلام على صيد عقارب لأنّ هذه رسوم اندرست وعفت معالمها وانطمست آثارها ، فلا بدّ من بيان ما يمكن بيانه ، والله وليّ الهداية والتّوفيق فنقول : الشّيخ العبيدلي هو أبو/ الحسن علي بن عبد الله بن عياش بن العبيدلي[467] ، أصله من العرب[468] ، [173/أ] وجاء إلى القيروان كبيرًا فتعلّم بها القرآن ، وقرأ على الشّيخ الرماح ، وكان فقيهًا صالحًا ناسكًا ورعًا مهابًا ، لا ينظر إلى وجه السّلطان ونحوه من أولي الأحكام ممّن لا تأخذه في الله لومة لائم ، كثير الخوف من الله – عزّ وجلّ – . قال في معالم الإيمان : سمعت شيخنا أبا محمد عبد الله الشبيبي يقول : كان العبيدلي إذا دخل المحراب يدخله بوجهه ، فإذا سلّم وانفتل رجع بوجه آخر[469] ، وكان إذا حجّ يعمل الميعاد ، فإذا فرغ منه أخذ الرّكب في الرّحيل ، وكان من اعتقاد النّاس فيه تتوب البوادي على يديه ولا يقبل[470] توبتهم حتّى يخرجوا جميع ما عندهم من المظالم ، فقد يبقى من يتوب هو وعياله بلا شيء فيلحقهم الضيق ابتداء ، فإذا تاب آخر أخرج ما له عنه لمن قبله ، وهكذا فتراد[471] النّاس مظالمهم ، وحسنت أحوالهم ، وكان فقراؤه الذين يعرفونه بزاويته وغيرها نحو ستّين أو سبعين بحسب الأوقات ، فتارة يَقِلُّون وتارة يكثرون ، وكانت حومة الشّيخ تسمّى حارة المرابطين لسكنى من ذكر بها ، وكانوا إذا تَزَوَّجَ واحد منهم أو زَوَّجَ لا يشهد في عقد نكاحه إلّا أصحاب الشّيخ ، ولا يشهد عند[472] العدول المعينين لأنّهم عندهم ليسوا بعدول لما يسمع عليهم من كلام النّاس ، فشقّ ذلك على قاضي الوقت والعدول / فأتى [173/ب] الشّيخ أبو الحسن علي الشّريف شهر العوّاني ، وكلّم الشّيخ في ذلك فقال : أصحابي هم العدول لا غيرهم[473] ، فلا يعقدون[474] نكاحًا بالمُعَيَّنِينَ بحال ، فما زال يلاطفه حتى

---

467) له ترجمة في شجرة النّور الزّكيّة ص 211 ، معجم المؤلّفين 139/7 ، هدية العارفين لإسماعيل باشا البغدادي 719/1 .

468) أي من أعراب البادية.

469) في ش : «أخرى».

470) في ط : «تقبل».

471) في ط : «فترى».

472) بعدها في ط : «عند العقد عقد».

473) في ط : «لا يجبرهم».

474) في ب وت : «يعقد».

قال له : يا سيدي ، نجمع بين الحالين ، يحضر عدول القاضي وخواص أصحابكم ، فعندكم أنتم إنما انعقد النّكاح بالخواص من أصحابكم ، وعند القاضي إنما انعقد بعدوله فوافقه على ذلك بعد توقّف ، ولو تمادى – رحمه الله – على تَمَنُّعِهِ لنفذ ذلك.

وكان – رحمه الله – لا يرى وجه السّلطان ولا قائد ولا قاض لما يسمع عن القضاة من أخذهم مرتّبهم من القيّاد ، وغير ذلك.

ولمّا وصل أبو يحيى أبو بكر أمير إفريقية القيروان بمحلّته ووصل إليه الشّيخ أبو محمّد الرَّمّاح والنّاس فقال : هل في القيروان من يُزَار؟ فقالوا له : الشّيخ العبيدلي ، فهمّ بالمشي إليه ، فقيل له : إنّه لا يفتح لك الباب ولا ينظر إليك ، فعمل على الإجتماع به ليلاً ، فأتى هو وقائده إبن سيّد النّاس ، ومحمّد بن عبد الحكيم ، فدقّ الباب فقالت امرأة من خلف الباب : من هذا؟ فقال لها : قولي للشّيخ إنّ أميرك بالباب ينتظرك ، فلم يخرج له ، فَتَعَوَّذ وقرأ بلسان عال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُم﴾[475] فأجابه الشّيخ وكان يصلّي بلسان عال حتّى سمعناه[476] ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[477] ، ولم يخرج له ، فقال : لا بدّ لي / من رؤيته ، فقيل له : إنّك لا [174/أ] تراه إلّا يوم الجمعة لخروجه للصّلاة ، فوقف في مكان ، فلمّا رآه تَرَجَّل عن جواده وانفتل الشّيخ بوجهه إلى حائط السّور ولم ينظر إليه ، فقال له : يا سيّدي أحبّ منك أن تدعو لي ، فقال له : قال رسول الله ﷺ «اللّهم من ولي أمرًا من أمور أمّتي فشقّ عليهم فاشقق اللّهم به ، ومن ولّي أمرًا من أمور أمّتي فرفق بهم فارفق اللّهم به»[478] ، فركب ولم يوله وجهه ، وحضر لمشهد هذا اليوم الشّيخ الصّالح العدل أبو العبّاس أحمد إبن الشّيخ العدل المؤلّف أبي عبد الله محمّد بن عثمان بن غانم الحضرمي ، فقال في نفسه : هذا رجل بدوي أنظر كيف أعطاه الله ولم ينظر للسّلطان وجهًا ، ونحن أصحاب طريقة وزوايا ، عرفنا السّلطان وأخذنا مرتّبه ، وتملّقنا له ولا يليق بنا ذلك ، فرجع إلى داره وانقطع عن السّلطان وغيره ، ولزم المحراب حتّى مات – رحمه الله تعالى –.

ولمّا دخل السّلطان أبو الحسن[479] القيروان قال الشّيخ العبيدلي للشّيخ الرمّاح :

---

475) سورة النّساء : 59.

476) في ش و ب : «سمعاه» ، وفي ط : «سمعه».

477) سورة الحج : 41.

478) رواه مسلم عن عائشة.

479) المريني.

اتركني أخطب موضعك وأصلّي حتى أسمعه ما يلزمه ، فأبى عليه طلبًا للعشرة.

قال الشّيخ أبو عبد الله محمّد الشقانِسي : كان الشّيخ الفقيه الورفلي[480] من أهل قابس ينزل عنده الشّيخ العبيدلي إذا مشى للحجّ ، فتولّى بعد ذلك الورفلي[480] قضاء القيروان فلم يصل إليه ، فطلب هو أن يصل إلى الشّيخ فأبى عليه ، فبعث له في ذلك ، فقال للرسول : قل له لكونك قاضيًا ، فأجابه انّي إنما تولّيت مكرهًا / وحلف له على [174/ب] ذلك ، فقال للرسول : قل له اعمل الحق تعزل ، فعمل الحق ، وضرب نائب القائد بموجب شرعي وقائده إبن أبي الرّبيع ، فتركه القائد إلى يوم الجمعة ، وفزع عليه بخدامه ، وهرب خدّام القاضي وأتى له لداره ، وكان يسكن قرب الجامع الأعظم بالدّار المعروفة للقضاة ، فتحصَّن بالجامع ودخل فيه ، وأغلق بابه عليه ، فسلَّمَهُ الله منه ، فخرج العبيدلي بأصحابه يدعون في جبابن القيروان ، وقال : لا أسكن بلدة جرى فيها هذا المنكر ، وكتب الشّيخ الرماح لقاضي الجماعة وللسّلطان وللشّيخ الزبيدي وَعَرَّفَ كلاًّ منهم بالواقع وبخروج الشّيخ العبيدلي ، وكتب القائد يُعَرِّفُ السّلطان بضرب القاضي لخديمه ، وكتب أيضًا لقائد الاعنّة محمّد بن عبد الحكيم الذي كان يعتمد عليه ، وبقي النّاس ينتظرون ما يجيء من الأمر ، فجاء رسول السّلطان وأخذ القائد وكبَّلَه ورفعه لتونس ، فلمّا وصل به لقيه قائد الأعنّة المذكور فقال له : بعثناك للقيروان قائدًا وأرحناك من تعب السَّفَر في المحلّة ، فظلمت القاضي ففزعت عليه حتّى خرج العبيدلي يدعو على مولانا أبي يحيى الذي قَدَّمَكَ ، وأمر من معه بقتله فقتلوه بالرِّمَاح ، ثمّ جاء قائد ومعه قاض ، فلمّا خرج الورفلي[480] معزولاً خرج العبيدلي وَوَدَّعَه.

وحدّث أبو بكر بن يعقوب الضاعني قال : خرج العبيدلي مع جماعة من أصحابه بجبل ماكوض ، جرت العادة أنّه يتعبّد به ويجتمع فيه الأولياء ، وهو بالجزيرة / على [175/أ] شاطئ البحر ، فغارت خيل عليه وعلى أصحابه فَجَرَّدُوا بعضهم ، فقال للخيل : هذا الشّيخ العبيدلي فاعتذروا بأنّه[481] لا علم عندهم به ، ورَدُّوا ما أخذوا إلّا رجلاً من أَصْحابه قال : هذا الفارس أخذ لي سبعة دنانير ذهبًا ، وأنكر الفارس ذلك إنكارًا كليًّا وقال : نحلف ، قال له الشّيخ : لا تحلف إلّا على يدي الحاكم وليس هو ههنا ولكن الفقراء يُعَلِّمُونَك دعاءً تدعو به ويؤمِّنُون عليك مرّتين ، هذا حقّهم ، فقال : نعم ، فقال

480) في ش : «الروفلي».

481) في ط : «بأنهم».

له الشّيخ : يا غانم ، قل اللّهم إن كان غانم سالمًا فسلم ، وإن كان كاذبًا فاهتك السّتر وعجّل ، فقال ذلك ، فقال الشّيخ وأصحابه : آمين وكرّرها ثانيًا ، (وقالوا : آمين)[482] ، وانصرف[483] الشّيخ وأصحابه ، وكان غانم هذا قتل والد فارس معه في الخيل ، وعفا عنه فقال له ولد المقتول : يا ابن عمّي فضحتنا بين العرب ، يقول العرب والنّاس إنّ الفلانيين أخذوا العبيدلي وهو شيخ إفريقية ، فقال له : وأي فضول أدخلك في هذا؟ فتغالى معه في الكلام ، فضرب الفارس غانمًا بمزراقه فقتله ، وفتّشوا جيبه فوجدوا السّبعة دنانير فيه ، فلحقوا الشّيخ وأعلموه بموته ، وأعطوا لصاحب الدّنانير دنانيره.

ونقل عن الشّيخ ثعلب عن الفقيه أبي عبد الله محمد الجذامي قال : كنا نُجَوِّدُ على الشّيخ العبيدلي بعد صلاة العشاء الأخيرة وإذا برجل دخل على الشّيخ فقال له : إن عجوز السّلطان من أولاد أبي يحيى / أبي بكر ، دخل القيروان ، وإنّ النّاس خافوا منه أن يقيم عندهم فقال : انصرفوا ، وغلق الباب ، فلمّا بقي السّدس الأخير من الليل جئنا للقراءة عليه فقال : عجوز خرج أم لا؟ فقلنا : ما نعرف ، فقال : إن رجلاً يقرأ عليه المؤمن من الجنّ ، قالوا[484] له : ما تريد نعمل في عجوز؟ أتقتله أم تخرجه؟ فقال : أخرجوه ، والغالب أنّه يخرج ، فظهر أنّه سرى بالليل وأصبح في بعض قرى السّاحل ، وقال بعض أهل ذلك الموضع : سلموا على الشّيخ العبيدلي وقولوا له : بلدة أنت فيها ما نزاحمك فيها ، فعرفنا أنّ الرجل الذي ذكر هو نفسه. [175/ب]

وقال لي أبو عبد الله الجذامي المذكور : مرض الشّيخ العبيدلي فأشفق النّاس أن يموت من مرضه ذلك ، فدخلت عليه أنا والحاج عبد الرّحمان الشّيحي والحاج أبو بكر الطُّرّي ، فقال أحدهما : يا سيدي رجل رأى في منامه أنّ السلطان أخذك والنّاس خافوا ، فقال : أنعرفكم[485] ولا تعرفوا بي حتّى نموت؟ قلنا : نعم ، قال : أطلعني الله على ما مضى من عمري وما بقي ، وأنا ما نموت من هذه المرضة حتّى نحجّ ، فكان كذلك.

وكان – رحمه الله – فقيهًا عارفًا بالأحكام الشّرعية على غاية ونهاية ، فمن فقهه أنّه يقول : قبول الهديّة أفضل من قبول الزّكاة وخالفه أبو عبد الله الرماح[486] شيخه[487] ،

---

482) ما بين القوسين ساقط من ب وت وط.

483) في ط : «وانصر».

484) في ط : «قال».

485) في ط : «أنا أعرفكم».

486) محمد بن عبد الرّحمان الرماح ، أخذ عن إبن زيتون وغيره ، الفقيه العمدة مع ديانة وصلاح ، درس العلم نحو من 60 عامًا (ت. سنة 749 / 1348) شجرة النّور ص 211.

487) ساقطة من ط وب وت.

وأبو العباس أحمد الدَّباغ ، وأبو عبد الله علي العَواني[488] ، وأبو إسحاق إبراهيم الخطيب ، واحتجّ العبيدلي بفعله – عليه الصّلاة والسّلام – / من أنّه كان يَقْبَلُ الهَدِيَّة [176/أ] ولا يأخذ من الزكاة ، وأجابه الآخرون[489] بأنّ الهدية في حقنا موقوفة على ثلاثة شروط : حلية المال ، وطيب نفس صاحبه ، وحصول ما يظنّ المعطي في المعطى ، وللزّكاة شرط واحد وهو الفقر. قال[490] أبوبكر الضاعني : عمل عبد الواحد الحنظلي طعامًا ونادى عليه أربعة : أبا عبد الله محمد الرماح ، وأبا الحسن العبيدلي ، وخليفة اللواتي ، وعمر الحسيني ، فقال خليفة وعمر : نحن صيام ، فقال صاحب الطّعام : وأنا ما عملت إلّا من أجلهما لكمال فقرهما ، فقال العبيدلي : بكم تشتري فطرهما؟ فقال : بثلاثة أقفزة قمحًا ، قفيزان للفقراء وقفيز لك. فأمرهما بأن يغسلا أيديهما ويأكلا ، ففعلا ، فأوصل من الفور بعد الأكل قفيزًا لدار الشّيخ العبيدلي ، وقفيزين للفقراء ، ففرّقهما الشيخ ، وهذا الذي فعل تبع فيه قول عيسى بن مسكين لصديقه وقد دخل عليه وهو يأكل طعامًا وقال : إنّي صائِم ، قال : إدخالك السّرور على أخيك المسلم أفضل من صومك ، ولم يأمره بقضائه ، وقال عياض : وقضاؤه واجب وإنّما لم يذكره لوضوحه.

قال ابن ناجي وكان شيخنا أبو الفضل البرزلي لا يرتضيه ويحمله على نفيه كقول الشّافِعي ، وهذا لا يقدح في قولي[491] ، كان متورّعًا لأنّه لم يستعمله في نفسه.

واختلف الشّيخان الرَّماح والعبيدلي هل يجوز التّخطّي حالة نزول الإمام من على المنبر في خطبة الجمعة أم لا؟ وكان الشيخ ابن عرفة يجري القولين فيها / من نقل ابن العربي [176/ب] قَوْلَي مالك في جواز الكلام حينئذ ، وله اختلاف مع الفقهاء في مسائل غير هذه.

وللشيخ العبيدلي تأليف في الفقه أصل مستقل ، وعقيدة في التّوحيد.

وتوفّي سنة ثمان وأربعين وسبعمائة[492] ودفن بباب تونس ، وقبره مزار مشهور.

488) هو الشّريف القيرواني من بيت علم وفضل ، الفقيه العالم القاضي العادل ، (توفّي في ربيع الأوّل سنة 757 / 1356) شجرة النّور ص 224.

489) في ط وب وت : «الآخر».

490) في ط : «كان».

491) في ط : «قول».

492) 1347 – 1348 م.

تتمّة ترجمة الولي إبراهيم بن يعقوب : صيد عقارب :

ولنرجع إلى الكلام على الشيخ سيدي إبراهيم بن يعقوب المقصود هنا ، فنقول : إنّه كما قَدَّمْنَا أصله من البادية ، قدم به أبوه من المغرب في أحياء من قومه متوجّهين لإفريقية لقحط أصاب بلدهم ، فنزلوا على زروع سيدي حراث فأصابوا منها ، فأتاهم وأمرهم بالرّحيل عنها ، فأبوا فدعا[493] عليهم بواد[494] يرفعهم ، فاستجاب الله دعاءه فلم يمض جزء من اللّيل إلّا وقد دهمهم واد[494] فأعجلهم عن تحميل مراحيلهم ، فأخذ يعقوب أبوسيدي إبراهيم بعيرًا فحمله وأخويه عليه ، وسيّره على غير مسيل الوادي ، ورجع لفرسه وزوجه وبقية أثاثه فحملهم الوادي جميعًا فلم يظهر لهم أثر ، وسيدي إبراهيم لمّا أصبح الصّبح رجع في طلب أبويه ، وترك أخويه على البعير ، فذهب البعير بهما إلى السَّوَاسي ، ولمّا لم يجد سيدي إبراهيم أبويه ولا عرف أين ذهب البعير بأخويه بقي منفردًا محتارًا في أمره ، فتلقّاه الشّيخ عامر بن جامع ، فأخذه وسأله عن حاله ، فأخبره بقصّتهم ، فقال له : لا بأس عليك ، أنا أجعلك من جملة أولادي ، فأتى به أهله وعرّف زوجته أمره ، فقبلته وتَحَنَّنَتْ عليه / مع جملة بنيها وأكرمت مثواه ، وكان رجلاً [177/أ] من شُجعان العرب ورؤسائهم من صغر سنّه ، فأعطوه فرسًا وسلاحًا على عادة شجعان العرب ، وكانوا يخافون عليه من حروب العرب . فاتفق أن اقتتلت[495] قبائل العرب فيما بينهم في وادران ويسمّونه شعاب الفرانِس ، فاستدعى[496] سيدي إبراهيم خمسة من رفقائه وذهب بهم إلى موضع الوقيعة ، فوجدوا عروسًا مهيّأة لدخول زوجها عليها ، فلمّا وقعت الواقعة بقيت بناحية ، وكان أبوها رجلاً صالحًا ، فلمّا رأت سيدي إبراهيم طلبت منه أن يحفظها حتّى يأتي أبوها ، فأخذها بنيّة حفظها وأن لا يصل إليها بسوء ، هو ولا أحد من النّاس ، عناية من الله تعالى ، فبعد مدّة جاء أبوها متطلّبًا أَثرها ، فقال : هذه بنت عندي فانظر فإن كانت لك خذها وإلّا فاتركها إلى أن يجيئها أبوها ، فلمّا رأت أباها عرفته ، فتسلّمها منه ، وحملها له سيدي إبراهيم على بعير في هودج على صورة العروس ، وركب معها هو وستون من قوم إبن جامع إكرامًا لأبيها ، واستصحب فارسين من غير

---

493) في ش : «فدعى».

494) السّيل الجارف.

495) في الأصول : «اقتتل».

496) في الأصول : «استدعا».

أصحابه ، فساروا بالبنت وأبيها على صُورة زفاف العرس ، فلمّا وصلوا لأهل البنت أخبرهم أبوها بخبره ، وأمرهم أن يُكرموا سيدي إبراهيم وقومه بذبح شاة لكلّ فارس ، ودخل زوج البنت عليها فوجدها سالمة من إصابة الرِّجال ، ففرح أبوها ودعا[497] لسيدي إبراهيم بأن يجعله الله من أوليائه الصّالحين ، فاستجاب / الله دعاءه. [177/ب]

ثمّ إنّ الشيخ سيدي إبراهيم سار ومعه الإثنان والستّون راجعًا إلى أهله ، فلمّا وصلوا للعلوين ، إسم موضع قرب سيدي عمر بن حجلة[498] بنواحي القيروان ، وجدوا قفلاً[499] محمّلاً ببضائع القيروان من النّحاس والجلد وغيرهما ، وهو نازل من القيروان للمحرس ، وكان به سوق ومرسى ، وفي هذا القفل[499] سيدي أبوالحسن علي العبيدلي – المقدّم الذّكر – فعند وصولهم شنّوا الغارة على القفل[499] وأخذوا ما فيه ، فجاءهم الشيخ العبيدلي وقال : كيف تأخذون قفلاً وأنا غفيره ، فقالوا له : خذ ما تعرفه لك والباقي يمضي عليه الأخذ ، فقال : أنا غفير أغفر الكلّ ، ثمّ قال : من زميم[500] القوم فيكم؟ فقالوا له : إبراهيم بن يعقوب فناداه فأجابه ، فقال له : تعال[501] ، خذ هذه الوصية الحسنة ، هي لك عندي ، فحسب أنّها ذخيرة يخصّه بها ليسلم القفل ، فلمّا قرب منه وأصغى إليه بأذنه تمكّن منه الشيخ العبيدلي وَعَلاهُ ضربًا على رأسه وظهره وقال : تب وارجع إلى الله من هذه الفعائل القبيحة وأنا ضامنك وذريتك ومن يحبّه قلبك ، فأنا حاملكم على عاتقي ، ودعا له بخير ، فاجتذبه بهمّته وأناله ما كتب الله له على يديه ، وقال له : كلّ من عاداك فهو هالك ، ولو كثرت أعداؤك فهم ممحوقون ، وكساه الخرقة وأعطاه السّبحة ، فأخذه الجذب ، وجعل يذكر الله حتّى غلبه الوجد والحال ، ورآى إجابة دعوة أبي البنت ، ولمّا رأى رفقاؤه ما حلّ به انبهتوا ولم يقدروا على النّطق / وأومأ إليهم فجاؤوا ركضًا ، فلمّا وصلوا رَشَّهم الشّيخ بريقه فأخذهم من الوجد ما أخذ زميمهم[500] وقالوا : أطعنا هذا الشيخ ، ولمّا كان زميمنا في البغي فهو زميمنا في الهدي والطّاعة ، ولم يتأخّر عن الدّخول في الطّاعة إلّا الإثنان الزّائدان على السّتين ، إسم أحدهما رشاشي ، واسم الثّاني مريش من أولاد زيد ، فبقيا على بغيهما وطلبا الفساد ولم يلتفتا [178/أ]

497) في ش : «ودعى».

498) سيدي عمر بن حجلة من ولاية القيروان تسكنه قبيلة جلاص البربرية المتعرّبة.

499) يقصد القافلة.

500) كلمة عامية تعني الزّعيم.

501) في الأصول : «تعالى».

لقول الهدى ، فدعا[502] عليهما الشيخ العبيدلي بالقلّ والذّلّ ، وفاتتهما[503] سعادة الدّارين وفرحا بالغنيمة وحسباها لهما خاصة ، فكان من قضاء الله تعالى أنْ كلّ من قرب لشيء من أمتعة النّاس وجد عنده أَسَدًا ، وما كان أخذاه في أوّل الأمر مهما فتحاه وجدا فيه حيّة ، فرميا كلّ ما بأيديهما ورجعا خائبين ، وسلَّمَ الله القفل لأهله.

وينسب للشيخ سيدي إبراهيم في هذا المعنى شعر على مقتضى أشعار هذه البوادي وهو كلام طويل فمن جملة قوله – (رحمه الله تعالى) –[504] :

فإذا بقفل محدور[505] آخذ ثنية ... واحـد يبيع وذا يحب شراه
وكان غفير القوم ولد العبيدلي ... سيدي علي عمل فرد رجل معاه
مصحوب للمحرس باغين شورها ... فيها كان[506] السوق زمن مضاه
أتى قبل العلويين[507] تجار صبرة ... بجلد يسير[508] والنحاس معاه
غاروا عليهم وفي الحين سلموا ... أخـذوا القفـل وربطـوا رؤساه
طلع الفقير وقال بالله أقصروا ... القفـــل غفرت وأنـــا مولاه
وإذا وهتم في فـإني العبيـدلي

[178/ب] إلى آخر ما هو مذكور فيه إلى أن قال : /

والله يا ذا الشيخ نبغي غرارتك ... وحبّ السبحة والذكر قد رمناه
لوح له السبحة ولبس الغرارة ... وشوق بذكر الله وثار معاه[509]
وما زال ذاك الحين داهش ويذكر ... حتى وعـــــد الصالحين رآه
فلمّا رأى الرفقاء ما صار بينهم ... بهتوا ولا عاد منهم من يردّ نباه
أومـأ إليهم فجـاءوه يركضون ... وكلّ من بخه[510] بريق شفاه

---

502) في ش : «فدعى».

503) في الأصول : «فاتهما».

504) ما بين القوسين ساقط من ط وت وب.

505) في ت وط : «محدر» ، وفي ب : «محادر أخذ ثنية».

506) ساقطة من ب.

507) كذا في ط ، وفي بقية الأصول : «العلوين».

508) في ط وب : «ياسر» ، وفي ت : «كثير».

509) في ط : «ثار معناه».

510) أي رشه.

حتى بقي الستّون في مثل منطرح وقالوا جميعًا ذا الولي طُعْناه
حين كان[511] البغي هو زميمنا واليوم في حال الهدى رفقاه
وتأخّر الإثنان شيطان قادهم عماهم[512] على الطاعة وحب هداه
رشاشي المسمّى وجاء مريش مثيله[513] ناحس على منحوس طاح[514] معاه
قال لهم الشيخ الله يقلّكم ويذلّكم ما يكبر لكم جاه
توعدهم وعيد الشيخ ودعا عليهم وما راحوا حتى حاك دعاه
من قلّة التصديق بطل عملهم ومن نال حاجة ثار سبع معاه
هرب جميع الناس منها وأدبروا ومن كان في يده حديد[515] رماه

ثمّ إنّ الستّين لمّا تمكّنوا من حبّ الله تعالى وثبتت لهم معرفته أرادوا العزلة عن الخلق ليتفرّغوا لطاعة خالقهم لنبذهم الدّنيا وما فيها ، ولإقبالهم بكلّيتهم على ما يقرّبهم إلى خالقهم من العبادة والذّكر ، فاختار لهم وادي عقارب والشّرب من بئر العرائش ، وفي هذا المعنى يقول الشيخ – (رحمه الله تعالى) –[516] :

التموا الستّون وداروا بسيدهم وقالوا اقصد بنا موضعًا نرضاه
قال الوطا معروف هيا اقطروني ولكم وطا معروف يجرى ماه
في ملتقا الوديان بطحاء عقارب وبير العرائش نشربوا من ماه / [179/أ]

ولمّا استوطنوا بوادي عقارب وظهرت بركتهم[517] إعتقدهم النّاس من كلّ جهة[518] وأعطوهم زكاة مواشيهم[519] وحبوبهم ، واجتمع عليهم من هداه الله تعالى للخير ، ولمّا اجتمع عندهم ما تيسّر من الزّكاة وبقوا مشتغلين بالذكر والعبادة تاركين للحرب والمقاتلة سمع بذلك أوباش البدو ، ويقال لهم بنو عثمان ، فجاءوا لنهب ما اجتمع

511) ساقطة من ط وب ، وفي ت : «فحين البغي كان».
512) في ط : «أعماهم».
513) في بقية الأصول : «مثله».
514) في ط : «طاع».
515) في ط وب : «حرير».
516) ما بين القوسين ساقط من بقية الأصول.
517) في ط : «بركاتهم».
518) في ش : «جبهة».
519) في ط : «زكاة أموالهم ومواشيهم وحبوبهم».

من الزّكاة ، فظهر لهم الشيخ بصورة أسد ضارّ[520] ، وكلّما ضرب واحدًا منهم بيده زهقت روحه ، وظهر أصحابه بصورة النّيران المحرقة ، كلّ من قرب منهم إحترق ، فمن ذلك الوقت سمّي الشّيخ صيد[521] عقارب لأنّ بعض البوادي[522] يسمّون الأسد صيدًا.

ترجمة الشّيخ نصير بن حامد ، حفيد صيد عقارب :

ومن أجلّ أحفاد الشّيخ سيدي إبراهيم ولد ولده سيدي نصير بن حامد بن إبراهيم بن يعقوب ، وهو مشهور معروف ، وله مكاشفات وأخبار عن أمور قبل وقوعها فتقع على نحو ما يخبر ، وله بذلك أنظام كثيرة ولا يعرف أحد وقتها إلّا بعد وقوع الواقع الموعود به ، فإذا أُطْبِقَ على ما ذكر طابقة ، ولم[523] نعرف للشيخ ولا لحفيده سنة معينة لوفاتهما لعدم معرفة البوادي للتّاريخ ، وعدم الإعتناء ، لكن يُعْرَف تقريب تاريخه من تاريخ أستاذه العبيدلي وهو من أهل القرن الثامن.

ترجمة الشيخ سيدي عِبْدِ الله :

ومن أعيان أتباع الشّيخ وأعزّ أصحابه سيدي عبد الله ، والبوادي يكسّرون العين من لفظه ، وضريحه قريب من ضريح الشّيخ من ناحية الغرب بينهما قدر مرأى / العين ، [179/ب] والسّتّون مدفونون بهنشير السّتّين ، وهو معروف عندهم ، وممّا هو متواتر مشهور خروج الكور من ضريح الشّيخ سيدي إبراهيم فيرمي بها وبالرخام ، قال من شاهد ذلك : يخرج من ضريح سيدي عِبد الله شهاب من نار تضيء له الأرض في ظلمة الليل ، فإذا وصل إلى قبّة ضريح سيدي إبراهيم تزلزلت الأرض ويخرج الكور من الضّريح ، ووقوع ذلك دليل على وقوع الفتن والحروب.

وممّا شاع واشتهر وصار من المُسَلَّمِ عند الخاص والعام حتّى صار كالمشاهد بالعيان أنّ بعض أهل صفاقس أنشأ قرب الشّيخ أواخر القرن الثّاني عشر مقثاة بها دلاّع[524] ، وأقام

---

520) في الأصول : «ضاير».
521) كلمة عامية للأسد.
522) بل والمدن أيضًا.
523) في بقية الأصول : «ولا».
524) كلمة عامية للبطّيخ الأخضر.

هناك يحرسها ، فاتّفق أنّ امرأة جاءت من البادية فدخلت المقثاة وأخذت دلاّعة لقلّة صبرها على شهوتها ، فبادر إليها صاحب المقثاة ولم يكفه أخذ الدلاّعة بل [انهال] على المرأة ضربًا فخرّ صريعًا لحينه ، واسودّ جسمه ، عفا[525] الله عنّا وعنه.

وأمّا هزم الجيوش الذين يقصدون حَرَمَهُ فشيء مشهور حتّى يقاوم العشرة من أحفاده وخلفائهم أكبر الجيوش ، فتقع الهزيمة على من انتهك حرم الشّيخ ، ومن تجاسر على إخراج من التجأ إلى ضريح الشّيخ هلك في الحين ، ومن كان راكبًا سقط على جواده ميّتًا ، وتتبّع ذلك يطول.

ترجمة الشّيخ أبي بكر القرقوري مع التعرّض لشيخيه : الجديدي والشبيبي :

ومن أعيان أهل صفاقس الشّيخ العارف بالله تعالى سيدي أبو بكر القرقوري نسبة لقرقور[526] قرية من قرى صفاقس / الغربية منها وإلى صفاقس انتقل أهلها[527]. [180/أ]

كان من تلاميذ الشّيخ الجديدي[528] وعنه أخذ الطّريقة ، وتفقّه بالشّيخ الشبيبي بمدينة القيروان.

والشّيخ الجديدي هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد العزيز السبائي ، كان يحفظ بعض القرآن ، وقرأ البخاري على الشّيخ أبي عبد الله محمد بن فندار[529] شهر عظوم صاحب برنامج الشّامل[530].

---

(525) في ش : «عفى».

(526) القافان معقودتان كالجيم المصرية والأولى مفتوحة والثانية مضمومة وبينهما راء مهملة ساكنة.

(527) ربّما كان ذلك في القرن الخامس أو قبله لأنّه مرّ بي في مطالعاتي أنّ الحافظ السّلفي روى عن القرقوري (محمّد محفوظ).

(528) هو محمد بن عبد الله السّبائي عرف الجديدي ، له زاوية في القيروان وأخرى في المهدية توفّي بمكة سنة 786 / 1384 - 1385. فحلّ محله بزاوية القيروان الشيخ عبيد بن يعيش الغرياني وأصبحت تسمى بالزاوية الغريانية : معالم الإيمان 4 / 26 (ط 1).

(529) في الأصول : «فيدار». الحقيقة التاريخيّة للتّصوّف الإسلامي ، ص 267 ، شجرة النّور ، ص 226.

(530) هو بلقاسم بن محمد بن مرزوق (ت. 1013 / 1605) لا يمكن أن يأخذ عنه من كان من أهل أواخر القرن الثامن ، وهناك من آل عظوم إثنان آخران عبد الجليل بن محمد (ت. سنة 960 / 1553) ومحمد بن أحمد (ت. حوالي 1009 / 1600). ويحمل لقب عظوم من رجال القرن الثامن محمد بن محمد بن عبد الجليل ، ولي قضاء قفصة والقيروان (وتوفي في المحرم سنة 782 / 1380) شجرة النور ص 225.

والشّيخ الشبيبي (هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن يوسف البلوي الشبيبي ، قرأ على الشيخ أبي الحسن علي الشريف عرف العواني وعليه كان إعتماده ، وعلى أبي عمران موسى المناري ، وأبي محمد عبد الله الحجاري[531] وأبي عبد الله محمد القلال ، وارتحل لتونس فقرأ بها زمنًا يسيرًا على الشيخ المفتي أبي عبد الله محمد السَّكُوني ، وقرأ عليه خلق كثير ، وانتفعوا به كالشيخ البرزلي شيخ إبن ناجي ، وانتفع به أيضًا)[532] أبو عبد الله محمّد بن أبي بكر الفاسي وأبو يوسف يعقوب الزعبي[533] وأبو العبّاس أحمد بن عفيف القمودي[534] ، وأبو حفص عمر بن إبراهيم المسراتي ، وأبو العبّاس أحمد الترهوني ، وأبو محمد عبد الله بن علي الشريف عرف التكودي ، وأبو عبد الله محمد بن محمد بن مسعود الكنائسي[535] ، وأبو عبد الله محمد بن علي القيسي الرَّمّاح ، وأبو العبّاس أحمد بن محمد بن يونس الغساني ، عرف بابن قطانية ، وأبو العباس أحمد بن موسى المناري ، وغيرهم كأبي محرز محفوظ الأبي ، / صاحب شرح مسلم ، تلميذ إبن عرفة[536]. [180/ب]

وحكي عن الترهُوني عمّن يوثق به أنّه رأى في منامه كأنَّ قائلاً يقول له : كلّ من قرأ على الشّيخ الشبيبي فهو من أهل الجنّة.

وقال[537] عن شيخه البرزلي ما رأيت بإفريقية ولا بالمشرق مثله ، كان عالمًا عاملاً ورعًا واعظًا فصيحًا ثبتًا ثقة سخيًا على قدر حاله ، له قبول حسن ووجه حسن ، لا يمشي إلّا من داره إلى المسجد أو إلى مهمّ كزيارة مريض من أصحابه ، أو صلاة على جنازة استؤذن عليها . درس العلم نحو من خمس وثلاثين سنة . قال إبن ناجي : وَصِفَةُ ميعاده أنّه كان يصلّي الصّبح في مسجد دار الشّيخ إبن أبي زيد وينوب عنه في الصّلاة بمسجده في هذا الوقت تلميذه الفقيه أبو عبد الله محمد الضريسي ويبكر بذلك ، فإذا صَلّى أتى جماعة من أصحابنا المجتهدين في تلاوة القرآن فيقرؤون نحو أربعة أحزاب أو خمسة ، فإذا جاء الشّيخ سكتوا وقد امتلأ حينئذ المسجد بالعامّة ، فيقرأ عليه عشرًا من القرآن فينقل

---

531) في ط وب : «الحجاب».
532) ما بين القوسين ساقط من ت.
533) في ط وت : «الزعيبي».
534) في ت : «المصمودي» ، وفي ط وب : «العمودي».
535) نسبة إلى قرية الكنايس بإقليم الساحل.
536) ، صاحب شرح مسلم تلميذ إبن عرفة هو محمد بن خلفة الأبي لا أبي محرز محفوظ الأبي.
537) هو إبن ناجي.

عليه كلام إبن عطية وغيره كالثعالبي[538] ، ويتكلّم عليه بالوعظ بما يليق بالمحل ، ويجلب لذلك ما يليق من حكايات الصّالحين ، ويطول الكلام جدًّا وهو لا ينظر إلّا أمامه ، ويقرأ عليه دولة في مسلم وربمّا يعظ عليه ، ودولة في سيرة إبن إسحاق ، ودولتان في الرقائق ، وربما يزيد ثالثة ، وعند فراغ هذا يحضر الطلبة المبتدؤون أصحاب الرّسالة والجلاب وابن الحاجب فيقرؤون / متّصلاً بما ذكر فيحصل وقت الظّهر ، فيخرج الشّيخ [181/أ] لينال شيئًا من الطّعام ليتقوّى به على الطّاعة[539] ويفتي بخطّه فيما سئل عنه وهو في الميعاد ، ويتوضّأ ويصلّي بالنّاس في مسجده الظّهر قرب أذان العصر ويجلس لمن يجود عليه إلى أذان المغرب فإذا صلّى المغرب جلس للتّجويد إلى صلاة العشاء الأخيرة بعد تأخيرها وقتًا ما ، ويدخل حينئذ لداره ، وكلّ سؤال يأتيه من بعد صلاة الظّهر يفتي فيه بالليل مع نظره دول الميعاد ويناوله بكرة ، وكانت الفتوى سهلة عليه وموفّقًا فيها على البديهة ، من ذلك أنّه سئل : هل يجوز أن يؤمّ النّاس من يأخذ المال من الظلمة قراضًا أم لا؟ فأجاب بأنّ منصب الإمامة عال ، والإمام شفيع لمن خلفه ، ولا يكون الإمام ذا وجاهة عند المشفوع إليه إلّا إذا كان واقفًا عند أمره ونهيه ، وبسيرته في ميعاده ووعظه كبر تعظيم النّاس له فوق غيره ، وكان لا يأخذ من السّلطان مرتّبًا على قراءته بل كان يتقوّت من الفلاحة.

ولمّا وصل السّلطان أبو العبّاس أحمد إلى القيروان في أوّل سفرة سافرها من تونس قاصدًا بلاد الجريد أسرع النّاس في السّلام عليه خارج القيروان ، وكان الشّيخ إذا قيل له : تخرج للسّلام عليه يقول : إنّا نَدْعو له حتى قيل له : إنه بجامع القيروان ، فخرج له ، فلمّا مشى يسيرًا وجد السّلطان آتيًا إليه فأراد أن يزيل إحرامه[540] من فوق عمامته عملاً بالعادة ، فحلف له لا فعلت ، فقال له : / أين نجلس؟ فقال له : بدار الشيخ [181/ب] أبي[541] محمد بن أبي زيد ، وكان مسجده قريبًا منها ، فدخل هو وأخوه شقيقه زكرياء وطَالِبَان إثنان وغلقوا الباب ، فقال السّلطان : يا سيدي طلبت منك أن تكون قاضيًا ،

---

538) ويقال الثعلبي أيضًا.

539) في ط : «على طاعة الله».

540) لفظة عامية لكساء الصّوف استعملت منذ العصر الحفصي ، والاحرام بقي لباس الطّبقات العالية إلى القرن الثالث عشر ، ويؤثر عن الشّيخ محمّد الطّاهر بن عاشور (الْجَدْ) أنّه قال لمن عذله في لبس الاحرام : «هذا حولي فدونك وقولي».

541) ساقطة من ط .

فأبيت وقبلت عذرك ، وعملت لك بعد ذلك ربيعة فلم تقبل ، فأنا أعمل لك نصف دينار كلّ يوم لأنّ عندك عيالاً كثيرة ، وقد سمعت أنّك تخرج تحرث وللعرب ، فقال الشّيخ : أمّا خروجي للعرب فلا بدّ منه ولو لم يكن لي زرع لأنّي نذبّ عن النّاس ، وأما كوني نأخذ منك فلا أفعل ، ولو كان عندي مال لأعنتك به ، ولو كان فِيّ شجاعة لقاتلت معك المحاربين ، فأنا لا أعطيك مالا ولا أقاتل معك بنفسي وآخذ منك وبركة هذا الشيخ لا أفعل ، فلمّا خرج السّلطان قال : هذا الشّيخ ما رأيت مثله ، كنت جاهلاً به .

مات –رحمه الله تعالى– يوم السّبت الثّاني عشر من صفر سنة إثنتين وثمانين وسبعمائة(542) ، ودفن صبيحة يوم الأحد من الغد بدار الشّيخ أبي محمّد بن أبي زيد في مقصورته قدّام بابها(543) .

وكان الشّيخ أبو بكر القرقوري – رحمه الله – ممّن قرأ بزاوية الشّيخ الجديدي وهي المشهورة الآن بزاوية الشّيخ سيدي عبيد [بن] يعيش الغرياني ، لأنّ الشّيخ الجديدي لمّا توجّه إلى الحجّ أقامه بها .

ومات الشّيخ الجديدي بالحرم الشّريف بمكّة أواخر سنة ستّ وثمانين وسبعمائة(544) ودفن بباب المعلى .

ونقل إبن ناجي أنّ كلّ بلدة من عمالة القيروان فغالب الحال أنّ فقيهها قرأ بالزّاوية ، ويصل النّاس إليها / من أقصى المغرب يقرؤون بها . [182/أ]

والشّيخ الفقيه الصّالح أبو عبد الله محمّد بن زيد(545) صاحب قصر المنستير هو من أصحابه قديمًا ، يعني أصحاب الشّيخ الجديدي ، وسلك في قصر المنستير طريق الشيخ إبتداءً وانتهاءً ، فعنده من الفقراء نحو المائة ، وزاد أنّه جمع لهم من الرّبع ما يقوم بهم أو يقارب ، وكذلك الشّيخ الصّالح أبو فارس عبد العزيز إبن الشّيخ الصّالح عياش(546) من

---

542) 17 ماي 1380 م .

543) للشيخ الشّبيي مؤلفات وله ترجمة في تراجم المؤلفين التونسيين 143/3 – 147 ، ويبدو أن المؤلف نقل ترجمته عن تذييل ابن ناجي لمعالم الايمان 203/4 – 206 وسبق أن ترجم له في 235/1 . (النسخة المطبوعة) .

544) 1384 م .

545) محمد بن أبي زيد المنستيري الإمام الفقيه العمدة الصالح القدوة ، واحد كابن عرفة وطبقته . وقبره بقصر المنستير معروف وتاريخ وفاته غير معروف : أنظر شجرة النور ص 246 .

546) راجع عنه معالم الايمان 240/4 (ط . 1) .

خواص الشيخ ومن فقراء زاويته ، وهو بزاويته بطبلبة من عمل المهدية[547] في بحر كبير ، وناس يأكلون عليه[548] ويقرؤون القرآن ، وكثيرًا ما يعين زاوية شيخه الجديدي بالطعام الكثير وخصوصًا عند الحاجة ، وكلّ من يرد عليه من جميع الناس يضيّفه ويعلّف[549] له ، ولو ضافته محلّة السّلطان وعربها لقام بها ، وكلّما يكتب للسّلطان في حاجة فغالب الحال أنّها تقضى ، وكلّ من[550] يهرب[551] إليه من قوّاد السّلطان وشيوخ العرب وصل للأمان ويكتب فيهم فيجيبه الجواب بما يريد.

وكذلك الشّيخ أبو بكر القرقوري بصفاقس كان من تلامذته ، وقرأ العلم بالقيروان على الشّيخ الشبيبي ، وسلك طريق الشّيخ الجديدي في زاويته قال : ففيها خلق من النّاس ، وزاد بأنّه يعمل الميعاد في مسجد الشّيخ أبي الحسن علي الربعي المعروف باللّخمي ، لأنّه فقيه عارف موفّق للجواب ، فجميع تلك الأوطان والعمالات عامرة بفقرائهم وطلبتهم ، والجميع حسنة من حسنات الشّيخ الجديدي نفع الله / الجميع به. [182/ب]
قال : وحدّثني الشّيخ الصّالح أبو علي سالم بن أبي القاسم القرشي يعرف بالقاسمي عمّن حدّثه قال : خرج أبو بكر القرقوري هذا وعبد العزيز بن عيّاش ومحمّد بن زيد وغيرهم في حال صغرهم خارج القيروان لتفريج خواطرهم ، وكان معهم الشّيخ الجديدي ، فأخذوا يمزحون ويلعبون ، فقال لهم الشّيخ الجديدي : أنا نحكم بينكم ، فأنت يا أبا بكر ولّيتك قيادة صفاقس وعملها فقف بمن معك ، وأنت يا عبد العزيز فقد ولّيتك المهدية[552] وعملها فقف بمن معك ، (وأنت يا محمّد بن زيد فقد ولّيتك قيادة المنستير وعملها فقف بمن معك)[553] ولم يتفطّنوا حينئذ لما قال ، فتبيّن بعد أنّ كلّ واحد منهم هو شيخ ما حوله.

ولم نقف للشيخ أبي بكر القرقوري[554] على وفاة لكن تؤخذ تقريبًا وفاته من وفاة أشياخه ، وقد كانوا أواخر القرن الثّامن.

---

547) هي الآن من ولاية المنستير.
548) تعبير عامي يريد به : «يأكلون على نفقته».
549) دابّته.
550) في ش : «كلما».
551) في ب : «يعرف».
552) في بقيّة الأصول : «المنستير».
553) ما بين القوسين ساقط من بقية الأصول.
554) الشّيخ أبو بكر القرقوري له ترجمة قصيرة في معالم الإيمان ضمن ترجمة أبي الحسن اللخمي.

ترجمة الشّيخ أبي عبد الله الأنصاري شهر الصّفّار:

ومن أعيان فقهاء صفاقس الإمام العالم العلاّمة أبو عبد الله محمّد بن أحمد الأنصاري شهر الصّفّار، كان - رحمه الله - فقيهًا مُحَدِّثًا إختصر إكمال[555] القاضي عياض، وتولّى خطابة الجامع الأعظم بصفاقس، ومقامه مشهور[556]، وأنواره ظاهرة، وكراماته باهرة.

قال الشّيخ العمدة المقري أبو عبد الله محمّد الصّنهاجي في شرحه لنظم الخراز[557]: قدمنا إلى صفاقس - أدامها الله للمسلمين بالنّصر والتّمكين - لثلاث بقين من شهر ربيع الثّاني من شهور سنة خمس وعشرين وثمانمائة[558] فلقينا بها الشّيخ الصّالح سيدي أبا عبد الله محمّد الصّفّار، وكنت أحضر مجلسه وأغتنم بركاته / ويحضر مجلسه من إخوان [183/أ] صالحين وَاخَيْنَاهُم[559] ونَظَّمَنَا الشّيخ معهم في سلك، واجتمعت فيه أيضًا مع الشّيخ الخيّر الدَّيّن الصّالح سيدي يحيى المُصَنِّفْ، وأطعمني بيده ودعا لي، جزاهم الله بالجنّة. وفي أثناء الإقامة طلبني الطّالب الخيّر الدَّيّن المجتهد المعلّم لأولاد المسلمين سيدي أبو العبّاس أحمد بن علي بن خروف تقرير هذا الرّجز فأخذنا في بسطه اهـ.

وقبر الشّيخ الصّفّار ظاهر مزار خارج البلد، وهو أوّل تربة تلاقي الخارج من باب البلد وليس عليه قبّة بل بيت مُسَطَّح[560] ولم نقف على تعيين سنة وفاته، ويؤخذ ممّا ذكره الصنهاجي أنّه من أوّل القرن التّاسع.

---

555) «إكمال المعلم في شرح مسلم» أكمل به القاضي عياض «المعلم» للإمام المازري، وهو مخطوط لم يطبع.

556) كان بأوّل نهج العيساوية وأدخل بمسجد سيدي عبد المولى.

557) في الأصول: «الخرازي»، محمد بن محمد الشريشي الخراز ورجزه يسمى: «مورد الظمآن في رسم أحرف القرآن» وآخر سماه: «عمدة البيان» وغير ذلك توفي سنة 718 / 1318 شجرة النّور 265، غاية النهاية لابن الجزري 237/2.

558) 20 أفريل 1422 م.

559) في ت: «واخينا معهم».

560) وفي السّنين الأخيرة بنت عليه البلدية قبّة.

ترجمة الشّيخ إبراهيم الصفاقسي :

ومن أعيان فضلاء صفاقس الشّيخ الإمام البرهان إبراهيم بن محمّد الشهير بالصّفاقسي[561] نزيل مصر، صاحب إعراب القرآن المشهور[562] به. كان – رحمه الله – غاية في علوم التّفسير والعربيّة، أخذ عن أبي حيّان (ومن في طبقته. وما في كتابه مختصرًا من ذكر أبي حيان)[563]. قال الجلال السيوطي في حواشي البيضاوي : أكثر الإمام أبو حيّان في بحره من مناقشة الزّمخشري في الإعراب ومجادلته بالاضراب، وتلاه تلميذاه الشّهاب أحمد بن يوسف الحلبي المشهور بالسّمين، والبرهان إبراهيم بن محمّد الصّفاقسي في إعرابيهما، ثمّ قد يوافقانه وقد يتبعانه بالجواب ويقرّران الذي قاله الزّمخشري هو الصّواب اهـ.

ولم نقف على تعيين سنة وفاته / ويؤخذ تقريبها من سنة وفاة أبي حيّان، وكانت [183/ب] سنة خمس وأربعين وسبعمائة[564]، فهو من أهل القرن الثّامن[565].

ترجمة الشّيخ الولي علي الكرّاي :

ومن أعيان فضلاء صفاقس ومشاهيرهم شيخ الطّريقة والحقيقة، العارف بالله تعالى، الشّيخ الصّالح سيدي علي الكرّاي بن ميمون الوفائي[566] المشهور بأبي بغيلة.

ولمّا كان الشّيخ – رحمه الله – منسوبًا للسّادة الوفائية فلا بدّ من ذكر أصل هذا النّسب ومآثره الكريمة ليعلم مقام هذا الشّيخ ورتبته.

---

561) وهو قيسي.

562) يسمّى «المجيد في إعراب القرآن المجيد»، وجد منه نسخة في أربعة أجزاء من القطع الكبير في المكتبة الوطنية بتونس وأصلها من المكتبة العبدلية الزّيتونية.

563) ما بين القوسين ساقط من ط.

564) 1344 – 1345 م.

565) توفّي سنة 748 / 1348 كما ذكره الذين ترجموا له كالسيوطي في بغية الوعاة، وابن حجر في الدّرر الكامنة، وابن القاضي في درة الحجال، وابن فرحون في الدّيباج المذهّب وغيرهم. أنظر تراجم المؤلفين التونسيين 4 / 132 – 135.

566) نسبا وطريقة. والوفائية طريقة بمصر من فروع الشاذلية وربما يكون آل الكراي الوفائيون إنتقلوا إلى الإسكندرية وتناسلوا بها ثمّ رجع فرع منهم إلى صفاقس.

تعريف بالسّادة الوفائية :

فنقول : أصل السَّادة الوفائية على ما ذكره المناوي في طبقاته : هو الشّيخ سيدي محمّد ابن محمّد وفاء ، إسكندري الأصل ، ويقال المغربي ثمّ المصري ، الشاذلي الصّوفي ، ذو الموشّحات التّوحيدية التي لم ينسج على منوالها أحد من البرية ، وشيخ الخرقة الوفائية ، وافر الجلال فائق الخلال ، سار صوت صيته ، واشتهر بنا تذكيره وتمكينه ، ولد سنة إثنين وسبعمائة[567] ، واشتهر بوفاء لأنّه كان ينسج المناديل بالرّوضة ولا يعرف ، فتوقّف النّيل ، فتوضّأ وصلّى بالمقياس ، فصار كلّما طلع من الفسقية درجة طلع البحر معه حتّى وفا[568] ذلك اليوم ، وألَّفَ الكتب وهو أمّي ، ولمّا دنت وفاته كان سيدي علي ولده حملاً فخلع منطقته[569] على الأبزاري بإسكندرية ، وقال : هذه وديعة عندك لعلي حتى يبلغ ، فعمل الأبزاري الموشحات النفيسة حتى كبر علي ، فخلعها عليه ، فلم يمكنه عمل بيت واحد بعد ذلك ، وله كلام على طريقة القوم كثير/ مُدَوَّن. قال الشيخ الشعراني[570] : [184/أ] كتاب الشعائر له ، والمشاهد وعنقاء مغرب لابن عربي ، وخلع النعلين لابن قيس ، لا يكاد يفهم أكابر العلماء منها معنى مقصودًا لقائله أصلاً ، بل خاص بمن دخل مع ذلكَ المتكلّم حضرة القدس فإنه لسان قدسي لا يعرفه إلّا الملائكة أو من تجرّد عن هيكله من البشر وأهل الكشف ، مات سنة ستّين وسبعمائة[571].

وأمّا سيدي وفاء ولده السّابق الذّكر فإنه ولد سنة تسع وخمسين وسبعمائة[572] بالقاهرة ومات أبوه وهو طفل فنشأ هو وأخوه أحمد في كفالة وصيّهما الزّيعلي ، فلمّا بلغ تسع عشرة سنة جلس مكان أبيه ، وعمل الميعاد ، وشاع ذكره وبَعُدَ صيته ، فانتشرت أتباعه ، وذكر بمزيد اليقظة وجودة الذّهن ، والتّرقّي في الأدب والوعظ ، ومعرفة تقرير كلام أهل الطّريقة. قال إبن حجر في إنباء الغمر[573] : كان يقظًا حادّ الذهن ، كثرت

567) 1302 – 1303 م.

568) يقصد بها : «انتهى».

569) في الأصول : «ناطقيته».

570) في ش وت وط : «الشعراوي».

571) 1358 – 1359 م. أنظر شجرة النّور 223/1 ، الطَّبقات الكبرى للشّعراني 21/2 – 22.

572) 1357 – 1358 م.

573) في الأصول : «أنباء العبر» ، والعنوان الكامل : «إنباء الغمر في أبناء العمر» ، أنظر النّسخة المطبوعة منه 302 – 309.

أتباعه جدًّا وأحدث أوزانًا فجمع النّاس عليه[574] وله اقتدار على جلب الخلق مع خفّة ظاهرة ، قال : وله تصانيف منها : «الباعث على الخلاص في أحوال الخواص» ، و«الكوثر المترع من الأبحر الأربع»[575] وديوان شعر[576] وموشّحات[577] كثيرة ، قال : وشعره يتعلّق بالإتحاد المفضي إلى الإلحاد كنظم[578] أبيه ، وفي آخر عمره[579] ، نصب بداره منبرًا وصار يصلّي بها[580] الجمعة مع كونه[581] مالكيًّا وقال في معجمه : اشتغل بالأدب والعلوم وتجرّد مدّة ، ثم انقطع ، ثمّ تكلّم على النّاس ، ورتّب لأتباعه أذكارًا بتلاحين مطبوعة إستمال / بها قلوب العوام ونظم ونثر ، وصحبه يتغالون في محبّته وتعظيمه [184/ب] ويفرطون في ذلك اهـ.

قال : ودَأْبُ إبن حجر أنّه إذا ذكر أحدًا من الطّائفة لا يبقي ولا يذر ، والله يغفر لنا وله ، وقال المقريزي[582] : كان جمال الطريقة ، مهابًا معظّمًا ، صاحب كلام بعيد ، ونظم جيّد سريع ، وتعدّدت أتباعه ودانوا بحبّه ، واعتقدوا أنّ رؤيته عبادة ، وتبعوه في أقواله وأفعاله وبالغوا في ذلك مبالغة مفرطة ، وسمّوا ميعاده الشهود ، وبذلوا له رغائب أموالهم هذا مع تحجّبه وتحجّب أخيه أحمد التّحجّب الكثير إلّا عند عمل الميعاد والبروز لقبر أبيهم وتنقّلهم في الأماكن ، بحيث نالا من الحظ ما لم يصل إليه من هو في طريقتهم حتّى مات بمنزلتهم في الرّوضة سنة سبع وثمانمائة[583] ، ودُفِنَ عند أبيه.

قال : ولم أر جنازة عليها من الخير كجنازته ، وأصحابه أمامه يذكرون بطريقة تلين لها قلوب الجفاة.

---

574) في المصدر السّالف : «له أتباع وأحدث ذكرًا بألحان وأوزان فجمع النّاس عليه ، وكان له نظم كثير واقتدار على جمع الخلق».

575) وهو كتاب في الفقه.

576) ذكره في أواخر ترجمته ولم يذكره عند سرد مؤلّفاته.

577) كلمة كثيرة زائدة بل جاء بعد موشّحات : «وفصول ومواعظ».

578) وكذا نظم.

579) أمره.

580) زائدة.

581) مع أنّه مالكي المذهب يرى أنّ الجمعة لا تصحّ في البلد ولَوْ كَبُرَ إلّا في الجامع العتيق.

582) في ش : «المغزيزي» ، وفي ب : «المقزيزي» ، ولعلّه ترجم له في المقفى وهو مخطوط إذ لم نجد له ترجمة في الخطط.

583) 1404 – 1405م وترجم له الشّعراني في الطّبقات الكبرى وأورد كثيرًا من كلامه 2/22 – 65.

وقال غيره: كان مستحضرًا لجمل من التّفسير وله تفسير ونظم جسيم، وديوانه متداول بالأيدي، وجيّد شعره أكثر من رديئه، وأمّا نظمه في التّلاحين والحقائق وتركيزه للأنغام فغاية لا تدرك، وتلامذته يتغالون فيه إلى حدّ يفوق الوصف اهـ.

وللحافظ زين الدّين[584] العراقي كتاب: «الباعث على الخلاص من حوادث القصاص» صَنَّفَهُ في الرّدّ عليه.

وقال بعض من صنّف في الطّبقات: كان فقيهًا عارفًا بفنون من العلم، بارعًا في التّصوّف، حسن الكلام / فيه، على طريقة إبن عربي وابن الفارض. [185/أ]

وقال بعضهم: كان ظريفًا لطيفًا، يلبس الملابس الفاخرة، ويأكل نفيس الأطعمة حتّى قوّمت الأواني الصّينيّة التّي في سماطه بألف دينار.

قال المناوي: وكان شيخنا الشّعراني يقول: كان في غاية في الظّرف واللّطف لم ير في عصره أظرف منه، وموشّحاته في ديوانه تشهد له، قال: مع أنّه سبك فيها أمورًا تضرب فيها الأعناق لو فسّرت، ومن كلامه: لا تعبث أخاك ولا تُعَيِّرْه بمصيبة دنيوية لأنّه إمّا مظلوم فسينصره الله، أو مذنب عوقب فَطَهَّرَهُ[585] الله، أو مبتلي وقع أجره على الله، ومن الرّعونة أن يفتخر أحد بالآباء من سلفه أو يعيّر بما لا يستحيل عليه، ويعلم أنّ ما جاز على مثله جاز عليه.

وقال: الخطوط الدنيوية زبالة، فمن أظهر للنّاس خصوصية ربّانية لينال منها حَظًّا دنيويًا فكأنّه بوطل بالمملكة كلّها على أن يكون زبالاً.

وقال: ليس لأحد أن يُمَكِّن أحدًا من تقبيل يده إلّا أن صحبه من الحق ما صحب الحجر الأسود من حِفْظِه عهد الحقّ في الخلق، والتّطهّر[586] من لوث بحكم الوهم البهيمي وعدم الشهوة المغفلة عن الله، والحظ المشتغل عنه، والرّعونة المضلّة عن طريقه، وتحمل خطايا الخلق ولو أسود بهم وجهه وتذكيرهم بربّهم، فمن جمع هذه الصفات فهو يمين لله في الأرض كالحجر الأسود، ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾[587].

---

584) في الأصول: «ولحافظ الدين».

585) في ش: «فطرده»، وفي ب وت: «فطره».

586) في ط: «التأخر».

587) سورة الفتح: 10.

وقال : من أراد انقياد العالم له انقيادًا ذاتيًا / فلا يحبّ إلّا الله ومن أمر بمحبّته ، [185/ب] وحينئذ يتسارع الأكوان كلّها لطاعته.

وقال : كلّما كان حادي القوم مناسبًا لهم في حالهم كان أشدّ تأثيرًا في قلوبهم.

وقال : لا ينبغي لعارف أن يظهر من معارفه إلّا ما يعلم قبوله له ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾[588].

وقال : لكلّ وليّ خضر ممثّل من روح ولايته بصورة الخضر المشهور.

وقال : لا تخرق حرمة من أمرت باحترامه فتعاقب.

وقال : ليس للسّالك أن يتكلّم بما اطّلع عليه للهالك فإنّه يزيده هلاكًا وإنكارًا.

وقال[589] : من طلب أن لا يكون له حاسد تمنّى أن لا يكون عنده من الله نعمة ، فإنّ الحكم الوجودي إقتضى مقابلة النّعم بالحسد ، لا بدّ من ذلك ، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[590] عبّر بإذا دُون إنْ ، وأمر بالإستعاذة من الحاسد لا من وجوده.

وقال : إحذر أن تزدري أهل الخلع الخَبِّيَة[591] من الفقراء ، الشّعثة رؤوسهم ، المغبرّة وجوههم ، فإنهم ناظرون إلى ربّهم ، وإنّما أنت أعشى البصيرة.

وقال : إيّاك أن تحسد من فَضَّلَهُ الله عليك ، فتُمْسَخ كما مسخ إبليس من الصّورة الملكيّة إلى الشّيطانية.

وقال في حديث : القلب بيت الرّبّ ، أي فليس لعبد أن يدخل قلبه إلّا ما يحبّه الله ، فلا يدخله ما يكرهه من الأقذار.

وقال : من أحبّ ثبات الإخوان على ودّه وثنائهم عليه بكلّ لسان قابلهم إذا أذوه بالحلم والغفران.

وقال : من أشغل[592] قلبه بحبّ شيء من الأكوان ذلّ عند الله وهان ، / ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾[593]. [186/أ]

---

588) سورة يوسف : 5.

589) ساقطة من ط.

590) سورة الفلق : 5.

591) في ش : «الخبية» ، وفي ط : «الخبيثة».

592) في ت وط : «استغل».

593) سورة الحج : 18.

وقال : إذا ذكرت ذنوبك فلا تقل : لا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله فإنّك تبرّئ نفسك منها وتضيفها إلى حول الله وقوّته ، وتريد عدم الحجّة عليك ، بل قل : ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرِ لِي﴾[594].

وقال : من صحب المعرضين عن ذكر الله أهانه الله في عيون الخلق.

وقال : لا تأمن المعتقد فيك فإن نفسه إنّما سكنت حيث عَقَلَهَا عَقْلُهَا النّظري بعقال ظنّي سنده حال أو مقال[595] والأعراض لا تبقى فكأنّك بالعقال[596] وقد انحلّ ورجع المعقول إلى تَوَحُّشِهِ.

وقال : المحبّ قليل والمعتقد كثير ، وما قلّ وكفى خير ممّا كثر وألهى[597] ، وكفى باللّهو ضررًا.

وقال : كلّ ما يراه المحجوب من العارف فهو صورة الرائي لا المرئي ، فإن رآه زنديقًا فهو زنديق عند الله ، أو صِدِّيقًا فهو صِدِّيق لأنّ العارف مرآة الوجود.

وقال : واضع العلم[598] في قلب متدنّس بالرّئاسة وحبّ الدّنيا كواضع العسل في قشر الحنظل.

وقال : لا تكمل معرفة العبد إلّا أن ينفذ[599] من جميع الأقطار العلوية والسفلية وتجاور حدّ الخفض[600] والرّفع.

وقال : العلم في غير حليم شمس طلعت من مغربها ، والعلم في غير مأدوب شَهْدٌ وضع في قشّ حنظل.

وقال : من التفت إلى بشريّته بالكلية حُجِبَ عن الحقائق الرَّبّانية ، وسلبت عنه الحقيقة الإنسانية.

وقال : من ملك أخلاقه فهو عبد الله ، ومن ملكته أخلاقه فهو عبدها ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَاهَهُ هَوَاهُ﴾[601]. / [186/ب]

---

594) سورة القصص : 16.

595) في ط : «عقال».

596) في ط . «بالعقل».

597) في ت : «ولهى».

598) ساقطة من ه.

599) في بقية الأصول : «تنفد».

600) في ط وب «الحفظ».

601) مستوحاة من الآية 43 من سورة الفرقان.

وقال : إنّما تجمل الشاذلية بالثياب إظهارًا للغنى[602] عن الخلق ، ورضًى بما أعطاهم الله في سرائرهم حين لبس غيرهم المرقّعات إظهارًا للفاقة ، وأمّا السَّلف فما لبسوا الرّثّ وأكلوا الخشن إلّا لمّا وَجَدُوا أهل الغفلة أقبلوا على الدُّنيا وزينتها فخالفوهم بإظهار حقارتها .

وقال في معنى قول البسطامي[603] : خضت بحرًا وقف الأنبياء بساحله ، إنّ الأنبياء عبروا بحر التّكليف إلى ساحل السَّلاَمة ، ووقفوا ساحله[604] الآخر يتلقّون من أسلم[605] وبذلك أُرسلوا .

وقال : من ذاق حلاوة الطّاعة وصل إلى حضرة ربّه في ساعة .

وقال : من ادّعى في نفسه العظمة والكبرياء فلا فرق بينه وبين من قال : إنّي إلاه من دون الله ، وكفى به كفرًا .

وقال : شرط المحقّق أن يخاطب أهل كلّ مرتبة بلسانها لأنّ كلّ شيء عنده بمقدار ، فلا يخاطب أهل الحديث بغير حديثهم ، ولا أهل النّظر بغير نظرهم ، ولا أهل الذّوق بغير ذوقهم .

وقال العارف الشعراني[606] : طالعت كثيرًا من كلام الأولياء ، فما رأيت أكثر علمًا ولا أرقى شهدًا من كلامه .

وكان يركب الخيل المسوّمة ويَخْرج من بيته بجومة عبد الباسط إلى الروضة ليلاً فتفتح له الأبواب بنفسها ثمّ تغلق ، فخرج الوالي ليلاً فوجد باب زويلة مفتوحًا فأراد ضرب البَوَّاب فقال له : يا سيدي ، علي وفاء[607] كلّ ليلة يجيء فيشير إلى الباب فيفتح ، فتارة أعلم فأغلقه ، وتارة أنام. فقال الوالي : رجعت عن إنكاري عليه لبس السخاب ، فإن من / تفتح له الأبواب لَبِسَ السخاب . [187/أ]

وأنكر عليه إبن زيتون الوزير وقال : ما ترك هذا لأَبْنَاءِ الدُّنيا شيئًا ، فأين الفقر الذي هو شعار الأولياء؟ فالتفت إليه وقال : تركنا لكم ولأبناء الدُّنْيَا خِزْيُ الدّنيا وعذاب الآخرة .

---

602) في الأصول : «الغنا» .

603) أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي مات سنة 874/261 : الطّبقات الكبرى للشّعراني 76/1 – 77 .

604) في بقية الأصول : «بساحله» .

605) في بقية الأصول : «السلم» .

606) في ش وط وب : «الشعراوي» .

607) في ط : «وفى» .

ولم يطل عمره بل مات دون الخمسين.
ولمّا عطش الحجّ حتّى أشرفوا على التّلف فأتوه فأنشد موشحة (يقول فيها)[608]:
[مجزوء الكامل]
إسق[609] العطاشى تكرّمًا فالعقل طاش من الظّما
فأُمْطِرُوا حالا كأفواه القرب – رضي الله تعالى عنه –.

تتمّة ترجمة الشّيخ علي الكراي:

ولنرجع إلى الكلام على الشّيخ سيدي علي الكراي، يسمّى بذلك لأنّه كان يكثر تكرار القرآن العظيم، فأُبْدِلَت الرّاء ياء.

قدم أبوه ميمون[610] من المشرق، وتزوّج أمّ سيدي علي الكراي، ثمّ سار في سياحته، فَرَبَّتْهُ أمّه.

قيل إنه لمّا توفّي أبوه تزوّج أُمَّهُ سيدي علي بن أبي القاسم، وعليه كان ترقّيه في طريق القوم.

وأخذ الفقه بصفاقس عن الشّيخ الصّفّار ومشايخ الوقت بها، ثم انتقل إلى القيروان، فكان سيدي علي بن أبي القاسم يوصل إليه عشاءه من صفاقس كلّ ليلة، فنشأ في عبادة الله وخدمة العلم من صغره، وزاد في طاعة الله لمّا كَبُرَ سنّه، وفي كلّ يوم يزداد.

وكان محبوبًا لفضله، مطلوبًا لعدم مثله.

قال سيدي علي بن أبي القاسم: أخذ عَلَيَّ مائة ألف من الجنّ والأنس، أصغرهم عَلِي، وأتْقَاهُمْ عَلِي.

وكان مهابًا ويتكلّم على ما في القلوب، ويتكلّم مع أهل السّلوك، ويسلّم للمجذوبين أحوالهم / ويبيّن لهم طريقتهم، ويفرّق بينهم، ويعْرِف الواصل منهم. [187/ب]

وكان في بدايته الغالب عليه الانقباض، فلذا اختار الجولان، فاتّخذ بغيلة يركب

608) ما بين القوسين ساقط من بقية الأصول.
609) في ط. «اسقوا».
610) في بقية الأصول: «وهو ميمون».

عليها ، فلذا سمّي : أبا بغيلة ، حتّى انبسط وصار في غاية الألفة والإرتياض ، فانكبّ عليه المريدون كما هو شأن رجال الطريقة .

فقد كان الشّيخ سيدي محرز بن خلف في ابتداء أمره يسكن مرسى الرّوم لا يألفه إلّا أصحابه ، فلمّا سكن تونس إنبسط للفقراء وألِفَهم ، وصار يلقى كلّ من يرد عليه من الزوّار في المواسم[611] بل يلقاهم قبل ورودهم عليه في كلّ وقت ، وكثروا حتّى أنّ منهم من يصافحه ومنهم من لم يصل إليه ، فيلمس أثوابه بيده[612] ويمسح بها على وجهه ، وبلغ رتبة القطابة لأنّه سأله بعض تلامذته أن ينظر القطب فقال له الشّيخ : إمض ليلاً قرب المسجد الأعظم بعد صلاة العشاء ، وامكث حتّى يمرّ بك ، ففعل التّلميذ ذلك فلمّا انقطعت الرِّجْل[613] إرتقب حتى طلع الفجر ، فلم ير أحدًا إلّا رجلاً يشبه أهل البادية ، بيده رمح ومخلب ، مشتمل بإحرام ، وبرجله سُبَّاط[614] ، ومتعمّم كأهل البادية ، فخاف منه وهابه ، فانصرف وصلّى الصّبح مع الشّيخ ، فلمّا فرغوا من الوظيفة سأله الشّيخ : هل رأيت القطب؟ قال : ما رأيت إلّا رجلاً بصفة كذا وكذا ، فقال له : ذلك هو ، ولكن إسمع ما أوصيك به : القطب يموت في اليوم الفلاني من شهر كذا ، فما زال يعدّ السّنين والشّهور والأيّام إلى اليوم الّذي وَقَّتَ له[615] الشّيخ ، فكان فيه وفاة الشّيخ ، فَتَعَيَّن أنّه هو القطب ، واجتمع / بالشّيخ سيدي أحمد بن عروس بصحن جامع [188/أ] الزيتونة من تونس ، فَسَلَّم كلّ على صاحبه ، فأخرج الشّيخ إبن عروس ثديه الأيمن فرضعه حتّى روي ، ثمّ ناوله الثّدي الثّاني فأباه وقال : إنه لأخي أبي[616] راوي ، يقدم علينا – إن شاء الله – فحَدَّث الشّيخ إبن عروس بعض إخوانه فقال لهم : كانت نوبتي[617] البارحة بالمحلّ الفلاني ، فباسطه وقال : من يشهد لك؟ فقال : هذا الشّيخ علي الكَرَّاي ، فقال الشّيخ الكَرَّاي : لا علم لي بهذا ، فقال إبن عروس : ألم تكن نوبتك أنت بجبل كذا؟ فقال له : صدقت قد كان ذلك .

---

611) في ط : «المراسم».
612) ساقطة من بقية الأصول.
613) في ب وط : «الرجال».
614) أي حذاء.
615) في بقية الأصول : «وقت له فيه».
616) هو غير بوراوي الفحل محمد بن عمران دفين سوسة لأنّه توفّي بعد إبن عروس بزمان (ت. 931 / 1524 م).
617) في ش : «نومتي».

وتوفّي الشّيخ إبن عروس سنة نيف وسبعين وثمانمائة[618].

وللشّيخ الكراي كرامات كثيرة في حياته وبعد وفاته ، فمن ذلك أنّه طلب منه تلاميذه يومًا دقيقًا لقوتهم ، فأرسل واحدًا منهم وأمره أنّه إذا وصل لضريح الشّيخ سيدي طاهر[619] بشاطئ البحر وكان خارج السور في جهة الجنوب والشرق ، وقد صار الآن داخل الربض بجوار الشّيخ النونشي ، قال : فإذا وصلت وجدت على شاطئ البحر تربة بيضاء فاملأ منها وعاءك ، ففعل التّلميذ ذلك ، فلمّا رجع وفتحه وجده دقيقًا من خالص الحنطة.

وأرسل تلميذًا مرّة لجبل النّور ، وهي كدية في الشّمال والشرق من الشّيخ اللّخمي فملأ من ترابه ، فوجده من خالص دقيق الحنطة.

وكان يجتمع بالخضر (عليه السّلام)[620] في سيدي عبّاس الجديدي ، فدعا له ولذرّيته بالبركة.

[188/ب] ومنها أنّ بعض أهل الشرّ من أهل صفاقس شهدوا / فيه أنّه زنديق وكانوا ثمانين رجلاً ، وطلبوا الشّيخ الخطيب أبا العبّاس سيدي أحمد الشّرفي أن يشهد معهم ، فامتنع من ذلك وقال لهم : نشهد فيه أنّه رجل صالح لا تأخذه في الله لومة لائم ، فدعا له الشيخ ولذرّيته بالبركة ، ثمّ إنهم كتبوا شهادتهم وأرسلوها إلى السّلطان الحفصي ، فلمّا فتح الكتاب وقرأ ما فيه وجد كلمة صِدِّيق في مكان زنديق ، وتبيّن له أنّ كلامهم باطل ، فأرسل من يأتيه بتلك الجماعة الذين شهدوا بالزُّور ، فأطْلع الله الشّيخ عليه قبل وصوله ، فركب بغيلته وتلقّاه بالكدية ، إسم موضع قرب البلد ، فلمّا رآه الرّسول عرّفه بصفته ، فنزل عن فرسه إكرامًا للشّيخ وإجلالاً له ، فسأله عن سبب قدومه فَعَرَّفه أنّه يطلب شهود الزّور ليحضروا بين يدي السُّلطان ، فقال له الشّيخ : أرجع من هنا فلا تُرَوّع المسلمين ، فقال : أخاف من السّلطان ، فقال له : لا بأس عليك ، فأنا أكتب للسّلطان وأعرِّفه أنّي عفوت عنهم وسامحتهم وأتركهم لوجه الله ، فامتثل الرّسول وأخذ كتاب الشّيخ وأخبر السّلطان بخبر الشّيخ ، فعمل السّلطان بما أخبره به الشّيخ من العفو والصَّفْح ، قيل لم يُخَلِّفْ أحد من أولائك الشهود عقبًا عقوبة من الله.

---

618) يظهر أنه مقلّد لما قاله المناوي في طبقاته. أنظر. جامع كرامات الأولياء ليوسف النبهاني 536/1 ، وتوفّي الشّيخ إبن عروس سنة 868 / 1463 م ، أنظر الحقيقة التّاريخية للتّصوّف الإسلامي ص 273 – 274

619) لعلّه سيدي الطّاهر وكان في المكان الذي يشير إليه. وقد انقرضت قبور هذا المكان.

620) ما بين القوسين ساقط من بقية الأصول.

ومن أكبر الكرامات ما وقع له عند إرَادةِ التّزوّج حسبما ذكره سيدي أبو الحسن الكراي – رحمه الله – ، وذلك أنّه لمّا أراد التّزوّج ذكر له امرأة بكر صالحة بقرية قرقور ، من وطن صفاقس الغربي قرب صفاقس ، فخطبها من أبيها ، وكان رئيس القرية ومن الصّالحين / واسم البنت سليمة ، وله عدة أولاد أصحاب عِزّة ونخوة ، فخطبها من [189/أ] أبيها فأجابه ، وأنكر الأولاد تعلّلاً بفقره ، فقال لهم : هو رجل صالح وأخاف إن امتنعت أن يتغيّر خاطره علينا ، وأنا أعرف به منكم ، ولكن نشترط عليه أمورًا فإن وفى بها زوّجناه وإلّا فلا ، وهو يعتقد أنّه يوفّي وإنّما قاله تطييبًا لقلوبهم ، وتسكينًا لحميتهم ، فقبلوا كلامه فلمّا رجع الشّيخ وطلب العقد إشترط عليه مائة دينار ، ومصوغًا على جاري عادتهم ، وبعيرًا بجحفته ، وخمس عشرة شاة ، فقبل الشّيخ ذلك ، ثمّ توجّه إلى أولياء الله تعالى في قبورهم ليمدُّوه بما اشتُرط عليه ، وجعل على كلّ وليّ شيئًا ، ويبيت عنده في ضريحه ، ويصلّي ورده ، ويجد ما طلبه صباحًا ، فأتى ضريح شيخ من المتقدّمين لم يشتهر باسم ، غربي المحرس ، قرب سيدي غريب ، فطلب منه عشرة دنانير ، وبات كعادته مع غيره ، فلمّا صَلَّى الصّبح وجد خمسة عشر دينارًا ، فقال مخاطبًا لصاحب القبر : فيّضت يا أبا فياض ، فسمع مخاطبًا من داخل القبر يقول : أحييت إسمي أحيى الله إسمك ، فانصرف لمشايخ الوطن الشّرقي كالشّيخ عبد الرَّحيم الزّاهد ، والشّيخ الجبنياني ، والشّيخ مسرّة وغيرهم ، والشّيخ مروان – نفعنا الله بهم وبأمثالهم – وكان ممّا شُرِطَ عليه خرصان وزبيبتان من الذّهب ، فبات عند الشّيخ الجبنياني على عادته ، فلمّا نام رأى الشّيخ أبا إسحاق فقال له : يا علي اقصد سحنون الفلاّح بقرية بليانة ، وأمره يبحث / في [189/ب] الركن الفلاني من البيت الفلاني في حوشه[621] ، فإنه يجد قدرًا بالدّنانير وفيها خرصان وزبيبتان ، فخذ الخرصين والزّبيبتين ودع الباقي له ، فذهب لسحنون وعرّفه وكان بحضرة جماعة من قومه ، فأنكروا أولاً قوله ، ثمّ رجعوا وذهبوا فحفروا فوجدوا[622] [ذلك] ، فاعتذروا واعتقدوا ، فأخذ ما عيّن له وانصرف متوجّهًا للشّيخ اللّخمي ، فلمّا جاوز ضريح سيدي منصور الغلام ببرج[623] قزل سمع صوتًا خلفه يُنادِيه ، فالتفت فرأى شخصًا يسوق شياهًا[624] ، فوقف حتّى قدم عليه ، فإذا برجل أسمر اللّون عليه لباس أهل

---

621) المنزل الرّيفي ، وفي صفاقس صارت تعني خلال القرن التّاسع عشر السّاحة الواسعة التّابعة له.

622) ساقطة من ش وب ، والزّيادة من ت وفي ط : «فوجدوها».

623) على بعد 11 كلم شرقي صفاقس.

624) في بقية الأصول : «شاة».

البادية ، فسلّم عليه ثمّ قال : تجاوزتنا ولم تلتفت إلينا ، فاعتذر له فعرّفه أنّه الشّيخ سيدي منصور الغلام ، ففرح به ، وقبل منه الخمس عشرة شاة ، وشكره على ذلك ، وودّعه وانصرف ، فودّع الشاة وبات عند الشيخ اللّخمي ، فرآه في النّوم وقال له : إذا صلّيت الصّبح سر لدار الغنم[625] ، فالرّجل الذي يلاقيك تجد عنده جملاً صفته كذا بجحفته فَخُذْه منه ، فهو حِصَّتنا من إخواننا ، ففعل ما أمره به وانصرف لقرية قرقور فسلّم عليه أهلها ، ولمّا سمعوا إخوة البنت بقدومه ومعه ما طلبوا لاموا أباهم ونازعوه ، وقالوا : لا يأخذها[626] فقال لهم : لا أقدر أخالف فإنه رجل صالح ، ولكن نشترط عليه شرطًا آخر وهو أنّ ابنتي لا تنزل من جحفتها إذا وصلت باب[627] البلد ، وكان قصيرًا لا يمكن دخول[628] الجمل بجحفته عادة منه ، فإذا لم يدخل[629] الجمل بجحفته بقيت بنتنا وذهب إلى حال سبيله / فاستصوبوا قوله وشرطوه على الشّيخ فَقَبِلَه ، فلمّا وصل الجمل إلى الباب وضع الشّيخ يده على عتبة الباب فارتفعت بإذن الله حتى جاوز الجمل الباب ؛ فسلّم الأولاد وعلموا أنّها عناية من الله تعالى. [190/أ]

ورزق منها ثلاثة رجال : عمر وسعد وحسن.

وكانت له خابية يخزن بها قوت عياله فتكفيهم طول سنتهم ، ويزرع منها ، فخرج لسياحته على بغيلته فلمّا قدم قال لأولاده : لِيَقُمْ أحدكم يأت بعلف البغيلة من الخابية ، فقام سعد فرجع بالمخلات فارغة وقال : لم أجد بالخابية شيئًا ، فقام حسن فرجع مثله ، فقام عمر فأتى بالعلف من الخابية ، فقال له : أنت صاحب الزّاوية وعندك البركة ، وهي في عقبك ، فمات أخواه عن غير عقب إلّا بنتًا لأحدهما.

ومات الشّيخ – رحمه الله – ودُفن بضريحه المشهور في وسط صفاقس بالجهة الغربية منها ، ولم نقف على تعيين سنة وفاته ، ويؤخذ تقريبها من وفاة الشّيخ إبن عروس كما أسلفنا ذلك.

وممّا وقع من كراماته بعد وفاته أنّ إبن نويرة كان خادمًا لقائد البلد ، وكانت

---

625) مكان قريب من صفاقس من جهتها الغربية على طريق عقارب.

626) أي أختهم.

627) للمدينة إذ ذاك بابان ، باب الجبلي وباب البحر ، والمقصود هو باب الجبلي شمال المدينة الذي كان يفتح على ساحة القوافل.

628) في بقية الأصول : «خروج».

629) في بقية الأصول : «يخرج».

عندهم إمرأة مسجونة ففرّت لزاوية الشّيخ فاقتفاها وجذبها وردّها ، فاتّفق في ذلك اليوم عرس لبعض أهل البلد ، وكانت عادتهم أنّهم يخرجون سابع العرس مصطفّين من باب البحر ، يدورون خارج البلد ، ويدخلون من باب الجبلي ، بعدما يكون اجتماعهم بحومة العروسين[630] وإلى الآن تسمّى بذلك الإسم[631] ، فخرج / إبن نويرة من جملة رجال [190/ب] ذلك العرس ، وكانت معه بندقية فصرّخها ، فانكسرت في يده ، ورجع عليه منها قطعة فمات منها ، وكان في ذلك الوقت رجل واقف بباب ضريح الشّيخ يقرأ فاتحة الكتاب على عادة المارّين بالشّيخ إبتغاء البركة ، فسمع صوت بندقية من قبر الشّيخ ، فوقعت له دهشة ، فبينما هو كذلك إذ مرّ به أناس يتحدّثون بأنّ إبن نويرة إنكسرت في يده بندقية ومات بها ، فأخبرهم بما سمع والله تعالى أعلم.

وقد ألّف الشّيخ أبو الحسن[632] – رحمه الله تعالى – كتابًا في ذكر كرامات أجداده واستوفى ما أمكنه ، فمن أراد استقصاء كرامات الشّيخ فليرجع إليه ففيه مقنع والله أعلم.

ترجمة الشّيخ عمر الكرّاي :

ولمّا مات الشّيخ الكرّاي قام مقامه ولده سيدي عمر الكراي ، وسار إلى السّلطان الحفصي ، فلقيه وزيره وفرح به ، فأعلمه بوفاة الشّيخ ، وأنّه يريد الإجتماع بالسّلطان. (فدخل إلى السّلطان)[633] وأعلمه بموت الشّيخ وأنّ ولده يريد الإجتماع بك ، وقال له : كنت سمعت أن سيدي عليًا قال : عمر أعلى منّي درجة ، فخرج وقابل سيدي عمر بالإجلال ، وقضى له مآربه.

---

630) هذه العادة زالت.

631) حومة العروسين ما زالت على مقربة من الجامع الكبير في هضبة مرتفعة يرقى إليها بدرج إلّا أنها تنخفض شيئًا فشيئًا حتى إذا وقع الوصول إلى الحومة لم يبق من الإرتفاع إلّا ما لا بال له ، على أنها يبدو ارتفاعها القليل بالنسبة لما جاورها من الأنهج ، وكانت – وما زالت بعض البقايا – حومة الدهانين الذين يزخرفون الأخشاب من صناديق ومرافع ...

632) هو الكراي من سلالة الشيخ علي الكراي.

633) ما بين القوسين ساقط من ط وب.

وكان لسيدي عمر ثلاثة أولاد محمد وعثمان وعلي شايب الأذرعة.

فلمّا رجع سيدي عمر من تونس مجبور الخاطر عَمَّر زاوية أبيه، وربّى المريدين، وسار سيرة حسنة، وأتاه النّاس من كلّ جهة، وكان أهل الحامة يعتقدونه فَيُشتّي عندهم ببلد الحامة، كما كان والده يفعل ذلك، فلمّا خرجت الحامة على الحسن الحفصي / [191/أ] – حسبما مرّ – خرج لها بعساكره مرارًا فلم يظفر منها بطائل. وكان سيدي علي دعا لأهلها فقال: الحامة حَامِيَةٌ لأهلها ما[634] لم يظهر فيهم الفسق وهتك حرمة الشّرع العزيز، فلمّا عجز الحسن عن الحامة أتى إلى الشّيخ سيدي عمر واستنجده بأن يسير لأهل الحامة ويطوّعهم ولهم الأمان التام، فقال له الشيخ: لا أفعل هذا لأنّك تخونهم وتسفك دماءهم وتستبيح أموالهم، فقال له: لا أخونهم وعاهده على ذلك وألحّ عليه في ذلك فأبى الشّيخ، فحلف أنّه لا يخونهم، فقال له الشّيخ: تخونهم ولا بدّ ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ فِي الكِتَابِ مَسْطُورًا﴾[635] فسار الشّيخ لأهل الحامة، فلمّا رأوه فرحوا به وقالوا له: هل لك من حاجة نفوز بقضائها؟ فعرّفهم بشأن الحسن وعهده وقَسَمِهِ إن أطعتم لا يخونكم، ولكن ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً﴾[636] فقالوا له: أَوَ يَخُونُنَا؟ قال: نعم، فقالوا: نطيعه إكرامًا لكم، ويفعل الله ما يشاء. فقدم الحسن بعساكره ففتحت البلاد ولم يقاتله أحد منهم، فلمّا توسّط جيشه خان وفعل ما سوّلت له نفسه الأمّارة، فلمّا سمع الشّيخ بذلك إغتاظ ودعا عليه، وقال: ألّلهم كما أوحشني في أولادي فرّق بينه وبين أحبّته، وأعم بصره كما أعميت بصيرته، فلمّا رجع إلى مدينة تونس وقع منه ما تقدّم، ولمّا رجع لمحلّة ولده فعمى من حينه حسبما مرّ ذلك مفصّلاً.

وسافر سيدي عمر لبلاد المشرق لحجّ البيت الحرام، فلمّا رجع من حجّه مات بوادي القصب وقبره / [191/ب] هناك معروف مزار، وكتب عند وفاته وصية لسيدي محمد الكراي وأوصاه بالقيام بالزّاوية والمحافظة على تقوى الله العظيم.

ترجمة الشيخ محمد الكراي:

فلمّا وصلت الوصيّة قام بالأمر سيدي محمد، وسار في طريق القوم سيرة حسنة، فأتاه المريدون من جميع البلاد.

---

634) ساقطة من ط.

635) سورة الأحزاب: 6.

636) سورة الأنفال: 42.

وكان من أَجَلِّ أصحابه من أهل صفاقس الشّيخ الصَّالح سيدي محمد صريح فكان من أهل الكشف ، فزوّجه الشّيخ أخته لما رأى من صلاحه ومتابعته لسيرة القوم والسّلف الصّالح ، وقدّمه شيخًا بزاوية الشّيخ سيدي أبي بكر القرقوري إلى أن مات .

ومنهم الشّيخ ساسي اللّبيدي ، كان كثير المتابعة للسّنّة ، محافظًا على رسوم الشريعة ، ملازمًا لآداب الحقيقة والطّريقة ، ولمّا ظهرت بركاته تزوّج الشّيخ أخته .

وللشّيخ – رحمه الله تعالى – كرامات كثيرة ومكاشفات غزيرة ، فمن مكاشفاته أنّه كان إمامًا بمقام الشّيخ سيدي أبي يحيى الضّابط ، فمكث يومًا بصحن المسجد يزيل القمل من ثيابه ويضعه في قارورة ، فرآه إنسان من طاق فاعترض على الشّيخ في خاطره بأن يجهل هذا الشّيخ حكم قتل القمل بالمسجد ، والشّيخ موليه ظهره ، فرفع تلك القارورة وقصد بها ذلك المعترض قائلاً : من بَقَّرَنَا تَبَّنَهُ الله ، أي من جعلنا من البقر حيث حَكَمَ بعدم معرفة حكم قتل القمل بالمسجد جعله الله تبْنًا تأكله البقر ، فدخل ذلك المعترض تائبًا ، فعفا عنه ودعا له بالهداية والتّوبة. [192/أ]

ومن كراماته ما وقع من قصّة المُكَنِّي وعبد المولى وغير ذلك .

ولمّا توفي / أَخبَرَ أخوه سيدي علي شايب الأذرعة أنّه كان معه بقرية قَلُّوس من وطن صفاقس الشرقي قال : فلمّا قفلنا منها وصرنا بين ذراع ابن زياد وغدير النّصف(637) وكان بيده قلعي وهو راكب ، فهزّ القلعي وقال : يا علي ، فنظرت إليه فما وجدته إلّا قد سُدَّ بين السّماء والأرض ، ثمّ قال : في يومي هذا في ساعتي هذه ، قدمي على قدم سيدي عبد القادر الجيلاني ، وقصدني ، فهبته ممّا أفاض الله عليه من الهيبة والجلالة ، وغبت عن حسّي ، فلم أرجع لحسّي إلّا بعد مدّة ، فلمّا أفقت وجدت رأسي في حجره ويده على رأسي وقال لي : يا علي أكتم ما رأيت إلّا بعد موتي ، وإن والدي أوصاني بحفظك وأنا الخليفة عليك بعده.

ولمّا حضرته الوفاة ، استخلف بعده أخاه سيدي علي شايب الأذرعة ، ودفن خارج البلد ، ضريحه مشهور معروف من جهة ركن البلد الشمالي الغربي ، وعلى ضريحه من الهيبة ما ليس على غيره – رحمه الله تعالى – ولم نقف على تعيين سنة وفاته .

---

(637) على بعد 18 كلم تقريبًا من صفاقس في اتجاه المهدية وتسمّى الآن بئر النّصف.

ترجمة الشّيخ علي بن عمر ابن الشّيخ علي الكرّاي :

ولمّا مات – رحمه الله تعالى – قام مقامه سيدي علي شايب الأذرعة فقام بتربية المريدين ، وقصده النّاس فسار على طريقة آبائه الكرام ، فظهرت منه بركات عظيمة ، ومناقب جسيمة ، ومكاشفات كريمة ، فكان ينظر إلى السّماء ويخبر بما فيها من العجائب حتّى اشتهر ذلك عنه ، وسمع به أخوه سيدي محمد ، فكان معه يومًا مارًّا في بعض سكك البلد[638] فرفع بصره إلى السّماء وقال : يا سيدي محمد أنظركم في السّماء من أزقّة وانظر إلى الفلك الذي في السّماء كيف يدور فنظر / إليه سيدي محمد وقال له : بحقّ ما سمعت [192/ب] عنك ، افتح فاك يا علي ، ففتح سيدي علي فاه ، فتفل فيه سيدي محمد ، فانحطّ نظر سيدي علي قليلاً عمّا كان يَعْهَدُه.

فكان ذات يوم فوق سور البلد فقال لأناس كانوا معه : الآن خرجت القافلة من القيروان ، وفي المنكب الأيمن جَمَلٌ صفته كذا ، وَيقْدُمُ القافلة جمل صفته كذا ، فَضُبط ذلك الوقت ، فلمّا قدمت القافلة سلّموا عليهم وسألوهم عن وقت خروجهم من القيروان ، فأخبروا بما يطابق ما قاله الشّيخ ، وبالجمل الذي كان في المنكب الأيمن والذي كان يتقدّم القافلة على نحو ما قاله الشّيخ.

ولمّا أتت العمارة لقرقنة قال لأهل الزّاوِيةِ : لا تفتحوا عَلَيَّ بَابَ الخلوة حتّى أفتحها بنفسي ولو مكثت أيامًا ، فغلق عليه الباب بعد صلاة الظّهر والعصر ، فكانوا يسمعونه يكرّ ويفرّ وينتده[639] ويصرخ بقيّة نهاره وعامة ليلته وصبيحتها ، ثمّ فتح الباب على نفسه فوجدوه مجروحًا ملطّخ الثّياب بالدّماء ، فغسلوا ما بها من الدّمِ وطلب كَمُّونًا فتداوى به.

وسبب هذه العمارة أنّ بلاد جنوة كان الحاكم عليها إمرأة نصرانية ، وكان لها ولد يعزّ عليها ، فركب سفينة سافر فيها لبعض بلادهم متنزّهًا مع وجوه قومه ، فوقع عليهم النّوّ فأدَّتْهُم إلى قرقنة فشحط[640] المركب فأخذهم أهل قرقنة وحملوهم لتونس لسلطان الوقت ، فسمعت تلك الكافرة فجعلت عمارة في أسطول[641] ضخم فأخذوا جميع من

638) في بقيّة الأصول : «في سكك بعض البلد».
639) في بقيّة الأصول : «يتنده».
640) في الأصول : «شحطت».
641) في الأصول : «أصطول».

فيها وحملوهم لبلدهم ، وكانوا فقراء ، فلمّا قدموا على النّصرانية ورأت حالهم / قالت [193/أ] هؤلاء ما يجيء من فدائهم لا يساوي ثمن الخلّ والبشماط الذي صرفت على الأسطول.

وفي قصّتهم أنشأ شاعرهم(642) شلّوف قصيدة مشهورة يحفظها غالب أهل قرقنة تركناها خوف الطول.

وكان الرّئيس عمر الزّواري له مركب يسافر به(643) لإسكندرية في وقت معلوم من السّنة ، ويأتي في وقت معلوم ، فتخلّف في بعض السّنين عن وقته الذي يأتي فيه ، فَفُقِدَ وأيِّس منه أهله ، فطلع سيدي علي شايب الأذرعة فوق سور البلد ، قرب باب البحر ، فوجد النّاس ينظرون لناحية قدوم المراكب رجاء أن يظهر لهم مركب الرئيس عمر الزواري ، فقال لهم : هو الآن أقلع من إسكندرية ، فقيّد الحاضرون ما قاله ، فلمّا قدم الرئيس عمر المذكور سُئِل عن وقت إقلاعه فطابق ما قيّده الحاضرون ، وقال : لما نشرت القلوع مسافرًا نزل طائر أبيض على المركب فما فارقني حتّى وصلت للبلد.

وتزوّج الشّيخ إبنة الرئيس عمر المذكور ، فولدت له ولدًا سمَّاه عمر ، وعاش الشّيخ شايب الأذرعة خمسًا وتسعين سنة ، وكذا ولده المذكور ، ودفن في تربة جدّه سيدي علي أبي بغيلة.

ترجمة الشّيخ أبي الحسن الكرّاي :

ومن أحفاد(644) سيدي علي أبي بغيلة الشّيخ سيدي أبوالحسن بن أبي بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن علي بن ميمون صاحب الموشّحات التي عِدَّتُهَا ستّ وخمسون على طريقة السَّادة الوفائية في تعظيم جانب الحق جلّ ثناؤه ، وإمداح للمصطفى ﷺ وتشويق للكعبة المشرَّفة وغير ذلك ، وشرح معظمها بشرح يتكلّم فيه على طريقة القوم.

وأنشأ وظيفة أرسلها إلى مصر فشرحها له الشّيخ عبد الوهاب / الأزهري ومدحه [193/ب] أيضًا الشّيخ عبد الوهاب بقصيدة أرسلها له مع الشّرح المذكور.

وكان الشّيخ فقيهًا عارفًا بالطّريقة والحقيقة ، أخذ علوم الظّاهر عن والده الشّيخ

642) أي شاعر قرقنة.

643) في الأصول : «بها».

644) في بقية الأصول : «ومن أحفاد الشيخ سيدي علي»

سيدي أبي بكر الكراي ، وعن الشيخ المفتي سيدي عبيد اللومي[645] ، ومن كان بعصره من فقهاء البلد.

وحصل له الجذب على يد الشيخ سيدي سعيد الوحيشي – رحمه الله – وذلك أنّ والده كان رجلاً متّبعًا للشّريعة متمسّكًا بالحقيقة محبًّا للصّالحين ، ويُكْثِرُ من زيارتهم. في كلّ سنة يخرج بتلاميذه لزيارة الصَّالحين بوطن صفاقس ، ويحثّ ولده أبا الحسن على الذّهاب للزّيارة ، فأبى ذلك ، فلمّا آن الأوان قال لوالده : أريد أن أخرج هذه السّنة للزّيارة ففرح والده بذلك ، فلمّا تهيّأ التّلاميذ للخروج تجهّز وخرج معهم وقال لهم : لا بدَّ من الذّهاب لزيارة الأشياخ بمدينة القيروان فامتنعوا من ذلك أوّلاً لبعدها عنهم ، ولم تَجْرِ العادة بمجاوزة الوطن ، فأبى عليهم إلّا المسير إليها ، فلمّا رأوا جِدَّهُ في ذلك طاوعوه ، فلمّا قربوا من القيروان نزل عن دابّته وذهب ودخل القيروان وحده ولم يكن قبل يعرفها ، فلم يزل سائرًا حتّى دخل الزّاوية الوحيشية ، وكان سيدي سعيد إذ ذاك في خلوته ولا يدخل عليه أحد إلّا بإذن ، ولم يعلم ذلك الشّيخ أبو الحسن فدخل من غير استئذان فقبله الشّيخ سيدي سعيد الوحيشي ، ولحظه وجذبه بهمّته ، فخرج من هناك هائمًا لزيارة الصّالحين ، وبقي على ذلك مُدَّة ، ثمّ رجع إلى صفاقس وقد أخذه الحال وانجذب لطريق القوم ، فأنشأ له / زاويته المشهورة به ، واشتغل بنشر العلم واحتجب وشرع في إنشاء الموشحات على طريق السَّادَة الوفائية ، وأكثر فيها من المواعظ والحظّ على الآخرة ، فانتفع بها من هَدَاهُ الله تعالى. [194/أ]

وأقام في حجبته خمسين عامًا ، وقد تقدّم ما وقع له من محنة إبن عطية وابن الإنكشاري. وعند وفاته رثاه تلميذه الشّيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي المراكشي بقصيدة طويلة من جملتها قوله :

[الطّويل]

محقّق علمٍ ثـــابتٍ متلطّفٍ ... عكوفٍ على الطّاعات بالعلمِ عاملِ
فخمسين عامًا قد ثوى[646] في اعتكافه ... مكبًّا على التّعليم من غير شاغلِ
وحقّق أيضًا في اعتقاد لطالب ... عقائد في التّوحيد للشكّ زائِلِ

---

645) الأصحّ الأومي نسبة لهنشير أومة الكائن شمالي قرية نقّطة غربي صفاقس وآثاره باقية إلى الآن ، وسيترجم له المؤلّف.

646) في ت : «توافي».

بسيّـدنـا عثمان متّصل النَّسَبْ — فيا حبّذا من نسل تلك الأماثلِ
كراماته تنبيك عن طيب فعله — تُنير ضياءً مثل شمس التّوافلِ
بنى داره زاويـة مسجد بهي — وروضة دفن هي[647] عذب المناهلِ
فولده في شهر رمضان ثابتٌ — بعشرين يومًا مع ثمان فواضلِ
مسمّى بيومٍ جُمْعَةٍ فيه ساعةٌ — يجاب دعـاء البرّ فيها لسائلِ
في عـام واو ثمّ كـاف محقّق — وبعدهما ألفٌ مضت برواحلِ
وسار إلى عفـو الإلاه مهلّلاً — وسبحتـه مقرونـة بـالأنـامـلِ
بـآخر يـوم بالعروبة[648] ينسب — لشهر رجب فالعفو واللّطف نائلِ
في عام ألف ثمّ خمس ومائة — عفا عنه مولانا كريم الفعائلِ
فعاش من الأعوام سبعين بعدها — ثلاث وستّ غير شهري[649] فواصلِ

ترجمة الشّيخ أبي عبد الله محمّد المرّاكشي :

وتفقّه به عدّة تلاميذ من أعيانهم خليفته على زاويته الشّيخ أبو عبد الله / سيدي [194/ب] محمّد المرّاكشي المقدّم الذّكر، أصله من مدينة مرّاكش. قدم أجداده لصفاقس من مقدار أربعمائة سنة على ما قيل وإنّما استخلفه على الزّاوية لأنّه تزوّج إمرأتين لم يفتح له منهما بذكر ولا أنثى، وكان له إبن أخ تبنّاه وأراد استخلافه فحصلت[650] بينهما منافرة، فاستدعى أبا عبد الله المرّاكشي لما رأى من حسن سيرته وخلوص طويّته وإقباله على العلم النّافع، فجذبه بهمّته وتفقّه به، قيل إنّه أخذ عليه العهد أن يجتنب المناصب الشّرعية، ولعلّه لخوفه من الإشتغال بها عن القيام بالزّاوية أو لسيره على طريق القوم فإنّهم يفرّون منها إذ لا يسلم من غوائلها إلّا الفرد النّادر سيّما في هذه الأعصار الّتي صار القابض فيها على دينه كالقابض على الجمر، فقبل العهد ووفى به، ثمّ استأذن شيخه في حجّ بيت الله[651]، فلمّا رجع أقامه الشّيخ مقامه في حياته، وصار يعمل الميعاد من

---

(647) في ط : «بها».
(648) في ط وب : «العروبة»، وفي ت : «المروية». وهذا البيت مختلّ الميزان بكلّ الأصول.
(649) في ط : «ثلاث وست غير شهر هن فواصل».
(650) في الأصول : «حصل».
(651) في ط : «بيت الله الحرام».

الجمعة للجمعة بقراءة كتب الوعظ والسّير والمغازي والتّحريض على الجهاد وأفعال الطّاعة ، كما هو عادة أهل البلد في كلّ جمعة ، ويعلّم التّلاميذ من علوم الطّريقة والحقيقة إلى أن انتقل الشّيخ أبو الحسن ، فاستقلّ بعده وكتب الشّيخ في حُبُسه واستخلافه أنّه يقبض دخل الزّاوية ، وينفق عليها ، ولا حساب عليه ، ولا يدخل معه في ذلك أحد ، فقام ، وكلّما فضل عنده شيء من غلال الحبس إشترى به عقارًا للزاوية ، فكثر بذلك دخلها ، واتّسع حالها ، وسار على طريقة شيخه فأنشأ القصائد / [195/أ] وعمل الموشّحات ، وخَمَّسَ كثيرًا من القصائد ، ورثاه بعد وفاته تلميذه الشّيخ الصّالح أبو عبد الله محمّد الفرياني بمرثية من جملتها :

[الطّويل]

وبعد ثنائي[652] بالجميل تأسّيا ... أردت بمرثاتي الذي كان لي يُقْرِي

محمَّد المراكشي الّذِي سما ... على عصره في الجود والبذل والقدرِ

له منطق عذب يشوّق من أتى ... لمجلسه المرسوم للوعظ كالعطرِ

فوفّقه ربّ السَّما في حياته ... إلى أن توفّاه الصَّفُوح عن الوزرِ

في شهر شعبان المعظّم قدرهُ ... عفا عنه ربٌّ جاد بالصّفح والسّترِ

بليلة عشر منه تتلو لتسعة ... توفّاه مولاه قبيل ضيا الفجرِ

لدى عام ألف وأربعين ومائة[653] ... تليها ثمانٍ بالحساب وبالحصرِ

ورثاه أيضًا ولده الشّيخ أبو العبّاس أحمد بمرثية طويلة وقام مقامه بعده بالزّاوية ، وكان رجلاً رحيمًا رقيق القلب ، ذا حظّ من الفقه ، محبًّا للفقراء والزوّار ، باذلاً للطّعام جوّادًا :

[البسيط]

لا يألف الدرهم المضروب صرَّتَه ... لكن يمرُّ عليها وهو منطلقُ

ذا خمول وانجماع عن غير أبناء جنسه ، ملازمًا لميعاد الجمعة ، ناشرًا للعلم بقدر وسعة سائرًا على طريقة والده وشيخه إلى أن توفّاه الله سنة تسع وتسعين ومائة وألف[654] شهيدًا بالطّاعون ، فقام أبناؤه مقامه .

---

652) في بقية الأصول : «ثنايي».

653) 26 ديسمبر 1735 م.

654) 1785 م.

ترجمة الشّيخ الولي عيسى بن عمران البلوي :

ومن معاصري الشيخ أبي بغيلة الشيخ الفقيه العالم الولي الصّالح سيدي عيسى بن عمران البلوي ، زوّج إبنته لولد الشّيخ أبي بغيلة ، وكان ملازمًا له ، وله مقامات وكرامات كثيرة.

قال الشّيخ أبو الحسن الكراي – رحمه الله تعالى – نقلاً عن أبيه : دخلت روضة / [195/ب] لسيدي عيسى بن عمران في صغري فرأيت بها أسدًا فأخبرت بذلك والدي ، فقال لي : ذلك سيدي عيسى.

ومنها أنّ الباشا – رحمه الله تعالى – كان أمر بهدم ما بين سور البلد والدّور من الأبنية حتى يبقى السُّور منفصلاً عن الدّور قائمًا بنفسه ، وكان ضريح الشيخ سيدي عيسى بن عمران[655] متّصلاً بالسّور ، فلمّا وصل الفعلة إلى ضريح الشّيخ هاب النّاس أن يهدموا جدار الضّريح المتّصل بالسّور ، فتقدّم رجل يقال له سعيد الأنشلي ، وكان فاقدًا لإحدى كريمتيه ، فأخذ المعول وضرب الجدار، فَعَمَتْ صحيحة كريمتيه فصار كفيفًا.

ووقعت فتنة بين السّلاطين ، فخاف أهل البلد من عدوّ يطرقهم فرَكّبُوا على الأسوار المدافع ، ووضعوا منها مدفعًا محاذيًا لضريح سيدي عيسى ، فلمّا نام المقدّم على تركيب المدافع بالأسوار رأى الشّيخ في منامه وقال له : أنزل ذلك المدفع وأنا أكفيكم هذه الجهة ، وإن لا تنزله أَقْصم ظهرك ، فبادر إلى تنزيله ، وكفى الله المؤمنين شرّ تلك الفتنة.

ترجمة الشّيخ مخلوف الشّرياني :

ومن مشايخ وطن صفاقس الشرقي سيدي مخلوف الشرياني ، أصله مغربي ، صحب الشّيخ العيّاشي بطبلبة ، وسكن شريانة ، ثمّ انتقل لأنشلة[656] ، وهو من أكابر الصالحين والعلماء العاملين ، له تخميس عظيم على بردة المديح إلاّ أنّه قليل الوجود بأيدي النّاس. وله عقب[657] بأيديهم ظهير من أمر الحفاصة وأمراء العساكر العثمانية مراعاة لحقّه / [196/أ] – رحمه الله تعالى ونفعنا به –.

---

655) ساقطة من بقية الأصول.

656) هي Ussila وينسب إليها.

657) من أعقابه عائلة عبد الكافي ، وهي غير التي تنتسب إلى سيدي عبد الكافي العثماني جدّ آل بوعتور.

ترجمة الولي محمّد الرّقيق أبي عكّازين :

ومن أعيان وطن صفاقس الغربي الشّيخ الولي الصّالح العارف بالله تعالى ، المزار المتبرّك به ، الإمام الخطيب ، الحسيب النّسيب أبو عبد الله سيدي محمّد الرّقيق(658) أبو عكّازين المدفون بالمسعودة(659) ، وهو من أولاد عنان من نسل مولاي إدريس ، فيكون شريفًا ، أخذ الطريقة عن سيدي أبي يحيى القرقوري ، مات أبوه وتركه صغيرًا فسمّته أمّه محمّد اليتيم ، وأسلمته للمعلّم ، فلمّا ترعرع صار يذهب لقرية قرقور يقرأ على الشّيخ العارف بالله تعالى سيدي أبي يحيى القرقوري ، وكان جميل الصّوت ، حسنه رقيقه ، فسمّاه الشّيخ بالرقيق ، فاشتهر هذا اللقب ، وكان شيخ من مشايخ العرب يتعرّض له في ذهابه للشّيخ القرقوري ويقول له : قل لأمّك تتزوجني ، فأنكر ذلك ولم يخبر أمّه به ، فجعل شيخ العرب يؤكّد عليه الوصيّة كلّ يوم حتى ضاق صدره من ذلك ، وتغيّر حاله ، فرآه الشّيخ القرقوري فسأله عن حاله ، فعرّفه بما يقاسيه من مدافعة شيخ العرب ، فقال له : خذ هذا القضيب واصحبه معك ، فإذا لقيك فاستعذ بالله منه واسأله أن يعافيك من هذا القول ، فإن رجع عن حاله فذلك المطلوب ، وإن أبى فاضرب الأرض بهذا القضيب وقل : خذيه يا أرض ، فإن أخذته كلّه وإلّا فأَعِد عليها حتّى تأخذه أجمع ، ففعل ما أمره به الشّيخ فأخذته الأرض ، فعرّف الشّيخ ، فقال : إذهب / إلى قريتك وبث علمك فقد بلغت مبلغ الرّجال فقام بقرية أوْمَة. [196/ب]

وكان خطيبًا ، فلمّا جاء العيد سأله أهل المحرس أن يخطب لهم ويُصَلِّي بهم العيد فأبى أهل قريته وتشاجروا فأعطى أهل المحرس عكازًا وهو القضيب الذي يعتمد عليه الخطيب ، وأخذ أهل قريته العكّاز عندهم ، فلمّا حضرت صلاة العيد هيّأ أهل كلّ قرية عكّازهم على منبرهم فإذا بالشيخ داخل عليهم فَصَلّى بهم وخطب لهم ، فلمّا التقى أهل القريتين افتخر كلّ على الآخر بصلاة الشّيخ عندهم ، فكَذَّبَ كلّ منهم الآخر فرجعوا إلى الشيخ ، فقال : والله ما صَلَّيْتُ إلّا بالحرم الشَّريف ، ولكنّ الله كشف عن أبصاركم فرأيتموني ، فكلّ فريق في بلاده يحسبني بإزائه كالشّمس في فلكها ، وكلّ أحد يحسبها في

658) وأبناء الرقيق ذكرهم العبدري في رحلته ص 267 بعد رجوعه من الحج ، قال : «ثم سافرنا منها (أي قابس) على طريق نقطة وهي موضع على البحر فيها ناس صالحون يعرفون بأولاد الرقيق». وانتقل فريق من أولاد الرّقيق إلى صفاقس منذ قرون والبعض الآخر ما زال موجودًا بنقّطة إلى الآن.

659) تقع شمالي بلد نقطة غربي صفاقس.

داره ، فمن ثمّ سمّي بأبي عكّازين الرقيق ، وتنوسي إسم محمد.

وممّا شاع عند أهل قرية نقّطة أنّ أحفاد الشّيخ لمّا نزلوا نقّطة على شاطئ البحرِ وسكنوا بها ، وعمرت بهم القرية ، رآهم النّصارى فهيّؤوا لهم عمارة ثلاثين مركبًا وهجموا عليهم ليلاً وقاتلوهم قتالاً شديدًا حتّى مات الرّجال وهم ستّون ، وسُبِي الحريم ، فمن جملة الحريم المسبي إمرأة من أحفاد الشّيخ فأوثقوها وأوثقوا عبدها كتافا ، فلمّا أراد الكفّار إدخالهم إلى المركب صاحت بعبدها فقال لها : أنا موثوق بالقياد فلا حيلة عندي ، فقالت : اجذب يديك ينقطع القياد ، ففعل ، فانقطع القياد ، ثمّ تقدّم لأوّل كافر / [197/أ] فاحتمله وضرب به الأرض ، وأخذ سلاحه ، وضَرَبت البنت طبلاً فسمعه من أراد الله سعادته ، ففزع[660] النّاس وبلغ صوته لبعض الصّالحين بأرض السَّواسي ، فأتى في الحين على جواده ومعه سلوقية[661] فأعان الله المسلمين ، وقتلوا الكفّار أشدّ قتلة ، ولم يفلت منهم إلّا من بقي في السّفن ، فأقلعوا لمّا أيسوا من رجالهم ، ثمّ بعد ذلك أرادوا نقل الشُّهَداء لمقبرة الشّيخ بالمسعودة ، فلم يكن عندهم ظهر للحمل غير ذلك الجواد الذي قدم عليه الرّجل الصّالح من أرض السواسي ، فذهب منهم جماعة للحفر والدَّفن ، وبقي جماعة للتّحميل على الفرس ، قيل إنّ الفرس يذهب بنفسه من غير سائق ولا قائد ويرجع كذلك ، فكلّما أوصل جانبًا رجع ، فما فرغوا من الدّفن إلّا وأتى بجانب إلى أن فرغوا ، وكان من جملة القتلى[662] صاحب الجواد فدفن مع جملة القتلى ، وماتت الفرس والسلوقية[661] فدفنا معهم.

ومن خاصية تربة هذا الشّيخ أبي عكّازين المشهورة الشّائعة إلى الآن أن من كان من نسله إذا دفنوه قَبِلَتْهُ الأرض ، ومن كان من غير نسله يصبح منبوذًا ، حتّى قيل إنّه جاء بعض الصّالحين زائرًا فمات ولده فدفنه معهم ، فرأى في النّوم قائلاً : أنقله ، فأبى ، فأعيد عليه فأبى ، فأصبح مطروحًا بأرض قابس ، فبعدها لم يتجاسر أحد على الدّفن من غير نسل الشّيخ.

ولم نقف للشّيخ على تاريخ وفاة إلّا إنّه وجد على قبر من قبور أحفاده : هذا ضريح

---

660) أي أنجدهم.

661) السلوقي هو الكلب المنسوب إلى سلوق وهي قرية باليمن تنسب إليها الكلاب الجياد السريعة العدو والضامرة البطن.

662) في الأصول : «القتلاء».

[197/ب] يعقوب بن عبد الله بن أبي عكّازين الرّقيق ، توفّي عام سبعة وستين وثمانمائة[663]. / ووجدنا عقدًا مؤرّخًا بأواسط صفر سنة خمس وسبعمائة[664] ، وكتبه محمّد بن محمّد الرّقيق اهـ. فيكون الشّيخ – رحمه الله ونفعنا به – من أهل القرن السّابع.

ترجمة الشّيخ منصور بن عبد الله القرقوري :

ومن مشايخ الوطن الغربي الشّيخ الفقيه سيدي منصور بن عبد الله القرقوري ، صاحب زاوية المحرس.

كان خطيبًا إمامًا بجامع المحرس ، وجدنا له ظهيرًا من المرحوم محمّد باي – رحمه الله تعالى – فيه سراحه والإيصاء باحترامه ، مؤرّخًا بجمادى الأولى سنة إحدى وأربعين وألف ، فكان من القرن الحادي عشر.

ترجمة الشّيخ أبي محمّد عبد الله الأَوْمي :

ومن أجلّ فقهاء صفاقس المتأخّرين الشّيخ الفقيه المفتي العمدة الثّقة العالم الهمّام أبو محمد عبد الله اشتهر سيدي عبيد بن المنتصر الأومي ، كان – رحمه الله – أحد الأعلام الحذاق ، وطار صيته وفتاويه فطبق الآفاق ، وفتاويه تنبيء عن جلالة قدره ، وكان ممّن لا تأخذه في الله لومة لائم ، فقام بالدّين لله ، فحسده أهل عصره فسعوا به إلى السّلطان فأمر بنفيه مرّة إلى المهدية ومرّة إلى الحامة ، فكانت له بالحامة آثار جميلة ، فعمل المطاهر والميضاة على ماء الحامة ، وهي إلى الآن باقية مشهورة باسمه ، وكان مؤيدًا في فتواه وتوثيقه ، وذهب مرّة لتونس وكانت له عمامة الفقهاء ، فرآه بعض أهل السّوق فظنّه خاليًا من العلم كما هو شأن بعض المشبّهين بالفقهاء ، فقال لآخر من أهل السّوق : إنّها لكبيرة ، فأجابه صاحبه بقوله : محشوة قطنًا ، فقال الشّيخ : بل محشوة علمًا فاسألها تجبك ، وكان السّلطان يرفع قدره ويعلي شأنه ، فلامه بعض جلسائه / فقال : هو رجل [198/أ] ذو فضل ثمّ أمر غدًا بإحضار العدول وملأ جابية من ماء ، وأخذ نارنجة فاستخرج منها

---

663) 1462 – 1463 م.

664) سبتمبر 1305 م.

لحمها بلطف بحيث لم يظهر تغيرها وألقاها خاوية في وسط الماء ، ولم يدر أحد بما جعل ، وجعل مكان إستخراج لحمها غامرًا في الماء حتّى صار الظاهر صورة نارنجة صحيحة ، ثمّ استدعى العدول وجعل يسألهم واحدًا بعد واحد ، هل هي أترجة أو نارنجة ، فكلّ قال بحسب ما غلب على ظنّه ، وكتب شهادتهم على ما صمّم عليه ، ثمّ استدعى الشّيخ عبيد – رحمه الله – فسأله كما سأل غيره ، فأخذ مئزرًا وفسخ ثيابه ، فقال له السّلطان : ما لك؟ فقال : أنزل الماء ، وآخذها في يدي فإذا تحقّقت شيئًا أجبتك به ، فقال له : كان يسعك ما وسع غيرك من إخوانك العدول ، فقال : لا يكفي الأخذ بالظّنّ مع إمكان اليقين ، فلمّا أخرجها من الماء فإذا هي قشر فارغ ، فقال : هذا قشر نارنجة فارغ ، فقال لمن لامه في رفع قدره : أتلومني في رفع قدر مثل هذا؟

وكان تفقّه أوّلاً بأهل بلده ، ثمّ انتقل لتونس وتفقّه على فقهاء عصره فاشتهر بالفضل والعدالة ، وأخذ عنه أهل بلده في بلده وغيرهم في غيرها.

وممّن أخذ عنه من أهل صفاقس الشّيخ أبو الحسن الكراي قيل إنّه سأله الشّيخ أبو الحسن قراءة صُغْرَى الشّيخ السنوسي في آخر أمر الشّيخ عبيد ، فاعتذر بعدم خلوّ الوقت لاشتغاله بوقائع النّاس ، فصار الشّيخ أبو الحسن يأتيه كلّ ليلة وقت صلاة العشاء فسأله على عقيدة / من غير ترتيب ولا كتاب ، فتارة من الآخر وتارة من الوسط ، وتارة من الأول ، فيجيبه عن كلّ مسألة بما تستحقّه ، فلمّا كمل الكتاب قال له : يا شيخ أبا الحسن ختمت الكتاب وهذه آخر مسألة منه من غير درس ولا حضور كتاب. [198/ب]

وكانت وفاته – رحمه الله – بربيع الثّاني من شهور سنة ستّ وخمسين وألف[665] ، وقبره بالقرب من ضريح الشّيخ اللّخمي في جهة الغرب والجنوب ، وعلى قبره سيف من رخام عليه التّعريف به وتاريخ وفاته – رحمه الله تعالى – .

ترجمة الولي منصور الغلام :

ومن أولياء الله تعالى العارفين بالله سيدي منصور الغلَام[666] ذو الكرامات المشهورة والفضائل المأثورة.

665) ماي – جوان 1646 م.

666) لعل المقصود بالغلام الأسود اللون ، والزّنوج يحتفلون به إلى الآن في الخريف.

قيل كان عبدًا لرجل من أهل صفاقس صنعته عمل القطن ، وكان يتركه بالليل يشتغل فيصبح كلّ يوم ويأتيه فيجده قد استوفى جميع ما يبقى عنده قلّ أو كثر ، ثم إنّه دعته حاجة في بعض الليالي فأتى للمحلّ الذي يشتغل فيه فلم يجده ، وارتقبه أكثر الليل فلم يأت ، فلمّا أصبح وجده قد استوفى عمل جميع ما عنده من القطن ، ففطن له وعلم أنّ له عناية من الله تعالى فرصده ليلة من الليالي فوجده سائرًا في سكّة من البلد ، فتبعه من حيث لا يشعر به ، فما زال سائرًا حتّى انتهى لسور البلد ، فنزل منه ، فتبعه وسار خلفه ، فما زال سائرًا حتّى وصل إلى برج قزل[667] فشرع في الصّلاة ولم يزل كذلك حتّى طلع الفجر فرجع وطلع من حيث نزل ، فعند ذلك نُجِزَ عنه[668] ، فلمّا علم أنّ سيده اطّلع على سرّه وأفشاه اعتزل عن النّاس ، فظهرت كراماته وبلغ خبره السُّلطان / فطلبه [199/أ] فاختفى ولم يظهر ، فَوُجِدَ بعد زمان ميّتًا مغسّلاً مكفّنًا في المكان الذي وجده سيّده يصلّي فيه عند برج قزل ، فدفنوه فيه.

ولم نعرف له زمانًا ، وهو أسبق من الشّيخ أبي بغيلة لأنّه تقدّم أنّه لمّا مرّ على ضريحه أعْطاه الشّياه – حسبما مرّ –.

ومن كراماته المشاهدة بالعين في عصرنا أنّ بعض صيادي[669] السّمك تبعوا غلامًا وقصدوه بالفاحشة فامتنع منهم وفرّ منهم هاربًا حتّى دخل ضريح الشّيخ فتبعوه ، وكانوا ثلاثة ، فلمّا ضايقوه دخل تحت التّابوت الذي على القبر فتغلّبوا عليه وأخرجوه كرهًا ، فكسر ظهور الثلاثة ، فأمّا أحدهم فإنه خرجت روحه حالاً ، وأما الثّاني فزاد مدة قليلة وجعل يقذف الدم والقيح حتّى مات ، وأمّا الثالث فطالت مدّته مكسور الظّهر ثمّ مات ، وكلّ من انتهك حرمته وقع به عطب لا يسلم منه ، وهذا شيء كثير ، ومع هذا يأتيه الزّوّار فيظهرون من أنواع اللعب بجميع أنواع الملاهي والمفرحات فلا يصيبهم سوء ما لم يصدر منهم ما يؤذن[670] بانتهاك حرمات الشريعة ، فمن فعل شيئًا فلا يسلم ، ولكنّ الناس لا يقدرون ولا يقدمون على فعل شيء من ذلك احترامًا وخوفًا من تعجيل العقوبة.

---

667) بالقاف المعقدة كالجيم المصرية وبعدها زاي مفتوحة يقع على بعد 11 كلم في شرقي مدينة صفاقس على الطريق المعروف الآن بثنية سيدي منصور حيث الآن مقام سيدي منصور الغلام ، وبعض الوثائق تسمّيه برج كرك وبقاياه قائمة وتعرف بالنّاظور ، وحول الضّريح الآن بساتين مشجرة وقرية سيدي منصور.

668) في بقية الأصول : «انجزعت».

669) في الأصول : «صيادين السمك».

670) في ش : «يؤذون».

ولأهل صفاقس وأوطانها فيه اعتقاد زائد فلا يقطعون زيارته على حول السّنة[671] وحقّ لهم ذلك ، والله تعالى أعلم.

ترجمة الشّيخ أبي الحسن علي الوحيشي :

ومن أولياء الله العارفين بالله النّاشئين بصفاقس الشّيخ الصّالح المعتقد الجامع بين الحقيقة والطّريقة ، الورع الزّاهد سيدي أبوالحسن / علي بن سعيد بن سعد الوحيشي ، [199/ب] أصل جدّه – وهو الحاج سعد – من وادي العقيق وقيل من وادي الوحش من أرض الحجاز ، نزل بِقَلُّوس قرية من وطن صفاقس الشرقي ، وتزوّج بامرأة من قصر تنيور[672] وهو[673] قصر علم جوفي صفاقس ، واسم المرأة خديجة التنيورية ، فولدت ولدين إسم أحدهما منصور واسم الثّاني سعيد ، فانتقل سعيد لصفاقس فاستوطنها وحجّ وتزوّج بامرأة من صفاقس وصار يتّجر بين صفاقس والقيروان ، وصارت له صحبة بذرّيّة الشّيخ عطاء الله (السلمي فزوّجوه بامرأة من ذرّية الشّيخ عطاء الله)[674] فأقام بها بالقيروان مدّة يسيرة ، ثمّ انتقل بها إلى صفاقس فولدت له سيدي علي الوحيشي ، وتوفّيت[675] وهو صغير ، فحضنته زوجة أبيه الصفاقسية على كره منها له على عادة الرّبيب عند امرأة الأب ، وكان في غاية الجمال ، وغلب عليه الإنجذاب إلى الله ، فلمّا ترعرع أسلمه أبوه للمكتب[676] ، فلم تمض عليه مدّة إلّا وقالت له علّم ولدك صنعة يعيش بها ، فعلّم صنعة نسج الكتان على عادة أهل صفاقس ، فغلب عليه زيارة الأولياء[677] كالشّيخ أبي بغيلة ، والشّيخ اللّخمي ، وابن التّين وغيرهم ، وإذا أتى الليل جاء لأبيه[678]

---

671) وللسود ميل خاص لهذا الولي ، وكانوا إلى عهد غير بعيد يخصصون له أيامًا لزيارته ويقصدون ضريحه في موكب له طقوسه السمعية يتقدمهم تيس للذبح ، وتحولت هذه العادة الآن إلى مهرجان شعبي منظم من طرف الهياكل الثقافية يقام في الخريف من كل سنة لمدة 3 أيام من 5 إلى 7 سبتمبر.

672) من ضواحي صفاقس ، وإلى هنالك طريق تسمّى طريق تنيور ، شمال المدينة وتؤدي إلى بقايا قلعة أثرية لم تبيّن الدراسات أصلها بعد ، وتنعت هذه البقايا عند العامة بقصر تنيور.

673) في ش وب : «هي».

674) ما بين القوسين ساقط من ط.

675) في الأصول : «توفت».

676) الكتاب.

677) في ط : «الصّالحين الأولياء».

678) في ط وب : «جاء أبوه» ، وفي ت : «جاء لأبوه».

بمقطع[679] فاستعجبت إمرأة أبيه وقالت : هذا لا يكون من عمل يده ، فتركته حتّى خرج للمنسج وأمهلت قليلاً ثمّ ذهبت للمنسج لتبصر كيف ينسج ، فوجدت المحلّ مغلقًا فجعلت عينها في خرق الباب ، فإذا بالمنسج ينسج وحده لنفسه[680] كأقوى ما يكون من النّسج[681] ، فعلمت أنّ له شأنًا / ، ثمّ قالت لوالده إنّه كبر سنّه ولا يليق أن ينام معنا في [200/أ] بيت واحد ، فافض[682] له بيتًا ، فصار إذا غلق الباب [ودخل][683] البيت يسمع معه كلام ، فقالت إمرأة أبيه : ما هذا الكلام مع ولدك فلعلّ معه أحدًا ، فيقول لها : دعيه فإني غلقت باب الدّار[684] ، ولا يمكن أن يدخل أحد[685] ، فقالت لا بدّ من أن أذهب وأنظر ما عنده ، فذهبت ونظرت من خلال الباب ، فوجدته على كرسي ومعه ديوان منصوب بأولياء الله[686] ، وهو يولي ويعزل ، فيقول : أوليت فلانًا وعزلت فلانًا ، [وهو] يتصرف في الولاة[687] بما شاء ، فالتفت إلى زوجة أبيه وقال لها : كشفت السّتر ، أعمى الله بصرك وقطع يدك ، فكان ذلك في الحين[688] ، فصاحت ، فخرج والده فوجدها على تلك الحالة ، فاعتذر إليه من فعلها وطلب منه العفو عنها إكرامًا له ، فقال له[689] : هل تابت من شرّها؟ فقالت : تبت[690] ، فدعا لها ومسح عليها فرجعت لسلامة أعضائها.

ثمّ زاد فيه الإنجذاب ، وقوي به[691] الحال ، فأمره والده بالذّهاب إلى البلاد الواسعة ، فسار[692] إلى تونس وفتح دكّان عطّار وجعل يبيع الكثير بالثّمن القليل ، وكلّ

---

679) من النسيج.
680) في ط : «بنفسه» ، في ت وب : «لبسه».
681) في ب : «المنسج».
682) في ش : «فافضي» ، وفي ت : «فاجعل» .
683) ساقطة من ش ، وفي ت : «إذا غلق الباب ودخل بيته».
684) في ت : «فإني غلقت الباب أي باب الدار» ، والصواب : «أغلقت».
685) في ط : «أن يدخل أحد من خلال الباب».
686) في ت : «منصوب من الرجال بأولياء الله».
687) ساقطة من ط وب.
688) ساقطة من ط وب وش.
689) ساقطة من ط وب وش.
690) في ت : «قد تبت».
691) في ط : «فيه».
692) في ط : «فسافر».

من سأله[693] عن شيء أعطاه ولم يره أحد أدخل حانوته[694] شيئًا فتعجّب النّاس من أمره وكثر ازدحامهم عليه وقصدوه من جميع الجهات ، وربحوا منه ربحًا كثيرًا فاقت الحصر ، فغار منه[695] أهل السوق ، واشتكوه[696] لمراد باي أبي[697] حمّودة باشا وقالوا[698] : هذا رجل أقبلت عليه النّاس ، ويخشى منه تغيير[699] الدولة ، فأمروه[700] بالخروج من تونس ويتوجّه حيث شاء.

[200/ب] وكان الشّيخ سيدي علي العيوني[701] – رحمه الله – بالقيروان / عنده دلاعة محتفظًا عليها[702] ، وكلّما سأله تلاميذه أن يعطيها لهم يقول هي لصاحبها ، فلمّا خرج الشّيخ من تونس توجّه للقيروان ، فزار السّيّد الصاحب ثمّ توجّه للشّيخ العيوني ، فلمّا رآه من بعيد قادمًا عليه قال لتلاميذه : هذا صاحب الدّلاّعة قد أتى ، فلمّا وصل سلّم على الشّيخ العيوني ففرح به وأخذ سكّينًا وقطع الدّلاّعة قطعًا بقدر ما تدخل فيها اليد ، فجعل يعصرها في قشرها حتّى صارت ماء فقال : افتح فاك وسقاه جميع ما فيها فخرج وقد أخذه من الحال ما أدّى إلى نبذ ثيابه من فوق جسده ، وكان نقي البشرة فجعل النّاس يسترونه وهو يلقي ما يوارونه به ، وصار يدور بالأزقّة وهو غير مالك نفسه فغيّر الله بياض بشرته ببعض سواد سترًا لجماله.

ولمّا دخل حمودة باشا بن مراد للقيروان ، وبين يديه شاويشه لمنع النّاس من الطّريق ، لقي الشّيخ بالطّريق فأمره بالتنحّي عن الطّريق أوّلاً وثانيًا وثالثًا وهو لا يلتفت إليه ولا يشعر به فضربه بقضيب بيده[703] ثلاث ضربات فذهب الشّيخ ولم يقدر الشاويش على الإنتقال من موضع ووقف فرس الباشا ولا علم عنده بما صدر من

---

693) في ت : «يسأله».
694) في ت : «للحانوت» ، في ب : «حانوت».
695) يقصد حسدوه ، وفي ت : «فعرموه».
696) في ط : «واشتكوا به».
697) في ت : «والد».
698) في ت : «وقالوا له».
699) في ط : «تغير».
700) في ط : «فأمره».
701) في ت : «العويني».
702) ساقطة من ط .
703) ساقطة من ط .

الشّاويش[704] فسأل وقال هذه القيروان بلاد الصّالحين ولا ندري كيف الحال ، فعرّفوه بما صدر من الشّاويش ، فقال : وأين الذي ضربتموه؟ فقالوا : إنه يذهب للشّيخ العيوني ، فنزل عن فرسه وأتى الشّيخ[705] معتذرًا يقبّل اليد والرّجل ويطلب الإقالة والصَّفح ، فقال : لا أصفح عنك حتّى تذهب معي ، فقال : السّمع والطّاعة / فذهب [201/أ] معه إلى مكان الزّاوية الآن فقال له : تبني لي هاهنا زاوية ، وحدّد الشّيخ طولها وعرضها وحرمها من المكان الذي وقفت فيه الفرس ، فأجابه لما طلبه ، فاشترى الأماكن التي أخذها الحدّ ، فكانت إحدى عشرة دارًا ، فَجُعِلَتْ زاوية.

ولمّا خرج القائد سعيد بن صندل قائد أعراب محلّة الجريد (وخلصت مجابي الجريد)[706] طلب من كبير عساكر الترك أن يأخذ معلومه من المجابي ، فأبى عليه كبير العسكر ، فتشاجر إلى أن اغتاظ كبير العسكر ، فاستلّ سيفه وضرب رأس القائد سعيد فقطع قطعة من رأسه لم تنفصل ، فصاح القائد : يا رجال الله ، فتقدّم إليه رجل ومسك القطعة وَرَدَّها إلى موضعها فصارت كما كانت ، فقال : يا سيدي بالله عليك إلّا ما عرّفتني من أنت؟ فسأله بالله ورسوله والكعبة المشرّفة وطلب له من الله حسن الختام ، فبكى وقال : سألتني بالله الذي لا يغيب عن قلبي ، وبرسول الله وهو لا يغيب عن بصري ، وبالكعبة وأنا لا أصلّي إلّا بها ، ودعوت لي بحسن الختام وهو الموقف الصعب الهائل فلذا أبكاني وقد خاف منه فُحُولَ العلم والعمل ، فأنا علي الوحيشي بالقيروان[707] ، فلمّا رجع دخل القيروان ، وسأل عن[708] الشّيخ ، فلمّا رآه عرفه فَحَبَّسَ على الزاوية حَمَّامًا وهنشيرًا وغير ذلك من الرِّباع سنة إحدى وستّين وألف[709].

ثمّ إن الشّيخ كثرت كراماته ، وشاعت بركاته ، فقصد النّاس الشّيخ بالزّيارة واحتاجت الزّاوية للسِّماط ، فقام بذلك أخوال الشّيخ من ذرّيّة الشيخ عطاء الله ، فقاموا [201/ب] بذلك حقّ القيام ، فتولّوا قبض مدخولها وبسط مخروجها ، ومشى حال الزّاوية ، فلمّا سمع بذلك عمّه الحاج منصور قدم إليه بولده سيدي سعيد فقام بالزّاوية عوضًا عن أخوال الشّيخ.

---

704) في ت : «الشاوش».

705) في ت : «أتى إلى الشيخ».

706) ما بين القوسين ساقط من بقية الأصول.

707) في ت : «بمدينة القيروان».

708) في ط وب : «على».

709) 1651 م.

ثمّ إن الحاج منصور أعجلته منيّته وبقي ولده قائمًا بالزّاوية على غاية ما ينبغي ، وكان رجلاً صالحًا فسار بسيرة الصّالحين من العفّة والورع وحسن السّمت والقيام على حقوق الشّريعة المطهّرة كما ينبغي ، فقبلته القلوب ومال[710] إليه الخلق وطاعته الملوك ، فما توجّه لمطلب إلّا قُبِلَ ونال ما سأل ، ثمّ لحظه الشّيخ سيدي علي وجذبه بهمّته ، وأمره بامتثال أمر رجل عَيَّنَهُ له ، فقبل الحملة.

وسار سيدي علي – رحمه الله تعالى – إلى عفو الله يوم السّبت ثامن عشر محرّم فاتح سنة ستّ وسبعين وألف[711] ، وَدُفِنَ بزاويته.

ترجمة الولي سعيد بن منصور الوحيشي :

وصار سيدي سعيد إذا أخذه الحال لا يقدر أحد أن يقابله إلّا ذلك الرّجل الذي عيّنه له الشّيخ ، ثمّ إنّه أمره بالتّزوّج فامتثل ، فأخذ له بِنْت محمّد خوجة من الأتراك ، وكان ساكنًا بالقيروان قرب المسجد الأعظم ، فولدت له سيدي أحمد ، وسيدي علي نزيل صفاقس ، وصار ذلك الرّجل إذا أخذ سيدي سعيدَ الحال يقوم بشؤونه ويدخله الحمّام ويغسله كما تغسل الوالدة ولدها ، وقد يشتدّ الحال بالشّيخ سيدي سعيد فيضرب النّاس بالعذرة ، فمن اعتقد وجد ريحها طيّبًا حتّى أنّ المرحوم مراد بن حمّودة باشا ضربه مرّة فأصاب ثيابه فحلف / لا يزيلها من ثيابه ، وأمر بإدخالها في صندوقه بما فيها ، فصار [202/أ] إذا فتح وجد لها طيبًا لم يجد مثله.

ومن كراماته أنّه أتاه رجل من أولاد الهاني بامرأة في هودج طالبًا للذّرّية ، فتلقّاه الشّيخ خارج البلد ، وأنزل المرأة فوقع عليها ، وصار يدعكها بيديه ورجليه ، فلمّا رأى زوجها ذلك أخذ ثوبًا وألقاه عليهما ، فاجتمع النّاس وصار من لا يعتقد يضحك ويقول لزوجها : رضيت به يفعل بزوجك ويضحكون منه استهزاءً به ، فلمّا قام الشّيخ كشف لهم عورته فإذا به لا ذكر فيه بل على صورة المرأة ، والتفت لزوجها وقال له : سترتنا سترك الله في الدّنيا والآخرة ، فارجع بأهلك ولا تدخل القيروان ، فرجع وولدت له سبعة ذكور ، وما زالت أعقابه إلى الآن مستورين.

---

710) في الأصول : «ومالت».

711) 31 جويلية 1665 م.

ووقع مرّة بسوق القيروان على حِمَارة ، وظهر لمن لا يعتقد أنّه يعالج الجماع ، وأهل الإعتقاد علموا أنّه لأَمْرٍ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِهِ مِنْهُمْ ، فقيّدوا ذلك الوقت فإذا بابن صابر السّوسي قادمًا من الحجار بهدايا وتحف وبيارق وقال : كنا في البحر فانخرقت المركب وأشرفنا على الهلاك ، فاستغثنا الله بسيدي سعيد الوحيشي فإذا به واقف على جانب المركب واضعًا فرجه على محلّ الخرق منها فانسدّ الخرق ، ونَجَّانا الله تعالى ببركته ، فحسب ما مضى من ذلك الوقت إلى زمن الإخبار فإذا به وقت وقوعه على الحِمَارة.

[202/ب] ولمّا دخل / المرحومان محمّد باي وأخوه علي باي ولدا مراد باي قال سيدي سعيد لعلي باي : ائتني بولدك مراد ، وكان في قُمَاطِهِ ، فأحضروه فمسكه بيده وجعل يخاطبه ويقول له : يا مراد يكون خلاء القيروان على يديك ، يكون قتل العواني الشريف على يديك ، أبعد عن زاويتي ، يا مراد تفسد في الأرض ، وتقتل الناس ظلمًا وبغيًا ، وجعل يذكر شنائعه التي صدرت منه بعد في حال كبره(712) ، فلمّا سمع أبوه بذلك ، قال : لو نعلم يقع(713) هذا منه لقطعت عنقه ، فقال له : أتردّ أمرًا كان في الكتاب مسطورًا؟ فلمّا كبر وقع جميع ما ذكر من شنائع أفعاله.

وروي عن الشيخ الخطيب أبي فارس عبد العزيز الفراتي – رحمه الله تعالى – أنّه كان مجتازًا ببعض طرقات القيروان فوجد دُكَّانًا عليه خلق كثير وسيدي سعيد الوحيشي في حال انجذابه ، وهو يقرأ آيات من القرآن على غير وجهها ، قال : فقلت هذا المجنون هكذا يكسّر كلام الله ، فإذا به قد خرج من الحانوت وهو ينادي بأرفع صوته : يرفع كما أنزل يرفع كما أنزل على رغم أنف عبد العزيز الفراتي ، قال : فتبت إلى الله ممّا وقع منّي من القول.

وكانت وفاته – رحمه الله تعالى – بمدينة القيروان ليلة الخميس لعشر بقت من شوّال سنة إحدى ومائة وألف(714).

ومات ولده سيدي أحمد بالقيروان ودفن مع أبيه.

---

712) هو الظّلوم السّفّاك مراد أبو بالة آخر أمراء المراديين.

713) في الأصول : «يوقع».

714) 27 جويلية 1690 م راجع تكميل الصّلحاء والأعيان...

ترجمة الشّيخ علي بن سعيد بن منصور الوحيشي :

وأمّا سيدي علي الوحيشي إبن سيدي سعيد الوحيشي فإنه أقام بالقيروان ما شاء الله ، وتروّج بها ، وكان يكثر التّردّد على صفاقس ، وكان / منجمعًا عن[715] النّاس لا [203/أ] يحبّ ملاقاة الأمراء بل محبًّا للخلوة ودرس[716] العلم وسماع القرآن ، وإذا سمع بالسّلطان أتى للقيروان يخرج كلّ يوم لظاهر البلد صبحًا ولا يرجع إلّا ليلاً . ولمّا وقعت فتنة[717] الباشا وسيدي حسين – رحمه الله – وعمل أهل القيروان على غلق الأبواب خرج شيخنا سيدي عبد الله السّوسي لتونس ، وخرج سيدي علي الوحيشي لصفاقس ، فكان ملازمًا لدروس سيدي أحمد النوري من فقه وحديث وتفسير وصلاة جماعة ووعظ جمعة وغير ذلك ، وكان محبّبًا للخلق ، فاتّفق أن اجتمع بعض الطّلبة يومًا وقالوا : سيدي علي الوحيشي ما رأينا عليه شيئًا من أمور الولاية ، فلقي بعضهم من غير علم بما وقع بينهم ، فقال : تسأل عن علي الوحيشي وهو من أهل الجنّة ، فقال : ومن أعلمك بذلك؟ قال : لأنّ الخلق كلّهم يثنون علي بخير ، وقال رسول الله ﷺ : «من أثنيتم عليه خيرًا فقد وجبت ، يعني الجنّة»[718].

وركب يومًا على حمارته وسار معه خديمه ، رجل يقال له : الرّخيص[719] فقال : تَحَرَّكَتْ جوف الشّيخ وخرج منه ريح[720] ، فقال : يا رخيص[719] ما بقيت تسمع خيرًا من فوق ولا من تحت ، قال : فما مضت إلّا مدّة قليلة واشتدّت الفتنة وكثرت فيها[721] الأقوال المرعبة فما تسمع إلّا الهتك والفتك والهرج والمرج .

وحضرته الوفاة بصفاقس سنة نيف وخمسين ومائة وألف[722] ، واختلف النّاس في موضع دفنه ، فبعضهم يقول : نحمله للقيروان فيدفن مع آبائه ، وبعضهم يقول : ندفنه / [203/ب]

---

715) في بقية الأصول : «مجتمعًا على».

716) في ط وت : «دروس».

717) علي باشا مع عمه حسين بن علي رئيس الدولة

718) نصّ الحديث : «من أثنيتم عليه خيرًا وجبت له الجنّة ومن أثنيتم عليه شرًّا وجبت له النّار ، أنتم شهداء الله في الأرض». رواه الإمام أحمد في المسند ، والبخاري ومسلم والنسائي عن أنس بن مالك – رضي الله عنهم – وهو حديث صحيح ، أنظر فيض القدير 28/5.

719) في الأصول : «الرخيس»

720) ساقطة من ط

721) في ش : «كثر فيه»

722) بعد 1737 – 1738 م.

بالجهة الغربية من المقبرة ، وبعضهم يقول : بالجهة الشرقية ، فجاء الرخيص[719] خديمه وقال : كنت يومًا مع الشّيخ بسانيته التي أحدثها قرب سور البلد وقال : ههنا إن شاء الله[723] التّربة ، فأراهم المكان الذي عيّنه له الشّيخ فدفنوه به ، ثمّ جمع أهل الفضل ما تيسّر من الدّراهم وبنوا عليه قبّة ، فالنّاس يتبرّكون به.

وكان شيخًا نقيّ الثّياب ، حسن الهيئة ، جميل الذات ، حسن الخلق ، من رآه أحبّه ، لا يفتر عن ذكر الله – رحمه الله تعالى –.

ومن أعجب ما رأيت من بركاته فكمل فيه اعتقادي ، أنّي كنت زمن المصيف بالحريم في البساتين[724] على عادة أهل البلد ، فلمّا فرغ المصيف عملنا على الرّجوع إلى المدينة فقلنا : ننزل ليلاً نبيت عند الشّيخ الوحيشي وندخل صبحًا محافظة على ستر الحريم ، فأخذنا مفتاح الرّوضة من حفيظها ونزلنا بالحريم ليلاً ، فلمّا وصلنا للرّوضة فتحنا الباب الأوّل وأدخلنا المفتاح في الباب الثّاني وحاولنا انفتاحه فلم ينفتح ، وعالجناه نحو ساعة ، فلمّا لم يتيسّر فتحه تركنا[725] المفتاح في الباب ، وقلنا : لعلّ الشّيخ لم يرد دخولنا ، وانكسرت قلوبنا ، وحصل لنا حزن ، فبينما نحن كذلك وإذا بطائر لطيف دار على المفتاح مرّتين أو ثلاث ، فلمّا رأينا ذلك استبشرنا وقلنا : قد حصل الإذن من الشّيخ بالدّخول ، فتقدّمت[726] للمفتاح فأدرناه مرّة واحدة فانفتح الباب ، فعلمنا أنّ العسر مقرون باليسر كما قال جلّ ثناؤه ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[727] الآية ، فدخلنا وحصل لنا بذلك غاية / السّرور والفرح لحصول العناية من الشّيخ. [20/أ]

ولمّا كان ثامن عشر ربيع الثاني بعد صلاة الجمعة من سنة ثمان وألف ومائتين[728] إجتمعت بالشّيخ أبي العبّاس أحمد بن أبي إسحاق إبراهيم بن أبي العباس أحمد بن سيدي سعيد الوحيشي وبيده كَمْ[729] من[730] ظهير من سلاطين تونس من العساكر

---

723) ساقطة من ط و ش.

724) ما يعرف بين أهل صفاقس بالجنان ، وبه المسكن الصّيفي الذي يسمّى البرج ، والجنان يتكوّن من شتّى أنواع الأشجار المثمرة ، وقد تطوّر البرج خلال القرن التّاسع عشر ، فأصبح مسكنًا لطبلة السّنة وأخذت الأجنّة والأبراج تضمحلّ في الوقت الحاضر نتيجة التضخّم العمراني وايثار الناس السكنى في مساكن من نوع الفيلا.

725) في بقية الأصول : «فلم يتيسر لنا فتحه فتركنا».

726) في بقية الأصول : «فتقدمنا».

727) سورة الشرح : 6.

728) 23 نوفمبر 1793 م.

729) ساقطة من ب.

730) ساقطة من ط.

العثمانية – رحم الله أسلافهم ونصر أخلافهم – وبيده أيضًا عدة عقود أحباس من الباشوات وغيرهم مشتمل كلّها على تعظيم الشّيخ سيدي علي الوحيشي الأكبر، وعلى وصفه بالولاية والصّلاح والقطبية وغير ذلك، وكان ذلك كالمتواتر بين عدول وقته وسلاطين زمانه، ثمّ سافر من عندنا، ثمّ وقع بالقيروان فبلغنا أنّه – رحمه الله تعالى – توفّاه الله شهيدًا بالطاعون بشهر شوّال من السّنة المذكورة[731] – رحمه الله – وكان رجلاً فاضلاً لطيفًا – رحمه الله –.

ترجمة الشّيخ أحمد الحَكْمُوني :

ومن أجلّ أعيان فقهاء صفاقس العالم العلاّمة الشّيخ المفتي سيدي أبو العباس أحمد (بن علي)[732] الحَكْمُوني، تفقّه بصفاقس على الشّيخ المفتي سيدي عبيد الأومي – المقدّم الذّكر – وعلى الشّيخ الإمام الخطيب أبي محمّد عبد السّلام الشّرفي، وعلى الشّيخ المفتي أبي القاسم الجنان السوسي، وارتحل سنة إثنتين وخمسين وألف[733] إلى تونس فتفقّه على الشّيخ العالم سيدي مبارك زرّوق الكافي وله منه إجازة، وكذا تفقّه على غيره من فقهاء تونس، وكانت وفاته – رحمه الله تعالى – بالقيروان ليلة الأحد الثامنة والعشرين / من حجّة الحرام سنة ثلاث وثمانين وألف[734]، ودُفِنَ من الغد تحت روضة [204/ب] أبي زمعة البلوي صاحب رسول الله ﷺ من الجهة الغربية.

ولمّا توفّي – رحمه الله تعالى – تولّى عوضًا عنه منصب الفتوى نجله الأسعد الحاج الأبر أبو عبد الله سيدي محمد، فقام مفتيًا إلى أن وقعت فتنة إبن الإنكشاري ففرّ بدينه إلى مصر، فأقام هناك قاضيًا بالمنصورة وما حواليها حتّى قطع الله فتنة إبن الإنكشاري فاسترجعه محمّد باي إبن مراد – رحمه الله – فرجع إلى صفاقس فأقام بها مفتيًا إلى وفاته.

وكان تفقّه على الشّيخ سيدي أبي الحسن الكراي، وعلى الشّيخ الخطيب سيدي حسن الشّرفي، وعلى الشّيخ المفتي أبي العباس أحمد السّماوي، وعلى والده المذكور.

وكانت وفاته بصفاقس يوم الأربعاء وقت الزّوال الخامس عشر خلت من شهر صفر سنة أربع عشرة ومائة وألف[735].

---

731) أنظر تكميل الصّلحاء والأعيان.

732) ساقطة من ط.

733) 1642 – 1643م.

734) 1672 – 1673م.

735) 11 جويلية 1702م.

ترجمة الشّيخ أبي عبد الله محمّد الحَكْمُوني :

ثم تولّى بعده منصب الفتوى بعد القضاء نجله الأسعد أبو عبد الله محمد ، تفقّه على الشّيخ النّوري ، والشّيخ الخطيب أبي عبد الله محمد الشَّرْفِي ، والشّيخ الفراتي[736] الأكبر ، وعلى الشّيخ سيدي محمّد الشّرفي إبن المؤدب.

وكانت وفاته – رحمه الله تعالى – يوم الثلاثاء قبل طلوع الشمس ، أوّل يوم من شهر محرّم فاتح شهور سنة خمس وأربعين ومائة وألف[737].

ترجمة الشّيخ أبي الحسن علي النُّوري :

ومن أجلّ أعيان فضلاء متأخّري[738] صفاقس شيخ شيوخنا الشّيخ أبو الحسن سيدي علي النُّوري[739].

[205/أ] كان – رحمه الله تعالى – ثقة عمدة في علوم الدّين من حديث وتفسير وفقه / وقراءة وعربية وأصول الدّين وأصول الفقه ومغاز وسير وميقات وتصَوُّفٍ وما يتبع ذلك ، وما يتوقّف عليه.

أَلَّف في اختلاف القرّاء كتابًا حافلاً سَمَّاه غيث النفع ، وكتابًا في علوم التّجويد سمّاه تنبيه الغافلين حاذى به إبن المفضل[740] ، وألّف عقيدة في التّوحيد إعتنى النّاس

---

736) يقصد به عبد العزيز الفراتي.

737) 24 جوان 1732 م.

738) ساقطة من بقية الأصول.

739) ممّا يجب التّنبّه إليه تصحيح إسم والده وسلسلة آبائه لأنّه وقع في مصادر ترجمته ومراجعها حتّى المتأخرة أنّه علي بن محمد بن سالم أو سليم ، والذي وقفنا عليه بخط يده أنّه علي بن سالم بن محمد بن سالم بن أحمد بن سعيد ، فهذا المعتمد وما سواه خطأ.

740) علي بن المفضل بن علي اللخمي المقدسي ثم الإسكندراني المالكي ، محدث فقيه (ت. بالقاهرة في مستهل شعبان سنة 611 / 1214) ، سمع من الحافظ السلفي ، وعنه أخذ عثمان بن سفيان التميمي التونسي عرف بابن شقر ، له مؤلفات في الفقه والحديث ، ولم يذكر له مترجموه اشتغال بالقراءات والتجويد ، والمؤلف سامحه الله شح بالبيان ، وغاية ما وجدنا في غاية النهاية 385/2 أنه سمع من المقرئ السبع بن عيسى بن حزم الغافقي الجياني الأندلسي نزيل مصر والمتوفي بها سنة 1179/575 أنظر : معجم المؤلفين 244/7 ، المستدرك على معجم المؤلفين ص 514 ، شجرة النور 165 ، العبر للذهبي 38/5 – 39.

بشرحها كالشّيخ أحمد الغرقاوي[741] المصري ، والشّيخ أبي الحسن علي المؤخّر[742] تلميذه والشّيخ أحمد العصفوري[743] التّونسي ، وبعض فضلاء الفاسيين[744] ، وله رسالة مشتملة على قواعد الإسلام وأحكام الطّهارة والصّلاة شرحها الشّيخ النفراوي[745] المصري ، وشرحها هو بشرح ولم يستكمله[746] ، وله رسالة في الميقات سَمَّاها إنقاذ الوحلة في معرفة الأوقات والقبلة[747].

وكان إبتداء أمره يتعلّم على الشّيخ أبي الحسن الكَرَّاي وفقهاء بلده ، فلمّا اشتدّ عمل على الذّهاب لتونس لتوفّر فقهائها فمنعه والده خوفًا عليه فأبى إلّا الذّهاب ، فسافر إليها واشتغل بالعلم ، ولم يكن بيده قوّة مال ، فلمّا نفذ ما بيده اشتدّ به الحال حتى صار يشتري شيئًا يسيرًا من التَّمْرِ يغليه على بقيّة نار الطّلبة ويشرب ماؤه ليمسك به رمقه ، ويفعل به ذلك مرّات ، فإذا انقطعت[748] حلاوته إشترى شيئًا يسيرًا غَيْره والطّلبة يظنون أنّ له[749] طعام مثلهم ، وذلك حرصًا على العلم وتعفّفًا كما قال تعالى : ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾[750] وكان عليه سيماء الصَّالِحين فاطّلع عليه بعض أهل الخير ، فعيّن له كلّ ليلة نصيبًا من الطّعام يبعث له به يقتاته على جاري عادة أهل / [205/ب] الفضل من تونس المحمودة قلّ من يشاركهم فيها إلّا من تَشَبَّهَ بهم.

741) أحمد بن أحمد بن عبد الرحمان الفيومي الغرقاوي المالكي (ت. 1101/1689 – 1690) وسمي شرحه : «الخلع البهية على العقيدة النورية» ، ومنه قطعة في المكتبة الوطنية بتونس وكان الشرح في حياة المؤلف.

742) بشرح سماه : «مبلغ الطالب إلى علم المطالب» ، كتبه في حياة شيخه المؤلف ، يوجد في المكتبة الوطنية بتونس.

743) وسماه : «الفوائد العصفورية على العقائد النورية».

744) هو علي بن أحمد الحُرَيْشي (بالتصغير) نزيل المدينة المنورة (ت. 1143 / 1730) وشرحه يسمّى : «المواهب الربانية على العقيدة النورية» ، منه نسخة في المكتبة الوطنية بتونس ونسخة بالخزانة العامة بالرباط ضمن مجموع.

745) أحمد بن غنيم بن سالم النفراوى بالراء المهملة (ت. 1225 / 1810) ويوجد شرحه بالمكتبة الأزهرية.

746) وهذا الشرح يسمى : «الهدى والتبيين فيما فعله فرض عين على المكلفين» منه قطعة كبيرة غير متتابعة الأوراق وهي بحالة غير جيدة. بالمكتبة الوطنية بتونس.

747) بهذا الإسم طبعه الشيخ الحاج صالح العسلي بتونس سنة 1331 هـ ، لكن بتصفح الأوراق الأولى منه نجد أن المؤلف سماه : «المنقذ من الوحلة في معرفة السنين وما فيها من الأوقات والقبلة» ، في 78 ص من القطع الصغير.

748) في ش : «انقطع».

749) في ش : «انه له طعام» ، وفي بقية الأصول : «أنه طعام».

750) سورة البقرة : 273.

ثمّ أرشده[751] بعض أهل الخير والصّلاح للذّهاب إلى مصر لينال من بركة البقعة المباركة التي أُسِّسَت في ساعة سعد لهذه الأمّة ، وهو الجامع الأنور الأزهر – جعله الله عامرًا بالعلم وأهله إلى آخر الدّهر – ، فذهب متوكّلاً على الله تعالى ففتح الله عليه ، ونال سعادة الدّنيا والآخرة ، فأخذ عن الشّيخ أبي عبد الله سيدي محمد الخرشي ، وعن الشهاب أبي العباس أحمد العجمي ، وعن الشّيخ سيدي إبراهيم الشبرخيتي ، والشّيخ أبي البركات سيدي يحيى الشّاوي الجزائري ، والشّيخ العناني ، والشّيخ الشيرامَلّسِي[752] ، والشّيخ البشبيشي[753] ومن في تلك الطبقة من فقهاء المذهب ، وأخذ القراءات[754] عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن محمد الأَفْراني المغربي السوسي نزيل مصر ، كما أخذ طريق القوم عن الشّيخ سيدي محمد بن ناصر [وقد رأيت مكتوبًا بخطّه ما نصّه : قال كاتبه لَطَفَ الله به : قرأت على شيخنا[755] الشّيخ شرف الدّين شيخ الإسلام الأنصاري من صحيح مسلم الخ ، وسمعت من شيخنا العجمي أوّل حديث من الشّمائل بقراءة صاحبها الشّيخ علي الفرغلي وأجازنا – حفظه الله – وقال أيضًا : إجتمعت بالشّيخ الصّالح سيدي علي[756] الشّنواني بعد زيارة سيدي أحمد البدوي وأخذت عليه الطّريقة الأحمدية وتلقّنت منه الذّكر ، (ثمّ ارتحلت إلى المنصورة واجتمعت فيها بالشّيخ الصّالح المسنّ الشّيخ سالم البحري وتلقّنت منه الذّكر)[757] وأخذت عليه الورد وهو أخذ عن قطب الزّمان سيدي أحمد الخامي اهـ كلامه – رحمه الله – ، وهذا بعد ما كان ينكر عن أهل الحال (فصار منهم وأخذ طريقتهم نفعنا الله به آمين)[758]][759].

قيل لمّا فتح الله عليه بما قسم الله له من العلم عرض عليه بعض أغنياء التّجّار التّزويج ببعض بناته ، فاستشار الشّيخ سيدي يحيى الشّاوي – رحمه الله – في ذلك ،

751) في ط : «أرسله».

752) في ش : «الشبراصلي» ، وفي ب : «الشيرملسي».

753) في ط وب : «الشبيي».

754) في ش : «القراءة».

755) في ت : «شيخنا الشريف».

756) في مكانها بياض في ط وب.

757) ما بين القوسين ساقط من ط.

758) ما بين القوسين ساقط من ط.

759) ما بين حاصرتين زيادة من بقية الأصول.

فأمره بالذهاب إلى ميضاة(760) الجامع الأزهر وقال له : أمكث بها ليلاً وارتقب ساعة انقطاع النّاس فإذا لم تجد إلّا رجلاً واحدًا فهو صاحب الوقت فاستشره وافعل ما يأمرك به ، ففعل ، فلمّا رأى صاحب الوقت إستشاره ، فقال له : يا علي يا نوري(761) : إذهب نَوِّر المغرب فمن ذلك الوقت / إشتهر لقبه بالنّوري ، فامتثل ما أمره به ورجع إلى [206/أ] المغرب بعدما أخذ إجازات المشايخ المتقدّمين ، وانتظم في سلكهم فقدم على صفاقس بما معه من علوم الدّين ، فعلّم المسلمين بنصح ، وبذل جهده ومهجته(762).

ولمّا قدم وجد النّاس يشكون جور أهل مالطة – دَمَّرَها الله وأخلى منهم الأرض – فتشاور مع أهل الفضل في إنشاء سفن للجهاد ، فوافقه أكثر النّاس على ذلك فأنشؤوا سفنًا جعل الله فيها بركة وانقطع بها جور الكفرة ، وغنم المسلمون منهم خيرًا كثيرًا ، وجعل مقدّمًا على السفن يأتمرون بأمره ، ويصلّي بهم إمامًا الشّيخ الصّالح إبن أخته الحاج الأبر أبا عبد الله محمد قوبعة معلّم أطفال المسلمين ، وكان مقدّمًا على ضريح الشّيخ سيدي منصور الغلام – نفعنا الله به –.

ولمّا كان كلّ ذي نعمة محسودًا حسد أهل الشّرّ الشّيخ النّوري وسعوا به إلى سلطان الوقت بتونس وخَوَّفوه أن يكون سببًا في تغيير الدُّوَل لما رأى من إقبال الخلق عليه وامتثالهم أمره كما وقع في أيّام ابن تومرت وأمثاله – حسبما مرّ مفصّلاً – فأرسل السُّلطان جماعة من رجاله لأخذ الشّيخ وأتباعه ونَهْبِ أموالهم ، فأرسل بعض أهل الفضل كتابًا للشّيخ يحذّره قبل وصول رجال السّلطان ، فلبس حرام إمرأة ونعلها وخرج [مع نسوان الشّيخ أبي عبد الله السيالة](763) مستخفيًا مهاجرًا بدينه ، وقال : (764) ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾(765) فذهب في خفاء [مع خديمه إبن الأكحل إلى أن وصل](766) لزاوية الشّيخ سيدي أبي حجبة(767) بين تونس وزغوان ، ولمّا دخل رجال

---

760) من العجب أن لا يرى صاحب الوقت إلّا في هذا المكان دون غيره من الأماكن النّظيفة ممّا يثير الشّكّ في صحّة الحكاية.

761) هذا ممّا يدلّ على أنّ لقبه النّوري قبل رؤيته لصاحب الوقت ، وأصله من أسرة شطورو ، ورأيت في بعض أوراقه أنّه عندما كان مجاورًا للأزهر يكتب لقبه الأصلي شطورو ويضيف إليه النوري. (محمّد محفوظ).

762) في بقية الأصول : «جهد ومهجة».

763) زيادة من بقية الأصول.

764) ساقطة من ط.

765) سورة الأحزاب : 21.

766) زيادة من بقية الأصول.

767) هو حسن أبو حجبة ، وهو الباني المؤسس للزاوية الكبرى قرب عين الصيقل شمالي طريق زغوان. أنظر الحقيقة التاريخية للتّصوّف الإسلامي ص 300.

[206/ب] السّلطان / نهبوا أتباعه وسجنوهم ، وسلّم الله الشّيخ فأقام زمنًا مشتغلاً بالعلم ، فلمّا ظهر خبره[768] إعتقده أهل الخير وَعرَّفوا السّلطان أنّه من الصّالحين ، ولم يكن قصده في بلده إلّا الذّبُّ عن المسلمين بالعلم والجهاد على سنّة المصطفى ﷺ فلمّا تحقّق السّلطان الأمر علم أنّ السّاعي كان حاسدًا وعفا عن الشّيخ وأمره بالرّجوع لوطنه ، وإظهار السّنّة وقمع البدعة ، وإن عارضه معارض كاتب السّلطان بذلك ، فرجع لوطنه محبورًا مسرورًا ، فبذل جهده في نفع الخلق بقدر الإستطاعة ، فكَثُرت أتباعه وشاع وانتشر فضله ، فنصر الدّين ونصره الله وثبت قدمه وجاهد في الله حقّ جهاده فهداه الله لسبل الخيرات ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ (وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)﴾[769] ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[770].

وكان – رحمه الله – زاهدًا في جميع المناصب لقول القطب الشيرازي[771]: «المناصب مصائب والولايات بليّات».

وهو – رحمه الله تعالى – صاحب وقت القرن الثاني عشر بوطن صفاقس ، فأحيى الله به رسوم العلم بهذا الوطن بعد اندراسها ، وأظهر على يديه التّعاليم بعد انطماسها ، فتفقّه به جملة خلائق من جميع الأوطان[772] كالشّيخ سيدي محمد إبن المؤدّب الشّرفي ، والشّيخ أبي الحسن علي التميمي شهر المؤخّر[773] ، والشّيخ أبي عبد الله محمد المكّي ، والشّيخ أبي الحسن سيدي علي بن خُلَيْفة[724] المساكني (والشّيخ أبي عبد الله محمّد الغراب والشّيخ أبي علي / حسين الشرفي)[775] ، والشّيخ أبي عبد الله السيالة[776] ، [207/أ]

768) في بقية الأصول : «خيره».

769) سورة محمّد : 7 ، وما بين القوسين ساقط من بقية الأصول.

770) سورة العنكبوت : 69.

771) محمود بن مسعود بن مصلح الفارسي ، قطب الدين الشيرازي ، من بحور العلم ، مفسّر عالم بالعقليات ، صاحب تآليف كثيرة في التفسير ، والطّبّ ، والتّصوّف ، والبلاغة ، والفلسفة ، والهيئة ، وأصول الفقه ، توفي سنة 1311/710. أنظر الإعلام 7/187 – 188.

772) يقصد من البلدان وكلمة وطن غير مستعملة في معناها المعروف الآن وإنما هي مستعملة في معنى مسقط الرأس وبلدة الميلاد.

773) ولقبه الأصلي : «المقدم»، وشهر بالمؤخر.

774) بصفة التّصغير.

775) ما بين القوسين ساقط من ط.

776) في ش : «السيالا» والمعروف في رسمها : «السيالة» ، بالهاء بعد اللام.

والشيخ أبي إسحاق إبراهيم المزغنّي ، والشّيخ إبراهيم الجمل ، والشّيخ الحِرقَافِي[777] ، والشّيخ رمضان أبي عصيدة[778] ، ونجله أبي العبّاس سيدي أحمد النوري ، وهو القائم بالزّاوية بعده ، فهؤلاء مشاهير تلاميذه الذين تحمّلوا العلم عنه وعلّموه النّاس بعده ، وأمّا من سمع ولم يعلم فكثير لا يحصى ، والحاصل أنّه تنوّرت به البلاد ، وانتفع به العباد.

قال تلميذه الشّيخ الصّالح سيدي علي بن خُلَيْفَة – رحمه الله تعالى – : أوّل مشايخي الشّيخ الفاضل المربّي النّاصح الجامع بين الشّريعة والحقيقة سيدي علي النّوري الصّفاقسي ، اجتمعت به سنة خمس وتسعين وألف[779] ، وأقمت عنده خمس سنين ، وأخذت عنه جملة علوم في خلالها ، وأجازني ولم أر مثله ، له الإجازات الكثيرة والإطّلاعات الغزيرة ، إطّلع على كثير من فهرسات الأكابر الجامعة لأسانيد المشايخ القريبة والغريبة ، واجتمع بمشايخ الأسرار ، وأخذ عنهم ما لا يؤخذ إلّا من الأفواه[780] ، وبقي بعضها ، مخزونًا في سِرِّهِ[781] ، مات ولم يبح به ولا فاه ، وبعضها قال : أخذ عليّ العهد أن لا ألقنها حتّى يبوح لي سرّها وأنا إلى الآن لم أشم (لها رائحة)[782] كالأسماء الإدريسية والغوثية قال : وليس هذا[783] مقامنا ولا[784] نحن من أهله ، ولم نشرب من علله ولا من نهله.

والحاصل أنّ له اعتناء[785] بالأخذ من[786] المشايخ واتّصال السَّنَد وقربه لأنّ قرب / السَّنَد قربة إلى الله تعالى وإلى سيِّد المرسلين ، ومن ثمّ قال : عيني خامس عشرة [207/ب] عينًا رأت رسول الله ﷺ لأنّ الحافظ السّيوطي أخرج العشاريات[787] وبيني وبينه ثلاثة

777) بكسر الحاء المهملة وسكون الراء المهملة والقاف المعقدة كالجيم المصرية.
778) ومن تلامذته محمد الشّهِيد السوسي نسبا والصفاقسي إقامة وبلدًا.
779) 1684 م.
780) في ت وط : «ما لم يؤخذ من الأفواه» ، وفي ب : «ما لا يؤخذ من الأفواه».
781) في ط : «عنده».
782) في ط : «لم أشم رائحتها» ، في ت : «لم نشم لها ريحة».
783) في ط : «هو».
784) في ش : «ولم».
785) في ط وب : «الإعتناء».
786) في ط : «عن».
787) يبدو أن المؤلف نقل باختصار ما في فهرست الشيخ علي بن خُلَيْفَة المساكني ، وهي صغيرة في نحو سبع ورقات غالبها فيما قرأه على الشيخ علي النوري والكتب التي أجازه بها في علوم مختلفة.

وهو الرّابع ، وكذلك الحافظ إبن حجر أخرج العشاريات[787] وبيني وبينه ثلاثة[788].
وأخرج حديثًا منها إلى السّيُوطي مسندًا إلى أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ :
«طوبى لمن رآني ومن رأى من رآني ومن رأى من رأى من رآني»[789] اهـ.

ومن اعتنائه بأخذ طريق القوم أن تلقّى عن الإمام الجليل المربّي سيف السّنّة سيدي محمّد بن ناصر الدَّرْعي ورد الذّكر ، وهو أن تستغفر الله كلّ يوم مائة مرّة ، وتصلي على النّبي ﷺ مائة مرّة ، وتهلّل بأن تقول : لا إلاه إلّا الله ألف مرّة إن أمكن بعد صلاة الصّبح وهو الأولى وإلّا ففي بقيّة الدورة إلى الفجر ، وإن طلع فجر اليوم الثّاني فاقض بعده ولا تتركه اهـ.

قال : قلت وزاد شيخنا سيدي حسن اليوسي ، تلميذ سيدي محمّد بن ناصر الدّرعي ، وصاحب حاشية الكبرى[790] في الورد المذكور أن تقول : لا إلاه إلّا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير ، مائة مرّة قبل التّهليل المطلق ، سمعته منه حين التقيت[791] به في مصر سنة طلوعه للحجّ سنة إثنتين ومائة وألف ، وامتدح سيدي علي بن خُلَيْفَة المذكور شَيْخَه النّوري بقصيدة بليغة وكذا غيره من / تلاميذه ، ومن غرر ما مدح به قصيدة الشّيخ سيدي محمد إبن المؤدّب الشّرفي[792] – رحمه الله تعالى – وهي هذه : [208/أ]

[الطويل]

ألا قل لمن قد ضلّ عن طرق الهدى	وحاد عن النّهج القويم وَحَيَّدَا
وأصبح في تيه الجهالة هائمًا	يروح ويغدو مثل من راح واغتدى

---

788) في الأصول : «العشريات» ، واسمها النادريات من العشاريات وهي ثلاثة أحاديث خرجها من معجم الطبراني وقعت له عشاريات وهي رسالة في نحو ورقتين أثبتها بتمامها الشيخ أبو سالم العياشي «صاحب الرحلة» آخر ثبته «مسالك الهداية». أنظر الفهارس ، طبع بيروت ، 686/2 – 687.

789) نصّ حديث أنس : «طوبى لمن رآني وآمن بي مرّة ، وطوبى لمن لم يرني وآمن بي سبع مرّات ، أخرجه الإمام أحمد في المسند والبخاري في التّاريخ وابن حبّان في صحيحه والحاكم في المستدرك عن أبي أسامة الباهلي ، والإمام أحمد في المسند عن أنس وهو حديث صحيح (أنظر فيض القدير 279/4).

نصّ الحديث الذي ذكره المؤلف أخرجه عبد بن حميد في مسنده عن أبي سعيد الخذري وابن عساكر في تاريخه عن واثلة بن الأسقع وهو حديث حسن ، أنظر فيض القدير 280/4.

790) أي العقيدة الكبرى للسنوسي فالكبرى صفة حذف موصولها.

791) الضّمير يعود إلى الشّيخ علي بن خُلَيْفَة لا إلى شيخه النّوري.

792) أنظر ديوانه تحقيق محمد محفوظ ص 41 – 42.

إذا شئت أن تقفو إلى الحق[793] منهجا ... قويمًا فلا تصحب سوى العلم مرشدا
وشُدَّ نطاق الحزم وارحل لأهله ... فإنّ لهم سُبُلاً تقيك من الرّدى
وممّن له في ذاك حظّ موفّر ... وأضحى سناه في الدّجى متوقّدا
إمام فريد عالم متورّع ... زكيّ سريّ طاب فرعًا ومحتدا
حوى من خلال الخير كلّ فضيلة ... ونال علا من كلّ مجد وسؤددا
أبو الحسن النوريّ لا زال قدوة ... وتاجًا على هام الزّمان منضّدا
إمام لقد أضحت به النّاس تقتدي ... وتقبس من أنواره كلّما بدا
فلا زال[794] عصر هو فيه إمامه ... ولا زال[795] فيه ما يعيش مؤيّدا
أضا فاستضاءوا من سنا برق هديه[796] ... وكانوا بليل حالك اللّون أسودا[797]
لقد راض ذا جهل بحسن سياسة[798] ... وقاد إلى التّوفيق قلبًا تشرّدا
وأسدى[799] إلينا من مواهب علمه ... أياديَ لا تحصى ، فأعظم بها يدا
وناهيك ما أسداه من نشر[800] كتبه ... وأودعه فيها من الرّشد والهدى
فكم من علوم قد حوتها وحكمة ... وسرّ بديع فاق درًّا وعَسْجَدَا
جزاه إلاه العرش عنّا بفضله ... جزاءً جميلاً دائم الذّكر سرمدا
وأسكنه في جنّة الخلد مسكنا[801] ... وبوّأه منها مَحَلاًّ ومقعدا

وللشّيْخ النوّري كرامات كثيرة ، منها ما أخبرني به الشّيْخ المسنّ الصّالح الثّقة العمدة ذو الصّدقات والخيرات[802] والإحسان لفقراء / المسلمين أبو الفوز سيدي الحاج [208/ب] الأبر سعيد ذويب – أدام الله بقاءه في نعمة وعافية – انه سمع من شيخه الشّيْخ أبي عبد الله سيدي الحاج محمّد الغراب أحد تلاميذ الشّيْخ حال قراءته عليه مقدّمة القطر[803]

793) في ط وب : «للحقّ».
794) في الديوان : «فللّه عصر».
795) في الدّيوان : «وما» ، وهذا البيت في الدّيوان بعد البيت الموالي.
796) في ب : «سياسة».
797) العجز ساقط من ب.
798) صدر البيت ساقط من ب.
799) في ش : «وأسرى».
800) في ط : «شرح».
801) في الديوان : «منزلاً».
802) في بقية الأصول : «الخير».
803) كتاب لابن هشام في النحو.

أنّه قال له : لمّا عزمت على السّفر إلى الحجّ ودّعت الشّيخ فناولني كتابًا وقال : أحمله معك إلى مدينة رسول الله ﷺ فلمّا خرجت من عنده نظرت في الكتاب فإذا هو مختوم ولا عنوان عليه ، فقلت : لعلّه نسي فعرّفته ، فقال : إنّ صاحبه يأتيك طالبه منك ، قال : فلمّا وصلنا لمدينة الرّسول ﷺ فإذا برجل يسلّم عليّ ويقول : كيف حال الشّيخ علي؟ وسألني عن الشّيخ ، فأخبرته بأنّه على أحسن الأحوال ، فطلب منّي المكتوب فأعطيته إيّاه ، ثمّ سألته : بالله من أين عرفته ، أمن الحجّ أو من الجامع الأزهر حين كان يقرأ به؟ فقال: لا والله لا[804] كان ذا ولا ذاك ، إنما أرواحنا تجتمع.

وأخبرني أيضًا والشّيخ العدل العابد ملازم الصّوم والذّكر والتّلاوة ودروس[805] العلم النّافع الحاج الأبر سيدي الحاج عبد السّلام الغراب أنّهما قالا : لمّا كان الشّيخ النّوري يفتي بتحريم الدّخان مَشْيًا على قول الشّيخ اللقاني[806] وغيره بذلك وحَكَمَ السّلطان محمّد العثماني – رحمه الله بذلك – وكان جميع أتباعه على رأيه حتى صار عنده كالمتحقّق[807] على تحريمه وَمَنَعَ من إظهار شربه ، وكلّ من ظهر عليه وبّخه على فعله وأغلظ عليه ، فاتّفق أن قدم السّلطان رمضان باي حاكم تونس في التّاريخ / [209/أ] ونزل بدار القفّال في رأس[808] زقاق الذهب[809] ممّا يلي سور البلد ، وعرضت للشّيخ حاجة فوجّه في قضائها بعض تلاميذه فلمّا وصل الدّار وجد الحاجب واقفًا بالباب وهو يشرب الدّخان ، فوقف التّلميذ ساكتًا ، فلمّا فرغ من شرب الدّخان قال التّلميذ : السّلام عليكم الآن ، فقال له الحاجب : ما هذا؟ قال : إنّ السّلام لا يجوز عليك إلّا الآن لتلبّسك أوّلاً بالمعصية ، فعرّف الحاجب السّلطان بما وقع ، فأدخل التّلميذ وقضيت حاجته ، وسأله عمّا قاله للحاجب ، فعرّفه بذلك وأنّ الدّخان حرام لأنّ الشّيخ متمسّك بتحريمه ، فلمّا

---

804) ساقطة من ب وش.

805) في ط وت : «درس».

806) هناك إبراهيم بن محمّد اللقاني الفقيه المحدّث (ت. سنة 889 / 1484 ، وليس له مؤلّفات أنظر شجرة النّور 258) وهناك إبراهيم بن إبراهيم بن حسن اللقاني (ت. سنة 1041 / 1631 – 1632) له مؤلّفات من أشهرها : «جوهرة التّوحيد» ، وهي منظومة في العقائد ، واللقاني نسبة إلى لقانة من البحيرة بمصر ، ولعلّه المقصود لأنّ الدّخان ظهر في القرن العاشر (أنظر الإعلام 28/1) ولأنّ معاصره علي الأجهوري (ت. 1066 / 1655 – 1656) يقول بحليّة شرب الدّخان.

807) في بقية الأصول : «المتفق».

808) في ط وت : «برأس».

809) يعرف اليوم بنهج الشّيخ التّجاني.

دخل القائد عبد اللطيف الغراب سأله عن قول الشّيْخ في الدّخان ، فقال : هو يقول بالتّحريم ، قال : إذهب إليه واطلبه بالنّص ، فعرّف القائد الشّيْخ بذلك ، فقال له : لمّا نحرر أقوال المسألة ، فعرّف السّلطان ، فقال : أرجع إليه غدا وائتني بالنّصّ وإلاّ عاقبتك ، فلمّا رجع إلى الشّيْخ وعرّفه بما قاله صفع الباب بعنف وقال : إذهب فما بقيت تراه بعدها[810] أبدًا[811] ، فلمّا رجع من الغد إلى السّلطان وجده رحل ، فما وصل الجريد إلاّ وقد جاءه خبر مراد إبن أخيه وأنّه خرج من سوسة – كما مرّ – فرجع لتونس على طريق غير صفاقس مسرعًا فقتله إبن أخيه ، ولم يجتمع به[812] القائد بعد.

ومع هذا كان[813] – رحمه الله تعالى – يفرّ من دعوى[814] الولاية ونسبتها له حتى جاءه رجل وقال : يا سيدي أصابتنا شدّة وهول في البحر ، فنذرنا الله إن سلّمنا الله[815] لنعطينّه كذا من / الدّراهم ، فرأيناك معنا في المركب ونجّانا الله تعالى من هول البحر [209/ب] بوجودك وحضورك معنا ، فخذ هذه الدَّراهِمَ التي جمعناها ، فقال : أنا نائم على فراشي وما غبت عن أهلي وإنّما نجّاكم الله ببركة اعتقادكم ، إذهب بدراهمكم وتصدّقوا بها على فقراء المسلمين ، فإني في غناء عنها.

ولمّا قدم إبراهيم الشّريف متوجّهًا لطرابلس – حسبما مرّ – زار الشّيْخ وقال له : لا بدّ أن تدخل هذه الدّور المجاورة في الزّاوية[816] لأنّها ضيّقة ، فقال له : هذا القدر فيه بركة[817] ، ولا نخرج النّاس من مساكنهم[818].

وكان يأكل من كسبه فيتّجر ويشتغل القماش[819] ويتمعّش من ذلك طلبًا للحلال وتوكّلاً على الله في ضمان رزق خَلقه ، ولا يأخذ عن تعليمه شيئًا طلبًا لمرضاة ربّه.

---

810) في ت : «بعد هذا اليوم».
811) ساقطة من بقية الأصول.
812) في الأصول : «عليه».
813) في الأصول : «فكان».
814) في ش وب وت : «دعوا».
815) ساقطة من ط.
816) في ط وب : «لا بد أن ندخل هذه الزاوية في الدار المجاورة».
817) في ط : «البركة».
818) في ط : «مساكنها».
819) يقصد نسج القماش.

وتوفّي – رحمه الله – بمرض الشّق سنة سابع عشرة ومائة وألف[820]، وقبره مشهور[821] مزار متبرّك به، وأكثر تلاميذه مدفون معه لتوصيته[822] بذلك.

ترجمة الشّيْخ أحمد النّوري:

فقام مقامه بالزّاوية ولده أبو العبّاس سيدي أحمد النوري، فكان – رحمه الله تعالى – قائمًا بما قام به والده، وكان فائزًا من العلوم الدّينية بالقدح المُعَلَّى عربية وفقها وأصولاً وحديثًا وتفسيرًا وقراءة وأدبًا. وكان فصيحًا، إذا أذّن حرّك القلوب الغافلة لحسن صوته وفصاحته.

وقد رحل إلى المغرب، فلقي الرّجال بتونس والجزائر وتلمسان وفاس، وأراد المجاوزة إلى السوس فمنعه بعض الصّالحين، وزار الشّيْخ أبا يعزى[823]، وممّا اشتهر أن من زار قبره ووضع شيئًا على تابوته وطلب شيئًا / من الدّنيا والآخرة أعطاه الله ما سأل، [210/أ] (فوضع الشّيْخ سيدي أحمد شيئًا بقصد العلم فأعطاه الله ما سأل)[824].

وارتحل إلى المشرق بقصد حجّ بيت الله الحرام، فسافر من صفاقس إلى مكّة المشرفة، ولقي الأشياخ وأخذ عنهم، وصحب من الكتب شيئًا كثيرًا، فأكمل خزانة أبيه[825] وأكثر من كتب[826] الأدب لأنّه كان مطمح نظره، وأخذ عنه مشايخ لا يحصون كثرة، فمنهم بصفاقس الشّيْخ أبو عبد الله محمّد كَمُّون، وشيخنا أبو عبد الله محمّد بن علي الفراتي، والشّيْخ أبو عبد الله محمّد الخميري، والشّيْخ أبو عبد الله محمّد البِجّار، والشّيْخ أبو عبد الله محمّد خروف في آخرين.

---

820) 1706 م، وهذا التاريخ منقوش على قبره خلافًا لما ذكره السراج وحسن خوجة من أنّه توفّي في سنة 1118 هـ.

821) هو على طريق العين يسارا على بعد 500 متر من سور المدينة شمالاً.

822) يملك متحف صفاقس للتقاليد الشعبيّة نسخة من هذه الوصيّة، وجدت ضمن وثائق آل النوري التي حوّلت إلى هذا المتحف.

823) في ب: «أبا يعري»، وفي ط: «أبا يغري».

824) ما بين القوسين ساقط من ط.

825) إنتقلت هذه المكتبة من أسرة النوري إلى متحف الفنون والتّقاليد الشّعبية ومنه إلى المكتبة الوطنيّة بتونس.

826) يمكن التمييز بين ما اشتراه الأب وابنه أحمد إذ أنّ الشيخ علي يكتب بخطّه في أوّل كتابه إسمه وما اشتمل عليه الكتاب من أجزاء. أمّا إبنه الشّيخ أحمد فلا يكتب شيئًا.

وسافر لتونس فأقام بها مدّة يقرئ بجامع الزّيتونة تفسير الكتاب العزيز فهرعت[827] إليه العامة والخاصة ، فَيَجْلِسُ القريب وَيقِفُ البعيد ، قال من شاهد مجلسه : رأيت القائم أكثر من القاعد لأنّه – رحمه الله تعالى – كان متمكّنا من علوم العربية والحديث والسِّيَر والأحكام الشرعيّة والعلوم الأدبية والتاريخ وأيّام النّاس ، فبقي كذلك إلى أن أدركته وفاته بتونس سنة نيف وخمسين ومائة وألف[828] ، فنقل ودفن بجانب والده.

ترجمة الشَّيْخ أبي الحسن علي المؤخّر :

ولنرجع إلى بيان حال من أخذ على سيدي علي غير ولده أحمد ، فأمّا الشَّيْخ أبو الحسن علي المؤخّر[829] التّميمي[830] فتولّى إمامة مقام الشَّيْخ سيدي أبي الحسن اللخمي فاشتغل فيه بالتّدريس والتّجويد وكان رجلاً محقّقًا ، من أكبر تلاميذ الشَّيْخ النّوري ، وأخذ أيضًا عن الشَّيْخ سيدي عبد العزيز الفراتي ، فشرح عقيدَة الشَّيْخ / [210/ب] النوري[831] بشرح لطيف مناسب للمبتدئين ، وشرح جوهرة التّوحيد[832] ، وشرح ألفية الجلال السيوطي[833] في النّحو.

وكان ملازمًا لمقام الشَّيْخ اللخمي ، قال شيخنا سيدي عبد الله السوسي – رحمه الله تعالى – قدمت من تونس لصفاقس عند توجهي لسيدي إبراهيم الجِمَّني بجربة فسألت عن الشَّيْخ النوري للزيارة ، فأُخْبِرْتُ بوفاته ، فسألت عن أكبر تلاميذه فأُرْشِدْتُ للشَّيْخ المؤخّر بمقام الإمام اللخمي ، فذهبت لزيارته فوجدته بالمسجد وقد فقد إحدى كريمتيه ،

(827) في الأصول : «فأهرعت».
(828) سنة 1151 / 1738 م كما في شجرة النّور الزّكيّة ص 344.
(829) علي بن محمد بن محمد المقدم الملقّب بالمؤخر التميمي.
(830) ساقطة من ط.
(831) هذا الشّرح يسمّى : «مبلغ الطالب إلى معرفة المطالب» ألفه في حياة شيخه وذلك بعد شرح جوهرة التوحيد ، إعتمد على الشّرحين السّابقين له وهما شرح أحمد الفيومي الغرقاوي ، وشرح علي بن أحمد الحُرَيْشي (مصغر) الفاسي ، توجد منه نسخة ضمن مجموع بالمكتبة الوطنية بتونس ، وأصلها من المكتبة العبدلية كما يوجد بها قطع منه.
(832) وهذا الشرح يُسمّى «تقريب البعيد إلى جوهرة التوحيد» ، توجد قطعة منه بخطه في المكتبة الوطنية.
(833) توجد منه قطعة مسودة بخطه في المكتبة الوطنية ، وله مؤلفات أخرى ، أنظر تراجم المؤلفين التونسيين ، 417/4 – 419.

فَسَلَّمْتُ ، فأحسن الرد ، وسألته الفاتحة وصالح الدُّعَاء فأسعفني بذلك ودَخَلَتْ[834] عليه بُنَيَّةٌ صغيرة قالت : أمي تدعوك ، فقال لها : إذهبي وأتي بالفطور ، فجاءت بشيء من دشيش الشعير[835] مطبوخًا فسألني الأكل معه فأكلت ، فما وجدت حلاوة طعام مثله ، وودعته وسافرت.

وتوفّي (رحمه الله)[836] ودفن مع الشَّيْخ النوري مع إخوانه التلاميذ ، ولم نقف على تعيين سنة وفاته.

الشَّيْخان : الجمل والحرقاني :

وأما الشَّيْخ الجمل والشَّيْخ الحرقافي فذهبا إلى تونس ونشرا بها علوم القراءة والتجويد إلاّ أنّ الشَّيْخ الجمل[837] أسرعته منيته.

وأما الشيخ الحرقاني[838] فطالت مدّته وكثرت تلامذته.

ترجمة الشَّيْخ أبي عبد الله محمّد الغراب :

وأما الشَّيْخ سيدي أبي عبد الله محمّد الغراب فإنه اشتغل أيضًا بنشر العلم وصار إمامًا بمقام الشَّيْخ اللخمي بعد وفاة الشَّيْخ المؤخر ، وكان أبوه من التّجّار ، فجهّز له مالاً وافرًا لحجّ بيت الله الحرام ، وأمره أن يتّجر ببقية[839] المال ، فلمّا حجّ ونزل / [211/أ] إلى مصر

---

834) في الأصول : «ودخل».

835) ساقطة من ط. ويسمى هذا الطبيخ : «تشيش» عند أهل صفاقس ويحضر عادة بالخضر.

836) ساقطة من بقية الأصول.

837) إبراهيم بن أحمد وقيل إبن محمد (ت. 1107 / 1696) وله مؤلفات.

838) أخذ عنه بتونس الشيخ حمودة بن محمد إدريس الحسني ، وعنه إنتشر بالعاصمة سند الشيخ علي النوري في القراءات ، وكانت وفاة الحرقافي سنة 1154 / 1741. أنظر شجرة النّور 344 وكتبه الحركافي ، ومما يجب التّنبيه إليه أن القاف المعقودة والكاف الفارسية والجيم كثيرًا ما تتعاقب إذ أن بعض الباحثين لا يعرف هذا فيستنتج استنتاجات خاطئة.

839) عن مثل هذه العادات أفادتنا وثائق متحف صفاقس. فالحج فرصة للتجارة ، وأهم مراحله التجارة بمصر والرجوع ببضائع منها ومن الحجاز إلى صفاقس ، وتطول مدة الحج بجميع مراحله حسب ظروف القائم به أو تقصر ، وأقلها سنة.

إشترى بما معه من الأموال كتبًا (فلمّا قدم على والده حسب أنّه قدم ببضائع التجارة الفانية فنزل بخزنة كتب)[840] لا غير ، فقال : يا بني أين تجارتك؟ قال له : هذه الكتب (هي تجارتي)[841] ، فغضب عليه وقال : أفقرتني وأتلفت علي أموالي ، فاشتكى لشيخه من والده ، فاستحضر الوالد وقال : لم غضبت من التّجارة الرّابحة الباقية ، طِبْ قلبك وابشر بالغنى[842] فإن شراء الكتب يورث الغنى[842] فهذه تجارة الآخرة حصلت ويعوّضك الله بتجارة الدنيا ، ودعا له ولذريته بالسّتر والبركة فاستجاب الله له ، وعَوَّض الله عليه المال ، وبقيت الكتب إلى الآن ينتفع بها الخلق ، وستره الله وذرّيته إلى الآن – أدام الله ستره علينا وعليهم وعلى جميع المسلمين – .

وكان الشّيْخ الغراب – رحمه الله تعالى – عدلاً فاضلاً محبّبًا[843] عند جميع النّاس لا يذكره الخلق إلاّ بحسن الثناء ، وكانت ولادته سنة أربع وسبعين وألف[844] ، ووفاته بربيع الآخر سنة خمس وثلاثين ومائة وألف[845] وكان ذا عفّة حتّى إنّه لم يشرب من ماء النّاصرية[846] ويقول : هو حُبُسٌ على فقراء المسلمين.

ترجمة الشّيْخ أبي عبد الله مُحمَّد المكّي :

وأمّا الشّيْخ أبو عبد الله محمّد المكّي فكان رجلاً صالحًا كثير الإعتقاد في أهل الخير ، خاليًا من أدواء[847] النّفس ، فقيهًا محدّثًا مقرئًا ، وكان أكثر اشتغاله بعلوم القاراءات وأكثر من انتفع به أهل قابس لكثرة تردّده وإقامته عندهم ، ونشأ[848] فقيرًا يتيمًا ، حَدَّث عن نفسه قال : كنت أنسخ كلّ ما أقرأ ، فحسدني أقراني المياسير وكانوا قادرين على اشتراء الكتب وقالوا لي : / الذي ينسخ يتعسر عليه العلم لاشتغال قلبه [211/ب]

840) ما بين القوسين ساقط من ط .
841) ما بين القوسين ساقط من ط .
842) في الأصول : «الغنا» .
843) في ت وب : «محبا» ، وفي ط : «محبوبًا».
844) 1663 م .
845) 1722 – 1723 م .
846) جملة من المواجل خارج سور المدينة كما وقعت الإشارة .
847) ج داء ، وفي ب : «أدراء» ، ومعناها طبقًا لتاج العروس 64/1 الإعوجاج .
848) ساقطة من ط .

بالنّسخ ، وحملهم على ذلك أن يسبقوني بكتبهم ويعلمون عدم قدرتي على اشتراء الكتب ، فلم ألتفت إليهم وسبقتهم بتحصيل ما نحتاجه.

وكان رحيم القلب شفوقًا على المسلمين ، ملازمًا للشّيْخ مدّة حياته ، فكثرت كتبه وغلب بذلك أقرانه ، ولحظه الشّيْخ فحصلت له منه عناية ، ولمّا بلغ قال له[849] الشّيْخ : يا بني زوّجتك إبنتي فلانة ، وكان ذلك لا يخطر له ببال لقلّة ذات يده ، فأخبر بذلك والدته ، فأحالت[850] ذلك وقالت : لعلّ أصابك أضغاث أحلام ، فأقسم لها بالله ما كان إلاّ يقظة ، فقالت : اكتم فإن أراد الله شيئًا كان. وكانت له دار مخلّفة عن أبيه منهرشة[851] ، فأرسل لها الشّيْخ من ماله ما تحتاجه من أخشاب وحجر ومدد وأرسل لها الفعلة ، فأقامها على أصولها ، (وأعطاه ما يحتاجه من آلة الدّار وأثاثها)[852] وأعطاه ما يتجهز به للعرس وقال لزوجته : زوّجت فلانة بفلان ، فحسبت أن جميع ما قامت به الدّار وأصلح به شأنه من كسبه فرضيت به كفؤًا لابنتها فتزوّج بها ، واتّسع حاله ، وأقبلت عليه الدّنيا وعلى ذرّيته ببركة الشّيْخ وخِدْمَةِ العلم وتقوى الله العظيم.

وانتقل إلى رحمة الله تعالى ودُفِن بتربة شيخه سنة نيف وسبعين ومائة وألف[853].

ترجمة الشّيْخ رمضان أبو عصيدة :

وأمّا الشّيْخ سيدي رمضان ابو عصيدة فكان فقيهًا محدّثًا مفسّرًا أديبًا متكلّمًا واعظًا له اعتناء زائد بعلوم القراءات ، فكان يقرأ للعشر ، وهو أوّل من أخذنا عنه / العقيدة [212/أ] الصغرى للإمام السنوسي فَصَادَفَتْ قلبًا خاليًا فتمَكَّنَتْ والحمد لله فوافقت الفطرة الاسلامية.

ولقد رأيته بعد وفاته – رحمه الله – فسألته ما فعل الله به فقال لي : يا بني عليك بكلمة التّوحيد والإخلاص فقد امتلأ بها التوراة والإنجيل والقرآن ، فعلمت أنّ الله قبله ببركة علوم التّوحيد ، وكان في كلامه بشارة بإذن الله تعالى ، يطلعني على الأدلّة النّقلية في

849) ساقطة من ط.
850) في ط : «أهالت».
851) كلمة عامية أي بحالة غير جيدة.
852) ما بين القوسين ساقط من ط.
853) بعد 1757 م.

الكتب السّماوية الدّالة على صدق نبيّنا ومولانا محمّد ﷺ المقويّة للأدلّة العقلية المصحّح جميعها للإعتقاد المطابق للنّطق بالشهادة عن يقين.

وكان لمجلس وعظه رونق زائد تذرف منه عيون الجفاة[854] ، وكان مقرّه بزاوية الأستاذ الصَّفّار ، قَلَّ ما يُفَارقها[855] ، يدخلها من[856] نصف الليل فيشتغل بما تيسّر من صلاة وتلاوة ونشر علم إلى صلاة الصّبح ، فإذا فرغ من صلاة الصّبح شرع في أنواع الذكر إلى الزروق[857] ، فان حضر من يتعلم عَلَّمَهُ[858] وإلاّ ذهب لبيته إلى أذان صلاة الظهر ، فيأتي للمسجد الأعظم لتجويد القرآن العظيم إلى الصلاة ، فيخرج للزّاوية فيصلّي بها الظهر ويُقْبِل على نشر العلم إلى استيفاء بقيّة الصّلوات لأوقاتها ، ويزيد بعد العشاء الأخيرة ما تيسّر من علم وتلاوة ، ثمّ يرجع إلى بيته ويكون[859] عشاؤه بالزّاوية أو لمّا يرجع لبيته.

وكان في أوان[860] قراءته على الشّيْخ النوري وهو صغير السّنّ يحضر عقيدة الشّيْخ ، / فقال الشّيْخ في بعض الأيام : هذه العقيدة أقعد من صغرى الشّيْخ السنوسي [212/ب] (من حيث أنّي[861] كلّما ذكرت عقيدة)[862] أتبعتها بدليلها ، وأمّا الصغرى فإنّ الشّيْخ السنوسي ساق عقائدها مجرّدة ، وبعد استيفائها أتبعها بالأدلّة على طريق اللّفّ والنشر المرتّب.

وكان الشّيْخ رمضان مكفوف البصر فقال خفية بصوت خفي ظنّ أن لا أحد يسمعه : أتتشبهين بالحرائر يا لَكّاع؟ فسمعها منه الشّيْخ فغضب عليه ومنعه من الحضور لدرسه ، فاستعفى فلم يعفه ، فلمّا أيس سافر إلى تونس فتعلّم منها ما تيسر من علوم المعقول وغيره ، ولم يزل يستشفع عند الشّيْخ بأخيار النّاس حتّى قبل الشّفاعة فيه فعفا[863]

---

(854) في ط : «الجمادات».
(855) في ش : «يفارقه».
(856) ساقطة من ط.
(857) كلمة دارجة معناها طلوع الشمس.
(858) في ط : «العلم».
(859) في ط : «وكان».
(860) في ط : «أول».
(861) في ت : «التي».
(862) ما بين القوسين ساقط من ط.
(863) في ش : «فعفى».

عنه ورجع وقد التزم الأدب ، فأقبل الشّيْخ عليه بهمّته فنفعه الله به ونفع الخلق.
وكانت عليه مهابة وجلالة ووقار. وكان ذا حظ من الشّعر وعلوم الأدب ، نظم منفرجة في الإستغاثة ، ونظم[864] الضادات[865] الساقطة ، وامتدح سيدي حسين باي — رحمه الله — بقصائد عديدة ، وأجازه عليها ، وأجرى له مرتّبات لكلّ سنة ، وامتُحِن بتغريب الباشا[866] — رحمه الله — له ولاخوانه الفقهاء حتى عفا عنهم ، فمنهم[867] من قضى نحبه ، ومنهم من عاش ورجع لوطنه ، فأقام على نشر العلم وبذله لسائله حتّى أدركته وفاته سنة نيف وسَبعين ومائة وألف[868] ودفن بمقبرة شيخه النّوري — رحمهما الله تعالى آمين — .

ترجمة الشَّيْخ أبي إسحاق إبراهيم المزغنّي :

[213/أ] وأمّا / الشَّيْخ سيدي أبي إسحاق إبراهيم المِزْغَنّي — رحمه الله تعالى — فإنّه بعد أخذه عن الشَّيْخ النّوري ما أخذه ذهب لتونس وتوغّل فيها في علوم المعقول ، وهو أوّل من أكثر الإشتغال بالمنطق في صفاقس ولم يكن للنّاس به قوّة إعتناء ولا يأخذون منه إلا ما تقام به التّعاريف والأدلّة كإيسا غوجي والسلّم ، وكان إشتغاله بمقام سيدي عبد الرَّحْمَان الطَّبّاع إلى أن توفّي ودفن بمقبرة شيخه ولم نقف على سنة وفاته.

ترجمة الشَّيْخ أبي الحسن علي بن خُلَيْفة :

وأمّا الشَّيْخ سيدي أبو الحسن علي بن خُلَيْفَة[869] فقد تقدّم ما قال في تعلّمه على الشَّيْخ ، وكان رجلاً صالحًا تقيًّا عفيفًا فقيهًا متكلّمًا محدّثًا مفسّرًا واعظًا عارفًا بعلوم

---

864) ساقطة من بقية الأصول.
865) في ب : «ايضادات» ، وفي ت : «ايضافات».
866) هو علي باشا الأوّل ، وكان يضايق من له صلة بعمّه حسين بن علي باي إمّا بالسجن أو بالقتل ، وقلّ من ينجو من بطشه.
867) في ط : «فمن منهم».
868) 1757 م ، أنظر شجرة النّور الزّكية 346 — 347.
869) بصيغة التّصغير.

العربية بأسرها ، وبأصول الفقه وفروعه ، تفقّه أوّلاً بالشّيخ النّوري ، ثمّ سافر لمصر ولقي الرّجال[870] ورجع لبلده مساكن فأنشأ بها زاوية[871] ، فكانت بقعة مباركة لم تزل عامرة بطلبة الكتاب والسّنّة وبكلّ خير ، وأحفاد الشّيْخ قائمون عليها فخرج منها فقهاء وصالحون وأنشأ زيتونًا كثيرًا أوقفه عليها ، قال بعضهم : قصدنا الشّيْخ بالزّيارة فقالوا لنا : ذهب إلى الغروس بالمكان الفلاني ، فذهبنا لنجتمع به[872] وكان ذلك عقب مطر ، فوصلنا المكان فوجدنا الشّيْخ في مكان جالسًا يمنع من خروج الماء من الغروس ، فلمناه على ذلك ، فقال : حُبّبَ إليّ من دنياكم ثلاث : الغروس ، وملازمة الدّروس ، ومحبّة الملك القدّوس[873].

وقال – رحمه الله تعالى – : إنتقلت لبرّ المشرق / على رأس القرن الثّاني عشر ، [213/ب] فاجتمعت بمشايخ أكابرَ أجلّة ، وأخذت عنهم جملة من العلوم إجازة وحضورًا ، منهم سيدي محمّد بن عبد الله بن علي الخريشي البحيري[874] تلميذ سيدي علي الأجهوري ، ومنهم سيدي إبراهيم الشبرخيتي شارح المختصر والأربعين النووية[875] ، وألف منظومة في التّوحيد[876] شرحها[877] شيخنا أبو العباس سيدي أحمد الدمنهوري بمصر.

وأخذ عنه – رحمه الله – عدّة أفاضل وجمّ غفير من سائر النّاس. فمن جملة الفضلاء نجله الشّيْخ ابو العبّاس سيدي أحمد ، وابن عمّه الشّيْخ ابو العبّاس سيدي أحمد الصغير ، والشّيْخ المفتي أبو عبد الله سيدي محمّد الهِدَّة السّوسي ، والشّيْخ المفتي بتونس

---

(870) وحجّ.

(871) وقيل أنشأها والده والصّحيح أنّه الذي أسّسها سنة 1104 / 1692 – 1693 م ، كما هو منقوش برخامة في الزاوية.

(872) في الأصول : «عليه».

(873) مقتبس من الحديث الشّريف المروي عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – : «حُبّب إليّ من دنياكم النّساء والطّيب وجعلت قرة عيني في الصّلاة» ، حديث حسن أخرجه الإمام أحمد في الزهد ، والنّسائي والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في السّنن ، ومن زاد فيه لفظة ثلاث فقد وَهِمَ لأنّ زيادتها مخلّة بالمعنى لأنّ الصّلاة ليست من الدّنيا ، ولم تقع هذه الزيادة في شيء من طرق الحديث ، وإن جاء كذلك في كتب غير العارفين بالحديث كالغزالي في «الأحياء» (فيض القدير: 370/1 – 371).

(874) في ب : «البحري» ، وفي ط : «الجميري».

(875) المؤلّف ناقل عن فهرسة المترجم المخطوطة.

(876) تسمّى : «الرياض الخليفية» ، توجد منها نسخة في المكتبة الأزهرية ضمن مجموع ، وبدار الكتب المصرية.

(877) يسمّى هذا الشرح : «المنح الوفية على الرياض الخليفية» ، توجد منه نسختان بدار الكتب المصرية ، ونسخة بالمكتبة الوطنية بتونس ، واختصر هذا الشّرح محمد إبن الحاج حسين منصور الورداني بلدا.

سيدي قاسم المحجوب ، والشّيْخ المؤقت أبو زيد عبد الرّحمان الغنّوشي السّوسي ، وشيخ زاوية أبي إسحاق الجبنياني – رحمه الله – الشّيْخ حسين الحلواني ، والشّيْخ القاضي أحمد بن لطيف ، إلى غير ذلك[878].

ولمّا كان الثاني عشر من ربيع أوّل سنة ثمان ومائتين[879] وألف إجتمعت بصفاقس بالشّيْخ الحسيب النّسيب الشّريف سيدي عبد الكريم بن أحمد إبن الشّيْخ سيدي علي بن خُلَيْفَة ، فوجدته رجلاً حسن الصّورة والهيئة والخَلْقِ والخُلُقِ ، آثار الصّلاح عليه لائحة ، ليّن الجانب ، محبا للعلم وأهله ، وله اعتقاد زائد في أهل الخير ، وهو ساعة التاريخ شيخ زاوية جدّه ، وهي إلى الآن لم تزل عامرة بطلبة الكتاب والسّنّة – جعلها الله آهلة عامرة بأهل الخير والصّلاح ، وأعانه / على ما أولاه من نفع العباد ، [214/أ] وأجرى الصّالحات على يديه بفضله وكرمه –.

ترجمة الشّيْخ أبي عبد الله محمّد كَمُّون :

وأما تلاميذ الشّيْخ سيدي أحمد النّوري المقدّمي[880] الذّكر ، فقد نشروا العلم في حياته وبعد وفاته.

فأمّا الشّيْخ أبو عبد الله محمّد كَمُّون ، فكان عدلاً ثقة عمدة ، أخذ عن عدة مشايخ من بلده ، وكان في ابتداء أمره من صيادي[881] السّمك ، فمنّ الله عليه بالعلم في كبر سنّه ، وليس له رحلة ، فنال في بلده أفضل ما ناله غيره في رحلته ، نُقِل عنه أنّه قال : كنت ملازمًا لمقام الشّيْخ السّبتي وتعسّر علي طلب العلم ، فقدم علينا رجل مغربي صالح فأسكناه بخلوة الشّيْخ السّبتي ، فقال يومًا : هل عندكم شيء من قَدّيدِ التّين[882]؟ فقلت : نعم ، فأتيته منه بما تيسّر ، فجعل كلّ يوم يناولني منه ثلاثًا ، فعل بي ذلك عدّة أيام ، ثمّ غاب عنّا فلم يتبيّن[883] لنا خبره بعد ذلك ، فمن ذلك الوقت

878) لم يذكر المؤلف تاريخ وفاة المترجم وكانت وفاته سنة 1172 / 1758 – 1759 عن سنّ عالية ، راجع تراجم المؤلّفين التّونسيين 2/223 – 235.

879) 1793 – 1794 م.

880) في ش وب : «المتقدّمين الذكر» ، وفي ت : «المتقدمين» ، وفي ط : «المقدموا».

881) في ش وب وت : «صيادين».

882) هو الشريح عند أهل صفاقس.

883) في ش وب وت : «يبين» ،

يَسَّرَ الله عليّ ما تعسّر. فكان غاية فيما يتعاطاه من العلوم كالعربية ، والفقه ، والحديث ، والفرائض ، والحساب . وكان عارفًا بالنّوازل[884] والأحكام ، ماهرًا في التّوثيق ، ذا نباهة زائدة ، وفطنة وقّادة ، وهمّة علية لا يعتريه طيش ولا انزعاج.

ثمّ[885] طلبه أهل بلده بتولّي القضاء بعدما أيسوا من شيخنا أبي الحسن سيدي علي الأومي – رحمه الله تعالى – فألزموا الشّيْخ كمّون وولوه مكرهًا ، فلقيه شيخنا الأومي بعد تولّيه فبارك له[886] ودعا له الإعانة والتّسديد ، فرد عليه متحسّرًا بقوله : / مصائب [214/ب] قوم عند قوم فوائد[887] ، فكان في أحكامه ذا رزانة وهيبة وشهامة ودهاء ، إذا انتصب للقضاء هابه الخصوم ، وانقاد النّاس للحقّ بأيسر الأمر. ومن كراهته للقضاء أنّه خرج يومًا من مجلس حكمه ، فخرج النّاس من أعوان وأصحاب دعاوي حتّى امتلأ الطّريق ، فلقيتهم إمرأة فحسبتهم كانوا في جنازة ، فقالت لهم : من مات؟ فأجابها الشّيْخ القاضي بقوله : مات محمّد كمّون ، يعني نفسه[888] ، فكان فيه إشارة لطيفة لقوله عليه الصّلاة والسّلام : «من ولي القضاء فقد ذبح بغير سكّين»[889] ، أو كما قال : غريبة اتفاقية.

ثمّ إنّه – رحمه الله – كان واقفًا مع الشّرع لا تأخذه في الله لومة لائم ، فاتّفق أن تولى حمّودة الغزالي قائدًا على البلد ، وكان رجلاً ظلومًا غشومًا ذا شدّة وعسف[890] ، فسعى بالقاضي إلى السّلطان ، ولَبَّس عليه فأشخصه لتونس ، وكان الكاتب أبو عبد الله الشّيْخ محمّد أبو عتّور إبن خالة الشّيْخ كمّون وقرينه من صغره ، وتعلّم العلم معه ، ونشأ على محبّة أكيدة بينهما ، فدافع عنه عند السّلطان ، وعَرَّفه مقامه فعفا[891] عنه وعافاه[892] من القضاء وولاّه الفتوى ، ورجع لبلده وقد أثّر فيه الخوف وأصابه رعب باطني نشأ منه أمراض عسر علاجها ، فمات سنة نيف وسبعين ومائة وألف[893].

884) النوازل في الإصطلاح التّونسي هي القضايا.

885) في بقية الأصول : «فن ثم».

886) في ط : «الله».

887) إقتباس من عجز بيت للمتنبّي صدره : «بذا قضت الأيام ما بين أهلها».

888) في ش : «يعني عن نفسه».

889) رواه داود والترمذي عن أبي هريرة ، ورمز لحسنه السيوطي في الجامع الصّغير ، قال شارحه : المناوي هو أعلى رتبة من ذلك فقد قال الحافظ العراقي : سنده صحيح. فيض القدير 6 / 238.

890) في ط وت : «عبسة».

891) في ش وب وت : «فعفى».

892) في الأصول : «عفاه».

893) بعد قليل من سنة 1757 م.

ترجمة الشّيْخ أبي عبد الله محمّد الفُرَاتي :

وأمّا شيخنا أبو عبد الله محمّد بن علي الفُرَاتي – رحمه الله تعالى – فكان رجلاً صالحًا عابدًا ملازمًا لتلاوة الكتاب العزيز ، ونشر علوم الشّريعة / ليلاً ونهارًا ، وللغزو في البحر والرّباط . [215/أ]

وكان فقيهًا محدّثًا ، مقرئًا ميقاتيًا ، واعظًا فرضيًا ، عمدة في التوثيق ، له إشتغال زائد بالنحو ، وكان من أصدقاء الشّيْخ أبي عبد الله محمّد كَمُّون القاضي ، فطلبه أن يكون نائبًا عنه في القضاء ، فأبى ذلك وأكّد عليه القاضي الطّلب(894) فجعل يبكي ويتضرّع وينتحب خوفًا من صعوبة المنصب ، وما زال يستعفي القاضي من ذلك حتّى عفا(895) عنه وعافاه منه .

أخذ عن الشّيْخ سيدي أحمد النّوري ، والشّيْخ سيدي محمّد إبن المؤدّب الشّرفي ، والشّيْخ سيدي أحمد الفراتي ، والشّيْخ سيدي عبد العزيز أخيه ، وغيرهم ممّن أخذ عنهم(896) الشّيْخ كَمُّون ، فإنّه رفيقه من صغره لكبره .

ترجمة الشّيْخ أبي عبد الله محمّد البِجَّار :

وأمّا الشّيْخ أبو عبد الله محمّد البِجَّار فكان رجلاً صالحًا مكفوف البصر ، قرأ على سيدي أحمد النُّوري ، ومن ذكرنا آنفًا ، وله قوّة زائدة على تعاطي المختصر ، فلا تراه إلاّ ملازمًا لتعليمه ليلاً ونهارًا .

ترجمة الشّيْخ محمّد الخِميرِي :

وأمّا الشّيْخ أبو عبد الله محمّد الخميري فإنّه تفقّه ببلده بسيدي أحمد النُّوري ، ومن تقدّم من فقهاء بلده ، فكان فقيهًا مقرئًا واعظًا محدِّثًا مفسِّرًا نحويًّا ، تورّع أوّلاً عن تحمّل الشّهادة وتولاّها في آخر عمره ، وكان يقرئ بمقام الإمام اللخمي ، ويعظ من الجمعة

---

894) في ط : «المطلب».

895) في ش : «عفى».

896) في ط : «عنه».

لمثلها إلى أن توفّي سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف[897] ، ودفن مع شيخه النّوري كإخوانه – رحمة الله عليهم وعلى جميع المسلمين– .

ترجمة الشّيْخ محمّد النُّوري :

ومن أنجال الشّيْخ سيدي أحمد النُّوري الشّيْخ الصّالح[898] ذو الدّين والعفّة والصِّيانة / والعقل الرّاجح سيدي أبو عبد الله محمّد النُّوري. [215/ب]

كان – رحمه الله – عمدة ثقة فقيهًا محدِّثًا واعظًا عارفًا بالعربية والتّوحيد والمنطق ، تفقّه بعد أبيه بتونس على شيخنا أبي محمد عبد الله السّوسي ، وشيخنا أبي عبد الله محمّد الشّحمي ، والشّيْخ أبي عبد الله محمّد الغرياني ، والشّيْخ المفتي سيدي قاسم المحجوب في آخرين من فقهاء تونس ، ورجع لصفاقس فعَمَّر زاوية أبيه وجدِّه ، وكان رجلاً مسلمًا سلم المسلمون من يده ولسانه[899] ، ظاهرًا وباطنًا ، ذا عفّة وديانة ، وحفظ جانب ، وحفظ عهد ، لا يعرف التّلبيس والخداع والمراوغة ، ظاهره كباطنه ، حسن السِّيرة والخلق ، كان معتزلاً عن الخلق الا بقدر الحاجة إليهم ، ولا يعرف للأمراء بابًا ولا يُوَجّهُ لهم خطابًا ، تاركًا للمناصب على سيرة أبائه ، ولا أخذ مرتبًا على تعليمه ، بل حسبة لوجه الله تعالى ، توفّي – رحمه الله تعالى – سنة خمس وتسعين ومائة وألف[900].

ترجمة الشّيخ محمّد حامد النُّوري :

ومن أنجاله الشّيخ أبو عبد الله سيدي محمّد حامد ، واحد زمانه عقلاً وعفّة وفهمًا وفضلاً ، تفقّه بصفاقس بتلاميذ أبيه وجدّه كالشّيخ المَكّي ، والشّيخ أبي عصيدة والشّيخ البجّار ، وأخيه الشّيخ سيدي محمّد ، والشّيخ أبي العبّاس أحمد لولو وغيرهم ،

---

897) 1779.

898) في ط : «العالم».

899) إشارة إلى الحديث الشّريف : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» ، أخرجه الشيخان من حديث إبن عمر ، وانفرد مسلم بروايته عن جابر بن عبد الله ، قال الحافظ السيوطي : الحديث متواتر ، ومن جوامع الكلم : أنظر فيض القدير 6 / 270.

900) 1781 ترجم له في شجرة النّور الزّكيّة 349 ترجمة قصيرة.

فتمكّن من علوم القراءات والتّجويد، والنّحو والفقه، وغير ذلك. ثمّ انتقل لجربة لطلب (مختصر الشّيخ خليل والفرائض والحساب، فأخذ عن الشيخ)[1] أبي إسحاق سيدي إبراهيم ابن الشيخ سيدي عمر[2] الجمني، ثمّ توجّه / لتونس فأخذ عن أبي عبد الله [216/أ] شيخنا سيدي محمد الشّحمي وغيره من أشياخ العصر بتونس، فكان فقيهًا مقرئًا فرضيًا حيسوبيًا منطقيًا متكلّمًا واعظًا أصوليًا متمكنًا من علوم العربية وفنون البلاغة، حسن الخَلْقِ والخُلُق والسّيرة، ذا عفّة وهمّة عالية، لا يرى إلّا منبسطًا مستبشرًا متبسّمًا، ليس بالفظّ ولا بالغليظ الجافي.

وهو القائم بعمارة الزّاوية بعد وفاة أخيه أعانه الله على ما أولاه.

وكان معرضًا عن الأمراء وأبوابهم وعن المناصب وعلائقها، يأكل من كسبه بالفلاحة فأغناه[3] الله بذلك.

ترجمة الشّيخ عبد العزيز الفُرَاتِي:

ومن أجلّ[4] أعيان فقهاء صفاقس المتأخّرين الشّيخ أبو فارس سيدي عبد العزيز الفُراتي[5] — رحمه الله تعالى —.

تفقّه في صغره بتونس على فقهاء العصر، ثمّ ارتحل[6] إلى مصر فأقام بها خمسة أعوام يطلب العلم، فلقِي الرِّجَال وأخذ عنهم كالشّيخ أبي العبّاس أحمد البشبيشي الشافعي، والشّيخ القاضي عمر فكرون الشّافعي، والشّيخ أبي عبد الله محمد البنوفري، والشيخ أبي البركات سيدي يحيى الشّاوي[7]، وذهب معهم إلى القسطنطينية لصدور أمر مطاع من الحضرة العثمانية لفقهاء الأزهر، بإشخاص شيخ فاضل، ولم يعيّن سبب

1) في ط: «لطلب المختصر عن أبي إسحاق».
2) في ط: «ابراهيم».
3) في ط: «فأعانه».
4) ساقطة من ط.
5) هو إبن محمد بن محمد بن أحمد كما في الحلل السّندسيّة 304/3.
6) في ط: «رحل».
7) يحيى بن محمّد بن محمّد بن عبد الله بن عيسى النَّائِلي نسبة إلى قبيلة أولاد نائل بالقطر الجزائري وهي قبيلة عربية موجودة بليبيا أيضًا، الملياني الشاوي تسمية لا نسبًا. أنظر عنه فهرس الفهارس والأثبات 1132/2 – 1134، باعتناء د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

ذلك ، فاجتمع أهل الحلّ والعقد من فقهاء الأزهر من جميع المذاهب وأرادوا تعيين رجل يوجّهُونه إلى الحضرة ، فكلّما طلبوا واحدًا امتنع ، وهابوا الأمر إذ لم يعرف / [216/ب] أحد[8] على ماذا يقدم ، فاتّفق رأيهم على تعيين الشيخ الشّاوي ، وقالوا فيمَا بينهم : إن أجاب السّلطان عمّا سأله فرجل من فقهاء الأزهر ، وإن عجز فهو مغربي ولا نقص فينا ، فإذا عرفنا السّبب أعددنا له من يمشي على بصيرة . وكان الشّيخ الشّاوي – رحمه الله – رجلاً بارعًا في الأصول والفروع وآداب البحث والصِّناعات الخمس ، من علم النّظر وعلوم العربية والحديث والتّفسير وغير ذلك ممّا يحتاج إليه النظّار . وكان سريع الجواب ، حاد الذّهن والفطنة ، يسلك من كلّ باب أراده ، فانعقد عليه إجماعهم ، فقبل وامتثل ، فسار بتلاميذه ولم يفارق دروسه إلى أن بلغ الحضرة الخاقانية ، فتلقّاه أهلها بالإجلال والإكرام ، وتقدّم للسّلطان – رحمه الله تعالى – وصافحه على مقتضى السّنّة ، وكانت العادة تقبيل اليد من السّلطان ، فتكلّم بعض من حضر في ذلك وقال : هذا سوء أدب مع السّلطان ، ففهم مرادهم وقال : يا سيدي السّلطان عاملتك بآداب الشّريعة المُطَهَّرة ، سنّة رسول الله ﷺ والأدب مع السّلاطين هو المحافظة على السّنّة إذ هذا المقام هو الأحقّ بإظهار السّنّة وشعائر الإسلام ، ولمّا حصلت السّنّة فشرّفني بمناولة يدك السّعيدة أقبّلها فإني لا أستنكف عن تعظيم من أقامه الله تعالى لحفظ ملّة الإسلام وإذلال أهل الكفر والطّغيان ، فعلم السّلطان صدق قوله فعافاه / [217/أ] من تقبيل اليد ، وأمره بالوقوف على (ما رسم الشّرع[9] ، وقال : إنّي أحقّ منك بإعزاز هذا الدّين والمحافظة على)[10] رسوم الشّريعة[11] فلا تزيدك المحافظة على السّنّة إلّا محبّة منّي إليك ، ورغبة في لقائك ، فأظهر الشّيخ يحيى الفرح والسّرور بمحبّة السّلطان لحماية الدّين وإظهار شعائره وأكثر من دعاء الخير للسّلطان وعساكر الإسلام ، فحصل له في ذلك المقام رفعة مقامه ، وظهرت[12] نباهة شأنه .

ثمّ إنّه حَصُلَتْ له مناظرة مع بعض فقهاء الحنفيَّة في عدّة مسائل ، ومن جملتها طهارة الكلب التي يقول بها إمامنا مالك – رحمه الله ورضي عنه – فقال : كيف تقولون

---

8) ساقطة من ط .

9) في ط وت : «رسوم الشريعة» .

10) ما بين القوسين ساقط من ت وب وط .

11) بعدها في ط : «وقال له» .

12) في الأصول : «وظهر» .

بطهارته مع أنّه ﷺ أمر بغسل الإناء سبعًا من ولوغ الكلب فيه[13] وما ذلك إلّا لنجاسته، فأجاب الشّيخ يحيى على مقتضى أُصُول المذهب من أنّ علَّة الطّهارة الحياة وهي حاصلة، والغسل سبعًا إنّما هو تعبّد[14] إذ ريقه لا يكون أقذر وأنجس من البول والغائط مع أنّه يكفي في طهارة مصابهما زوال اللَّوْن والطّعم والرّيح (غير ما تعسّر من اللوت والرّيح)[15] ولو زال ما يطلب زواله بغسلة[16] واحدة، وطال الكلام في ذلك على[17] قواعد الجدل فقطعهم بالحجّة، ووقف[18] كُلٌّ مع[19] مقتضى قواعد مذهبه.

ثمّ إنّ السّلطان - رحمه الله - عَرّفه أن السّبب الذي أشخصه له هو أنّ والدته أخرجت صَدَقة من مالها على فقهاء الجامع الأزهر، [فقال له] فخذها / واصحبها معك [217/ب] للفقهاء ليفرّقوها بينهم، فقال: السّمع والطّاعة، ثمّ قال للشّيخ يحيى: تمنّ[20] ما شئت من الدّنيا لتستعن به على طلب العلم، فقال: لا حاجة لي بشيء إذ يكفيني ما أنا عليه، وكان رجلاً زاهدًا متقلّلاً من الدُّنيا غاية، وكانت عليه أثواب المغاربة، وقال: لا أقدر على تغيير ما أنا عليه من أثواب وَقُوت، وقد ترى في أثوابي بقية فلا أدري أُبْليها أم أموت قبل ذلك، وعندي[21] من القوت ما يسدّ رمقي وما زاد على ذلك فهو فضول يقطعني عن العلم بالله تعالى، فأُلْزِم بطلب شيء ولو قلّ إذ في عدم الطّلب من السّلطان مع (إنعامه بالإقبال)[22] الأمر بالتّمنّي إظهار تعاظم وسوء أدب معه بحسب جاري العادة، فقال: إن كان ولا بدّ فاجعلني شيخ[23] الجامع الأزهر، فكتب له بذلك ظهيرًا، ورجع لمصر

13) إشارة لقوله ﷺ: «إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليرقه ثمّ ليغسله سبع مرات»: أخرجه البخاري ومسلم ومالك في الموطأ والترمذي وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - وله روايات أخرى فيها تغيير بعض الألفاظ مع اتحاد المعنى، والرواية التي فيها زيادة هي: «طهور اناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أولاهن بالتراب».

14) في ت: «تعبر».

15) ما بين القوسين ساقط من ط.

16) في ت: «بغسله».

17) في ط: «مع».

18) ساقطة من ب.

19) في بقية الأصول: «على».

20) في بقية الأصول: «تمنى».

21) في بقية الأصول: «وكان عندي».

22) ما بين القوسين ساقط من ط.

23) هذا ممّا انفرد به المؤلف ولا يُعْرف أنّه تولى مشيخة الأزهر، قال الشّيخ عبد الحي الكتاني، وللمترجم ترجمة نفيسة في «نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار» للشيخ محمود بن سعيد مقديش الصفاقسي، أغرب ما فيها أنه تولى مشيخة الأزهر، فهرس الفهارس والأثبات 1134/2.

بما معه ، فأوصله للفقهاء ورضوا بما والاه[24] السلطان عليه من مشيخة الجامع الأزهر ، فكان كذلك إلى وفاته — رحمه الله تعالى — .

ثمّ إنّ الشّيخ الفراتي بعد انقضاء خمس سنين أخذ الإجازات من مشايخه وحجّ حجّة الفريضة وجاور بالحرم الشّريف يقرأ الحديث بالمسجد النّبوي مُدَّة ، ثمّ رجع إلى صفاقس فوجد الشّيخ النّوري سبقه فيها بأربعة عشر عامًا ، فوجده مجتهدًا في طلب العلم ، فأعانه على ذلك ، وكثرت دروسه حتّى بلغت ثمانية عشر دولة ، واشتغل بالعلم في ابن صيّود المقام المشهور. / [218/أ]

ولمّا قدم إبراهيم الشّريف لصفاقس عند توجّهه[25] لقتال طرابلس — حسبما مرّ — قصد إلى زيارة[26] الشّيخ النّوري بزاويته ، فزار الشّيخ والتمس صالح دعائه فدعا له بالتّوفيق والهداية ، ولمّا سمع الشّيخ الفراتي جاء إلى زاوية الشّيخ النّوري ، فقام له الشّيخ[27] إجلالاً وقام السّلطان لقيامه وسلَّم عليه ، فقال الشّيخ النّوري للسّلطان : هذا رجل صالح من طلبة العلم ، إغتنم بركة دعائه فدعا له الشّيخ الفراتي ، ثمّ قال إبراهيم الشّريف للشّيخ النوري : تمنّ ما شئت ، فامتنع ، فألحّ عليه ، فقال : إن كان ولا بدّ فتولية[28] هذا الشّيخ إمامة المسجد الأعظم لأنّ إمامه عجز لكبر سنّه ، وكان أئمته قبل ذلك المشايخ الشَّرفِيين ، فقال له السّلطان : إن كان ولا بدّ فلتكن[29] أنت إمامًا ، فاعتذر بعدم القدرة على ذلك ، فكتب للشّيخ الفراتي ظهيرًا بذلك مشتملاً على القيام بمصالح المسجد وَوَلاَّهُ الفتوى ، فصار خطيبًا إمامًا مُدرِّسًا بالمسجد الأعظم مفتيًا.

وتفقّه عليه جماعة فأخذوا عنه كما أخذوا عن الشّيخ النّوري ، فمن أعظمهم الشّيخ سيدي محمد إبن المؤدّب [الشرفي] وكان محبًّا له غاية فجعله خليفة عنه في الإمامة والخطبة وامتدحه بقصيدة وهي هذه :

---

24) في ط : «أولاه».

25) في بقية الأصول : «لتوجهه».

26) في بقية الأصول : «قصد زيارة».

27) في بقية الأصول : «الشيخ النوري».

28) في ط : «فتولى» ، وفي ب : «فولى».

29) في بقية الأصول : «فكن».

[الطويل]

أيـا لائمي فيم[30] الملامـة والعـذلُ وقلبي[31] من لوع الصَّبابة لا يخلـ[ـو]
دع اللوم واذكر لي حديث[32] أحبتي فذكرهم عندي – وحق الهوى يحلـ[ـو] –
[218/ب] إذا ذكروا يومًـا طربت لـذكرهم واهتزّ مثل الغصن يعتاده[33] ميل /
أَهيمُ بهم شوقًا إذا الصّبح قد بدا ويزداد بي شوقٌ إذا جنّني الليـل
سقوني حُمَيّـــا حبهم غيرَ مرّة ثمِلتُ بها سكرًا، وما عاد لي عقل
حرام على قلبي السُّلوّ وإن أبـى عـذول يرى أن السلوَّ لَـهُ حَـلّ
لئن كان يسلو الحبّ من يدّعي الهوى فعن حبّ من أهوى – وحقك لا أسلـ[ـو][34]
فلي فيك – يا عين عين الزّمان – محبة لها في فمي فرع، وفي مهجتي أصل
سميري سامرني[35]، وكرّر حديث من بـذكرهم يحيـا[36] الفؤاد ويبتـل
أبي فارس عبد العزيز الذي غدا[37] لـه بالفراتي نسبةٌ ذكرها يحلـ[ـو]
إمـام لــه بين الأئمة منصب وقَـــدر رفيع فوق نَسْر السما يعلـ[ـو][38]
حليم، سليم الصدر، لا يستفزه سفيه، ولا يُغْريه من جاهل جهل
علا قـدره، والعلم يرفـع أهلـه وَلِمَ لا، وذا يقضي به العقل والنقل[39]
فلـو أن أهل المجد[40] كانوا فريضة لكـان لها مـن أجل عليائه عَوْل

---

30) في ط : «كف». أنظر ديوان الشرفي ص 62.
31) في بقية الأصول : «فقلبي».
32) في ت : «من حديث».
33) في ب وط : «يقتاده»، وفي ت : «بقتادة».
34) بعد هذا بيت في الديوان أسقطه المؤلف وهو:
أو إن كان قوم بالأماكن قد سَلَوْا وكان لهم في ذاك عن حبهم شغل
35) في ديوان الشرفي : «يسامرني».
36) في الأصول : «يحيى».
37) في الديوان : «ومن غدا».
38) بعد هذا بيت في الديوان أسقطه المؤلف وهو:
أمين، كريم، منصف، ذو أنـاءة لـه بين أربـاب العلا بالعلا كفل
39) بعد هذا بيت في الديوان أسقطه المؤلف وهو:
لـه بين أربـاب النهى المجد والعلا وبين ذوي الآراء لـه الرأي والعقـل
40) في الديوان : «العلم».

ولو حارت الأفكار في حلّ مشكل — لكان عليه العقد في ذاك والحلّ
هو البحر ، بل لا ، إنما البحر ماؤه — أجاج ، وذاك السائغ المشرب السّهل
إذا ما اشتكت أرض القلوب جهالة[41] — ترى سُحْبَه بالعلم تهمي وتَنْهَلّ
خبير بتقرير المسائل عالمٌ — فصيح له في نطقه المنطق الفصل[42]
ولولا إمام النحو نوّه باسمه — لقال له : أهلاً ، وأنت لذا أهل
أبا فارس من ذا يجاريك في النُّهى[43] — ولو كان في الدنيا له الجاه والطَّوْل
بقيت على الأيّام كنزًا لأهلها — وساعدك التّوفيق والعزّ والفضل
فدونكها[44] بِكْرا يُشير بنانُها — وترنو[45] إلى علياك أعينها النُّجْل
فلا زلت ينبوع الفضائل كلّما — تقادم فضل منك يخْلُفه فضل[46]

وله تآليف منها عقيدة على مذهب أهل السّنّة ، ومقدّمة في الفقه ، / وشرح مقدمة[47] السيوطي[48] في النّحو ، واختصر سيرة الحلبي ، وله ديوان خطب ، وتوفّي – رحمه الله – سنة إحدى وثلاثين ومائة وألف[49]. [219/أ]

ترجمة الشّيخ الولي عبد الله الجَمُّوسِي :

ومن أجلّ من أخذ عن الشّيخ الفراتي الولي الصّالح سيدي عبد الله الجَمُّوسي. كان أوّلاً من عامة النّاس يبيع الفحم ، فحصل له جذب إلاهي فتعلّم القرآن في

---

41) في ط : «جماله».
42) في الديوان : «الجزل» ، وبعد هذا بيت في الديوان أسقطه المؤلف وهو:
فقيد لدى التدريس – لو كنت قائلاً – — لقلت : لباب الشهد يقذفه النحل.
43) في ش : «النها».
44) في الدّيوان : «ودونكها».
45) في ت : «ويدنو».
46) القصيدة في ديوان محمد الشّرفي (م. سبق ذكره) ص 62 – 63 ، وأسقط المؤلف ثلاثة أبيات من آخر القصيدة.
47) في ط : «ألفية».
48) في الحلل السّندسيّة 305/3 وشرح الشّمعة المضيئة في النّحو ، وهي نفسها التي عبّر عنها المؤلف بمقدمة السيوطي في النحو ، وفي كشف الظنون 1065/4 الشمعة المضيئة في علم العربية لجلال الدين عبد الرحمان السيوطي ، ألفها في ابتداء حاله مختصر ورقتان.
49) 1718 – 1719 م ، وفي الحلل السّندسيّة 333/3 توفي صبيحة يوم الخميس الواحد والعشرين من ذي الحجة سنة أربع وثلاثين ومائة وألف / 2 أكتوبر 1722.

كبر سنّه ، وتفقّه على الشّيخ الفراتي وأضرابه من فقهاء بلده ، فلازم على الشّيخ الفراتي قراءة مختصر الشّيخ خليل سبع عشرة ختمة فتمكّن من الفقه ، وغلب عليه الجذب ، فأقبل على تعليم القرآن العظيم ، وسنّة النبيء الكريم ، وكانت تأتيه البوادي ، يتعلّمون منه ويتوبون على يديه.

ونظم المختصر وألفية في النّحو قال فيها : فائقة ألفية السيوطي لكونها وافرة الشروط ، إلّا أنّ وزن نظمها غير محرّر ، فلذا تركت تأليفه.

وكان يفرّ من تولية المناصب والأحكام جهده ، فأنزل فيه أهل البلد أمرًا من السّلطنة على أن يحضر مع الفقهاء مجلس يوم الخميس لفصل ما يصعب من نوادر الوقائع على عادة فقهاء البلد ، فكان يحضر ويشدّد في الأحكام ويعارض القضاة والفقهاء بحسب إجتهاده نصرة للحقّ ، فتأذّوا منه فأتوا بأمر من الحضرة بتونس على منعه من الحضور ، فكان بعدها يقول : نعم البلد ، ونعم السُّور ، ونعم النّاس لولا ما فيها من المداهنة ، ويقول لشيخه الفراتي : يا سيدي كنت مجاب الدعوة ونستقي بك الغمام ، فمنذ تولّيت الأحكام[50] / زال ذلك السرّ منك. وترك الجمعة فترك الفقهاء وما هم فيه ، وأقبل على التّعليم رافضًا للدّنيا[51] وأبنائها وأمرائها. [219/ب]

وكان صلبًا في الدّين لا تأخذه في الله لومة لائم ، وكانت يده مباركة في شفاء المرضى كتابة ورقيًا ، مستجاب الدّعوة حتّى نزول المطر وقت القحط والشدّة ، جاءه بعض البوادي بثلاثة أحمال زكاة حبوبه[52] ، فردّه وقال : لا آكل أوساخ الخلق هو يرزقني من حيث لا أحتسب ، فمن ثمّ تقلّل من الدّنيا واقتصر على أدنى القوت.

وخرج ذات يوم لخدمة جنانه الذي يقتات منه فلقيه بعض تلاميذه من الأعراب وهو يبيع جلبًا من الغنم فقال : إلى أين يا سيدي؟ قال : إلى الجنان ، فقال : أتعبت[53] نفسك في شيء قليل الجدوى ، فقال الشّيخ : وأنت ما تصنع هنا؟ قال : أبيع جلبًا أنتفع بمكسبه ، قال له : تخسر فيه مائة ريال من رأس مالك ، فكان كذلك.

قيل كان يقري الأنس والجن ، توفي – رحمه الله – سنة نيف وأربعين ومائة

---

50) الشّيخ عبد العزيز الفراتي تولّى الفتوى ولم يتولّ القضاء كما مرّ قريبًا.

51) في ط : «رافض الدنيا».

52) في ط : «حبوب».

53) في ط : «الفت».

وألف[54] بعدما تفقّه به خلق كثير ، وقبره مزار متبرّك به – رحمه الله تعالى – .

ومن جملة من أخذ عن الشّيخ الفراتي ثلاثة من أولاده : أبو العبّاس أحمد ، وأبو فارس عبد العزيز ، وأبو زيد عبد الرّحمان ، فأخذوا عنه في حياته ، وقام مقامه في الخطبة والإمامة والتّدريس الأوّلان شركة بينهما .

ترجمة الشّيخ أحمد الفُراتي :

فأمّا الشّيخ أبو العبّاس سيدي أحمد الفُراتي كان رجلاً صالحًا تقيًّا عفيفًا فقيهًا محدّثًا خطيبًا واعظًا مفتيًا ، / وكان حسن الخطبة والوعظ . قال الشّيخ أبو عبد الله سيدي [220/أ] محمد السعداوي – وكان من الصّالحين المتصوّفين – : والله ما أحبّ الإقامة بصفاقس إلّا لخطبة سيدي أحمد الفراتي ، ووعظ أبي عبد الله محمّد المراكشي .

توفي – رحمه الله تعالى – سنة سبع وأربعين ومائة وألف[55] .

ترجمة الشّيخ عبد العزيز الفُراتي :

فاستقلّ أخوه الشّيخ أبو فارس عبد العزيز الفراتي بالإمامة والخطبة والتّدريس وتولّى الفتوى ، وكان محدّثًا مقرئًا مؤقّتًا ذا حظّ من علوم الدّين فصيحًا في خطبته ، ذا قدرة على إنشاء الخطب ، متقلّلاً من الدّنيا لا يأخذ شيئًا على فتواه ، ليّن الجانب محبّبًا معظّمًا عند النّاس ، وكان ملازمًا لمقصورة المسجد الأعظم ، فدخل عليه يومًا الشّيخ سيدي إبراهيم ابن حمامة القروي ، وكان جزّارًا له مكاشفات وإشارات فقال له : السّلام عليك يا منديل ، فتغيّر الشّيخ من ذلك وانقبض ، فقال له : يمسح الناس فيك أوساخهم وينسبون إليك أشياء كثيرة يوسّخونك بها .

فلمّا كانت سنة خمس وستين ومائة وألف[56] قدم الحاج محمّد السيالة[57] من طرابلس ، وكان القائد بصفاقس إبن أخيه محمد السيالة[57] ، فلم يقم بحقّ عمّه ،

---

54) بعد قليل من سنة 1728 م .

55) 1734 – 1735 م .

56) 1752 م .

57) في ش : «السيالا» .

فاغتاظ عليه ، فلمّا وصل لتونس دخل على الباشا[58] – رحمه الله – فذكر له أشياء من قبائح إبن أخيه إخترقها خارجة عن مجاري السّنّة والسّياسة ، وأنّ النّاس منه في مقاساة[59] شدائد[60] ولا يقدرون على رفع الشكوى فاستشاط غضبًا ، فكتب لقاضي / [220/ب] البلد أبي العبّاس الشيخ أحمد لُولُو – رحمه الله – وللشّيخ الخطيب ، وأمرهم بإحضار الخاص والعام وسؤالهم عن محمّد السيالة وإرسال ما انفصل عنه أمر النّاس ، فاجتمع النّاس ، فأمّا أصحاب النّعمة فسكتوا وخافوا من العواقب ، وأمّا الفقراء فأظهروا الشّكوى بالقائد وعدم لياقته وطلبوا عزله ، وأمّا جماعة القائد ومن ينتمي إليه فقالوا : لا بأس به وإنّه مصلح ، وانفصل المجلس على اختلاف الكلمة وعدم اتّفاق ، فتحيّر الخطيب والقاضي وعلموا أن الحقّ مع الفقراء وعامّة النّاس ، فطلب القائد منهما جوابًا على مقتضى ما قاله جماعته من حسن سيرته ، فازداد الشيخان تحيُّرًا وقالا له : نذهب بأنفسنا ونعرّف الباشا مشافهة بما وقع ونظره أوسع ، فأيس منهما ، وكتب وسيَّر بريدًا للكاتب أبي زيد الشّيخ عبد الرّحمان البقلوطي ، وكان نافذ القول عند الباشا ، فوقف على الكتاب وعلم ما فيه ، وعيَّن رجلاً من رجاله يقف بباب تونس ليأتيه بالشّيخين إذا قدما قبل وصولهما للباشا ، ففعل ، فلمّا اجتمعا بالكاتب أمرهما الكاتب بالرّجوع لبلدهما ، فاعتذرا إليه بالخوف من الباشا ، فقال : أنا أكفيكما ، فرجعا فنهض من له عداوة عليهما وقال : قد أصبت مقتلهما ، فتجهّز لتونس وعرَّف الباشا ولم يذكر الكاتب خوفًا منه ، فطار الباشا غضبًا وذكر أمورًا لا ينبغي نسبة مثلها (لأقلّ حال منهما فضلاً عن مثلهما)[61] ولكن جفّ القلم ومضى الحكم / [221/أ] لأمور قدرها[62] بديع السّماوات والأرض ، فأحضر الشّيخان وعنّفهما فلم يقدرا على ردّ الجواب خوفًا من ضرب الرقاب فلمّا سكن بعض غضبه أمر بهما لبيت الحانبة سجن خفيف رفعا لمقامهما عن مقام غيرهما لنسبتهما للعلم الشريف ، ولقد ذهبت إليهما أسلّيهما فرأيت الشيخ الخطيب صابرًا معتمدًا على الله ، ورأيت على الشيخ القاضي آثار الخوف فصبّرتهما ، ودعوت لهما بحسن العاقبة والصّبر الجميل والإستغاثة بالله ، ثمّ عُزِل الشيخ[63] القاضي من جميع مرتّباته ومن العدالة حتى من مرتّب التّجويد بالمدرسة ، كما عُزِل الخطيب[64] عن الجامع وجميع وظائفه ، فبقيا بتونس معزولين ، فلم تمض أشهر

---

58) علي باشا الأول.

59) في الأصول : «مقاسات».

60) في ط : «الشدائد».

61) ما بين القوسين ساقط من ط .

62) في ط : «قدرها الله».

63) ساقطة من بقية الأصول.

64) في ط : «الشيخ الخطيب».

قلائل إلّا (وقد ثارت فتنة يونس مع أخيه والباشا أبيه)[65] فأمر الباشا[66] بإطلاقهما فنزلا على القائد أبي عبيد ، فأكرم نزلهما وأحسن مثواهما لما يعرف من فضلهما حين كان قائدًا قبل محمد السّيالة بصفاقس ، فكان بعض النّاس[67] يرى أنّ محنة الباشا جرت عليه من إمتحانهما ﴿وَكَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾[68].

ثمّ لم تنفصل الفتنة إلّا وقد حضرت منيّة الشّيخ الخطيب – رحمه الله – فنقل لبلده سنة نيف وستين[69]. وأطلق سراح القاضي ورجع إلى بلده.

وألّف الشّيخ الخطيب عدّة تآليف لم تشتهر ، وأخذ عنه عدّة تلاميذ ممّن تقدّم نسبتهم لسيدي أحمد النّوري وغيرهم كأولاده الثلاثة : الشّيخ أبي عبد الله محمّد / [221/ب] وتولّى القضاء ثمّ الفتوى وتوفّي على ذلك ، والشّيخ أبي زيد عبد الرّحمان وتولّى الخطابة والقضاء ثمّ الفتوى ، وتوفّي على ذلك ، والشّيخ أبي محمد سيدي عبد السّلام.

ترجمة الشّيخ عبد الرّحمان الفُراتي :

ولمّا كانت سنة تسع وستين ومائة وألف[70] ، ولّى الباشا – رحمه الله تعالى – الخطبة الشّيخ أبا زيد سيدي عبد الرّحمان أخا الشّيخ الخطيب الذي عزله الباشا وردّ عليه جميع مرتبات أخيه ، وكان رجلاً غلب[71] عليه الإعراض عمّا فيه النّاس ، فينسج القماش بيده فيقتات من كدّ يمينه ، وكان فقيهًا واعظًا محدّثًا خطيبًا مفتيًا رقيق القلب ، قلّما[72] خطب إلّا وبكى[73]. له معرفة بالسّير والأخبار وأحوال النّاس ، وأكثر انكبابه[74] على علوم الحديث ، فشرح مسلم بشرح مات وهو في مسودّته ، وبيض منه نسخة لسيدي علي باي إبن سيدي حسين – رحمه الله – وشرح عقيدة والده ، وجعل حاشية على موطّا إمامنا مالك – رحمه الله –[75].

وتوفّي أواخر شعبان سنة إحدى وثمانين ومائة وألف[76].

---

65) في ط : «وقد ثارت فتنة بتونس مع الباشا وابن أخيه».
66) ساقطة من بقية الأصول.
67) ساقطة من بقية الأصول.
68) مستوحاة من سورة الإسراء : 58.
69) بعد قليل من سنة 1747 م.
70) 1755 – 1756 م.
71) ساقطة من بقية الأصول.
72) في بقية الأصول : «كلما».
73) في ش : «بكا».
74) في ش وب : «اكبابه».
75) ساقطة من ش.
76) جانفي 1768 م.

ترجمة الشّيخ عبد السّلام الفُراتي :

فتولّى بعده ولده الشّيخ الحاج حمّودة ، فقام مقام والده في جميع مرتّباته شركة أبناء عمّه إلى أن انتقل بالطّاعون إلى رحمة الله تعالى سنة تسع وتسعين ومائة وألف[77] ، فاستقلّ بالخطبة والإمامة والتّدريس الشيخ سيدي عبد السّلام إبن الشّيخ الخطيب عبد العزيز وولي القضاء من قبل ذلك ، فكان إمامًا خطيبًا مدرّسًا قاضيًا ، وله رياضة ولين جانب وسياسة وتحمّل لجفاء الجفاة ، وإعراض عن اللغو وسقط[78] / الخصوم ، [222/أ] فلذا طالت مدّته في القضاء ، – وفّقنا الله وإياه[79] لما يحبّه ويرضاه ، وأجرى الصّالحات على يديه – .

وممّا جرى من الصّالحات على يديه مصلّى[80] الرَّبط فإنه[80] مضى عليه[80] سنون متطاولة معطّل عن إقامة الصّلاة بها إلى سنة سبع ومائتين وألف[81] وكان أوقف عليه المعلّم علي عباس صاحب إنشاء السّفن بعض رباع ، وجعل النّظر في ذلك لأعقابه[82] ، فاجتمع من غلال الوقف مال تخاصموا عليه وعطّلوا الصلاة بالمصلّى ، فانتبه له الشّيخ القاضي فرتّب له من يصلّي به وأحياه بعد دثوره أثابه الله على ذلك .

ترجمة الشّيخ محمّد بن المؤدّب الشَّرفي :

ومن أجلِّ أعيان فضلاء صفاقس وفقهائها الشّيخ الفاضل والهمام الكامل معدن العلوم وإكسيرها وكاشف أسرار الحقائق وتحريرها شيخ الطّريقة والحقيقة سيدي محمّد الشّرفي إبن المؤدّب – رحمه الله تعالى – وأعاد عليَّ وعلى المسلمين من بركاته وصالح دعواته .

كان – رحمه الله تعالى – رئيسًا في علوم الدّين من فقه ، وحديث ، وتفسير ، وقراءة ، وتوحيد ، وعربية بأنواعها ، وأصول فقه ، وسير ومغاز ، وغير ذلك .

تفقّه بصفاقس على الشّيخ النّوري والشّيخ الفراتي[83] ، ثمّ انتقل لبرّ المشرق فأخذ

---

77) 1785 م.

78) في ط : «شقص».

79) ساقطة من ط .

80) أنّث المؤلف الضّمائر العائدة عليه فصوّبناها.

81) 1792 – 1793 م.

82) في ط : «لبعض أعقابه».

83) هو عبد العزيز.

عمّن لقي من مشايخ الجامع الأزهر كالشّيخ العمدة الثقة المتقن المتفنّن الفهّامة الحيسوبي الفلكي صاحب الزيج المعروف ، نادرة وقته أبي العبّاس سيدي أحمد الشّرفي[84] الصّفاقسي نزيل مصر/ فأخذ عنه ما معه من علوم الرياضي ، وأتقن معرفة أعمال الأرباع [222/ب] الجيبية والمقنطرة ، وانفرد في صفاقس بتلك الصناعة ، فأخذها عنه[85] كثير من النّاس.

ولمّا ظهر فضله وصلاحه إبتنى له السُّلطان المرحوم برحمة الحيّ القيّوم سيدي حسين باي مدرسة بصفاقس قرب المسجد[86] الأعظم فكانت على قلبه – رحمه الله – ظاهرة النور ، يجد داخلها سرورًا وبهجة ، فرتّبه[87] بها وعمرت بطلبة العلم من أهل الوطن[88] وغيرهم ولمّا كما بناؤها أنشأ أبياتًا تشتمل على تاريخ بنائها فقال :

[الكامل]

سعد الزّمان وأشرقت أنواره ... وبدا[89] السّرور وهذه آثاره

بحسينٍ بن عليٍّ الباي[90] الّذي ... طابت بطيب فعاله أخباره

يا حبّذا للعلم مدرسةٌ بنى ... بصفاقسٍ فعلاً[91] بذاك مناره

فاقت[92] برونقها البديع وحسنها ... روضًا تضوع نوره وبهاره

في عام شوقك للبنا تاريخها[93] ... يا من سما بين الملوك فخاره

لا زلت أهلاً للفضائل والعُلا ... ما دام دهرٌ ليله ونهاره

---

84) أحمد بن محمد بن عبد السلام الشرفي الصفاقسي الأصل ، المصري المولد والقرار ، كان والده شيخًا على رواق المغاربة بالأزهر ، (ت. في 17 ربيع الأول سنة 1188/ 1774) أنظر شجرة النور 341 ، تاريخ الجبرتي : عجائب الآثار 470/1 ، دار الجيل ، بيروت 1978 ، ط. 2 ، معجم المؤلفين 119/2.

85) ساقطة من ط.

86) ما زالت قائمة وتحولت إلى مدرسة ابتدائية في السنوات الأولى من الاستعمار الفرنسي حوالي 1303 / 1886 ، وهي تمتد من وسط نهج العدول قرب رحبة الرماد إلى طرف نهج العدول قرب البطحاء القريبة من الجامع الكبير ، وبابها في هذه الجهة مزين بالمسامير الغليظة حسب تقاليد العصر التركي.

87) في ط : «فرتب».

88) يقصد صفاقس وعملها.

89) في ش وب : «وبدى».

90) في ط : «باي».

91) في ش وب وت : «فعلى».

92) في ط : «فافتر».

93) فــي عام شوقك للبنا تاريخًا

1000 6 100 20 1126.

والراجح أن هذا تاريخ الفراغ من بنائها والمستفاد من كلام الوزير السراج أن ابتداء تأسيسها كان في سنة 1712/1124 إذن فقد استغرق البناء نحو عامين. راجع الحلل السّندسيّة 230/3.

وقال أيضًا :

[البسيط]

لِلّــه درّك يــا فخر الملوك ومن غــدا بمهجتـــه للخير ملتمسا
أنشأت للعلم في ذا العصر مـدرسة تحيي بها من علوم الدّين ما اندرسا
حسينُ بن عليّ البـاي أسّسهـا من لم يزل لضيـاء المجد مُلْتَمِسَا
في عـام[94] خير ونَصْر أصلُ نشأتها أكرم بأصل بذاك[95] العام قد غرسا[96]

[223/أ] وكان – رحمه الله تعالى – جيّد النّظم والنّثر إلّا أنّ غالب نظمه في الجدّ / من مدح أهل الفضل من مشايخه ومشايخ عصره ، واستغاثات وقواعد فلكية وأدبية وغير ذلك.

وجرت بينه وبين شيخه الفراتي محاجَّة وأجوبة ، وامتدح الشّعراء ومدحوه فمن ذلك ما مَدَح به أبا دينار[97] شاعر تونس ذلك الوقت فقال :

[الوافر]

وقـائلـةٍ أرى الأيّام ولّت[98] وأعقب حسن[99] بهجتها الذُّبولُ
وأودى كـلّ ذي أدب ولبّ وساد[100] الغَمر فينا والجهول
فنـاداهـا الزّمان وقـال : كلاّ ضللتِ إذًا[101] ، وقد وضح السّبيل
ثكلتك ها أبـو دينار أضحى لـه بين الورى ذكر جميـل
لـه أدب يُحَيّر كـلّ لُبٍّ[102] ويـدهشه[103] إذا أنشأ يقول
لـه في مضمر[104] البُلغاء شأو بعيد ليس تدركه[105] الفحول
إذا ابتـدروا لنيـل المجد فيـه أبـا دينـار أنت لـه كفيـل

94) ساقطة من ط.
95) في ط : «ذاك».
96) الأبيات في المدرسة غير موجودة في الديوان.
97) هو المعروف بابن أبي دينار الرعيني القيرواني صاحب المؤنس.
98) كامل الصدر ساقط من ب.
99) ساقطة من ط.
100) في ط : «وسار».
101) الأحسن أن تكتب : «إذن» تفريقًا بينها وبين : «إذًا» كما هو رأي بعضهم.
102) في بقية الأصول : «لب».
103) في ط : «ويدهش».
104) في ط : «ضمير».
105) في ط : «يدركه».

فـإن طَلَعَتْ لهم فيـه نُجُومٌ   فشمسك فيـه ليس لها أُفُـول
لقد أصبحت في ذا العصر شمسًا   تضيء بك البصائر والعقـول
عليك تحيّـة مـا فـاح روض   وما مالت غصون أو تميل[106]

فلمّا بلغ أبا دينار ذلك أجابه بقوله :

[الوافر]

لمثلك مـا يقـال ولا مثيـل   أهذا[107] الفخر والعقل[108] الجميلُ
أيـا قمرًا تبـدّى في علاه[109]   لرائيه ، وليس لـه وصول[110]
ومن أحيـى وحيَّر في نظـام   علاه الفخر والفضل الجليـل
بعقـل تحسد العقلاء عنـه   ونقـل قـد تحيّر لـه العقـول
إذا الفصحا [قد][111] اشتهروا بقول   فـأنت القصد تعلم مـا تقـول
إليك تشد أزمّـات المطـايـا   ونحو[112] حِماك قد نزل الرّعيل / [223/ب]
وفي شرف المعالي أنت شمس   لنـاظرنـا تلوح ، ولا أفُـول !
بنو الشرفيّ إن فرضوا لمجد   فريضتهم بمجـدك قـد تعولُ
سقا قبر الذي أبقاك[113] فينا   من الرحمـات وابِلُها هَطُولُ
وأسقى فرعـه بـالجود حتى   يميـل لنـا وَعنّـا لا يميـل
متى نحظى بوصل واجتماع   ونهنا[114] فلا كتاب ولا رسول
وإن أمّت بنا حال وحالت   علمنا الودَّ منك[115] لا يزول
تعيش على الـدّوام بكلّ خير   لك التّوفيق والعمر الطّويـل
مودّة من مضى في النّاس ماتت   وأحيـاها لنا الحبر النّبيـل[116]

وقد فسح الله في مدّته حتّى ألحق الأبناء بالآباء ، وأخذ عنه خلائق لا يحصون ، فمن ذلك الشّيخ المفتي أبو العبّاس سيدي أحمد الشرفي ، ونجله سيدي حسن ، وأخذ عنه

(106) أنظر ديوان محمد الشرفي الصفاقسي ص 55 ، تونس 1979.
(107) في ط : «لهذا».
(108) في الديوان : «الفعل».
(109) في الديوان : «علاء».
(110) في ط : «أفول».
(111) إضافة من الديوان.
(112) في ط : «ونحوك».
(113) في الديوان : «خلاك».
(114) في بقية الأصول : «ونهنى».
(115) في الديوان : «منكم».
(116) أنظر ديوان محمد الشرفي ص 56.

أنجاله أيضًا وجميع من ذكر من تلاميذ سيدي أحمد النّوري ، وأمّا أهل الأوطان فلا يحصون كثرة ، ولقد أدركته – رحمه الله – وهو شيخ مسنّ أزهر اللّون ، حسن الوجه ، عليه جبّة خضراء ، وعمامة الفقهاء إلّا أنّها لطيفة ، وهو عاجز عن المشي إستقلالاً فيعتمد على العصا ، وقد يركب على حمار عند خروجه من داره للمدرسة ، فلا أدري أكان ذلك لكبر سنّه أو ليبس عرض في أعصاب رجليه.

توفّي – رحمه الله تعالى – سنة سبع وخمسين ومائة وألف لأربع عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة(117).

وبعد الفراغ من دفنه دخل النّاس للمدرسة وقرأوا عليه ختمًا ثمّ تكلّموا على من يتولّى المدرسة فاتّفقوا على إبنه أبي العبّاس الشّيخ سيدي أحمد / [224/أ] فجعلوا فيه وثيقة ، وشهد فيه أناس كثيرون بصلوحيته لذلك ، وكتبت الوثيقة ورفعت لقاضي الوقت ليطبع فيها فأبى ، قيل لرغبته في تولّيها ، فذهب الشّيخ سيدي أحمد بها لتونس من غير طبع(118) ودخل هو وشقيقه الشيخ سيدي طيّب على الباشا(119) وأخبراه بموت الشيخ والدهما وطلباه في توليتهما المدرسة (فولّى الشيخ)(120) سيدي طيب(121) لشهادة شيخه شيخنا أبي محمّد عبد الله السّوسي فيه ، فرجع سيدي أحمد وأقام بالمدرسة مقام أخيه ، وبقي الشيخ سيدي طيّب بتونس إلى أن قضى مآربه بها وختم كتبه التي ابتدأ قراءتها على مشايخه ، ثم قدم إلى صفاقس – حسبما يأتي إن شاء الله تعالى –.

ترجمة الشّيخ أحمد الشّرفي :

ومن أجلّ أعيان فضلاء صفاقس الشّيخ أبو العباس سيدي أحمد الشّرفي إبن الشيخ الخطيب المفتي أبي عبد الله محمد إبن الشيخ الخطيب المفتي حسن الشرفي.

كان – رحمه الله – من نوادر الزّمان ، أخذ عن الشّيخ سيدي محمّد إبن المؤدّب وتمكّن من علوم الدّين ، فكان إمامًا همامًا عمدة ثقة ، فاق أهل العصر في الفتاوي والأحكام والتّوثيق والفرائض والحساب واستحضار جزئيات الفقه ، فهو غصن تأصّل عن أصل أصيل (في ذلك)(122) فهو من بيت علم تمكن أصلاً وبسق غصنا ، عاش بعد أقرانه (من

117) 21 ديسمبر 1744 م.
118) في ط : «طابع».
119) علي باشا الأول.
120) ما بين القوسين ساقط من ط.
121) في ت : «الطيب».
122) ما بين القوسين ساقط من بقية الأصول.

فقهاء إفريقية)[123] فحاز الرئاسة فيمَا ذكر من أوصافه ، وسارت فتاويه وتوثيقاته في بلاد إفريقية ، ولا يفتي إلّا بمشهور المذهب ، فاعتمده النّاس / وقبلوا كلامه حتى في [224/ب] العاديات[124] لصحّة نظرة ودقّة فكره ، فاعتمدوه في أمر دينهم ومعاشهم.

وكان حسن الخلق والسّياسة والسّيرة ، يعود المرضى ويشيّع الجنائز ويهني[125] بالخير ويودّع المسافرين ويدعو لهم بالسّلامة ، ويقبل الشّكوى ، ويسعى كثيرًا في إصلاح ذات البين لجميع الخلق ، وقلّ من أدخله في حكومة وخالفه أو خرج عن إشارته لما يعلمون من نصحه للفريقين ، بعيد عن الميل والجور في الحكم ، يعفو عن المسيء ولا[126] يؤاخذ الجاهل ويعظه ، فأقبلت القلوب عليه ، وتوجّهت الرّغبات إليه ، وكان حسن الإعتقاد ، ملازمًا لدراسة دلائل الخيرات والنّظر في كتب الحديث ومناقب الصّالحين.

وقد حضر بين يديه ذات يوم خصمان فوقع بينهما لجاج[127] وخصام ، وكان بين يدي الشيخ الجامع الصغير للحافظ السيوطي ، فرفع أحد الخصمين يديه وضرب بهما على نسخة الجامع الصّغير وقال : إن وقع منّي كذا وكذا فلا أقوم من هنا إلّا على أشرّ الحالات ، أو ما[128] هذا معناه ، فما استتمّ كلامه حتّى صُرِعَ وغاب عقله واعوجّ فمه ، ورفع إلى داره فبقي كذلك أشهرًا[129] ، واستمرّ به كذلك[130] إلى الممات – عافانا الله من ذلك – فمن ذلك الوقت كثر خوف النّاس منه وصاروا يقولون للشّيخ : أعطنا الكتاب الذي حلف به فلان نحلف به فلم يجبهم لذلك.

وقد نُقِل أنّه لمّا كان صغيرًا أوان تعلّمه العلم دخل على الشّيخ الصّالح المجذوب سيدي محمّد عبَّاس[131] – نفعنا الله به – وهو بجنانه المجاور له ، فوجد / الشيخ عبّاس [225/أ] يشرب الدُّخان ، فلمّا وصل إليه ناوله الدّخان وأمره بشربه فأبى ذلك لما يرى في الظّاهر

(123) ما بين القوسين ساقط من ط.
(124) في ط : «القيادات» ، وفي ب : «الغاديات».
(125) في ط : «يمني».
(126) ساقطة من ط.
(127) في ط وب وت : «الجاج».
(128) في بقية الأصول : «وما».
(129) في ط : «شهرا».
(130) في بقية الأصول : «كذلك».
(131) في بقية الأصول : «محمد بن عباس».

من أنّه دخان فاجتنبه تورّعًا لما وقع فيه من اختلاف الأيمة ، فلمّا رجع إلى والده عَرَّفه بما وقع له مع الشّيخ ، وكان والده حسن الإعتقاد في أهل الخير سيمَا والشّيخ مجاور له مُطّلع على أحواله ، فقال له : يا بنيّ إذا ناولك مرّة أخرى فاقبل منه وافعل ما يأمرك به فلعلّ الله يفتح عليك ، (فإنّ الشّيخ يشربه دخانًا ظاهرًا)[132] والله أعلم بما يكون عليه في باطن الأمر لأنّ أحوال الأولياء تخفى على أهل الظّاهر ، فأثّر كلامه في قلبه تأثيرًا عظيمًا ميلاً للخير وطمعًا في العلوم الموهوبة من الله كما قال القائل :

[الهزج]

رأيت العلم علمين موهوبٍ ومكسُوب[133]
ولا ينفـــع مكسوب إذا لم يك موهوب
كما لا تنفع الشّمس[134] وضوء العين مسلوب

فلمّا اجتمع بالشّيخ عبّاس مرّة أخرى وناوله الدّخان إنتهز[135] الفرصة لما رأى على آلة الشرب أثر ريق الشّيخ فالتقمه بهمّة ونيّة صالحة عملاً بوصيّة والده ، فلمّا شرب قال له الشّيخ : زد ، فزاد ، ثمّ قال له : زد ، فزاد ، وكرّرها[136] ثلاثًا ، ثمّ قال : فيه بركة ، فقال الشّيخ : وفيه البركة وكرّرها ثلاثًا ، فمن ثمّ ظهرت منه ينابيع العلم بأمور خارقة للعادة فيمَا قصده ممّا هو بسبيله من علوم الفقه والأحكام والتّوثيق والفرائض وما يتبع ذلك من علوم الدّين حتّى فاق أهل العصر ممّن كَدَّ وتعب وكدح[137] أكثر منه أضعافًا مضاعفة ببركة الإعتقاد في الشّيخ.

[225/ب] / وكان – رحمه الله تعالى – امتحن بما امتحن به إخوانه الفقهاء – رحمة الله عليهم أجمعين – ، أشخصهم الباشا[138] – عفا[139] الله عنه – من أوطانهم ، وذلك أنّه

(132) في ط : «يشربه دخانا ظاهمًا».
(133) في بقية الأصول : «مكسوب وموهوب».
(134) في ب : «كما لا تنع عن الشمس» ، وفي ت : «كما لا تنفع عين الشمس» ، وفي ط : «كما لا تنفع عين الا».
(135) ساقطة من ط.
(136) في ط : «كررها الشيخ ثلاثًا».
(137) في ط : «كرع».
(138) علي باشا الأول.
(139) في ش : «عفى».

لمّا وقعت الفتنة بينه وبين سيدي حسين[140] – رحمه الله تعالى – واختلفت النّاس ، فسعى بعض أهل الشرّ من كلّ بلاد بفقهائهم[141] ، فأقاموا بتونس حتّى أطلق الله سراح من طال عمره ، ومن عجلت منيّته إنتقل لرحمة الله[142] ، ولمّا أشخص الشّيخ سيدي أحمد صاحب التّرجمة ظهرت فتاويه بتونس واشتهر فضله وتبيّنت نزاهته من كلّ سوء ، وبلغ ذلك للباشا فعفا[139] عنه وأذن له في الرّجوع لوطنه على ما كان عليه[143] من فتواه وسراحاته.

وكانت ولادته – رحمه الله – آخر المائة الحادية عشرة وأوّل الثّانية عشر[144] ، وتوفّي برمضان سنة خمس وتسعين ومائة وألف[145] وأنشد في تاريخه نجله الشّيخ أبو العبّاس سيدي أحمد قوله :

[مجزوء الرّجز]

هذا الضّريحُ قد حوى   جسمًا لعالم عظيمْ
مفتي الأنام المرتضى   أحمد ذو القلب السّليمْ
الشّرفي كان في   حياته غوثَ اليتيمْ
وقائمًا مجتهدًا   في طاعة الله الرَّحيمْ
وبات[146] لمّا أَنْ قضى   مجاور الرَّب الكريمْ
فقلت في تاريخه   سَيْرًا لجنَّةِ[147] النعيمْ

140) أي رئيس الدولة عم علي باشا.
141) في ط : «بفقهائها».
142) في ط : «إلى رحمة الله تعالى».
143) ساقطة من بقية الأصول.
144) 1689 م.
145) أوت سبتمبر 1781 م ، وفي ط : «سنة خمس وسبعين».
146) في بقية الأصول : «ومات».
147) في بقية الأصول : «سير».

ترجمة الشّيخ أبي محمّد حسن الشّرفي :

وأمّا ولده الشيخ أبو محمّد سيدي حسن الشرفي فكان(148) – رحمه الله تعالى – عمدة ثقة متفننًا متقنًا متمكّنًا من علوم العربية بأنواعها ، وعلوم الفقه وأحكامه ، والحساب والفرائض والقراءات والأصلين ، والحديث والتفسير ، والمغازي والسير ، وتخطيط البسايط والمنحرفات ، وغير ذلك من علوم الفلك والميقات ، / وبالجملة فهو(149) أقوى [226/أ] تركيبًا من والده إلّا أنّ الفضل للمتقدّم.

وبعدما تفقّه بصفاقس إرتحل إلى تونس في طلب العلم ، فأخذ عن شيخنا سيدي عبد الله السوسي ، والشيخ سيدي محمد الغرياني ، وشيخنا سيدي قاسم المحجوب ، والشيخ المكودي(150) وأخذ القراءات عن الشيخ السبعي المقري ، وأخذ إجازات المشايخ ، ورجع إلى صفاقس بما معه من العلوم ، فولّي خطبة الجامع الأعظم ، سنة خمس وستين ومائة وألف(151) ، فقام بوظيفة الجامع حقّ القيام من خطبة وصلاة وتدريس وتوقيت وغير ذلك ، ورتّب به عدّة مدرّسين وحلقات لقراءة القرآن العظيم سيمَا برمضان بعد صلاة التراويح إلى صلاة الصبح ، وبقي كذلك إلى سنة تسع وستين(152) – حسبما مرّت الإشارة إليه – ثمّ ولّي القضاء كرهًا عليه ، ولمّا أراد الأمير توليته إمتنع إمتناعًا كليًّا وقال له : يا سيدي لا أتولّى القضاء لأنه ليست وظيفة آبائي وأجدادي وإنّما وظيفتنا الفتوى والخطابة ، وكيف يكون أبي مفتيًا وأنا قاضيًا ، فقال له : إنّا نريد أن نجمع في داركم بين الفتوى والقضاء ، فامتنع ، فقال له : إن لم تقبل طوعًا تقبل كرهًا فقبل ثم طلب الخروج منه لصعوبة المقام وَهَوْله(153) لكثرة لجاج الخصوم وتلبيسهم.

ومن غريب ما اتّفق له في أيّام قضائه أنّه أجّل رجلاً في حقّ عليه لمّا ادّعى

---

148) في بقية الأصول : «فقد كان».

149) في ط : «فقد كان أقوى» ، وفي ب وت : «فقد أقوى».

150) أحمد بن الحسن بن محمد المعروف بالوَرّشان الملقّب بالمكودي من بيت المكودي بقابس ، الشريف الحسني المحدث المسند الراوية الفقيه نزيل تونس ، واعتمده أهلها وإليه مرجع أسانيدهم وولي بها الفتوى (ت. 1169 / 1755. أنظر تراجم المؤلفين التونسيين 368/4 – 369 ، فهرس الفهارس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 558/2 – 559.

151) 1752 م.

152) 1755 – 1756 م.

153) في ط : «ووعورته».

العسر ، فلمّا حلّ الأجل وطلب صاحب الحقّ حقّه وأحضر خصمه ، قال له الشيخ القاضي : قد انقضى أجلك فاقض الحقّ الذي عليك ، فإذا بالرجل الذي / عليه الحقّ [226/ب] إستلقى على الأرض كالميت ، وقال : أشهد أن لا إلاه إلّا الله وأنّ محمّدًا رسول الله ﷺ وقال : لمّا انقضى أجلي فما بقي لي غير النطق بالشّهادة مغالطًا للشّيخ في قوله بحمله على أبعد محامله ، وكان الرّجل صاحب قواعد في الكلام ، وكان البلاء موكلاً بالمنطق ، فلم تمض أيام يسيرة إلاّ وقد انقضى أجل حياته فمات ، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

ولمّا قدم الأمير للقيروان وجاءه النّاس من الأوطان على ما كان الأمراء عليه في سالف الزّمان جاء الشيخ القاضي مع جماعة أهل البلد متطلّبًا الخروج من القضاء ، فجعل لقدومه تاريخًا في بيتين مقتبسًا آية من القرآن وهما :

[الرمل]

الهنـــاءُ يـــا أميرَ المؤمنين[154] بقـــدوم لـــديـــار الصّالحين[155]

فـابشروا قـد جـاء في تـاريخكم ﴿أُدْخُلُوهَـــا بِسَلامٍ آمِنِين﴾[156]

وذلك سنة إثنتين وسبعين ومائة وألف[157] ، فسرّ الأمير بذلك وعجب به وأبى أن يقيله من القضاء فلم يزل بعد ذلك يردّد الطلب برفع اليد حتى آن الأوان وفرغ ما كتب له فطلب فأُسعف بمطلوبه ، ووِلّي منصب الفتوى مع أبيه ، فقام به حق القيام كقيام أبيه من قبل ، ولمّا مات والده انفرد بالفتوى ، ولم يزل كذلك إلى أن حضرته منيّته شهيدًا بالطّاعون سنة تسع وتسعين ومائة وألف[158].

وكان – رحمه الله – وجد ثلاثة أبيات لبعض الأدباء في استخراج المجهول وهي هذه :

[الطويل]

وهبت لـه ثلثًـا مـن العمر كـاملا وربعًـا وسدسًا ثمّ قام[159] فأعرضا / [227/أ]

فقـال : قليـل ، قلت عنـدي زيادة فزدت إليه نصف سُدْسٍ الذي مضى

فخلّـف لي عشريـن عـامًـا أَعِيشُها فكم كان أصل العمر إن كنت مفرضا؟

---

154) علي باشا الأول.

155) في الأصول : «بقدومكم إلى ديار».

156) سورة الحجر : 46.

157) 1758 – 1759 م.

158) 1785 م.

159) في ب : «قال».

هذا العمر مائة سنة وست سنين وثمانية أشهر، فلذا أجابه الشيخ القاضي ببيتين من البحر والقافية والضرب والعروض فقال:

[الطويل]

وهبت لـــه ستّين عـــامًـــا وثلثهـــا وستـــة أعوام وثلثين فـــارتضى[160]

ولـو كنت ذا حبّ سليم وصادق لكنت إليـــه في الجميـــع مفوِّضا

ترجمة الشّيخ أحمد بن محمّد الشَّرفي:

وأمّا أنجال الشّيخ سيدي محمد إبن المؤدب فأكبرهم الشّيخ أبو العباس سيدي أحمد الشرفي إبن المؤدّب كان – رحمه الله تعالى – عمدة ثقة، تفقّه بأبيه وأخذ عنه صناعة عمل الأرباع فكان فيه غاية، فهو ميقاتي، حيسوبي، فرضي، فقيه، متمكّن[161] من علوم العربية وعلوم الدّين.

ولّي القضاء سنة خمس وستين ومائة وألف[162]، فكان صادعًا بالحقّ لا تأخذه في الله لومة لائم[163]، ولصعوبة المقام والقيام بالحقّ وشدّة لجاج الخصوم[164] وكثرة أهل[165] الباطل طلب المعافاة من القضاء فلم يعف منه، فضاق بذلك ذرعًا، ودعا الله أن ييسّر خروجه من القضاء ولو بالموت، فاستجاب الله له فسافر لتونس سنة ثمان وستين ومائة وألف[166]، فأدركته منيّته عند شقيقه الشيخ عبد السّلام بالمدرسة المرادية، فأُتي به في تابوته لبلده، فدفن بإزاء أبيه.

وكان – رحمه الله تعالى – حسن الخلق والخلق، محبًّا للفقراء والقرّاء والأولياء والصالحين، ليّن الجانب في غاية، فلم تلقه إلّا ضاحكًا وكذا أخوته / كلّهم بهذا [227/ب] الخلق، طبيعة طبعهم الله عليها، وكلّهم عدول موثّقون يعتقدهم الناس ويحبّونهم.

وكانت وفاة أبي عبد الله سيدي محمد وسيدي عبد السلام سنة تسع وتسعين ومائة وألف[167]، شهيدين بالطاعون.

---

160) في الأصول: «فارتضا».

161) في ط: «فتمكن».

162) 1751 – 1752 م.

163) ساقطة من ط.

164) في بقية الأصول: «لجاج أهل الخصوم».

165) ساقطة من بقية الأصول.

166) 1754 – 1755 م.

167) 1785 م.

ترجمة الشّيخ طيّب الشَّرفي :

وأمّا الشّيخ[168] أبو الشذى[169] سيدي طيّب الشَّرفي فقد كان – رحمه الله – إمامًا في علوم الدين ، عمدة ، ثبتًا ، حجة ، متقنًا ، متفننًا ، أحد نوادر الزمان زُهْدًا وصلاحًا ، فاز من العلوم الأدبية بالقدح المعلّى من جميع أنواعها ، وأما الفقه والحديث والتفسير والقراءات والتجويد والأصول والتوحيد والفرائض والحساب فحدث عن البحر ولا حرج ، وأخذ من المنطق الحظ الأوفر ، والحاصل أنّه – رحمه الله – كان كاملاً في مشيخة السنة .

وكان في ذاته حسن الخَلْقِ والخُلُقِ ، والهيئة والسيرة ، حليمًا كريمًا محبّبًا عند النّاس ، نفّاعًا لخلق الله ببذل العلم لسائله ، موفقًا مدقِّقًا في تقريره ، وهو القائم بالمدرسة بعد أبيه .

وكانت رحلته لتونس فأخذ عن شيخنا سيدي عبد الله السُّوسي ، وشيخنا سيدي قاسم المحجوب ، (والشيخ الغرياني ، وأخذ التّجويد عن الشيخ)[170] السّبعي المقري في آخرين من مشايخ العصر بتونس .

وكان – رحمه الله – راغبًا عن المناصب كلّها ، فطلب أوّلاً هو والشّيخ سيدي حسن المفتي – المقدّم الذّكر – أن يكونا كاتبين عند الباشا – رحمه الله – وأرسل إليهما فذهبا إليه / فطلبهما في ذلك فامتنعا ، وطُلِبَ هو أيضًا أن يكون قاضيًا فامتنع ، فجعل [228/أ] أهل البلد فيه وثيقة أنّه يصلح بنا للقضاء وشهدوا فيها[171] أنّه لا يصلح إلّا هو ، وأرادوا توليته كرهًا عليه ، فقال لهم : إن أردتم خروجي من بينكم خرجت وولُّوا[172] من يصلح غيري بكم فكفوا عنه .

وكان في ابتداء أمره قد يتحمّل بعض الشهادات ثمّ ترك ذلك واقتصر على بثّ العلم ونشره ، ونصح الخلق وتعليمهم ، فاعتقده كافّة النّاس ، وأخذ عنه خلائق لا يحصون كثرة كالشيخ أبي العباس سيدي أحمد إبن الشيخ سيدي أحمد الشّرفي المفتي ، والشيخ أبي عبد الله محمد المغربي ، والشيخ أبي الحسن علي ذُوَيْب الشاعر ، والشيخ أبي عبد الله سيدي محمد الزَّوَاري أحد شيوخنا ، والشيخ أبي عبد الله محمد المَصْمودي

---

168) في ط : «أما أخوه» .

169) في الأصول : «الشذا» .

170) ما بين القوسين ساقط من ط .

171) ساقطة من ط .

172) في ط : «وأولو» .

القاضي، والشيخ الأديب الشاعر أبي إسحاق إبراهيم الخرَّاط، والشيخ أبي زيد سيدي عبد الرّحمان بَكّار، والشيخ أبي العباس أحمد المَصْمودي إبن الشيخ عبد الرّحمان، والشّيخ سيدي الحاج طاهر المحجوب، والشيخ علي البَقْلوطي، وكان عدلاً، والشيخ سيدي قاسم بن عاشور الجَمَّالي، والشيخ أبي عبد الله محمّد بن عاشور، والشّيخ فرج ابن عاشور، مع خلائق من قصور السّاف والوطن لا يحصون، وكذا شيخنا أبو عبد الله محمد الدَّرْنَاوي والشيخ أبي عبد الله محمد حَمْزَة، وأخذ عنه أيضًا نجلاه / [22/ب] وأبو زيد سيدي عبد الرحمان، وأبو عبد الله سيدي محمد الشرفي إبن الشيخ سيدي حسن المفتي — المقدّم الذّكر — فهؤلاء مشاهير أصحابه وأكثرهم لنشر العلم في حياته وبعد وفاته.

وممّا أنشده تلميذه أبو إسحاق سيدي إبراهيم الخَرَّاط — أبقى الله مهجته[173] — عند ختمه للشفاء للقاضي عياض بقصيدة وهي هذه:

[الطويل]

عليَّ بمن أهوى حديث الشِّفا قَصُّوا ... وعن شرح تِهْيَامِي[174] ووجدي به نصُّوا

حـديث غرامي في هـواه مسلسل ... ومرسل دمعي لا يقيّـده رَبْصُ

يصحّحُ يـأسي منـه فتكـةَ لحظـه ... كـأن لـه في كـلّ جـارحة شَقْصُ

كـأنَّ لـه ثانٍ[175] على كلِّ مهجة ... كـأنَّ لـه حقٌّ، كـأنَّ لـه نصٌّ

وَتطمعني فيـه زخـارفُ لفظِـه ... كأنَّ [له] على جَلْبِ القلوبِ له حِرْصُ

عَلِقْتُ به ريَّانَ من ما شَبَا بِـهِ ... وفي مهجتي مـن نَـارِ وَجْنَتِه لَقْصُ

أَسيـلُ المُحَيَّا يُخْجِلُ البـدرَ طـالعا ... وللشّمس منه وهي مشرقة رَهْصُ[176]

فلا عيب فيه غيرَ لُدْنِ[177] نوابـه ... وفي رِدْفِـه ثِقْـل تُبَاهِي به الدِّعْصُ

وفي رِيقِـه شَهْدُ وفي ثغره لَمًى[178] ... وفي لحظـه سِحْرُ وفي فَرْعِـه عَقْصُ

نَسيتُ ومـا أنسى عِتابًا على النَّوا ... وَرَنْجُه[179] مُضْغ ما[180] له بعدها رَبْصُ

وحُلْوُ حَـدِيث بـالعتاب مُرَدَّدٌ[181] ... عَفِيـفٌ فلا لثم يُريبُ ولا مَصٌّ

سَقَى وَرَعَى رَبْعَا ونَيْلاً[182] تشفِّيا ... مِنَ الوَصْلِ حَتَّى كان يفضحنا[183] القُرْصُ

173) في ت وب: «بهجته».
174) في ش: «تيهافي».
175) في ط وب: «ثأر».
176) كذا في ط وفي ش: «رعص».
177) في ط: «لون».
178) في ش: «سنى».
179) في ط: «ورنحه».
180) ساقطة من ط.
181) في ش: «فردده».
182) في ط: «وليلاً».
183) في ط: «يفصحنا».

طَرَقْتُ خِلاَلَ الحَيِّ خَطْوِي مُقَصِّرٌ ... وَلَفْظِي وَمَنْ أَهْوَى على سِرِّنا مَقْصُ
أصاحب[184] قَلْبًا لا يَـذِلُّ وصارمًا ... لهُ كُلَّمَا قد سُلَّ من غَمْدِهِ وَبْصُ[185]
أجوبُ به ديمومة تُذْعِرُ[186] القطا[187] ... فليس بها إِلَّا اليعافيرُ والدَّرْصُ[188]
أمانًا أمانًا أيُّها الفاتِكُ الَّذي ... على كلِّ قتْلَى لَحْظِهِ ما له نَكْصُ
/ بنا قد[189] سعت ناس فَصدِّقْ ظُنُونَهم ... كما زَعَمُوا أنِّي بوصلِكَ مُخْتَصُّ [229/أ]
فثغرك أنِّي لم أكن من جُناتِـه ... فما لك بـالهجران مني تقتصُّ
قطعت يدي منه[190] ولست بسارق ... لـدرّه فـاعلم إنما يُقْطَـعُ اللِّصُّ
سأوجـد عن حتفي بحبك محفـة ... وَهَا عند شيخي طَيِّبَ الشَّرْقِي النصُّ[191]
هو الطيّب ابن الطيّب الطاهر الذي ... غدا فوق فرق[192] الفَرْقَدَيْنِ له قَنْصُ
هو السيّـد المهتزّ صارمُ فكرِه ... لقرع العَوِيصات التي مـا لها نصُّ
تجاذب أيـدي فكره كـلَّ شاردٍ ... عن الذهن حتى يستبين[193] له لحص[194]
وجيز فصيح ماهر شمس[195] محضر ... على درسه كـلّ البريـة تنتصُّ
تراهمْ لـدَيـه من إفـادتِـهِ لَهُم ... حروف سطورٍ في الطُّروس قد التصُّ[وا]
كما الهيمُ[196] حَوْلَ الورد ذاتُ ازْدِحامٍ أو ... لَوَاحِظِ عُشَّاقٍ على الحُسْنِ تَكْتَصُّ
أسَيِّدَنَـا يـا منبعَ العلمِ والتُّقَى ... أَثَرْتَ منار العِلْم فهو بكم يُخَصُّ
قَدُمْ أيُّها الحِبْرُ السَّنِيّ السّوَرَ[197] ذا[198] ... فخـار وبـالعليـاء والفضل تَخْتَصُّ
فمهما بدت من[199] حاسد لك[200] لفتة ... تَبَدَّى[201] لنا في جيده عند ذا[202] وَقْصُ
ولو في بَنَانِ[203] الدَّهر كلُّ كريمةٍ ... بدت خَاتَمًا[204] ضاءت فأنت لها فَصُّ

---

184) في ط : «أصاب».
185) في ط : «رقص».
186) في ش : «تذعن».
187) في ط : «القضا».
188) في ط : «الروص».
189) في ت : «بنادق».
190) في ط : «مني».
191) في ط : «نص».
192) ساقطة من ط وت.
193) في ط وت : «يتبين».
194) في ت : «الحص».
195) ساقطة من ط ، وفي ت : «شر».
196) في ط : «البهم» ، وفي ت : «اليم».
197) في ط : «البري» ، وفي ت : «البر».
198) في ت : «أخا».
199) ساقطة من ت.
200) في ت : «إلى».
201) في ط : «تبدو».
202) في ت : «عندنا».
203) في ط : «نفاق».
204) في ط : «ختما».

ولو أن شمس الأُفق باهت بنورها دَرَارِي السَّمَا ودَّت لَوَانت لها قِرْصُ
أمولاي دم فخرًا وعزًا[205] وسُؤْدَدًا فأنت الذي عن كلّ مجد له[206] حِرْصُ
بختم الشفا هنيت فَلْتَبْدُ سَانِحًا[207] ذُيول عُلاً منها عليك غَدَتْ قُمْصُ
فيا لك من حِبْرٍ كَشَفْتَ نِكاتَهُ لَنَا فغدا في كلِّ علمٍ لنا شنصُ[208]
جزاك جزاء الله عنا بفضله نَعيمًا بفردوسٍ لولدانه قفصُ
خَدَمْتُ بمدحي رَوْضَ مجدك مذ[209] رأيـت عن خدمة العلم الشريف لك الفحصُ
فإنّك يا فخرَ الوَرَى بحرُ سُؤْدَدٍ لِفِكْرِيَ فيه عن لآلي الثنا غَوْصُ/ [229/ب]
فَدُرُّ مديحي فيك منه التقطتُه[210] وما كان إلاّ النضد[211] لي فيه والوصُ
ولو كان في وسعي جذبت النّجوم كي أُحلّي بها مدحي لكم وَلَهَا رَقْصُ
فها بنتُ[212] فكري غادَةٌ قَدْ تَوَشَّحَتْ بدرِّ ثَنَاءٍ لم يُحْصِه العَدُّ والخِرْصُ
فخُذها عروسًا مهرها صالح الدعـاء منكَ وشَرْطي لا يُلاحظها خَصُّ
عليك سلامُ اللّـه ما هبّتِ الصَّبَا بِرَوْضٍ وغَنَّى[213] فيه وُرْقٌ له كَصُّ
وصلّ وسلّم يا إلاهي على النبـيء والآل[214] والأصحاب بالفضل قد خُصُّوا

ولم يزل مرضي السّيرة طيّب السّريرة إلى أن حضرته الوفاة شهيدًا مبطونًا يوم ثلاثة عشر خلت من رجب الحرام سنة ثمان وتسعين ومائة وألف[215] فقرأ ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[216] وأوصى أن يصلّي عليه تلميذه الشيخ سيدي أحمد بن سيدي أحمد بن حسن لما اعتقد فيه من الصلاح والفضل، وكان ذلك إشارة والله أعلم إلى توليته مشيخة المدرسة فكان ذلك، ثمّ تشهد شهادة الحقّ، وفارق الدّنيا - رحمه الله تعالى - وخرج خلف جنازته خلق ملأ الفضاء، ورثاه تلميذه الشّيخ علي ذويب بمرثية طويلة قرأها عند سرير نعشه قبل الصلاة عليه وهي هذه:

205) في ط وت: «عزا وفخرًا».
206) في ت: «لها».
207) في ط: «أساحب»، وفي ت: «ساحب».
208) في ط وت: «سنص».
209) في ط وت: «قد».
210) في ط وت: «التعضمه».
211) في ت: «النظر».
212) في ط: «نبت».
213) في ط: «وعنا».
214) في ت: «وآله».
215) 5 ماي 1783 م.
216) سورة الفجر: 27 - 28 - 29 - 30.

[الكامل]

رَيب[217] المَنونِ من البريّة دانِ[218] ... وَرَدَاه لم يُظْهِرْه[219] منـهُ يَـدَانِ
عَجبًا[220] لهُ أردَى ولم يَكُ[221] ذا يَدٍ ... ومهنّـدٍ صَمْصَامَـةٍ وَسِنَـانِ
لم يَثْنِـهِ عن حُكمـه الجاري على ... غَيْرِ المُراد من الخليفـةِ[222] ثَـانِ
بـاللّـه عـاتبـه على وَثَبـاتِـهِ ... وَثَبـاتِـه[223] فيـها الفظيعُ الجَانِ / [230/أ]
أرأيتَ كيف دَهَى فهال فهاج[224] في ... كـلِّ القُلوبِ فَوَادِحَ الأحزانِ
ولمحت بَدْرًا[225] كيف سار مشيعا ... في الجوّ بـالأملاك للرّحمـان
والنّـاس طرًّا حولـه ودموعهم ... فـاضت على الوجنـات والأذقـانِ
مَا لِي أرى الأجفانَ غَيْرَ قَريحَةٍ ... والـدّمـع منهـا غيرُ أحمرَ قـانِ
وعَلام فارق لعننا[226] دارًا[227] غدت ... مثوى النكـاد وطارق[228] الحدثانِ
ليست بـدار للقرار ولا لِمَـا ... تَرْجُوه من أمن ونَيْـلِ أمـانِ
كم نَغَّصَت[229] عيشًا وكم قد فَرَّقَت ... بين امرئٍ وأليفـهِ المتـدانِ
وكم اعْتَدَت[230] وَبَدَت مُخادعة لِمَن ... قـد أعجبتـه ولا خِدَاعَ رَوَانِ[231]
تَنْمُو فجـائعُهـا وتـأتي بغتَـةً ... كالصِّلِّ[232] يكمن في الزهور لِجانِ[233]
أَبْناؤها[234] أحنت[235] عليهم فاغتدوا ... صرعى بخـاليـة من السّكّـانِ
وَيْـلَ امرئٍ تُلفيـه مغرورًا بها ... متلهّفًـا[236] بوبـالها الفتّـانِ
وتراه مسرورًا بمن هـو شائـدٌ ... لقصوره فيهـا ومن هُوَ بـانِ

---

217) هذه المرثية موجودة في تقريرات الشيخ علي ذويب على حاشية الشيخ يوسف الحفناوي على الأشموني. مخطوط تابع لمكتبة الشيخ علي النوري، انتقل إلى متحف العادات والتقاليد الشعبية بصفاقس ومنه إلى المكتبة الوطنية بتونس وهو مسجل تحت رقم 20175 (مكتبة الشيخ علي النوري) والقصيدة هنا وهناك تختلف بعض الشيء في تقديم الأبيات وتأخيرها، وزيادة ونقصان.

218) في ط : «دن»، وفي ت : «دنى».

219) في ت : «يظهر».

220) في ت : «عجب».

221) في ط وت : «يكن».

222) في التقريرات : «الخليقة».

223) في ط : «وثبانه».

224) كذا في ط، ساقطة من ت، وفي ش : «ففاج».

225) في الأصول : «يدبل» وفي التقريرات : «يذبل».

226) في ت وط : «لعشا».

227) في ت وط : «ذار».

228) في ت وط : «وطاق».

229) في ت وط : «نقصت».

230) في التقريرات : «اعتدت».

231) في التقريرات : «زوان».

232) في ت : «كالضل».

233) في ط : «يجان».

234) في ط : «انباؤها».

235) في التقريرات : «أخنت».

236) في التقريرات : «متلهيًا».

أَبْغِضْ بها من مُسْتَقَرِّ نوائبٍ ومحلِّ أكدارٍ ودار هَوَانِ
أَينَ الوصيُّ مدينةُ العلمِ الرِّضَى والشَّيخُ ذو النُّورين والشَّيخانِ
والأصبحيُّ الفَرْدُ مُفْتِي طِيبَةٍ وعليهما[237] المُثْنِي على النُّعْمانِ
وأخو المكارم نجلُ إدريسَ الَّذِي قد سار للفُسْطاط من بَغْدَانِ
والمهتدي الصوفي مَفْخَرُ[238] حنبلٍ والسَّيدُ الحَنَفي والأَخَوانِ[239]
وبنو[240] الحُسينِ الأتقياءُ أُولُو الهُدَى والشيخُ عبدُ القاهر الجرجانِ[241]
والأشْعريّ الشيخُ والقاضي أبو بكرٍ وسعدُ الدِّين والعُمْرانِ
والسّيدُ السَّنَدُ الفصيحُ لسانُه والمرتضى عَمْرُوٌ أبو عُثْمانِ
[2/ب] وأبو المعالي والإمامُ وجعفرٌ والزاهدُ القَرَنِيُّ[242] والحَسَنانِ[243] /
والسادة الأشراف من ملكوا الدُّنَا وَحَوَوْا مُنَاهم من بني[244] مَرْوانِ[245]
أَيُرى[246] التَّسلِّي بالَّذين ذكرتُهم عن شيخنا في حيِّزِ[247] الإِمْكانِ
لا والَّذي أَهْدَى لمن حَمَلُوا له ذاكَ السريرَ موفَّرَ الغُفرانِ[248]
وأفاضَ – جلَّ – على الأُلَى مَعْهُ مَشَوْا[249] ما راق من عفو ومن رِضْوانِ[250]

---

237) في التقريرات : «وعليها».
238) في ط : «معجز».
239) كامل هذا البيت غير موجود في التقريرات.
240) في ت : «وبني».
241) في ط : «الجرجاني».
242) في ط : «القرن».
243) في ت : «وحسان».
244) ساقطة من التقريرات.
245) بعدها في التقريرات هذا البيت :
«كل مضى فكأنه لم يبد في ذي الدار حينًا مأمن الأحيان»
246) كذا في التقريرات وفي الأصول : «أبدى».
247) في ت و ط : «خير».
248) في التقريرات :
لا والذي أهدى لحامل نعشه ومشيعيه موفر الغفران.
249) في ت و ط : «معشو».
250) في التقريرات :
«وأراه في دار الخلود قصوره وحباه ما قد رام من رضوان
وحلائلا من حورها قالت له أهلاً بهذا العلم الربان»

إن حَلَّ ذا الشيخ الجنانَ فكلُّنا[251] يمسي لأَشْقَى[252] الحَرْقِ في[253] نيرانِ[254]
نحن الذين ننوح[255] من فقدانه نَوْحَ الحمامِ على قَضِيبِ البان
ونُبِينُ شجوًا[256] مُجْرِيًا فوق الثرا دمعًا يُرَى متواصل الفَيضانِ[257]
بلدي صفاقس قد بدت لَبَّاسَة ثوب الحِداد[258] بذلك الفِقْدانِ
مرّت مفاخرُ مجدِها ولطالما زَهِيَت به وجَلَتْ على بُلدانِ[259]
مَا لِي أرى سكَّانَها لم يُسْلَبُوا[260] أَلْبَابُهُم وَيُرَوْا ذَوِي هَذَيانِ[261]
يا أيّها الموتُ الذي بهجومه تُبْدِي النُّفُوسُ نوًى عن[262] الأبدانِ
هلاّ تركتَ أبا الشّذا أُستاذَنا الفهّامةَ العلاَّمةَ الصَّمَدانِ
شيخُ المشايخِ طيّبٌ من فضله ذكراهُ طيّبةٌ بكلّ مكانِ
الخَيِّرُ الشرفيُّ والهادي الذي ما إنْ له بين البرية[263] ثانِ[264]
المُهْتَدَى لعقائدٍ أثْنى على تحريرهنّ تَقَدَّسَ الديانِ[265]
خلت الديار من المعارف مذ خلت[266] من ربِّها النقّالةُ المِعْوانِ[267]

---

251) في ت وط : «فكأنما».
252) في ت وط : «الأسقى».
253) في ت : «من».
254) في التقريرات :

أضحى لديها في الجنان وكلنا أمسى لأشقى الحزن في نيران

255) في ط : «نتحوح».
256) في ت وط : «شبرا».
257) في التقريرات :

«نبين عليه فضيعة وبكى يرى متواصل الفيضان»

258) في ت وط : «المراد».
259) في التقريرات : «حلوان» وبعده بيت ساقط :

«كم من بكى في القطر فاض عليه من انسانة ناحت ومن انسان».

260) في ط : «يلبسوا».
261) ساقطة من التقريرات.
262) في ت وط : «على».
263) في التقريرات : «الخلائق».
264) في التقريرات : «شاني».
265) كذا في التقريرات وفي الأصول : «الدفان».
266) في ط : «قد حلت».
267) في ط : «المعدان».

الطَّاهِرِ الآبـاء والآرابِ والأحـلام والإخـوان والخِـلاَّنِ
والأثوب البيضُ الَّتي هبَّ الشَّذا منهـا على الأذيـال والأَرْدانِ
بِبَيَـانِ مَنْطِقِـهِ البـديـع ونَحْوِه ذُكِرَ الفتى البصريّ والشيخـانِ
وبفقهـه الكرديُّ أصبح صيتـه مستخرجًـا من ربقـة النِّسيـانِ
[231/أ] قـد شاذ مـذهب مـالك وأبـانـه بعـد انـدراس رائق البنيـانِ /
ودَرَى معارِفَ بعد[268] عشرٍ قد مضت من سِنِّـهِ لم يـدرهـا الشَّيْخـانِ
أبْـدَى وجوهًـا للحـديث بـديعـة خفيت عـن العَيْنِـيِّ والكَرْمـانِ
وأبان[269] حفظًا فائقًا[270] ذا فطنة هزأت بفطنـة أحمـد الهَمَـدَانِ
حِبْرٌ تَرَحَّـل غيرَ معتوب[271] ولا متصنِّـع أشِرٍ ولا منَّـانِ
ومضى أَبَرَّ مُهَـذَّبٍ فهم أخـا غَلَبٍ[272] إلى أسنى التُّقى حنَّـانِ
ومضى لطيفًـا طَبعُـه ذا هِمَّـة شادَت لـه للفخرِ خير مِنـانِ[273]
أحيـى بمُبْـدِعِ نَحْوِه وبَثِّـهِ فيمَنْ تَطَلَّبَـهُ أبـا حَيَّـانِ
وأتى بمختـار الخُلاَصَةِ منـه في دَرْسٍ أنـار مفـاخر الحَيَّـانِ[274]
وألاح منطقُـهُ البـديـعُ بَيَـانُـه نَقْدًا لِمَا انْتَخَبُوه في[275] الميزانِ[276]
لَهفِـي عليـه أغرّ أفْضلَ سَيِّدٍ[277] ذِي سُؤْدَدٍ مَنْ دونِـهِ النَّسْرانِ
نَـدْبٌ بـديعٌ[278] رثـائه فَرَض على كُـلِّ امرئٍ للشّعر[279] غَيْرُ مُعَـانِ
حسَّان أَشْعـارٍ تُسرُّ وطـالما سرت فُنُونُ الشعرِ من حسَّانِ
لَهْفِي على ذا الشَّيخ طيِّبِ الرضا الـ ـشَّرفي فخر أفـاضلِ الأزْمـانِ
طابَ الثَّناءُ عليه ذا[280] حُسْنٍ به في خَجْلَـةٍ كمْ قـد بدى الغَمْرانِ
كم مستفيـد ذَادَ عنـهُ ضلاَلَـةً بهُدى حِجاه السَّاطِعِ البُرْهانِ[281]

---

268) في التقريرات : «وقائق عند».

269) في الأصول : «وبان».

270) في التقريرات : «رائقًا».

271) كذا في التقريرات وفي ط : «معتو»، وفي ش وت : «معتوى».

272) في التقريرات : «قلب».

273) في التقريرات : «ميان».

274) في التقريرات : «الجياني».

275) في الأصول : «من».

276) في التقريرات : «نقدا لما انتخبوا من الميزان».

277) في ت وط : «سيدي».

278) في التقريرات : «أبر».

279) في التقريرات : «للنظم».

280) في ط : «عدا».

281) هذا البيت ساقط من التقريرات.

ومقرّه[282] في خَتْمِه[283] أبدى[284] لهُ … مَدْحًا على رَغْمِ الحَسُودِ العانِ[285]
كُتُبُ البَيـانِ قـد اعْتَرَتْهـا كُرْبَـةٌ … بمُضيّه المهمي[286] بُكـا الأجفـانِ
وبكتْ بُكَـا الثّكلى عليه وقد بدَت … في بُردة المُتَغَرّب الحيرانِ
النُّصْحُ والإنصافُ قـد ذَهَبَـا معًـا … بـذهابه المُـذْكي لَظَى الأشجانِ
والفقـهُ والتّحريرُ مَعْـهُ تَرَحَّلاَ … للرمس في طيّ من[287] الأكفانِ
واهًـا لأكفـانٍ قـد اشتملت على … بحر تلاطم أو على لبنـانِ / [231/ب]
لَهْفِي على من كـان أعلَمَ عـالم … بـدلائـل الإعجـاز للقرآنِ
هـادٍ لأسرار البلاغـة مغرم … بنهـايـة الإعجـاز[288] والإتقـانِ
صَبٌّ بتلخيص المعـاني مُولَـعٌ … بمقـاصدِ الإيضاح والتّبيـانِ
لَهْفي على[289] من[290] علمه انتفعت به … أهـل الذّكاء الكاملو[291] الإيمانِ
لَهْفي على مَعْشوق محرابٍ بـه … فُضِعَ الأسى لِحَسُودَهِ الشّيطـانِ
لَهْفي على عفّ الضّمير[292] المُرْتَدَى … بـالفضل والعـاري من النّقصانِ
لَهْفي على فَهْم مـدائحُ عِلْمـه … أَزْرَتْ بنظْم قلائـد العقيـانِ
لَهْفي على فطن أغرّ مُوَفَّق … ذِي مَسْطَرٍ مُسْتَحْسَنٍ ولِسانِ
لَهْفي على نقـاد ألفـاظٌ حَوَتْ … غرر البـدائـع صَيْرَفِيّ مَعَـانِ
لَهْفي على حِبْرٍ لـه لم يَبْـدُ في … أسنى الفضائـل والفواضل ثـانِ
علمُ البلاغـة والعقـائـدِ طـالما … أبـداه عـذب[293] مواردٍ وَمجانِ
هو ثالثُ الشّيخين في الفَنَّيْنِ بل … هـو خيرُ أعلام الوَرَى الأعيـانِ
حُسِدَ السما والأرضُ[294] منذ مشت بها … منـه وأبـدى طيبَهَـا القَـدَمـانِ
فكأنـه من عـالم[295] الأملاك لا … من عـالَمٍ يُعْزَى إلى الإنسانِ
بـدُروسِه المُثْنَى على تـدْقيقهـا … وبِوِرْدِه كَمْ أَشْرَقَ الملوانِ

282) في ط : «ومغرض».
283) في ط : «ختمها».
284) في ط : «بدى».
285) كامل البيت ساقط من التقريرات.
286) في ط : «المهير».
287) ساقطة من ت.
288) في ت وط والتقريرات : «الإيجاز».
289) في ش : «عن».
290) ساقطة من ت.
291) في التقريرات : «الكاملي».
292) في ت وط : «الضهير».
293) في ت : «عذبا».
294) في التقريرات : «السماء الأرض».
295) كذا في التقريرات وفي الأصول : «علم».

قد ناح من فقدانه الإسلامُ مَعْ … أبنائه بالمَدْمَع الهَتَّانِ
وبكت[296] زهور[297] علومه وعفافه … ووفاؤُهُ المُقْصَى عن[298] التِّبْيانِ[299]
وَرَثْتُه[300] تحقيقاتهُ الغُرُّ الَّتي … كانت به تُعْطى بديع بيانِ
وتتيهُ بالقلم الذي أجراه[301] في … أدراجه منه جَليلُ[302] بَيَانِ[303]
صادت صُقُورُ فُهُومه ما عنهُ قد … عَجَزَت مخالبُ فطنة العُقْبانِ[304]
[أ/232] قد كان حصنًا للشريعة[305] شامخًا … صعب الذُّرى[306] مُتَمَنِّع[307] الأركانِ /
قد[308] كان سلوَة كلّ ثَكْلان أخا[309] … لَفْظٌ تُبَيِّنُ عُقْلَة العَجْلانِ
كمْ سُرَّتِ العلياءُ منه بفاضِلٍ … من بكا كلّ نزاهة ريّانِ[310]
سحَبَت فصاحته ذهول فهامة … ومديد نسيان على سَحْبانِ
قد كان مِفْتاح العلوم براحتي … لُبّ له متكامِلُ الرُّجْحانِ[311]
ومطالع الأنوار كم قد أشْرَقَت … في درسه النَّفَّاعِ ذِي[312] الإحسانِ
ما الأَرْمَويُّ حكاهُ قِدْمًا في الحِجا … وذكائه المُسْتَحْسَنِ الحَسَّانِ[313]
قَدْ كان[314] نورُ ذَكائِه يبدو إلى … أهلُ النُّهى في الدَّرس ذا لَمَعانِ
قد كان هذا الشيخُ طيّبًا أخا[315] … تَقْوَى مُنَزَّهَةٍ عن الخِذْلانِ
حِبْرًا[316] أفاد العالمين مَعَارِفًا … حسَّانَةً بتلطُّفٍ وَبَيانِ[317]
وأجاب لمَّا أن دعاه الإلهُه … لِجنان دارِ الخُلْد والحَيَوانِ
وَمَضى حميدًا لِلنَّعيم مُخَلَّدًا … جَمَّ العَفاف كما مَضى العُمْرانِ[318]

---

296) في التقريرات: «وبكاه».
297) في التقريرات والأصول: «زهر».
298) في ت وط: «على».
299) في التقريرات: «ووفاؤه النائي عن الكيسان».
300) في ط: «ورثه».
301) في ت وط: «أجره».
302) في ت وط: «خليل».
303) في التقريرات: «بنان».
304) في التقريرات: «عقباني».
305) في التقريرات: «للديانة».
306) في ت وط: «الدوي».
307) في ت: «ممتنع».
308) في ش: «وقد».
309) في التقريرات: «وذا».
310) كامل البيت ساقط من التقريرات.
311) في ش: «الرحجان».
312) في ط وت: «البقاع ذو».
313) في ط: «والحسان».
314) في التقريرات: «كاد».
315) في ت: «مع».
316) في التقريرات: «حبر».
317) في التقريرات: «ليان».
318) بعده في التقريرات: «لو زاره الموتى كساهم في ألبان اكفاه مكرم الضيفان».

نَوْحُ الأَنــــام على الموفّق طَيِّبٌ ... مستحسَنٌ كبـديـعِ شدوِ قِنــانِ
مــا الصّبرُ محمودٌ عليــه وربّمــا ... يُهجَى امرُؤٌ يَشْقَى بــه ويُعــانِ
كـلُّ امرئٍ مـنْ أهْـلِ خِلّتِـهِ لَهُ ... طَرْفَـانِ في بَحْرِ البُكـا غَرْقــانِ
غَسَلا بـدَمْعِهِمَـا الرُّقَـاد وَغَـادَرا ... في الأرض سيّـالاً من الغُـدرانِ
كَمْ مَنْ بَكى[319] في القُطْرِ فَاضَ عليه من ... إنسانــه[320] نــاحت ومن إنسانِ
يـا ذا الّـذي هو بـالمُضِيّ لربّـه ... وبـــذكره مِنّـــا بعيــدٌ دانِ
أنُرى نِيامًا بعد فَقْـدِكَ في دُجى ... لَيْـــلٍ بمتّقـد الأسى[321] يَقْظَــانِ
فُقِدَتْ عُلومُ القُطْرِ منذ فُقِدْتَ في ... هـــذا الزمـــان الغـــادر الخوّانِ
القطرُ أظلمَ إذْ مَحَى عَنْــهُ سَنـا ... عِلْمٍ .رَحيلُكَ عنـــه للحَنّـــانِ
وتشرّدت عنـــه المفـــاخر كلُّهـــا ... وبـــدت عليـــه كـآبـة الثّكلانِ / [232/ب]
من للدّروس[322] الغُرّ[323] بعدك في حِمًى ... قـــد كــان ذا فخرٍ على جُرْجَـانِ
وعلى الـدّيار لمِصْرَ طُرًّا تـائِهًا[324] ... متهكّمًـــا بفخـــار تَفْتَــازانِ
لم يبق للتّحقيق[325] بعـدك مُعْتَنٍ ... في سائر الأقطـــار والبُلــــدانِ
من خيرِ أعلام البريّـــة أنت في ... ذي الـــدّار دار الغم آخرُ فــانِ
رَيّا مـدائح دينكَ الموفور[326] قد ... هبّت نَسائِمُهـــا[327] على الأكـوانِ
كم طـالِبٍ لمعـارفٍ أبْـدى بُكَـا ... جَمًّـــا عليك وسَيّءَ الأحزانِ[328]
ويتيمـــةً شقّت عليكَ جُيُوبَهـــا ... جَزَعًـــا كـأرملـة من الجيزانِ[329]

---

(319) في ت : «بكاء».

(320) في ط وت : «أسنانه» ، وفي التقريرات : «ألف بساعة» ، وبسأ بالشيء : أنس به.

(321) في ت : «الأسمى».

(322) في ت : «من الدروس».

(323) في التقريرات : «الزهر».

(324) في ط وت : «طرتائها».

(325) في ط : «للحقيق» ، وفي التقريرات : «بالتحقيق».

(326) في ط : «أطوفور».

(327) في ط وت : «سنائمها».

(328) كامل البيت ساقط من التقريرات.

(329) كامل البيت ساقط من التقريرات.

يَهْنِيك أنَّك غير مسؤول(330) بـذا ... ك(331) المشي من اسهالك الزّيّانِ(332)
فيـه تيقّنـا سَعـادَتك الّتي ... حيّت تَشَهّـدَكَ العظيم الشانِ
كَمد(333) الحَسُودُ به وكلّ مذَبْذَب ... غُمْرٌ ردي أصلـه قَرْنَـانِ(334)
أنت السّعيـدُ على الحقيقـة والّـذي ... أرضعت للتقوى أجـلَّ لِبَـانِ
أنت الشّهيـدُ وأنت خيرُ مبرإٍ ... من كـلّ مـا يـدعو إلى الشّنآنِ
قَـدْ كُنْتَ للعُلَمـاءِ سُلْطَـانًا لَـهُ ... فَضْلٌ دَرَاهُ كـلِّ ذي سُلطَـانِ
أجرى عليك الطرف دَمْعًا(335) كاد أن ... يبدو بهدى(336) الدّار ذا طوفانِ(337)
سأقـول للقـوم الألي(338) بـاحثهم ... بمبـاحث زُهْرُ الوجوه حِسانِ
أَجْروا الـدِّماء على المحاجرِ واتْرُكـوا ... مـاء الشؤونِ(339) لغير هـذا الشانِ
نُبذت(340) مفاتحُ جنّة الخُلدِ الّتي ... تـاقت لزَوْرَتكم إلى رِضْوانِ
يبـدو أمـامك فـاتحًـا أبْوابَهـا ... ويُريك أسنى الحُور والوِلْـدانِ
فتكونَ بيْنَهُمُ أجَـلَّ مُنَعَّمٍ ... طَرِبٍ وخيرَ مُخَلَّـدٍ جَـذْلانِ
تَسْعَى عليك من الرحيقِ المشتهى ... ومَعِينهـا الوُلْـدَانِ بـالكيسانِ
نِلْتَ الرّضى المُهدَى إليك كَمَالُهُ ... مِنّـا مُوَفَّرَةً من المنّـانِ
[233/أ] يَهْنِيك في تلك القصور تَنَعّم ... قـد حُزتـه في رَحمـة الرَّحمـانِ /
فـارقت دَهْرَكَ شاكيًـا أفعـالـه ... وبنيـهِ(341) أهـلَ الزّيـغ والكُفرانِ
وقَـدِمْتَ مسرورًا على مولاك ذا ... دينٍ كـدينِ حبيبِـه العَـدْنَـانِ
دام البُكَـاءُ عليك من أهل الهُدى ... في كـلِّ منزلـةٍ وكـلّ مكـانِ
لَوْ أَنْصَفُوكَ بدوا أَسِيلَ(342) مَآتم ... كمـآتم ريت(343) من السنوانِ
من كُـلِّ لاطِمـة لوردٍ نـاظرٍ ... شَمّـاء غيرَ مُهـانَـةٍ وعَوانِ
ومُبِينَـة جَزَعًـا شديـدًا مُبْعِـدًا ... عنهـا(344) نفيس للحلي حصانِ

330) في ت : «مسؤل».
331) في ت : «بذا».
332) في التقريرات : «الربان».
333) في ت : «كمدا».
334) في التقريرات : «باد الحسادة والعداوة عان».
335) ساقطة من ش.
336) في ت : «بهذا».
337) في الأصول : «طرفان».
338) في ت : «الملي».
339) في ت : «ما الشوق» ، وفي ش : «ما الشؤن».
340) في ط وت : «تبدت».
341) في ط : «نبيه».
342) في التقريرات : «أهيلا».
343) في ط : «ريث».
344) في التقريرات : «عنه».

أَبَـا الشَّذا المسرور في دار البَقَـا ... بـأَوَانِسٍ حُور العيون[345] غَوانِ

أَبْقَيْتَ فينـا خَيِّرَيْنِ حِجـاهُمـا ... وذَكَـاهُمـا الوقّـاد نقّـادانِ[346]

كـلٌّ يُرى بعفـافِـه ورشادِه[347] ... فخرُ الأحبـة زينـةُ الأقرانِ

سَيَحُـلُّ في تلك المَجَالِسِ عالِمًا ... بمقـاصد التفكير والإمْعَـانِ[348]

ألفـاظُـه المسرورُ سَامِعُهـا ترى ... كالزهرِ مَنْثُورًا[349] بِرَوْضِ جَنَانِ[350]

يُـدْعى الكبيرُ وضدُّهُ بين الوَرَى ... بمحمّـد وبعـابـدِ الرَّحمـانِ

بهما عن الذكرى لفَضْل أبيهما ... قـد تَغْتَـدِي يـومًا أولي سَلْوانِ

غَمِّي عليك أبا الشّذا[351] أظهرت ما[352] ... ظهر الصَّبـاح لمن لـه عينـانِ

إني لأضْعَفُهـا وإن أصبحت ذا ... كَمَـدٍ عليك بـه الرّقـاد جَفـانِ

وأبينُ من دمعي سوابِقَ تغتـدِي ... تَجْرِي لبعض الأرض في مَيْدانِ[353]

يبكي عليك محمّدٌ في تونس[354] ... ويُرى رَعَـاهُ الله ذا هيمانِ

أيّ امرئ من بعد فَقْدِكَ لا يُرى ... في بُرْدَة المتحيّر الولْهـانِ

إن التّلامـذة الألي علّمتهم ... سُلبوا النُّهى فَبَدَوا ذوى هَذَيانِ

يَجِبُ البُكَاءُ عليك يا شمسَ الهُدى ... أبـدًا على النسوان والـذُّكْرانِ

رحِمِ الإلَـهُ لكُم كريمَ حُشاشَةٍ ... ما جال فيها الهم[355] بالعصيان / [233/ب

---

345) في الأصول : «حور العين» ، وفي التقريرات : «زهر العيون».

346) في التقريرات :

«أبقيت فينا صينًا سيحل في ... مثوى الدروس لكم بغير توان».

347) في التقريرات : «أعني أبا عبد الله محمدًا».

348) في التقريرات :

«مستحسن الإدراك محمود الحجا ... في رائق التحقيق ذا الامعان».

349) في ط : «منشور».

350) بعدها في التقريرات :

«وحياؤه كم سر أرباب الهدى ... ورأوه خير طبيعة الإنسان».

351) في ط : «أبا الشد».

352) في الأصول : «ظهرت كما».

353) في التقريرات :

«وأنبت من دمع سوابق قد جرت ... من بعض ظهر الأرض في ميدان».

354) في التقريرات : «يبكي عليك وقد حوته تونس».

355) ساقطة من الأصول والمثبت من التقريرات.

وَسَقَى الغَمامُ ثَرًى يَحِلُّ ببطنه فيه لكم مُتَقَدَّسُ الجُثْمانِ
ما ناحت الثُّكْلى وحَوْلَقَ مُوجَعٌ وتَناوحت ريحٌ على الأَفْنانِ[356]
ورأى الورى شأنَ امرئٍ برثائِكُمْ يعلو وأبكى نائِحَ الوِرْشانِ.

وتولّى مشيخة المدرسة بعده نجلاه المتقدّما الذكر، ثم انتقلا لرحمة الله تعالى شهيدين بالطاعون سنة تسع وتسعين ومائة وألف[357].

ترجمة الشّيخ أحمد بن أحمد الشّرفي:

فتولّى مشيختها بعدهما الشيخ الإمام الهمام العمدة الثقة الثبت الحجّة أبو العباس سيدي أحمد ابن سيدي أحمد الشرفي المفتي المقدّم الذكر، نال من العلوم الدينية الحظ الأوفر عربية بأنواعها وفقهًا وحديثًا وتفسيرًا وأصولاً وتوحيدًا وقراءةً وتجويدًا وحسابًا وفرائض وميقاتًا، وحاز سياسة أبيه وسيرته الحسنة بل فوق ذلك، وفاق أهل العصر في الفتاوى والأحكام والتّوثيق، ومع ذلك فهو متحمّل للأذى، صفوح عن الزّلاّت، حاز رئاسة بلده لقيامه بنوازلهم ومعضلات وقائعهم، وله زيادة اشتغال بالعلم، فيعلم بالمدرسة والجامع الأعظم.

تفقّه وأخذ العلم عن شيخه الشيخ سيدي طيب وشقيقه الشيخ سيدي حسن المذكورين أولاً وغيرهما ببلده، ثم ارتحل لتونس سنة سبع وستين ومائة وألف[358]، وأقام بها سبع سنين، فأخذ عن الشيخ أبي عبد الله سيدي محمد الغرياني، وشيخنا سيدي عبد الله السوسي، وشيخنا سيدي محمد الشحمي، وشيخنا سيدي قاسم المحجوب، ومن في تلك الطبقة من علماء تونس / [234/أ] وعن الشيخ أبي عبد الله سيدي محمد الهدة السوسي حين إقامته بتونس، وأخذ القراءات والتجويد عن الشيخ سيدي حمودة إدريس التونسي، وله شرح على أبيات نظمها شيخه المذكور في توجيه أوجه الآن (بسورة يونس إذ ركبت مع «آمنت به» على قراءة الإمام نافع من رواية ورش من طريق الأزرق[359]

356) كذا في التقريرات وفي الأصول: «الأفقان».
357) 1785 م.
358) 1754 م.
359) وجعل لذلك جدولاً.

سَمَّاه تحفة الاخوان[360] في توجيه أوجه الآن)[361] فأفاد فيه وأجاد ، وبيّن توجيهها على غاية المراد مستشهدًا على ذلك بكلام حرز الأماني للشاطبي ، وبيّن من أين تؤخذ تلك الأوجه منه ، وبحث فيه مع صاحب غيث النفع للشيخ النُّوري – رحمه الله تعالى – وأرسله إلى شيخه المذكور فأجازه فيه بكلام نثر ونظم ، وأطلع عليه غيره من علماء[362] الفن فأجازوه كذلك ، وله بعض كتابة وتقريرات على شرحي الشيخ عبد الباقي والشيخ الخرشي على مختصر العلامة سيدي خليل وعلى كفاية الطالب على الرّسالة وغير ذلك .

وجرت بينه وبين الشيخ عبد السلام المسدي الشهير بالأزهري سؤالات وأجوبة نحوية نظمًا ونثرًا .

وقد ينظم الشعر قليلاً فمن نظمه قوله :

[المتقارب]

إِلاهي سألتك بالمصطفى ... شفيع الخلائق يَوْمَ المَعاد
لتَغْفِرَ ذَنْبِي وتَسْتُرَنِي ... ولا تَفْضَحَنِّي يَوْمَ التَّناد
فأنت الحليمُ وأنتَ الرَّحيمُ ... وأنت الغفورُ لذنب العِباد

وله غير ذلك في هذه المعنى[363] ، ولم يزل قائمًا بالعلم حق القيام أعانه الله على ما أولاه وأمد في عمره وأجرى الصَّالحات على يديه / وسدّد نظره ووفّقه للحق وأعانه [234/ب] عليه[364] .

ترجمة الشّيخ أبي عبد الله محمّد بن حسن الشّرفي :

ولم يعقب أخوه الشيخ سيدي حسن من الذكور إلّا نجله الأسعد أبا عبد الله الشيخ سيدي محمد ، فبعدما أخذ عن الشيخ سيدي طيّب وعمّه الشيخ سيدي أحمد وغيرهما من فقهاء بلده انتقل إلى تونس فأخذ عن فقهائها ، وأخذ عنا شرح رسالة إستعارات

360) توجد منها نسخة بالمكتبة الوطنية بتونس ، وأصلها من مكتبة العدل محمد شيخ روحه ، وهي رسالة صغيرة في تسع ورقات من القطع الكبير والتقاريظ في خمس ورقات.

361) ما بين القوسين ساقط من بقية الأصول.

362) هم رفقاؤه في الدراسة كأحمد بن أحمد الشقانصي القيرواني ، ومحمد السنان ، وأحمد بن منصور.

363) وفي أغراض أخرى.

364) وكانت وفاته في سنة 1814/1229 ، أنظر تراجم المؤلفين التونسيين 167/3.

السَّمرقندي لشيخنا أبي العباس سيدي أحمد الدمنهوري – رحمه الله تعالى – فسأل وأجاد واستفاد ، وله إجازة من شيخه أبي عبد الله سيدي محمد الغرياني بن علي بعد ملازمته له مدة وأراد الرجوع إلى بلده ، كما أجازه غيره نظمًا ونثرًا كما سأل هو نظمًا ، ثمّ رجع إلى وطنه بما ناله من علوم الدين ، فحاز منصب أبيه علمًا وفهمًا وفتوى ، فهو نسخة من أبيه وما كان من فضائله فهو فيه ، وفّقه الله للصّواب والصّالحات ، وأعانه على ما هو قائم به من الطاعات .

وله عدّة دروس بمقام الشّيخ أبي يحيى الضابط والمدرسة[365] وغير ذلك ، نفع الله به المسترشدين .

ترجمة الشّيخ محمّد المغربي :

وقد أسلفنا من تفقّه على الشيخ سيدي طيّب وأن منهم الشيخ أبا عبد الله الحاج الأبر سيدي محمد المغربي ، أصله من خنقة سيدي ناجي[366] ذهب أولاً لمصر وتفقّه بها ، ثمّ رجع إلى صفاقس فلازم الشيخ في مدرسته سنين كثيرة ، وأخذ[367] عنه الشيخ عبد الباقي[368] على العزية في صغر السن بعد الفراغ من تَعَلُّمِ القرآن ، فحصل لنا به النفع ، ثمّ إنّه إنتقل لمدينة القيروان فأقام بها ونشر العلم ونفع / المسترشدين بها وقبلوه وأكرموا نزله ، وتفقّه به خلق كثير ، وتوفي بها – رحمه الله تعالى – . [235/أ]

ترجمة الشّيخ علي ذويب :

ومن أجلّ من أخذ عنه ممّن تقدَّم الأديب الأريب الشيخ أبو الحسن علي ذويب أحد شعراء صفاقس المتأخرين ، وله قصائد ومقطعات لا تحصى ولا تعدّ كثرة إلّا أنّه غلب عليه الهجاء ، فاستهجنه النّاس لذلك حتّى رموه عن قوس واحدة ، وكان مغرمًا بعلوم الأدب ، حتّى كأنّه لا يعرف إلّا هو مع أنّ له حظًّا وافرًا من المنطق والكلام وعلوم

---

365) الحسينية .

366) بالجزائر .

367) في بقية الأصول : «أخذ» .

368) هو الزرقاني .

البلاغة. وكانت له قوّة تعلّق بعلوم الأوائل كالطبّ والأغاني وغير ذلك، ومن شعره ما أرسل به إليَّ مستعيرًا لكتاب «شرح الصحائف»[369]، لمؤلّفها ملك الحكماء ورئيس العلماء أفضل[370] المتأخّرين شمس المِلّة والدّين محمّد الحسيني السمرقندي[371] – رحمه الله تعالى – في علوم الكمال فقال:

[الطويل]

أيا ذا الّذي أضحى طِرازَ المعارف ... وأعطى إلى التّدقيق أَوْفى العَوَارِفِ

وشُوهِدَ مُغْرًى بالرَّشاد ومُغْرمًا ... يَبُثُّ دروسًا تحت ذيلِ السَّدائِفِ[372]

ويا مَنْ غدا ذا سُؤْدَدٍ حَسُنَت به ... مدائحُ قد وافته من كلِّ واصِفِ

ومَن ذكرُهُ للقلب مني مُطرِبٌ[373] ... كما يُطرِبُ النّشوانَ عَزفُ المعازفِ

ومَن رُمْتُ صَفْوَ الوُدِّ منه منزَّهًا ... عن الدَّخَلِ الخافي وبعضِ الزخارفِ

ومنْ لم يَزَلْ يُبْدي غريبَ مباحثٍ ... لتحقيق علمٍ من تليدٍ وطارفِ

ومن دام ممدوحَ البديهةِ لابسًا ... من الكَرَم الموفورِ أَبْهى المطارفِ

ومن صار أُستاذًا يُقَرُّ لفضلِهِ ... أولو أدب أَمْسَوْا أجلَّ الغَطارِفِ[374]

أعِرْني ما اشْتاق الفؤادُ لقُربِهِ ... وذاك – رعاك الله – شَرْحُ الصَّحائفِ

/ كتابٌ به أمحو حنينًا موفَّرًا ... بنفسي إلى إحراز شَرْحِ المواقفِ [235/ب]

بهمَّتِك العلياءِ أصبحت جامعًا ... لكلِّ كتاب مُنْتَهى كلِّ عارفِ

لقد حُزْتَ كُتُبًا لم يَحُزْها سواك من ... أفاضل كانت من سُراةِ[375] الخَلائفِ

فلا زلت محمودًا لدى النّاس ملجأ ... لكلّ امرئ من طارقِ الجَهْلِ خائِفِ

ولا بَرِحَت آياتُ فَهْمِكَ للنُّهى ... تسرّ بمَا تُهْدي لها من لَطائِفِ

عليك سلام الله ما ذَرَّ شارِقٌ ... وأطرَبَ في الرَّوْحاءِ[376] شذو الهواتفِ

---

369) الصحائف اللامية.

370) كذا في كل النسخ ولعلها: «الأفاضل».

371) محمد بن أشرف الحسيني السمرقندي، شمس الدين، عالم بالمنطق والفلك والهندسة وغير ذلك (ت. في حدود سنة 1203/600) معجم المؤلفين 63/9، المستدرك على معجم المؤلفين ص 603.

372) في بقية الأصول: «السرائف».

373) في ش: «يطرب».

374) في ط: «الغطارب»، وفي ب: «العطارف».

375) في ط: «من حسرات».

376) في ش: «الدوحاء».

وتفقّه أيضًا[377] بصفاقس على شيخنا أبي الحسن سيدي علي الأومي وعنه تمكّن في علوم العروض أوّلاً ثمّ رحل لتونس فأخذ عمّن لقيه وامتدح الأمراء بها وبغيرها وأجازوه على ذلك ، وكان قليل الحظ لم يستقم له حال ، وصُرِفَ من بلده لمصر بسبب امتداحه لبعض الناس وذمّ من لا يستحقّ الذّمّ ، ثمّ تلطّف والده وسعى في رجوعه ولم يزل على ذلك حتّى أدركته منيّته بالطاعون سنة تسع وتسعين ومائة وألف[378] بصفاقس.

ترجمة الشّيخ محمّد الزّواري :

وأمّا شيخنا أبو عبد الله سيدي محمد الزواري فكان – رحمه الله تعالى – مكفوف البصر ، ومع ذلك فهو ملازم لتعليم العلم وتعلّمه إلى وفاته ، وأخذ أيضًا عن شيخنا الأومي وشيخنا أبي عصيدة وغيرهم.

وكان فقيهًا عابدًا ملازمًا لتلاوة الكتاب العزيز ليلاً ونهارًا ، فلا تراه إلّا متعلّمًا أو معلّمًا أو تاليًا للقرآن العظيم ، وما زال كذلك إلى أن توفّي – رحمه الله – بمرض الإستسقاء سنة نيف وسبعين ومائة وألف[379].

ترجمة الشّيخ أبي عبد الله محمّد المصمودي :

[236/أ] وأمّا الشّيخ أبو عبد الله محمد المصمودي القاضي ، فإنّه كان أوّلاً معلّمًا للأطفال / ثمّ اشتغل بالعلم.

وكان فقيهًا نحويًا متكلّمًا عروضيًا نظم قليلاً ، ذا عفّة وصلابة في الحقّ.

تولّى القضاء أوّلاً وصُرِف عنه عن غير موجب ثم أعيد للقضاء وصُرِف لضعف بصره.

وتفقّه أيضًا بشيخنا الأومي وغيره ، ولم يخرج من بلده واستشهد بالطّاعون سنة تسع وتسعين ومائة وألف[380].

---

377) ساقطة من بقية الأصول.

378) 1785 م. أنظر تراجم المؤلفين التونسيين 2/323 – 326.

379) بعد سنة 1757 بقليل.

380) 1785 م.

وأمّا شيخنا أبو عبد الله سيدي محمد الدَّرْناوي ، فكان – رحمه الله – إنتقل أوّلاً لمصر ، فأخذ عن الشّيخ إبراهيم شعيب التّونسي وغيره ، ثمّ قدم لصفاقس فأقام بالمدرسة ملازمًا لصحبة الشّيخ سيدي طيّب الشّرفي ، ثمّ انتقل لتونس وصحب الشيخ أبا عبد الله محمد الشَّحْمي ، وتزوّج بها ، وتولّى مدَرِّسًا بجامع الزيتونة ، وانتقل لمذهب أبي حنيفة بعد أن كان مالكيًا ، وتولّى مشيخة المدرسة المرادية ، وكان مكفوف البصر ، ثمّ رجع لدرنة[381] وطنه وبها كانت وفاته .

ترجمة الشّيخ عبد الرّحمان بكّار:

وأمّا الشيخ أبو زيد السيد الحسيب النسيب الشّريف سيدي عبد الرّحمان بكّار فقد أخذ عن الشيخ سيدي طيّب[382] وشيخنا الأومي ، ثمّ انتقل بعدما تمكّن من مذهب مالك وغيره من علوم الدين معقولاً ومنقولاً إلى القسطنطينية[383] فتفقّه على فقهائها بمذهب أبي حنيفة ثمّ انتقل إلى مصر فاجتمع بعلماء المغرب والمشرق وأخذ علوم الفريقين وخلاصة المذهبين ، فصار عمدة محقّقًا ثبتًا مدقّقًا متفنّنًا ، أديبًا شاعرًا مجيدًا فصيحًا بليغًا ، ذو حظ وافر من المنطق والأصلين ، فقيه ، محدّث ، مفسّر ، أما العربية بأنواعها فهو إمامها ، عارف بأيّام النّاس والسّير/ والمغازي ، حسن السّياسة والأدب ، وساعة [236/ب] التاريخ هو شيخ رواق المغاربة بالجامع الأزهر[384] .

وله عدّة تآليف وشعره شائع ذائع معروف في غاية الجودة والبلاغة ، إمتدح النّاس مغربًا ومشرقًا ، وأجيز على ذلك الجوائز الوافرة ، وهو ممّن جاور الجامع الأزهر لأخذ العلم وتعليمه للمسلمين لا شغل له سوى ذلك ، أعانه الله على ما أولاه وبلّغه من الدارين ما يتمنّاه[385] .

---

381) بطبرق في ليبيا.

382) الشرفي.

383) ودخل كرسي مملكة الروم فأكرم وانسلخ عن هيئة المغاربة ، ولبس ملابس المشارقة مثل التاج والفراجة وغيرهما وأثرى : تاريخ الجبرتي 169/2 – 170.

384) بعد وفاة الشيخ عبد الرحمان البناني (نسبة إلى بنان من قرى المنستير) نفس المرجع.

385) مات بالقاهرة سنة 1794/1209 – 1795 : أنظر تاريخ الجبرتي 169/2 – 170 ، دار الجيل بيروت 1978 ، (ط . 2).

ترجمة الشّيخ إبراهيم الخرّاط :

وأمّا الشّيخ أبو إسحاق سيدي إبراهيم الخرّاط ، فهو من أجلّ فقهاء صفاقس وشعرائها المجيدين ، أخذ العلوم عن الشيخ سيدي طيّب الشّرفي ، وشيخنا أبي الحسن سيدي علي الأومي ، وشيخنا أبي عبد الله محمد الفُراتي ، إبن علي ، وغيرهم من فقهاء بلده ، فغرى من صغره بعلوم الأدب ، وبرع في علوم البلاغة ، والعروض ، فبلغ أقصى الرّتب ، وارتفع بذلك صيته على شعراء زمانه خصوصًا وقد انقرض الشّعراء بالطّاعون ، وبقي بعدهم على أنّهم لو بقوا ما نقص مقامه عمّا هو فيه من علوّ المقام ، غير أنّه لا يخلو من نكبات الزّمان على جاري عادة الله تعالى في الأدباء ليكون مكفّرًا لسيّئاتهم فضلاً من الله ونعمة ، إمتدح الأمراء غربًا وشرقًا ، ونال منهم على ذلك العطايا الجزيلة ، وله لطافة وسياسة زائدة تروّض[386] كلّ صعب من الأمراء فضلاً عمّن دونهم.

وكان والده – رحمه الله – الشيخ أبو العباس أحمد الخرّاط من مقدّمي البلد[387] وأستاذيها ، وكانت له سياسة حسنة ولطافة ومروءة ، حمّالاً لأذى الجُفاة ، صفوحًا عن عوارض الزّلاّت ، ومع ذلك فلم يسلم من أذى الحسدة والأعداء / [237/أ] فسعوا به إلى الأمير بتونس سيدي علي باي إبن سيدي حسين باي – رحم الله جميعهم – فأمر بسجنه فاشتدّ به الحال وضاقت به الحيل ، فاتّفق أن مولاي علي إبن مولاي محمّد إبن مولاي إسماعيل قدم من الغرب لقابس متوجّهًا لحجّ بيت الله الحرام ، فتلقّاه الشيخ أبو إسحاق سيدي إبراهيم الخرّاط بقابس وامتدحه بقصيدة بليغة مستشفعًا به إلى السّلطان بتونس ، فقبله مولاي علي المذكور ، وفرح به وأكرم نزله وكتب له كتابًا إلى السّلطان بتونس مستشفعًا في الشيخ أبي العبّاس المقدّم ، فأخذ الشيخ أبو إسحاق الكتاب وذهب به إلى تونس فقبله السلطان وقبل الشفاعة ، وحسن خلاص الشيخ أبي العباس من محنته ببركة ولده.

وله قصائد ومقطعات كثيرة جمعها بنفسه في ديوان ، فمن غرر قصائده القصيدة المشار إليها قوله[388] :

---

386) في الأصول : «تريض».

387) في الأصول : «بلاد».

388) في بقية الأصول : «وهذا نصّها».

[الطويل]

إذا رمتَ إدْراكَ العُلا فاسلُك الصّعْبا | وبالنَّفْسِ خاطر للخطير ودع رَهْبَا
وزر رَبْعَ من تهوى ولو كان نائِيًا | على أيّ حال فيه كُنْ هائمًا صَبًّا
ألم تَرَنِي مَلّكْتُ للحبِّ مُهجتي | ولم يعطني مثقال وُدٍّ ولا حُبًّا
لِيَ الله كم خاطرتُ في سُبُلِ الهَوَى | بنفس تَعاف الوِرْدَ إن لم يكن صعبًا
فني دَرَكِ الآمال أَسْتَقْصِرُ الخُطى | وفي موقف الأهوالِ أستصغر الخَطْبَا
يلينُ بما في مهجتي الصخر(389) من جَوًى | ويَذْبُلُ ممَّا حلّ بي يَذْبُلُ رَهْبَا
وما لانَ قاسي القلب يومًا ولا صفَا | كنقش الصفا إسماعه مني العتبَا
له(390) نقرات(391) حين(392) أشكو ولَفْتَةٌ | تُحيّر لُبِّي فانظروا الظَّبْيَ والضَّبّا
ترجَّجُ أطماعي بباسم ثَغْرِه | فصحَّح يأسي كَسْرُ مقلتِه الغَضْبَا / [237/ب]
فيا مانعي وردًا بلَحْظي غَرَسْتَه | وَوِرْدًا شَهِيًّا(393) من لَمَاه احتمى عذبا
إذا كان عذبُ الثَّغْر بالدّرّ يُشترى | فخذ فيه من أَجْفَانِيَ الؤلؤَ الرَّطبَا
بعُدْنا وما يُنْسي البِعاد لأنَّني | أحمّل أشواقي النسيمَ إذا هبَّا
تعلّلني الذكرى فأغدو معاتبًا | عليلَ نسيمِ الرَّوض يسعى لكم حَبًّا
ومن عجبي أني بخدّك قد أرى | على الجمر نَمْلاً(394) من عِذارِك قد دبَّا
حرام بأن ألقاك مُؤْتَمَنَ الحَشَا | وألحاظُك المرضى ترى الفتك بي نَدْبَا
فكَمْ لِي إذ(395) تَسْطو بها من وسائل | وسائلُ دَمْعِي ما رَحَمْتَ له سَكْبَا
وحقّك لولا الحبّ(396) لم يَنْدَ مدمعي | ولو سامني دهري النَّوائِبَ والخَطْبَا
ولو فاض لي غَرْبُ الدّموع بأسرِهِ | تخلّصت بالمولى الَّذي ملكَ الغَرْبَا
أبي الحسن المولَى علي بن مالك الـ | ـمَغَارِب مولانا محمدُ قد شبَّا
هو الأسدُ الحامي هو الغيثُ(397) إذ همَى | هو المعقل السامي هو المُرْتَقَى الرُّتْبَا
مليكٌ إذا ما شَنَّ(398) في الحيّ غارة | سباهم ولا شدّوا حزامًا ولا حقبَا

---

389) في ت وط : «للضجر».
390) في ط : «به».
391) في ش : «نقرات».
392) في ش : «حتى».
393) في ط : «شميمًا».
394) في ت وط : «نحلا».
395) في ت وط : «إذا».
396) في زهر الربيع : «لولا أنت».
397) في ت وط : «إذا».
398) في ش : «إذا شن».

وأنزلهم بالسّبي عن خَيْلِهم وعن نَجائِبَ[399] صاروا يُؤْمَرُونَ لها حَلْبًا
مليكٌ إذا ما سار فوق بَسيطَة رأيت لديه البَسْط والأمن والخَصْبَا
يعطر أنداء إذا ماس عِطْفُه ويُرهِبُ أعداء إذا اقتحم الحربَا
له رتبة[400] فوق السِّماكَيْنِ قد سمت وسلطنة داست بوطأتها الشُّهْبَا
تَقَاصَر عنها للذّراع ذراعه وجاوزت الجوزا وروَّعت القلبا
إذا ما جرى في مَجلِسٍ ذِكرُهُ[401] هَمَتْ سحائبُ واستَسْقت[402] به البقعةَ الجَدْبا
أمولاي يا من في العلا حاز رتبةً أبت منه إلّا أن يدوسَ بها القُطْبَا
لعمرِي أَصَبْتَ الرّأي حيثُ توجَّهَتْ ركابُكَ للبيت الحرام الذي تحبى

[238/أ]

وقد سرت من فاسٍ إليه بعسكر أراك إذا ما سرتَ فيه زها عُجْبًا /
ذعرت قلوب الطّيرِ والوحشِ والمَها بسيرك في أرض بكُم مُلِئت رُكْبَا
كان الذي في مثلها قال واصفًا رآك بها لمَّا قَطَعت لها حَدْبًا[403]
تَصُدُّ الرّياحَ الهُوج[404] عنها مخافةً ويَفزع فيها الطَّيرُ أن يَلْقطَ الحَبَّا
طِلابُكَ للأمواه في القَفْر والفَلا يَوَدُّ[405] بعَزْم الحَزْم لو فتَّشَ السُّحبَا
ودَوْسُك بالخيل الصَّوافِنِ[406] بنَتّها يلينُ حمى مَرْعى كُلَيْبٍ له جنبا
(فَسِرْ حيثًا قد[407] شئت ملْكًا مُعظَّمًا فإنك حزب الله أكرم به حزبا
ودم كعبة الآمال والأمن للورى فأنت الّذي اخضرّت به السَّنَةُ الشُّهبا)[408]
وأنت الذي فيه يردّد منشد غدا سائرًا شوقًا وداعي الندا لبّى
إذا لم تُبلّغني إليكم رَكائِبِي فَلاَ وَرِدَت ماء ولا رَعَتِ العُشْبَا

---

399) في ط : «بجاية».
400) في ت : «رتب».
401) في ت : «ذكر».
402) في ت : «واستقت».
403) هذا البيت ساقط من ت وط.
404) في ت وط : «الهودج».
405) في ت : «يعود».
406) في ت : «الصوفن».
407) ساقطة من ش.
408) ما بين القوسين في زهر الربيع :
«فسر حيثًا قد شئت ملكًا معظمًا فأنت الذي أخضرت به القعة الجدبا».

بجاهك إنّي مستجيرٌ ولائـــذ على أنّني مولايَ[409] لم أقترف ذنبا
ولكن أرى قومًا عليَّ تغلّبوا وَفِيٌّ إلى الباشا عليّ وَشَوْا كِذْبَا
غِياثَكَ لي إذ عنك دَلَّتْنِيَ الورى وقالوا بمَلْك الغرب لُذْ تأمنِ العَطْبَا
فجئت ولا واللّــه غيرَك قاصدًا تَشَفَّعُ لِي فالنّصر من نحوكم هبَّا
ومن نَبَّهت أصواتـــه عُمْرَ نُيَّمٍ ومن تَحْمِهِ يومًا كُلَيْبٌ وقِي الرُّهْبَا
فصدِّق ظنون النـاس فيكَ فإنهم رأوني فقالوا حصَّلَ الحَرَمَ الرَّحْبَا
وفز بثواب الحجّ والمدح والثنـــا فيا لك من ملك قضى الفرض والندبا
فلا زلت محروس الجناب[410] مُمَلَّكًا ولا زلت فَرَّاجًا عن الوَجِلِ الكَرْبَا
وصلِّ على طـه الشفيـع محمـد وسلّم وزد مولاي آلـه والصَّحْبَا

وصورة الكتاب الذي استشفع فيه هذا لفظه : المحبّ الأسمى[411] والأعز الأحمى[412] الأمير على تونس السيد علي باي أرشدك الله ورعاك ، وسلام عليك ورحمة الله وبركاته ، وبعد فإنّ الأجل الفقيه السيّد إبراهيم الخرّاط / الصفاقسي ورد على مقامنا [238/ب] الكريم قاصدًا الإستيجار بجنابنا العليّ بالله تعالى في أن نستشفع لك في ذنب والده وأن لا تؤاخذه عن خطيئة صدرت منه هفوة فأُريد منك أن تكون قابلاً شفاعتي فيه ولا بدّ ، والله تعالى يكون لك بذلك وليًّا ونصيرًا ، وهذا ما نؤكّد عليك به فاجتهد في كمال غرضنا من أجله ، والله تعالى يحفظك ويرعاك والسلام[413].

ترجمة الشّيخ أبي الحسن علي الأومي :

ومن أجلّ فضلاء صفاقس وأعيانها شيخنا وأستاذنا وقدوتنا وملاذنا الشيخ الإمام الحاج الأبر العالم العلم العلاّمة الهمام القدوة العمدة المتقن المتفنّن المحقّق المدقّق أبو الحسن سيدي علي[414] الأوْمي – رحمه الله تعالى ورضي عنه وأرضاه ، وجعل في مقعد صدق مستقرّه ومثواه – .

---

409) في ط : «ولم».
410) في ت : «الجنان».
411) في الأصول : «الأسما».
412) في الأصول : «الأحما».
413) وتوفي الشّاعر الشيخ إبراهيم الخرّاط سنة 1251 / 1836 لا سنة 1237 كما في المراجع الشرقية ، راجع تراجم المؤلفين التونسيين 2/189 – 191.
414) علي بن علي بن محمد.

كان – رحمه الله – إمامًا في المعقول والمنقول ، حاز من علوم الشَّرِيعة الأصول وفروعها ، والأحاديث وعلومها ، والتفاسير وفنونها ، وطرق القراءات والتجويد ووجوهها ، والعلوم الأدبية العربية ظاهرها ومكنونها ، ومن العلوم الرياضية منطقًا وحسابًا وهندسة ومساحة وهيئة وميقاتًا كنوزها ، ومن دقائق الحكمة مفتاح رموزها.

كان – رحمه الله تعالى – تعلّم في صغره القرآن العظيم على شيخ البركة سيدي عبد الله الجمُّوسي ، فكان يحبّه ويجله كثيرًا ، ويدني مجلسه منه في صغر سنّه لما تَفَرَّس أو كوشف له من الخير فيه ، ثم علَّمَه ما تيسّر تعليمه من النحو والفقه والتوحيد ، ثم ارتحل للقيروان فأخذ عن شيخنا أبي محمد سيدي عبد الله السوسي[415] ما تيسّر له / [239/أ] من فقه وحساب وفرائض ومنطق وتوحيد وغير ذلك ، ثمّ ارتحل لتونس ، ثمّ ارتحل لمصر فلقي الرجال كالشيخ الحفناوي والشيخ البليدي ، والشيخ الملوي[416] والشيخ العمروسي[417] شارح مختصر خليل ، وشيخنا أبي العباس أحمد الدمنهوري ، وشيخنا أبي الحسن علي الصَّعيدي[418] ، وشيخنا سيدي حسن الجَبَرْتي[419] في آخرين من فضلاء مصر ، ثمّ[420] حجّ الفرض ، وقدم لصفاقس بعد مقامه بمصر خمس سنين فأتى بعلوم جَمَّة فبثّها ونفع الله به خلقًا كثيرًا.

وكان – رحمه الله – نصوحًا ، لا يقرئ إلّا بتحقيق ولا يقرئ مختصر خليل إلّا بحضور مادّة واسعة كالشَّرح الكبير والصَّغير للشيخ الخرشي وبالشيخ الأجهوري والشيخ العمروسي[417] والشيخ التَتائي وغير ذلك من الشروح ، وبحدود إبن عرفة وشرحها للشيخ الرصاع ، وهكذا في جميع العلوم لا يقرئها إلاّ بحضور ما يمكن حضوره من المواد. وكان أتى من مصر بخزانة كتب واسعة استعان بها على بثّ العلوم وتحقيقها ، وأخذ عنه خلائق

---

415) في ش : «السوسي».

416) في بقية الأصول : «الملولي».

417) في الأصول : «العمروصي» ، وهو علي بن خضر المالكي (ت. سنة 1173/ 1760) وله مؤلفات أخرى عدا شرحه لمختصر خليل (الأعلام 284/4 – 285).

418) علي بن أحمد بن مكتوم الصعيدي العدوى ، فقيه مالكي مصري ، كان شيخ الشيوخ في عصره (ت. بالقاهرة سنة 1775/1189) وله عدة مؤلفات غالبها حواشٍ على شروح كتب فقه مشهورة : الإعلام 260/4.

419) حسن بن إبراهيم بن حسن الزَّيْلَعي الْجَبَرْتي العُقَيلي الفقيه الحنفي ، له علم بالهندسة والفلك ، والد المؤرخ عبد الرحمان (ت. بالقاهرة سنة 1774/1188) له نحو عشرين رسالة في الفلك والفقه : أنظر الإعلام 178/2.

420) ودَرَّس بالأزهر ومدحه بعض تلامذته المصريين وهذا لا نجده في غيره ، أنظر تراجم المؤلفين 78/1 – 79.

كالشيخ سيدي طيّب الشّرفي ، ومن نُسب للفضل غيره كشيخنا سيدي محمد الزواري ، والشيخ القاضي أبي عبد الله محمد المصمودي ، والشيخ أبي الحسن علي ذويب ، والشيخ أبي زيد سيدي عبد الرّحمان بكّار ، والشيخ أبي إسحاق إبراهيم الخرّاط ، والشيخ أبي الحسن علي الغراب .

وكان – رحمه الله – ذا همّة وعفّة وصيانة ، قد سدّ باب الطّمع من جميع الخلق في متاع الدُّنيا ، وارتفع عن المناصب كلّها ، طلبه أهل بلده في تولّي القضاء ، فأبى ، فكتبوا فيه وثيقة بأنّه هو الأليق بنا ، فأبطل جميع ما عملوه / فولّوا الشيخ كَمُّون – حسبما [239/ب] مرّت الإشارة إليه – .

ولمّا احتمى من القضاء ألزموه بالتَّدْريس في الجامع الأعظم فأسعفهم وجعلوا له مرتّبًا يستعين به من المجابي المخزنية[421] فأبى أن يقبله ، فلقيه شيخنا أبو عصيدة[422] وقال : ما لك امتنعت من المرتّب وهو إعانة؟ فقال : هو من المجابي المخزنية وأكثرها ظلم ، وكلّ لَحْمٍ نَبَتَ من حرام فالنار أولى به[423] ، فباسطه وقال : خذ به فَحْمًا واحْرِقه تحت القدر فقال : هو إستعانة ، والإستعانة لا تكون إلّا بالله وما أذن الله فيه ، فجعلوه له من الجزية فرضيه ، وكذا جعل له شيء من زكاة الحبوب يقتاته هو وعياله ، وكان صابرًا على الشّدّة حتّى وسّعَ الله عليه بالكفاف ، وكان مائلاً للخمول جدًّا ولا يُصَلِّي إمامًا إلّا في مسجد مهجور إحتسابًا ، فسألناه عن ذلك فقال : لإحياء بيت من بيوت الله هجره النّاس لقلّة ما يعود عليهم فيه من الدُّنيا ، ولا يعرف للأمراء بابًا ولو للشّفاعة ، لأنّ الزّمان قد فسد ، وبطلت عند أهله شفاعة الشّافعين ، فوقوف العالم على أبوابهم لا فائدة فيه ، فلذا نبذهم ظهريًا ، وجعلهم نسيًا منسيًا ، والتّحدّث بهم شيئًا فريًا .

---

421) نسبة إلى المخزن وهو في أقطار المغرب معناه الحكومة .

422) هو رمضان بو عصيدة وقد مرت ترجمته .

423) يشير إلى الحديث الشريف «كل لحم ، وفي رواية «كل جسد» ، نبت من سحت فالنار أولى به» ، رواه أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء 31/1 عن أبي بكر الصِّديق ، والطبراني في الكبير ، وفي سند الحديق عبد الله بن واصل ، أورده الذهبي في «الضعفاء» وقال : ضعَّفه الازدي ، وقال البخاري والنسائي متروك ، أنظر فيض القدير للمناوي 17/5 – 18 ، ورواه أبو يعلى والبزار والطبراني في الأوسط : «لا يدخل الجنة جسد غذي بحرام» . ورجال أبي يعلى ثقات وفي بعضهم خلاف وفي الباب عن خديجة وعن إبن عباس ، بعض رجال الإسناد لا يخلو من مقال ، أنظر : «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» ، للحافظ نور الدين الهيثمي 293/10 .

وكان أوّلاً قد يتحمّل بعض الشهادات ، فلمّا كثر طغيان[424] العامّة في بعض المنتصبين لتحمّل الشهادة أعرض عن ذلك تعفّفًا وتكرّمًا كما فعل ذلك سيدي طيّب الشّرفي – رحمه الله – .

وكان ممّن سلم المسلمون من لسانه ويده ، كثير الإنجماع في بيته ، لا يخرج إلّا لدرس يقرئه أو زيارة الصالحين والأقربين ، وطالت مدّته وضعفت بنيته ، وقلّ تناوله للغذاء فصار جلدًا ملائمًا لعظم ، فما خرج من الدنيا حتى / ترك جميع لذّاتها وزهرتها ، [240/أ] وتوجّه لله بقلب سليم ، معرضًا عن الدنيا وأهلها . (قال فيه تلميذه البارع والأسد الضارع أبي الحسن علي الغراب) – رحمه الله – حيث قال :

[الكامل]

[خُذ من فُنون العلم[425] كلّ عويص[426] ... فالعلم يُعلي قدرَ كلَّ رخيص
سيّمَا البيان فإنه لأجلُّها ... قدرًا ، وأشرفها على التّخصيص[427]
إذ كان[428] إيضاحًا لها وملخّصا ... مفتاح باب السعد في التّلخيص
ولمشكل التنزيل تبيانًا وعن ... معناه كشّافًا لدى التّنقيص
فاشحذْ سهام الفكر في تحصيله ... تُكسى من العليا كلّ قميص
وعليه فاحرص[429] لا تملّ فإنّه ... لم يحوه في الناس غير حريص[430]
واعكف على الكتب[431] التي منه حوت ... عزّ[432] القواعد سيمَا[433] التّلخيص
إذ قد حوى لشواهد[434] الفنّ التي ... عنهنّ يغيب فكر كلّ قنيص ،

424) في الأصول : «طغى» .
425) في الأصول : «فن» ، والتصويب من ديوان علي الغراب ، الدار التونسية للنشر 1973 ص 153 اعتمادًا على مجمع الدواوين التونسية لمحمد السنوسي .
426) في ط وت : «غويض» ، وفي ت : «غوص» .
427) في ب : «التحقيص» ، وفي ط : «التمقيص» ، والتصويب من الديوان .
428) في الأصول : «يزيدان» .
429) في الأصول : «وعليها فافرح» .
430) في الأصول : «مريص» والتصويب دائمًا من نفس المرجع .
431) في الأصول : «كتب» .
432) في الأصول : «على» .
433) في الأصول : «لا سيا» .
434) في الأصول : «شواهد» والتّصويب من الدّيوان ص 54 .

إيجازه عن كلّ مختصر غني ،[435] وعن المطول عند ذي التّمحيص ،
لكن إذا ما كنت آخذه على تاج الأيمة كامل التّخويص[436]
أعني[437] أبا الحسن علي من غدا يعزي إلى الأومي لدى التّخصيص
هو من بمضمار[438] البلاغة قد حوى حَلَب[439] السباق لدى[440] ذوي التّفريص
أما العلوم فإنه لرميمها[441] أحيا ومنها حلّ كلّ عويص[442]
(وملخص المعنى إذا أبدى الخفا منها يلخّص أيّما تلخيص)[443]
ومتى أراد وصل معنى مُعرض أفكاره وصلت[444] بلا تربيص
جمع الفضائل كلّها فأكرم[445] به من طود علم نال كلّ قنيص[446]
ما عيبَ شيءٌ منه إلّا أنّه عند السؤال ، مُشتّت التّنقيص
فذوو الفضائل حين يذكر فضله تكسى من الأرداء[447] كلّ قميص
لا خير فيمن راح ينكر فضله لكنّه من معشر التّنقيص
بيت العفاف مُنزّهٌ ذو همّة ، عَليا ، وصلب الدّين غير شكيص
لا زال من بحر الجزالة ، والهدى . خلا لزائره ، وعَذب قريص[448]

---

435) في ب : «معنا» ، وفي ط : «معنًا».
436) التّخويص : تزيين التاج بصفائح الذّهب.
437) في الأصول : «يعني».
438) في الأصول : «من مضمار».
439) في الأصول : «حقب».
440) في الأصول : «من».
441) في الأصول : «لواء ميمها».
442) في الأصول : «حيًا ومنها يحل كل غويص».
443) في الأصول :
«وملحظ المعنى إذا بدا الخفا فيكون منها أيما تخليص»
444) في الأصول : «واصلت».
445) في الأصول : «فكن».
446) في الأصول : «من كود علمه تنال كل قنيص».
447) في الأصول : «الأوراء» والإصلاح من الدّيوان ص 155.
448) في الأصول :
«لا زال يرشح من بحر الجمالة والمدى خلاص لذائذه وعذب قريص»

وفي علوم الدّين والدّنيا اقتدى[449] نُورًا مُنيرًا ساطع التّمحيص[450]
وكفاه[451] في الدّارين ما من شأنه أن يهدى بالعلم كلّ حريص[452]
واختم إلاهي لجمعنا بسعادة من بعد عيش طاب غير نكيص[453]
واجعل شريف العلم نور خدودنا وشفيعنا في غد يوم خصيص[454]
ثمّ الصّلاة على النّبيء محمّد ما غرّدت ورقاء فوق العيص[455]

وممّا أنشده أيضًا الشّاعر الأديب البارع الأريب الشّيخ أبو العبّاس أحمد أبو علي الصّفاقسي لمّا ازداد للشّيخ مولود لولده الشّيخ أحمد – رحمهم الله – هذه القصيدة حيث قال :

[الكامل]

بُشراك[456] بالنّجل السّعيد الفاضل ولك الهَنَاءُ بذي الغلام الكاملِ
نجمٌ تزايد والسّعود طوالعٌ غَرّاء حَلّت في أجلِّ منازلِ
سُرَّ الأحبَّةُ والعِدا قد ساءهم بمفاخرٍ كَثُرت وقَدٍّ عادل
حصَّنته بالواحد الحَيّ الذي ما أَن يُرى عنّا دعاه بغافل
يا أحمدُ الأَوْمِي الَّذي قد سرَّني خَلَف له وسَمَا بخير أوائل
إنّي سُررتُ بنجلكم فكأنني خِلْت الحبيبَ من السّرور بواصل
فالله يجعله سعيدًا مُسْعِدًا ويفوز كالجدّ الأصيل الواصل
لله من سَلَفٍ ومن خلف حوَى كلَّ المكارم فوق قول القائل
أكرم بمولود الفخار محمّدٍ قد جاء في الشهر المُنير الحافل
بالسّعد والأفراح أقبل والرِّضى زادُ المؤرخ والهناء الشامل][457]

ومن كراماته – رحمه الله – ما أخبرني به نجله الشّيخ المدرّس الفقيه النّبيه العدل العمدة أبو الثناء سيدي محمود – أبقاه الله وأعانه على طاعته وتقواه – فقال : إنّ الشّيخ

---

449) في الأصول : «وفي علوم الدين والدرس له». 451) في الأصول : «ويكفيه».
450) في الأصول : «التحميص». 452) في الأصول : «يهتم بالذي على العلم حريص».
454) في الديوان : «وشفيعنا في يوم حيص بيص». 453) في الأصول : «طارب غير بخيص».
455) العيص : الشجر الكثير الملتف.
456) في الأصول : «بشر لك».
457) ما بين الحاصرتين ساقط من ش ، ووقعت إضافته من بقيّة الأصول.

لمّا قلّ تعاطيه الغذاء نادى في حصّة من الليل فلبّيناه فقال : إئتوني الآن باللبن الحليب ، ولم يكن الوقت أوان حليب ، فاعتذرنا له بأنّ الحصّة قد تمكّنت من جوف الليل ، والوقت ليس أوان حليب ، فاصبر للصّبح نبحث لك عمّا طلبت ، وأمّا الآن فلا ندري أين نذهب ، فقال : لا بدّ من حضوره في هذه السّاعة ، وألحّ في الطّلب حتى أزعجنا وأقلقنا ، ففوّضنا الأمر لِلّه وصبرنا لعدم الحيلة ، والصّبْرُ حيلة من لا حيلة له ، فإذا بقارع يقرع الباب في جوف الليل فخرجنا فوجدنا بعض الأقارب وقد أهدى لنا شيئًا من الحليب وقال : ناولوه للشّيخ ، فناولناه إيّاه وشكرنا الله تعالى على هذه النّعمة أن أعطاه الله سؤله .

وذكر من حضر وفاته قال : إنّه عند خروج روحه – رحمه الله – غشيهم رائحة طيّبة لم يشكّوا فيها ولا طيب مع أحد من الحاضرين ، وشاهدته بعد خروج روحه فوجدت جسده جلدًا ملائمًا لعظم ليس فيه من اللحم شيء ، وهو علامة على أنّ جسده لا يبلى. لأنّه من العلماء العاملين الذين ورد فيهم أنّ الأرض لا تأكل أجسادهم ، وقد قالوا : إنّ الرّجل الصّالح يذهب دمه ولحمه في حياته فيبقى جسده على حاله بعد موته ولا يبلى وإن كان ذا لحم ودم كمن قُتِل ظلمًا بقوته ودمه ولحمه فتح الله / في جسده خرقًا لطيفًا تنصب منه المواد الموجبة للتّعفن حتّى تجفّ موادّه ويبقى جسده على حالة لا تغيّره الأرض . [240/ب]

وخرج من الدّنيا ولم يتبعه من جميع النّاس إلّا حسن الثّناء ، ولم يسمع من أحد تعرّض لجنابه بسوء ولو قلامة ظفر لأنّ الإنسان لا يخلو من ضدّ وحسود ، ولكن الله سلّمه من طعن الطّاعنين وذلك مصداق قوله – عليه الصّلاة والسّلام – : «ازهد ما في أيدي النّاس يحبّك النّاس ، وازهد في الدنيا يحبّك الله»[458] أو كما قال – عليه الصّلاة والسّلام – .

توفّي – رحمه الله – بجمادى الأولى من سنة أربع ومائتين وألف[459] .

---

458) الحديث الوارد فيه تقديم «أزهد في الدنيا يحبك الله ، الخ...» ، رواه إبن ماجة في سننه والطبراني في المعجم الكبير والحاكم في المستدرك والبيهقي في شعب الإيمان عن سهل بن سعد الساعدي ، وحسّنه الترمذي وتبعه النووي ، وصحّحه الحاكم في المستدرك ورواه خالد بن عمر. قال فيه إبن حبان : خالد يروي عن الثّقات بالموضوعات ، وقال إبن عدي : خالد وضع هذا الحديث ، وقال العقيلي : لا أصل له ، وقال البيهقي عقب إخراجه للحديث : خالد بن عمر ضعيف ، أنظر فيض القدير 481/1.

459) 1790 م. لعلي الأومي ترجمة في تراجم المؤلفين التونسيين 87/77/1 إعتمادًا على ثبته المخطوط ، والثّبت الذي أجازه به الشيخ عبد الله السوسي.

ترجمة الشّيخ الأديب أبي الحسن علي الغراب :

ومن أجلّ أعيان أدباء صفاقس المتأخّرين المشهورين في عصرنا من شاع صيته مشرقًا ومغربًا ، واتّفق على فضله وعلو مقامه بلاغة وأدبا ، الشّيخ الأجلّ أبو الحسن علي البارع ، شهر الغراب .

كان – رحمه الله – آية من آيات الله مؤيدًا في نظمه ونثره واشتهر بذلك ، وهو فقيه عدل ذو[460] حظّ من علوم الحساب ، والميقات ، والمنطق ، وأمّا علوم التّاريخ وأيّام النّاس وعلوم البلاغة فحدّث عن البحر ولا حرج ، وأمّا تورياته وتشبيهاته واستعاراته وكناياته فأمر مشهور ، ومن وقف على كلامه إعترف بفضله ونباهة شأنه ، وألحقه بالشّعراء المجيدين المتقدمين.

وله ديوان كبير[461] وما في أيدي النّاس من كلامه يغني عنه لأنّ النّاس كان لهم إعتناء زائد بكلامه ، فكلّما قال شيئًا تلقّوه سرعة بالقبول ، وشهد بفضله أولو الفضل / [241/أ] شرقًا وغربًا .

قال الشّيخ أبو القاسم الأديب المصري : لا أعلم أحدًا في هذه الأعصار المتأخّرة أدرك شأو الغراب لا من المشارقة ولا من المغاربة ، والحقُّ ما قاله ، فإنّ جميع الأدباء ذوي الفضل والإنصاف مُقِرُّون بفضله وعلو طبقته .

ولمّا رحل أستاذنا أبو الحسن سيدي علي الأومي لمصر للقاء الأفاضل والأخذ عنهم وكان أبو الحسن الغراب من تلاميذه كتب أبو الحسن الغراب قصيدة إمتدح بها الجامع الأزهر وعلماءه[462] ونوّه بشأن الشّيخ الحفناوي محشي الأشموني[463] ، فلمّا وقف الشّيخ الحفناوي على القصيدة وظهرت له بلاغتها وفضل قائلها وبراعته وقوّة عارضته في الفنون الأدبية قال – رحمه الله – : «كم في الزّوايا من المزايا» ، عنى بالزوايا أركان البيوت من

---

460) في الأصول : «ذا».

461) طبع بالدّار التّونسيّة للنّشر ، تونس سنة 1973 تحقيق محمّد الهادي المطوي وعمر بن سالم وفيه مقاماته ورسائله في 400 ص من القطع المتوسّط .

462) في الأصول : «علماؤه».

463) هو يوسف بن سالم الحفناوي أو الحفني نسبة إلى حفنة إحدى قرى بلبيس ، أصله منها ، وهو من أهل القاهرة من فقهاء الشافعية ، شاعر (ت. بالقاهرة سنة 1763/1176) وله حواش وشروح ، وديوان شعر ، وأشهر مؤلفاته : حاشية على شرح الأشموني لألفية ابن مالك في النحو قال : بها صيتًا وقيمة ، ولعل هذه الحاشية وصلت إلى صفاقس قبل رحيل الشيخ الأومي إلى مصر. أنظر ترجمته في الإعلام 232/8 .

الإنزواء والإنضمام[464]، ولا شكّ أنّ صفاقس بالنّسبة لمشاهير الأمصار كالزّاوية من البيت، والأمصار المشهورة كالصّدر من البيت، فكان الشّيخ أبا الحسن الغراب – رحمه الله – بآدابه مزيّة من مزايا الدّهر، وفريدة من فرائد العصر، ملقاة بزاوية من زوايا الأرض.

ومن غرر قصائده ما أنشده في مدح السّفن التي أنشأها المرحوم الباشا سيدي علي باي إبن المرحوم سيدي حسين باي للجهاد بقوله – رحمه الله تعالى وعفا[465] عنّا وعنه بفضله وكرمه آمين – :

[الطويل]

بشائر في الإسلام زاد بها عزا، [وآيات نصر نورُها يُذْهِبُ الرِّجْزا
بها قوي الدّين القويم وإنّما][466] بها الكفر ولّى مدبرًا وانثنى عجزا
وبال على أهل الصليب وحزبهم ومن جحدوا من عابدي اللات والعُزّى[467]
بفلك لغزو الكفر بالبحر أجريت[468] يسابق أفلاك السما جريُها وخزا[469] / [241/ب]
يفوز بأجر من علاها، ومغنم، إذا ضربوا في البحر، أو ركبوا غُزّى[470]
عليها لواء العزّ والنصرُ خافقٌ[471] ولكن جموع[472] الكافرين بها تخزى
إذا لقي الإسلام كفرًا بها ترى جميع العدى أسرى وأعناقهم حزّى[473]
عليها من الرّحمان حرزٌ من العدى[474] على أنّها للمسلمين غدت حرزا

464) في ش وب وت: «الأنظام».
465) في ش: «عفى».
466) ما بين حاصرتين إضافة من ديوان علي الغراب ص 84. ووقع التّصويب على مقتضاه.
467) في الأصول: «العزا».
468) بالديوان: «سوابح فلك للمغانم أنشئت».
469) في الأصول: «وفزا».
470) في الأصول وفي المجمع 662: «إذا ركبوا في البحر أو ضربوا غزا» والتّصويب من الدّيوان ص 85، قال المحققان: «إضطربت الروايات في هذا العجز وأثبتنا رواية المجموع 13045»، وفي العجز اقتباس من سورة آل عمران 107.
471) في الأصول: «عليها لواء النصر والحفظ خافق».
472) في الأصول: «جميع».
473) في الأصول: «جزا»، وحزى: «مقطوعة».
474) في الأصول: «العدا».

فمن لجهاد[475] الكافرين بها استوى ... بأجر جزيل راح أو مغنم يجزى[476]
لقد كان جيد البحر في الغزو عاطلاً ... إلى أن أتت هذي الشّواني[477] له طرزا
كـأنّ الجواري المنشآت بيـادق ... وكلّ غدا من هذه بينها فرزا[478]
تردّى بها الكفـار ثوب مـذلّـة ... وقهر، وثوب العزّ منهم قـد ابتزّا
إذا سمع المستـأمنون بغزوهـا ... نعى بعضهم بعضًا لهم وله وعزى[479]
ألست تراهم حين جُرَّت وأدهشوا ... ثلاثـة أيّـام تكلّمهم رمزا[480]
صُموتـا فلم تحسّ من أحـد لهم ... إذا لاح أو تسمع له في الملا ركزا[481]
إذا نشرت للطَّرد أشرعـة لها ... شهـدت بها العقبان تختطف الوزا
كأنّ صارخ البارود منها وبيضه[482] ... رجومٌ هـوت إثر الصَّواعـق بالأزرا
طرايد[483] كل كالطواويس خفقت ... وأعلامـه مثـل البروق إذا فزا
جرى[484] للأعادي بالجناحين طائرا ... ولا عجب فهو الغراب[485] له المغزى
لئن سودوا بالقـار منه جوانبًا ... فـإنّ بيـاض الغنم في وجهه أجزا
يصول بـأبطـال الجهـاد كـأنّهم ... عفاريت جنّ في الوغى[486] حربهم وخزا
إذا قارب الكفّار في الحرب[487] إنّما ... ثعالب[488] لاقتها أسود الشرى[489] وكزا
تشاهـد بيض الهنـد حلّت رقـابهم ... وتبصر للسمرا بـأعينهم غمزا[490]

---

475) في الأصول: «بجهاد» والتّصويب من الدّيوان.
476) في الأصول: «يجزا».
477) في الأصول: «هاتي الجوار»، والشواني ج شونة وهي المركب المعد للجهاد في البحر.
478) في الأصول: «وكل غدا منهن ما بينهما فرزا».
479) في الأصول: «عزا».
480) إقتباس من سورة آل عمران: 41.
481) إقتباس من الآية: 98 من سورة مريم.
482) البيض: الكور.
483) في الأصول: «طراريد»، الطرايد ج طراد: السفينة الحربية.
484) في الأصول: «يرى».
485) الغراب: السفينة.
486) في ش: «الوغا».
487) في الأصول: «في البحر».
488) في الأصول: «ثعاليب».
489) في ط: «الشدا»، وفي ب وت وش: «الشرا».
490) بعدها أسقط المؤلف بيتًا وهو:
ترى ألفًا للقطع في وصلها بهم ... ولكن ترى في كل رأس بها همزًا

جوار بيض الهند والسمر حملها[491] تناجز شرك الرّوم في وضعها نجزا
بجملة من منشآت مملك جميل المزايا سيفه يذهب الرجزا[492] / [242/أ]
أبي الحسن الباشا علي ابن مالك حسين الذي إحسانه يملك المرزا[493]
ألا أيّها المولى الذي عز رتبة ويطلب من رضوان ربّ العلى فوزا[494]
لتهنك سفن للجهاد صنعتها وفي مولد المختار أجريتها حفزا[495]
تيمّن بها واسعد[496] فإن لها بكم[497] نجاة لبرّ البرّ تبلغه وفزا
فبالله مجراها[498] ، إذا ركبوا بها وبالله مرساها إذا وقفت[499] ركزا[500]
لكم منشآت الغزو في البحر أجريت[501] ولي منشآت المدح في مجدكم[502] تعزى
حكى كلّ فلك منشأ في ابتهاجه ربى ، وصواريه به السرو والأرزا
عجبت ! وقد جرُّوه للبحر إنّما من البحر قد جروا إلى البحر مفتزا
ولو أن نوحا يركب الفلك ثانيا لما اختار في الدنيا سواه ولا اعتزا
لكم مولد المختار جاء مهنّئا بفلك نجاة مثله في الورى عزا
وقال : بعزّ الدّين والغنم ثق به وأرّخ : «به يحوى الغنائم والعزا»[503].

وذلك سنة ألف ومائة وست وسبعين[504].

---

491) في الدّيوان : «جوار بأسد الغاب والقضب دونها».

492) في الدّيوان :

جميلة صنع من صنيع مملك جميل المزايا قدره جاوز

493) في الأصول : «حسين الذي هامت مراتبه الجوزا».

494) قبل هذا البيت 15 بيتًا أسقطها المؤلّف ، أنظر الدّيوان ص 87.

495) في الأصول : «هزا».

496) في الأصول : «أبشر».

497) في الدّيوان : «فان لكم بها».

498) في الدّيوان : «مجرهًا».

499) في الأصول : «وقفوا».

500) إقتباس من سورة هود : 41.

501) في الأصول : «أجرت» والتّصويب دائمًا من الدّيوان ص 89.

502) في الأصول : «بجركم».

503) يقابل هذا التّاريخ بحساب الجمل سنة 1178/1764 – 1765 وهذه القصيدة في الدّيوان 84 – 89.

504) 1762 – 1763 م.

وكان أبوه أوصى لذكوره وذكور أخويه بثلث مخلفه ، ولَهُ هُوَ ذكر واحد ، ولكلّ واحد من أخويه عدّة ذكور ، فبعد وفاة والده طلب الشّيخ أبو الحسن أن يكون قسمة الوصيّة على عدّة جهات : أولاد المُوصِي لينوب والده ثلث الوصيّة ، وطلب إخوته قسمتها على عدّة رؤوس الجهات الثلاث ليضعف حصّة ولده فتنازعوا في ذلك ، وادّعى[505] الشّيخ أبو الحسن المذكور أنّ العرف إنّما جرى بالقسمة على الجهات ، واستفتى المفتيين في ذلك ، فأجابه شيخنا أبو الحسن علي بن الشاهد المينيي مفتي جربة — رحمه الله — بالعمل بمقتضى العرف ، حسبما هو مطلوب الشّيخ أبي الحسن ، وبذلك / [243/أ] أجاب الشّيخ الشّرفي — رحمه الله تعالى — وقرّر أن عُرْفَ البلد جرى بذلك ، وعليه العمل عندنا ببلد صفاقس ، وحكم الشّيخ أحمد لولو قاضي صفاقس بما أجاب به المفتيان ، ورفع الخلاف في النّازلة . ثمّ توجّه الشّيخ أبو الحسن لتونس ليحكم له قاضي الحضرة ، وكان العمدة الهمام الشّيخ سعادة[506] مفتي تونس من مشايخ الشّيخ أبي الحسن ، وعلم أنّ الدّعوى لا تتمّ إلّا بعد وقوف الشّيخ سعادة عليها ، وأنّه لا بدّ من أخذ فتواه ، فاستفتاه معتذرًا عن تقديم غيره في الإستفتاء وتأخيره هو ، ناظمًا لسؤاله في أعذب تورية ، وأحسن توفية ، وأوجز عبارة ، وألطف إشارة بقوله :

[الكامل]

يا سيّدا[507] ساد الأنام بفضله ، فسما على زهر السّما وزيادَه
ألقت إليه المشكلات سلاحها من طوعها قهرًا بغير[508] إراده
ما جاء بابك للإفادة[509] سائل إلّا سمحت له بخير[510] إفاده
ومن[511] أتى مستنجد من دهره ما عَوْدُه إلّا بخير إعاده[512]

---

505) في ش : «ادعا».
506) محمّد بن عمر سعادة العالم الأديب الشّاعر (ت. 1171/1758) قرأ بجامع الزيتونة وبالجامع الأزهر ولبث طالب علم به مدّة سبع سنوات : أنظر تراجم المؤلفين التونسيين 29/3 — 34.
507) في الأصول : «يا كاملا». والتّصويب من الدّيوان ص 139.
508) في الدّيوان : «وغير».
509) في ش : «يستفيدك» ، وفي ب : «يستعيدك» ، وفي ط : «بسعدك» ، وفي ت : «يستعدك».
510) كذا في ب والدّيوان وفي بقية الأصول : «بكل».
511) في الدّيوان : «ومتى».
512) في الأصول : «ما لم يعد إلّا بخير إعادة».

نظم الأفاضل درهم في عقدنا ولقد رجوت بكم تمام قلاده
فلذا[513] جعلتك للختام لأنّه ذو الفوز من يختم له بسعاده[514]

فأجاب الشيخ سعادة – رحمه الله – بقوله :

[الكامل]

حمدًا لمن زان الوجود بعصبه[515] فضلاء في حل العويص وقاده
فهم الكهوف لمن أتى مستنجدًا ولهم بـأسرار العلوم إفـاده
وصلاته وسلامه تترى[516] على من أوضح الدّين القويم وشاده
(وجواب ناظمه كما قد نمّق الـ ـمفتون أعلاه بغوا إرشاده[517] / [242/ب]
فهو الصَّحيح وما حكوا من أنّه عرف لـديهم في البلاد وعاده
يقضي به أيضًا ويكفيك الذي قد أسندوا عزوا بغير[518] زياده
ولربّما[519] نصّ الوصيَّة يقتضي هـذا تـأمله تجده[520] مفـاده
إذ الإشتراك والإنفراد لواحـد قـد عيَّـن الموصي بـذاك مراده
فاقبله يا من قد أتى بقريضة سحرا وحلانـا بخير قلاده
واعـذر فنسجي هلهـل لكنّه بقبولكم يكسى[521] حلي سياده
فـالله يمنحنـا مـواهب فضلـه ونال في الدّارين خير سعاده.

وحكم بصحّة ما أجاب به الأشياخ قاضي الحضرة العمدة الهمام الشَّيخ أبو العبَّاس أحمد الطرودي الحنفي ، وأشهد على ذلك بتاريخ أوائل رمضان المعظَّم قدره بالإنزال من شهور عام ستّة وخمسين ومائة وألف[522].

وكانت وفاته – رحمه الله – سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف[523].

---

513) في الأصول : «فأنا».
514) هذه القصيدة في الدّيوان ص 139.
515) في ش : «بصعبة».
516) في ت : «تزري».
517) هذا البيت ساقط من بقية الأصول.
518) في ط وت : «بغى».
519) في ط وت : «ولى».
520) في ط وت : «فخذه».
521) في ط وت : «يكسو».
522) 18 أكتوبر 1743 م.
523) 1769 – 1770 م.

ترجمة الشّيخ أبي الحسن علي المصمُودي:

ومن فقهاء العصر شيخنا أبو الحسن سيدي علي المصمُودي. كان – رحمه الله – فقيهًا، نحويًا، عارفًا بالنّوازل والأحكام، فرضيا متصبًا لتحمّل الشّهادة، فكان عمدة في التّوثيق والأحكام، ولا يقبل من الشّهادات إلّا الخالصة من التّمويهات والتّوجيهات والإحتالات والتّلبيسات، وطُلِب للقضاء وشهد فيه أهل البلد بأنّه أهل له وأنزلوا بذلك أمرًا من السُّلطان بتونس، فذهب للسُّلطان واعتذر واستعفى فعوفي.

وتفقّه بأبي عبد الله الشّيخ سيدي محمّد كمّون وغيره إلّا أنّ اعتماده عليه.

وأخذ عنه أبو عبد الله الشّيخ محمّد المصمودي القاضي، ولمّا أراد أخذ النّحو عنه شرط عليه أنّ كل قاعدة / تعلّمها ولحن في جزء من جزئيّاتها ضربه عشرة أسواط كالمعلّم [243/ب] مع أطفال المكتب، فقبل ذلك منه، وانتفع به في أقرب مدّة، وكان حسن التّعليم لقوّة نصحه وشدّة حرصه.

وكان عالي الهمّة لا يبالي بأولي الأحكام والأمراء، منقبضًا عن النّاس إلّا بقدر الحاجة، ذا عفّة وصيانة.

توفّي – رحمه الله تعالى – شهيدًا بالطّاعون سنة تسع وتسعين ومائة وألف(524).

ترجمة الشّيخ أبي إسحاق إبراهيم الجمّني:

ومن أجلّ أعيان المتأخّرين الشّيخ شيخ شيوخنا أبو إسحاق سيدي إبراهيم الجِمّني – رحمه الله تعالى –.

وهو إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم(525) بن أبي بكر بن عمر بن محمّد بن عبد الله ابن منصور بن عبد العزيز بن معين نزيل الجديدة، قرية من قرى المدينة المشرّفة على صاحبها أفضل الصّلاة والسّلام، وانتقل معين المذكور ونزل جِمّنَة، قرية من قرى نفزاوة، واستوطنها وتناسل منه أجداد الشّيخ سيدي إبراهيم، وهم أجلّة أعيان، وكان والده عبد الله فقيهًا صالحًا، وكذا جدّه للأب إبراهيم كان على قدم الأفاضل، وكذا جدّه للأمّ سيدي علي بن حامد، وهو الّذي كان أخذ على الشّيخ الخَرّوبي

---

524) 1784 – 1785 م.

525) النّقل من الحلل السّندسيّة 287/3 وما بعدها.

الطرابلسي[526] ، لقيه[527] وتتلمذ له[528] فناوله السّبحة وألبسه الخرقة ، وأضافه التّمر والماء ، وأعطاه الورد وألزمه قراءته.

ونسبة الشّيخ إلى جِمَّنَة بكسر الجيم وفتح الميم المشدّدة بعدها نون فهاء تأنيث ، ونسبه ينتهي إلى المقداد بن الأسود الكندي – رضي الله تعالى عنه – ووصل إلى الدّيار المصرية بإشارة من الأستاذ شيخ البركة سيدي علي الوحيشي – نفعنا الله / بهما – وكان [244/أ] دخوله مصر إثر وفاة سيدي علي الأُجْهُوري سنة ستّ وستّين وألف[529] ، فقرأ على الشّيخ سيدي عبد الباقي الزّرْقَاني وحصل عنه فأجازه في النّحو[530] والمنطق والبيان والأصول والتّوحيد ، وأخذ عن الشّيخ أبي عبد الله سيدي محمّد الخرشي وأجازه في الحديث الشّريف وحجّ ، وكان قبل ذلك أخذ عن الشّيخ العارف بالله سيدي عبد الله بن أبي القاسم الجُلاَلي بضم الجيم نسبة إلى قرية بالمغرب[531] ، واجتمع به في زاوية خنقة سيدي ناجي ، ورحل إلى بلد زواوة ومكث بها ستّ سنين ، وأخذ عن أكابر أجلّة منهم الشّيخ العالم الفاضل سيدي محمد السعدي ، والشّيخ الفاضل العامل الزّاهد سيدي محمّد الغربي[532] والشّيخ العالم النّحرير ، والجهبذ الشهير الرّاضي[533] سيدي أبو القاسم القاضي ، وكانت له الكلمة العليا والأمر المطاع بجميع جبال زواوة ، ثمّ سافر الشّيخ صاحب التّرجمة من بلاد زَواوة إلى مصر فأقام بها تسع سنين ، فأخذ عن أعيان الجامع الأزهر كالشّيخ ياسين ، والشّيخ أبي الحسن علي الشبراملّسي[534] وأخذ القراءات عن الشّيخ سيدي سُلْطان[535] وعن الشّيخ أبي الحسن اللّقّاني ، وعن الشّيخ إبراهيم

---

526) محمّد بن علي الخرُّوبي اللّيبي نزيل الجزائر من أهل الحديث والفقه والتّصوف أخذ عن الشّيخ زروق وغيره ، وأخذ عنه جماعة من أهل الجزائر وفاس ، وقام بمساعي الصّلح بين الأتراك وسلطان فاس وكانت وفاته بالجزائر سنة 1555/963 : شجرة النّور ، 284.

527) بالجزائر ، الحلل السّندسيّة 298/3.

528) في ط وت : «تلمذة».

529) 1656 م.

530) في الفقه والنّحو: الحلل السّندسيّة.

531) بالمغرب الاوسط (الجزائر).

532) في الأصول : «المغربي» والتّصويب من الحلل 298/3.

533) في الحلل : «الرضى الأرضى».

534) في الأصول وفي الحلل : «الشّمرلسي».

535) المزّاحي.

الشبْرَخِيتي ، وعن الشّيخ أبي العبّاس أحمد البَشْبِيشي[536] وكان الشّيخ الخُرَشي يدعو له ، ولازمه لزومًا طويلاً.

ثمّ إستأذن مشايخه في النّقلة إلى بلاده بالمغرب ، فأذنوا له ، ويوم خروجه خرج معه الجمّ الغفير جبرًا لخاطره وتعظيمًا لقدره . وكان انتقاله من مصر سنة خمس وسبعين / [244/ب] وألف[537] ثمّ[538] ركب البحر فهاج البحر ، وغرقت السّفينة وطلع من كان بها سوى الشّيخ ، فلم يطلع فغاص الغوّاصون فوجدوه في قعر البحر فأخرجوه مغمى عليه ، فلمّا أفاق سأل عن كتبه وكانت كثيرة ، فسلّي بسلامة نفسه ، فرجع إلى مصر وجمع غيرها في مدّة إقامته بها وهو يُعَلِّمُ النَّاس وظهرت بركات الفتح على يديه ومال إليه أهل الخير والصَّلاح.

ثمّ رجع لبلده جِمَّنَة ثمّ انتقل لجزيرة جربة فقصد جامع الغرباء بها يعلّم به النَّاس. قيل[539] إن إمام الجامع أخذه ما يأخذ الفقهاء من الغيرة فمنعه من الإقراء به فعزم على الإنتقال ، فرآى في النّوم قائلاً يقول له : «يا إبراهيم أعرض عن هذا»[540] وقيل رآى قارئًا يقرأ : ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾[541] ورآى الشَّيخ خليلاً فقال له : أنت ولدي ومنّي فاجتهد ، فأقام ما شاء الله ساكنًا هو ومن يقرأ عليه في أخواص من جريد[542].

فقدم وكيل المرحوم السُّلطان مراد بن حمّودة باشا – رحمه الله تعالى – وكان من أهل قابس ، فسأل عن الشَّيخ وكان يَعْرِفه فَدُلَّ عليه ، فوجده على تلك الحالة ، فلمّا رجع لتونس أمره السُّلطان بالحجّ نيابة عنه لشغله بأحوال رعيَّته ، وهو كاف في مذهب أبي حنيفة الذي هو مذهب مراد باي ، فقال له : يا سيّدي إن أردت أجرا خيرا من

---

536) في ش : «البشيشي» ، وفي ط وب وت : «الشبيبي» والتّصويب من الحلل.

537) 1664 م.

538) بعده في الحلل السّندسيّة 299/3 : «ووصل بلده جِمَّنَة فأقام بها ثمّ ركب البحر ومعه أبو الحسن علي الأوراسي. فهاج البحر...» وهذا محلّ نظر لأنّ نفزاوة ليست على شاطئ البحر ، فالمعقول أن يكون هياج البحر وغرق السّفينة بمصر ، ولو وصل لبلده جِمَّنَة لم يسأل عن كتبه ، وإنّما تصرّف المؤلّف في النّقل عن الحلل السّندسيّة وأصاب.

539) يتصرّف في النّقل من الحلل السّندسيّة بالحذف والزّيادة.

540) إقتباس من سورة هود : 76

541) سورة الرعد : 17.

542) زيادة عمّا في الحلل السّندسيّة.

الحجّ فأبن مدرسة للشَّيخ الجمّني ، وحكى له أمره ، ونشر له ذكره فأمره بالتّوجّه لبناء المدرسة المرادية بجزيرة جربة ونصب له محرابها الشّيخ الميقاتي سيدي أبي راوي من ذرّية سيدي عبد السلام / الأسمر وقبره بجربة مزار مشهور ، فبنى لها دورًا وبيت صلاة ، وكمل بناؤها سنة خمس وثمانين وألف[543] ، وجعل له النّظر في الحبس وفوَّض أمره إليه ، فمكث الشَّيخ يعلّم بها ، وقدم عليه النّاس من كلّ فجّ عميق فبذل جهده في نشر مذهب إمام دار الهجرة[544] فكان يختم المختصر في كلّ سنة مرّتين في تسعة أشهر بكدّ وجدّ ، ويقرأ الحديث النّبوي في بقيّة السّنة. [245/أ]

وكان ملازمًا للصِّيام والقيام من قبل[545] الفجر لإيقاظ أصحاب الخلوات من تلاميذه للقراءة والمطالعة والصَّلاة.

وكان قوته ممّا يأتيه من تَمْر بلاده ممّا ورثه من آبائه محترزًا عن الأكل من حبس الزّاوية حتّى إنّه كان له وكيل[546] على التّصرف فإذا أتى بشيء من غَلّات الحبس وأَحْضره للشَّيخ رفع الشّيخ جلدًا كان يجلس عليه ويلتفت لجهة أخرى ويأمره بوضع ما عنده وبعد ذلك يردّ طرف الجلد ، وإذا أراد الوكيل أخذ شيء يصرفه رفع طرف الجلد والتفت كما فعل في القبض حتّى يأخذ الوكيل ما يحتاجه فيضعه فلا يرى الدّراهم في دخولها ولا في خروجها تحرُّزًا عن الحبس وبعدًا عن الفتنة.

وكان متجنّبًا للمناصب بأسرها حتّى الإمامة ولم يسمع منه أنّه حلف بالله قطّ.

وكان أوّلاً مؤثرًا للعزبة ثمّ تزوّج إمرأة نَصَفًا ، فقال لتلاميذه : من استطاع منكم التَزوُّج فليتزوّج ، فكانت زوجته عونًا له على طاعة الله ، وكان لها ولد أحسن عشرة الشَّيخ وأحبّه محبّة الولد لأبيه[547]. وعطف عليه الشَّيخ فنالته بركته.

وكان الشَّيخ في غاية من التّعفّف[548] أهدى إليه رجل شيئًا من الحليب طلبًا للبركة / فقال : ومن أين جاءك هذا؟ قال : عندي شويهات فقال : ومن أين أكلُها؟ [245/ب]

543) 1674 – 1675 وما يتعلّق ببناء الزّاوية إضافة عمّا في الحلل. فالوزير السرّاج إختصر على خبر بنائها دون تفاصيل.

544) «إمام دار الهجرة النبويّة» : الحلل 300/2.

545) «وقبل الفجر يسير ينبّه أرباب البيوت في المدرسة ليكونوا على أُهبَة للصَّلاة جماعة ، فعل ذلك بيده كلّ يوم الدّهر كلّه» : الحلل السّندسيّة 300/3.

546) الكلام عن الوكيل لم يرد في الحلل السّندسّة.

547) ما يتعلّق بالزّوجة لم يرد في الحلل.

548) الكلام عن إهداء رجل الحليب له والمحاورة التي دارت بينهما غير مذكور في الحلل.

قال : ترعى هنا في البلاد ، فقال : كم هي؟ قال : إثنتي عشرة ، فقال : إرفع لبنك فلا خير فيه فإنّ عندك إثني عشر لِصًّا[549] يسرقون سواني[550] النّاس إذ البلاد كلّها أملاك وأحباس وأهاليها محتاجون لعلف دوابهم.

وله كرامات كثيرة منها أنّ إبراهيم[551] الشّريف لمّا توجّه لحرب طرابلس دخل جربة فشكى بعض النّاس بالشّيخ عمر ابن أخي الشّيخ سيدي إبراهيم فسجنه ، فاغتمّ الشّيخ لظلم إبن أخيه فأتى لإبراهيم الشّريف شفيعًا في إبن أخيه ، فلم يعظم الشّيخ في عينه ، ولم يقبل له شفاعة لعدم معرفته بقدره ، فلمّا جنّ عليه الليل إضطربت أحواله ولم يهنأ[552] نومه وتحيّر ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت من غير موجب ، فتنبّه وعلم أنّ سبب ما نزل به ردّ الشّيخ غير مجبور الخاطر ، فأمر السّجّان بسراح الشّيخ عمر من حينه ، وأرسل للشّيخ فأحضره واسترضاه ، وطلب منه العفو فعفا[553] عنه.

ولمّا تولّى سيدي حسين باي – رحمه الله – وكان حاضرًا في هذه القضيّة وعرف فضل الشيخ أظهر تعظيم الشّيخ وإكرامه ، فبنى للزّاوية وكالتين وأجرى للزاوية إنعامات من قوت الطّلبة وتحبيسات وغير ذلك.

وتفقّه بالشّيخ علماء أجلّة يخرج عددهم عن الحصر ، ومن جملتهم الشّيخ الصّالح المكاشف سيدي علي الفَرْجَاني[554] نُقِل عنه أنّ الشّيخ كان يقرئ الإنس والجنّ معًا ، وشرح مختصر الشّيخ خليل بشرح لم يكمل.

ولمّا عمّت بركاته وتزايدت خيراته إمتدحه أهل / الفضل من شعراء زمانه كالشّيخ أبي عبد الله سيدي محمّد إبن المؤدّب الشّرفي – رحمه الله تعالى – فإنّه إمتدحه بقوله : [246/أ]

---

549) في ب : «أجا» ، وفي ط : «أما» ، وفي ت : «ما».

550) أي بساتين.

551) قصّته مع إبراهيم الشّريف ذكرها في الحلل السّندسيّة / 301 والمؤلّف نقلها بتصرّف وزيادة مع المحافظة على المعنى.

552) في ش : «يهنى».

553) في الأصول : «فعفى».

554) كذا في ط وب ، وفي ش : «الفرياني» ، وفي ت : «الفراجاني» والفرجاني هو قابسي مدفون بشنني من ضواحي قابس ، وهو من كبار أتباع الطّريقة السّلامية والدعاة لها ، وغالب إقامته بليبيا ، وفي التّذكار لابن غلبون المصراتي ص 157 عند الكلام عن ولاية خليل باشا : «وبتحامل على أهل البدع حتّى قلّت البدع في أيّامه وأذلّ رئيسها علي الفرجاني وسامه خسفا ولم يدخل أرض طرابلس إلّا بعد موته». وكانت وفاته 1144 / 1731 – 1732 ، أمثل هذا يكون مكاشفا؟ لكنّ المؤلّف يحسن الظّنّ بمن ينتسب للتّصوّف.

[الطَويل]

تذكّرت عهدًا من ليالٍ تَقَضَّتِ ... علينا بوصل ثمّ أَلْوَت[555] وَوَلَّتِ
وعادت كأحلام تراءت لنائمٍ ... فلمّا تولّى النّوم عنه تولّتِ
أحِنّ لذكراها وأصبو تشوّقًا ... إليها وأرجو أن تمنّ بعودة
ومن لي بها يومًا تعود وتلتقي ... ونظفر يومًا باجتماع الأحبّة
ألا ليت شعري هل أفوز بوصل من ... له القلب يصبو كلّ يوم وليلة
وأشتاق لقياه إذا ما ذكرته ... لعلّي أحظى من شذاه بنفحة
بنفسي من بالعلم حاز مزيّة ... ورتبته فيها علت كلّ رتبة
سما قدره بالعلم فخرًا ورفعة ... ورفعته بالعلم أعظم رفعة
أيا طالبًا للعلم إن رمت تجتني ... ثمار علوم من رياض أنيقة
فلا تَعْدُ إبراهيم ذا الفخر والعلا ... وذاك ابنُ عبد الله يا خير نسبة
فشمّر وجدّ السّير واقطع مفاوزا ... إليه وخض بحرًا وحطّ بجربة
لتنظر نجمًا يُهْتَدى بضيائه ... وشمسًا إذا ما الليل أظلم ذرّت
له منطق في الدّرسِ يعذب لفظه ... ويسحر ألبابًا بأعظم[556] رقّة
يفوق لئالي[557] الدّر درًّا بنظمه ... ويخجل من حسناه كلّ يتيمة
إذا مشكل يومًا تعسّر فهمه ... جلاه وأبداه بأوضح حجّة
وإن أمّه صادٍ من العلم يشتكي ... ظُلْمًا[558] يلق بحرًا يحوي كل ذخيرة[559]
فيا لك من بحر زلال إذا جرت ... جَدَاوِلُهُ بالعلم أَرْوت وروّت
فبادره واشرب من رحيق زُلاَلِه ... وغُص بحره تظفَر بكلّ فريدة
وقَبِّل يديه والتمس من نواله ... وحيّي محيّاه بأزكى تحيّة / [246/ب]
سلام عليه كلّما لمع الضيا ... وغابت نجوم في السّماء وعنّت[560]
وما غرّدت[561] عند الصَباح ترنّمًا ... حمائم في أعلى الغصون وغنّت[562]

---

555) في بقية الأصول : «أولت».
556) كذا في ديوان الشرفي ص 45 وب وت وط ، وفي ش : «أعذب».
557) في ش : «لالي».
558) في الأصول : «ضمى».
559) في الدّيوان : «خريدة» وبعدها أسقط المؤلّف بيتًا وهو:
هو البحر إلّا أنّه العذب ماؤه ... سوى أنّه الحاوي لكلّ ذخيرة.
560) في بقية الأصول : «وغنت».
561) في الديوان : «وما صدحت».
562) هذا البيت ساقط من ط وت. القصيد في ديوان الشّرفي 45 – 46.

وكانت ولادته ببلدة جمّنة سنة سبع وثلاثين وألف[563]، وتوفّي ليلة الجمعة خامس أشرف الرّبيعين بمولده - عليه الصّلاة والسّلام - سنة أربع وثلاثين ومائة وألف[564]، فكانت مدّة إقامته بالمدرسة خمسين سنة، ولم يخلّف رحمه الله عقبا ودُفِن بالمدرسة[565].

فلمّا سمع سيدي حُسَيْن باي - رحمه الله - أَمَرَ ببناء قبّة على الشّيخ فبنيت وجاءت على أحسن ما ترى العين، وأبهج شيء عند النّفس مع أنّها بالحجر والجير، ولكن نُورٌ من الله قلَّ أن يُرى مثلها.

قيل إنّ بعض الأمراء أمر بعض المهندسين ببناء قبّة على بعض الصّالحين فجاءت في غاية الحسن والبهجة فأمره السّلطان أن يبني له مثلها، فبنى قبّة لم يَرَ عليها ما على قبّة الصّالح من النّور فغضب السّلطان وقال: إنّما أمرتك ببناء مثل الأخرى فما هذه؟ فقال: والله بذلت جهدي في إستقصاء الصّنعة في هذه أكثر من الأخرى، فهذه القبّة وأين الصّالح؟ لو نقلته لكانت كالأخرى، فتلك جسد بروحه وهذه جسد بلا روح، وشرف البقاع وحسنها إنّما هو بساكنها.

ترجمة الشّيخ عمر بن محمّد الجِمّني:

وقام بالزّاوية بعد الشّيخ - رحمه الله - الشّيخ الهمام الفاضل والعمدة الكامل إبن أخيه، وهو الشّيخ سيدي عمر بن محمّد - المقدّم الذّكر - فكان قيامه أحسن قيام، وله مشاركة تامّة في المعقول والمنقول.

ترجمة الشّيخ أبي إسحاق إبراهيم بن محمّد الجِمّني:

[247/أ] وبعد وفاته / خلفه أخوه شيخنا الشّيخ أبو إسحاق سيدي إبراهيم بن محمّد، فقام بالزّاوية قيام أخيه ولحظه الباشا - رحمه الله - لحظًا قويًّا وأحبّه لحب الشّيخ الأكبر،

563) 1627 - 1628 م.

564) 24 ديسمبر 1721 م.

565) أنظر عن إبراهيم الجِمّني: «مؤنس الأحبّة في أخبار جربة»، ص 95 - 96، شجرة النّور الزّكيّة 324، إتحاف أهل الزّمان 103/3، الحلل السّندسيّة 296/3 - 302. ويبدو أن المؤلّف إعتمده ونقل عباراته بنصّها، عدا التّحلية الطّويلة وبداية من الكلام عن غرق السّفينة. تصرّف في النّقل بالحذف أحيانًا وبزيادات أحيانًا أخرى.

وأمر ببناء دور في الزّاوية فوق الدّور الذي بناه مراد باي – رحمه الله تعالى –.

وفي أيّامه أرسل الشّيخ الصّالح سيدي عبد الرّحمان أبو سيف[566] مكتوبًا للشّيخ يأمره ببناء الفسقيه الكبيرة خارج الزّاوية تحت الوكالة الصّغرى ، وأرسل من المال مائة دينار وقال : كلّما تزيده عَرّفني به أرسل لك به ، فبنيت وكانت من الأعمال النافعة المتقبّلة إن شاء الله تعالى.

وفي أيّامه عظم النّفع وكثر الوارد على المدرسة حتّى بلغ عدّة الطّلبة سنة قراءتنا بها مائتين وسبعين طالبًا ، ما بين متعلّم للسّنّة ومتعلّم للقرآن الكريم ، وعظم الإجتهاد مبلغًا لم نره في غيرها شرقًا ومغربًا لأنّ عادتهم في قراءة المختصر أنّ يوم الإبتداء ينظر الطّلبة درسًا من أوّله ودرسا من النّصف الثّاني وهو باب البيوع ، فإذا جاء الليل دخل[567] نجباء الطّلبة وتبع كلّ واحد منهم طائفة من المبتدئين فيقدّمون الدرس الأوّل إلى جوف اللّيل ثمّ يذهبون إلى خلواتهم لاستراحة النّوم ، فإذا قرب الفجر جاء رجل عيّنه الشّيخ بيده عَمُود يضرب به أبواب الخلوات فيوقظهم ولا ينتقل عن باب خلوة حتّى يفتح صاحبها بابها ، فإذا فتح باب خلوته إنتقل لغيرها ، فتوقد المصابيح ويقدّمون لهم درس البيوع فيوافق / [247/ب] فراغهم طلوع الشمس ، فيدخل سيدي أحمد بن عبد الصّادق[568] بشرح الخرشي فيقرئ الدّرس الأوّل ثمّ يخرجون ، ويرجع بعد الزّوال فيكمل الدّرس الثّاني ، وإذا جاء الليل فعل المتقدّمون فعلهم الأوّل ، فإذا أصبح الصُّبْحُ دخل سيدي إبراهيم بن محمد بالشّيخ عبد الباقي فيقرئ الدّرس الأوّل من المختصر ويخرج فيدخل سيدي أحمد بن عبد الصّادق فيقرئ ما قدّمه الطّلبة أوّل الليل ، ويخرج قرب الزّوال فيأكلون نصيبًا من تمر حبس الزّاوية ويسبغون وضوءهم ، ويرجع سيدي أحمد بن عبد الصادق فيقرئ ما قدّمه الطلبة آخر الليل ثمّ يخرج فيدخل سيدي إبراهيم بن محمّد فيقرئ باب البيوع وهكذا يستمرّ الحال ، فيقدّم المقدّمون ويقرئ سيدي أحمد ما قدّموه ويقرئ سيدي إبراهيم ما أقراه سيدي أحمد فتكون الختمة[569] الواحدة بثلاث ختمات في تسعة أشهر ، والذي يظهر فيه التأهّل من المقدّمين يجيزه الشّيخ ويرجع إلى بلاده ، فيذهب كلّ سنة منهم

566) في ط وت : «ابن يوسف» ، وفي ب : «أبو يوسف». وأسرة أبو سيف من بوادي ليبيا وهم أناس أماثل أفاضل متديّنون.

567) ساقطة من ط وت.

568) سيترجم له المؤلّف فيما بعد.

569) في ط وت : «التمة».

طائفة قد تفقّهوا في الدّين إلى قومهم يفقّهونهم وينشرون الفقه في الآفاق ويأتي في السّنة التي بعدها طائفة غيرهم وهكذا. وأقلّ ما أقرأ الشيخ سيدي إبراهيم بن محمّد ستّين ختمة، وتفقّه به خلائق لا يحصون كثرة من جميع الآفاق، ولم يبق هذه الأيام من ذلك الذي كان إلّا بقايا، فإنّ الطاعون جرف أكثر الفقهاء من بلاد إفريقية سنة تسع وتسعين ومائة وألف[570]، وسبحان من لا تغيّره / الدّهور. [248/أ]

ثمّ إنّ سيدي إبراهيم بن محمّد إمتحن بني جلود كبار الوهبية[571]، وذلك إنه – رحمه الله – كان لحظه الباشا فاستنقذ أكثر النّاس من البدعة[572] وأدخلهم في السّنّة، ورجع جملة من الخطب للسّنّة.

فلمّا فرغت أيّامه – رحمه الله – طلب بنو جلود أن يكونوا قيّادًا على البلاد فأُسْعِفُوا بذلك لخفاء دسائسهم على الأمير، ﴿فَلَمَّا تَوَلَّوا سَعَوْا في الأَرْضِ لِيُفْسِدُوا فِيهَا﴾[573] فسعوا بسيدي إبراهيم وأظهروا باطلاً في صورة حقّ وحلفوا بأيمانهم فانخدع الأمير لهم، وجعلوا على الشّيخ أموالاً ثقيلة غرامة وضايقوه في استخلاصها منه، فالتجأ إلى النّاس واستلف منهم الأموال، فلمّا عجز خاف من السّجن بغضًا منهم لرجال السّنّة، فكمن الشّيخ وأرسل خلف الرئيس أحمد غربال الصّفاقسي، وكان رجلاً شجاعًا مقدامًا مجاهدًا لا يبالي بالرّجال بحرًا ولا برًّا، قلّوا أو كثروا، فلمّا حضر بين يديه كشف له الشّيخ عن حاله وما هو فيه فأخذت الرئيس أحمد حَمِيّة السّنّة وغيرة الإسلام، فقال له: ما الذي تريد نفعله لك؟ قال: تخرج بي من هنا لصفاقس نذهب للأمير ونعتذر له ونكشف له عن تلبيسات هؤلاء الظّلمة المفترين[574]، ونستشفع بأهل الفضل والخير، فقال له: على بركة الله، فلمّا جنّ عليه الليل التحف الشّيخ في صورة رجل من رجال البادية كي لا يُعرف في الطّريق، ولمّا وصل البحر إلتحف بصورة إمرأة وحمله على ظهره ودخل به البحر لمّا جزر ماؤه، وكان دخوله من غير الإسقالة لئلاّ / يفطن به أحد، فلمّا وصل [248/ب] السّفينة أدخله فيها، واجتنبه النّاس لظنّهم أنّه حُرمة مسافرة معهم، فأدخله في بيت في مؤخّر السّفينة وغلق عليه الباب وسافر بهٍ ولا شعور لبني جلود بذلك، فلمّا وصل

---

570) 1785 م.

571) الوهبية الاباضية.

572) يقصد مذهب الاباضية.

573) مستوحاة مز الآية 205 سورة البقرة.

574) في الأصول: «المفترون».

لصفاقس ذهب لتونس واستشفع بإخوانه الفقهاء كالشّيخ أبي عبد الله سيدي محمّد الغرياني وأضرابه ، فعرّفوا الأمير بحقيقة الشّيخ وسعيه في إحياء السّنّة وإماتة البدعة وما هو عليه من نشر العلم ونفع العباد به ، وإنّ ما فعله به بنو جلود إنّما هو لبغضهم في السّنّة وأهلها ، فقبل شفاعتهم في الشّيخ وفرح به وأكرم نزله وأزال ما كان عليه من الغرامة وردّ عليه ما بذله[575] ظلمًا وأرجعه إلى وطنه مسرورًا مجبورًا ، فأقام بزاويته حتّى حضرت منيّته سنة نيف وسبعين ومائة وألف[576].

ترجمة الشّيخ أحمد بن علي ابن عبد الصّادق الطرابلسي الحامدي :

وأمّا الشّيخ[577] أبو العبّاس سيدي أحمد ابن الشّيخ الصّالح سيدي علي بن عبد الصّادق الطرابلسي[578] فإنّه – رحمه الله – كان رجلاً فاضلاً فقيهًا محدّثًا نحويًا عارفًا بالسّير والمغازي وأيّام النّاس ووقائعهم ، له بمختصر الشّيخ خليل خبرة زائدة واعتناء كبير ، وكان في غاية ما يكون من الفصاحة ، كامل القامة ، حسن الصّورة والسّيرة ، ذا مروءة وشهامة وهمّة. كان والده من تلاميذ سيدي إبراهيم بن عبد الله الجمّني ، وشرح صغرى الشّيخ السنوسي ، والمرشد المعين وغير ذلك ، فتفقّه سيدي أحمد صاحب التّرجمة بوالده المذكور ، ثمّ رحل إلى مصر فتفقّه / بالشّيخ البليدي وغيره ، وكان سريع الحفظ ، [249/أ] وكثير النّقل ، ولمّا رجع إلى طرابلس سعى به بعض الحسدة عند سلطانها فخاف البَطش به ففرّ لفَزّان فأقام عند أميرها عزيزًا مكرّمًا حسن المثوى[579] وجعله مستشارًا في أَحْكَامِهِ ، ما وافق منها الشّرع أمضاه وما خالفه ردّه ، فأقام عنده مدّة ، فلمّا أحسّ بعدم الطّلب له وأمن من الشّرّ رجع إلى طرابلس وتزوّج بها واشتغل بالعلم ، وصَاحَبَه الشّيخ أبو عبد الله محمّد أبو عتور الصّفاقسي ، فسعى به الحسدة ، ففرّ لجزيرة جربة بنفسه ، فنزل على الشّيخ سيدي إبراهيم الجمّني بن محمّد ، فقبله وأكرم نزله ، وعرّفه

---

575) في ش : «ما بذل له» ، وفي ب : «ما قدمه» ، وفي ط وت : «ما غرمه».

576) بعد سنة 1757 بقليل.

577) في بقية الأصول : «شيخنا».

578) الحامدي نسبة إلى ساحل حامد.

579) في ش : «المثوا».

بحاله، فقال: ﴿لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[580]، فاستشفع به لسلطان طرابلس في إرساله زوجه له، فقبل شفاعته وأرسلها له مع جدّها فاستقرّت به الدّار، وجعل له سيدي إبراهيم مُرَتَّبًا من الباشا – رحمه الله – ليقرئ دروسًا[581] بجامع الغُرباء من جربة، ويقدّم للطّلبة حسبما مرّ آنفًا، فانتظم حاله واستقامت أيّامه وبذل مهجته في العلم غاية البذل، وترك الدّنيا وما عليه أهلها، وكانت سنين مخصبة في أمن وعافية.

وفي سنة سبع وستّين ومائة وألف[582] كانت قراءتنا المختصر على شيخنا سيدي إبراهيم وشيخنا سيدي أحمد بن عبد الصّادق، وكان للشّيخ سيدي أحمد قوّة غوص على غوامض الفقه وحلّ عقد مشكله لقوّة حفظه ونقله وتفريغ سرّه، فاستفدنا منه خيرًا كثيرًا، وامتحنه أبناء جلود / كما امتحنوا سيدي إبراهيم إلّا أنه لم يقدر على الفرار بنفسه [249/ب] فأشخصوه مقيّدًا فحصل لنا من الغمّ ما لا يعلمه إلّا الله. ولمّا وصل لتونس تلقّاه أبو عبد الله الشّيخ أبو عتّور فشفع له عند السّلطان فشفّعه فيه وأعطاه مدرسة ببير الحجار من تونس الذي استجدّها الباشا – رحمه الله – وجعل له بها مرتبًا يكفيه مؤنة عياله فرجع إلينا مسرورًا مجبورًا، ودخل جربة فاستخرج أهله وقَدِم علينا بهم في أمن وسلامة، فأنزلناهم بسيدي علي عبد النّاظر واكترينا لهم إبلاً وبغالاً وركبنا معهم لتونس، فحصل لنا بسفرنا معهم أنس وسرور حتّى أوصلناه تونس، فنزل بدار قرب المدرسة وودّعناه وسافرنا، فأقام بها إلى أن حضرت منيّته سنة نيف وتسعين ومائة وألف[583] – رحمه الله تعالى –.

ترجمة الشّيخ علي بن الشّاهد المنيي:

ومن أجلّ من أخذ عن الشّيخ سيدي إبراهيم بن عبد الله الجمّني شيخنا سيدي علي ابن الشّاهد المنيي – رحمه الله تعالى – كان بإفريقية أشهر من نار[584] على علم لأنّه طالت مدّته، وطارت فتاويه بها شرقًا وغربًا، وكان مسدّدًا في فتاويه لا يتوقّف في

580) إقتباس من الآية 25 سورة القصص.
581) كذا في ت، وفي ش وب: «دارسًا»، وفي ط: «درسًا».
582) 1753 – 1754 م.
583) بعد سنة 1776 بقليل. أنظر شجرة النّور الزّكيّة 351.
584) في الأصول: «منار».

الفتوى لأنّه أحضر موادها ، وجعل على النّوازل قطع ورق علامة عليها ، فإذا أتى السّائل يضع يده على الكتاب الذي يعلم فيه نازلته ، ويفتح مظنتها[585] فيجد كأنّه وضع العلامة بعد السّؤال ، ولا يكتب جواب السّائل حتّى يقرأه عليه ، فإذا فرغ من كتب الجواب ناوله السّائل ما تيسّر فيأخذه ويضعه تحت / جِلْدٍ هو جالس عليه ، وهكذا يفعل [250/أ] مع كلّ سائل ، فإذا فرغ النّاس من أسئلتهم أتاه قريبه فيعطيه ما حضر فيأخذ ما يحتاجه من حطب وخضرة وزيت وفاكهة ، ولحم إن فضل شيء للحم ، فيضع ذلك على حمارة ويرجع لأهله. هذا شأنه – رحمه الله – فكان متقلّلاً من الدّنيا لا يأخذ منها إلّا قدر الحاجة ، ولمّا مات أعان أهل الفضل على كفنه.

وكان تفقّه على الشّيخ الصّالح سيدي إبراهيم بن عبد الله الجمّني فتقدّم على أقرانه ، واتّفق أنّ الشّيخ كان يومًا في درسه فدخل إباضي[586] يسأل ويقول : إنّكم معشر الأشعرية لا تكفّرون بالذّنب وتقولون بالشّفاعة للمذنبين مع أنّ إبليس أبلسه الله من رحمته ، وختم عليه الشقاوة والخلود في النّار ، ولم تقع منه إلّا معصية واحدة هي عدم السّجود لآدم ، فكيف بمن وقع في مُحرمات لا تُحصى وفظائع لا تُستقصى؟ وكان الشّيخ – رحمه الله – مشغولاً بتقرير مسألة فالتفت وقال : ما لهذا الرّجل؟ قالوا : هو يسأل عن كذا وكذا ، فقال : من يجيبه منكم؟ فقال الشّيخ صاحب التّرجمة : أنا أجيبه بما نصّ عليه إبن عَرَفَة – رحمه الله تعالى – : إنّ كفره وإبلاسه ليس من عدم السّجود بل من نسبة الباري – جلّ ثناؤه – لعدم الحكمة وتجويره وتخطئته في حكمه لأنّه قال : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[587] ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾[588] ، ثمّ توعد بوقاحة ومعارضته لأحكام الحكيم العليم / [250/ب] فقال ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾[589] إلى غير ذلك ممّا يدلّ على سوء أدبه مع الله ، فقال : أجبه بذلك وأنت مفتي إفريقية ، فكان غاية في فتواه.

وأخذ عنه خلائق لا تحصى ، وأخذنا عنه «كشف الأستار عن علم حروف الغبار» تأليف الشّيخ أبي الحسن علي القَلَصادي – رحمه الله تعالى – فلمّا أكملنا الجزء ين

---

585) في ط وت : «فطنتها».

586) في الأصول : «وهبي».

587) سورة ص : 76.

588) سورة الحجر : 33.

589) سورة الإسراء : 62.

الأوّلين وقف على جزء الجزور وقال : لا أزيد على هذا ، فقلت : مرادنا ختم الكتاب ، فقال : ها هنا وقف بنا شيخنا سيدي إبراهيم ، فوقف ولم يزد.

ولمّا امتُحن مع إخوانه من فقهاء الأوطان في أيّام الباشا – رحمه الله – بتغريبهم لتونس وطالت مدّة غربته – رحمه الله – وتعسّر وجه الخلاص ، وكان الباشا – سامحه الله – رجلاً شهمًا صلبًا تتنازعه نفسه للإنتقام فقال بحضرة الشّيخ أبي الحسن المترجم : مذهب أبي حنيفة عدم المؤاخذة بالتّهمة ، والنّاس كثر شرّهم وكثرت فيه التّهم ، وددت أنّي نجد في مذهب من المذاهب جواز المؤاخذة بالتّهمة لنقمع هؤلاء الفجرة أولي التّهم ، فأجابه الشّيخ المترجم ، بأنّ مذهب مالك على جواز المؤاخذة بالتّهمة ، قال ابن عاصم في رجزه :

[الرّجز]

وإن يَكُـن مُطَـالبًـا مَنْ يُتَّهَمْ فَما لَكَ بالسِّجن والضَّرْبِ حَكَمْ.

فأظهر الباشا الفرح والسرور وقال : أنا آخذ في هذه المسألة بمذهب مالك وأقلّده فيها والحمد لله أن حقّق الله / رجائي وذلك لأنّه كان يقول : نرجو من الله أن يكون كلّ من [251/أ] قتلته أو ضربته أو سجنته ما فعلت به ما فعلت إلّا بوجه شرعي لا بتشفّ وغرض نفسي[590] ثمّ قال : يا فقيه ، قد عفوت عنك ، إرجع لوطنك على ما كنت عليه من الفتوى ، فرجع وأقام على حاله إلى أن أدركته منيّته بجربة سنة نيف وسبعين ومائة وألف[591].

ترجمة الشّيخ الولي محمّد عبّاس :

ومن مجاذيب صفاقس الشّيخ الصّالح العارف بالله أبو عبد الله سيدي محمّد عبّاس.

كان – رحمه الله – على قدم عظيم وأمر مشتبه على من لا يحسن الإعتقاد ، قيل إنّ بعض النّاس [قال] : كيف يكون هذا من الأولياء ولم يظهر له كرامة ولا ما يوجب

---

590) هذا غير صحيح ، وعلي باشا الأوّل نشر الرّعب والخوف لجسارته على سفك الدّماء والعقاب لأقلّ تهمة لا سيما مع من كانوا متّصلين بعمّه حسين بن علي باي ، ممّا يدلّ على حبّ التّشفي والإنتقام ومتابعة هوى النّفس ، ولذلك وصف بأنّه ظلوم.

591) بعد سنة 1757 بقليل.

إعتقادًا؟ وأنا أريد اليوم إختباره ، وكان يوم جمعة وكان الشّيخ له دكّان قرب باب البحر يخلو فيه (فقال : أرقبه هل يصلّي الجمعة اليوم ، فجاء الشّيخ وأطبق باب الحانوت)[592] وبقي الرّجل ينتظر وقت الصّلاة ، فلمّا أذن بالصّلاة وذهب النّاس بقي الحانوت على حاله ، فأدخل الرّجل بصره خلال الباب ليبصر الشّيخ وما يصنع فما وجد في الحانوت أحدًا فبقي متعجّبًا ، فلمّا إنصرف النّاس من صلاة الجمعة فتح الشّيخ باب حانوته وخرج وهو يقول : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، رجل أضاع ما فرض الله عليه من صلاة الجمعة لينظر ما يصنع محمّد عبّاس ! هذا محمّد عبّاس صَلّى الجمعة بالمسجد الحرام وهو أضاع ما فرض الله عليه وقد تقدّمت قصّته مع الشّيخ الشّرفي.

وذكر / الشّيخ أبو عبد الله محمّد الغراب تلميذ الشّيخ النّوري إنّه قال : لمّا دخلت [251/ب] مصر وجدت رجلاً صالحًا يرميه الأصاغر بالحجارة ويشتمونه وهو يقاسي منهم أشدّ الأذية ، قال : فوقفت أنظر متعجبًا وقلت : كما يفعل أطفال المغرب بأهل الله يفعل أطفال المشرق بأولياء الله ، فما استهمت الكلام إلّا وقد قال لي : يا سيدي الحاج : من أي البلاد أنت؟ قلت : من تونس ، فقال : من أي تونس؟ قلت : من صفاقس ، فقال : الآن صلّينا على الشّيخ محمّد عبّاس بصفاقس ، حياتكم الباقية ، قال : فقيّدنا ذلك فكان كذلك.

ولمّا انتقل (لرحمة الله)[593] دفن بداره بحارة الصناع أمام القصبة[594] وهو مشهور مزار ، ولم نقف على تعيين سنة وفاته ، فهو من أوّل القرن الثّاني عشر.

ترجمة الولي عمر كَمُّون :

ومن مجاذيب صفاقس سيدي عَمَر كَمُّون ، بفتح عين عمر على جاري لهجة صفاقس[595] فتح عين عُمَر وهي موجودة في بعض أهل الحضر حسبما نصّ عليه السعد

---

592) ما بين القوسين ساقط من بقية الأصول.

593) ما بين القوسين ساقط من ط.

594) هذه الدّار جعلوها مرستانا أطلق عليه «المرستان الجديد» ثمّ حوّل إلى مدرسة إبتدائية ما زالت قائمة إلى الآن تعرف بالعبّاسية.

595) إسم عُمر وعَمَر موجودان إلى الآن ، ولعلّ الرّاجح أنّ عَمَر أصله عَمْرو بفتح العين وسكون الميم ففتحوا الميم إتّباعا للعين.

في شرح التّلخيص عن بعض أهل العراق إنّهم يفتحون العين من عُمَر، وساق حكاية أنّه دخل عليه رجل ممّن غلب على لهجته فتح عين عُمَر، فلمّا نطق بذلك ضحك منه الحاضرون، قال: فلم يدر سبب ضحكهم، قال: فضممت عيني ففطن لذلك، فعجب الحاضرون من سرعة فهمه.

كان – رحمه الله تعالى – في ابتداء أمره رجلاً جَزَّارًا ضاقت عليه الحيل في معيشته، فلمّا جاء أوان الرّبيع خرج النّاس لزيارة أهل الخير بالسّاحل[596]، فخرج معهم من ضيق الحال ولمّا / وصل لبلاد جمّال وجد اللّيم الحلو[597] فأخذ مقدار خمسين [252/أ] واحدة، وكان للشّيخ سيدي عامر المزوغي بنت مريضة إشتهت اللّيم الحلو فلم يجدوه مع شدّة الطّلب، فلمّا وصل لزاوية سيدي عامر[598] بلغه الخبر فأهدى ما معه من اللّيم للشّيخ، فقال له الشّيخ: نلت جميع البركة فأدخله خلوته وألقمه ثديه فما رفع رأسه إلّا وقد انجذب بهمّة الشّيخ فصار كالولهان، وساح في الأوطان لزيارة الصّالحين قدر سنتين، فلمّا كمل أوانه أشار عليه الشّيخ بالرّجوع إلى صفاقس، ولمّا رجع له صحوه قال: كانت لغير الله فصارت لِله، ما كنت خرجت إلّا لضيق حالي حتّى وَسّع الله من فضله.

ولمّا قدم الباشا لصفاقس أصابته حمّى يوم قوية، فخاف منها فسأل هل في البلد من الأولياء فدلّ على هذا الشّيخ، فأُحضر بين يديه وشكا إليه مرضه، فوضع يده عليه وقال: لا بأس عليك، غدًا – إن شاء الله – يحصل اللّطف والشّفاء، ففرح الباشا بذلك وخرج الشّيخ واشترى شيئًا من السمك وطبخه بالسكنجبير المتّخذ من ماء الزبيب والخلّ الطيّب، وجعل فيه شيئًا من حوار الأبزار، وبعد إستوائه ونضجه فَتّت فيه شيئًا يسيرًا من خبز الشّعير، ولمّا ساغ شربه أمره بالأكل من فتت الخبز وشرب المرق، فتوقّف في أكل الشّعير فقال: كل وتوكّل على الله فإنّ أصل كلّ خير التّوكّل على الله، فتوكّل على الله وأكل ما تيسّر للبركة، وشرب من المرق بقدر الإستطاعة، ثمّ أمره بالرّقاد / [252/ب] وغطّاه بغطاء ثقيل، وقعد عند رأسه، ومنع خدّامه أن يتولّوا أمره، واشتعلت فيه حرارة الأبزار، وغاصت في أعماق بدنه بالسكنجبير، فلمّا اشتعلت الحرارة طلب كشف الغطاء

---

596) في خرجات أهل صفاقس في فصل الرّبيع إلى السّاحل، توجّههم للزّيارة في مسيرة تسمّى «حزب» إلى سيدي عامر المزوغي بقرية سيدي عامر وأمّ الزّين بجمّال، ويقيمون بجواره مدّة.

597) نوع من اللّيمون الحلو ويعرف في صفاقس إلى الآن بليم سيدي عامر (أي المزوغي) وَلِيمْ سيدي عامر من الهدايا التي يرجع بها الصّفاقسيّون إلى أسرهم.

598) الكائنة جنوبي مدينة سوسة.

فمنعه ، فاشتدّ به الحال حتّى كادت نفسه تزهق وهو يصبّره ، ويعلّله ، ويعده بالفرج ، وأنّ الفرج مع الصبر ، فقويت الحرارة الغريزية بحرارة الأبزار وتلطفت بالسكنجبير فانهزم عارض البرد الذي كان أصابه وأمرضه ، فخرج العرق البارد بعد استكمال نضج الخلط ، وخمد[599] البحران ، وانتشرت الحرارة ، وانتعشت القوى ، فانبسط الباشا ، ولمّا ابتل دثاره غيّره الشّيخ ، وجعل كلّما ابتل شيء من العرق غيره بثياب نظيفة طيبة برفق بحيث لا يدخل البرد إلى الجسد ، فلم يزل به حتّى إنقطع العرق وانتشرت الحرارة الغريزية الطّبيعية على سطح الجسد ، فجعل يخفّف عليه الغطاء شيئًا فشيئًا حتّى تأنّس بالهواء وصَحّ الجسم وزالت العِلّة ، ففرح الباشا بذلك وقوي اعتقاده في الشّيخ من حيث أنّه وعده بالعافية وقد يسّر الله بها بلطف على يد الشّيخ ورفقه ، فلمّا سافر لتونس صار يقول : رأيت وليًّا بصفاقس ، وعظم أمر الشّيخ عند أهل حضرته ، ثمّ أرسل له رسولاً بفرس وأمره بالقدوم عليه ويستصحب ولديه معه فأبى الشّيخ من ركوب الفرس وقال : نفسي لا تساعدني على الرّكوب إلّا على البعير ، فأخذ بعيرًا وجعل عليه مَحْمَلاً[600] وجعل كلّ واحد من ولديه[601] في شقّ ، وركب هو في الوسط / وسار فسبق الرّسول [253/أ] وأعلم الباشا بذلك فزاد اعتقاده ، ثمّ قال للرّسول : أعرض[602] له هذه الثّياب يتجمّل بها للقاء النّاس وعرّفه أنّي متلقّيه بأصحابي فأبى من لبسها وقال : يكفيني ما أنا عليه ، فتلقّاه الباشا وفرح به ، وأكرم نزله وأحسن مثواه ، ولمّا جاء الليل فرشوا له من فروش الباشا شيئًا نام عليه هو وإبنيه[603] ، وكانا صغيرين فاستيقظ الشّيخ فوجد أحدهما شخّ[604] على الفراش ، فارتاع الشّيخ وانتهر الولد وضربه فبكى ، فسمع الباشا ببكائه فاستفهم عن بكائه ، فاحتار الشّيخ في الجواب ، فألحُّوا عليه حتّى عرّفهم بالقضيّة ، فإذا بقارع يقرع الباب فقال : يا سيدي هذا كنز وجدناه في مكان كذا ، فما تأمر به؟ فضحك الباشا وقال : ما شاء الله ما ضَرَّنا هذا الشّخّاخُ بل حصلت لنا به بركة ،

599) في ط وت : «حمو».
600) ما يعرف بالعامية بالشّواري.
601) في بقية الأصول : «أولاده».
602) في ش وب : «عرض».
603) في الأصول : «أبناؤه».
604) كذا في ش وب وط ، وفي ت : «بال» وللكلمتين نفس المعنى وقد انقرضت لفظة «شخ» من الإستعمال الدارج في صفاقس وبقيت مستعملة في براديها.

شخاخه بكنز إن ذا الخير كثير ، فلمّا أصبح أعطاه ثمانمائة ريال وقال : خذ هذه إستعن بها على زمانك ، فنزل بها فما أتى الليل إلّا وقد فرّق جميعها ، ثمّ جهّزه الباشا واعتقده ، وبنى له زاوية[605] بصفاقس داخل البلد تحت السّور في جنوبيها شرقًا من باب البحر وهي معروفة. وبنى الشّيخ هناك قبرًا كان أعَدَّه لدفنه ، فمات الشّيخ سيدي محمّد المصري أحد مريديه فآثره به[606] ولمّا حضرته الوفاة دُفِنَ خارج البلد على شاطىء البحر وقد صار الآن بوسط الربض وبنى عليه أهل الخير قبّة[607] مشهورة به ، وتصدّق عليه بعض أهل الخير/ بداره فبيعت وبني بها تلك الآثار المحيطة بقبّته. [253/ب]

وضاق به الحال مرّة من كثرة الزّائرين ، فخرج يومًا من باب البحر فلقيه رئيس[608] جربي فقال له : إعطني سَلَمًا[609] على خمسين قفيزًا من الشّعير لدرس الأندر ، فقال : وأين نادرك؟ فأشار إلى نادر كبير ، فاطمأنّ الجربي ونقد ثمن الخمسين قفيزًا ، فلمّا درس النّاس أندرهم جاء الجربي إلى النّادر فوجد النّاس يدرسون فقال : أين الشّيخ كمّون صاحب النّادر؟ فقالوا له : ذاك فقير ، ليس هذا له ، فأشفق الجربي وأيس من ماله فذهب هائمًا ، فلقي الشّيخ فقال : يا شيخ ، النّادر لغيرك فأين الشّعير؟ فقال : كن هانئًا وعن قريب يأتيك خلاصك ، فاحتار الجربي وبقي بين الخوف والرّجاء ، فبعد أيّام وإذا به أتاه وقال : أين تضع الشّعير؟ فقال له : في السّفينة وهي على شاطئ البحر ، قال : فإذا بثلاثين جملاً محمّلين شعيرًا ، فقال : ها هو شعيرك ، فقال : وما تجيء هذه من الخمسين قفيزًا ؟ قال : تحصل البركة وتأخذ حقّك بالوفاء والتّمام ، أرح قلبك وكن هانئًا ، وأحْضَر الكَيْلَة[610] واكتال حتّى وصل ستّين قفيزًا فقال الجربي : هذا ما تحمل سفينتي وليس عندي ما ندفعه في الزّائد ، فقال له الشّيخ : لو سكتّ لكثر خيرك ولكن هذا نصيبك والعشرة زائدة على الخمسين خذها لوجه الله.

---

605) لم يبق منها إلّا الصّومعة وزالت الزّاوية.

606) داخل السّور بجوار زاوية الشّيخ عمر كمّون ، وهو مغلق اليوم يتطلّب التّرميم والإنقاذ.

607) زال الرّبض وزالت القبّة ونقل جثمانه إلى زاويته داخل السور ، وبنيت له قبّة ما زالت قائمة.

608) ربّان سفينة وكانت بين جربة وصفاقس ملاحة وحركة تجارية دائبة.

609) قرض في قالب سلفة ، ويتمثل عادة في إشتراء كميّة من المنتوج الفلاحي قبل أوانه ويسدّد ثمنها زيتًا أو قمحًا أو شعيرًا على أن يسدّد البائع إلى المشتري هذه الكميّة في الموسم ، عند عصر الزيتون أو حصاد الشعير إلى غير ذلك.

610) في ط : «الكيال» ، وفي ت وب : «الكيل».

قال حفيده : واشتدّ به الحال مرّة أخرى فباع أبواب داره لرئيس جربي فتعطّل سفره إلى أن تَيَسَّر حال الشَّيخ فجاء إلى الرّئيس الجربي وقال له : ردّ عليّ الأبواب / وخذ [254/أ] ما أعطيتني فأبى ، فقال : إن لم تأخذ حقّها وتردّها أخذناها مجانًا ، واشتهرت القضيّة فأبى ، فلمّا نام الجربي أدركته منيّته ليلاً فأصبح ميّتًا فأنزل رفقاؤه الأبواب وقالوا : خذ أبوابك لا حاجة لنا بها . ولم نقف على تعيين سنة وفاته إلّا أنّه من أهل القرن الحادي عشر.

ترجمة الولي شعبان زين الدّين :

ومن مجاذيب صفاقس المتأخّرين سيدي شعبان زين الدّين . كان مشهورًا بين النّاس بالصّلاح ، والجَذْب غالب عليه ، قال أبو عبد الله محمّد الشّرفي ، الشّهير بالصّوفي : كانت طريقة سيدي شعبان أنّه يملأ حيضان ميضاة زاوية الشَّيخ النُّوري ، فاتّفق أن ذُكِرَت[611] سيرته وذكروا أنّه من أولياء الله فأَنْكَرْتُ أن يكون من أولياء الله ، ولم يطّلع علينا أحد إلّا الله تعالى فيما قلنا ، قال : فأتيت ليلة غَرَّني اللّيل وحسبت أنّه آخر اللّيل فإذا به نصف اللّيل ، فدخلت الميضاة لنتوضّأ فإذا بسيدي شعبان يملأ الماء فناداني في تلك الظُّلمة باسمي وقال لي : بماذا تتعلّق قدرة الله وكنت قاصرًا في علم التّوحيد؟ فأكّد عليّ الطلب ولم نجد ما نجيبه به حتّى اقشعرّ جلدي وأخذتني هيبة ورعب ، ففررت بنفسي وتبت إلى الله تعالى وسلّمت أمره وعلمت فضله . وهو من أهل القرن الثّاني عشر ، مدفون بضريحه المشهور[612] به على شاطئ البحر تحت ركب البلد الجنوبي الشرقي.

ترجمة الولي أبي عبد الله مُحَمَّد الْمِسدِّي :

ومن مجاذيب صفاقس المشهورين الشَّيخ أبو عبد الله / سيدي محمّد المسدّي . كان [254/ب] - رحمه الله - من دار أصحاب دنيا عريضة ، فأعرض عنها ولم يتعلّق بشيء منها سوى قميص وجبّة وقلنسوة ، فيمشي بلا نعل . وكان معقول اللّسان لا يتكلّم إلّا بكلام قليل

(611) في بقية الأصول : «ذكروا».

(612) إندثر مع ابتعاد الشاطئ وتغيّر العمران بمكانه.

غير واضح الدّلالة يفهمه من لازمه ، وَزَوَّجَهُ أَهْله فأبى ، فعقدوا وزفّوا وبيّتوا معه الزّوجة فلم يلتفت إليها مع كثرة المراودة منها له ، ثمّ رجعت إلى أهلها.

وكانت له إشارات ، فمنها أنّ النّاس كانوا في أيام المرحوم سيدي حسين باي في غاية الأمن ، ولا يغلق باب البلد[613] إلّا قريب العشاء لانتظار أرباب الفلاحة والبساتين ، فصار الشّيخ يأتي لصاحب الباب ويقول له : إلى العشاء يا كلاب[614] كالمتوعّد المنهر ، فلم تمض أشهر قلائل إلّا وقد وقعت فتنة مع الباشا – رحمهما الله – فصار البوّاب يغلق من المغرب.

ومن إشاراته ما حكاه معلّم الأطفال الفقيه سعيد أَبُو رِيشَة أنّه قال : كان يأتينا من السّحر إلى السّحر ويقرع بابنا ويقول : مال الباي (مال الباي)[615] بكلام غير واضح ، فلم ندر مراده ، فاستحدثنا بدارنا داموسًا ، فلمّا توسّطنا العمل فإذا بأزيار فخّار ملآنة بالرِّيَالات فأحضرنا قائد البلد فأرسل المال إلى الباي.

ومنها أنّه قال لأمّ محمّد السيالة : إن ابنك سيصير قائدًا ، فقالت : إن صدقت بنيت لك روضة ، فكان ما قال ، فبنت له روضة قرب الشّيخ الوحيشي / على قبره ، [255/أ] وتوفّي سنة نيف وخمسين ومائة وألف[616].

ترجمة الولي أبي الفوز سعيد حرَيز:

ومن مجاذيب أهل صفاقس ممّن أدركناهم الشّيخ أبو الفوز سيدي سعيد بن سعيد حَرِيْز ، ذوا الكرامات المشهورة والإشارات المأثورة ، أصل آبائه من بلد المحرس فانتقلوا لسكنى صفاقس ، وبها ولد الشّيخ – رحمه الله تعالى –.

كان سيّدًا نبيلاً وحصورًا جليلاً ، نشأ مجذوبا معقول اللّسان بعقدة طبيعة ، من شاهده تحقّق أنّه من الله لا بتصنّع كما يفعله بعض الملبسين ، وقد يتكلّم قليلاً فينادي الرّجل : يا عم ، والمرأة : يا حنّة ، وقد ينادي : يا عيش[617] لأكثر النّساء[618] وإن لم يكن إسمًا لها ، وقد ينطلق[619] لسانه بالأسحار وجوف الليل بالأسوار والخلوات فينطق

---

613) يقصد باب الجبلي.

614) في ت وط : «غلاب».

615) ما بين القوسين ساقط من ت وط.

616) بعد سنة 1738 بقليل.

617) لعلّه ترخيم عيشوشة (عائشة).

618) في ط وب : «النسوان».

619) في بقيّة الأصول : «ينطق».

بكلام العارفين بالله بلفظ فصيح لا عقدة فيه ولا لكنة. وكان عقد لسانه في الخطاب عناية من الله لأنّه – رحمه الله – كان ممّن أوقفه الله في باب المكاشفة. ويقصده النّاس من كلّ ناحية ويسألونه عن الأمور قبل ظهورها لهم ، فإن أجاب بالواقع كلّ أحد فربّما كان الخبر بما يسوء النّاس فانعقد لسانه – رحمة (من الله)[620] للخلق – ، وكان مبشّرًا بالمسرّة إشارة ، وقد يبشّر بقدوم المسافر فيقول : جاء جاء ، كاتمًا للمصيبة ، فيبشّر أهل المسافر وأهل المريض ممّن كتب الله سلامته وعافيته ، ومن تعسّرت عليها الولادة ودخل عليها دلّ على / خلاصها على أحسن حال ، ولا تخطئ بشارته قطّ إذا قالها من عند [255/ب] نفسه ، أمّا بالتّلقين وكثرة الإلحاح[621] فلا يفيد خبره شيئًا ، لأنّ الولي إذا أطلعه الله على شيء أنطقه به وإن أراد الله البشارة به ولا يحتاج لسؤال ولحّ ، وإن لا فلا ، فلا تأخذ من الولي إلّا ما لاقاك به من غير مواعدة.

وكان – رحمه الله – حسن الخلق محبّبًا عند جميع النّاس فيتحمّل منهم أذيّتهم ويقبلها بعفو وصفح ، ويعامل الكبير والصغير ، والحرّ والعبد ، والذّكر والأنثى ، والغني والفقير ، والقريب والبعيد معاملة واحدة ، وكلّ من أوقفه وقف له ، ويضع – رحمه الله – يده على صدره كالإشارة بأنّي ضامنك ، وقد يُسأل فيقال : أضامن؟ فيشير بيده أن نعم.

وكان لا يقبل من أحد دينارًا ولا درهمًا ، ولم يمسّه قطّ ، نَعَمْ إن وَعَدَهُ أحد من أهل الخير بشيء سِرًّا جاء ومعه نقيبه فيقول النّقيب : هل وعدت الشّيخ بشيء؟ فيقول : نعم ، فيذهب الشّيخ ويتسلّم النّقيب ما فتح الله به.

وله بعض أحبّة مخصوصين يقصدهم ويدخل دورهم غائبين وحاضرين ويأكل من طعامهم وربّما أشار لأهل المحلّ باستدعاء طعام فيُحضر له ما تيسّر فيأكل ما قسم له ، ولا يظهر الغضب قطّ إلّا لمن وقع منه منهى عنه سرًّا ، فيضربه ضربة أو ضربتين أو ثلاثًا وجيعات ، وقد يعضّه عضًّا شديدًا فيفهم صاحب المعصية فيتوب من وفّقه / الله تعالى ، [256/أ] وكان محبًّا لزيارة الصّالحين أحياء وميتين ، ويسافر مع الناس لزيارة أولياء الساحل[622] ، وإذا عملوا السّماع أخذه الحال والتّواجد حتّى لا يملك نفسه ولا يضبط حسّه ، ومهما

620) ما بين القوسين ساقط من بقية الأصول.

621) في الأصول : «اللح».

622) بقرية سيدي عامر المزوغي وبجمال وما حواليها كمصدور وبعوينة الساحلين.

حلّ[623] بالنّاس أمر مهمّ من غزو أو دفع عدوّ كان معهم في جهد جهيد ، وربّما نَشَّط من رآى منه كسلاً محبًّا لجميع المؤمنين ، ويظهر التّحنّن والشّفقة عليهم ، ويعتقده حتى أهل الكفر لما يرون فيه من عدم التّصنّع والتّلبيس ، ظاهره كباطنه ، ورؤيته تذكر الله وتشرح القلب المحزون ، وتزيد الإيمان بالله ورسوله ، ومحبّة في الدّين وأهله عن تجربة ، ويلعب مع أطفال المسلمين ولو آذوه ، ويحثّهم على اللعب الذي يكون من مبادئ الحرب ويشليهم[624] على بعضهم ليدرّبهم على الجهاد ودفع العدوّ وصولته.

وبالجملة فهو حبيب محبّب لجميع الخلق ، وكلّ من لقيه أو دخل عليه محلّه حصل له من الفرح والسّرور ما لا يعلمه إلّا الله.

توفّي والده وهو صغير فكفلته أخته ، ويسّر الله رزقه على أيدي أهل الخير ومن النّذور عند شدّة مرض أو تعسّر ولادة أو فَقْدِ مسافر ، ويكون ذلك موافقًا لما قضى الله وقدّر وقوعه من سلامة العاقبة ، ومدَّة حياته وأهله في سعة رزق ببركته ، وكان في ظاهره ممنوعًا[625] من التدبير والتّصرّف ، لم ينتقل عن أخلاق الصبيان فلا يستطيع / تغيير ما [256/ب] تدنّس من أثوابه ولا على إزالة ما تعلّق به من الأوساخ ، بل تباشره أخته في جميع ضرورياته كما تباشر الصَّبيّ ، وقد يباشر ذلك أهل الخير من النِّسَاء والرّجال فيغسلون رجليه ويديه ويقلعون الشّوك من رجليه لأنّه لم ينتعل قطّ ، ويرجّلون شعر رأسه لأنّه لم يلبس قلنسوة قطّ ، وكلّ من سأله إزالة شيء من شوك رجليه فرح بذلك ولو كان من ذوي الأقدار بل ربّما طلب أهل الخير أن يلوا ذلك منه فيسعفهم بمطلوبهم وحاله في لباس الصَّيف حاله في الشّتاء الجبّة الخضراء والقميص. وكان يعود المرضى ويدعو لهم بخير بالإشارة ، ويبسط يديه للدّعاء ويمسح بهما وجهه ، وإذا قدم النّاس من أسفارهم تلقّاهم وأظهر الفرح والسّرور والإستبشار بسلامة المسلمين ، وإذا غنموا زاد فرحًا ، وإذا سافروا ودعهم ويأخذون خاطره ويطلبون رضاه فيسعفهم بمسؤولهم ، وله محبّة خاصة أكيدة في معتقديه ومحبّيه ، ويدخل عليهم من غير إستئذان ، ولا يحتشم أحد منهم بل يدخل الرّجل فيجده في داره فلا يتغيّر لذلك بل يظهر السّرور به لأنّه ممّن سلم المسلمون من يده ولسانه ، وزهد فيما في أيدي النّاس من مال وحريم (الدَّار والمدر)[626] والنّساء

623) في الأصول · «أحل».

624) في بقية الأصول : «يسليهم».

625) في ط وت. «مهوعًا».

626) في بقية الأصول : «الدر والمدر».

والحجر عنده سواء لأنّه حصور لا شهوة لفرجه ولا لعينه ولا ليده ولا لقلبه، ينظر الحسناء بعين / الشوهاء[627] لا يفرّق بينهما إلّا بالطّاعة، فيحبّ أهل الخير ويظهر له المحبّة، ولا يعنف من استتر في معصية بل قد يشير بحيث لا يهتك السِّتر إشارة يفهمها من وقع فيها كالضّرب كما تقدّم. وإذا نزل بالنّاس قحط واستسقوا كان في أوّلهم، وإذا كانت أفراح للمسلمين كان معهم. [257/أ]

ولمّا وقع الطّاعون سنة تسع وتسعين ومائة وألف[628] بتونس قال بعضهم: قمت في جوف الليل وغرّني الوقت فخرجت فلم أجد أحدًا في الطّرقات، فبينما أنا سائر وإذا بصوت رجل يتأسّف ويتحسّر ويقول: آه عليك يا بلدي، آه على إخواني المؤمنين وهو يتأسّف ويسترجع بصوت لا عقد فيه ولا لكنة فتقدّمت يسيرًا فوجدته الشّيخ، فعن قريب وقع الطّاعون الجارف فذهب بأهل الخير والصّلاح، فعلى ذلك كان يتأسّف، فهو - رحمه الله - كان ممّن جبله الله على حبّ الخير للمسلمين، وكل[629] أحد يظنّ أنّه مختصّ منه بمحبّة زائدة على غيره أكثر ممّا يجده الأولاد من آبائهم لأنّ بعض الآباء قد يظهر ميلاً ولا ميل عنده.

وكان من أهل الخطوة قد شاهده بعضهم على عرفة، ورآه بعض المغاربة مقبلاً في الطّريق بصفاقس وكان من الغرب الأقصى فقال: هذا الشّيخ من هذه البلاد؟ فقال له بعض الحاضرين: نعم، فقال: رأيناه على عرفة، فلمّا وصل الشّيخ أشار إليه أن أسكت مع أنّه / لَمْ يُفْقَد من بلده، ولم يسافر إلّا لزيارة أولياء السّاحل مع إخوانه الزّائرين وهو صاحب دَرك[630] البلد، وقد يقوم بعض النّاس ليلاً فيجدونه[631] فوق السّور دائرًا أو واقفًا بين شرّافتين منه وقد يشاهد خارج البلد ولا يصبح إلّا في داره. [257/ب]

وقد ذكرت بعض النّساء الصّادقات أنّه إذا تعذّرت الولادة وأيس أهل المرأة من خلاصها وأراد الله خلاصها دخل هذا الشّيخ، فتارة تَخْلُص بمجرّد حضوره، وتارة يضع يده على المرأة فيحسن الله خلاصها، فدخوله علامة على السّلامة.

والكلام عليه يستدعي مؤلّفًا مختصًّا بل لا يكفي فيه مؤلّف واحد لأنّ كل أحد قد

---

(627) ساقطة من ط.

(628) 1784 - 1785 م.

(629) في ط وت: «أعلم».

(630) أي المتاعب، في ت: «دور»، وفي ط: «دوك».

(631) في الأصول: «يجدوه».

شاهد من بركاته شيئًا كثيرًا ، وتتبّع ذلك يطول ، والمقصود هو الإعلام بأنّه كان من أولياء الله المقرّبين ، صاحب الوقت في هذا القرن الثّاني عشر في بلده ، هذا المحقّق عندنا ، وكونه من الأوتاد أو الأبدال أو النُّقباء أو النُّجباء لا نعلمه إلّا أنّ علامات الأقطاب لائحة عليه ، وهو أنّه قريب بعيد ، صاح مجذوب إلى غير ذلك من العلامات ، وله كرامات متواترة عند النّاس تواترًا معنويًّا لأنّ كل أحد شاهد منه أمورًا خارقة للعادة.

والذي شاهدته من بعض كراماته أنّي كنت أصابني الربو وضيق النَّفس في بعض السنين فاشتدّ بي الحال واستمرّت العلّة زمنًا طويلاً ثمّ تدارك / الله باللطف بعد اليأس. [257/أ مكرر] فلمّا جاءت السّنة الثانية وأوان المرض أصابني ما أصابني في السّنة الأولى ورجعت إلى ما كنت فيه ، وكانت ليلة عيد الأضحى ، فاستسلمت للقضاء ، وأيست من حضور صلاة العيد ، وغلب على ظنّي أنّه تطول المدّة كالسّنة التي قبلها[632] ، فتعطّل النّفس وذهب النّوم ، فلمّا ذهب من الليل ثلثاه وإذا بقارع يقرع الباب ، فانتبهت الجارية وفتحت الباب فإذا بالشَّيخ – رحمه الله – داخل ، فلم يقصد من الدّار أحدًا غيري ولا علم أحد بحالي إلّا الله تعالى ، فوضع يده في ظهري وكشفه وجعل يدعكه قويًا وأنا أقول : إتّق الله فِيَ كيف تكشف ظهري وأنا أخاف من الهواء والبرد ، وقد زدت في الغطاء مخافة البرد ، فلم يلتفت وجعل يكرّر ذلك الدَّعك والضَّرب ، فلمّا علم أنّ الله أزال العلّة رفع يده وسأل أهلي إحضار ثياب العيد ، وأشار لي باللباس والخروج فقلت : لا أخرج أخاف أن تطول علّتي فضرب على صدره يشير بأنّه ضامن ولا خوف من شيء أصلاً ، فلا زال يستنهضني للقيام وأنا أتقاعس وأميل للفراش وقد وطّنت نفسي على عدم الخروج فغلبني ، ولبست ثيابي كرهًا وتوضّأت وخرجت فما حصلت إلّا العافية التّامّة ، وذهب ما كنت أجده ، وتمّت العافية سنين متطاولة مع أنّي كنت متخوّفًا من ذلك أشدّ الخوف ، ولكنّ الله سلَّم / [257/ب مكرر] وتفضّل بالعافية على يد هذا الشَّيخ الصَّالح.

وكان – رحمه الله – إندق فخذه ، وهو عند الأطبّاء من أصعب الأمراض ، فحضر الطّبيب وعَصَّبَه بالجبائر كلّ ذلك ولم يسمع منه حرف ولا تأوّه ، ولا أظهر وجعًا ولا ضجرًا ، بل كان مستسلمًا لقضاء الله تعالى ، فشفاه الله في أيسر زمان ، وقام يمشي على قدميه كأن لم تصبه عثرة رجل فضلاً عن دقّ الفخذ.

---

632) ساقطة من ط.

ودخلت عليه يومًا برمضان وهو يأكل فتناولت لقمة وأظهرت إرادة الأكل فأشار أن لا فقلت له : سبحان الله حرام علينا وحلال لك؟ فأشار أن نعم، فعلمت أنّ [الله][633] اصطفاه لحضرته واختصّه[634] بكرامته وأذهله عن ضبط جوارحه للعبادة وأقامه في حضرة الشّهود وكلّ ميسّر لما خلق له.

ولمّا جاء الطّاعون الجارف سنة تسع وتسعين ومائة وألف[635] لم يسلم منه أحد، فأخبرني الشّيخ الفقيه المدرّس الواعظ أخونا في الله تعالى أبو عبد الله الحاج الأبر سيدي محمد المزيو – أمدّ الله في حياته وأجرى الصّالحات على يديه ووفّقنا وإيّاه لما يحبّه ويرضاه – قال : لمّا أُصبت بالطّاعون أشفقت على نفسي وكنت من مُحبّي الشيخ ومُعتقديه ونتبرّك بدخوله ورؤيته فقلت في نفسي : غاب عنّي الشّيخ في مرضي هذا ولم يزرني مع أنّه كان لا يغيب عنّي في أيّام العافية، قال : فلمّا طلع النّهار فإذا به دخل ورفع عنّي السّتر ورجع من حيث جاء، ثمّ رجع من الغد / وجلس عندي قليلاً وتناول [258/أ] قليلاً من الخبز واللّبن، وفي اليوم الثّالث دخل معي في الفراش وقرن رجلي وجعلها بين رجليه، وأدار يديه بعنقي وتَمَرَّغَ عَلَيَّ حتّى خشيت زهوق روحي، وأخذه حال، وظننت أنّ الأجل قد حضر، فإذا بالعرق إنسكب ولم يرسلني حتّى أخذني النّوم، فانصرف ولم نشعر بانصرافه، فلمّا استيقظت أحسست بمبادئ العافية، ورجع من الغد ففعل مثل ذلك، وفي اليوم الثالث دخل معي في الفراش وأشار لي بيده إلى الغسل والكفن فقلت : أَحَضرت منيّتي؟ فأشار أن لا، بل أنا، فقلت : عافاك الله، نسأل الله أن يديم علينا التّمتّع بصحّتك، فأشار بأنّ الأجل قد فرغ، وأخذ منّي العهد على أنّي أتولّى غسله وكفنه، وبسط يديه للدّعاء ثمّ مسح وجهه، فما خرج إلّا والعافية زادت، فلما خَرَجْتُ من المرض بعد أيّام قليلة وتمشّيت[636] في الطّريق قيل لي : حياتك الباقية في الشّيخ، فذهبت للوفاء بالعهد، فوجدت بالدّار جمعًا كثيرًا من الفقهاء وغيرهم إبتدؤوا غسله فعرّفتهم بوصيّة الشّيخ فتنحّوا عنه، وغسلته وكفّنته، وحملنا سريره إلى الرّوضة التي إستجدّها له القائد علي الجلّولي – رحمه الله تعالى ورحم جميع المسلمين – وصلّى عليه كلّ من بقي من أهل البلد متعافيًا، ودفن في وسط روضته[637] المشهورة في

633) ساقطة من ش.

634) في ط وت. «اختصه».

635) 1785 م.

636) في ط وت : «تماشيت».

637) زالت هذه الروضة بزوال الربض.

[258/ب] الرّبض وذلك بشهر جمادى الآخرة من سنة تسع / وتسعين ومائة وألف[638] وقد ناهز السّبعين سنة.

ترجمة الولي أبي الحسن علي الجراية:

ومن تلاميذ سيدي سعيد حريز الشّيخ العارف بالله تعالى أبي الحسن سيدي علي الجراية.

كان في صغره من صيادي السّمك مع والده، قالت والدته: خرج مع والده على عادته لصيادة السّمك بجزيرة الكنائِس بالبحر الغربي من البلد، (فلمّا نزلوا)[639] نزل الشّيخ معهم فشرعوا في نصب العمل لأخذ السّمك، فبينما هم في العمل إذ دخل الشّيخ ملججًا في لجّة البحر أكثر من القدر الّذي يأخذون منه السّمك، فظهر لوالده على بعد أنّه تلقّاه رجل من البحر، فلمّا رجع جاء على حال غير الحالة التي ذهب عليها وهو كالولهان ويتكلّم بكلام لا يفهم وعلى فيه زبد كالجمل الهائج، فلمّا وصل إلى القارب التي يحمل فيها العمل[640] أراد والده إدخاله فيها فقال له شريكهم في العمل: ما لك تهدر وتحمق فعلى من تفعل هذا؟ وأظهر الكراهية والغضب على الشّيخ فانكسرت على رأسه قَرْيَة[641] القلاع فخاف ورجع عمّا صدر منه واستغفر الله وتاب، فلمّا رجعوا إلى البلد إستقبله الشّيخ سيدي سعيد حريز – رحمه الله تعالى – فأخذه معه وأدخله الخلوة فبقي عنده ما يقرب من خمسة أعوام ثمّ أخرجه وكساه جبّة خضراء، وهي في هذه الأعصار صارت شعار الصّالحين عوضًا عن الخرقة شعار الصّوفية، فحمله لدار والدته فحجبه بها لمثل تلك[642] المدّة، فكانت خلوته في دار/ أمّه. [259/أ]

وكان ملازمَ الصّوم والصّلاة لا يفطر إلّا على زبيبة وقلب لوز مدّة احتجابه في خلوته، ثمّ خرج مختومًا على فيه فلا يتكلّم إلّا رَمْزًا، فقدم رجل من أهل طرابلس يقال له محمود بن لَلّونة فاعتقد الشّيخ وصار يتردّد عليه وقال له: إنّي أريد الذّهاب لتونس للأمير سيدي علي باي يسرّح لي زوج مراكب قمح لأنّ بلادنا أصابها قحط فاسأل الله أن

---

638) أفريل 1785 م.

639) ما بين القوسين ساقط من بقية الأصول.

640) يعني أدوات الصّيد البحري.

641) عصا طويلة غليظة تستعمل لأغراض الملاحة.

642) في الأصول: «ذلك».

يجعل لي قبولاً عند الأمير ليقضي لي ما قصدته ، ففتح الشّيخ يديه إلى السّماء على صورة الدّعاء إشارة إلى أنّ الله يقضي له مآربه ، وقال : إن يسّر الله عليّ الأمر آتيتك بجبّة خضراء وكان جالسًا على دكّة من ألواح وأخشاب ، فقال : ونعطيك هذه الألواح والأخشاب يستعملونها لك تابوتًا ، وكان قد ابتنى له القائد أحمد أبو ديدح قُبّة بالرَّبض قرب تربة شيخه فذهب إبن للّونة لتونس ، وحصل له ما أراد ، فلمّا رجع إلى صفاقس ، أعطى للشّيخ ما وعده من الجبّة واللّوح والأخشاب فصنع من ذلك تابوتًا وحملوه إلى التربة ، فخرج الشّيخ معهم وكذلك سيدي سعيد حريز فجاءه وجذبه من أثوابه فلم يقم ، فضربه بيده خمس ضربات وهو يضحك ، فكانت مدّة احتجابه الحجبة الثّالثة خمسة أعوام بعدّة الضّربات ، واتّصلت حجبته بوفاته.

وكان – رحمه الله – خفيف الرُّوح على النّفس ، خفيف المؤنة ، حسن الصّورة ، عليه نور زائد ، كثير النّظافة ، يمشي بلا نعل فلا يعلق به شيء من قذر الطّريق ، / وإن [259/ب] علق به ما ندر بادر بغسله محافظة على نزاهة الظّاهر ، كما هو محافظ على نزاهة الباطن ولمّا سار الشّيخ لزيارة الصّالحين من أهل السّاحل ، واستمرّ لزيارة الصّالحين بتونس ، خرج أبوه في صحبته ليتولّى خدمته والقيام بشأنه ، وكان أبوه فقيرًا عاجزًا عن الكسب ، فذهب به إلى الأمير سيدي علي باي – رحمه الله تعالى – ، فلمّا قدم عليه أحبّه وأقبل عليه وقال : هذا رجل عليه سيماء[643] الصّالحين فأخذه وأجلسه في حجره تبرّكًا به ، ثمّ سأل والده عن مطلوبه فعرّفه بضنك عيشه وقلّة ذات يده ، فقال له : سل[644] تُعْطَ ، فقال : تجعل لي نصيبًا من زكاة الحبوب نقتاته ، ولتكن زكاة أبي عرادة فقال له : أعطيتك ذلك ، فدعا بخير ، ومدّ الشّيخ يده للدّعاء ونزل إلى تونس فصار أهل الخير يعطون والده ما تيسّر تبرّكًا منهم بالشّيخ ، فرآى الشّيخ ذلك فأشار إلى والده أن لا تأخذ شيئًا وإلّا قصمت ظهرك ، فردّ على النّاس ما أعطوه ، ولمّا أراد السّفر من تونس ذهب والده ليأخذ الظّهير من السُّلطان فقال لهم السُّلطان : اكتبوا له فإنّ الشّيخ علق حبّه بقلبي وما غاب عن بصري منذ رأيته حتّى في النّوم ، فكتبوا له ورجع مجبور الخاطر بعدما كساه هو ووالده وخديمه جبّة خضراء.

وكان الشّيخ محبًّا لتلاوة كتاب الله العزيز ومحبًّا لأهل الله وخصوصًا حملة القرآن ،

---

(643) في ط : «سمة».

(644) في ط وت : «اسأل».

[260/أ] فيستمع للتّلاوة ويبكي ويظهر الخشوع والبكاء / والتّضرّع ، فإذا سمع آية رحمة فرح واستبشر وبسط يديه للسّؤال ، وإذا سمع آية عذاب غلبه الفزع والرّعب وأشار بيده إلى الإستعاذة منها . وكان محبًا لكثرة الصّلاة محافظًا على الفرائض في أوقاتها ، محبًّا لسماع الصّلاة على رسول الله ﷺ ، وكان محبًّا للشّيخ سيدي طيّب الشّرفي – رحمه الله – وللشّيخ فيه اعتقاد زائد ، وكانا يتزاوران كثيرًا ، فإذا احتجب زاره الشّيخ في داره ، وإذا خرج زار الشّيخ في مدرسته إن وجده وإلّا ففي داره ، وإذا كان يوم جمعة قرأ له الشّيخ دلائل الخيرات فيستمع له ويظهر السّرور عند سماع ذكر رسول الله ﷺ .

ولمّا توفّي صار الشّيخ يذهب يوم الجمعة إلى ضريحه فيقرأ بإزاء قبره . وبعد وفاة الشّيخ – رحمه الله – قام ولده الشّيخ سيدي عبد الرّحمان – رحمه الله – مقام والده فيذهب لضريح الشّيخ الجرّاية فيقرأ دلائل الخيرات كوالده – رحمة الله على الجميع – .

ولمّا حضرت وفاته توجّه إلى القبلة بنفسه وأطبق عَيْنيه وَفَاهُ بنفسه بعد أن أوصى أن يتولّى غسله ، وكَفَنه الشّيخ سيدي طَيّب الشّرفي ، وتشهّد كلمة الحقّ وفارق الدُّنيا – رحمة الله عليه – سابع ربيع أوّل المشرّف بولادته ﷺ سنة خمس وتسعين ومائة وألف[645] وله من العمر أربعون سنة . وكتب بعضهم على تابوته قوله :

[الطّويل]

[260/ب] فَهَذَا الَّذِي قد كان يعبُدُ رَبَّهُ ويخشى إِلَى أَنْ مَات في خَلَوَاتِهِ /
حَليفَ التُّقَى والصَّوم والصَّمْتِ دهرَهُ ففيها نجاةُ المَرء من هَفَوَاتِهِ
لَقَد مات في تسعين مَعْ خَمْسٍ خلَتْ وألف ومائة قل ذاك عَامُ وَفَاتِهِ

ترجمة الولي أبي عبد الله محمّد أبو مغارة :

وممّن رأيناه وعرفناه من مجاذيب الوقت الرّجل الصّالح العارف بالله تعالى أبو عبد الله سيدي محمّد أبو مغارة إبن الرّحّال السوسي.

كان في ابتداء أمره قدم من بلد السُّوس إلى صفاقس فأقام بها وحفر مغارة في وسط المقابر فينزل إليها ويبيت بها ليلاً وحده منفردًا فيدخل البلد نهارًا يطلب قوته ، فإذا جن اللّيل خرج وبات بها ، فمن ثمّ سمّي أبا مغارة. ثمّ أخذ يتعلّم الحروف حتّى تمرّن عليها

645) 2 مارس 1781 م.

واستخرج الخطّ كما يتعلّم الأطفال من غير داع يدعوه بل سوق إلاهي ، فلمّا استمرّ على الخطّ صار لا يسمع بآية من كتاب الله وَاعِظَة زاجرة إلّا كتبها ، وكتب سورة «يس» و«المفصل» ، وأضاف إلى ذلك مواعظ بعض الصَّالحين ممّا يناسب تلك الآيات الكريمة كقوله :

[مجزوء الرمل]

إنّمـــا الـــدّنيـــا كبيْت نسجتهـــا[646] العنكبوت
إنّمـــا يكفيكَ مِنْهَـــا أيُّهـــا الرّاحـــل قوت

ثمّ بعد مدّة إنتقل لجربة ، فحفر بها مغارة تحت الأرض كما فعل بصفاقس ، ونزل بحفرها حتّى وصل الماء فوجده عذبًا فصار يملأ منها ويسقي النَّاس مجانًا.

وله إشارات كثيرة ، فمنها أنّه إذا ملأ الماء وصبّه على وجه الأرض إستبشر النَّاس بقرب نزول الغيث ، فإن صبَّ كثيرًا نزل الغيث الكثير ، وإن صبَّ قليلاً نزل القليل ، وإذا صرخ في الأسواق دلّ على نزول بلاء بالمسلمين / جُرّب مرارًا فصحّ ، وكان يكثر [261/أ] الغلث[647] في إشاراته ولا يفهمها إلّا من مارسه ، وربّما لا تفهم إشاراته إلّا بعد وقوع ما أشار به ، فمن إشاراته أنّه وقعت قِرَّة شديدة بالشّتاء بات النَّاس منها في كرب فأصبح الشَّيخ مصفرّ الوجه من شِدّة البرد لأنّه كثيرًا ما يدخل البحر لغسل ما يلحقه من الوسخ والقمل ، فيأتي المحاويج[648] فيأخذون ثيابه ولا يتركون منها إلّا ما يواري السّوءة فَيَلْبسه ويدخل الأسواق فيكسوه أهل الخير ، فلما نزلت القرّة أذاه البرد أذى شديدًا ، فجاء وجلس بجانبي واشتكى البرد وتمنّى ما يقي به مهجته من الثّياب ، وكنت في شغل ، فخطر في بالي أنّي إذا أفضيت[649] أذهب إلى محلّي أعطيه برنسًا قديمًا كان عندي ، فما استتممت الخاطر إلّا وهو ينادي ، وكان يسمّيني بسيدي عبد العزيز التَّبّاع ، وقال لي : هل تعرف مناسك الحج؟ فقلت : نعم! فقال : كم أركانه؟ فقلت : قل نسمع ، وقلت : لعلّه يتكلّم بكلام غير ما يقوله[650] الفقهاء ، فقال : هي أربعة ، فقلت : نعم ، وهي كذلك ، فقال : أوّلها الإحرام ، والإحرام يمنع المخيط بالعضو ، فقلت : نعم ، ثمّ دخل وخرج وزاد في

646) في الأصول : «أنسجتها».
647) أي التخليط.
648) ج محتاج.
649) أي صار لي من الوقت فراغ.
650) في الأصول : «يقله».

الكلام لغوا ثمّ رجع وقال : الجديد يحبّه الرّبّ ، ويفرح به القلب ، ثمّ دخل في كلام
وخرج وجعل يكرر الإحرام وممنوعاته فسرى ذهني للبشارة بحجّ جديد ، ثمّ فكرت في
[261/ب] مقتضى الحال الموجب لكلامه فإذا هو البرد / وأنّي خطر ببالي أنّي نكسوه برنسًا قديمً
فهذه إشارة منه لترك هذا البرنس لأنّه مخيط قديم ، وأنّه يطلب عباءة جديدة كما يلبس
المحرم ، فلمّا استقر في ذهني هذا المعنى التفتّ إليه وقلت له : أركان الإحرام أربعة نش
إليه أنّي قد فهمت إشارته ، فأعرض عنّي وكأنّه لم يصدر منه ما قال ، ثمّ خاطب نفس
مكنيا عني بقوله : هذا ما بقي يفوته شيء ، قاع ، ولفظة قاع[651] يستعملها أهل
السُّوس[652] لمعنى الإحاطة والشّمول فكأنّه يقول : لا يفوته شيء من الأشياء كلّها ، فلمّ
فهمت مراده إشتريت عدّة عبائن[653] وخيّرته في جميعها فاختار واحدة تليق بحال
فأخذها ودعا بخير وانصرف.

ومن إشاراته أنّي كنت خائفًا فوات شيء يترتّب عليه ضرر كثير في الدّين والدّنيا
وتحيّرت من ذلك كثيرًا مدّة ، وارتقبته فأبطأ مجيئه ولحقني من ذلك حرج في الصّدر
وفكّرت في شأنه ليلاً ونهارًا حتّى أقلقني وطلبت من الله الخلاص وتطمين السّرّ ، ولم يطلع
على سرّي إلّا علاّم الغيوب ، فبينما أنا جالس ذات يوم وإذا به ينادي : من يكسوني
قميصًا يرى الآية الكبرى ، فنادى بذلك فلم يجبه أحد ولا فهم له أحد مقصودًا ، فألهمني
الله إلى مراده وقلت : هذا رجل من رجال الله ساقه الله وكانت ليلة عيد الفطر ، وهذ
[262/أ] عريان يطلب سترًا ، ولعلّ الله / يجعل على يديه الفرج وهذا بشارة من الله بحصول
المقصود ، فلا بدّ من جبره لعلّ الله يجبرنا ، فناديته وقلت له : أحقًّا ما تقول؟ فقال
نعم ، نعم ، نعم ، فأكّدت عليه ، فقال : جَرِّب ترى ، فناولته قميصًا جديدًا يليق ب
وأكملت[654] بقيّة يومي ونمت وأنا بين اليأس والرجاء ، فوالله ما أصبح الصُّبح إلّا وق
أتى البشير بحصول المقصود فكان يوم سرور بعيد الإسلام وبحصول ما كنت خائفًا فواته
ومنها أنّه دخل عَلَيَّ خارجي[655] حال قراءتي مختصر الشّيخ خليل[656] وباحثني في

---

651) القاف المعقدة كالجيم المصرية والذي سمعناه من المغاربة «قع» بدون ألف.
652) يستعملها أهل المغرب الأقصى قاطبة لا خصوص أهل السّوس.
653) عباءة ، وفي ط : «عبيان».
654) في ط : «كملت».
655) أي إباضي.
656) بالزّاوية المرادية بجربة.

مسألة الكلام ، وقال : كيف تقولون بقدم كلام الله ، والله يقول : ﴿ذِكْرٌ مُحْدَثٌ﴾[657] فأجبته بأن الحدوث في تنزيله ولا يلزم منه حدوثه في نفسه فإنّ المعنى القائم بالذّات الأقدس باق على ما هو عليه من القدم ، والحادث هو التّنزيل على أنّ النّازل اللّفظ الدّال عليه ، ونزول اللّفظ الدّال نزول المعنى من حيث الدّلالة ، فالحادث والنّازل هو اللفظ ، ثمّ أكثر من تخليطاتهم ، وأجبته عمّا سأل فخرج وانصرف وبقيت كالمتفكّر في هذا المذهب وفي حال أهله ، وتعجّبت من قوم يرغبون بأنفسهم عن المنهج القويم ويرضون لأنفسهم بشنائع البدع ، فما مضت ساعة أو ساعتان فإذا به قادم من السّوق كأنّه طالب لأمر أو كأنّ سائقًا يسوقه وهو يتلو قوله تعالى ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[658] ﴿ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[659] فحمدت الله وازددت [262/ب] يقينًا وتحقّقت أنّ مذهب السّنّة لا يعلمه إلّا خواص خلق الله ، ورسخت مسائل السّنّة في قلبي رسوخًا أغنى عن الدّليل من حيث أنّ الله أَطْلَع هذا الشّيخ عن هذا الخاطر وألهمه للنّطق بهذه الآية الكريمة المناسبة لحال ما كنّا فيه ، وتبيّن لي أنّه من الرّجال العارفين بالله ، القائمين على الحقّ ومذهب السّنّة.

ومنها أنّي كنت متوجّهًا لبرّ المشرق[660] فجاء بعض الإخوان وقال لي : قم لنأخذ خاطر الشّيخ وتحصل لنا بركة زيارته ، ومن عادته أنّه لا يحب من يأتيه لمكانه مخافة كثرة النّاس عليه ، ولأنّه إذا كشف الله له عن شيء من حال أحد وسخّره الله للإعلام به قصده وأشار إليه من غير أن يتعرّض له السائل وإن لم يطلعه أو لم يسخّره فلا فائدة في السّؤال ، فلمّا رآنا قادمين عليه أظهر الإعراض عنّا وكأنّه ما رآنا ولا عرفنا قطّ ، وكان كثيرًا ما ينشد كلام العارفين بالله ويتواجد بذلك ، وكان رفيقي يعرف من ذلك الكلام الّذي يقوله الشّيخ ويتواجد به ، فلمّا رآى إعراض الشّيخ تكلّم صاحبي بذلك الكلام على الصّناعة الّتي يقول الشّيخ بها فإذا بالشّيخ تلقّف ذلك الكلام وصار يقول هو بنفسه واعتراه حال وتمادى في كلامه وحاله ، فلمّا فرغ وسكن ما به إنبسط لنا بعض انبساط فعند ذلك قال له / زوّد أخانا هذا صالح دعائك ، فإنه متوجّه للسّفر ، فقال : أعطاه [263/أ]

---

657) مستوحاة من الآية 2 ، سورة الأنبياء ، أو من الآية 5 ، سورة الشّعراء.

658) سورة لقمان : 25.

659) سورة يوسف : 21.

660) في ش : «إلى المشرق».

الصّالحون إثنتي عشرة خبزة ، وبسط يديه للدّعاء والفاتحة ، وبسطنا أيدينا لذلك ، فدعا ما تيسّر وقرأنا فاتحة الكتاب وانصرفنا ، فلم ندر هذه الإثنتي عشرة ما هي ، بل ولم نلتفت إليها كبير التفات ، فلمّا عملنا على السّفر إستعمل الأهل خبزًا للسّفر فلمّا أحضروه عدّوه من غير وعد ولا سؤال وأنا أنظر فإذا هو إثنتا[661] عشرة خبزة. فلمّا شرعنا في السّفر جعلنا نأكل كلّ يوم واحدة فما فرغت الإثنا[661] عشرة خبزة إلّا وإسكندريّة أمامنا في إثني عشر يومًا ، وكان ربح المال إثنتي عشرة مائة ، ومدّة الغيبة عن الأهل إثني[662] عشر شهرًا.

ومن إشاراته أنّي تزوّجت بصفاقس ، ودخلت جربة بعد ذلك فجلست بإزاء بعض الإخوان فإذا بالشّيخ وارد علينا ، وسأل الأخ : أين كان هذا؟ فقال له : تَزَوَّج بصفاقس ، فقال له الشّيخ : أعطوه ناصريًا وموزونتين فلم نلتفت لقوله ولم نفهم مراده ، فقال ذلك الأخ : لا تلد لك هذه المرأة إلّا ولدًا ذكرًا وبنتين ، فوالله ما وقع إلّا ما أشار إليه ، وانتقلت لرحمة الله بالطّاعون.

ولقيته يومًا في مكان خال فوقف وقال : كانت شينَة وتعود إن شاء الله زينَة ، وكرّر ذلك فعلمت أنّ الله ساقه لي وأنّ هذه بشارة بالهداية في ساعة إجابة ، فسألته الدّعاء الصّالح زيادة على ما قال ، فزادني / فمن تلك السّاعة والحمد لله أقبل الله بقلبي للخير ولم [263/ب] نزل[663] نجد بركة ذلك الدّعاء وإنّا نتوسّل إلى الله العظيم بنور وجهه الكريم ، وبنبيّه الرّحيم ، وبملائكته المقرّبين ، والشّهداء والصّالحين أن نُقبل[664] بقلوبنا لما يحبّه ويرضاه.

وكان – رحمه الله تعالى – يطلب قوته من النّاس ، وقد يسأل شيئًا معيّنًا فتارة يعين قليلاً وتارة يعين كثيرًا ، وعادة النّفس أن تسمح بالقليل وتبخل بالكثير ، فيقول : لا عليك ، القليل بالمكسب القليل ، والكثير بالكثير ، فوالله ما يكون إلّا ما يقول ، فلمّا جربنا ذلك صرنا نتمنى أن يسأل الكثير لأنّ النفس تحبّ المال حبًّا جمًّا ولا يرغب أحد عن فضل الله. هذا بعض ما شاهدت من إشاراته ولو تتبّعنا جميعها لطال بنا الحال ، وفي هذا القدر كفاية.

ومن أغرب ما وقع أنّه قدم أبناء جلود قيادًا على جربة ، وسعوا في قطع أعيان أهل

---

661) في الأصول : «إثني».

662) في ش : «إثنتي».

663) ساقطة من بقية الأصول.

664) في الأصول : «يقبل».

السّنّة أخرجوا هذا الشّيخ من البلاد فأركبوه في سفينة وأمروا بإخراجه لصفاقس كرهًا عليه ، فسمع بذلك شيخنا أبو إسحاق سيدي إبراهيم بن محمّد الجِمَّني فأرسل من ردّه من البحر فنزل ودخل السّوق وهو ينادي : أنا لا أخرج منها ، بنو جلود هم الخارجون منها ، فلم تمض أيّام قليلة إلّا وقد جاء أمر من الأمير بعزلهم فأُخرجوا كرهًا عليهم ، ولم يرجعوا إليها بعد ، وانقطع أثرهم بل وعقبهم ، نعوذ بالله من التّعرّض لمساخط أولياء الله /. ولمّا ظهرت بركاته للخاص والعام من المالكية والوهبية[665] إعتقده الفريقان ، [264/أ] وبنى له بعض رؤساء الوهبية[665] قبّة ، فلمّا وقع الطّاعون بجربة سنة تسع وتسعين ومائة وألف[666] إنتقل لرحمة الله ودفن بها .

وكان – رحمه الله – يقول : التي ما رأيناها حسبناها[667] ما كانت ، وهذا هو معنى قول من قال : معذور من شاهد ومعذور من لم يشاهد .

وكان يقول أيضًا : كلمة من غير فيك تنفعك ، وهذا أيضًا حقّ ، فإنّ من بسط لك عند غيرك عذرًا أو أثنى عليك نفعك ، وإذا أثنيت على نفسك أو بسطت عذر نفسك لم ينفعك .

وكان يقول : الرّاحة في الشّهوة ، والأمر كما قال ، لأنّ الشّهوة ملائمة للطّبع ومن حصل له ملائم طبعه إستراح .

وكان يقول : هذه الدّار الفم[668] فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين ، وفارقت الجنة بالمنقصات وسرعة الزّوال .

ترجمة الولي أبي العبّاس أحمد التّاجوري :

ومن مجاذيب الوقت ممّن رأيناه وعرفناه الشّيخ أبو العبّاس سيدي أحمد التاجوري . كان – رحمه الله تعالى – من تاجوراء ، قرية من عمل طرابلس ، قدم لصفاقس ، وكان متجرّدًا عليه عباءة صوف ، فأخبرني أبو الحسن الحاج علي الشّرفي قال : لمّا قدم

---

665) وهم إباضية

666) 1785 م .

667) في بقيّة الأصول : «حبسناها» .

668) في بقيّة الأصول : «الدراهم» .

الشّيخ من طرابلس كنت بالباب الجبلي نكتري أُجَرَاء[669] لحصاد الزّرع فاكتريت جماعة ، فقال لي رجل حاضر: زد معهم هذا الطرابلسي ، فقلت له : أَتَطْلَع[670] مع النَّاس؟ فقال : نعم ، فطلع وعمل مع النَّاس ، فلمّا حضر الأكل إمتنع من الأكل فسأله بعض النَّاس فقال : هذا طعام / لجماعة ولم يخصني بشيء فلا آكل ، فتورَّع حيث لم [264/ب] يعيّن له طعامًا يخصّه ، قال : وبات الليل كلّه مع من لا يرى ، فلمّا قدم بعض الأُجَراء قال : أنت اكتريت رجلاً وليًّا من أولياء الله شاهدنا من أحوال هذا الرّجل ما لم نشاهد من أحوال النَّاس.

وقال أيضًا : كلّما أقام عندي لم يأكل شيئًا من مشتهيات الأطعمة ، وقد يقيم العشرة الأيّام وأكثر بلا أكل ولا شرب ولا ينتقل عن موضعه ، وربما مشى كمشي المقيّد ولا يتكلّم بكلمة واحدة ، وإذا طلب الأكل أكل ما حضر من ميسور الطّعام ، وقد يأكل في بعض الأحيان أكلاً ذريعًا ويشرب كثيرًا خارجًا عن المعتاد.

وكان على الضّدّ من الشَّيخ سيدي سعيد حريز ، فإذا قدم على محلّ دلّ على حدوث أمر مكروه : موت أو مرض أو غير ذلك ، فهو واقف في باب النِذارة ، والشَّيخ حريز في باب البشارة ، وكان كثيرًا ما يلازم سقائف الحمّامات ومستوقداتها ، ودخل عليه سيدي سعيد حريز يومًا فضرب الشَّيخ التّاجوري ضربًا وجيعًا فأخذ الشَّيخ التّاجوري حجرًا عظيمًا فرماه به وقال : أنت في بسط ولبس الْمَلَف[671] وأنا في حالتي هذه وتزيد عليّ ، وذلك لأنّ الغالب على الشَّيخ التاجوري القبض والاسقام. وكان مكشوف الرّأس حافي الرّجل كثيرًا ما يتزر ويتردّى بفوط الحمّام ، وقد يحلق جميع شعر رأسه وذقنه وشاربه حتّى لا يبقى فيها شعرة واحدة.

[265/أ] وله إشارات / كثيرة ، فمنها أنّه عرضت لنا مسئلة تعسّر على إخواننا فهمها لكثرة شبهها ، فطلبوا منّي تحريرها على وجه يزيل الشّكوك والشّبه ، فكتبت بقدر الإستطاعة ، فلمّا فرغت من الكتابة وقف عليّ وقال : إسقني الماء فإنّي عطشان ، فأتيته بشيء من الماء العذب الطيّب فأخذه بيده وردّه وقال : هذا غير سائغ أريد غيره وذهب عنّي ، فلمّا

669) العادة القديمة أن إبّان موسم الحصاد يقف الرّاغبون في العمل أمام باب الجبلي ، وهو مدخل من يأتي من الضّواحي ، ويكتري كلّ واحد ما يشاء من العملة لحصاد زرعه بعد الإتفاق على الأجر اليومي ، وهذه العادة انقرضت منذ عشرات السّنين.

670) كلمة تشير في لغة صفاقس إلى الذّهاب إلى الأرض الفلاحية للعمل بها.

671) المَلَف قماش صنعته صفاقس في حياتها الأولى ثمّ صارت تستورده.

عرضت التّقرير على إخواني الطَّلبة قالوا : لا نفهم هذا ولا نقبله فرجعت وقررت المسألة بوجه غير الأوّل ، فأتاني الشّيخ التّاجوري والذي فعله أوّلاً فعله ثانيًا ، والذي فعله إخواننا الطلبة بالتّقرير الأوّل فعلوه بالتّقرير الثَّاني ، فعدت ثالثًا في التّقرير ، ولمّا فرغت فعل معي كما فعل أوّلاً وثانيًا ، وردّ الطّلبة التّقرير ، وجعلت أعود في التّقرير وهو يطلب الماء ويردّه ، ويردّ الطّلبة التّقرير لوجود من يخالف لاستناده لبعض الشّبه ، فكلّما قطعت شبهة عارض بأخرى ، فاحتجت لقطعها إلى أن انقطعت الشّبه بأسرها ، وانزاحت العلل بأجمعها ، وتقرّرت المسألة سالمة من الشّوب والدّخل ، وظهر الحقّ الذي لا لبس معه ولا خفاء ، فلقي بعض الطَّلبة فقال له : قل للشَّيخ هكذا الأمر نعم ما صنع البارحة ، لأنّ تقرير المسألة كان ليلاً ، فلمّا جلست بمحلي[672] الذي أجتمع فيه بالإخوان وإذا / [265/ب] بالشَّيخ واقف على الباب وهو يقول : ناولني طعامًا ، فناولته شيئًا من التّمر فجعل يأكل ويستزيد حتّى استكفى ، فقال : يكفي ، فلمّا حضر إخواننا عرضت عليهم التّقرير فأذعن من كان يخالف وقالوا بأجمعهم : لم يبق لبس ولا خفاء ، فهذا تقرير في غاية الوضوح ، ﴿وجَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾[673] فظهر لي أنّ الشَّيخ التّاجوري أطلعه الله عمّا نحن فيه ، وأنّ طلب الماء وَردِّه إنّما كان إشارة لعدم كفاية التّقارير الأولى ، وقبول التّمر وأكله إشارة لرضى السَّامع بالتّقرير الأخير ، فحمدتُ الله على الوصول لإظهار الحقّ بوجه مبين ، وزاد اعتقادي في الشَّيخ .

وكنت متردّدًا في أمر نفعله بنفسي أو ننوّب فيه غيري ، ثمّ عزمت على إرسال غيري لأنّي كنت أعمل الميعاد في المسجد الأعظم بقراءة تفسير القرآن العظيم ، وتقرير أحاديث النّبي الكريم عليه أفضل الصَّلاة وأزكى التّسليم لنفع نفسي وإخواني المؤمنين ، فخشيت أنّي إذا باشرته يعوقني عن المقصود فعزمت توجيه غيري ، فأتيت يومًا المسجد على عادتي فلمّا دخلت المسجد وجدته جالسًا بالصّحن ، وكان معي بعض الإخوان ، فقال الشَّيخ : إسقني ماء فقلت لذلك الأخ : إذهب وأته بشيء من الماء يشربه فقال الشَّيخ : بل إذهب أنت / [266/أ] برجلك حافيًا من غير نعل ، فاستعفيته فلم يعفني ولم يرضى منّي إلّا بالذّهاب بنفسي ، فذهبت لدكّان بعض الحلاّقين قرب المسجد وأتيته بماء فشربه ، واستزادني فزدته مرّة وأخرى ، فلمّا أكثر علي أرسلت ذلك الأخ فذهب وأتاه بما كفاه ،

---

(672) ساقطة من بقية الأصول.

(673) إقتباس من الآية 81 من سورة الإسراء والتّلاوة «وقل جاء الحقّ».

فلمّا أردت بعد ذلك توجيه غيري لذلك الأمر الذي قصدت تَعَسَّر الأمر حتّى ذهبت بنفسي وبآشرت أوّله ثمّ أرسلت من أتمَّه ، فكان ذلك من الشَّيخ إشارة لما وقع ، وأحواله وأفعاله وأقواله كلّها إشارة .

ووقع في سنة من السّنين جدري أفنى الأطفال ، فتأسّف النّاس على فقد أطفالهم فقال لهم : هذا الكرباع[674] وما زال الدّلاّع ، فما[675] كان إلّا يسيرًا وجاء الطّاعون الجارف .

وأخبرني العمدة الثّقة سيدي عبد السّلام الغراب ، وكان من مريدي الشَّيخ ومحبّيه ، أنّه سمع من الحاج محمود الشّرْفي صاحب الحمام أنّه قال : غاب الشَّيخ عنّي ذات يوم فقدم عليّ رجل لا أعرفه ولا رأيته قطّ فقال لي : أين الشَّيخ التّاجوري؟ فقلت له : عن قريب يحضر إن شاء الله ، ما شأنك؟ فقال : أخبرني عن أحواله ، هل جار على جسده الحكّة؟ قلت : نعم ، قال : هل جار عليه القمل؟ قلت : نعم ، قال : هل جار عليه النمل؟ قلت : نعم[676] ، فقال لي : إذا فرغ من هذه الثلاث دخل ديوان الصّالحين ، ثمّ انصرف / فلم أره بعد ، قال : وشأن النّمل معه غريب وذلك أنّه بقي يلتمّ[677] عليه من جميع جهات جسده حتّى صار جسده أسودًا بالنّمل ولا بقي شيء من جسده ظاهر ، فأقام على ذلك ثلاثة أيّام ثمّ ذهب عنه . [266/ب]

وقال أيضًا : جاءني الشَّيخ وأعطاني نصف ريال وقال : إحفظه عندك ، قال : فحفظته ، ثمّ بعد نحو عشرة أيّام جاءني رجلان عليهما لباس أهل طرابلس فسألاني عن الشيخ فقلت لهما : عن قريب يحضر (إن شاء الله)[678] قال : فبعد ساعة دخل الشَّيخ فنظر إليهما وسكت فلم يقدر منهما أحد على خطابه ، ثمّ بعد ساعة قال أحدهما : يا أخي والدتُنا تسلّم عليك ، فأعرض عنه ولم يخاطبه ، ثمّ قال : يا حاج محمود أين نصف الرِّيال؟ قال[679] : فأحضرته له ، قال : فخذ به خبزًا ، قال : ففعلت [فقطعه أطرافًا ، قال : ففعلت][680] ثمّ قال لهما : خذا هذا الخبز واعزما من حيث جئتما ، فاشتكوا إليه

674) كلمة عامية للشّيء الصّغير المكوّر ويقصد به عادة الصّغير من البطّيخ الأخضر المعروف في صفاقس بالدّلاّع.
675) في ط : «فلما».
676) ساقطة من ب وفي ط وت : «لا».
677) في ش : «يلتئم».
678) ما بين القوسين ساقط من بقية الأصول.
679) في ت : «قال حاضر».
680) إضافة من بقية الأصول.

بأنّ إبن عمّهما تغلّب عليهما وافتكّ لهما زاويتهما وسوانيها ، فقال لهما : قوما وضرب بيده في الهواء ثمّ قال : من هنا للبحر ، ولا تقيا لحظة واحدة ، فخرجا قال : ثمّ[681] بعد مدّة وإذا بمكتوب جاءني منهما فيه : يا حاج محمود إنّا خرجنا من عندكم للبحر ، فوجدنا سفينة مسافرة لجربة ، فلمّا ركبنا غلبتنا الرّيح فألجأتنا[682] لرأس المخبز / فنزلنا [267/أ] لطرابلس ، ووجدنا إبن عَمّنا مقطوع الظّهر لأنّه ركب حمارًا ، فسقط عنه ، فانقطع ظهره ، فسألنا عن السّاعة الّتي وقع عليه فيها فإذا هي الوقت الذي ضرب الشّيخ بيده في الهواء[683] والسّلام.

هذا ما حضرنا من إشاراته والأمر أوسع والإشارة تكفي ، وتوفّي – رحمه الله تعالى – سنة خمس ومائتين وألف[684] ، ودفن بجانب تربة القيّاد الجلاّلة[685] – رحمة الله عليهم وعلى أموات المسلمين أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين – .

خاتمة النّاسخ :

كمل «نزهة الأنظار في عجائب التّواريخ والأخبار» ، تأليف الشّيخ الإمام ، وقدوة الأنام ، ومجلي الظّلام ، عَلاّمة زمانه ، وفريد دهره وأوانه ، حامل قول التّحقيق ، ومالك أزمة التّوفيق ، قدوة الأفاضل ، ومجلي المعاضل ، بقيّة السّلف ، وعمدة الخلف ، شيخنا وأستاذنا ، وشيخ شيوخنا ، الحاج النّاسك الأبر أبو الثناء محمود مقديش ، الصّفاقسي أصلاً ووطنًا وقرارًا ، أسبل الله علينا وعليه جلابيب ستره بجاه سيّدنا محمّد ﷺ نبيّه وعبده ، ونسأل الله المنّان بفضله أن ينفع به من تسبّب فيه ومن كتبه وقرأه ، وأن يجعلنا من حزبه وأتباعه / وأن ينفعنا به وبأمثاله ، ورحم الله عبدًا قرأه ورأى فيه نقصًا أو تحريفًا [267/ب] أو زيادة أو غلطًا أو تقديمًا أو تأخيرًا فقلّ أن ينجو من ذلك لأنّ كاتبه قاصر عن ترتيب الكلام بمحالها فأصلحه ليحصل الثّواب للجميع ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ونعم المولى ونعم النّصير ، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم ، وصلّى الله على سيّدنا محمّد النبيء

681) في بقية الأصول : «ثم قال بعد مدّة».

682) في الأصول : «غلبنا الريح فألجانا».

683) في الأصول : «الهوى».

684) 1790 – 1791 م.

685) تربة آل الجلّولي توجد شمال المدينة. وقع نقلها منذ مدّة غير بعيدة.

المصطفى الكريم ، وعلى آله وأصحابه الطَّاهرين الطَّيِّبين ، وسلّم تسليمًا كثيرًا دائمًا إلى يوم الدّين ، ووافق الفراغ من نسخه من الأصل بخطّ المؤلّف – رضي الله عنه ونفعنا به – يوم الأربعاء ثاني عشر من شعبان سنة 1238[686] ثمان وثلاثين ومائتين وألف من الهجرة النّبويّة على صاحبها أفضل الصّلاة والسَّلام وأزكى التّحيّة. وآخر دعوانا أن الحمد لِلّه ربّ العالمين ، آمين ، آمين ، آمين.

كمـــــــل النسخُ وانقضا　　وفعلنـــــا الـــــذي وجب
رحم الله من قرا　　ودعـــــا للّـــــذي كتب

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد
وعلى آله وصحبه وسلّم
تسليمًا دائمًا أبدًا والحمد لِلّه
ربّ العالمين.

686) 1822 – 1823 م.

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقمها	السورة	الإحالة
﴿قُل اللّهمَّ مالكَ الملك تؤتِي الملك مَن تَشاء﴾	26	آل عمران	293/1 ، 479 ؛ 156/2
﴿أنّى لَكَ هٰذا﴾	37	آل عمران	232/2
﴿هو من عند الله﴾	37	آل عمران	232/2
﴿يا أهلَ الكِتاب تعالَوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبُدَ إلاّ الله﴾	64	آل عمران	21/2
﴿ومَنْ دخَلَهُ كانَ آمِنًا﴾	97	آل عمران	267/1
﴿هُمْ للكفر يومئذٍ أقرب منهم للإيمان﴾	167	آل عمران	264/1
﴿ولا تحسبَنَّ الذينَ قتلوا في سبيلِ الله أمواتًا بل أحياء عند ربِّهم يرزقون﴾	169	آل عمران	294/1
﴿حسبُنا الله ونِعْمَ الوَكيل﴾	173	آل عمران	285/1 ، 609 ، 627
﴿وإذ أخذَ اللهُ ميثاقَ الذينَ أُوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾	187	آل عمران	68/2
﴿إصبروا وصابِروا ورابطوا واتّقوا الله لعلّكم تفلَحُون﴾	200	آل عمران	75/2
﴿يا أيّها الذينَ آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأولي الأمر منكم﴾	59	النساء	308/2
﴿لا يستوي القاعِدُونَ مِنَ المؤمنينَ غير أولي الضرر والمجاهدون﴾	95	النساء	336/1
﴿وما يعدهم الشّيطان إلاّ غرورًا﴾	120	النساء	296/1
﴿فإنَّ حزبَ اللهَ هُمْ الغالِبُون﴾	56	المائدة	295/1
﴿فقطِعَ دابِرَ القَوْمِ الذينَ ظلموا والحَمْدُ لِلهِ ربِّ العالمين﴾	45	الأنعام	298/1 ؛ 79/2
﴿أو دَمًا مسفوحًا﴾	145	الأنعام	242/1
﴿حتّى يَحْكُمَ اللهُ وهو خَيْرُ الحاكمِين﴾ اقتباس	87	الأعراف	41/2
﴿كأنّما يُساقونَ إلى المَوْتِ وهُمْ يَنْظرون﴾	6	الأنفال	402/1
﴿وما رميتَ إذ رميت ولكنّ اللهَ رمَى﴾	17	الأنفال	45/2

الآية	رقمها	السورة	الإحالة
﴿وسيعلَمُ الكفّار لمن عقبى الدار﴾	42	الرعد	
﴿واستفتحوا وخابَ كلّ جبّار عنيد﴾	15	إبراهيم	202/1
﴿كشجرة طيّبةٍ أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذنِ ربها﴾	24 و25	إبراهيم	626/1
﴿لم أكن لأسجد لبشرٍ خلقته من صلصال من حمإٍ مسنون﴾	33	الحجر	447/2
﴿ادخلوها بسلامٍ آمنين﴾	46	الحجر	399/2
﴿فاسألوا أهلَ الذِكْرِ إنْ كُنْتُم لا تَعْلَمون﴾	43	النحل	369/1
﴿وكانَ ذلك في الكتابِ مَسْطوراً﴾ اقتباس	58	الاسراء	389/2
﴿لِئَنْ أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكنّ ذريته إلاّ قليلاً﴾	62	الاسراء	447/2
﴿وجاء الحق وزهق الباطل﴾ اقتباس	81	الاسراء	469/2
﴿فإذا جاء وعدُ ربّي جعله دكًّا وكان وعد ربّي حقًّا﴾	98	الكهف	113/1
﴿فتمثّل لها بشرًا سويًا﴾	17	مريم	239/2
﴿ورفعناه مكانًا عليًا﴾	57	مريم	176/1
﴿كلا سنكتب ما يقول ونمدّ له من العذابِ مدًّا﴾	79	مريم	295/1
﴿لقد جِئْتم شَيْئًا إدًا﴾	89	مريم	295/1
﴿تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هدًا﴾	90	مريم	295/1
﴿هل تحسّ منهم من أحد أو تسمع لَهُم ركزًا﴾	98	مريم	294/1
﴿وعجلت إليك ربّي لترضى﴾	84	طه	284/2
﴿ولعذاب الآخِرَةِ أشدُّ وأبقى﴾	127	طه	269/1؛ 53/2، 223، 227
﴿ذكر محدّث﴾ اقتباس	2	الأنبياء	465/2
﴿لو كان فيهما آلهةٌ إلاّ الله لفسدَتا﴾	22	الأنبياء	243/1
﴿ومَنْ يهنّ اللهَ فما لَهُ من مكرم﴾	18	الحج	327/2
﴿الذينَ إنْ مكّناهُم في الأرْضِ أقاموا الصلاةَ وأتوا الزكاةَ وأمروا بالمعروفِ ونَهوا			

الآية	رقمها	السورة	الإحالة
﴿وكفى الله المؤمنين القتالَ وكانَ اللهُ قويًّا عزيزًا﴾	25	الأحزاب	220/2، 228
﴿وردَ الله الذين كفروا بغيضهم لم ينالوا خَيْرًا﴾	25	الأحزاب	224/2، 227
﴿لقد كانَ لسبإٍ في مسكنهم﴾	15	سبأ	189/1
﴿ومزقناهم كل ممزّق﴾	19	سبأ	190/1
﴿إليه يصعد الكلم الطيّب والعملُ الصالح يرفعه﴾	10	فاطر	259/2
﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾	38	يٓس	49/1
﴿فسبحانَ الذي بيدِه ملكوت كلُّ شيءٍ وإليه ترجعون﴾ اقتباس	83	يٓس	536/1
﴿وقفوهم إنَّهم مسؤولون﴾	24	الصُافات	254/2
﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾	76	ص	447/2
﴿قُلْ اللهمّ فاطِر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون﴾	46	الزمر	293/1
﴿والحُكْم لِله العلي الكبير﴾ اقتباس	12	غافر	606/1
﴿وما دُعاء الكافرين إلاّ في ظِلال﴾	50	غافر	438/1
﴿فاليوم تجزون عذابَ الهون بما كنتم تستكبرون في الأرضِ بغير الحق وبما كنتم تفسقون﴾	20	الأحقاف	293/1
﴿أن تنصروا اللهَ ينصركم ويثبت أقدامكم﴾	7	محمد	362/2
﴿إنَّ الذين يبايعونك إنّما يبايعون الله﴾	10	الفتح	326/2
﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾	18	الفتح	170/1
﴿إنَّ بَعْضَ الظَنِّ إثْم﴾	12	الحجرات	388/1
﴿وجعلناكُم شعوبًا وقبائِل﴾	13	الحجرات	191/1
﴿إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركنّ بِاللهِ شَيْئًا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن﴾	12	الممتحنة	169/1، 170
﴿ومبَشّرًا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾	6	الصف	68/2
﴿ذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾	4	الجمعة	301/2

الآية	رقمها	السورة	الإحالة
﴿ومَن يتقِ الله يجعل له مخرجًا﴾	2	الطلاق	364/1
﴿يا لَيْتَها كانت القاضية﴾	27	الحاقة	289/2
﴿عالِمُ الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا	26		
إلاّ من ارتضى من رسول﴾	26، 27	الجن	238/2
﴿ولقاهم نضرة وسرورًا وجزاهم بما صبروا			
جنّة وحريرًا﴾	11، 12	الإنسان	83/2
﴿ويلٌ للمطففين الذين إذا اكتالوا			
على الناسِ يستوفون﴾	1، 2	المطففين	277/1
﴿يوم يقوم الناس لربٍّ العالَمين﴾	6	المطففين	277/1
﴿يا أيّتها النفس المطمئنّة ارجعي إلى ربّك راضية	27، 28		
مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنّتي﴾	29، 30	الفجر	404/2
﴿وأما بنعمة ربّك فحدِّث﴾	11	الضحى	288/2
﴿إنَّ مَع العُسْر يُسْرًا﴾	6	الشرح	356/2
﴿إذا فرغت فانصب وإلى ربِّك فارغب﴾	7، 8	الشرح	288/2
﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ مستوحاة	8	البيّنة	54/2
﴿قُل يا أيّها الكافرون لا أعبدُ ما تعبدون﴾	1، 2	الكافرون	294/1
﴿فما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ اقتباس	2	المسد	39/2
﴿ومن شرّ حاسد إذا حسد﴾	5	الفلق	327/2

فهرس الأحاديث النبوية

«ازهد ما في أيدي الناس يحبّك الناس وازهد في الدنيا يحبّك الله»، 429/2.

«إن ابني هذا سيّد يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»، 198/1.

«إن ما بين مصراعي باب الجنّة كما بين المشرق والمغرب»، 257/2.

«إنّ الملك الموكل بالبحر يضع رجله في البحر فيكون منه المدّ ثم يضع فيكون منه الجزر»، 48/1.

«ان يكنه فلن تسلّط عليه وإن لا يكنه فلا خير لك في قتله (في قضية ابن صيّاد)»، 122/2.

«بساحل قمونية باب من أبواب الجنّة يُقال له المنستير مَنْ دخله فيرحمه الله ومن خرج منه فيعفو الله عنه»، 500/1.

«بمدينة يُقال لها المنستير باب من أبواب الجنّة ينقطع الجهاد آخر الزمان من كل موضع فكأنّي أسمع خرير المحامل من مشارق الأرض ومغاربها إلى ساحل قمونية»، 500/1.

«خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح»، 192/1.

«الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكًا»، 198/1.

«الخلافة في قريش»، 171/1.

«طوبى لمن رآني ومن رأى من رآني ومن رأى من رأى من رآني»، 364/2.

«كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به»، 425/2.

«لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماءه زرع غيره يعني إتيان الحبالى من الفيء ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبي شيئًا حتى يستبرئها»، 220/1.

«لا يورد ممرض على مصح»، 217/2.

«اللهمّ اغفر له (أي عثمان بن عفّان) ما أقبل وما أدبر وما أخفى وما أعلن وما أسر وما أجهر»، 196/1.

«اللهمَّ من ولي أمرًا من أمور أمّتي فشقّ عليهم فاشقق اللهمّ به ومن ولي أمرًا من أمور أمّتي فرفق بهم فارفق اللهمّ به» ، 308/2 .

«ليبلغ الشاهد الغائب» ، 36/1 .

«مسخ بعض ذرية عاد نسانس» ، 180/1 .

«من أثنيتم عليه خيرًا فقد وجبت (الجنة)» ، 355/2 .

«من رابط بالمنستير ثلاثة أيام وجبت له الجنّة» ، 500/1 .

«من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار» ، 267/2 .

«من فتح له باب خير فلينتهزه فإنه لا يعلم متى يغلق دونه» ، 405/1 .

«من ولي القضاء فقد ذبح بغير سكّين» ، 377/2 .

«ويل لمن يخضب هذه بيده (يعني لحية علي بدم رأسه)» ، 123/2 .

«يحمل هذا الدين من كل خلف عدو له ينفون عنه تحريف الغالبين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين» ، 230/2 — 267 .

«يخرج من الجنّة أربعة أنهار ظاهران ونهران باطنان فالظاهران النيل والفرات والباطنان سيحون وجيحون» ، 307/1 .

«يركب ثبج هذا البحر أناس من أمتي ملوكًا على الأسرّة» ، 59/2 .

«يكون في آخر الزمان قوم يقال لهم الرافضة فإذا أدركتموهم فاقتلوهم فإنهم كفّار» ، 335/1 .

«ينزل أناس من أمّتي بغائط يسمّونه البصرة عند نهر يُقال له دجلة يكون عليه جسر يكثر أهلها ويكون من أمصار المسلمين ، فإذا كان في آخر الزمن جاء بنو قنطورا عراض الوجوه صغار الأعين حتى ينزلوا على النهر ، فيتفرق أهلها ثلاثًا ، فرقة يأخذون بأذناب البقر بالبرية فهلكوا ، وفرقة يأخذون لأنفسهم وهلكوا ، وفرقة يجعلون ذراريهم وراء ظهورهم ويقاتلونهم وهم الشهداء» ، 285/1 .

فهرس الأشعار

صدر البيت	القافية	البحر	الشاعر	الإحالة
سأضرب في بلاد الناس برًّا	الركاب	وافر	عبد الله الجبنياني	270/2
لا تظنن امرءًا أغضبه	السبب	رمل	عبد الله العطّار	196/2
فلو كان هذا البيت لله ربّنا	صبّا	طويل	أبو طاهر القرمطي	268/1
وهو ابن عدنان وأهل النسب	الكتب	رجز	زين الدين العراقي	192/1
قف كي ترى مغرب شمس الضحى	المغرب	منسرح	ابن الخطيب	586/1
صفاقس لا صفا عيش لساكنها	انسكبا	بسيط	محمد بن سليمان	190/2
إذا رمت ادراك العلا فاسلك الصعبا	رهبا	طويل	ابراهيم الخرّاط	421/2
رأيت العلم علمين	مكسوب	هزج	——	396/2
فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله	الحقائب	طويل	——	182/2
فهذا الذي قد كان يعبد ربّه	خلواته	طويل	——	462/2
تذكرت عهدًا من ليال تقضّت	ولّت	طويل	محمد بن المؤدب الشرقي	441/2
إنّما الدنيا كبيت	العنكبوت	مجزؤ الرمل	——	463/2
انظر إلى الزرع وخاماته	الرياح	سريع	القاضي عياض	465/1
اهنأ أمير المؤمنين ببيعة	الاسعاد	كامل	——	551/1
إلاهي سألتك بالمصطفى	المعاد	متقارب	أحمد الشرفي	415/2
حمدًا لمن زان الوجود بعصبه	وقاده	كامل	محمد سعادة	435/2
وبان في الأندلس الفساد	البلاد	رجز	ابن الخطيب	537/1
إذا لم يكن عون من الله للفتى	اجتهاده	كامل	——	153/2
يا سيّدًا ساد الأنام بفضله	زياده	كامل	علي الغراب	434/2
مالي بلاد ولا استطرفت من نشب	أحد	بسيط	أبو إسحاق الجبنياني	256/2
أمن ذكر من تهوى اعتراك سهود	وقود	طويل	الإمام البقاعي	14/2

صدر البيت	القافية	البحر	الشاعر	الإحالة
ألا قل لمن قد ضلّ عن طرق الهدى	حيدًا	طويل	محمد بن المؤدب الشرفي	364/2
يا آل مروان إن الله مهلككم	تشريدا	بسيط	أبو العبّاس السفّاح	241/1
تهددني بجبار عنيد	عنيد	وافر	الوليد بن يزيد	202/1
وقفت تنشد رسم الدار محترقًا	الخبر	بسيط	——	612/1
آثاره تنبيك عن أخباره	تراه	وافر	——	461/1
إلى كم أنت في بحر من الخطايا	تراه	وافر	أبي إسحاق الجبنياني	257/2
سعد الزمان وأشرقت أنواره	آثاره	كامل	محمد بن المؤدب الشرفي	391/2
أنت العلي وأنت الخالق الباري	أسراري	بسيط	اللبيدي	272/2
إذا أراد الله أمرًا بامرئ	بصر	رجز	——	160/2
فألقت عصاها واستقرّ بها النوى	المسافر	كامل	——	568/1
وبعد ثنائي بالجميل تأسيًا	يقرى	طويل	محمد الفرياني	442/2
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا	سامر	طويل	مضاض بن عمرو الجرهمي	183/1
احذر عدوك مرة	مرة	مجزوء الكامل	——	203/1
هذا الضريح المشتهر	عمر	مجزوء الرجز	ابراهيم الخراط	228/2
أبوكم قصي كان يدعى مجمعًا	فهر	طويل	——	184/1
أصوت صاعقة أم نفحة الصور	ناقور	بسيط	أبو السعود أفندي	54/2
يا واحد العرب الذي	نظير	مجزوء الكامل	ابن المولى	321/1
بشائر في الإسلام زاد بها عزًا	رجزًا	طويل	علي ذويب	431/2
أدرك بخيلك خيل الله أندلسًا	اندرسا	بسيط	ابن الآبّار	548/1
لله درّك يا فخر الملوك ومن	ملتمسا	بسيط	محمد بن المؤدب الشرفي	392/2
لا تلمني على الدناءة	سوسة	خفيف	——	192/2
كان الخلائق قبل في مراكش	خالصة	كامل	عبد الله الفرياني	281/2
علي بمن أهوى حديث الشفا قصوا	نصوا	طويل	ابراهيم الخرّاط	402/2
خذ من فنون العلم كل عويص	رخيص	كامل	علي الغراب	426/2
وهبت له ستين عامًا وثلثها	نارتضى	طويل	حسن الشرفي	400/2
وهبت له ثلثا من العمر كاملاً	فأعرضا	طويل	——	399/2
حثوا رواحلكم يا أهل أندلس	الغلط	بسيط	ابن العسّال الطليطلي	429/1
زعم الفرزدق أن سيقتل مربعًا	مربع	كامل	جرير	196/2
ونحن قتلنا سيّد الحي عنوة	موجع	طويل	——	182/1

صدر البيت	القافية	البحر	الشاعر	الإحالة
هيجوا للبين برقًا فلمع	فاندفع	رمل	عمر القمودي	275/2
إنّا سمعنا نسبًا منكرًا	الجامع	رجز	——	340/1
ألا إن مالاً كان من غير حله	جامعه	طويل	——	45/2
هلال تبدّى في علا الأفق ساطع	لامع	طويل	——	277/2
أيا ذا الذي أضحى طراز المعارف	العوارف	طويل	علي ذويب	417/2
غزا حمانا العدو في عدد	النغف	منسرح	علي بن محمد الحدّاد	381/1
وقد كان العراق له اضطراب	ثقيف	وافر	——	518/1
بالظلم والجور قد رضينا	الحماقة	مخلع البسيط	——	339/1
قضى الله أن يفنى عداك وأن تبقى	الشرقا	طويل	أبو الصلت	197/2
وفيك صاحبت قومًا لا خلاق لهم	خلقوا	بسيط	——	376/1
لا يألف الدرهم المألوف صرته	منطلق	بسيط	أحمد المراكشي	442/2
أسفًا على مراكش وولاتها	رونق	كامل	عبد الله الفرياني	281/2
قالوا تزندق عبد الحق قلت لهم	زنديقا	بسيط	——	464/1
ته يا صفاقس وافتخر طول المدى	مثاله	كامل	أبي الحسن الغراب	177/2
ثلاثة آلاف لنا غلبت له	نكال	طويل	علي بن زرق الرياحي	377/1
الحمد والشكر له تعالى	السيالة	رجز	محمد الخميري	216/2
إن كان أعجبكم عامكم	القابل	متقارب	المتنبي	195/2
أيا لأئمي فيما الملامة والعذل	يخلو	طويل	محمد بن المؤدب الشرفي	384/2
سقيا لأرض صفاقس	المصلّى	مجزوء الكامل	علي بن حبيب التنوخي	190/2
إليك قصرنا النصف من صلواتنا	نواصله	طويل	المشهر التميمي	321/1
فقلت لهم لا تنسوا الفضل بينكم	الفضل	طويل	——	37/1
كأن كانون أهدى من ملابسه	الحلل	بسيط	القاضي عياض	465/1
محقق علم ثابت متلطف	عامل	طويل	محمد المراكشي	340/2
بشراك بالنجل السعيد الفاضل	الكامل	كامل	علي الغراب	428/2
وقائلة أرى الأيام ولّت	الذبول	وافر	محمد بن المؤدب الشرفي	392/2
سلوا أهواك عين المستحيل	العذول	وافر	ابراهيم الخرّاط	182/2
ستعلم ان شطت به غربة النوى	زائل	طويل	قيس ابن ذريح	196/2
لمثلك ما يقال ولا مثيل	الجميل	وافر	ابن أبي دينار الرعيني	393/2
أرى بين الرماد وميض نار	ضرام	وافر	نصر بن سيار	240/1

صدر البيت	القافية	البحر	الشاعر	الإحالة
وما أنا منهم بالعيش فيهم	رغام		——	462/1
ولا كتب إلا المشرفية عنده	العرمرم	طويل	المتنبي	437/1
وان يكن مطالبًا من يتهم	حكم	رجز	ابن عاصم	448/2
اسق العطاشى تكرمًا	الضما	مجزوء الكامل	——	330/2
إذا غامرت في شرف مروم	النجوم	وافر	المتنبي	461/1
هذا الضريح قد حوى	عظيم	مجزوء الكامل	أحمد الشرفي	397/2
أنا بالله وبالله أنا	أنا	الرمل	أبو طاهر القرمطي	267/1
ريب المنون من البرية دان	يدان	كامل	علي دويب	405/2
الزم لسانك والتزم	الصيانة	مجزوء الكامل	أبو طالب محمد بن عبد الله الأنصاري	377/1
كم قد دفنت وكم أقبرت عندكم	الكفن	بسيط	المتنبي	195/2
رام أمر الفتح قوم أولون	آخرون	رمل	——	28/2
الهناء يا أمير المؤمنين	الصالحين	رمل	حسن الشرفي	399/2
أتتنا بناتك يرفلن في	زينة	متقارب	——	274/2
خطبتم بناتي فأرسلتهن	زينة	متقارب	ابن الضابط	274/2
ناصح قد كان فينا ناصحًا	البنين	رمل	علي بن محمد الإشبيلي	517/1
علمت العلوم وعلمتها	حزتها	متقارب	ابن عرفة تشطير الأبي	593/1
إذا ما عدوك يومًا سما	نقضها	متقارب	ابن الضابط	273/2
ستعلم ليلى أي دين تداينت	غريمها	طويل	——	195/2
لمنزلة الفقيه من السفيه	الفقيه	وافر	سحنون بن سعيد	245/2
رأى يحيى إمام الحق يأتي	إليه	وافر	حمادي المالقي	516/1
عداتي لهم فضل علي ومنّة	الأعاديا	طويل	أبو حيّان الأندلسي	572/1
ما هزّ عطفية بين البيض والأسل	بن علي	بسيط	عبد الله التيفاشي	498/1
وعين الرضا عن كل عيب كليلة	المساويا	طويل	——	37/1

فهرس الأعلام

— ب —

- ت -

- ج -

- ح -

- خ -

— د —

— ذ —

— س —

– ش –

– ص –

— ض —

— ط —

- غ -

- ف -

— ك —

— ل —

- م -

— ن —

— هـ —

— و —

— ي —

فهرس أسماء البلدان والأماكن

— أ —

— ب —

— ت —

— ث —

— ج —

- ح -

- خ -

- د -

— ذ —

— ر —

— ز —

— س —

- ش -

- ص -

- ض -

- ط -

– ع –

- غ -

- ف -

- ق -

— ك —

— ل —

- م -

— ن —

- هـ -

- و -

— ي —

فهرس أسماء القبائل والطوائف

— ب —

— ت —

- ث -

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

- ذ -

- ر -

– ز –

– س –

- غ -

- ف -

- ق -

– و –

– ي –

فهرس أسماء الكتب المذكورة في النص

- خ -

- د -

- ذ -

- ر -

- ز -

- س -

- ش -

— ص —

— م —

— ن —

فهرس المصادر والمراجع

• المصادر والمراجع العربية

— أ —

إتحاف أهل الزّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان: أحمد بن أبي الضياف، تحقيق لجنة من كتابة الدّولة للشّؤون الثّقافيّة والأخبار، نشر كتابة الدّولة للشّؤون الثّقافية والأخبار، تونس، 1963.

الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا: عزيز سامح، ترجمة عبد السّلام أدهم، بيروت، 1969.

إتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمّة الفاطميين الخلفاء: المقريزي، تحقيق د. جمال الدّين الشيال، القاهرة، 1967.

أنباء الغمر في أنباء أبناء العمر: إبن حجر العسقلاني، النّسخة المطبوعة.

آثار البلاد وأخبار العباد: زكرياء بن محمّد القزويني، بيروت، 1960.

الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل: محي الدّين الحنبلي، دار الجيل، لبنان، 1973.

إحياء التّذكرة في النّباتات الطّبيّة والمفردات العطارية: رمزي مفتاح، القاهرة، 1953.

أخبار القضاة: محمد بن خلف بن حيان المعروف بوكيع، تحقيق عبد العزيز مصطفى المراغي، القاهرة، 1947 – 1950.

أخبار مكّة: الأزرقي، مكتبة خيّاط، بيروت – لبنان، 1964.

الأدلّة البيّنة النورانية عن مفاخر الدّولة الحفصية: إبن الشماع، تعليق عثمان الكعّاك، مطبعة العرب، تونس، 1355 / 1936.

الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى: أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الدّار البيضاء، 1964.

أطلس التاريخ الإسلامي: مازارد، ط. 2، آذار 1956.

الإعلام بأعلام بيت الله الحرام: قطب الدين النهروالي، ضمن الجزء الثالث من كتاب أخبار مكّة للأزرقي، مكتبة خيّاط، بيروت – لبنان، 1964.

الإعلام: خير الدّين الزركلي، الطّبعة الخامسة، دار العلم للملايين، بيروت، 1980.

إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: محمّد راغب الطباخ، حلب، 1342 هـ.

أعمال الإعلام في من بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام: لسان الدين إبن الخطيب، تحقيق وتعليق أ. ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت.

– ب –

البحرية في مصر الإسلامية: سعاد ماهر، دار الكتاب العربي للطّباعة والنّشر.

البداية والنهاية: إبن كثير، مصر، 1351 – 1358 هـ / 1932 – 1939.

برج غازي مصطفى بجربة: رشيد غريب، المجلّة التّاريخية المغربية، عدد 4، 1975.

برنامج الوادي آشي: محمّد بن جابر، تحقيق محمّد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، أثينا، بيروت، الطّبعة الأولى، 1980/1400.

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: جلال الدّين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1964 – 1965.

البلغة في تاريخ أئمة اللغة: الفيروز آبادي، تحقيق محمّد المصري، دمشق، 1972.

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: إبن عذاري المراكشي، تحقيق ج. س. كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت – لبنان، 4 أجزاء.

– ت –

التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول: الشيخ منصور علي ناصف، دار إحياء التّراث العربي، بيروت.

تاج العروس من جواهر القاموس: محمد مرتضى الزّبيدي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان.

تاريخ الأدب الجغرافي العربي: أ. ي. كراتشكوفسكي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، الإدارة الثقافية في جامعة الدّول العربية، 1957.

تاريخ الإسلام: حسن إبراهيم حسن، القاهرة، 1953.

تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير الأعلام: الذهبي، مكتبة القدسي، القاهرة (ب. د. ت.).

تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين: يوسف الشباح، ترجمة محمد عبد الله عينان، القاهرة، 1941.

تاريخ التراث العربي: فؤاد سزكين، ترجمة محمد فهمي أبو الفضل، القاهرة، 1970.

تاريخ الجزائر العام: عبد الرحمان محمد الجيلالي، الجزائر، 1955.

تاريخ حاضرة قسنطينة: الحاج أحمد المبارك، الجزائر.

تاريخ الخلفاء: جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1952.

تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب (القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار): الداعي إدريس عماد الدّين، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ط. 1، 1985.

تاريخ الدولة العلية العثمانية: محمد فريد بك المحامي، تحقيق د. إحسان حقي، دار النفائس، الطّبعة الأولى، 1981.

تاريخ الدولتين: محمد بن إبراهيم الزركشي، تحقيق محمد ماضور، نشر المكتبة العتيقة، تونس، 1966.

تاريخ الشعوب الإسلامية: بروكلمان، دار العلم للملايين، بيروت، 1948.

تاريخ صفاقس: أبو بكر عبد الكافي، منشورات التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس، 1966.

تاريخ الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت.

تاريخ طرابلس: د. عمر عبد السّلام تدمري، مؤسّسة الرّسالة ودار الإيمان للطّباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، 1984.

تاريخ عجائب الأخبار في التراجم والأخبار: الشّيخ عبد الرحمان الجبرتي، ط. 2، دار الجيل بيروت، 1978، 3 أجزاء.

تاريخ اليعقوبي: دار بيروت 1970، جزءان.

تتمّة المختصر في أخبار البشر: زين الدّين عمر بن الوردي، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، بيروت، 1970.

تحفة الأريب في الرّدّ على أهل الصّليب: عبد الرّحمان التّرجمان، القاهرة.
التّذكار لمن ملك طرابلس الغرب وما كان بها من الأخبار: إبن غلبون المصراتي، مصر، 1339 هـ.
تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب: داود بن عمر الأنطاكي، مصر، 1959/1371.
تذكرة الحفاظ: الذهبي، حيدر آباد، 1333 – 1334 هـ.
تراجم المؤلفين التونسيين: محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ج. 1: 1982، ج. 2: 1982، ج. 3: 1984، ج. 4: 1985، ج. 5: 1986.
ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك: القاضي عياض، تحقيق د. أحمد بكير محمود، بيروت، 1967.
تقريب التهذيب: إبن حجر العسقلاني، دار المعرفة، ط. 2، بيروت، 1975.
تكميل الصّلحاء والأعيان لمعالم الإيمان: محمّد بن صالح عيسى الكناني، تحقيق محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، 1970.
التنبيه والايقاظ لما في ذيول تذكرة الحفاظ: أحمد رافع الطهطاوي، دمشق، 1348 هـ.
التّوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنكية والقبطية: محمد مختار باشا، تحقيق محمد عمارة، ج. 1، 2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980/1400.

– ج –

جامع كرامات الأولياء: يوسف النبهاني، مصر، 1329، القاهرة، 1962/1381.
الجامع للأصول: إبن الأثير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، نسخة مصورة طبعة القاهرة.
جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس: الحميدي، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة، 1952/1372.

– ح –

حاشية محمد بن عليان المرزوقي المطبوعة مع الكشاف للزمخشري.
الحروب الصليبية في المشرق والمغرب: محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي.
حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة: جلال الدّين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دا إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1967 – 1968.

الحقيقة التاريخية للتّصوف الإسلامي : محمد بهلي النيال.

حلّ الرموز (خط.) : لتونسي مجهول.

الحلل السّندسيّة في الأخبار التونسية : الوزير السّراج ، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة ، دار الغرب الإسلامي ، 1984 ، 3 أجزاء.

حلية الأولياء : أبي نعيم الأصبهاني.

حوليات ليبية : ترجمة محمد عبد الكريم الوافي ، دار الفرجاني ، طرابلس – ليبيا.

حياة الحيوان الكبرى : الدميري ، مصر ، 1356 هـ / 1937.

– خ –

خريدة العجائب وفريدة الغرائب : عمر بن الوردي ، مصر ، بلا تاريخ.

الخطط المقريزية : أحمد بن علي المقريزي ، دار صادر بيروت ، ط. أوفسيت عن النسخة القديمة ، جزءان.

الخلاصة النقية : الباجي المسعودي ، تونس.

– د –

دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة العربية : إبراهيم زكي خورشيد ، أحمد الشنتناوي ، عبد الحميد يونس ، مؤسسة دار الشعب للنشر ، القاهرة ، 1969 ، الطبعة الثانية.

درة الحجال في أسماء الرجال : أحمد بن القاضي ، تحقيق محمد الأحمدي أبو النّور ، مصر ، 1390 – 1394 / 1970 – 1974.

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة : إبن حجر العسقلاني ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، القاهرة ، 1385 – 1387 / 1966 – 1967.

دول الإسلام في التاريخ : شمس الدين الذهبي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت – لبنان ، 1985.

الدّول الأغلبية : محمد الطالبي ، ترجمة المنجي الصيادي ، دار الغرب الإسلامي ، 1985.

الدّيباج المذهّب في معرفة أعيان المذهب : إبراهيم بن فرحون ، مصر ، 1351.

ديوان علي الغراب الصفاقسي : تحقيق وتقديم محمد الهادي الطاهر المطوي وعمر بن سالم ، الدّار التّونسية للنّشر ، 1973.

ديوان المتنبّي (دار صادر بيروت).
ديوان محمّد الشّرفي الصّفاقسي: تحقيق وتقديم محمّد محفوظ، الدّار التّونسية للنّشر، تونس، 1979.

– ذ –

ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان: حسين خوجة، تحقيق وتقديم الطاهر المعموري، الدّار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، 1395 – 1975.

– ر –

رحلة التّجاني: أبي عبد الله بن محمد التجاني، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، المطبعة الرسمية، تونس، 1958.
رحلة العبدري: محمد بن محمد العبدري الحيحي، تحقيق محمد الفاسي، الرباط، (ب. د. ت.).
الرّحلة العياشية: أبي سالم عبد الله العياشي، ط. 2 مصورة بالأوفسات، الرباط، 1977.
الرّوض المعطار في خبر الأقطار: محمد بن عبد المؤمن الحميري، تحقيق د. إحسان عباس، مكتبة لبنان، 1975.
رياض النفوس: المالكي، تحقيق البشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، 1983.

– ز –

زهر الرّبيع: إبراهيم الخرّاط، مخطوط السّيّد أحمد الجلّولي.

– س –

سياسة حمّودة باشا: رشاد الإمام، منشورات الجامعة التّونسية، 1980.
السيرة النبوية: إبن هشام، ط. 1، دار الجيل، بيروت.

– ش –

شجرة النّور الزّكيّة في طبقات المالكية: محمّد مخلوف، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان.
شذرات الذهب في أخبار من ذهب: عبد الحي بن العماد الحنبلي، القاهرة، 1350 – 1351 هـ.
الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية: طاش كبرى زادة، دار الكتاب العربي، بيروت، 1975/1395.

– ص –

صحيح مسلم (شرح الأبي) ط. السعادة.
صفاقس: علي الزواري، دار الجنوب للنشر، تونس، 1982.
صفاقس في القرن السّادس عشر: علي الزواري، مقالة بمجلّة القلم عدد 2، صفاقس، 1974.
الصّلة في تاريخ أئمة الأندلس ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم: أبو القاسم بن بشكوال، نشر وتصحيح عزت العطار الحسيني، القاهرة، 1955.
صورة الأرض: إبن حوقل، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان، 1979.

– ض –

الضوء اللاّمع: السخاوي، مكتبة القدسي، القاهرة، 1353 – 1355 هـ.

– ط –

طبقات الحفاظ: جلال الدّين السيوطي، تحقيق علي محمد عمر، القاهرة، 1973.
طبقات الشّافعية الكبرى: تاج الدّين السّبكي، مصر، 1324 هـ.
طبقات الشّافعية: جمال الدّين عبد الرّحيم الأسنوي، تحقيق عبد الله الجبوري، بغداد، 1970 – 1971.
طبقات علماء إفريقية: الخشني، القاهرة، 1372 – 1952.
الطّبقات الكبرى: الشعراني، مصر، 1925/1343.
طبقات المفسرين: الداودي، تحقيق علي محمد عمر، القاهرة، 1972.

طبقات النحاة واللغويين: إبن قاضي شبهة، تحقيق د. محسن غياض النجب، 1974.
طرابلس الغرب: محمد ناجي ومحمد نوري.

- ع -

العبر في خبر من غبر: الذهبي، تحقيق د. صلاح الدين المنجد وفؤاد سيد، الكويت، 1960 – 1966.
عجائب المخلوقات: القزويني، منشورات دار الآفاق الجديدة، تحقيق فاروق سعد، الطبعة الثانية، بيروت، 1967.
عجائب المقدور في أخبار تيمور: إبن عرب شاه.
العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بآلات الحروب والمدافع: آرباش، مخطوط.
العقد المنظوم في ذكر أفاضل الرّوم: علي بن لالا بالي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1975.
عنوان الأريب عمّا نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب: محمد النيفر، تونس، 1351 هـ.
عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية: أحمد الغبريني، تحقيق رابح بونار، الجزائر، 1970.
عون المعبود شرح سنن أبي داود: أبو الطيّب شمس الحق العظيم آبادي، القاهرة، ط. 2، 1969/1388، نشر المكتبة السلفية بالمدينة المنوّرة.

- غ -

غاية النهاية في طبقات القراء أولي الدراية: إبن الجزري، القاهرة، 1932 – 1933.

- ف -

الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية: إبن قنفذ القسنطيني، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، تونس، 1968.
فتح الباري: إبن حجر العسقلاني، المطبعة السلفية، مصر.
الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي: محمد الحجوي.
فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات: الشيخ عبد الحي الكتاني، بيروت.
فيض القدير شرح الجامع الصغير: محمد عبد الرؤوف المناوي، القاهرة، 1938.

– ق –

القاموس المحيط : الفيروز آبادي ، مط . السعادة بمصر.

القرآن الكريم .

قصص الأنبياء : إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي ، ط . محمد أفندي مصطفى ، مصر ، 1884 .

– ك –

الكامل في التاريخ : إبن الأثير ، مصر ، دار صادر ، بيروت ، 1965/1385 .

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: عبد الرحمان إبن خلدون ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1970 ، 7 أجزاء .

كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (جزء من المسالك والممالك) : عبد الله البكري ، تحقيق دي سلان ، باريس ، 1965 .

كشف الرّموز: عبد الرزاق بن أحمدوش ، الجزائر ، 1347 – 1928 .

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: حاجي خليفة ، استانبول ، 1941 – 1943 .

– ل –

اللباب في تهذيب الأنساب : إبن الأثير ، القاهرة ، 1356 – 1369 هـ .

ليبيا منذ الفتح العربي : أتوري روسي ، تعريب خليفة محمد التليسي ، بيروت ، 1974 .

– م –

مؤنس الأحبّة في أخبار جربة : محمد أبو راس الجربي ، تحقيق محمد المرزوقي ، المطبعة الرسمية ، 1960 .

المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس : أبو عبد الله محمد الرعيني (ابن أبي دينار) ، تحقيق محمد شمام ، المكتبة العتيقة ، تونس ، 1967 .

المختصر في أخبار البشر: أبو الفداء ، ط . أولى ، مصر بدون تاريخ .

المدونة : سحنون بن سعيد ، طبع الخشاب ، القاهرة .

مرآة الجنان وعبرة اليقظان: اليافعي ، حيدر آباد الدكن ، 1337 – 1339 هـ.

مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع: عبد المؤمن بن عبد الحق ، تحقيق محمد علي البجاوي ، القاهرة ، 1954.

مرثية للشيخ طيب الشرفي في تقريراته على حاشية الشيخ يوسف الحفناوي علي الأشموني: علي ذويب ، مكتبة الشيخ النوري بالمكتبة الوطنية ، تونس ، عدد 20175.

المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا: النباهي المالقي ، تحقيق ا . ليفي بروفنسال ، القاهرة ، 1948.

مروج الذهب: المسعودي ، ط . مصر ، 1948/1367 ، 4 أجزاء.

المستدرك على معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1985/1406.

مستفاد الرّحلة والإغتراب: أبو القاسم بن يوسف التجيبي السبتي ، تحقيق عبد الحفيظ منصور ، تونس ، 1975/1395.

مسند سنن إبن ماجة: تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، 1972/1352.

المشتبه في أسماء الرجال وأنسابهم: الذهبي ، تحقيق محمد علي البجاوي ، القاهرة ، 1962.

معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان: الدباغ ، تحقيق محمد ماضور ، المكتبة العتيقة بتونس ، مكتبة الخانجي بمصر ، 1978.

معالم التنزيل: البغوي ، مصر بدون تاريخ.

المعجب في تلخيص أخبار المغرب: عبد الواحد المراكشي ، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ، 1949.

معجم البلدان: ياقوت الحموي ، دار صادر للطباعة والنشر ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، 1979.

معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة ، دمشق ، 1957 – 1961.

المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، جزء من نزهة المشتاق : الشّريف الإدريسي ، ليدن ، مطبعة بريل ، 1968.

مناقب أبي إسحاق الجبنياني: اللبيدي ، تحقيق هادي روجي إدريس ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الجزائر ، 1959.

المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب: أحمد النائب ، مكتبة الفرجاني ، ليبيا ، ط . 2.

الموسوعة العربية الميسرة ، دار القلم ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بإشراف محمد شفيق غربال.

— ن —

النجوم الزاهرة : إبن تغري بردي ، القاهرة .

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق : الشريف الإدريسي ، (ط . ليدن 1968) ، أنظر المغرب وأرض السودان .

نظام العزابة عند الأباضية الوهبية في جربة : فرحات الجعبيري ، تونس ، 1975 .

نظم العقيان : السيوطي ، نيويورك ، 1927 .

نفح الطيب : المقري ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1968 .

نكت الهميان على نكت العميان : صلاح الدين الصفدي ، تحقيق أحمد زكي باشا ، مصر ، 1911 .

النهاية في غريب الحديث والأثر : الإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري إبن الأثير ، تحقيق محمود الطناحي .

نيل الإبتهاج بتطريز الديباج : أحمد بابا التنبكتي ، مصر ، 1351 هـ .

— هـ —

هدى الساري لفتح الباري ، مقدمة شرح صحيح البخاري : إبن حجر العسقلاني ، بولاق مصر ، 1301 هـ .

هدية العارفين : إسماعيل باشا البغدادي ، استنبول ، 1951 — 1955 .

— و —

وثائق متحف الفنون والتقاليد الشعبية بصفاقس .

الوفيات : إبن قنفذ القسنطيني ، تحقيق هنري بيريس ، ط . مصر .

وفيات الأعيان : إبن خلكان ، تحقيق إحسان عبّاس ، دار صادر بيروت ، مطبعة الغريب .

• المراجع الأعجمية

Abdesselem A.: *Les Historiens tunisiens des XVII^e^, XVIII^e^, XIX^e^ siècles*, Paris, 1973.

Bachrouch F.: *Formation Barbaresque et pouvoir à Tunis au XVII^e^ siècle*, Tunis, 1977.

Bou Yahia Ch.: «La vie littéraire en Ifriqiya sous les Zirides», *S.T.D.*, Tunis 1972.

Bréthier L.: *Vie et mort de Byzance*, Paris, 1947.

Braudel F.: *La Méditerranée et le Monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, Seconde édition, Paris, 1962, 2 vol.

Brunschvig R.: *La Berberie orientale sous les Hafsides*, Paris, 1947, 2 vol.

Cherif M. H.: *Pouvoir et Sociétés dans la Tunisie de Husayn bin Ali 1705–1740*, Tunis 1984, T 1.

Dachraoui F.: «Le Califat fatimide au Maghreb», *S.T.D.*, Tunis, 1981.

Daoulatli A.: *Tunis sous les Hafsides*, Tunis, 1976.

Dozy R.: *Suppléments aux dictionnaires arabes*, Beyrouth, 1968. (Reproduction de l'édition originale de Leyde, E.J. Brill, 1881), 2 vol.

Encyclopedie de l'Islam:

1re édition, Leyde, Paris, 1908–1942, 4 vol.

2e édition, Leyde, Paris, publication à partir de 1954.

Feraud Ch.: *Annales Tripolitaines*, Tunis, Paris, 1927.

Grandchamp P.: *Documents relatifs aux corsaires tunisiens*, Tunis, 1925.

Idriss H. R.: *La berberie orientale sous les Zirides X^e^–XI^e^ siècles*, Paris, 1962.
—, *Les Manaqib de Tunis*, 1956.

Julien Ch. A.: *Histoire de l'Afrique du Nord*, Payot, Paris, 1961, 2 vol.

Louis A.: *Les Iles Kerkena*, Tunis, 1961, 1963, 2 vol.

Louis A. et Combes: *Les potiers de Jerba*, Tunis, 1967.

Marçais: *Manuel d'Art musulman*, Paris, 1926–1927.

Masmoudi M.: «L'habitation traditionnelle dans la banlieue de Sfax», in *Cahiers des A.T.P.*, n° 1, 1968.

Nallino: *Venezia E Sfax Nel Secolo XVIII, second il crouista arabo Maqdīsh,* in centenaire d'Amari.

Plantet E.: *Correspondances des Beys de Tunis et des Consuls de france avec le cour 1577 – 1830*, Paris, 1893, 2 vol.

Rousseau A.: *Les Annales tunisiennes,* editions Bouslama, Tunis.

Seghir ben Youssef M.: *Chronique tunisienne,* editions Bouslama, Tunis.

Sghair N.: *Temps et espace chez Maqdīš Thèse de 3e cycle*, dact. Soutenue à la Sorbonne en 1983 – 1984.

Talbi M.: *L'Emirat Aghlabide*, Paris, 1966.

Valensi L.: *Fellahs tunisiens*, Mouton, Paris, La Haye, 1977.

Zouari A.: *Les relations commerciales entre Sfax et le Levant aux XVIIIe et XIXe siècles.* Thèse de 3e cycle soutenu devant la faculté des lettres, Aix-en-Provence, 1977, dact.

فهرس المواضيع

الفهارس العامّة

الصفحة



دار الغرب الإسلامي
بيروت - لبنان
لصاحبها: الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود
تلفون : 340131 - 340132 - ص . ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.:113-5787 - Beyrouth - Liban

الرقم 1988/10/3000/126

التنضيد : مؤسسة الخدمات الطباعية (حسيب درغام وأبناؤه)

الطباعة : مؤسسة جواد للطباعة والتصوير

MAḤMŪD MAQDĪŠ

Nuzhat al-anẓār fī ᶜaǧāʾib at-tawāriḫ wa-l-ʾaḫbār

EDITION CRITIQUE

PAR

ALI ZOUARI • MOHAMED MAHFOUDH

VOLUME SECOND



DAR AL-GHARB AL-'ISLAMI